

226 | مكتبة

ماريا كورانت

قطنا

رواية تاريخية من عصر إفتاتون

ترجمة: د. نبيل الحفار



قَطْنَا

رواية تاريخية من عصر إخناتون

للمزيد والجديد من الكتب والروايات

تابعوا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf

ماريا كورانت
Maria Courant

قَطْنَا

رواية تاريخية من عصر إخناتون

ترجمها عن الألمانية:

د. نبيل الحفار

قَطْنَا - رواية تاريخية من عصر إختاتون

تأليف: ماريا كورانت

ترجمها عن الألمانية: د. نبيل الحفار

الإخراج الفني: فايز علام

تصميم الغلاف: مناف عزام

الطبعة الأولى - 2017

ISBN: 978-9953-583-88-4

Originally published in German as: «Qatna»

© Maria Courant, 2009

الناشران:

أطلس للنشر والترجمة والإنتاج الثقافي

ش.م.م

الحمرا - الشارع الرئيسي - بناء رسامني

ص.ب: 6435 / 113 بيروت - لبنان

هاتف: +961 3 886423

فاكس: +961 1 750053

البريد الإلكتروني:

atlasbooks@gmail.com

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: 9838

هاتف-فاكس: +963 11 6133856

جوال: +971557195187

البريد الإلكتروني:

addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني:

addar.mamdouhadwan.net

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن آراء الناشر.



The translation of this work was supported by a grant from the Goethe-Institute, which is funded by the German Ministry of Foreign Affairs.



تم إصدار هذا الكتاب بمساعدة منحة تقدم بها برنامج
«أضواء على حقوق النشر» في أبوظبي

This edition has been produced with a subsidy by the *Spotlight on Rights* program in Abu Dhabi

مشروع رواية «قطنا»

في عام 2002 اكتشف خبير الشرق الأدنى القديم البروفسور بيتر بفلتسنر Peter Pfälzner أثناء أعمال التنقيب في موقع مدينة قطنا (التي تعود إلى العصر البرونزي، وهي عاصمة مملكة ومركز تجاري واسع تقع على مسافة 10 كم شمال شرق مدينة حمص في سورية) المدفن الملكي السري تحت قصر المملكة التي تعود إلى 4000 سنة. وفي عام 2009 تم اكتشاف حجرة مدفن غير ملموسة هناك.

كان فريق التنقيب الأثري التابع لجامعة مدينة توبينغن Tübingen الألمانية قد شارك منذ 1999 في حملة التنقيب هناك. وكانت لقي المدفن حدثاً مثيراً وفريداً. فمن خلال التوايت الحجرية ومرفقات الموتى وأغراض أخرى كثيرة، بات بالإمكان بناء تصوّر دقيق عن طقوس الدفن وعبادة الموتى في تلك الحضارة السورية القديمة. إضافة إلى ذلك عُثر على أرشيف واسع من الرُقم الطينية بالكتابة المسمارية، يلقي الضوء على الأحداث السياسية والتبادل التجاري لتلك المرحلة (نحو 1400 ق. م).

بلغت مملكة قطنا ذروة اتساعها وازدهارها بين 1900-1600 ق. م، إذ كانت آنذاك أقوى الممالك السورية، لكنها وقعت بعد ذلك ضحية صراع القوى العظمى في ذلك الوقت (مصر الفرعونية، آشور وبابل وميتاني في ما بين النهريين، والحثيون في آسيا الصغرى) إلى أن دمرها الحثيون. وتدل اللقى العظمية التي عُثر عليها هناك على وجود الأفيال في سورية في ذلك العصر.

بسبب الحرب الدائرة في سورية منذ عام 2011 اضطر فريق التنقيب الألماني إلى قطع عمله في قطنا. وأما بروفسور بفلتسنر ومعاونوه فيشاركون حالياً في أعمال التنقيب في حصن آشوري جنوبي تركيا.

عند صدور رواية «قطنا» - رواية تاريخية من عصر إخناتون» تساءل كثيرون عن

الشخصية الكامنة وراء الاسم المستعار «ماريا كورانت»، ولا سيما في مدينة توبينغن. فالدقة والتفاصيل التاريخية الواردة في الرواية تشير حتماً إلى شخص من محيط عمل البروفسور بفلتسنر. لكن أحداً لم يتوصل إلى الحقيقة، إلى أن قررت المؤلفة كشف السر لأسباب عملية إجرائية بمناسبة ترجمة روايتها إلى العربية في دمشق. إنها الدكتورة آنه - ماريا فيتكه Anne-Maria Wittke، عالمة الآثار وخبيرة العصور القديمة، مواليد توبينغن 1955. صحيح أنها لم تشارك شخصياً في تنقيبات قطنا، لكنها تعمل مع بفلتسنر في بحوث حضارات الأناضول وجيرانها.

لقد تحمست لموضوع قطنا عندما أخبرها بفلتسنر هاتفياً من سورية بالتفصيل عن الاكتشاف المذهل، فزارت الموقع عياناً، وكانت بين يديها جميع المعلومات والأفلام والصور والرُّقم المتعلقة بقطنا، والتي استحوذت عليها بتطورها الحضاري، فبدأت مشروعها الأدبي الأول. وسبب لجوئها إلى اسم مستعار هو القاعدة السائدة في الأجواء الأكاديمية والتي تنصّ على الفصل بين العمل العلمي والخيال الأدبي. والاسم مركّب من اسمها واسم جدتها الأولى ذات الأصول الهوغتية.

مشهد تمهيدى

دم، دم في كل مكان. يسيل مغطياً تمثال الربى، سيدة المدينة. دم يتدفق منها، من حيث كان ينبثق ماءً عذب قراح. يفيض الآن عن حافة الجرن، يصبغ الأرض بالأحمر، متابِعاً تدفقه من دون توقّف. في قاعة الأعمدة الكبرى تركت آثاراً حمراءً على جدرانها البيضاء علاماتٍ مرعبةً لأيدٍ يائسةٍ، في محاولتها الأخيرة للنهوض.

جثث، جثث في كل مكان. رؤوس مقطوعة، أعضاء مبتورة، أجساد مذبوحه. ومن هنا وهناك يتناهى أنينٌ أخير، ووعويل، وصيحات آلام المحتضرين وعذابات الموت. وليس سوى ذلك إلا السكون.

لا شيء بعد الممعنة سوى الموت، في كل مكان. قاعات القصر الثلاث يغطيها الموت. الدم يسيل بلا انقطاع، أحمر كأجمل أرجوان، بمختلف درجاته. عصارة الأجساد تسيل، مستمرة في صبغ ما حولها إلى الأبد. ووقفتُ هناك جامدةً، عاجزةً عن فهم ما حدث.

ثم أرسلتُ بيليت إكالميم/ عشطار عطاياها، فتحركت الريح. ارتفعت نسمةٌ خفيفة، يكاد المرء لا يشعر بها، تسللتُ بهدوء عبر البوابات والقاعات ولا مست الموتى بلطف، ثم أخذت تقوى متحوّلةً إلى ريح جبّارة سُمعت قادمة من البعيد، ثم تعالى عويلها وبات مثل الولاويل، إلى أن صارت عاصفة هوجاء، أخذت تسوط بوابات القصر وتصفقها بشدة. حملت الريحُ النارَ من مجمر الفحم الهائل في القاعة الكبرى مؤججة إياها، مندفعة كالأفاعي، مشعلة كل شيء قابل للاشتعال. انتشر اللهب بسرعة مثل غزاة جوعى، لاعقاً كل شيء في طريقه، ولا حساً حارقاً حتى الغبار في الزوايا المنسية. وسرعان ما تغطى بساط الدم الأرجواني ببحرٍ من السنة لهيبٍ برتقاليٍّ مشوبٍ بالزُرقة. تصاعدت الحرارة منتشرة في القصر، وغطت سحُبُ الدخان مجال الرؤية أمام عيني الكاهنة الجامدتين.

أغمضت عينيها، وعندئذٍ فقط أدركت الروائح. سحابة قربانٍ مشويّ ذات حجم مذهل.. مآذبة احتفال ييليت إكالميم سيّدة المدينة، ولكن لأجل أيّ أرباب؟.. كانت تملأ الهواء، إضافة إلى رائحة شعرٍ وقرون تحترق. أجساد ميتة مغطّاة بدروعٍ جلديّة يتصاعد منها البخار، تحت قمصانٍ الزرديّ البرونزيّة المنصهرة، كانت تغلي في دم أرجوانيّ. لحم بشريّ في كلّ مكان، مشويّ محترق محمّر، كان يخنق حواسّها.

عندما كادت كيّا تفقد وعيها، أدركت بوضوحٍ عاجزٍ أن المدينة قد سقطت.
«ما بك يا سيّدتى الصغيرة؟ كيّا! اضحى!».

بهدوءٍ ورفقٍ همس صوتٌ في أذنها. أحسّت كيّا بنفسها محمولة على ذراعين دافئتين تهددها كطفلة صغيرة. لم تكن قادرة على فتح عينيها، فقد ملأها ذعرٌ لا حدود له.
«كيّا، حبيبتى. لقد حلمت، رأيتِ أمراً مروّعاً. أنت غارقة في عرقك. تعالي، اشربي شفةً!».

لكنها لم ترغب في أن تشرب، بل في أن تنسى، وسقطت في نوم عميق.
قامت تايا، المربيّة المخلصة الملهوفة، بتجفيف وجه الفتاة، وفردت فوقها غطاءً جديداً، ثم نثرت على وجهها رذاذ روائح عطرة، واستلقت إلى جانبها لتحرس نومها.

1355 ق. م

هيمن هدوء الأشباح على حتوشا، عاصمة مملكة الحثيين. بعد أن أفرغت العاصفة الثلجية غضبها بين المرتفعات الصخرية، أضاء قمرٌ شتائيً شاحبُ البهَاء الأبيض الذي غطى المدينة المتدرّجة على المرتفعات، وكذلك القلعة الملكية، على حدّ سواء، دونما تمييز. ولم تعد تُسمع حتى أصوات بنات آوى، فقد أوى البشر والحيوانات إلى بيوتهم هرباً من البرد.

لم يدرِ (شوييلو ليوما) ما الذي أيقظه. ربما سكون الريح المفاجئ، وربما لمجرد شعوره بأنه كان على زوجته أن تكون مستلقية إلى جانبه. لكنها لم تكن هنا، ولم تكن تسرّح شعرها الحريري. إنها ليست في مخدع النوم، فنداؤه الخافت لها بقي دون جواب. رغم أن الجمر في مجمر الفحم لا يزال متوهّجاً، كان جوّ المخدع بارداً، ولم يشعر ثاني أبناء الملك تودهااليا برغبة في مغادرة سريره الدافئ وأغظيته الفرائية المريحة. كان قد تجاوز العشرين ببضع سنوات، لكنه قال في نفسه، إن من حقّ محارب متعب أن ينعم براحة الشتاء. ومع ذلك أقلقته غياب زوجته هتتي. لقد أثر فيها تأثيراً بالغاً مرضُ الملك ثم موته. وتعلّق هتتي بحميمها إلى هذا الحدّ فاجأ شوييلو. فمنذ أن قدمت قبل سنوات إلى بلاط حتوشا، من بلدها البعيد في الغرب، نشأت علاقة حميمة بينها وبين أمّه الملكة تادوهيا، وبالدرجة الثانية مع أبيه تودهااليا، أو هكذا كان انطباعه على أية حال. ربما كانت ليالي سهرها الطويل إلى جانبه أثناء احتضاره قد أدت إلى تقاربهما. وأخيراً عندما مات الملك وتحرّر من آلامه وصار ربّاً، حسبما اعتاد الناس في حتوشا أن يقولوا بكلّ تججيل، حزنّت عليه هتتي وكأنه والدها. ولم تتراجع شدة ألمها، رغم مرور مدة طويلة على دفن الملك وتنصيب الملك الجديد (لابازنا) على العرش.

هذا اللابارنا الجديد! كَوَّر شوييلو قبضته بغضب، إذ كيف يسمح الأرباب بذلك! طبعاً لأنه هو الأكبر، ولذلك طبعاً يحق له العرش الحديدي. ولكن ألم يدنس هذا العرش حتى قبل أن يجلس عليه؟ ثم هذه العجرفة! كيف يلقب نفسه بلقب عرش والده نفسه، وكأنه يشبهه في شيء؟! هل انتصر في أية معركة؟ لا. أهو حاكم حكيم؟ لا. إذاً ليس هناك ما يبرر حملَه الصولجان سوى كونه البكر.

مكتبة الرمحي أحمد

ولكن ما بال شوييلو يعذب نفسه بهذه الأفكار في منتصف الليل، فهو لن يستطيع أن يغير من الأمر شيئاً!

أين هتتي؟ هل ذهبت إلى المطبخ يا ترى لتحضر لنفسها شرباً منوماً؟ هناك خدم لذلك. نادى مرة أخرى. لا جواب. إما أن الخدم قد ناموا، وإما أنهم قد تسللوا إلى خارج المخدع. غضب شوييلو، فنهض وتلمس معطفه ولبس حذاءه الفرائي. تناول سلخه خشب وأشعلها من فحم المجرم، وخرج إلى الدهليز الخالي والبارد.

على الأقل ما زالت المشاعل كلها تشر ضياءها، ما يعني أنه لم ينم طويلاً. قرّر البحث في جناح المطبخ، فلا بد أن يلتقي على الطريق بأحد الخدم. نزل الدرج الحجري العريض المؤدي إلى ردهة مركزية في الطابق الأرضي، ومن هناك تمتد أدراج وممرات أخرى، تؤدي إلى قاعات وحجرات كثيرة تشغلها حاشية القصر، عدا الملكة الأم تادوهيا والملك الجديد، اللذين يقيمان في البناء المجاور والأكبر. تبع شوييلو حدسه وتوجه نحو الحمامات، فلربما أمرت هتتي بتحضير حمام ساخن لها. لم يجد أحداً في الردهة، ففتح الباب المؤدي إلى القبو، حيث توجد، إضافة إلى غرف المؤونة، الحمامات الواسعة بأحواضها الفخارية، التي يستخدمها جميع من في القصر.

توقف شوييلو في مكانه عندما سمع أصواتاً عالية. هنا إذاً تختبئ زوجته الحبيبة، بدل أن تنام إلى جواره بسلام. أسرع خطاه حتى وصل إلى أحد أبواب الحمامات، وتردد لحظة، إذ لا يليق به أن يندفع داخلاً والنساء تستحم. لكنّه سمع صوت رجل يعرفه جيداً، ولا علاقة له بهذا البناء كله. لاحظ شوييلو أنه ما إن يفكر بأخيه حتى يعاوده الغضب. ماذا يفعل أخوه هنا في هذا الوقت؟

أليس هذا صباح هتتي؟ فتح الباب بشدة وجمد في مكانه، ثم اندفع وهجم على تودهاليا مطلقاً صرخة عالية. شدّه عالياً، ثم رماه أرضاً واعتلاه ضاغطاً جسمه بساقيه كالملزمة، وأخذ يخنق أخاه بيديه بغضب جنوني.

«سأقتلك يا حيوان، سأقتلك!». كرّر ذلك لاهناً عدّة مرات. ولم يُبعد يديه عن رقبة أخيه إلا عندما تناهى إليه صياح هتّي، كما من بين الضباب. قال وهو ينهض عنه: «لا، لن أجعل الأمر يمرّ بمثل هذه البساطة، فهذا من شأن الأرباب، ليحاكموك أخيراً ويدينوك. إنك تُقرّني! قيّدوه!». أمر الحرس الذين هرعوا إلى المكان نتيجة الضجّة.

بينما كان شويلو يدتّر زوجته المرتجفة بالمعطف، أمسك الحرس بشيء من التردّد بملك بلاد الحتّيين الممشوح، الذي نهض بصعوبة ممسكاً برقبته. بكلمة أو إشارة منه كان الحرس على استعداد للسطو عند قدميه، بغضّ النظر عما رأوه أو سمعوه. لكن الملك بقي صامتاً. وقف هناك عارياً، سامحاً لهم من دون مقاومة ومن دون نامة أن يقيّدوا يديه خلف ظهره.

«غطّوه بعباءته أو بأيّ شيء آخر، لنعفي أنفسنا من هذا المنظر!». قال شويلو لجنوده وكلماته تقطر احتقاراً.

عندئذ رفع الملك ناظره، والتفت أولاً نحو هتّي التي التجأت إلى ذراع شويلو وهي تبكي على كتفه، ثم التفت نحو أخيه الواقف أمامه مثل إله الانتقام بنظراته الملتهبة. وبيطء تحوّل وجه الملك إلى تكشيرة عريضة، ثم تدريجياً إلى تعبير انقباض مسمتّز، إلى أن انفلت يضحك كمن تسكنه الشياطين، فتركه الجنود مرتاعين. لم يتأثر شويلو بهذا المشهد، فقد كان مشغولاً بكبح جماح غضبه، ثم قال للحرس: «خذوه من دون ضجّة إلى المحرس الخلفي واحجزوه هناك! هيا تحرّكوا! أم تريدون مشاركة هذا المعجون مصيره؟ أنتم المسؤولون عنه، وضمائنه هي حياتكم البائسة. واحذروا أن يراه أو يسمعه أحد. وإذا أصدر أيّ صوت، فاحشوا فمه بمنديل! لا تنبسوا بكلمة لأيّ كان! فما رأيتم هنا يجب أن يبقى حبيس صدوركم إلى الأبد، وإلا، على غير عادتنا، ستخسرون ألسنتكم وعيونكم، أعدكم بذلك! أقسموا على ذلك هنا، والآن!».

نفذ الرجال ما أمروا به، فقد كان شويلو قائدهم العسكري، وهم يطيعونه طاعة عمياء، على الرغم من أن المسألة الآن تتعلق بالملك نفسه، الذي تحوّل ضحكه إلى قرقرة عجيبة. هل كان مخموراً؟

وإذا به يصيح فجأة: «كنتّ فحلاً، بل فحلاً جداً. ما رأيكنّ يا حماماتي الحلوات؟ أليس الأمر هكذا أفضل بكثير؟». مع من كان يتكلم؟ وفجأة أيضاً التفت نحو شويلو، وكان صوته طبيعياً تماماً، وإن شابهته بحجّة خفيفة، وخاطبه قائلاً: «هل أنت راضٍ يا أخي؟

سأفسح لك في المجال، حسبما حلم دائماً أبونا العجوز الخرف. وهذا كله بمنزلة هديّة وداع بسيطة، ألسنت معي في ذلك؟ وطبعاً ما كنتَ لتسمح لي بذلك قط. كنتَ تضرّن عليّ بكل شيء. كنت تريد كل شيء لنفسك، كلّ فوز وكل انتصار، ومحبة الأب والأم والأرباب أيضاً. وما قد فزت بكل شيء، احتفظ بها وافعل بها ما تشاء. أنا لا أحتاج إلى أي شيء. يا جميلاتي، يا رفيقاتي الشبقات، انتظرنني، أنا قادم!». وأخذ يضحك من جديد.

بكلمات ترشح كراهية، أمر شوييلو رجاله بإبعاد الملك التعس عن عينيه، ثم قال: «أرسلوا لي بسرعة خادمتين من خدم السيدة، وضعوا حارساً على الدرج إلى الطابق الأول. وأبلغوا الملكة الأم تاوانانا بضرورة قدومها إليّ!». وعند ذلك فقط التفت شوييلو إلى زوجته قائلاً بكل حبّ: «هنتي، هل تماسكتِ؟». هزّت رأسها موافقة وأجابته بصوت خافت: «يبدو الأمر أسوأ مما هو عليه حقاً. دعني هنا قليلاً، والخادמות سيرافقنني بعدئذ».

«أقادرة أنت على المشي؟». وعندما أومات برأسها ثانية، وضع ذراعه حولها وقال: «سأنتظرك فوق في غرفة الجلوس الصغيرة ذات الشمعدان الكبير. حتى تصلي ستكون دافئة بصورة مريحة. وسيكون بانتظارك حساء لذيذ ساخن من المطبخ، فهذا سيكون مفيداً الآن، أليس كذلك؟». قبلها على عينيها وفمها، ولم يفصل عنها حتى ظهور الخادمتين مرعوبتين.

بعد حين، عندما ظهرت الأميرة هنتي في غرفة الجلوس، ملتفة بمعطفها المبطن بالفراء، كانت أكثر تماسكاً. لكن ما إن وقع نظرها على حماتها، تاوانانا تادوهيا، حتى انهمرت دموعها لا إرادياً. مشت تادوهيا نحوها واحتضنتها وهي تهمس: «يا صغيرتي المسكين، ما أشدّ أسفي!». ربّت على شعرها بأومومة وقادتها إلى المقاعد المنجدة حول مجمر الفحم، وقالت: «خذني، اشربي هذا، سيفيدك!».

بعد بضع رشقات قال لها شوييلو: «هنتي، يا أميرتي! يجب أن تكوني قوية الآن، وأنا أعرف أنك كذلك. كنتِ صبية يافعة عندما اجتزت بنجاح الرحلة الطويلة والخطيرة من موطنك إليّ، وخلال سنوات قليلة أهديتني خمسة صبيان رائعين وربيتهم. ما حدث اليوم سنسناه سريعاً، ولكن يجب عليّ الآن أن أرجوك، احكي لنا كلينا ما حدث، وبدقة. أعذك بأن لا أحد سوانا سيطلع على التفاصيل!».

هزّت هنتي رأسها موافقة.

برأسين منكسين أنصت كل من تاوانانا وشويلو إلى كلمات هنتي. ثم توجهها إليها بشكرهما: قَبَلتْها تاوانانا على جبينها وباركتها، أما شويلو فقادها من يديها إلى الباب، حيث سلّمها إلى الخادمتين، وأمر بوقوف حارسين على مخدع النوم لحمايتها، ثم قال لها: «سألحق بك بأسرع ما يمكن يا حبيبتى. حاولي أن تنامي!».

بعد مغادرة هنتي قالت الملكة الأم بحزن: «يُحتمل أننا قد أخطأنا آنذاك يا بني»، تنهدت وأردفت: «مضى على ذلك سبعة عشر عاماً تقريباً، ومع ذلك يبدو لي وكأنه حدث بالأمس». وغطت رأسها من شدة الألم. فقال شويلو: «ألم نأمل جميعنا بأن يصحو أخي تودهاليا من أسر غريزة شبابه التي فجرّها شربه الكثير من خمرة العسل والجمعة؟!».

«لا، شويلو! تودهاليا كان في العشرين من عمره، ولم يكن فتى غرّاً. لا، لا يجوز أن تحاول حمايته. لقد ابتلاه الأرباب منذ تلك الحادثة، وكان علينا أن ندرّك إشارة الأرباب. ولكن بغية عدم تعريض حكم سلالتنا للخطر، سكتنا عما رأيناه بأعيننا، عن أنه لم يعد من مخرج أمام أختك سوى الانتحار. وقبِلنا بمأساة صديقتها كالي، بل ارتحنا عندما سمعنا بعدئذ بالأمر الرهيب الذي تعرّضت له مع أخيها هنتوتي. ثم جاء زواجها في البلد البعيد كيزواتنا بمثابة حلّ كالمعجزة، ليبعدنا عن التفكير بذنبنا، وبحيث لم يخطر ببال أحد حتى اليوم أنّ لولّي العهد إصبعاً في ما جرى آنذاك». ضحكت تاوانانا بمرارة وتابعت: «لا، شويلو، علينا اليوم أن نسدّد ثمن الخطأ الذي تعامينا عنه آنذاك، جميعنا. لا بدّ أن نوقفه عند حدّه! لو أن أباك ما زال حيّاً وعرف!». ومن هول ما تصوّرت غطت وجهها بكفيها، ثم تساءلت بصوت خافت: «علام يعاقبنا الأرباب بمنحنا بكراً على هذه الشاكلة؟!». وكانت عيناها تحدّقان في لهيب النار بجمود.

في أثناء ذلك كان شويلو يمعن التفكير. أمّه على حقّ. أخوه قد ابتلي، وابتلي برغبة يعاقب الأرباب على تلبيتها بمنتهى الشدّة، وهي الرغبة في أخته بالذات، والتي أبت إشباع شهوته. لكنّه أخذ منها عنوةً ما رفضت محقّةً أن تقدّمه له. ولم يكتفِ بأخته، بل اغتصب صديقتها كالي أيضاً. امتلاً شويلو بالاشمزاز وهو يتذكّر ما رآه آنذاك، عندما مرّ مصادفة بباب غرفة البنات. كان أخوه يعتلي كالي كالسكران. ويبدو أنه كان قد انتهى من أخته (زييلانتاوي)، فقد كانت منكورة على نفسها في زاوية الغرفة وهي تُنهّنه مثل حيوان مضروب. نعم، كان عليهم منذ تلك الواقعة الكارثية أن يقفوا في وجهه. لا يمكن للإنسان أن يخدع الأرباب، لقد رأوا كل شيء. فما العمل الآن؟

سمعت أذناه تادوهيها تقول بهدوء وحزم: «علينا أن ندعو إلى اجتماع لمجلس الشيوخ المصغّر فقط، إذ لا يجوز بأي حال من الأحوال أن يعلم أحد بما جرى الليلة من خارج هذه الحلقة الضيقة. المجلس الموسع سيحترم قرارنا. لقد راكّم تودهاليا على نفسه من الذنوب ما لا يُغتفر، فخيّب أمل الأرباب مراراً. لم يعد أمامنا أيّ خيار: لا يجوز أن يستمرّ حياً!».

بينما كانت هتتي في أعماق الليل تتقلب في فراشها في مخدع النوم، وهي تسمع عويل الرياح، خطر ببالها فجأة أن زوجها وحمايتها لم يلتمحاً قط إلى احتمال أن تكون هي المذنبة في واقعة الليل المريعة. يبدو أنه كان جلياً لكليهما أن الزاني هو الملك تودهاليا وحده. شعرت بالامتنان لعدم اضطرارها للدفاع عن نفسها، لكنها مع ذلك استغربت الأمر. فقد جرت العادة بأن تُتهم المرأة باستخدام مفاتها لاستدراج الرجل الذي يبقى بعيداً عن تحمّل المسؤولية.

ما الذي هيّج أخا زوجها؟ إنها لم تحاول إغراءه قط، وهي لم تعد صبيّة، بل بلغت الثالثة والثلاثين بعد أن أنجبت عدّة بطون. لقد أراد أن يؤذي أخاه الذي يكرهه، هذا ما قاله. ولكن، أبهذه الطريقة؟ هل هما في حالة حرب؟ ربما. وانهمرت دموع هتتي.

عندما دخل شوييلو أخيراً مخدع النوم، بعد تلك الواقعة المريعة، كانت هتتي في حالة نوم مضطرب، فأشار إلى الخادمتين بهدوء لتخرجا.

في اليوم التالي مباشرة انعقد مجلس الشيوخ المصغّر، مع صباح بارد مشرق، ومع روعة نقاء الثلج مقابل حلكة حدث الليلة الماضية ومرارته. يتألف هذا المجلس من صفوة أعيان حتّوشا، وهم قلة: الملكة الأم، والمرشّح للعرش، وثلاثة من إخوته.

أصدروا حكمهم بأن ربّ الطقس في حتّوشا وربة الشمس في أرينا قد سحبا الثقة من الملك. فإخفاقه كملك في شؤون متعدّدة، وأثامه تجاه المحرّمات بصورة مريعة، كانت من الخطورة بحيث استحقّ عقوبة الموت. منح المجلس المصغّر تودهاليا فرصة أخيرة، كي لا يورّط أحداً آخر في ذنبه، وأرسلوا إليه في سجنه خنجراً، لكنه رفض أن يقتل نفسه بنفسه.

مباشرة بعد دفن تودهاليا في عالم النسيان، اعتلى شوييلو ليوما العرش. وقد استحسن الأرباب ومجلس الشيوخ قتل تودهاليا، وأعلنوا براءة المشاركين في العملية من أيّ ذنب، وأسدل ستاراً من الصمت على الأحداث.

وبذلك انطلقت مرحلة حكم خصبة وطويلة جعلت المملكة الحثية إحدى أقوى الممالك بين القوى العظمى: مصر، بابل، ميتاني، آشور. وكان الهدف المعلن للملك الجديد إعادة توسيع المملكة إلى حدودها القديمة، ولا سيّما في منطقة الهلال الخصيب حيث تقع مملكة ميتاني والدويلات السورية. ومباشرة بدأ الملك شوبيلوليوما مع كبار ضباطه بالعمل.

من الربيع إلى أواخر الصيف (1353 ق. م)

وقفت الأميرة كيا في مكانها وأنصتت. ألم يكن هذا الصوت الجمهوري صوت الملك؟ مع من كان يتكلم؟ كانت كيا في طريقها إلى جناح أمها الأميرة إيسيت، محاولة تجنّب الالتقاء بالملكة، الزوجة الرئيسية لأبيها إيداندا ملك قطنًا. لذلك كانت تستطلع المكان بحذر، من الشرفة الداخلية المطلّة على باحة القصر. رأت هناك أباهها والملكة يلتوم وأخاها البكر أكيزي، وكان معهم غريبان، رجل أربعينيّ ذو هيئة مميّزة، وشابّ أصغر بكثير، أصغر من أخيها، لا شك. كانا يلبسان رداءين صوفيين طويلين فاتحي اللون، بزئارين، وبحواف مزينة بتعريقات غنيّة بالألوان. وكان أكبرهما يغطّي رأسه بطاقية مبرومة الحواف، غنيّة بالنقوش، وتبدو مختلفة تماماً عمّا ألف الناس ارتدائه هنا في قطنًا. يُرجّح من ثيابهما أنهما قادمان من إحدى المناطق الشمالية.

يبدو لطيفاً. فكّرت كيا وهي تتملّى الشاب الرشيق ذا الشعر الداكن. لم تستطع تبيّن تفاصيل شكله من هذه المسافة، ومع ذلك دهمها شعور مفاجئ بأنه ينظر باتجاهها تماماً، فارتدّت برأسها مرعوبة إلى خلف الجدار. وصل إليها صوت أبيها العالي يقول: «هذا لا يصدّق، فقد وصل إلى علمنا أن بعض الاضطرابات وقعت في مدينة حتوشا بعد وفاة الملك العجوز تودهاليا المؤسفة، وعقب ذلك مباشرة نُصّب ابنه البكر على العرش، أليس كذلك؟».

فأجاب الزائر: «نعم، هذا صحيح. ولكن بعد مدّة وجيزة، تبيّن أن بكر تودهاليا الذي اختار اسم أبيه أيضاً، أي تودهاليا، عند التنصيب، لم يكن صالحاً قطّ للحكم، إذ إنه لم يمتلك قدرات أخيه الأصغر شوييلو ليوما. اللابارنا الإلهي العجوز أدرك ذلك مبكراً،

ولذلك كان يفضل ابنه الثاني، فقد اصطحبه معه منذ سنوات في جميع الحملات العسكرية لاسترداد المقاطعات التي فقدتها حتوشا».

«إذاً، لماذا لم يجعل لابارنا العجوز شويلوليوما ولياً للعهد من بعده، إذا كان قد أدرك أن بكره لا يصلح للحكم؟».

«في حتوشا ليس الأمر بهذه البساطة، فهناك قانون قديم جداً ينصّ على أن بكر الملك والملكة الأم الشرعية، أي التوانانا، هو الذي يخلف أباه على العرش الحديدي. وليس في نطاق سلطة الملك أن يغير من الأمر شيئاً، فهذا من شأن الأرباب فحسب. والملك الحاكم سيحمّل نفسه والبلد كذلك ذنباً لا يغتفر، إذا قرّر أمراً يعارض إرادة الأرباب». وتبدّى من صوت الزائر استياؤه من سؤال الملك إيداندا المستهجن، فاستدرك الملك قائلاً: «اعذرني لسؤالي غير اللائق، إلا أنني لست على اطلاع دقيق على قوانين وراثه العرش الحتيّة. المألوف في كل مكان، على كل حال، أن البكر هو من يخلف أباه على العرش. فهل الطمع في السلطة هو ما دفع شويلوليوما للقيام ضد أخيه؟».

«لا، مطلقاً. كانت تقوده الضرورة فحسب إلى عدم المغامرة بخسارة ما استُعيد حتى الآن. وقد وافقه في سعيه معظم الأمراء والضباط وغالبية أعضاء مجلس الشيوخ الموسع. ولكن بغض النظر عن فشل تودهاليا في شؤون الحكم، وفجاجة أسلوبه في التعامل مع مجلس الشيوخ، وتناسيه لواجباته، يتهامس الناس في الخفاء عن ذنبه في جريمة مهولة». سأله الملك: «وما هي هذه الجريمة؟!».

«لا أعرف، ولم أستطع التوصل إلى معرفة أيّ شيء بشأنها، فالصمت بصدها يسود في كل مكان. ولكن يبدو لي أن هذه الجريمة قد أدت إلى أن يطفح الكيل بالجميع، فتأمروا على الملك وقتلوه».

انتفض الملك إيداندا قائلاً: «ومع ذلك فالأمر يدعو للاستنكار. أخبرني يا سيد إحيّا الكريم، كيف لم يهبّ الناس في طول البلاد وعرضها لسماعهم بقتل الملك؟ أم أن النفوس في بلاد حتوشا قد همدت إلى حدّ عدم المبالاة بتبدّل السلطة دمويّاً؟».

في أثناء هذا الحوار عبرت المجموعة الباحة ببطء وغادرتها، لأسف كيا الشديد، باتجاه قاعات القصر الكبرى.

ما معنى هذا كله؟ ومن هما هذان الرجلان اللذان استضافهما الملك حتى في الجناح العائليّ الخاصّ؟

رجعت كيا إلى مخدعها. كان عليها أن تمعن التفكير في ما سمعت، وكان ما فهمته هو أن ضيف الملك سيّد كريم على صلة، بطريقة ما، ببلاط البلد البعيد حتّوشا، فقد بدا مطلعاً من كُتب عمّا يجري هناك. لا يمكن أن يكون جِتياً، فثيابه تدلّ بصورة واضحة على أنه ليس كذلك. ثم إنه لم يتحدث بالحثية، وإلا لكان والدها قد حاوره بلغته. لا، لقد تحدّث باللغة الحورية، رغم أنه كان يلفظ ويثبر بعض الكلمات بلكنة مختلفة، ورغم المفردات الغريبة الكثيرة التي استخدمها في حديثه. كما عرفت كيا أن اسمه إحيّا، وهو اسم لا يبدو حتياً صرفاً. لكن هذا لا يعني شيئاً، ففي كل مكان تسمّي العائلات الراقية أولادها بأسماء أجنبية، وليس محلية فقط. فأمثا مثلاً ما زالت تحمل اسمها المصري إيسيت حتى الآن. وهنا في قطنا يستخدم الناس الكثير من الأسماء السامية والحورية. وهي نفسها، وفي كل الظروف، ستحافظ على اسمها، حتى ولو تزوّجت.

الزواج أمر لا تريد أن تفكر فيه حالياً على الإطلاق، ولو أنها قد بلغت من العمر ما يسمح بخطبتها من قبل أي شخص في مقامها، أو قد تُزوّج بمشيئة والدها وموافقة مجلس الأعيان. وصديقاتها لا حديث لهنّ إلا في هذا الموضوع، وأعزّ صديقاتها (إهلي - نيكالو) لا تُستثنى من ذلك. لكن كيا كانت تضيق غالباً بهذر الفتيات المستمرّ حول عشقهنّ لشباب من قطنا، وآمالهنّ أو خشيتهنّ من احتمالات لمن ستزوّجن. كانت هذه الأحاديث في الواقع تبتّ الخوف في نفس كيا، لكنها لم تكن لتعترف لصديقاتها بذلك طبعاً. إنها لا تريد، بأيّ حال من الأحوال، التخلّي عن الحريات التي تتمتع بها، بفضل ميل أبيها الكبير إليها. وكانت فكرة أن تكون متزوجة بعيداً عن بيتها وألا تسمح لأحد برؤيتها إلا محجّبة، بحدّ ذاتها، تشعرها بالضيق، على الرغم من علمها بأن للحجاب فوائد كثيرة. وتذكرت كيا بعض مغامراتها التي بقيت مستورة بفضل تنكّرها تحت الحجاب.

اعتدلت في جلستها وتمطّت. إن كان لا بدّ من الزواج، فلا يمكن أن ترتبط إلا برجل من مقام رفيع. هكذا قالت النبوءات التي رافقت ولادتها، وهذا ما سيحاول أبوها الحبيب تحقيقه. ولكن هل حان الوقت الآن؟ ألقت نظرة ناقدة على مرآتها. لم يكن الوجه الجادّ الذي رآته فيها وجه طفلة، بل وجه صبيّة. مدّت يدها شاردة إلى مكحلتها لترسم خطوط أجفانها، ثم أعادتها إلى مكانها دون أن تفتحها. هناك أمور أكثر أهميّة بمراحل من هذا.

ثمّة ملك قد قُتل. أليس في الأمر تحدّ للأرباب؟ فالملك ذو قدسية لا تُمسّ. لم تستطع كيا أن تتخيّل، ما الذي أغضب الحثيين إلى حدّ أن يقوموا بقتل ملكهم الممشوح المكرّس. لماذا انفعّل أبوها إلى هذا الحدّ بسبب ما جرى في أرض حتّوشا التي تبعد عن

قطنا مسافة أيام كثيرة من السفر؟ لديها تصوّر من دروسها عن الموقع التقريبي لهذا البلد، إذ قال لهم المعلم: «أن تعرفوا مواقع الممالك أمرٌ مهمّ لكم أيضاً، وليس للملك فحسب، إذ عليكم أن تقيموا معهم علاقات تجارية. عليكم أن تعرفوا أية بضائع تأتي من هذه المملكة أو تلك، لتسكّنوا من تقدير قيمتها. عليكم أن تعرفوا ماذا تباع هذه وماذا تشتري تلك لسدّ نواقصها». ثم تناول عصا ورسم على الرمل وهو يقول: «تصوّروا أن قطنا تقع هنا في الوسط. إذا اتجهتم شرقاً تصلون إلى البادية السورية، وبعدها إلى نهر الفرات. وإذا نزلتم من هناك مع مجرى النهر تصلون إلى أرض بابل المباركة، وبعكس التيار تصلون إلى مملكة ميتاني الجبلية. في اتجاه الغرب يقع بحر الغرب الكبير، وفي اتجاه الجنوب تنتصب جبال الأرز الهائلة، ومن ورائها نحو الجنوب تقع أرض كنعان، ومن ثم مصر. إذا اتجهنا مع نهر أراتنو (العاصي) شمالاً نصل إلى أراضي الألاخ التي تسمّى موكيش أيضاً، ثم إلى كيزواتنا ومن بعدها حتوشا التي تبعد مسافة أيام كثيرة سफراً، كما هو حال مصر على الطرف الآخر».

كانت كياً تبتلع كل المواد الدراسية بنهم. ومنذ وقت مبكر بدأت أمها تحكي لها عن مصر، عن الحياة هناك، وعن العادات والتقاليد في بلاط فرعون. كما علّمتها اللغة المصرية، حتّى باتت تتقنها الآن مثل لغتها الأم. وكانت كيا، بكل عناية ودأب، تتمرّن على كتابة الحروف الهيروغليفية الكثيرة على لوح المدرسة المستدير. كما تمكّنت من نيل موافقة أبيها على تعلّمها الكتابة والقراءة والحساب، بعد أن كانت تسلّل خلسة إلى دروس إخوتها في طفولتها. وذات يوم ضبطوها في غرفة الدرس، وكانت حينذاك في الخامسة أو السادسة من عمرها. في البداية غضب الملك إيداندا غضباً شديداً، لكنه لان أخيراً وقبل، إذ كان يصعب عليه جداً رفض طلب لابنته الحبيبة، وكانت تعرف ذلك. فجلست على ركبتيه وأخذت تتملّقه متوسّلة، ثم زعمت بحكمة الكبار أنه يَحسُنُ بها كملكة مستقبلية أن تعرف كلّ شيء. ضحك الملك لذلك من كلّ قلبه وأوعز إلى معلّمي الأمراء بأن يعلموا كيا أيضاً. أمّا زوجته بلتوم، التي تعتبر كيا وأمها إيست مثل شوكة في عينها، فكان رأيها أن لا ضرورة إطلاقاً لأن تتعلّم الفتاة الحساب والكتابة المسمارية، فالأهمّ هو أن تتقن الأعمال النسوية الضرورية، كتدوير المغزل وأشغال التطريز الفاخرة استعداداً لدورها المستقبلي زوجةً وأمّاً.

كانت تايا، مربية كيا، واقفة عند الباب. هذه المرأة السمينة إلى حدّ ما، الطيبة القلب، الحنون، ذات المزاج المبتهج، تتحدّر من عائلة صياغ ذهب في مدينة ترقا على الفرات،

وقد دخلت في خدمة بلاط قطنا، عبدةً، مذ كانت في الخامسة عشرة من عمرها، فقد اضطرت أبواها إلى بيعها وبعض إخوتها كي يسددا الديون المتركمة والمهددة بالعبودية. وفي البلاط لفتت تايا الأنظار إليها بأسلوبها الودود وشطارتها وأمانتها. وبما أنها قد أنجبت طفلاً مات في المهد، في الوقت نفسه الذي ولدت فيه كيا، فقد طلبتها إيست من الملك مرضعةً لكيا، كما توصلت إلى أن يعتقها الملك ويربطها بالبلاط بعقد عمل: مرضعةً. وعندما فطمت كيا بعد سنتين، بقيت تايا في قطنا مربيةً لكيا، إذ كانت تحبها كابنتها.

«بسرعة يا سيديتي الشابة، غيّري ملابسك وتزيّني. العائلة تجتمع في قاعة الطعام. هناك ضيوف سيشاركونكم على المائدة!».

سألته كيا: «أيّ ضيوف؟».

«هناك تاجر من كيزواتنا البعيدة مع ابنه، وقد قام اليوم بزيارة تعارفٍ ودية إلى الملك. سمعت أن السيد الابن شابٌ وسيم. لا حديث لبنات المطبخ إلا هذا. الأرياب وحدهم يعرفون كيف تصل إليهن هذه الأخبار الجديدة أسرع من الريح. ولكن عجلي الآن، فقد تأخرنا. تعالي، سأساعدك! كيف يبدو هذا الثوب عليك؟ وشعرك مشعث تماماً. أنت لا تتصرفين قط كأميرة شابة!».

من كيزواتنا إذاً، وتاجر كبير! فكّرت كيا. هذا يفسر اطلاعها الواسع، فالتجار يعيشون من كونهم مخزن معلومات دائماً، ولديهم في ما بينهم شبكة رائعة التنظيم، وقطنا جزء منها. إن محفوظات الشؤون الاقتصادية في القصر هنا تضمّ مئات الرُّقم، ثم هناك محفوظات قصر مركز المدينة الذي يسمّى اختصاراً دار البلد، حيث لكبار تجّار المدينة متاجرهم ومستودعاتهم إضافة إلى متاجر التجار الأجانب دائمي السفر. تحتوي هذه الرُّقم على معلومات مختلفة مهمة حول خطوط القوافل والاتفاقات التجارية ورسوم الجمارك وأسعار البضائع، وأشياء كثيرة أخرى. والمدينة تكسب من هذه المعرفة كسباً جيداً.

غارقة في أفكارها، اندست كيا في ثوب كالقميص من قماش صوفي فاخر، كانت ترفعه تايا بين يديها. ولكن ما إن برز رأسها من فتحة العليا حتى توتّبت مقاومتها، وقالت محتجةً: «إنه مريع! قماشه يسبب الحكّة. لا يمكن أن ألبسه!». ومدّت يدها إلى المرأة، وأردفت: «وما هذا المنظر؟ مثل الكيس!».

«ولكن يا كيا، إنه ثوب رائع، انظري إلى نسيجه الفاخر وإلى هذه الزخارف الجميلة!». «العجائز فقط يرتدين أثواباً بمثل هذه الزخارف، ثم إنني عاجزة عن الحركة فيه،

أترين؟! ها هو ذا ينزلق ويشدّ. لن أذهب إلى العشاء في هذا الثوب!». وخلعته بسرعة، فأجابتها تايا غاضبة: «أنت تبالغين، فالثوب صُنِع خصيصاً لمثل هذه المناسبات!». «هذا لا يهمني. ثم من الذي أوصى بتصميمه؟ الملكة ربما، لتريني مدى كراهيتها لي». «وهل يناسبك هذا أكثر؟ أرجوك، كيا، أسرع، فأنت لا تريد أن يغضب الملك منا!». لا، كيا حتماً لا تريد ذلك. لقد مرّت فورة التمرد بسلام. وبعد مثل هذه الفورات كانت دائماً تشعر بالخجل تجاه تايا. ومع ذلك فإن أيّ تضيق عليها، لا سيّما إن صدر عن الملكة، كان يستدعي مقاومتها. وكم حاولت أمها بكل صبر أن تشرح لها أنها لا تؤذي بهذا إلا نفسها. وبحركة تنم عن الاعتذار والرجاء تركت تايا تلبسها الثوب الآخر، الأكثر بساطة، والذي تصل المشابك بين أطراف كفيه، ثم وضعت حول خصرها حزاماً جميلاً أكد رشاقة جسمها. وبالاستعانة بالأساور وقلادة العنق المتعدّدة الصفوف من الخرز الملون، تحولت كيا في لحظات إلى آية من الجمال. كحلت عينها ببساطة وطلت جفنيها بلون أزرق يتناسب مع زيتتها. وبسرعة تناولت تايا مشطاً عاجياً وسرّحت لها شعرها الأسود المتموج، ثم قالت: «فلنذهب!». بينما كانت كيا تتلمّى صورتها في المرآة، فأردفت برضا: «جمالك يسر الناظرين يا صغيرتي». كانت كيا تعرف مدى اعتزاز مربيّتها بها، إذ كانت تحيطها بحبّها ورعايتها مثل ملاك طيب، فعانقتها بحب، ثم غادرتا المخدع معاً وخرجتا إلى الشرفة الداخلية.

«أين المأدبة؟». سألت كيا مربيّتها.

«في جناح الغرف الملكية، في قاعة طعام العائلة».

«أهما صديقان مقربان؟ أنا لم أسمع بهما سابقاً، ولم أرها إلا اليوم».

توقفت تايا وسألتها: «أين التقيت بهما؟».

احمرّ وجه كيا خجلاً وقالت راجية: «لن تشي بي، أليس كذلك؟ رأيتهما مصادفة من الشرفة قبل قليل وهما يعبران الباحة مع أبي».

هزت تايا رأسها ثم قالت: «لا أظن أنهما من الأصدقاء المقربين، على الأقل ليسا من عائلة ملكنا إيداندا المحبوب. لكنهما زارا قطننا عدّة مرات سابقاً. إنهما ضيفا الشريف تيرو. يبدو أن هناك أموراً مهمّة لا بدّ من مناقشتها، لذلك حضرا إلى الملك شخصياً لإطلاعه عليها. هذا ما قالته لي الملكة على الأقل».

وصلتا إلى الباحة الكبيرة المحاطة بغرف المعيشة الملكية، وعبرتاها لتبلغا قاعة

الطعام. كانت تهبّ مساء اليوم من الغرب نسمة خفيفة، وخاصة على الشرفة الأرضية لقاعة الطعام. وحتى خلال النهار كان المكان هنا منعشاً، لبعده عن أشعة الشمس المباشرة. والآن عند الغسق يمكن للناظر أن يرى دور عائلات الأشراف ودار البلد في السطح الممتد إلى مركز المدينة. وأن يرى هنا وهناك بعض المشاعل ونيران بعض المواقد أيضاً.

اجتمع حول طاولة الطعام عدد كبير من أفراد العائلة. وقد جلست الملكة بلبتوم عند نهاية الطاولة الطويلة قبالة الملك، وهي امرأة في أواسط عمرها تشعر بنفسها قيّمة على الجميع. لكنها برأيها امرأة بشعة، ليس فقط بسبب عينيها المتقاربتين الجاحظتين وحاجبيها الكثين وأذنيها الضخمتين وفمها الممسوح وشاربها النسوي الواضح فوق شفرتها العليا، بل في المقام الأول بسبب سميتها المكتنزة. وفوق ذلك كله كانت سطحية، صارمة، ظالمة، ويعوزها حسّ الدعابة إلا في ما يتعلق بأبنائها الذين تحبّهم حبّ العبادة وتدللهم بلا حدود. وإلى جانبها جلس عدد من قريباتها.

اقتربت كيا من أمها وحيّتها بعناق سريع. كانت إيست جالسة إلى جانب أخوات الملكة، فجلست كيا بعدها مباشرة. وغالباً ما كانت تشعر بوخزة خفيفة لكون أمها الجميلة والذكية مجرد زوجة ثانية للملك، ما يجعل مكانتها في المقام الثاني وراء بلبتوم وعشيرتها. أما إخوة الملك وأخواته وعائلاتهم، التي كان قسم كبير منها يسكن في القصر أيضاً، فهم من حيث المقام ليسوا أعلى من أمها، لكنهم، حسبما لاحظت كيا، كانوا يتصرفون غالباً باعتبارهم أعلى منها. وأكثر ما كان يزعج كيا هو قبول أمها هذه الأمور ببساطة. أليست أمها أميرة من عائلة تيه، الزوجة الملكية العظمى لأمينوفيس ملك مصر؟ فما الداعي لرضاها بهذا الأسلوب المتعالي عليها، من الملكة خاصة؟ زفرت كيا بصوت خافت. إنها لن تقبل بمثل هذا السلوك تجاهها، وقد أقسمت على ذلك.

انقطعت جميع الأحاديث حال دخول الملك إيداندا مع ضيفيه. أبتقت كيا رأسها محنياً كما يليق بها، لتظهر احترامها تجاه الملك وضيفوه.

قال الملك: «رحّبوا معي بالشريف إحيًا من مدينة ترّشا في كيزواتنا، الذي يشرفنا بزيارته مع ابنه تالزوا!».

صالب الحضور أذرتهم على صدورهم وانحنوا باتجاه الضيفين الواقفين إلى جانب الملك عند رأس الطاولة حيث جلسا في أمكنة الشرف. وبعد أن جلس الملك والملكة جلس الجميع. في الخارج حلّت العتمة محل الغسق. التفت الملك إلى إحيًا قائلاً: «سوف

تستمعون من هنا بإطالة جميلة، أما بالنسبة لليوم فقد تأخر الوقت. لنبدأ بتناول الطعام». وخفض رأسه قليلاً، فهضت شالا المحترمة، كبيرة كاهنات ربة المدينة، وفردت ذراعها للصلاة: «استمعي إلينا يا بيليت إكالميم يا سيدة مدينتنا وحامية بلدنا، استمعوا إلينا يا جميع الأرباب ويا أسلافنا المقدسين! اشمولونا برحمتكم وباركوا في طعامكم وطعامنا». أخذت يسراها قلدح الماء الخزفي المزخرف للماع، غمست يمانها فيه ورثت بضع قطرات على الأرض، مقدّمةً بذلك قربان الشراب إلى الأرباب وإلى الأسلاف الملكيين. صبّ الخدم في الأقداح ماءً ممزوجاً بنبتة النعناع المنعشة. نهض الجميع وقولاً ليتشاركون الشراب.

تلصّبت عينا كيا باتجاه رأس الطاولة، لترى الغريبين من كئيب، بينما بدأ الملك بتقديم العائلة لضيفه. ترك إحياءاً في نفسها انطباعاً طيباً. كان واضحاً أنه أصغر سناً من أبيها، ممتلئ الجسم بعنق ثخين بعض الشيء، في أواسط عمره، بكرشٍ، وخدّين سمينين في وجه عريض، وصوت رنان ذي وقع حسن. وابنه في واقع الأمر لا يشبهه، إذ كان طويلاً ممشوق القَدِّ ومفتول العضلات. هل سيحفظان يا ترى الأسماء الكثيرة التي ذُكرت أمامهما بالتالي؟ فمع أن الموجودين حول المائدة ينتمون إلى الحلقة العائليّة الأصغر، فقد كان عددهم كبيراً، حتى من دون صغار الأطفال. وكيا تُعدّ في أصغر الموجودين. بابتسامة ودٍّ واحترام حيّاً الأب والابن جميع المذكورين.

بعد أن قدّم الملك إيداندا زوجته الأميرة إيسيت، مضيفاً بفخرٍ جليٍّ إلى اسمها، أنها تتحدّر من العائلة الملكية المصرية في طيبة، سكنت نظرتة عند كيا، وتلامح على وجهه تعبير بهجة، لم تلتقطه إلا خطفاً، لأنها أطرقت بعينها. قال الملك: «هذه سابع أولادي وآخر العنقود وابنتي الوحيدة كيا. وليكن في علمكما أنها ذات يوم ستصبح ملكة!». وضحك مضيفاً برضاً جليّ: «هكذا فُسّرت الإشارات التي رافقت ولادتها!». وبكل ثقة بالنفس ردّت كيا تحية إحياءً وتالزو.

في أثناء ذلك أعطى إيداندا إشارة للخادومات، فبدأن بتقديم الطعام. ووضعن أمام كل ضيف صحناً خزفياً صفحاً فاتح اللون بتعريقات ملونة. وعندئذٍ فقط أحسّت كيا بجوعها الشديد، فتناولت من السلة بعض الخبز الطازج الساخن وغمسته بشهية في هريس الحمص اللذيذ، الذي تحبّه بشكل خاص. إلى جانبه كان هناك بصل مخلّل ذو نكهة حلوة وخيار مخلّل، وقلوب خوص بزيت الزيتون، وعدس صغير، وعجينة من الثوم المهروس والزيت، وجبن الماعز القاسي ذي المذاق الحريف.

ملاً الخدم أقداحاً مخمرمةً بالنبيذ، بينما كانت كيا غارقة في الطعام. لكنها توقفت عند

سماعتها صوت إحيًا يرحوهم السماح له بالكلام، ثم نهض واقفاً وقال: «أيها الملك الكريم إيداندا، أيتها الملكة الكريمة بلتوم، أيها السادة والسيدات. دعوني أعبر عن شكري لكم لوجود ضيافتكم في داركم. ليس فقط لاستقبالكم لنا بترحاب بالغ، بل ولدعوتنا لمشاركتم في هذه المأدبة ولتناول هذه المأكولات الشهية معكم. وحسب التقاليد المتبعة، وكهدية لقاء حفاوتكم بنا، جلبنا لكم معنا أفضل ما تقدمه كيزواتنا: خيولاً أصيلة من مراعي وطننا الخصب. فليشمل أرباب قطنا وكيزواتنا داركم بحمايتهم الدائمة!».

رفع إحيًا قده ووجه بضع قطرات منه إلى الأرباب المخاطبين، ثم شرب جرعة كبيرة. ومع ذكره للخيول الثمينة سرى همس بين الحضور ملاً القاعة. فهذه الخيول كانت مشهورة في الشرق الأدنى كله، لكنها كانت باهظة الأثمان ويصعب الحصول عليها. فهذا الجنس المتين من الخيول كان بضاعة تجارية مرغوبة، ليس فقط بين شيوخ البدو، بل جنوباً إلى أرض كنعان ومصر.

ربت الملك بوذ على كتف إحيا وقال: «الآن صار واجب الشكر علينا يا إحيًا الترشّي!». وصفق بيديه، فظهر فوراً خادمان، دعاهما ليقتربا منه، ثم أمر أحدهما بالتوجه إلى إحيا والثاني إلى تالزو، وتابع: «إليكما هديتنا لقاء الخيول. أردية لا تجدان مثيلاً لها إلا في قطنا»، ناول الخادمان كلاً من الضيفين رداءً مناسبات احتفالية أبيض مطرزاً بأقلام أرجوانية، وأردف: «عربون ذكرى لهذا اللقاء ودليلاً على روابط الصداقة بيننا. وليشملكم الأرباب وأهل داركم جميعاً ببركاتهم!».

لاحظت كيا أن الضيفين قد تأثرا بهذه الهدية. فمثل خيول كيزواتنا، كانت ملبوسات قطنا المزخرقة باللون الأرجواني تقدّر عالياً في طول البلاد وعرضها ووراء الحدود. إذ لا يوجد ما يشبهها في بابل أو أشور أو ميتاني، ولا في مصر. إنها حمرة من ضرب خاص، قاتم ومضيء في الوقت نفسه، يميل إلى الليلكي قليلاً، ولا يبهت مهما غسلته. ولا أحد يعرف من أين يُستخرج هذا اللون وكيف. كان هذا سرّ قطنا الثمين.

رفع إحيا نظره إلى الملك مدهوشاً، ثم انحنى له تعبيراً عن سروره، وقال: «زرت قطنا عدّة مرات، ولطالما أعجبت بصناعة منسوجاتكم ومن صباغتها. أعرف من صديقي تيرو أن أشرف قطنا في الأعياد يلبسون أردية خاصة مزخرقة بهذا اللون الذي لا شبيه له. ما كنت لأحلم بأن أمتلك ذات يوم مثل هذا الرداء، ولا حتى ابني تالزو الذي يقيم لأول مرة بين أسوار المدينة. إننا نشعر بعظيم الشرف لتقديركم العالي لنا، فلکم الشكر!».

«لتتابع الاستمتاع بهذه المأكولات!». بهذه البساطة أجاب الملك وهو يصافح إحيا،

وأردف: «مذاً أيديكما!». فاستجاب الجميع لندائه بسرور. كان الطبق الثاني حساءً زكي الرائحة، محضراً وفقاً للموسم من منقوع البازلاء والكراث والبرغل، وقد نُثرت فوقه وريقات الكزبرة. إنها مأدبة حقيقية، فكّرت كياً، ولاحظت أن أكيزي وتالزو يودّان أحدهما الآخر، وها هما قد رفعا قدحيهما وشربا نخباً. كان أخوها أكيزي يحب الضحك ومحبوباً بين أصدقائه، ومعشوقاً بين الفتيات والصبايا. وصديقتها إهلي نيكالو بعينها البراقتين كانت تمتدح ميزاته ومظهره وقدراته وشجاعته. ولكن كانت له أحياناً لحظات فجائية يكون فيها جلفاً يستثيط غضباً. وعندها كانت كياً تخافه.

على نقيض ذلك بدا لها تالزو أليفاً بطريقة ما. كانت ملامحه ناعمة وحازمة، وعيناها الزرقاوان تشعان عندما يتسم. ولون عينيه هذا كان لافتاً، بل استثنائياً، قد لا يكون أكبر منها سنّاً بكثير. عاودت النظر إلى الشابين عند طرف الطاولة، ولاحظت أن تالزو ينظر نحوها. التقت عيونهما للحظة وابتسم لها، ثم أدار عينيه في محجريهما بهياج كمن جُنّ فجأة. بدا لها المنظر غريباً جداً ومسلماً، ما دفعها إلى الضحك. وعندئذ نظر أكيزي نحوها أيضاً. يبدو أنها كانت موضوع حديثهما. وقد أعجبها ذلك. كانت واثقة من أن جمالها استثنائي، الأمر الذي كانت تؤكده لها صديقاتها باستمرار، وتلفتن انتباهها إلى نظرات إعجاب الشبان بها، لكنها عادة لم تكن توليهم أي اهتمام. إنها تستحق أن تكون موضع إعجاب، فهي أولاً وأخيراً ابنة ملك، بل ابنته الوحيدة.

عندما غادر الضيفان، بعد تناول الفاكهة الطازجة الريانة والحلويات وجرة الخمر الأخيرة، كان الوقت قد تأخر، لكن أكيزي طلب من إخوته البقاء قليلاً، ثم قال: «دعوت تالزو لزيارة القصر غداً ليتفرّج على قاعاته. بوسعكم أن ترافقوه وترشدوه قليلاً. ليس كلّمكم طبعاً، وإلا فإن المسكين سيتلخبط بينكم. ما رأيك أن تقوم أنت بذلك، كوارى؟». هز كوارى برأسه موافقاً، وهو أخو أكيزي الأصغر مباشرة. وقالت كياً: «وأنا سأرافقهما بسرور». ضحك أكيزي وقال: «هذا ما توقعتة. حسناً، كلاكما. يؤسفني ألا أكون معكما، لأنني سأحضر الاجتماع الذي سيخبرنا فيه والد تالزو بأمر مهمّة. وسيدور الحديث أيضاً حول اتفاقية تجارية، وعند ذلك لا بدّ من حضورك أيضاً يا كوارى، سنرى. أنا مطمئن الآن على كل حال لاهتمامكما بتالزو. إنه شاب لطيف جداً، وأنا أودّه. لقد جرّه والده معه إلى جميع المفاوضات، حتى الآن. وهو لم ير شيئاً من المدينة بعد، غير دار عمّنا تيرو ودار البلد بتجارها المملّين. سلباه قليلاً، أنا أعتد عليكما!».

نظر إحياء في وجه تالزو المتعب والمنفعل في الوقت نفسه، وسأله: «هل تسليت جيداً يا بنيتي؟». فأجابته: «لم أكن لأتصور أن الجلوس لتناول العشاء مع عائلة ملكية يمكن أن يكون بهذه البساطة، من دون رسميات احتفالية مبالغ فيها. كانوا جميعهم في منتهى اللطف والودّة. شعرت وكأنني في البيت، ربما بسبب أدوات الطعام أيضاً، فهم يستخدمون مثلنا صحنون جزيرة ألشيا (قبرص) وصحافها الفاخرة».

«هذا ليس مستغرباً أبداً، فهناك علاقات جيدة بينهم وبين جزيرة النحاس. حتى أنني رأيت بعض التجار من ألشيا هنا».

هزّ تالزو برأسه موافقاً. كان والده جالساً على أحد المقاعد المنجّدة تنجيداً سميكاً والمورّعة في الردهة الأمامية. تحرك قليلاً وأضاف: «لكنّ المدهش هو كمّ الأواني الفخارية المستوردة من أهياوا (حوض بحر إيجه). هذا يذكرني باعتزازنا بأباريقنا القليلة المصنوعة من صلصال مخلوط. أما هنا فتجد جميع الفخاريات الضرورية للمائدة والمستوردة كلها من الغرب»، وهزّ برأسه مستغرباً. فعلق تالزو قائلاً: «جزء بسيط منه فقط يأتي من هناك. لقد أخبرني وليّ العهد أن في ورشة الفخاريات الكبيرة التابعة للقصر يشتغل فخاريّ من ميكينوس. لو صوله إلى هنا قصّة حافلة بالمغامرات، كم أرغب في سماعها! رجوت أكيزي أن يعرفني إليه. بالمناسبة يا أبي، أكيزي دعاني إلى القصر غداً. قال لي إن بعض إخوته سيروني قاعات القصر، بينما تتابعون أنتم مناقشة الوضع السياسي، إن لم يكن لديك مانع..».

ما خشيه تالزو حدث، إذ فوراً ارتسم على سحنة إحياء تعبير عدم الرضا. ثم قال مزمجرأ: «أليس واضحاً لك أن ما يأتي في المقام الأول بالنسبة لي هو أن تكمل تعليمك. وإقامتنا في قطننا بالنسبة إليك هي جزء من التعلّم. وأظنّ أننا غداً لن نتحاور حول أحداث الشمال فقط، بل حول اتفاقية تجارية أيضاً. وهذا هو الهدف الحقيقيّ لرحلتنا المجهدة. اتفاقية من هذا القبيل ستمكّننا من الوصول إلى بضائع، لا يتمكن من شرائها عادة إلا وكلاء القصور الكبيرة. فكّر فقط بهدايا الشرف، بهذين الرءاين الفاخرين. إقامة علاقة ثقة خاصة أمرٌ بالغ الأهمّية بالنسبة إليّ. وعليك أن تسهم فيها بنصيب مماثل. فلمن أبني أنا كل هذا، إن لم يكن لك؟ عندما ستخلفني ستجد كل شيء مهياً لك، ولكن حتى ذلك الحين، عليك التعلّم على كل أساليب تعاملنا التجارية، ولا سيّما عقد الروابط والصلوات. وأن تملك القدرة دائماً على التكهّن بوضع الطرف الآخر، وبنقض الأحداث، وأن تكون على اطلاع أوسع من الآخر دائماً، وأن تحيط علماً بكل جديد».

كان إحيًا مستثاراً وهو يتكلم، لكنه ما إن انتبه إلى تعبير الحزن البادي على وجه ابنه كدفاع صامت عن النفس، حتى مال إلى التراخي وقال: «حسناً. لقد أنجزت حتى الآن كل شيء بصورة مُرضية، وإن كنتُ أفتقد الحماسة الأصيلة في عملك. النجوم وحدها تعرف ما إذا كنا سنطرق موضوع الاتفاقية غداً، والأمر يبدو لي مبكراً، فهذا هو لقاءنا الأول مع الملك وولي العهد، ومع الملكة طبعاً. فهنا لا يجوز أن تُستبعد النساء، إذ لهنّ هنا حقوق كثيرة تشبه ما لدينا وما لدى الحثّيين. لا تنس ذلك!». وتابع كلامه كمن يفكر بصوت عالٍ: «ثم إن وجودك مع الأمراء قد يكون مفيداً جداً لك، فمن يعرفُ بصورة مؤكّدة من الذي سيحتلي عرش قطننا مستقبلاً؟! ولكن حتى شهادة حسن السلوك التي سيصدرها الأمراء بحقك، كما أمل، ستكون مفيدة لك». ومال برأسه متأملاً في أفكاره، ثم أردف: «فلنهنّج إلى أسرتنا الآن، فقد تأخر الوقت». فقال له تالزو: «ليلاً هادئاً يا أبي، فليحرس الأرباب نومك!»، «ونومك أيضاً يا بني!». أجاب إحيًا.

دخل تالزو مخدع نومه مكوراً قبضتيه. لقد ضبط نفسه بشدة، كعادته كلما استاء والده وهاج. لا شك في أنه يُضمر له الخير، ولا شك في أنه يفكر بمستقبله. ولكن أيجوز أن يُقيم كل لقاء بأخرين من ناحية احتمال نفعه؟ كان شديد التعب ليتابع التفكير في هذه الأمور، فاستلقى وتغطى بالشرشف الخفيف. ما الذي سيحمله الغد يا ترى؟ شعر ببوادر بهجة تنمو في داخله لتقشع في أثناء الليل تلبّد الجو بينه وبين والده.

قبل ظهر اليوم التالي أعلن أحد الخدم وصول تالزو إلى القصر. كان نهائياً مشمساً من أوائل الصيف. لم يكن الحرّ شديداً، ومع ذلك لوحظ أثر المسافة التي قطعها تالزو، ولا سيّما الجزء الأخير صعوداً إلى القصر من دار البلد في مركز المدينة. استقبل كوارى وكيا ضيفهما، فابتدراهما قائلاً: «ياه، يا لكثرة درجات هذه الطريق الصاعدة إلى القصر!».

كان صوته عميقاً رخيماً ذا وقع مريح، وتشوب لغته لكنة أجنبية طريفة لفتت نظر كيا لدى والده بالأمس.

«تفضّل لتنعش نفسك أولاً!». قال كوارى مرحباً بضيفه، وقاده مع كيا إلى غرفة صغيرة قريبة من مدخل القصر المنيف الفخم. على طاولة صغيرة هناك رُتبت عدّة صحون مملوءة بتمور طازجة وتين مجفّف وقلوب المكسرات. صبّت له كيا ماءً في قدح، شربه تالزو

بجرعات سريعة، ومدّ يده بالقدح لتملأه له ثانية، وهو يقول: «هذا منعش حقاً!». مدّ يده إلى فواكه الضيافة وأردف: «ماؤكم عذب جداً. إنه منعش وبارد وكأنه من جبالنا!». فانتهزت كيا الفرصة وسألته: «أتسكنون في الجبال؟». كان أسلوب مخاطبتها الآخرين بهذه البدهاء والمباشرة سمة مميزة لشخصيتها، وهو أمر غير مألوف لدى الفتيات والصبايا اللواتي يتحفظن عادة أثناء تبادل الحديث.

«لا، ليس مباشرة. لدينا دار صيفية في الجبال، لكننا نقيم في ترشا، وهي تقع على نهر ينبع من أحد جبال سلسلة طوروس القريبة». فتدخل كواري مقاطعاً إيّاه: «ظننتُ أن ترشا تقع على البحر».

«كلاهما صحيح. المدينة تقع على طرف سهل كيزواتنا الخصب المتشكّل من فيضانات عدّة أنهار. وشاطئنا ضحل، وغالباً مستنقيّ. ولذلك فالمدينة ليست على البحر مباشرة، بل إلى داخل البرّ قليلاً؛ حيث التربة جافة وصلبة للبناء. النهر يعبرها في منتصفها وضيقتاه تشكّلان سوراً من الموانئ والمتاجر والمراسي. قبل مصبّ النهر بقليل يشكّل البحر ما يشبه بحيرة شاطئية تتسع لكثير من السفن. هذا يعني أننا على اتصال مباشر بالبحر، وفي مكان آمن في الوقت نفسه، فلا نخشى عواصف البحر المدمّرة ولا أمواج المدّ ولا هجوماً عسكرياً بحرياً. جميع صفقات كيزواتنا التجارية البحرية تجري هنا. على مسافة قليلة إلى غرب المدينة يبدأ الساحل الصخري الشديد الانحدار الذي لا يسمح برسوأيّ سفينة، أما الشريط الرملي الضيق فيسهّل الأمر على المراكب الصغيرة والقوارب. إضافة إلى ذلك فإن اقتراب الجبال من البحر على طول الشاطئ يجعل من الصعوبة بمكان إقامة تجمّعات سكنية، ولذلك فهي معدومة».

قطع تالزو محاضرتة ليلتقط أنفاسه وليأكل حبة فاكهة.

«وماذا عن موضوع الماء؟». تابعت كيا استفسارها.

«الماء يُنقل من الجبال، في المناسبات الخاصة، وتحديداً لأولئك القادرين على تمويل أجور نقله. سوى ذلك لدينا في المدينة آبار، كما أننا نستخدم ماء النهر».

«هل سافرتما برّاً أم بحرّاً؟».

«جئنا عن طريق البرّ، وهي رحلة تجارية من موقع تجاريّ إلى آخر».

«أمر مثير! احكِ لنا!». شجّعته كيا، وأنصتت متوقّعة مزيداً من الإثارة. ضحك تالزو مرتبكاً، فقد أدهشه هذا الترقّب غير المألوف لما سيرويه، فقال: «أخشى أن تملّوا» وبعد

لحظات أردف: «سافرنا من ترشا إلى أدانيا، وهي عاصمة كيزواتنا»، هز كوارى وكيا رأسيهما، فتابع: «لوالدي هناك بعض أصدقاء العمل المساهمين في قافلتنا بالبضائع وبالطلبات كذلك. بعضهم حملنا رسائل، فسجلتُ لائحة بكل شيء، كي لا ننسى أين وماذا يجب إنجازه هنا وهناك. كما حصلنا من السلطات على وثائق السفر الضرورية، فالطريق إلى قطنا طويلة تستغرق كثيراً من أيام السفر، وتمرّ بعدة بلاد بينها ميتاني، والأحوال هذه الأيام مضطربة!».

لم تكن النزاعات الدائمة في المنطقة التي يسيطر فيها الميتانيون، جديدة على كوارى وكيا. فسألته كيا: «أهذه رحلتك الأولى؟». فهزّ رأسه موافقاً وتابع: «آخر محطة في كيزواتنا كانت لاوازنتيا القريبة من خطّ الحدود. وزيارة الربة شاونشغا في معبدها هناك واجب، إذ يحتاج المرء إلى بركايتها لعبور الجبال التي ترتفع بعد السهل مباشرة. لقد توقفنا في مدن كثيرة، لدرجة أنني ما عدت أتذكر أسماءها. وفي كل مكان كان أبي يعرّفني بشركائه في العمل. إنه يريد أن أخلفه ذات يوم في الأعمال التجارية، وهي في كيزواتنا أقدم المهن وأكثرها احتراماً». وتنهّد تالزو بصوت خافت، وقد كسا وجهه تعبير ضيق. لذلك سأله كوارى: «لكنك لا ترغب في ذلك؟». فأجاب: «أهذا واضح على وجهي؟». فردّ كوارى: «لا تبدو سعيداً جداً، على الأقل». فقال: «هذا صحيح. اعذرا صراحتي! لا أشعر بالفرح في أجواء التجارة. أحبُّ أن أقرأ وأن أكتب، ولكن لا اتفاقيات تجارية ولا قوائم البضائع. أجد الأمر مثيراً أن أطلع على ما يصدره كل بلد، مثل الأحجار الزرقاء الثمينة التي نشترىها من عندكم هنا، والتي تأتي من أقصى الشرق البعيد. أما أن أشغلّ بالي بما يقايض عليها وبأية أسعار، وإلى أين يجب أن تُصدّر وماذا يُستورد لقاءها ومن أين، فهذه أمور لا تهمني». «ماذا تحبّ أن تعمل بدلاً من ذلك؟».

«أرغب في أن أصبح رسولاً، وأفضل أن أكون سفيراً لملك حتوشا، فهو حاكم عظيم، سيسمع العالم الكثير عنه! وقد حقّق الكثير حتى الآن في فترة حكمه القصيرة». كان جلياً مدى إعجاب تالزو بالملك شويلوليوما وحماسه له. وكان ردّ فعل كوارى، الذي يكبر كيا بعدة سنوات، موضوعياً هادئاً ومتزناً في سؤاله: «ما الذي يدفعك إلى هذه الخطط الجريئة؟».

«أعتقد أنني أحسن التوسّط بين طرفين متنازعين، أو أن أنقل رسالة إلى شخص ما، دون أن أجح كرامته. إضافة إلى ذلك لديّ رغبة عارمة بالترحال للتعرفّ على بلاد غريبة

والتعرّف على سكانها وتعلّم لغاتها للتفاهم معهم. من حسن حظّي أنني لا أجد صعوبة في تعلّم اللغات، فإضافة إلى لغتي الأم أتكلّم الحثيّة واللوفية والأكدية».

فعلقت كيتا بخبث: «الأكدية بديهيّ، أما الحثيّة فلا يتقنها سوى والدنا». وأضاف كوارى بشيء من الفخر: «وكيتا تتقن المصرية عن طريق أمها». فسألها تالزو وهو ينظر إليها بإعجاب: «وهل تتقن الكتابة والقراءة أيضاً؟». فأجابته: «طبعاً، والحساب أيضاً، تصوّر!».

التفت كوارى إلى تالزو مخفّفاً من وقع المفاجأة عليه بقوله: «لدى كيتا نهمٌ للعلم منذ صغرها. وذات يوم جعلت الملك يأذن لها بحضور الدروس معنا، نحن إخوتها. هذه ميزة كونها الابنة الوحيدة ومدلّلة أبيها».

نظر كوارى إلى أخته بحبّ، فقد كان الأقرب إليها بين جميع إخوتها. ربما لأنه كان يعاملها معاملة النّد في الحديث رغم فارق السنّ الكبير بينهما: عشر سنوات كاملة. علّق تالزو على ذلك قائلاً: «أجد هذا أمراً رائعاً. بادئ الأمر فقط أحسست به مفاجئاً ومستحيلاً. من ناحية أخرى يحدث في توشا أيضاً أن بعض الفتيات يتعلّمن. ضرورات الحياة في المدن تملي ذلك، لا سيّما في المدن التي تعيش من التجارة. فالأبناء الذكور والأصهار لا يتوفرون دائماً».

عقبت كيتا بلهجة استفزازية: «وربما يتعلّق الأمر ببساطة بكوني أميرة، ولست ابنة أحد التجار». فنظر تالزو في عينيّ كيتا مضطرباً. وبما أن كوارى يعرف أخته جيداً، ولم يكن راغباً في تركها تخوض في أحد جدالاتها التي تحبّ إثارتها بشغف كبير وإن من دون خبث، فقد أسرع بسؤال تالزو: «إذا لم تكن راغباً في أن تصير تاجراً، فلماذا لا تخبر أباك بالأمر؟ لا شك أنه سيرضى ويبارك دخولك في سلك البلاط».

«الأمر ليس بهذه البساطة، كما تفكّر. يحتمل وصولي إلى الملك نفسه، فأمي تنحدر من العشيرة الملكية في حتوشا. لكنني الابن الوحيد، ومن دون أخوات أيضاً».

«تقصد من هذه الأم. أليس لأبيك زوجات أخريات؟ أم أن هذا غير مألوف في كيزواتنا؟».

«لا، بل مألوف. أمي هي زوجته الوحيدة وأنا ابنه الوحيد. غريب، أليس كذلك؟ وأمي امرأة تقيّة جداً، وغالباً حزينة. ربما لأنها لم تنجب أطفالاً آخرين، لا أدري. لم تنظرني إلى هذا الأمر قطّ، وأنا أحجل من سؤالها أو سؤال أبي حول الموضوع».

نظرت کیا إلى تالزو مفكرة. ما سمعته منه جعلها تأسف لحاله، لكنها استغربت الأمر. أبوها إيداندا ملك، والملوك يتزوجون أميرات. إلا أن والد تالزو كان تاجراً فحسب. لا شك في ثرائه وكونه من عائلة عريقة في القدم، ولكن أن يتزوج امرأة من الأسرة الملكية فهذا غير مألوف أبداً. لقد سمعت أن التقاليد السائدة في حتوشا صارمة جداً، وثمة شروط كثيرة لا بد من الالتزام بها. أهناك يا ترى أمور أخرى وراء هذه الحكاية؟ هل كانت تصوراتها عن وضع إحيًا في كيزواتنا مغلوبة تماماً يا ترى؟ في قطنا كان التجار مستقلين، يتاجرون لحسابهم الخاص في الأرباح والخسائر، وليس بتفويض من الملك ولحساب الملك. بل هم من كان يمول الملك، الذي يُعدُّ واحداً منهم، كي يقوم بواجباته تجاه المجتمع. وكان للعائلة الملكية لا شك استثماراتها الخاصة، التي يشرف عليها شقيق الملك الأصغر والذي سيخلفه كوارى ذات يوم. واعتقدت کیا أن الوضع في كيزواتنا لا بد أن يكون مشابهاً. فتابعت استفساراتها: «ألديكم بلاط خاص بكم، أم أنكم تتبعون مملكة حتوشا؟».

لكن كوارى قاطعها قائلاً: «كفى أسئلة الآن، ولنذهب لمشاهدة القاعات!». فقال تالزو مع ابتسامة تشي بارتياكه: «لست منزعجاً».

فكرت کیا بأنه ندر ما تسمح له الفرصة للتعبير عن همومه، كابتةً بذلك شعوراً بالقلق أثاره تالزو في داخلها. ثم نهضوا تلبية لملاحظة كوارى، فيما قال تالزو بلباقة: «بودي طبعاً مشاهدة هذا القصر الذي تجاوزت شهرته الحدود، ولا سيما قاعة الاستقبال. بالأمس عبرناها بسرعة، وتركت عندي فوراً انطباعاتاً بروعتها. كثير من البلدان والقصور لم أزرها بعد، لكن ما رأيته هنا لا مثيل له».

بغض النظر عن الجهة الذي يدخل منها المرء، تُخلف قاعة الاستقبال في نفسه انطباعاتاً طاعياً، وقد انطبق هذا حتى على کیا وكوارى اللذين يعبرانها يومياً. لكنها كانت تبدى في أبهى جمالها من الطرف الغربي. من البوابة المركزية حيث يقفون الآن رأوا قاعة مرتبة هائلة، زُين جدارها الصدريّ بلوحات ملونة. ومن بين الأعمدة التي تحمل السقف الواسع العالي يطل المرء على الممرّ المقابل البالغ الزينة والمؤدي إلى القاعة التالية الواقعة على المحور نفسه. وفي الوسط بين الأعمدة الأربعة كان هناك حوض بازليّ هائل الحجم، يستخدم مدفأةً بالفحم أو موقداً للنار.

قال كوارى: «هنا تُعقد اجتماعات أشرف قطنا. كل ضلع من أضلاعها يعادل طوله

خمسین متراً. في آسيا كلها لا يوجد أكبر من هذه القاعة الملكية، ولا حتى في ماري أو بابل أو ميتاني، ولا حتى في مصر»، وأردف باعتزاز جليّ: «أترى هذه الأعمدة في الوسط؟ قواعدنا نحتت من حجر البازلت القاسي، أما الأعمدة نفسها فهي جذوع أرز قديمة جداً من الجبال المجاورة».

«في الجبال عندنا يوجد أرز أيضاً. لكنني لم أر سابقاً جذوع أرز بهذه الضخامة»، قال تالزو وهو يجول بناظره ممتلئاً دهشة.

في أعلى الجدران الأربعة، تحت السقف الواسع العالي مباشرة، توجد فتحات نوافذ تزود القاعة بضياء النهار. وفي منتصف السقف فوق الحوض مباشرة يرتفع جدار دائري مليء بالفتحات لخروج الدخان ودخول النور في الوقت نفسه. تابع كوارى شرحه قائلاً: «عند عقد الاجتماعات في فصل الشتاء البارد، تبدأ تدفئة القاعة في هذا الموقد قبل أيام». أوما تالزو برأسه وقال: «بيدولي قطر الموقد أكثر من ثلاث أذرع، أمر لا يُصدّق!». ثم استدار نحو ممر آخر، وسأل: «إلى أين تؤدّي هذه البوابة؟».

«إلى خارج القصر، إلى بيت ربة المدينة وإلى البوابة الجنوبية لسور المدينة»، أجابته كيا. ثم داروا حول الموقد الكبير، وتابع تالزو يسأل: «وماذا يوجد هناك إلى جانب المدخل؟».

«هذا هو المحراب المقدس، مقرّ ربّتنا في القصر، ربة الحب والردع، حامية القصر والملك، سيّدة المدينة، يلبت إكآليم»، أجابت كيا بخشوع يعبر عن تقاها، وأضافت: «هنا نتعبدها في أيام الاجتماعات. هنا نتلو صلواتنا ونقدّم لها المأكولات والمشروبات، هنا نشعل لها البخور».

صمتوا خشوعاً لحرمة المكان، ثم مدّ الفضول جسراً إلى المعرفة، فقال تالزو: «أودّ أن أرى المزيد، فقد مرّ كل شيء بسرعة بالأمس».

كان واقفاً في الركن العظيم الذي يحتلّ منتصف جدار القاعة، ومنه يعبر المرء إلى القاعة التالية. على جانبي الممرّ نفسه انتصب عمودان، أسدلت بينهما ستارة رائعة مزينة بتطريزات متنوعة وغنية. رفع كوارى طرفي الستارة قليلاً ليعبروا. كانت مساحة قاعة العرش تعادل نصف مساحة قاعة الاجتماعات. مقابل المدخل مباشرة عند الجدار يرى المرء العرش الذهبي المهيب منتصباً على قاعدة. مسند الظهر ومسندا الذراعين ومربع الجلوس منجدة كلها بقماش أحمر. وقد نُحتت أرجل العرش كقوائم أسد. وعند منتصف

الجدار الأيمن كان هناك عرش ثانٍ مزين كالأول بالعاج المحفور والتعريقات الذهبية، لكن قاعدته كانت أقل ارتفاعاً من الأول.

«هناك على الجدار الجانبي للقاعة ترى عرش الملكة، وهذا المواجه لنا هو عرش الملك. الصناديق الكبيرة هناك تستخدم لوضع الهدايا أو الضرائب التي يأتي بها الزوار. هنا» وأشار كوارى إلى لوحة جدارية إلى جانب عرش الملك «ترى سيدة المدينة وهي تقدّم للملك رموز السلطة: إكليل الرأس والوصولجان».

«يا لروعة هذا الرداء الذي يرتديه الملك، بكل هذه الأهداب! وكل هؤلاء الأرباب وهاته الرباب، والأشجار والحيوانات، النخيل والأرز والطيور والأسماك! أهذا من حيوانات الأرباب؟». وأشار إلى حيوان رماديّ ضخم بخرطوم طويل. فضحكت كيا وأجابت: «إنه الفيل. لكنه ليس من حيوانات الأرباب، بل حيوان حيّ يرزق، ضخم جداً له نابان طويلان خطران. يعيش في قطعان صغيرة ويلتهم جبلاً من الأعشاب». وأضاف كوارى: «لم يعد يوجد الكثير منه في سوريا. أنيابه ثمينة جداً، ولا يحقّ لأحد أن يمتلكها سوى أمراء المناطق التي تعيش فيها الفيلة، ولا يجوز إلا لحرفيين اختصاصيين معالجة هذه المادة الثمينة، وهنا في القصر فقط».

تابع كوارى ماشياً نحو بوابة القاعة التالية التي يوجد مدخلها في آخر الجدار الطولاني، وهي بالحجم نفسه وجدانها مزينة باللوحات، وقال: «هذه قاعة الاحتفالات، والمخرج في الطرف المقابل يؤدي إلى المستودعات وغرف الخدمات، ومن هذا الجانب، كما تعرف، تصل إلى غرف معيشة العائلة الملكية. تعال سنريك الجانب الآخر أيضاً». وتقدمتهما كيا وهي مسرورة بالانطباع العميق الذي تولّد في نفس تالزو عمّا رآه وأدهشه، وباهتمامه بالتفاصيل الصغيرة، ما ينسجم مع مزاجها.

فعلّق تالزو: «لم أشاهد اللوحات الجدارية بصورة جيدة بعد، ولا البوابات المزخرفة». لكن كوارى اعترض قائلاً: «لنمنح أنفسنا استراحة قصيرة أولاً! دعونا نعيش أنفسنا في الباحة ونتناول بعض الطعام، فحسب فرقة معدتي صار الوقت عزّ الظهر».

في تلك اللحظة تقدّم منهم خادم، انحنى والتفت إلى كوارى وقال: «سيدي أكيزي أرسلني لأرافق الضيف إليه». وفي التوتلاشت فرحة كيا، فقد كانت مستمتعة برفقة تالزو، وكانت راغبة في أن تطرح عليه كثيراً من الأسئلة، فالحوار معه مريح. غير أنه كان قد اعتذر بقوله: «شكراً لكما، كانت جولة رائعة. يمكن أن نلتقي ثانية قريباً، ولربما بعد الاجتماع

مباشرة. والدي وأنا سنبقى هنا نحو شهر أو شهرين، وستسبح فرص كثيرة للقاء ثانية». وبدا عليه بوضوح صدق أسفه لتركهما. تابعها بنظرهما وهو يسير وراء الخادم باتجاه قاعة الاستقبال. امتلأت كيا غضباً، فلا يحتاج أكيزي إلا لإصدار الأوامر حتى ينفذ الجميع مشيئته.

«إنه إنسان لطيف جداً!». قال كوارى بعفوية، وأردف: «وأعتقد أننا سنصبح أصدقاء». فقالت كيا: «هذا صحيح» وتركت العنان لخيبة أملها مردفة: «لكنه في نهاية المطاف ليس إلا ابن تاجر». فردّ كوارى: «هذه الملاحظة لا تتناسب مع شخصيتك تماماً، يا أختي الصغيرة!». عَضَّت كيا على شفتيها. لماذا لا تسيطر على نفسها بصورة حازمة؟ وأحسّت الدموع تغرغر في عينيها، فاستدارت من دون أية كلمة ولجأت إلى مخدعها.



تناول تالزو مع وليّ العهد أكيزي وجبة غداء لذيدة، تبعها بعد الظهر جلسة حوار مستفيض، ثم ودّعه واتجه إلى مركز المدينة مبتهجاً. بدأ النهار يأفل واضطرّه انحدار الطريق إلى المسير في قوس واسع. نزل كثيراً من الدرجات، ثم سار بموازاة المنحدر الشديد الذي يتوجّه القصر الملكي.

صحيح أنه يعيش في ترشا في منزل واسع أعلى المدينة، تتبعه مستودعات فسيحة ومتجر خاص في أفضل بقعة على الميناء، حيث لا ينقصه شيء، ولكن مهما عاد بذاكرته إلى الورا كان جوّ المنزل غالباً هادئاً. حتى الخدم والعييد كانوا يخفضون من أصواتهم حالما يقتربون من جناح مسكن العائلة. كان بعض الضيوف طبعاً يزورونهم بين الآونة والأخرى، وهم غالباً من التجار الأصدقاء. لكنه لم يسمع في منزله سابقاً هرج أصوات مرحة كالذي سمعه أثناء المأدبة في قصر الملك إيداندا.

عندما كان صبيّاً صغيراً أمضى معظم أوقاته مع نساء: أمه، مربّيته، عمّاته العانسات وأخريات من الأقارب، وكنّ كلهنّ يدلّنه جداً. وقلّما كان يلتقي بوالده. إذ لم يكن مألوفاً أن يبقى الوالد في غرف النساء. كان أحياناً يصطحبه معه إلى الميناء، فيُريه السفن والقوارب ويخبره عن الأماكن التي أتت منها وعن حملتها. كان دائماً يستمع إلى والده مندهشاً، ومن ثمة عندما يعود إلى النساء، يشرّد حالماً بالسفر على إحدى تلك السفن حتى مصر النائية.

لم تكن أمه تحبّذ المشاوير مع الوالد، بل كانت تمضي جَلّ وقتها مع الأرباب، سواء الذين تعرفهم من موطنها حتوشا، أو أرباب موطنها الجديد في كيزواتنا أيضاً. ما كان ينقضي يوم من دون أن تصلّي لأحدهم أو لعدد منهم، في الغرفة المجاورة لمخدع نومها، حيث تقدّم لهم الأضاحي وتتلو صلواتها. وكانت تصطحب معها عادةً تالزو الصغير، ليشاركها الصلوات ولحضور كثير من الشعائر المقدسة، حتى باتت أمراً مألوفاً بالنسبة إليه. وكانت تأمل بكل جوارحها أن يلتحق بخدمة المعبد ذات يوم، وكان يعرف ذلك، ولكن ليس بما يتعارض مع إرادة إحياء، التي لها المنزلة الأولى.

ما زال تالزو حتى الآن يتذكّر اليوم الذي شُمح له فيه بالانتقال إلى غرفة خاصة به. وقد ارتبط ذلك ببده تلقية الدروس، فحضر إلى المنزل معلّمون مختلفون علّموه القراءة والكتابة والحساب. كما علّموه اللغة الأكديّة، لغة التجارة عامّة، والضرورية لعقد الصلوات في الجنوب، إضافة إلى تدريبه على كتابة الحروف المسمارية المستخدمة في كتابة اللغة الحثيّة أيضاً التي كانت أمه تكلمه بها كلّما كان ذلك متاحاً، حتى أتقنها كاللغة الحورية. وهذا كله أدخل البهجة إلى حياته إضافة إلى التغيير. وكان يتحمّس خاصة للاطلاع على البلدان الأجنبية.

توقف تالزو عن متابعة المشي، لشعوره فجأة بالوحدة. صحيح أنه كان يفضّل البقاء وحيداً، ولكن غالباً ما كان يغمره التوق إلى رفاق لعب وإلى إخوة وأخوات. إنه لم يحتكّ بفتيان في عمره، وغالباً من المتدريين والمساعدين، إلا عندما صار والده يُكثر من اصطحابه معه إلى المتجر ليعرفه منذ الصغر على واجباته القادمة. لكنهم كانوا يعاملونه بخجل لكونه ابن السيد.

في أثناء ذلك وصل تالزو إلى البئر في مركز المدينة، وكانت الشمس قد اختفت وراء الأسوار العالية المحيطة بالمدينة، وامتدّ الغسق بين الأبنية، وسرعان ما سبّبعه الظلام. التفت إلى الورا ورفع نظره نحو القصر، وتهيأ له أنه يرى نوراً على الشرفة. مع الحركة نفسها وقع نظره على الزقاق المقابل وقد خرج منه للتوّ مضيئه تيرو، فتعرّف فوراً رغم أنه كان لا يزال في الظل. وأراد التوجّه نحوه عندما لاحظ أنه لم يكن وحده. كان يسير إلى جانبه شخص يلبس عباءة طويلة داكنة اللون ويغطّي رأسه بعمامة. دخل تالزو زقافاً جانبياً ليفسح لهما في المجال كي يمرّا، فالتقط بمحض المصادفة حواراً قصيراً بينهما، إذ إنهما لم يتابعا طريقهما، بل توقّفا عند البئر. سمع صوت الشخص يقول: «يجب أن نشدّد رقابتنا عليه. أخبرني يا سيدي بكل تحركاته كلّما سنحت لك فرصة لذلك!».

فأجابه تيرو: «اعتمد عليّ في ذلك، سأخبرك باستمرار».

«أرسل إليّ رسولك، وعليه كإشارة أن..». في تلك اللحظة اقتربت من البئر بعض النسوة ضاحكات، فلم يفهم تالزو بقية الجملة، وسرعان ما ستر الشخص وجهاً بشالٍ كتفيه. حتّ تالزو خطاه في الزقاق الجانبيّ كي لا يلتقي تيرو الذي استدار في اتجاهه بسبب النسوة. وكان السكان قد أوقدوا المشاعل على أبواب دورهم لإضاءة الدروب.

كان تيرو قد أنزل شريكه التجاري وصديقه إحيًا في جناح الضيوف في داره، ليقيم فيه مع تالزو طوال مدّة وجودهما في قطنا. فالعلاقة بين العائلتين تعود إلى عدّة أجيال، أي إلى أيام قطنا الذهبية، حسب معلومات تالزو، حينما كانت قطنا مهيمنة سياسياً على سوريا حتى أرض كنعان، وحينما كانت كيزواتنا بلداً مستقلاً يمسك بخطوط التجارة بين ممالك منطقة الأناضول. وغالباً ما كان تجار كيزواتنا يتجشّمون مشقّات الرحلة إلى قطنا، فيما يتجه تجار قطنا شرقاً وجنوباً. وحتى اليوم ما زال الوضع على حاله، ولكن الظروف اختلفت: فقد باتت قطنا واحدة من ممالك المدن الصغيرة، مثل أغاريت الغنية على الساحل الغربي، ووقفت نشاطها على التجارة، تاركة الصراعات العسكرية والدبلوماسية للقوى الكبرى. كيزواتنا كذلك وجدت لنفسها دوراً في لعبة الأمم، فناورت طويلاً بحذق كي لا تضيع بين ميثاني وحتوشا. ومؤخراً أدّى اكتشاف معادن غامضة إلى إيقاظ جشع القوى المجاورة، فكان لا بدّ لكيزواتنا من أن تحسم أمرها. انحاز الملك والأعيان إلى جانب حتوشا الصاعدة، فكانت النتيجة تحالفاً يربط البلدين أحدهما بالآخر. وفي الخريف القادم سيُحتفل في أدانيا بتنصيب نائب الملك المعظم شويلوليو ما حاكماً. مع هذه الفكرة كان تالزو قد بلغ دار تيرو حيث ينتظره والده إحيا الذي بادره بقوله: «لقد أطلت الغياب»، فظهرت على وجهه نظرة تساؤل، ثم قال: «نعم يا أبي. الأمير كوارى والأميرة كيا أرياني قاعات القصر، وأمضيت بقية بعد الظهر مع الأمير أكيزي. مداولتكم انتهت عند الظهر، أليس كذلك؟». أوماً إحيا برأسه موافقاً. فأردف تالزو: «الأمير أكيزي يا أبي سألني عما إذا كنت أرغب في مشاركة شباب قطنا في تدريبات القتال». فابتسم إحيا ابتسامة رضا وقال: «أرى أنهم يريدون ضمّك إلى نخبة المستقبل من شباب أعيان قطنا. وبماذا أجبت؟».

تردّد تالزو بالكلام قليلاً ثم قال: «قلت له إنني في ترشا كنت مشغولاً بأمر أخرى، ولا خبرة لي بهذه التدريبات، لكنه كان من الكرم أن عرض عليّ تخصيص مدربٍ ليهتمّ بي حتى أبلغ مستوى الآخرين. يمكنني قبول هذا العرض، أليس كذلك يا أبي؟».

أجاب إحيا بإيماءة موافقاً وقال: «طبعاً. هذا شرف كبير، وسيفيدك عندما لا تكون منشغلاً بالجلوس والكتابة. ومن المهم لك أن تقيس نفسك بالنسبة إلى الآخرين». رنح تالزو نظره إلى والده مدهوشاً، إذ أحسّ به اليوم رؤوفاً على غير عادته. هل تحققت الاتفاقية التجارية يا ترى؟ وإلا فما هو تفسير هذا التحول في مزاجه؟ لكن إحيا أردف قائلاً: «لكنني أعتز بأنني كنت أفضل وجودك معنا عند إبرام جميع الصفقات كما تعلم. ففي نهاية المطاف قد يصيبني مكروه أثناء رحلة العودة إلى البلد، لا قدر الأرباب»، وأشار بيده إشارة تبعد عنه الشرور، وأضاف: «لكن غداً يوم آخر. أما الآن فانعش نفسك والبس رداءً نظيفاً. فنحن مدعوّان إلى العشاء. يمكنك لاحقاً أن تخبرني عن تجاربك».

في أثناء تناول طعام العشاء ناقش تيرو ووالده تفاصيل أعمالهما التجارية، فيما استمتع تالزو بأن يُترك لشأنه، متابعاً أفكاره، مستعيداً أحداث اليوم الغني، سارحاً في جمال كيتا ذات العينين الحيويتين البراقتين وهي تطرح عليه أسئلتها الجادة.

أما ما مرّ به على طريق عودته إلى الدار، فقد غاب عن ذهنه.

«يا إخوتي ويا أعيان قطناً! لقد أرسلت في طلبكم لحضور هذا الاجتماع، لأحيطكم علماً بأحداث وقعت، وقد يكون لها بالغ الأهمية في ما يتعلق بأعمالنا التجارية».

تلقت كيتا حولها. كانت القاعة الكبرى مليئة، وفي كل مكان رُتبت كراسي وطاولات صغيرة. لا شك أن الاجتماع سيطول. جلس الملك فوق منصة عالية نوعاً ما، على كرسي بذراعين، تحت مظلة إلى جانب مدخل قاعة العرش، والملكة إلى جانبه. وقد تجمّع حوله كبار التجار من ذوي النفوذ والأعضاء في مجلس الأعيان. أما بقية أعيان المدينة رجالاً ونساءً فقد توزّعوا في أنحاء القاعة وفق الانتماء العائليّ مثل أعضاء العائلة المالكة.

عندما اقترب الملك إيداندا وكبيرة الكاهنات شالا من محراب بيليت إكآليم، نهضوا جميعهم وحجّبوا وجوههم. سحب الملك والكاهنة طرفي الستارة التي تحجب عادةً التمثال المقدّس عن أعين الجميع. كان تمثال الربّة العارية الذهبي اللّماع منتصباً على قاعدة، والربّة تحمل بيديها أمام بطنها إناء يتدفق منه، بصورة عجيبة أثناء الاحتفالات، ماء رقرق ينسكب على صحيفة. وعلى جانبيها يوجد تمثالان حجريان لملكين جالسين من أسلاف ملوك قطناً، يبدوان كحارسين، وقد كُسيّا بشكل احتفالي برداءين أرجوانيين

فاخرين مزيّنين على الحواف بشرط عريض من الأهداب مع ترك الذراع اليمنى لكل منهما حرة، تحمل بيدها صحيفة لتلقي الأضاحي. بدا وجهها الملكين وكأنهما حيين، ولا سيّما العينان الملوّنتان، أما الشعر الأجدد المتموّج والكثيف فقد نُبت بطوق ذهبي رفيع كالذي يضعه الملك اليوم.

كانت سيدة المدينة بينهم، لقد شعرت كيّا بذلك، ولم تجرؤ على رفع عينيها أثناء وضع إيداندا وشالا قرابين الطعام والشراب على صحفتي التمثالين. فاحت من القرابين روائح اللحم والخبز والجة الطازجة، تكريماً للأرباب وتوسلاً لدعمهم المدينة. امتلأت القاعة بأصوات الغناء وعزف القيثارات، فارتعشت كيا وقد داعب أنفها عبق خشب الأرز والزيت الفاخرة الطيبة الرائحة.

أخذت كيا شهيقاً عميقاً وأغمضت عينيها، وقد شعرت بنفسها خفيفة، ليس لأول مرة، بل إنها كلما حضرت هنا أثناء الطقوس المقدسة المترافقة مع إشعال البخور، كان ينتابها إحساس بأنها تسبح في الهواء، وكأن ثمة ما حملها وأخذها بعيداً. فكانت ترى تحتها المدينة بأسوارها العالية وبواباتها المتينة، ثم تأتي الحقول الملأى بالمزروعات وبساتين النخيل ثم المراعي. وكانت تسمع حفيف السنابل وهي تتمايل مع الريح، ثم خريز نهر أراتو المزدب، ثم ترى الجبال المتلألئة في أشعة الشمس وهي تسبح عبرها حتى البحر. ولكن سرعان ما اكفهرت السماء ولمع البرق وقصف الرعد، وارتفع ماء البحر متسلقاً الفضاء هادراً حتى التصق بالسماء كجدار ينذر بالخطر. ثم هجم عليها كموجة ملتفة هائلة جاهزة للانقضاض عليها والتكسر فوقها. أرادت أن تصرخ، لكن صوتها خذلها من الفزع.

بالسرعة نفسها التي تواردت فيها الصور إلى مخيلتها، عادت وتلاشت. عندما فتحت كيا عينيها وجدت نفسها جالسة في مكانها محمية بذراع أمها، فنظرت كيا إليها مرتبكة مضطربة. كانت ستائر المحراب قد أسدلت ثانية واختفت القرابين وتلاشت الأصوات.

همست إيست في أذنها: «ماذا رأيت يا صغيرتي؟». وأردفت: «يمكنك إخباري فيما بعد»، كي لا تلفت انتباه الحضور إليها وإلى ابنتها. ناولت إيست ابنتها طاسة ماء، بختها منها برذاذ خفيف لتباركها حسب العادة المصرية. شربت كيا قليلاً وتوقفت، فقالت إيست بالحاح: «كُلّي شيئاً أيضاً» وكسرت لها قطعة خبز. لم ينتبه إليهما أحد، بل كان الجميع ملتفتاً نحو الملك الذي تابع قائلاً: «أيها الأشراف، ثمة مستجدات بلغتنا أخبارها، تؤكد ما وصلنا في تقارير مخبرينا حتى الآن وتضيف إليها كثيراً من التفاصيل. اسمحوا لي بدايةً أن ألخص لكم الوضع القائم:

لقد نجحت مدينتنا حتى اليوم في الحفاظ على استقلالها. وعلى نقيض معظم المناطق السورية والكنعانية التي يتبع أمراؤها إما مصر أو ميثاني، نستفيد نحن من حماية مصر من دون أن نخضع لها. صحيح أننا قد خسرنا موقع السيطرة على سوريا، لكننا ما زلنا قادرين كالسابق على تحقيق أعمالنا التجارية من دون عوائق. وبمفاوضات حاذقة تمكّنا من النأي بأنفسنا عن نزاعات ملوك القوى العظمى في بابل وميثاني ومصر. بفضل موقعنا عند تقاطع طرق التجارة الدولية المهمة بين الشمال والجنوب والشرق والغرب، ولا سيّما لوقوعنا في نهاية الطريق الخطرة من ترّقا على الفرات وعبر الصحراء حتى الجبال الغربية، تتمتع قطننا بأهمية خاصة بالنسبة إلى جميع الأطراف، ليس فقط بسبب المواد الخام والبضائع التي يتنا مركزاً لتسويقها، بل أيضاً بسبب إنتاجنا الفريد في نوعه، والذي تمكّنا من الحفاظ على سرّ صناعته».

توقّف إيداندا برهة عن الكلام وارتشف قليلاً من نبيذٍ حلويّ مخفّف، ثم تابع: «وإنه لمن مصلحتنا الحفاظ على الأقل على هذه السيطرة التجارية في سوريا، ولكن أيضاً على العلاقات الجيدة القائمة مع ميثاني وجيراننا السوريين ومع مصر كذلك».

وهنا قاطعه أويّسا الناطق باسم مجلس الأعيان سائلاً: «إيداندا الفاضل، أين تكمن مخاوفك التي يُحتمل أن تعكّر حالة الانسجام التي وصفتها؟ من أي جهة يمكن أن يهددنا الخطر؟ الحاكم القوي في أرض النيل حريص على دوام علاقات السلام مع جيرانه»، وتابع متوجهاً نحو إيست بانحناءة تحية: «أليست إيست الفاضلة برهاناً ناصحاً على ذلك؟ وملك بابل أرسل أخته، بل وإحدى بناته، حسبما سمعنا، إلى مصر عربون صداقة. بين ميثاني وبابل يسود السلام، وكذلك بين ميثاني ومصر، علماً بأن هذا الحال ليس دائماً. هناك عدّة أميرات ميثانيات في حريم طيبة. وألم نسمع من مخبرينا أن تمثال الربّة شاشغا (عشتار) الشافية قد نقل للمرة الثانية من نينوى الميثانية إلى النيل للمساعدة في شفاء فرعون المريض؟».

«أنت محقّ في قولك، لا شك في أن الحال حتى الآن كما وصفت»، أجابه الملك إيداندا وتابع: «ولكن بعض الأمور قد تتغيّر، وسبب خشيتي هو ما وصلني من مصادر موثوقة جداً»، أخذ شهيقاً عميقاً وقال: «بعد موت تودهااليا العظيم ملك حتوشا، ضعف الحثيون كما تعرفون. وخلّفه على العرش مات أيضاً». فسرى الهمس في القاعة. رفع الملك يده فعباد الهدوء.

«من الواضح أن قصور الملك في إدارة شؤون البلاد لم يكن السبب الوحيد، بل يبدو أنه قد اقترف إثماً عظيماً. فأصدر أرباب ذلك البلد حكمهم على فعلة المتآمرين الذين يرئسهم الملك الحالي وأقروها، وبالتالي فإن حكم الملك شويلوليو ما مبارك لا لبس فيه». أجال الملك نظره في الحضور ثم قال: «قبل أن أخبركم بما وصل إلى علمي، سأقترح عليكم ما يلي: في دار الشريف تيرو يقيم منذ مدة ضيفاً، التاجرُ إحيًا من ترشا، وهو المفوض التجاري لبلده كيزواتنا. إنه على معرفة دقيقة بمجريات الأمور في حتوشا، لا بسبب علاقاته التجارية الوثيقة معها فحسب، وإنما لأنه يرتبط بصلة قرابة مع العائلة المالكة هناك. ليس الأمر من مألوف عاداتنا، ولكن يبدو لي من المناسب اليوم في هذا الاجتماع الموسع أن نستمع إليه».

لاقى الاقتراح قبولاً عاماً، فاستُدعي إحيًا إلى قاعة الاجتماع، حيث خاطبه الملك قائلاً: «السيد إحيًا الترشي المحترم، نتوجه إليك بالشكر لاستعدادك لمخاطبتنا، ونرجو أن نخبرنا بواقع الأحوال في الشمال!».

«يا أشرف قطنا، سأحاول أن أحيطكم علماً بأهم الأحداث، من وجهة نظري، منذ إمساك الملك شويلوليو ما بزمام الحكم. كان أول ما بدأ شويلوليو ما حكمه به هو استعادة المناطق المفقودة، التي كان قد شارك أباه في غزوها سابقاً. كانت حملته الأولى على أرض أزرأوا التي تقع إلى غرب حتوشا وتمتد حتى بحر أهياوا (إيجه). إذ قويت مملكة أزرأوا نتيجة الحلف الذي أبرمه ملكها (ترهوتترادو) مع الفرعون أمينوفيس لمواجهة حتوشا. فتمكن بذلك من توسيع سلطته حتى كيزواتنا. لكن شويلوليو ما تمكن، بسرعة من إعادة فرض سيطرته على ثوانوا، مجبراً أزرأوا على التقهقر إلى حدودها الأصلية، فأعاد بذلك فتح الطرق نحو الجنوب والجنوب الغربي والغرب. بلدي كيزواتنا أبرم معاهدة مع الملك شويلوليو ما، فحصل بذلك على حمايتها، وعلى كل امتيازات حتوشا، ومنها أن قبل أربابنا في مجلس أرباب مملكة حتوشا وصاروا موضع احترام وتبجيل في المملكة بأسرها».

بذلت كيتا جهدها، لكنها لم تستوعب كل ما جاء في حديث إحيًا، وأدركت أنها لا تملك تصوراً دقيقاً عن أوضاع البلدان والمدن التي وردت في الحديث أو عن الجبال والبحار، مثلما كانت تعتقد.

«بعد هذا النجاح، كانت خطوة شويلوليو ما الثانية هي مهاجمة جاره في الجنوب الشرقي، وهو ألد أعداء حتوشا، أي ميتاني»، وهنا تدخل إيداندا معلقاً: «نحن حصلنا على

نسخة من كتاب توشراتا ملك ميتاني إلى فرعون، فعرفنا منه أن الهجوم الحثي قد صدَّ بنجاح. وأن جزءاً من الغنائم قد أرسلها توشراتا بفخر إلى مصر هديةً، ومنها عربات قتال وخيول وعبيد. نحن نطلق طبعاً من أن العلاقات الحدودية بين الحاكَمين، بهذه المعركة، قد توَضَّحت».

«حالياً، قد يكون انطباعك صحيحاً، لا سيَّما أن الجيش الحثي في هذه السنة قد تحرك نحو الحدود الشمالية لمواجهة القبائل الكشكية». فتدخل أوييا متسائلاً: «عذراً لجهلي، نحن لا نعرف شيئاً بعد عن هذه القبائل الكشكية، فما أهميتها؟».

«هم في واقع الأمر رعاة رُحَّل، لكنهم يُغيرون غالباً وبنجاح على الحدود الحثية الشمالية، فيشكلون تهديداً دائماً. وكان العار الأكبر عندما وصلوا حتى إلى العاصمة حتوشا ونهبوها. الأمر الذي لا يمكن استيعابه، لو كنتم تعرفون تحصيناتها». فعلق أوييا ثانية قائلاً: «لا بد من وجود مواضع ضعيفة في هذه التحصينات، وإلا كيف نجح الهجوم؟ لكن ما لا أفهمه هو ما الخطر الذي يشكله هؤلاء الرعاة الرحل؟ وما يستغل علي فهمه هو اهتمام شوييلوليو ما بهم، فهناك ما يكفي من المراعي في مملكة حتوشا، أليس كذلك؟».

«لا بد من أن تعرف أنهم يعيشون في مناطق جبلية مغطاة بغابات كثيفة، فهم بالتالي لا يملكون مراعي خصبة كافية. ثمة نطاق جبلي طويل يمتد على الحدود الشمالية ويفصل حتوشا عن البحر الأسود الذي يسمى البحر العلوي أيضاً. والمنفذ الوحيد نحو الشاطئ هو حيث يخترق نهر مرسانتا الأحمر الجبل ويصب في البحر عند مدينة زالبا. وعلى نهر مرسانتا تقع مدينة نربكا أيضاً، وكلا المدينتين مقدس من قبل الحثيين، وكتاهما مهدد تماماً بغزوات الكشكيين، هذا إن لم تبقي في حوزتهم. لكن هذا ليس السبب الوحيد لضرورة لجم الكشكيين، بل هناك الثروة الغاية الغنية والمعدن: فهدي السماء - كما يقال - موجودة في أراضيهم».

و شاءت المصادفة أن تلتفت كيا في تلك اللحظة نحو أبيها، فانتبهت إلى الإشارة التي أرسلها إلى أوييا بعينه، وأجابه ذاك بإيماءة برأسه. ما معنى ذلك؟ وتابع إحيًا كلامه: «لا شك في أنكم قد سمعتم بدرجة إتقان صنَّاع المعادن في حتوشا، فهم يتمتعون بسمعة فائقة. وبعضهم لا شك من بلاد كَشْكا. لقد رأيت هناك أسلحة وأدوات ومعدات ما كنت أتخيل أن الإنسان قادر على صنعها. ولا حاجة على هذا الصعيد أن نُغفل كيزواتنا، فجالنا أيضاً خصبة وثرية، وصنَّاع المعادن عندنا يتقنون حرفتهم بحق».

لاحظت كيا أن إختوتها أيضاً قد قربوا رؤوسهم فيما بينهم ونهامسوا. لكنها لم تستغرب الأمر، فالحديث يدور حول السلاح، وهو موضوع مثير لاهتمامهم دائماً. إلا أن حماسة إختوتها أثارت اهتمام المستمعين جميعاً. فكثيراً ما كانت تدور إشاعات حول أسلحة ومعدات قتالية جديدة، ولكن الصعوبة كانت تكمن في الوصول إلى معلومات موثوقة ومهمة حياتياً.

«هذه المرة تمكنت حتوشا من السيطرة على الكشكيين، بعمليات عسكرية قصيرة الأمد. ومن ثم وبسرعة توجه الملك وجيشه نحو مشرق الشمس، وتمكّن من الهيمنة على عدّة بلدان وربطها باتفاقيات تبعية. ولكن لنعد إلى ميتاني. على طريقنا أنا وابني إلى هنا، مررنا بمنطقة حدودية تجاور ميتاني. ومعظم معلوماتنا حصلنا عليها من الملك في مدينة الألاخ. أستغرب أنكم لم تسمعوا حتى الآن، كما يبدو، بأن مكانة الملك توشراتا لم تعد متينة كالسابق». ونظر متسائلاً نحو الملك إيداندا، الذي لم يظهر على وجهه أي تعبير، بل قال له فحسب: «تابع!».

«حسبما قيل لي، ثمة نزاع على السلطة بين توشراتا وأزاتاما الذي يتحدّر من فرع آخر في العائلة المالكة. وهذا حتماً يضعف البلد، لذلك لن أستغرب أن يستغل شويلوليوما هذا الوضع لمصلحته بطريقة أو بأخرى. وهذه التكهّنات المهموسة لا يسمعها المرء في الألاخ فقط». وبذلك، كما بدا، أنهى إختوتها حديثه، إذ انحنى محيياً وجلس على كرسيه.

«والآن أيها الأشراف!». خاطب إيداندا المجتمعين وتابع: «أظنكم تشاركونني قلقي أن ثمة خطراً يهدد جميع الممالك السورية. ها قد عادت حتوشا للتدخل بقوة في الأحداث السياسية، ويبدو لي أن الملك شويلوليوما لن يهدأ، قبل أن يحقق حلم الحثيين القديم بالسيطرة، ليس فقط على آسيا الصغرى، بل على سوريا أيضاً، وأبعد إن أمكنه ذلك. وفي هذا الإطار يهّمه أن تكون مملكة ميتاني ضعيفة. وواضح أنه قد أخضع معظم أعدائه في الغرب والشمال والشرق. لكن السؤال الكبير يبقى: كيف سيكون موقف مصر؟ واقع الأمر هو أنه على الفرعون أمينوفيس الإسراع في مساندة حليفه توشراتا. وميتاني حتى الآن كانت توفر لنا نوعاً من الحماية، لا سيّما أن علاقتنا بأرض النيل وثيقة جداً. أما الآن فإننا نتعرض لخطر أن نُطحن في صراع القوى العظمى».

حلّت برهة صمت. نهض الملك إيداندا، اقترب من إختوتها وقال له: «نشكرك أيها الشريف إختوتها جزيل الشكر لتقريرك الشامل. فليشمكك أربابك وأربابنا بحمايتهم ولتُحط

رعايتهم بك وبدويك. كل بيت من بيوت قطننا يرحب بكم!». واستدعى الملك بإشارة من يده بعض كبار الموظفين وقال لهم: «رافقوا الشريف إحيما بما يليق به من حفاوة!». بعد أن عاد الهدوء إلى القاعة، بادر تيرو إلى الكلام فقال: «يبدو لي أيها الشريف إيداندا أن السماء تتلبّد حقاً بغيوم محمّلة بالشر».

هزّ إيداندا برأسه موافقاً وقال: «لم أرغب بالكلام في الموضوع بحضور الشريف إحييا. ولكن لا يسعني إلا أن أؤكد لكم أن ثمة ما يحتدم ويشكل خطراً كبيراً علينا. نقل إلينا مخبرونا أن شويلوليو ما قد وعد أرتاتما بتمكينه من عرش ميتاني، لقاء إزاحة توشراتا. يا لهذه الغطرسة! فشمس شويلوليو ما ترى من البدهاة أن الحثّين هم من يقرّر أمور العروش. هذا من طرف، ومن طرف آخر، أرى أنه لا بدّ أن نأخذ في الحسبان حاكم آشور الجديد. فحسب تقارير مراسلينا يبدو أنه مصرّ على زعزعة السلطة العليا في ميتاني وتوسيع آشور على حسابها. لقد أطلق على نفسه منذ الآن لقب ملك أرض آشور، وهذا له دلالة كبيرة. ثم إنه قد اتصل بشويلوليو ما، وبدا وجه إيداندا طافحاً بالهموم.

«وما العمل؟». سأله أوييا «ماذا تقترح؟».

«ليس من السهولة الإجابة عن ذلك. وما زال هناك متسع من الوقت في هذه السنة ليقول السلاح كلمته بعد. يحتمل أن تحدث أمور كثيرة. على أية حال لا بدّ من أن نكتفّ استطلاعنا لنبقى مواكبين للأحداث ما أمكن. وأعتقد أنه من الضروري تبليغ الأمراء والمشايخ المجاورين لنا، عن طريق رسل وليس رسائل، وذلك لتجنّب مخاطر أية اضطرابات دبلوماسية».

التفت الملك إلى أقرب المدوّنين إليه وأعطاه بعض التعليمات. ساد القاعة لغط وجلبة. وعندما انتبه إيداندا إلى أن تيرو يريد الكلام، أمر الحضور بالصمت.

«أيها الأشراف، ألا يجدر بنا التفكير بضرورة أن تنتهز الإمارات السورية الفرصة أخيراً لتعاود الاتحاد وتشكّل قوة مرهوبة؟ المعارك ستشغل حتوشا وميتاني لسنوات. ونحن على علاقة جيدة مع المصريين، الذين لا يهتمون بأمرنا إن لم تمسّهم مباشرة، أي عندما تتأخّر عن مواعيد توريد الخشب والبضائع الضرورية الأخرى لهم في وقتها. ونحن نقوم بهذا، وفي المواعيد الدقيقة». جال تيرو ببصره على الحضور، فارتفعت من البعض أصوات مؤيدة. فقال أحد التجار: «صحيح، ما الداعي لأن نكون دائماً تابعين لجهة ما؟». وقال آخر: «ألا ندفع الكثير الكثير ثمناً للحماية، ويطوعنا دائماً؟». وهتف ثالث: «بمواردنا وصلاتنا ومتوجاتنا لا حاجة بنا لأن نختبي. ما هذا الخنوع الدائم! فلنرهم من نحن!».

تعالت الجلبة ويات جلياً أن قسماً كبيراً من الحضور لا يدعم سياسة الوقوف على الحياد التي يحبّها إيداندا وانتهجها حتى الآن مع أنصاره.

«الأجل أن نُطخّن بين خمس جهات في أسوأ الأحوال؟». اعترض أوبيسا بصوته الجمهوري. صمت الجميع، فأردف: «تعرفون أن النجاح مستحيل من دون معركة. فبأي أسلحة وبأي رجال تريدون القتال؟ حتى ولو ركبتكم بأنفسكم العربات القتالية، سيكون الأمر مهزلة في مواجهة القوى المحيطة بنا. ألم يبين المصريون قواعدهم عند بوابات دورنا؟ وكذلك الأمر بالنسبة لمملكة ميثاني، سواء ضعفت مكانة توشراتا أم لا؟ واليوم سمعنا ما يكفي عن طموحات شويلوليوما التوسعية. وهناك احتمال أن تدخل آشور إلى الميدان، وعلينا ألا ننسى بابل طبعاً. لا، أيها السادة، إن موقعنا المتوسط في رأيي لا يحبّد حتى التفكير في الأمر. ذلك أننا لن نفقد فقط استقلالنا الذي ما زلنا نتمتع به حتى الآن، فنذهب بذهابه ثرواتنا، بل إن مدننا ستعرض لخطر أن تُحرق وتُباد. وعند ذلك سنكون في أفضل الأحوال تابعين لجهة ما وعلينا دفع ضريبة التبعية. أتريدون ذلك؟». والتفت باتجاه تيرو وسأله مستفزاً: «ثم هلاً أخبرتنا كيف يمكن تحقيق الاتحاد بين الدولات السورية؟ من من كل هؤلاء الحكام مستعدّ للانحناء احتراماً لملك سوري أعلى منه، متنازلاً عن هيئته الخاصة؟ من؟ هل على قطننا مثلاً أن تخضع لدولة أمورو؟». وجلس منفصلاً على كرسيه، أما المخاطب تيرو فلم يبد أي ردة فعل.

نهض إيداندا وتوجه نحو تيرو وقال له: «أنا أشاطر الشريف أوبيسا رأيه يا تيرو بن ناپليما. قطننا ستكون بخير إن التزمت بخطها السياسي الحذر تجاه جميع الأطراف، التي تعاملنا معها حتى الآن بصورة ناجحة. وحتى أنت يا ابن حدي، أليست تجارئك اليوم أفضل من أي وقت مضى؟».

غادرت كيا مع أمها اجتماع مجلس الأعيان، وقد لاحظت أن القلق باد على وجهها. كان تعبير وجهها، الذي تتحكّم به عادة، أكثر جدية الآن، ما خلّف في وجهها الجميل بعض التشنج. شدّت إيست كيا إليها ونظرت عميقاً في عينيها ثم قالت: «لقد ارتميت فجأة بين ذراعي، هل دخت؟ هل أنت مريضة؟».

كادت كيا تنسى الرعب الذي دهمها صباحاً. وسمعت أثناء الاجتماع عن أشياء كثيرة

جداً، عن أحداث وأسماء كثيرة، ورأت وجوه المجتمعين العابسة. لقد أحسّت أكثر مما فهمت مدى خطورة أيّ قرار يُتخذ بشأن قطنا، وأهمّيته، لأنه سيكون مصيرياً حتماً. ولهذا أصابتها بالدهشة أسئلة أمها الملحة، لكنها أفرحتها. شعرت على غير عاداتها بدفقة محبة غامرة تجاه أمها التي غالباً ما كانت تجد فيها ما تتقده. وفي الوقت نفسه جعلها قلق أمها الجليّ تضطرب، فأجابت محاولة أن تبدو طبيعية:

«تأنيبي هذه الحالة أحياناً، عندما أشمّ بخور القربان أو خشب الأرز وهو يحترق. لكنها غالباً ما تمرّ سريعاً. يتباني إحساس بالخفة، فأسبح في الهواء وكأني طائر بجناحين، وأحلم وأنا أفكر بأني يقظة. أرى أشياء جميلة، ولكن اليوم..». وانحبس الكلام في فمها. «ماذا حدث اليوم؟ ألن تخبريني؟ رأيت شيئاً أخافك، أليس كذلك؟». «كيف عرفت؟».

«قرأت ذلك في وجهك. أخبريني بما رأيت!».

تفرغرت الدموع في عيني كيا. نظرت إيست في وجهها مشغولة البال، فسألتها كيا: «ماذا أصابني؟». فأجابتها أمها: «لست واثقة بعد، لكنه على أية حال لا يستدعي خوفك. سأحاول أن أشرحه لك. كيا، يا ابنتي، لقد بلغت من العمر ما يؤهلك في أي يوم للتحويل من فتاة إلى امرأة». فهزّت كيا رأسها بفتور. منذ مدة شرحت لها أمها أسرار المرأة. سنوياً في فصل الخريف كان على جميع الفتيات اللواتي حُضُن لأول مرة خلال هذه السنة أن يجتمعن في معبد بيليت إكالميم لأداء الشعائر السريّة، في إطار عيد الحصاد. وأردفت إيست: «وأظن أن مشاركتك في الطقس ستكون في هذا الخريف. الانتقال إلى عالم الكبار يجلب معه تغيّرات كثيرة، ومنها ما يتعلق بجسدك»، وابتسمت بحنان مضيئة: «لقد صرتِ صبّية جميلة يا بجعتي. ثدياك يتكوران. وأنا أرى كيف ينظر إليك شباب قطنا بإعجاب. لكن الأمر لا يتعلق بجسدك فقط، بل وروحك أيضاً تتغير، إذ عليها مثل جسدك أن تنمو إلى المرحلة الجديدة من حياتك. في هذه الفترة الانتقالية قد يحدث لفتاة مثلك، موهوبة بسعة الخيال والاهتمام والنهم إلى المعرفة، أن تذهل عن الدنيا لبرهة. أتفهمين ما أقصد؟».

أومأت كيا برأسها موافقة ثم هزّته نافية، وقالت: «نعم... لا... لا أعرف. إذًا، هذا يعني أنني بخير، أليس كذلك؟». ونظرت إلى أمها بترقّب.

«لا أستطيع أن أعطيك الجواب الشافي. إذ يحتمل وجود سبب آخر لأحلام يقظتك، والأصح أن أقول لحالات ذهولك عن الدنيا، وهو في تقديري الأكثر احتمالاً. أخبرني

مرّيتك أنك كثيراً ما تحلمين بحيوية. وأنت أحياناً، وليس دائماً، ترين في الحلم أشياء مريعة. وعندما توقظك، تكونين مأخوذة، فلا تتكلمين معها، بل تعودين إلى النوم بسرعة ولا تلاحظين حتى أنها تجفّف عرقك وتبدل لك ثيابك. سألتك عدّة مرات في الصباح التالي عمّا جرى في الليل، لكنك لم تتذكّري شيئاً. أتعرفين عمّ أتكلّم؟».

«نعم، أظن ذلك. في بعض الصباحات أشعر بنفسي متعبة، ويتأبني إحساس بأنني خضت في أمرٍ أجهدني، لكنني لا أستطيع تذكّر ما رأيت، ولا يتبقّى منه سوى شعور سيّء».

«سوف تتعلّمين ذلك»، غمغمت إيست، وأردفت: «لكنك تتذكّرين ما ترينه عندما تشمّين بخور القربان، ومنذ سنوات لحسن الحظ، كما تقولين. لذلك أعتقد أنك تملكين هبة البصيرة التي يهبها الرب خوّنس، رب القمر في مصر، لبعض المصطفين».

نظرت كيا إلى أمها مرتاعة وسألتها: «ما معنى هذا الكلام يا أمي؟».

«يعني أن الأرباب يجعلونك ترين أموراً وأحداثاً، لا يستطيع الناس الآخرون رؤيتها».

«حتى إذا كانت مريعة ومرعبة؟». وأخذت كيا تبكي، ومن بين الدموع حكّت لأمها: «رأيت مدينتنا، الحقول والمراعي، نهر أوراتو والبحر الكبير. كان المشهد رائعاً، لكن فجأة ارتفع الماء عالياً وهائلاً، وأخذ ينحدر ملتويّاً نحوِي. أردت أن أصرخ... لا أذكر أكثر من ذلك». ومنهكةً تركت رأسها يسقط على كتف إيست وعانقتها بذراعيها، وأخذت تشنّجات البكاء تهزّ الجسد الرقيق.

حاولت إيست تهدئة ابنتها وقالت: «نهار اليوم كان طويلاً، حمل معه الكثير من المستجدات المثيرة. دعينا يا صغيرتي نتابع الكلام غداً، وسترين أن الأمور لن تكون بهذا السوء. المهم هو أن تدركي أهميّة ما وهبتي. قد تصبح بصيرتك باللغة الأهميّة ذات يوم لنا جميعاً ولمدينتنا. الأرباب يحبونك يا كيا، ويفضلونك على غيرك. أنت من اصطفوك هنا في قطننا. ليكن الأمر مباركاً لنا جميعاً».

«أترغب في الذهاب معي؟ أبلغنا رسولٌ قبل قليل أن القافلة المتوقعة من تدمر قد شوهدت عند البوابة الشرقية». ربت أكيزي على كتف تالزو الذي انحنى فوق كومة من السجاد الفاخر مع إحيا وتيرو ولوايا رئيس دار البلد ونقيب التجار في قطننا. صالباً أكيزي ذراعيه على صدره، وقال: «تحياتي أيها السادة. أود أن أختطف من بينكم هذا الشاب الذي

بحثت عنه طويلاً في هذا البناء الواسع. القافلة القادمة من تدمر قد تثير اهتمامه، فهذا أمر لن يراه كل يوم». وابتسم ابتسامته المشرقة المنشرفة.

فصاح لوايا: «الشكر للأرباب، أخيراً وصلت، فالرسول الذي أعلن اقتراب وصولها موجود هنا منذ عدة أيام. لقد بدأنا نقلق، لأن مواعدها فات».

«انشغال بالك في محله» علّق أكيزي، وتابع: «التقيت ساعياً قبل المدخل الرئيسي بقليل، كان يسأل عن مكان وجودك يا سيد لوايا. لو علمتُ بمكان وجودك لأحضرتَه معي إلى هنا، لكنني أرشدته إلى متجرك حيث ينتظر الآن».

«اعذروني إذاً، سأهتم بالأمر فوراً»، قال لوايا والتفت ذاهباً.

التفت أكيزي إلى تالزو وسأله: «والآن، أنطلق؟». هز إحميا برأسه موافقاً، فقال تالزو: «بكل سرورا».

مشيا عبر عدد كبير من القاعات المتداخلة في الطابق الأرضي من دار البلد، التي كانت متخمة بكل أنواع البضائع، ثم عبرا القاعة المركزية ليصلا إلى الممر الطويل المؤدي إلى المخرج الشرقي. ثم مشيا بسرعة عبر شرقي المدينة، حيث يقطن مختلف الحرفيين في دور متواضعة موزعة حسب الحرف، على جوانب أزقة ضيقة وكثيرة المنعطفات، بحيث ما كان تالزو ليجرؤ على العودة دون مساعدة أكيزي.

«هذا أقصر الدروب»، قال أكيزي، وأضاف: «لأنني أريد وبأقصى سرعة أن أعرف ما حدث. لم يرغب الساعي إخباري بأي شيء. عادة يُحتفل في المدينة بوصول القافلة بتطويل وتزوير صاحب. والحداة يزينون حميرهم بأشرطة ملونة أو بورود عند بوابة المدينة، ثم يدخلونها في موكب إلى دار البلد. بعض حداة الحمير وهم من قطنا أصلاً، يكونون في غاية الفرح لعودتهم بعد الغياب الطويل».

في أثناء ذلك كانا قد بلغا البوابة الشرقية المشكلة من بناء حجري هائل الحجم بشكل مستطيل ضلعه العلوي مقنطر، وقد انتصب على جانبيها برجان عاليان. عندما تعرّف الحرس وليّ العهد، قدّم السلاح بالحراب، وتقدم منهما رئيس الحرس قائلاً: «أميري، الشريف أكيزي!». وصالب ذراعيه محيياً.

«سمعت أن القافلة القادمة من تدمر قد وصلت؟!». قال أكيزي.

«صحيح، إنها تخيم خارج البوابة، فمندوب دار البلد ما زال يتفحص الأختام».

«هل سمعت بأمر مخالف للنظام؟».

«قبل حين ظهر ساع في البوابة حاملاً خبراً عاجلاً للشريف لوايا. ثمة همس بأن القافلة قد تعرضت لكمين تسبب في عدة أضرار».

«على أرض قطنا؟».

«لا أعرف يا أميرى».

«مَنْ من الشيوخ يرافق القافلة؟».

«حسب المعلومات التي وصلتنا من دار البلد لا بد أن يكون الشيخ إيدريمى».

«أي أنكم لم تروه شخصياً؟».

«لا، حتى الآن لم يدخل المدينة من القافلة سوى الساعي».

«شكراً لك».

التفت أكيزي إلى تالزو، الذي تابع الاستجواب باهتمام، وقال مطمئناً: «ليس مستغرباً أن تبقى القافلة مخيمةً خارج السور، فالطريق عبر الصحراء مجهد ومعقّر. وحرارة الطقس تبدّل تبدالاً قاسياً، فقد تكون ملتبهة نهاراً. والمرحلة الأخيرة تحديداً تتطلب جهداً إضافياً ومهارة في الهبوط من مناطق مرتفعة إلى وادي أراتنو. وعندما يصلون أخيراً إلى هدفهم، سيحاولون الدخول إلى المدينة بهيئة لائقة. لذلك تراهم يستريحون ثانية ويسقون الحمير ويتظنون إنهاء معاملات الدخول. لكنني أستغرب غياب الشيخ إيدريمى. كنت أتوقع أن يرسل ساعياً إلى الملك لإعلامه بوصوله والتماس مقابلته كالعادة. أثناء وجودي في القصر لم يصل أي ساع. يحتمل أن يكون الساعي قد انطلق في الوقت نفسه مع الساعي الآخر الذي التقيته عند بوابة دار البلد، أي أنني ما كنت لألتقيه. لنعبر الأمر فأل خيراً فالأخبار السيئة على أية حال تنتشر بأسرع من الريح».

دخلا بناء البوابة العميق المؤلف من حجرتين، لكل منهما ثلاث بوابات من ذات المصراعين تُغلق بالتالي. ومن الجهة الخارجية انتصب على الجانبين برجاً حراسة آخران، حيث رمى السور ظلالة المدينة، ولم يبق مضاءً بأشعة الشمس سوى القسم العلوي منه. خطر ببال تالزو أن الإنسان يبدو ضئيلاً وعاجزاً أمام هذه التحصينات الشامخة. وهذا الشعور تحديداً، كان أحد أهداف شموخ التحصينات. مَنْ كانوا بُنائها يا ترى؟ وكم احتاجوا من الوقت لركم الطوب والحجارة والحصى والطين لبلوغ هذا الارتفاع؟ لا شك في أنهم كانوا عدداً لا يحصى من عمال البناء يشتغلون كالنمل، لينجزوا في نهاية المطاف طبقة التليس القاسية والملساء للسور الشديد الانحدار. منصّات الحصار وأكباش الاقتحام

والروافع المدولبة وكل اختراعات الهجوم الذكية لا فعالية لها في مواجهة هذا السور المنيع، الذي يستحيل اقتحامه. ولا شك في أن البوابات ذات الأبواب الثلاثة المتتالية ستصمد في وجه أي كبش اقتحام، إنها مدينة غير قابلة للغزو. هذا ما كان تالزو متأكداً منه. تقدّم أكيزي عبر البوابة بخطوات واسعة، فانتزع تالزو نفسه من تأملاته ولحق به. على مسافة غير بعيدة كان هناك ما يشبه معسكراً صغيراً، تجمّع حوله عدد من الفضوليين. إنها خيمة بدو واسعة، وإلى جانبها وقف بصبر عدد كبير من الحمير المثقلة بالأحمال وبغال الركوب. مع الاقتراب منها يتبين للإنسان وجود مخلاة معلقة بعنق كل حيوان يعلفُ منها بلذّة، فيما يجري فحص حملته.

من دون تردّد خطا أكيزي نحو الخيمة التي وقف على مدخلها حارسان يرتديان جلبابين طويلين جداً يخفيانها من الرأس إلى القدمين مع وجود لفاعتين حول الوجهين. عندما رآهما تالزو تذكر أنه قد رأى مثل هذا المشهد سابقاً، من دون أن يستطيع تحديد المكان والزمان. وكان كل منهما يتسلح بقوس وكنانة سهام، ويسيف قصير مقوّس في حزامه، وبرمح في يده، سدّه به المدخل مع زميله عند اقتراب أكيزي وتالزو.

أسرع إليهما مندوب دار البلد ليقوم بواجبه قائلاً: «لكما التحية يا أميري ويا سيدي!». «ولك أيضاً»، أجابه أكيزي، فأردف المندوب قائلاً: «لا بدّ أن الربة قد ألهمتكم الحضور إلى هنا يا أميري. الشيخ إيدريمي موجود في الخيمة، وقد أوعز بالألا يدخل عليه أحد سوى أحد أفراد العائلة المالكة، كما منع إرسال ساع إلى القصر. أنا شخصياً لا تفسير عندي للأمر، ولا فائدة من الكلام مع الحرس المحجّبين المصرتين على الصمت. من الواضح أن الكلام محظور على الجميع هنا». وحنى رأسه محيياً وانسحب عائداً إلى الحمير.

سُمع هذا الحوار داخل الخيمة، وبناء على أمر بكلمة من الداخل سمح الحرس لأكيزي وتالزو بالدخول. تنهى إليهما صوت خافت يقول: «يا أميري!». وفي دغشة إضاءة الخيمة الخافتة، تبيننا فراشاً على الأرض في وسط الخيمة، وقد استلقى عليه شخص يبذل جهده للقعود، فأسرع أكيزي إلى الفراش قائلاً: «لا تنهض يا شيخ إيدريمي، ابق مستلقياً ولكن أخبرني بما حدث، إن كنت قادراً!». عاود الشيخ الاستلقاء بين وسائده.

كانت نظرة منه كافية، إذ سرعان ما أحضرت للضيفين وسائد للجلوس وقُدّم لهما شراب من الحليب منكه بتوابل حارة. وبنظرة أخرى دخل الخيمة شابّ بشارين لافتين للنظر وحاجبين كئيبين أسودين. انحنى محيياً وجلس على إحدى الوسائد، ثم قال:

«أيها الأمير، أيها السيد! سيتكلم أبي إليكما بلساني، فهو جريح ويحتاج إلى الراحة». «جريح؟». هتف أكيزي وأردف: «أليس من الأفضل نقله فوراً إلى دار الشفاء ليتلقى العناية الضرورية؟».

صدرت عن الشيخ إيدريمي إشارة واهية تنبئ بأنه لا يقيم وزناً لهذا الاقتراح، فقال أكيزي: «ليأت الشفاة إلى هنا إذاً. أخبرني بنوع الجرح، ودعني أرسل ساعياً فوراً!». فارتمى الأمير البدوي الشاب عند قدمي أكيزي قائلاً: «عار علينا أيها الشريف أكيزي، يا أمير قطنا!». فأجابه هذا ملحاً: «انهض يا رجل وأخبرني بما حدث!». فقال ابن البادية:

«استمعا إذاً إلى سبب قنوطنا. في منطقتنا ورغم وجود قوة منا للحماية، تعرّضت القافلة في المرحلة ما قبل الأخيرة، بعد انبلاج الفجر بقليل لكمين. لقد اختبأ الأشقياء وراء الصخور في موضع تصعب رؤيته من بعيد، وتركوا القسم الأكبر من الحمير يمرّ، ثم حاصروا الحمير الثلاثة الأخيرة مع حُداتها والحرس المسلحين الذين كان الشيخ بينهم لحماية مؤخرة القافلة. حدث كل شيء بسرعة فائقة. ضُرب الحُداة حتى سقطوا مغشياً عليهم، وقاد ثلاثة أشقياء الحمير الثلاثة نحو الصخور، بينما قام بقية الأشقياء بمهاجمة الحرس. قاتل الشيخ ورجاله كالأسود، لكن مفعول المفاجأة كان كبيراً، ففقدوا أسلحتهم، وأحدهم أصيب بطعنة. الشيخ أصيب بعدة جروح في ذراعيه وساقه، وأصيب في النهاية بضربة هراوة على رأسه رمته أرضاً مغشياً عليه، وهو الشيخ أما عصابة الأشقياء فقد اختفت بمثل سرعة ظهورها. وإلى أن انتبهنا نحن في المقدمة إلى غيابهم كان الوقت قد تأخر جداً، كما استغرقنا وقتاً طويلاً حتى توصلنا إلى معرفة ما حصل. أولينا اهتمامنا أولاً للجرحي، ثم جمعنا الحيوانات التي تركتها العصابة، وأكرمتنا الميت بدفنه».

نهض أكيزي واقفاً وقال: «يا شيخ إيدريمي، دعني أر مدى خطورة جراحك، وأعطني ساعياً لتمكن من طلب المساعدة، فموتك لن يفيد أحداً. مثل هذا الهجوم الصارخ على أرض مملكة قطنا، لا يجوز السكوت عنه!». جمع الشيخ قواه وهمس لأكيزي: «معلك حق. لا بدّ من كشف اللصوص والانتقام منهم. امنحني وقتاً لبعض الراحة كي أستعيد شيئاً من عزمي. بهذه الحال لن أستطيع المثول أمام الملك. رجالي يعتنون بي بصورة جيدة. اسمح لنا بأن نبقي مخيّمين هنا، ولتدخل بقية القافلة المدينة. إذا رغب سيدي الملك فسأمثل غداً أمامه». وعاد فسقط على الفراش وقد أنهكه الكلام.

«حسناً، لن أجبرك على المجيء معي الآن إلى المدينة، فأنا واثق من ولائك لقطنا».

ولكن قبل أن نُعلم الملك ورئيس دار البلد، أود أن أعرف إن كان لديكم فكرة عن شخصية من نفذ الهجوم، و يبدو لي أنه قد خطط له بذلك؟».

نفى إيدريمي وابنه ذلك، وقال الشاب: «أبي الشيخ يقول إن الأوغاد لم ينطقوا أي كلمة، حتى عندما كان أحدهم يُصاب بضربة، وأن ثيابهم كانت مثل ثيابنا، لكن ما لفت النظر هو أن جلابيهم لم تكن متدلّية الأطراف حتى الأقدام مثلنا، بل مشمّرة عن الساقين، ما سمح لهم بسرعة الحركة».

استدار أكيزي ليخرج من الخيمة، وإذا بتالزو يقول: «أسمح لي بطرح سؤال آخر؟».

«بالتأكيد. ماذا تريد أن تعرف؟».

«ماذا كانت حمولة الحمير الثلاثة التي ساقها للصوص معهم؟».

أغمض الشيخ إيدريمي عينيه مستاءً، وأجاب ابنه بصوت متهدج: «استلمنا قيادة القافلة ومرافقتها المسلحة قبل وصولنا إلى هنا بأربعة أيام سفر، أي عند حدود منطقتنا، وذلك بعد أن وصل الساعي من تدمر وأخبرنا بموعد وصولها المحدد. خيّمنا معاً، وتشاورنا مساءً مع المسؤول عن شحنة البضائع حول تسلسل ترتيب الحيوانات، فتيّبن أن بعض الحمير يحمل في أخرجها نفائس ثمينة. لكننا لم نعرف ما هي بدقة. وهذه الحمير كانت تحمل على ظهورها صبراً خفيفة فحسب». فقاطعه تالزو قائلاً: «دعني أحمّن أن هذه الحمير هي الناقصة الآن».

أوماً ابن الشيخ برأسه موافقاً وترك رأسه الأبيّ محنياً بانكسار.

«أين مسؤول شحنة البضائع الآن؟».

«ينتظر مع الحُداة ومعلم الحزم للدخول إلى المدينة، ليخبر لوايا وجميع المساهمين في القافلة بما حدث. كنا قد اتفقنا على إبقاء الأمر سراً حتى الوصول إلى دار البلد، كي لا نسبب أي اضطراب في المدينة».

«لقد تصرفت بحكمة يا صديقي. يبدو حسبما أرى أن القافلة جاهزة لعبور البوابة. أنتم ابقوا هنا كما اتفقنا، واحضروا غداً إلى القصر. وسنرسل محفةً من أجل الشيخ إيدريمي».

«لك الشكري يا أميري!». وحاول الشيخ إيدريمي الجلوس لوداعهما، فيما غادر أكيزي وتالزو الخيمة.

«الحكاية منكرة وبالغة الغموض أيضاً»، قال أكيزي، فسأله تالزو: «والعمل الآن؟».

«لا أحد سوانا حتى الآن يعرف بدقة ما حدث. لا شك أنهم قلقون في دار البلد على

الرغم من الساعي. الخسارة أصابت التجار في المقام الأول. ولكن بما أن الهجوم قد وقع على أراضينا، فتأذى بسببه بعض الناس إضافة إلى تجار أجاناب، فالمسألة خاضعة الآن للقضاء الملكي. لا بدّ من استقصاء الواقعة، بكل تأكيد. سأخذ أقصر الطرق لأعود إلى القصر ولأحيط الملك إيداندا علماً بما جرى. ويفضّل أن نرسل ساعياً من البوابة إلى دار البلد، لكي يأتي لوياء ويشارك في المشاورة. تالزو، يؤسفني أن ينتهي مشوارنا بهذه الطريقة المزعجة. والأفضل هو أن ترافق الساعي إلى دار البلد لتعود إلى أبيك. أرجو منك التكنم على كل شيء، إلى أن تتوضح الأمور».



كانت كيا مع النساء في باحة الجناح الملكي الكبيرة، حيث الجو اللطيف مع شرب مزيج مبرد بالثلج من عصير التفاح والماء المحلى بالعسل، أما الثلج فقد جاء من أعماق القصر. قرب البئر المركزية وعلى عمقٍ سحيق تحت القصر نُحت في الصخر قبو للثلج، وذلك قبل أجيال أثناء إنشاء مقر الملك. لم تعرف كيا الرجال الشجعان الذين كانوا كل شتاء يجلبون الثلج على الزحافات من قمم الجبال المجاورة ليخزنوه في القبو، لكنها كانت ممنونة لجهودهم.

كانت غالبية النساء مرتاحات على مضاجع وثيرة، والأخريات منهنمكات بأشغال يدوية، كنسج الشرائط ذات الألوان المبهجة لتزيين أطراف الأثواب، أو التطريز. وكانت كيا بصحبة صديقتها إهلي نيكالو التي تعشق أكيزي في ما يشبه السر المعلن. ولا يوجد ما يحول دون ارتباطهما أحدهما بالآخر، إذ إنها ابنة أوبيبا بن أكالو، الناطق باسم مجلس الأعيان، أي أنها من خيرة عائلات الأشراف. أما من طرف أكيزي فإن مدى علو مكانتها لديه لم يكن واضحاً. كان يستمتع بكونه محط إعجاب الصبايا، فيمازحهن جميعهن، من دون أن يفضل إحداهن على الأخريات، رغم أنه قد تجاوز سن الزواج المعتاد بعدة سنوات.

سألت إهلي نيكالو كيا: «أفضلين الزواج والعيش بعيداً عن قطنا؟ أين هو المكان الأفضل من هنا؟».

فأجبتها تايا مرتبة كيا: «لا أستغرب سماع ذلك منك إهلي نيكالو. فعصافير الدوري تزرُق مؤكدة أن ليس ثمة ما يزعجك من قطنا، وطيور السنونو تنشر الخبر في الدنيا

كلها!». وضحكت، فخلعت إهلي نيكالو فردة صندلها وتظاهرت مازحة برمي تايا بها لسخريتها منها، غير متتبهة إلى وجه كيا الجامد.

«لا، بجدّ. خذوا مصر مثلاً. كم من بنات عائلات الملوك والأمراء زُوجن للفراعنة. هل سمع أحد عنهن شيئاً ثانية؟ خذوا مثلاً أخت حاكم بابل السابق. خمس عربات فقط جاءت من مصر لتتنقل الأميرة. ومن بعد، لم يرها أي من سفراء بابل في بلاط فرعون ثانية. وهذا له تفسير واحد فقط، هو أن فرعون قد أبعدها إلى الحريم». وفجأة بدأت إهلي نيكالو تدرك أنها على وشك ارتكاب خطأ ما. رمت نظرة خاطفة نحو إيست، لكن هذه كانت إما نائمة وإما قد أغمضت عينيها، من دون أن يلاحظ على وجهها أي تعبير. فتابعت إهلي نيكالو حديثها المفضل وبصوت خافت الآن: «أوليس مما لا يصدّق أن فرعون قد طلب من الملك نفسه إحدى بناته للزواج أيضاً؟ لقاء ماذا، أتساءل؟ على كل حال، يقول أبي إن فرعون قد أرسل لقاءها إلى ملك بابل كثيراً من الذهب ليساعده في تنفيذ مشاريعه المعمارية الطموحة. ولكن أليس ملكا مصر وبابل بالمرتبة نفسها؟ فتصوروا أن البابلي عندما خطب لنفسه أميرة مصرية، جاءت من فرعون رسالة توبيخ قاسية، قال له فيها: «الأميرة المصرية لا تتزوج أبداً كان». وبدا الغيظ جلياً على وجه إهلي نيكالو، إذ أردفت: «هذه إهانة صريحة. وفي الوقت نفسه تعدّ أمك يا كيا أفضل برهان على أن الأميرات المصريات يمكن أن يُقدّمن لحكام أجانب بكل أريحية».

لم تُبد كيا اهتماماً بهذا الهذر، الذي كان في واقع الأمر يخيفها أكثر مما يسليها. ففي نهاية المطاف قد يأتي يوم تكون هي فيه المعنية، وهذا ما لم توضحه صديقتها في حديثها، لاسترسالها في أفكارها الخاصة. وها هي ذي تتابع لغوها: «ثم هؤلاء الميتانيون، إنهم رعاة وفلاحون لا أكثر، مع أن الأقداح التي يصنعونها بالغة الجمال بتزييناتها من عصافير ونباتات وأزهار وخطوط حلزونية. ومع ذلك فإن اختلفوا في ما بينهم الآن وتنازعوا سيصبح الحال خطيراً جداً. وإذا التفتنا نحو حتّوشا في هذا الصقيع...». وسكنت بغتة لدخول أكيزي إلى الفناء.

«أيتها السيدات الكريمات، تحياتي. عذراً لاقتحامي المكان عليكن بهذه الصورة، لكنني كنت أمل العثور بينكنّ على الملك الذي أحتاج إليه لأمر ملح».

«ماذا حدث؟». سألتها كيا مستيقظة من شرودها.

«الأمر يتعلق بالقافلة القادمة من تدمر، التي وصلت أخيراً اليوم».

«وما الجديد بشأن هذه القافلة؟ فقد وصلت سابقاً عشرات المرات».

«لا يجوز إعلان الأمر بعد، لذلك أطلبكن بالصمت المطبق، لكنها تعرضت لهجوم، وعلى أرض قطنا». بقوله هذا لفت أكيزي انتباه جميع النسوة إليه، فقالت كيا: «أنا سأحضر أبانا» ونهضت فوراً عن مضجعها. وبعد فترة قصيرة عادت إلى الفناء بصحبة الملك.

«أتحمل أخباراً سيئة يا بني؟».

«نعم يا أبي، القافلة القادمة من تدمر وقعت ضحية كمين، ما أدى إلى تضرر عدد من المشاركين فيها، ومات أحد الحرس، وسُرقت ثلاثة حمير محملة بنفائس ثمينة».

«الشيخ إيدريمي كان المسؤول عن حماية القافلة، وحتى الآن لم أسمع منه شيئاً».

«يسرني أن أخبرك بما توصلت أنا إلى معرفته. ولكن ألا تنتظر وصول لويبا إلى هنا؟ فقد أرسلت فوراً في طلبه، لتشاور معاً بما يجب علينا عمله».

«نعم، هذا عمل صائب. فلنذهب إلى مكتب العمل للقائه. علينا إخبار كبيرة الكاهنات لتشاركنا الرأي!». وغادر الرجلان الفناء فيما أرسل أكيزي إلى إهلي نيكالو ابتساماً مشرقة، استقبلتها بالاحمرار خجلاً.

أثناء انشغال النسوة من حولها بتبادل التكهّنات حول ما حدث، مثل سرب من طيور السنونو الممزقة، كانت كيا تفكر بطريقة لاستراق السمع إلى المشاورات من دون أن ينتبه إليها أحد. ومن دون مقدمات قالت: «إهلي نيكالو، أنا جاهزة لمرافقتك إلى داركم، إن شئت».

«أتريدين التخلص مني؟ ما بك؟ أنت شاردة تماماً. هل سمعت ما كنت أقوله؟».

شعرت كيا بالأسف، لكنها كانت الإمكانية الوحيدة لمغادرة الفناء مع صديقتها، دون أن تقدم تبريراً لذلك، أما ما يلي ذلك فستحله في حينه. وكان القدر في عونها. فبعد أن جمعت إهلي نيكالو حاجياتها وودعت الأخريات وانصرفت معها، سمعتا عند مدخل مكتب العمل أصوات رجال. كان لويبا قد وصل، بصورة لا تخطئها الأذن. اقترحت كيا على إهلي نيكالو المرتبكة أن تدخلوا إلى مكتب العمل كي تنصتا سرّاً، لكنها لم تفكر بأكيزي. ولسبب ما دخل أكيزي المكتب فجأة ليجد نفسه وجهاً لوجه مع الأنستين. وكما هو متوقع انفجر في ضحك مجلجل وأمسك بيدي الأنستين وساقهما معه إلى الردهة الخارجية، وقال لأبيه هناك: «يا ملكي، ما أظنك قادراً على منع أميرة قطنا من الحصول من النبع على أخبار المدينة ومحيطها وما يجري في العالم الواسع!».

نظر الملك إلى ابنته متفكراً. إنها لفتاة غير عادية. ترى ماذا كتب الأرياب في قدرها؟ ثم قال أخيراً: «إن لم يكن لدى كبيرة الكاهنات اعتراض أو لدى الشريف لوايا، فلتبقيا، ولكن بصمت».

**

بمرور بضعة أيام هدأ الاضطراب الذي سببه الهجوم على القافلة. وفي دار البلد تابع الناس أعمالهم الضرورية. في أثناء ذلك استلمت جميع البضائع وحُسبت جمارك الاستيراد ودُفعت لقاء إيصالات بذلك مختومة على الرُّقم. كما سُددت طلبيات تجارٍ من قطنا، فوصلتهم بضائعهم من بابل البعيدة أو من طرقا أو من تدمر، وبناءً على ذلك كُسر كثيرٌ من رُقم الطليبات بعد أن قدم الوكلاء التجاريون نوائح حساباتهم وقبضوا أتعابهم. أما البضائع التي سيُتابع شحنها، فقد جُمعت حسب وجهاتها ووزعت على القوافل المناسبة. وكان لا بد من تزويدها بأختام تجارها قبل حزمها جيداً على ظهور حمير سوداء قوية وبغال متينة. ولم يكن الهدف من هذه الأختام التعريف بنوع البضاعة والمرسل والمستلم فحسب، بل أيضاً ضمان عدم وقوع مخالفات على طرق القوافل، كاختلاس بضائع معينة وتبديل أخرى أقل قيمة بها، أو إضافة بضائع مهترية.

وقام إحيًا بمعية تالزو، شبه الدائمة، بمقايضة كثير من البضائع التي ستتابع طريقها من ثم من كيزواتنا إلى طالبيها في الشمال، ولا سيما زيت الزيتون الذي اشتراه بناءً على طلب بلاط حتوشا، إضافة إلى مختلف المنكّهات والخلاصات العطرية لصنع المراهم الثمينة والعطور. كما اشترى أخشاباً عطرية وعصائر تينٍ مكثفة فاخرة وفواكه مجففة مرغوبة في كل مكان، إضافة إلى أقمشة صوفية وكتانية، وقطع ثياب جاهزة وحرامات وسجاداً وجلوداً، وبعض الأحجار الكريمة للزينة وصدفاً من العاج لتزيين قطع الأثاث، وأشياء كثيرة أخرى. كانت كل البضائع التي اشتراها إما من منتجات قطنا مباشرة أو مستوردة إلى أسواقها.

لم يعد أمامه سوى انتظار وصول قافلة مصر. أما إن كان انتظارها سيطول فسيتوقف ثانية في أوغاريت على طريق العودة، ليشتري من هناك ما ينقصه من منتجات ومواد خام، فهناك حركة تبادل تجاري قوية بين أوغاريت ومصر، كما بين جبيل ومصر. كانت السفن المصرية ترسو بانتظام في هذين الميناءين لتفريغ البضائع وتحميلها، ولا سيما لتحميل

أخشاب الساحل السوري التي لا تنمو في مصر والمهمة جداً هناك لبناء السفن والدور الكبيرة، كخشب الأرز العملاق ذي الرائحة الزكية وخشب الزان المتين وخشب الصنوبر الحلبي والتنوب والعرعر.

كانت هذه ساعات عمل شاقة بالنسبة إلى تالزو، إذ كان عليه أن يوثق كل أعمالهما بدقة. وقد وصلهما من الوطن بعض الرسائل يرجو فيها أصحابها تلبية هذه الخدمة أو تلك. وكان إحيا يسحب تالزو معه من متجر إلى آخر ليطلع على أساليب الشراء وإبرام الصفقات. صحيح أن دار البلد لم تكن باتساع القصر الملكي وملحقاته، لكنها كانت بناءً ضخماً يضم قاعات وأفنية وعدداً لا يحصى من الغرف التي تستخدم مراكز بيع وشراء لتجار قطناً، كما يضم مستودعات آمنة وجافة للبضائع التي تحتاج إلى تخزين جاف. أما في الأقبية الباردة فتخزن البضائع القابلة للتعفن والتلف، فقد أنزلت في أرضيتها أواني تخزين ضخمة للنبيد والزيت. هنا كان يجري كل ما يرتبط بالتجارة: تسجيل الطلبات والمواعيد والمُدد الزمنية والأسعار والقروض والودائع ذات الفائدة، والاتفاقيات والمراسلات وتنظيم كل قافلة على حدة بالحمالين والحزامين والحدادة والمرافقين لكل محطة من محطات الطريق، إضافة إلى تحديد المدد الزمنية لكل مرحلة وخاصة عند عبور الحدود بين الدول. وكلما دخل تالزو إلى دار البلد كان يعاوده الشعور بأنه في خلية نحل أو في جبل نمل، فهكذا كان النشاط هناك بلا هوادة.

أقام إحيا وتالزو علاقات مع عدد من العائلات التي صارت تدعوها لتناول الطعام في دورها. وبفضل التجهيز الكريم لمكان إقامتهما من قبل الشريف تيرو، كان بوسعهما هما أيضاً توجيه الدعوات. حتى الآن لم تُبرم الاتفاقية التجارية مع القصر الملكي، التي تختصر لهما كثيراً من الإجراءات الفرعية وتسمح لهما بالوصول إلى بضائع خاضعة للاحتكار. لكن إحيا كان راضياً عن الشبكة، التي كان يعمل على توسيعها نقلتة ونقله ويوماً فيوماً، وهذا يتطلب حذقاً وتعاملاً ودوداً ومعارف واسعة وفضائل، كان تالزو يتمتع بها، ومع ذلك كان يلاحظ في كل يوم يمضيه في دار البلد مدى الجهد المطلوب منه. إذ كان عليه دائماً أن يتبته لنفسه كي لا يتجاوز قواعد اللياقة وأن يتظاهر بالاهتمام.

لم يرغب بأي حال من الأحوال أن يخيب آمال والده فيه، لكنه لم يستطع أن يخفي عنه ابتهاجه، كلما شارك شباب قطناً في تمارين المبارزة بالسيف، أو عندما يدعوه أكيزي إلى مرافقته في جولة بالعربة القتالية. وكان يشعر بنفسه على أفضل حال عندما يدعى إلى القصر الملكي للمشاركة في الاجتماعات للتشاور في الغزوة التي تعرضت لها قافلة تدمر.

كان يبتهج بحضورها تلبيةً لرغبة أكيزي في المقام الأول، وذلك بصفته صديقاً وشاهداً، حسبما أكد له أكيزي، إضافة إلى اهتمام المجتمعين بأفكاره الرصينة.

كانت كياً الشخص الوحيد الذي يعلّق أحياناً على آرائه باستهتار، ولم يتوصل قط إلى معرفة طبيعة موقفها منه. كانت فتاة استثنائية، وقد تبين ذلك بمرور الوقت. وكانت رائعة الجمال. وجهها متناسق ببشرة تشوبها سمرة خفيفة مغايرة لبشرة صبايا قطنا، وبأنف أهيف وعينين خضراوين فريدتين تشبهان عيني أمها بنظرات ساخرة أحياناً، وقد تبرقان عندما تغضب. جبهتها عالية وحذاها جميلاً التكوين مع شفيتين ممتلئتين حمرأوين. وكان وجهها محاطاً بشعر متموج كثيف أسود مسبل يغطي أعلى ظهرها. وكانت ذات قامة ممشوقة طويلة، ما يجعلها تبدو نحيلة من جهة ورقيقة هشة من جهة أخرى، إلا أن تالزو كان يعرف مدى رشاقتهما وليونتها وجلدها، ولم يكن جمالها فحسب ما جذبها إليها. لقد خاضوا في نقاشات حامية حول مختلف احتمالات هوية المخطط للغزوة. كان عقلها يقطاً وذهنها وثاباً، وكان سرورها جلياً بالمشاورات المشتركة، وفي أثنائها لم تتوقف عن ممازحته بأنه سيصبح ذات يوم قاضياً حكيماً، ولا ينقصه لذلك سوى اللحية الطويلة. كانوا يضحكون كثيراً. لكنها في بعض الأيام كانت تبدو متعجرفة باردة ونفورة من دون سبب واضح، وعند ذلك كان يحسّ بشيء من الإهانة، لكنه ما كان ليحمل عليها قط بسبب ذلك السلوك، الأمر الذي كان يثير دهشته. فعندما كان يفكر فيها تكون الأفكار دائماً ودودة ولطيفة تجاهها، مُجبة لها ومعجبة بها. وقد تحدث مع أكيزي حول تقلبات مزاجها، فأطلق أكيزي ضحكته المجلجلة وحذره قائلاً: «إياك والوقوع في حب أختي، لأنك ستري العجب. إنها هكذا مزاجية، وأحياناً عنزة مغرورة، مدللة جداً ولا تعرف ما تريد، لأنها ما زالت صغيرة. أنا شخصياً أفضل عليها إهلي نيكالو الحلوة بألف مرة، لأنها تشرق في وجهي دائماً، وتجد كل ما أفعله رائعاً بلا نقاش. أرايتها كيف تذوب عندما تراني؟».

كان تالزو يضحك لهذه الملاحظات بطيبة، ويخمن سبباً أعمق لسلوك كياً، قد يتعلق به، إلا أنه لم يشارك أكيزي رأيه، بل أحس أن كيا مثيرة للاهتمام، ذكية، واثقة بنفسها وتعرف ما تريد تماماً.

أعجب تالزو بأكيزي لأسلوبه اللامبالي المرح. كان الأول بلا منازع بين الشباب في ما يتعلق بالمهارات الجسدية والجلد، وبالشجاعة إلى حد التهور أحياناً. وحتى عندما يتجاوز حدود اللياقة في كلامه، كان الضاحكون دائماً إلى صفه. لم يكن يأبه بتحذيرات أبيه لضرورة أن يكون قدوة تُحتذى، في حين يسره جداً اعتزاز الملكة السافر ببيكرها.

والسمة المحببة فيه كانت جودة تفاهمه مع معظم الناس، وكان هذا أمراً مهماً بالنسبة لولي عهد قطنا. لكن تالزو لاحظ أيضاً أن أكيزي سرعان ما يفعل ويفضبه إلى حد أن يخرج عن طوره أحياناً، غير أن تالزو حتى الآن لم يكن السبب في أحد تلك الانفجارات. وفي كل مرة كان الغضب سرعان ما يتلاشى كالدخان ويُنسى.

أما أخوه كوارى الذي يليه سناً، فقد كان ذا شخصية مختلفة. صحيح أنه كان أيضاً مرححاً وودوداً، لكنه كان أبعد ما يكون عن التهور والمجازفة. حتى على صعيد البنية الجسدية كان الأخوان مختلفين. فأكيزي قوي العضلات، رياضي مرن وقد لَوَّحت الشمس، في حين كان كوارى أميل إلى النحف مع ليونة وخفة. وبما أن قطنا تتبع مبدأ الفصل ما بين مسائل الحكم ومسائل الاقتصاد فإن المرجح أن كوارى ذات يوم هو الذي سيدير الفعاليات التجارية للعائلة المالكة، التي يديرها الآن أكالينا شقيق الملك. وعلى نقض تالزو ويبدو أن كوارى يقوم بواجباته بسرور أثناء وجوده إلى جانب عمه في دار البلد، حيث غالباً ما كان الشابان يلتقيان. وكان تالزو يشعر تجاهه بنوع من الحسد لكونه قد وجد مكانه في هذه الحياة.

أبدى كوارى مهارة فائقة في الحساب، أبهرت تالزو، لأنه غالباً ما كان يعاني صعوبات في حسابات تحويل العملات، وفكر بأن كوارى هو الابن المناسب الذي كان سيسعد أباه. وتذكر أنه وأباه قد التقيا كوارى مرة في متجر العائلة، وكان منحنيًا فوق لوح رملي، وهناك إلى جانبه معدادٌ، وهو يديق بمساعدة حصوات المعداد إذا ما كانت حساباته الخطية على الرمل صحيحة. فسأله إحيًا:

«وهل لديك جميع جداول الضرب الضرورية لعملك؟».

كانت كلها لديه، إضافة إلى لوائح بالمكاييل والأوزان والمساحات والأطوال، مدونة بعناية بخط مسماري نظيف على رُقم طيبة، ثم أضاف: «معظم العمليات الحسابية أستطيع أن أجريها في ذهني»، وكانت لهجته تتم عن بساطة لا ادعاء فيها، وأردف: «ولكن في الحالات الأصعب، عندما أريد أن أستخرج معدلاً وسطياً مثلاً، عندئذٍ ألجأ إلى اللوائح». فعلق عمه قائلاً: «لن يحتاج دائماً إلى أن يقوم بالعمليات الحسابية بنفسه، ولكن في المستقبل عليه أن يكون قادراً على تدقيق ما يقدمه إليه المدونون من سجلات، سواء حسابات أجور العمال المتنوعة أو حسابات الجمارك والرسوم».

هز إحياء رأسه مُستحسناً وربّت على كتف الأمير قائلاً: «أنت شاب كفاء!».

نَقَزَ تالزو عندما سمع أحدهم ينادي اسمه. ترى هل غفا حقاً في مثل هذا اليوم وفي فترة ما قبل الظهر، أم أنه كان سارحاً مع أفكاره؟ رتب هندامه بسرعة وشد الحزام حول خصره واتجه نحو ردهة المدخل. كان إحيا وتيرو بانتظاره. رماه والده بنظرة معاتبة.

«أين أنت؟ أم تراك نسيت أنهم ينتظروننا في القصر. بناءً على اقتراح الشريف تيرو سنستخدم المحققات اليوم. لا أرغب في أن أظهر أمام الملك لاهثاً».

كان الجميع قد حضروا في قاعة العرش. وبمناسبة هذا اللقاء الرسمي جلس الملك إيداندا وزوجته بلتوم على كرسي العرش، بعد أن أديا طقوس التطهر، ولبسا ثياب المحكمة، وقدما القرابين للأرباب. والملك المسؤول عن حماية العدالة وإحقاق الحق، كان مزوداً بشارات السلطة القضائية: صولجانٌ وخاتمٌ ختم. وقد اختير للشيخ إيدريمي كرسي متميز. كما جلس أمين القصر، وأهم موظف لدى الملك، ومجموعة شهود من المشاركين في القافلة، إضافة إلى لوايا وأكيزي وتالزو إلى جانب الشيخ. وبمقتضى العرف دعي بعض الأعيان أيضاً إلى الجلسة ليشكلوا في أذهانهم صورة غير مُنحازة عن الواقعة، بما أنهم لا يعرفون عنها شيئاً مسبقاً، وليقدموا للملك بعد ذلك المشورة في الأمر. وكان على شخصيات أخرى ضبط مسار العملية كلها، ومنهم تيرو وأكالينا. أما إحيا فقد دُعي لكون ابنه تالزو مشاركاً.

كان هناك عدد من الكتاب لتسجيل وقائع المحاكمة، وكانوا خلال المدة الماضية منذ وقوع الهجوم قد دوتوا على عدد كبير من الرُقم إفادات الشيخ إيدريمي ورجاله وأكيزي وتالزو وبعض الآخرين. إذ كان الملك إيداندا فور علمه بالهجوم الجسور قد شكل لجنة تحقيق، مهمتها تتبع الآثار، ومقارنة أقوال الشهود ببعضها، وإجراء كل ما يلزم لإلقاء ضوء على المسألة، ليتمكن الملك من ثم من إعادة الأمور إلى نصابها ورفع الخلل الذي حاق بالأمن. وكانت لجنة التحقيق برئاسة أمين القصر، المسؤول في الوقت نفسه عن السُعاة المشاة والمراسلين الراكبين.

كانت الوقائع إلى حدٍّ ما واضحة: سرقة مُلكية الغير (حمير وما في خروجها)، قتل فرد من حراس القافلة وإيداء جسدي لبعض مرافقي القافلة (من رعايا قطنا وأجانب)، واحتمال الاعتداء على أرض الغير (منطقة قبيلة إيدريمي البدوية التي تتبع لأراضي قطنا) إذا تبين أن المجرمين ليسوا من سكان قطنا. التهمة موجهة حتى الآن إلى مجهولين، إلا في حال ثبوت الفعلة على إيدريمي. ولكن ليس هناك من يشكك في ولائه، ولا سيما أنه

وقبيلته تربطهما أوثق العلاقات مع قطنا منذ زمن بعيد، حين لجأت القبيلة إلى حماية قطنا. ثم إن علاقة الطرفين أحدهما بالآخر تنظّمها اتفاقية.

من يكمن إذا وراء العملية كلها؟

افتتح الملك جلسة المحاكمة بتجديد التماس مساعدة الربة القديرة والأسلاف الملكيين، ثم طلب من كبير موظفي القصر التقدم قائلاً له: «أخبرنا، ما هي نتائج تحرياتك؟».

بدأ رئيس اللجنة كلامه بوصف تفصيلي لمجريات الغارة، ثم قال: «نستتج من ذلك كله أن اللصوص كانوا يمتلكون مسبقاً معلومات دقيقة. كانوا يعرفون المكان الأكثر ملاءمة لتنفيذ الهجوم على القافلة في المسافة بين تدمر وقطنا. وكانوا يعرفون موعد ظهور القافلة لعبور مضيق الأفاعي. وكانوا يعرفون كيفية توزيع حمولة القافلة ومرافقيها. لقد كانوا جاهزين للهجوم تجهيزاً جيداً من جميع الجوانب، وكانوا يعرفون طريق هروب يوصلهم مع الغنيمة إلى السلامة بسرعة. من كل هذا لا يسعني سوى أن أستتج وجود خائن في القافلة نفسها يعرف كل شيء ويتعاون مع اللصوص».

سرى في القاعة لغط استهجان. طلب رئيس اللجنة الهدوء وأردف: «لم أنتهِ بعد. ثمة نقص في بعض التفاصيل المهمة. أحدها لم نذكره بعد، رغم أنه الموضوع الرئيسي لهذه الجلسة، وهو الغنيمة. فليمثل مسؤول الشحنة أمام الملك!».

أُحضر مسؤول الشحنة مرتعد الفرائص، وارتدى على الأرض أمام الملك. فأمره رئيس اللجنة قائلاً: «انهض واقفأ ما نريد أن نعرفه منك هو: ما هي حمولة الحمير المسروقة ومن هو صاحب البضاعة المسروقة؟». فأجاب الرجل:

«سُكّلت القافلة في طرّقا على نهر بوراتو، من قبل تجار قطنا في مركزهم هناك. وقد تلقيتُ منهم إرشادات دقيقة تتعلق بالأخراج المختومة والصناديق والرزم المزودة بالأختام، والتي عليّ مع الحزام تحميلها على الحيوانات في ترتيب وتسلسل محددين. وتقيدنا بهذه الإرشادات بدقة طوال الطريق. وقد أمرتُ بإيلاء حماية خاصة للحمير الأخيرة، فأكدتُ الأمرَ للمرافقة المسلحة من طرّقا إلى تدمر، ثم من تدمر إلى قطنا عدّة مرات. ما أريد أن أقوله يا سيدي هو أنني لا أعرف بدقة مضمون الحمولات المختلفة. ولكن بالاعتماد على خبرتي أستطيع أن أخمن فقط ماذا نقل. أما التفاصيل الدقيقة فهي موجودة في لائحة الشحنة التي سلمتها بيدي للشريف لوياء. والوكلاء التجاريون لأصحاب الطلبات المسافرين معنا في القافلة ربما كانوا يعرفون المحتويات».

قال رئيس اللجنة: «فلندع الرجل الطيب يذهب بسلام. كان مرادي أن أوضح فقط مدى الاحتياطات الشاملة المتخذة عند خروج قافلة من القوافل إلى طريق السفر. لقد استجوبت طبعاً الوكلاء التجاريين والشريف لوايا. وكى لا أبالغ في تشويقكم أقول: الحمولة المسروقة تخصّ القصر الملكي الذي يمثله الشريف أكألينا».

ارتاع غير المطلعين، لكن رئيس اللجنة تابع من دون تأثر: «حمولة الأخراج كانت ما يعادل ثمن أردية قطنا الثمينة وأخشاب الأرز والزان وزيت الزيتون والعاج المرسله العام الفائت إلى القصر الملكي في بابل، الذي أرسل لقاءها أحجار لازورد وأحجار زينة ثمينة أخرى ولألعي من دلمون وفضة وذهباً، ومجمل وزن الحمولة يعادل ما بين 200 - 240 طالين⁽¹⁾، أي أنها غنيمة دسمة، بل دسمة جداً، لذلك أستبعد أن يكون من خطط للعملية ونفذهها أحد الوكلاء التجاريين مع بعض البدو. إذ كيف سيتداول هؤلاء بهذه الأحجار الثمينة بين الناس من دون أن يلفتوا النظر إليهم؟».

«استنتاجاتك الذكية تستحق الثناء»، قال إيداندا وأردف: «فاكشف لنا الآن النتيجة كاملة. من هو الفاعل وأين هي الغنيمة؟».

«السؤالان أيها الشريف إيداندا، لا أستطيع الإجابة عنهما، رغم الاستجابات المستمرة وتقارير (عيوننا) الذين أرسلتهم إلى طرفا، ورغم كل الجهود التي بذلناها حتى الآن. ولا يسعني سوى إبراز حالة اشتباه لا غير، إذ لا يمكن استنتاج غيرها: محرك العملية كلها لا بد أن يكون شخصية بارزة جداً في قطنا، وقد يكون عدّة أشخاص».

أصيب الحضور برعب شلّ حركتهم، ثم سمعوا الملك يقول: «هذه تهمة ثقيلة. راجع ضميرك جيداً. وليكن الأرباب في عونك، إن كنتَ مخطئاً». لكن أمين القصر عاد فأكد:

«ومع ذلك تبدو الأدلة دامغة يا سيدي. مثل هذه العملية لا يمكن أن يخطط لها وينفذهها إلا من له اطلاع على الوثائق في دار البلد، ويشغل في التجارة البعيدة، ويعرف مراحل طريق القافلة حق المعرفة. أي القادر على إرسال السعاة واستقبالهم من دون أن يلفت النظر، والقادر على استتجار البدو كأعوان ويعرف أنهم لا يجوز أن يكونوا من قبيلة الشيخ إيدريمي. وبهذا أستبعد من الاتهام جميع الوكلاء التجاريين والتجار الأجانب الذين كانوا وفق تحرياتي هذه المرة مشاركين في القافلة بنسبة الثلث».

«فهمت قصدك. ولكن قل لي: من هو جاسوس محرك العملية؟ كيف عرف أن الحمير

(1) طالين: وحدة وزن قديمة تقارب كغ.

التي تحمل الشحنة المزمع سرقتها سيكون موقعها في آخر القافلة، وكيف عرف الموعد الدقيق لعبور القافلة من مضيق الأفاعي؟ فهو ليس منجماً».

أجاب أمين القصر عن أسئلة الملك قائلاً: «الجاسوس لا بدّ أن يكون الساعي، الذي وصل إلى قطنا قبل وصول القافلة الفعلي بعدة أيام، وأخبر الشريف لوايا بذلك».

«إذاً، إلينا بالساعي!». أمر إيداندا.

«هذا مستحيل يا سيدي، فقد اختفى من دون أن يترك أثراً. الواضح أنه غادر قطنا، عقب حديثه مع الشريف لوايا في دار البلد».

فسأل إيداندا: «أكان الساعي واحداً من رجالك يا شيخ إيدريمي؟». هزّ هذا برأسه نفيّاً. فتابع رئيس اللجنة: «كان مرسلًا من مركزنا التجاري في طرقا، وهو ليس من سكان قطنا. كان مكلفاً بمرافقة القافلة حتى تغادر تدمر، وفق الإجراءات الطبيعية. لكنه بقي مع القافلة حتى صارت بقية الرحلة متوقعة. وأسرع إلى قطنا، حيث لم يخبر لوايا فقط، بل قابل الذي كلّفه من قطنا وأخبره بترتيب حيوانات الشحنة، ثم غادر المدينة؛ إما ليختفي عن الأنظار، وإما لتنفيذ المهمة مع البدو المستأجرين في الوقت المناسب، أو لاستلام الغنيمة منهم، لست أدري..». لوحظ أن الأسئلة المتتالية قد أرهقت كبير موظفي القصر. وكان أسوأ ما في الأمر هو أن استنتاجاته وتصويره للكيفية التي نُفذت بها عملية السرقة، يصعب دحضها.

أشار الملك لرئيس اللجنة كي يقترب منه، ثم سأله: «مَن من تجار قطنا عدا أسرتي كان مشاركاً في القافلة؟».

«هناك أوبيسا بن آكولا، وكوا بن بلاغا».

«كلاهما لا يطولهما أيّ شك»، أجاب إيداندا، وأردف بصوت يائس: «أيّ من أشرف قطنا يحتاج إلى أن يُثري بهذه الطريقة؟ قل لي!».

«لا أتصور أحداً منهم»، أجاب أمين القصر، وأضاف: «ربما لم يكن هذا هو هدف السرقة ولا الغرض منها، أقصد الإثراء بزيادة الثروة الخاصة. ثمة ما أريد أن أضيفه هنا: حتى الآن لم يظهر أي شيء من الشحنة في قطنا. قد لا يعني هذا شيئاً بالضرورة، إذ يحتمل أن تكون المسروقات مخبأة هنا في مكان ما، وسارقها ينتظر بصبر حتى تهدأ الأمور حول الحادثة. لقد استجوبت مع رجالي جمع حراس بوابات قطنا الخمس وراجعت سجلاتهم لمعرفة مَن أدخل بضاعة تجارية إلى المدينة في الفترة الزمنية المحددة. لم نتوصل إلى أي

نتيجة. وهذا أيضاً لا يعني شيئاً، إذ يمكن أن تُهَرَّب المسروقات إلى المدينة مع أية حمولة من مواد غذائية، الأمر الذي لا يستدعي معاقبة حراس البوابات. لذلك لا يسعني سوى الاعتماد على شعوري بأن الغنيمة ليست في قطنا».

صمت أمين القصر، وكذلك جميع الحضور، ثم انحنى للملك وتابع كلامه: «إضافة إلى أسئلة مفتوحة خلّفتها تحرياتي، ولا أملك للأسف الشديد أجوبة لها، أوصلتني التحريات نفسها إلى نتائج لا شك فيها أبداً، وهي أن الشيخ إيدريمي المحترم وجميع أفراد مرافقة القافلة أبرياء من أي ذنب. لقد اتخذوا الإجراءات الأمنية المعتادة وقاتلوا مخاطرين بحياتهم وفقدوا واحداً من قبيلتهم، كما بذلوا جهدهم لاحقاً للمساعدة في كشف هذه القضية. كما أرى أن مسؤول الشحنة المكلف بتنفيذ عملية الشحن لم يقصّر في القيام بواجبه ولا يجوز اتهامه بالإهمال. كذلك لا بدّ من استبعاد شبهة أن يكون هو أو الشيخ إيدريمي أو كلاهما معاً قد خططا لعملية السرقة ونفذاها بالتعاون مع اللصوص».

تداول تالزو عدة مرات حول الدوافع المحتملة للهجوم على القافلة، ليس مع أكيزي وحده، بل مع كوارى وكيا أيضاً. خلال هذه المدة توصل أكيزي إلى فناعة بأن سرقة الحمير كانت مجرد مصادفة، إذ رأى أنه ما كان باستطاعة اللصوص أخذ جميع الحيوانات، ولذلك اكتفوا بالأخيرة منها فقط. ورجّح أن يكونوا عند فتح الأخراج، قد دُهبوا وامتلأوا سعادة بالغنيمة، وأنهم سرعان ما سيفضحون أنفسهم بسبب الإفراط في التبذير، بل وقبل ذلك بسبب التباهي وهم سكارى، ما سيسهل ضبطهم. إنه احتمال وارد نوعاً ما، لكن أفكار أمين القصر بدت لتالزو مقنعة ومنطقية تماماً، وأمعن التفكير في مَنْ يكمن وراء السرقة وما الغرض منها، لكنه لم يتوصل إلى شيء. مَنْ المستفيد من العملية؟ تداعت في ذاكرته أمور، خيّل إليه أنها على صلة ما بحادثة الهجوم، أمور سمعها أو رآها. ولكن متى وأين؟ هذا ما لم يستطع تذكره مهما بذل من جهد.

نشر الصيف قيظه اللاهب على الأرض، وما حضسته التربة منذ الربيع بات معظمه جاهزاً الآن للحصاد. بمرور هذه الأسابيع أحس تالزو بنفسه وكأنه في بلده، إذ قام إما

وحده أو بصحبة أكيزي أو كوارى أو كيا، ممن ارتبط بأواصر الصداقة معهم، بالتجوال في جميع أنحاء المدينة.

وقد تسلى كثيراً مع كيا بزيارة دونيو الميسيني⁽¹⁾ في ورشة صناعة الفخار التابعة للقصر، حيث يشرف على مجموعة من العبيد تصنع الأواني الفخارية الرقيقة على القرص الحجري الدوار، ثم يقوم مع بعض مساعديه بتزيينها بعناية، بخطوط حلزونية أو متعرجة مع زهور صغيرة أو أشجار نخيل وليلك وحشائش ملونة. وقد كان بارعاً في تشكيلاته البحرية المكونة من القواقع والحجّار والدلافين المتقافزة في عالم مائي مليء بشعاب المرجان والأعشاب البحرية. كان الصلصال متوفراً بكثرة في حوضي النهر الرئيسي في شمال المدينة وغربها، وكان دونيو يمتلك سر خلطة المواد الأولية ومعالجتها، ليبتج منها أفخر المزهريات والصواني والصحاف والصحون والأباريق والأقداح، بمختلف الأشكال، المطلوبة جداً في كل مكان. حتى أبسط أدوات المطبخ كانت تتحول بين يديه إلى قطع فنية ثمينة، علماً بأن الانطباع الأول عنه لا يوحي بأن دونيو يمتلك هذه المهارة الفنية، فهو قصير القامة ممتلئ الجسم متين الأطراف. ويدها المكتنزتان تلفتان النظر جداً، ويكاد رأسه المستدير يخلو من الشعر فوق لحيّة كثة ووجه يطفح بالطيبة، بجبين غائر، وأنف مفلطح، وفم عريض، وأذنين كبيرتين نافرتين.

كانت أكيا قد التقطت من كلام تالزو أنه (يُلطّش) باللغة الآخية أيضاً، ودهشت عندما عرفت أنه قد تعلمها من تجار آخيين في ترشا. حياً تالزو دونيو قائلاً: «خايري!» (مرحبا)، فسّر دونيو ورحب به بحفاوة ودعاه لتكرار الزيارة، فلبى تالزو الدعوة مراراً، ما أتاح له الفرصة لتطوير معرفته باللغة الآخية، كما عرف منه قصة المغامرة التي أوصلته إلى قطننا، والتي أخبر كيا بها:

«تعلم دونيو المهنة في قصر ميسينا حتى صار معلماً في ورشته. كان متزوجاً وعنده أولاد. ولأسباب لم أفهمها تماماً اختلف مع أسياده. قد تكون زوجته هي السبب أو أنه كان ملزماً بالالتحاق بالجيش، لا أعرف تماماً، لأنني ما زلت لا أفهم كثيراً من المفردات. على كل حال، اضطرّ مع عائلته إلى مغادرة المدينة، لا، بل إلى مغادرة المملكة كلها، فبحثوا عن سفينة مبحرة باتجاه الشاطئ الشرقي، وقبل وصولهم بقليل هاجم القراصنة السفينة. هذا ما استطعت استخلاصه من حديثه. ومنذ ذلك الحين لم ير زوجته وأولاده. ولولا قوته

(1) نسبة إلى مدينة ميكناي (ميسينا) اليونانية القديمة قرب أثينا.

الجسدية ومهارته لما بقي على قيد الحياة. باعوه في جزيرة كريت، لكنه تمكن من الفرار واشتغل في سفينة. إلا أن هذه السفينة لم تأخذه إلى القاعدة الآخية الشرقية ميلانواندا، حسبما أمل، بل إلى جزيرة النحاس كويبريو (قبرص) التي نسميها أليشيا. وهناك بيع ثانية في سوق النحاس لتاجر باعه من جديد لمالك منجم نحاس حيث كان العمل شاقاً جداً. مَنْ يموت من العمال يرمى بعيداً ويستبدل به غيره. لا تسأليني كيف، لكنه تمكن من الهرب ثانية واشتغل مجدداً في سفينة تجارية عبرت به البحر الغربي الكبير. لم يهتم صاحب السفينة بكونه عامل منجم فاز، حتى أنه في أوغاريت تركه يذهب وشأنه. ومن هناك انضم إلى أول قافلة وجاء إلى قطنا حيث عرض خدماته بصفته فواخيري».

فسألته كيا: «وماذا عن عائلته؟». هز تالزو كتفيه وقال: «قدره كقدر كثير من الناس الذين انتزعوا من حياتهم الطبيعية. لا أدري مدى الحق في هذا، ولكن ما السبيل إلى تغييره؟ العبيد يُستخدمون في كل مكان. لكنه هنا بمنزلة رجل حر، أليس كذلك؟».

«لا أتصور أن أبي قد يسمح له بالذهاب ثانية. أتعرف مدى غلاء البضائع الفخارية الآخية؟ خلال سنواته القليلة هنا علم عدداً كبيراً من المتدربين على صناعة الفخار ورسبه حتى وصلت قطنا إلى حد الاكتفاء. لكن أبي يقول إن دونيو لا يكشف سر معالجهته للصلصال وطريقة عجنه وكميات مواد الخلطة حتى تبلغ هذه الدرجة من النعومة. كما أنه لم يكشف حتى الآن سر المادة التي يطلي بها الأواني لتصبح لماعة أو مطفاة، ولا تنكسر أثناء تنظيفها. وفي هذا ضمانه كبيرة له. إنه يعيش هنا بصورة جيدة جداً، لديه خدم، ويتمتع بمكانة عالية. أعتقد أنه يرغب في الهرب؟ هل قال لك شيئاً؟». نفى تالزو ذلك.

قام الأصدقاء بمشاوير إلى الضواحي القريبة، طافوا بالحقول الخصبة المنحدرة نحو نهر أراتنو في الوادي الجانبي المنخفض، حيث تصب عدة روافد قادمة من الجنوب نحو الشمال. أكبرها، الذي يلامس المدينة من جهة الشمال، يمتلئ صيفاً بما يكفي من الماء ليخوض فيه الأطفال ويلعبوا، وليغتسل فيه عامة الناس. وهناك تُنجز أعمال كثيرة إضافة إلى صيد السمك وغسل الثياب. كان الماء ضرورياً لتصنيع الطوب الذي تحتاجه المدينة باستمرار، كضرورته لتحضير الصلصال لمختلف ورشات فخار المدينة. لكن ضرورته تأتي في المقام الأول لدباغة جلود الخراف والماعز والبقر ولصناعة النسيج، التي تعد أحد أهم موارد قطنا الراححة. تصنع الأقمشة والألبسة من الصوف، ومصدره غالباً أغنام البدو الذين يرعون قطعانهم في البادية الشرقية. كما يمتلك بعض سكان المدينة قطعاناً كبيرة لا يسمح لها بالرعي في الحقول حول المدينة إلا في الموسم. وإلى جانب الصوف

هناك الكتان الذي سيحصد هذا الصيف. بعد معالجات مجهدة وطويلة الأمد، يصنع من الكتان أقمشة مختلفة، خشنة وناعمة، وحبال وخيوط. وفي متاجر دار البلد يرى الإنسان الكثير من مختلف أنواع الأقمشة، ما يدعو لدهشة لا محدودة، وأكثرها إثارة طبعاً هي الأردنية الأرجوانية المميزة لقطنا. ولا يسمح إلا للملك بإنتاج هذا اللون. ورغم أسئلة تالزو المتكررة عن مصدر المادة اللونية هذه وعن كيفية الصباغة بها، فإنه لم يحصل من أصدقائه على أي جواب، إلى أن قالت له كيا إن الحديث في هذا الموضوع ممنوع، تحت طائلة عقوبة الموت، وإن طريقة استخلاص اللون تعد سراً مصنوياً بحرص، لا يعرفه سوى قلائل، ربما عمال الإنتاج وبعض أفراد العائلة المالكة. وقد ختم تالزو ذلك كله من ملاحظته ذلك الحي جنوب شرقي المدينة، المحظور الدخول إليه والمحروس جيداً، والذي تصدر منه رائحة كريهة فظيعة. وإلا فماذا يصنعون هناك؟ وأقصى ما خطر ببال تالزو هو ورشات صناعة الأسلحة.

زار الأصدقاء مقالع الحجارة القريبة بين الوديان المحلية في الغرب والجنوب والشرق، حيث يُستخرج الحجر الكلسي الضروري للبناء، ويرسل إلى الحجارين لمعالجته. كما قاموا بزيارة الشيخ إيدريمي ثانية في البادية، بعد أن تعافى من جروحه. لكن أجمل تجربتين عاشهما تالزو كانتا الرحلة إلى جبال غابات الأرز العملاقة، واللقاء على ضفة النهر، حتى وإن لم تخلُ التجريبتان من المزعجات.

اقترح أكيزي على تالزو أن يرافقه في رحلة إلى الجبال الممتدة شمال غربي مملكة قطنا، وخلف مملكة أوغاريت، حيث عليه مراقبة أعمال قطع الأشجار الملكية. كانت تجارة الأخشاب أحد موارد قطنا المهمة، فحاجة بلدان الجنوب الفقيرة بالغابات، ولا سيّما مصر، كانت لا تنتهي. ورسائل الطلبات تصل باستمرار: «أرسلوا إلي بأسرع ما يمكن جذوعاً تصلح لبناء السفن وخشباً لقوارب الآلهة». كان المصريون يدفعون جيداً، ومنذ أن صار لفرعون ممثلون مقيمون في جبيل وأوغاريت بات إبرام الصفقات يتم من دون معوقات، ولا سيّما أن عمليات الشحن الشاقة والمكلفة عبر البحر الكبير إلى مصر لم تعد من شأن قطنا. ولم يعد يُطلب منها سوى قطع الجذوع العملاقة الثقيلة وإنزالها من المرتفعات إلى السهل، وهو عمل مجهد وخطر، راح ضحيته كثير من الرجال ومن حيوانات الجرّ.

في الصباح الباكر صعد أكيزي وتالزو الجبل على الممرات التي خلّفها وراءه جر الأشجار الضخمة. بعد نحو ساعتين من المسير الحثيث وصلا إلى ساحة تجميع الجدوع، حيث كان المشرف ينسق الأعمال ويضبط السجلات بصورة منتظمة. كان نهاراً صحواً رائعاً وحالة نادرة في الجو العام القائظ والرطب المهيمن على البلد كلها. بعد استراحة قصيرة قرر الشابان متابعة الصعود لمشاهدة منظر جبال لبنان البديع في الجنوب. كانت تغطّيهم ذرا الأشجار المعمّرة الجليلة من أرز وصنوبر وسنديان، ومن فوقها سماء داكنة الزرقة.

«أليس المنظر جميلاً كالجنة؟»

أوماً تالزو برأسه مأخوذاً وقال: «في حياتي كلها لن أنسى ما عشته في قطنا».

«لقد أحبيناك جميعنا، تالزو. فلتعاهد على صداقة أبدية ولنقسم حفاظاً عليها. سأكون دائماً إلى جانبك إن احتجت إلى مساعدة، وأرجوك أن تتخذ الموقف نفسه تجاهي!». وتعانقا وقبل كل منهما الآخر على الخدين، ثم بقيا جالسين صامتين في هذه الغابة الرائعة، وكل منهما سارح وراء أفكاره.

على طريق العودة وبعد أن قطعاً شوطاً كبيراً، توقفا لالتقاط أنفاسهما، وفيجأة اخترق الهواء سهم أخطأ إصابة أكيزي بفارق شعرة. تجمّدا في مكانهما. وأول ما خطر ببال أكيزي هو أنهما يتعرّضان لهجوم، وأراد الانبطاح فوراً ساحباً معه تالزو، عندما ظهر من الدغل صيادان ارتاعا من جانبهما لرؤية شائين، أحدهما فوق ذلك هو وليّ عهد قطنا، بدلاً من الطريدة المأمولة. لحسن الحظ استعاد أكيزي بشاشته بسرعة، مرتاحاً لعدم ارتباط الحادث بخطر محيق. ولكن في قطنا، عندما علم الملك بالحادثة، وبخ ابنه توبيخاً شديداً. في ما بعد، ولدهوة تالزو اعترف أكيزي قائلاً: «إنه محقّ تماماً. كان من المحتمل أن أصاب. كنت متهوراً جداً، فأنا وليّ العهد وأحمل مسؤولية أبعدها عن كاهلي باستخفاف»، وأضاف مع ضحكة تشي بالمرارة: «أما الآن فقد ألبسني النير. لقد حدّد لي مهلة لاختيار عروس، فهل ستكون شاهد زواجي يا صديقي؟».

رغم هذا الأمر الجديد المثير، لم يعفِ تالزو نفسه من تأنيب النفس. أما والده إحيًا فاستشاط غضباً: «ماذا جرى لك؟ ألا يكفيك أن أرجوك أنا مراراً وتكراراً لمتابعة أشغالنا! ثم تغيبان عدّة أيام وأنتما تعبانان! ماذا لو أصيب وليّ العهد بأذى، أو لو قُتل؟ ما أسهل توريطك في المسألة! من كان سيصدق أنك لست من دبر العملية؟ رغم كل كرم الضيافة، أنت أجنبيّ في قطنا. لا تنسَ هذا! ولا سيّما الآن، الأحوال متوترة، ولا أحد يعرف من وراء

الهجوم على القافلة. ألم تفكر بذلك؟ ولو أن السهم أصابك أنت.. كل ما بذلته من جهود كان سيضيع هباء في لحظة. وماذا كنت سأقول لأملك المسكينة؟».

بعد مرور مدة على حادثة الجبل ازداد شعور تالزو بأن إقامته في قطنا توشك على نهايتها. فالصفقات قد أبرمت، وبضائع قافلة مصر قد وصلت أخيراً، فاطمأن والده، ولم يتبق سوى أمله الأخير بتوقيع الاتفاقية التجارية التي ستتوج استثماراته في قطنا. وفي حال حدوث ذلك سيكون إحياء الوحيد من تجار كيزواتنا الحائز على هذا الامتياز، الذي سيدعم مركزه التجاري بصورة كبيرة.

لم تشغل هذه الأمور سوى حيز صغير من تفكير تالزو، إذ كان جلّ اهتمامه منصباً على مستقبله. شعر بأواصر متينة تربطه بقطنا، ولا سيما أن وليّ العهد، ملك قطنا القادم، صديقه. كم كان بوده لو يبقى هنا! لكن سبب هذه الرغبة الشديدة لم يكن أكيزي وحده. وفي أعماق قلبه كان يعرف السبب الحقيقي.. إنها كيا! وازداد يقينه من أنها السبب، كلما اقترب موعد مغادرته قطنا مع إحياء. من يوم إلى يوم أخذ حاله يسوء، ويتعمق بعد كل لقاء. أهو الحب ما يشعر به نحوها، وهو ما لا يجوز بأي حال من الأحوال؟ ما الذي سيستهويها فيه؟ فهو حتى الآن لم يثبت نفسه، بل ما زال مرتبطاً بإرادة أبيه وكرمه، ولم يبلغ من الرجولة بعد ما يؤهله ليحقق مشاريعه الخاصة في الحياة. ولكن ما كل هذا هو ما كان يعذبه فحسب. فقد كان له من الذكاء ما يجعله يدرك أن أمله فيها بلا جدوى منذ البداية، فهي ابنة ملك، وبالتالي أعلى منه مرتبة بكثير. لا بدّ له ويأسرع ما يمكن أن يخرجها من رأسه وأن ينساها بلا إبطاء. لكنه كلما بذل جهداً في سبيل ذلك، وجد نفسه أكثر انغماساً في شوقه إليها.

في القصر بات كل شيء فجأة مشغولاً بعرس أكيزي، الذي لبي رغبة الملك والملكة وحسم أمره خلال المدة المحدودة، واختار إهلي نيكالو، ابنة الشريف أوييا. وبهذه المناسبة وحسب العادة القديمة مشح إيداندا رأس العروس بزيت عطر، وقدم لوالد العروس هدايا ثمينة: أقمشة وأحجاراً كريمة ومنحوتات عاجية، تلقاها أوييا بحفاوة. وبهذا بات أكيزي وإهلي نيكالو الآن مخطوبين أحدهما للآخر رسمياً، وعند بزوغ الهلال الجديد سيقام العرس.

لم تدرِ کیا ما إذا كان عليها أن تفرح أم تحزن، فقد كانت إهلي نیکالو أعز صديقاتها، على الرغم من الاختلاف الكبير في شخصيتهما. الآن سيصبح حلم إهلي حقيقة، ستصير زوجة أكيزي وأم أولاده، وملكة قطننا لاحقاً. ولكن هل ستبقى صديقة کیا؟ وأثناء وجودها في دار البلد لداع رسمي التقت هناك مصادفة بتالزو.

«تبدین عابسة، کیا، هل أنت قلقة أم أنك مريضة؟».

نظرت إليه کیا مندهشة، فقد كان في الآونة الأخيرة أول من يسألها باهتمام عن حالها. ولكن مع وجود هذا العدد الكبير من الناس حولهما، لم تستطع أن تجيبه. وكان هناك احتمال لأن تبكي. ثم همست له: «تعال اليوم قبل المغيب بساعة إلى البوابة الغربية، ولكن بحيث لا يتعرفك أحدا!». واختفت في الزحام.

إن الأمل في لقيائها، وبهذه الطريقة السرية غير المألوفة، جعل قلب تالزو يخفق بشدة. عاد إلى دار تيرو، فحتى موعد اللقاء بقي وقت كثير، بل أكثر من اللازم. هذاً نفسه قليلاً وفكر في طريقه لجعل نفسه مجهولاً، لكنه وجد فكرة التنكر بالثياب حمقاء، فليس هناك من يمنعه من التوجه نحو البوابة الغربية، كما أنه لا تصور لديه عن خطط کیا. وأخيراً قرر ارتداء كساء كتاني قاتم يستطيع لبسه من دون مساعدة، وأخذ معه لفاعة كبيرة وغادر الدار.

لم يسلك الطريق القصيرة عبر المدينة إلى البوابة الغربية، بل تمشى نحو البوابة الشمالية، التي دخل منها مع والده إلى قطننا قبل أسابيع. ويا لكثرة ما جرى منذئذ! ماذا جرى له تحديداً؟ إنه يشعر بثقة أكبر بالنفس وبمزيد من النضج. وفجأة غمره يقين بأنه سيشق طريقه الخاص، ولو ضد إرادة والديه. إن الحياة رائعة. لف اللفاعة كما البدو حول رأسه، بحيث تغطي عنقه وتمكّنه من حجب وجهه. كان الوقت عصراً، فقرر أن يجول حول المدينة. مرّ بالبوابة الشمالية حيث الطريق المؤدية إلى إيمار والفرات الشمالي، وتابع حتى وصل إلى البوابة الشرقية. وفي هذه المرة لم يكن هناك قافلة قادمة ولا خيمة منصوبة، ولكن ثمة حركة وازدحام في الفسحة أمام البوابة وبين الأكواخ البائسة التي استوطنت المكان وامتدت منه حول المدينة كلها خارج السور. من موقعه هناك كان تالزو يرى بوضوح سلسلة الجبال الممتدة من الشمال نحو الجنوب والتي تفصل وادي نهر أرانتو عن الهضبة الشرقية. وقد شغلت المصاطب حيزاً عالياً من السفح، وكانت كلها مؤهلة زراعياً بصورة جيدة. لقد ألف هذه المناظر ويات يعرفها من قرب. وفي اتجاه الجنوب امتدت بيارات واسعة مزروعة بالنخيل وأشجار الفاكهة المختلفة والكرمة، وقد استطلت في ما بينها حقول لزراعة الحبوب والخضار، يفصل فيما بينها عدد من الدور الفلاحية

البيضة. أما ما تبقى فيستخدم مراعي للبقر والخيول والبغال والحمير. قطف تالزو بعض ثمار التين وأكلها مستطياً طعمها. عندما وصل إلى البوابة الغربية كان الوقت قد تجاوز العصر، وباتت أشعة الشمس ذهبية على جدران المدينة.

هنا، عند أهم بوابات المدينة ساد نشاط كثيف أكثر من المعابر الأخرى، لأن الطريق القادمة من البحر الكبير في الغرب، ومن نهر أراتنو، ومن مخاضة قطنا، كلها تنتهي هنا. أعداد لا حصر لها من العربات المحملة بالخضار والعلف والصوف والجلود المدبوغة، إضافة إلى البشر، كانت تندفع إلى داخل المدينة، في حين تبغي أخرى الخروج، وبينها كثير من المشاة وراكبي الحمير والبغال. تبع تالزو التيار المتحرك داخلاً المدينة وبقي واقفاً قرب البوابة. تلقّت حوله مضطرباً جاهلاً من عليه أن يتوقع من خادمت القصر أو خدمه وإلى أين سيقد. لم يعرف أحداً من الواقفين من حوله. انتقل إلى جانب البوابة الآخر، استند إلى السور وانتظر.

«اتبعني!». فتح إلى جانبه فجأة صوت أجش. وظهرت أمامه امرأة محجبة كلياً. وقبل أن يتمكن من إجابتها تحركت مغادرة المدينة لدهشته، منحدره باتجاه النهر، متبعة درياً ضيقاً يمتد من المخاضة باتجاه الجنوب إلى دغل صغير على الضفة مباشرة، يوجد في وسطه تعريشة من القصب مخفية عن الأنظار.

ومن تحت الحجاب ظهرت كيا، مسرورة على ما يبدو من عملها، وحيته بنشاط قائلة: «هل أدهشتك؟ إخوتي الصغار وأنا كنا نلعب هنا في طفولتنا. لطالما أحببت هذا المكان، لذلك أتردد عليه بين الحين والآخر، عندما أرغب في أن أكون وحدي تماماً. أنفهم ما أعنيه؟ أعرف أن هذا لا يليق بي، لكنني أجد نفسي مُحَرَّرة، لمجرد التصور بأنني قادرة على التحرك بحرية مثل الآخرين». نظرت إليه بحزم وأردفت: «ستقاسم سرّاً آخر، أنت وأنا الآن، لكنك لن تشي بي؟».

«أعدك بذلك كيا، مطلقاً». أجاب تالزو باحتفاء وتابع: «والآن، أخبريني، ما الأمر؟». ثم جلس على المنحدر، فحدّث كيا حدوده: «ما الذي يضايقك؟ أليس من الصواب أن يتزوج أكيزي؟».

«طبعاً، بالتأكيد. بل قبل أن يفوت الأوان، حسبما تقول أمه. إلا أن أموراً كثيرة ستغير بزواجه، لا أعرف كيف، وهذا يخيفني. أكيزي وإهلي نيكالو سيسغلان بعض الحجرات في الطابق العلوي من الجناح الملكي، هذه الحجرات قيد التأثيث الآن. لا أستطيع أن

أتصور كيف ستكون إهلي نيكالو في المستقبل. سوف ترتدي حجاب المتزوجات خارج القصر، وستنجب أطفالاً، وسيكون عليها القيام بواجبات معينة بصفتها زوجة وليّ العهد». أخذ صوت كيا يخفت تدريجياً، إلى أن قالت: «لكنها حتماً لن تستطيع أن تبقى صديقتي، كما هو الأمر حتى الآن، إذ أستطيع أن أحادثها في كل الأمور. حسناً، صحيح أنها لا تستمتع بالتعلم ولا ترغب إلا بالضروري منه، وأنها تهتم بأمور كالملابس والزينة، التي لا تهمني كثيراً. لكننا كنا نتسلى كثيراً معاً، نتندر بالآخرين، نتحدث حول الفتيان والشباب أو حول بعض الخالات والأعمام غريبي الأطوار. كانت كلّ منا تعتمد على الأخرى وتثق كل منا بالأخرى. كنا نشترك في همومنا. فهي مثلاً لا تنسجم كثيراً مع أبيها الذي غالباً ما ينتقدها متبرماً. وأنا، غالباً ما كنت أشكو لها أكيزي عندما يستخفّ بي أو عندما يصاب بإحدى فورات غضبه. وكنت أشكو لها الملكة وأنا أبكي، لتعاملها السيئ مع أمي أو معي أنا. والآن ها هي ستصبح زوجته وكنتها، وهي ملزمة بطاعتها في المستقبل، أتفهم ما أعني؟ لا يمكن أن تبقى الأمور كما كانت عليه».

«ربما أن الأوان لتقفي على قدميك وحدك. أستطيع أن أتصور أنكما بعد الاعتياد على الأوضاع الجديدة كلها ستستعيذان صدافتكما، حتى وإن تغيرت عما هي عليه حتى الآن». «أف، إنك تتكلم مثل مرتبتي. أحب الأمور إلى قلبها أن تراني قد زوّجت. عندئذ سأستطيع أن أجلس مع إهلي نيكالو وأطرز وأنتظر إلى أن يناديني زوجي. وأنا لا أرغب لي في ذلك، ثم إنني لا أعرف أحداً في قطننا يمكن أن يكون زوجي».

«إذا صار حيني، ماذا تنوين أن تفعلي؟ كيف تتصورين أن تبدو حياتك؟».

«لا أعرف»، أجابت بحدة وأضافت: «ولكن حتماً ليس بهذه الصورة».

«كيا، اهديني! بودي أن أساعدك، لكنني لا أعرف ماذا يمكنني أن أفعل».

«أنا لا أريد أن أهدأ، وأنت لست مطالباً بأن تساعدني».

نظرت كيا إليه بغضب وكانت عيناها تقدحان شرراً وقالت: «هل لديك أية فكرة عن احتمالات مستقبلي بصفتي أميرة قطن؟ الأكثر احتمالاً هو أن أدفع إلى حريم ملك من الملوك ضماناً لاتفاقية ما أو معاهدة حماية أو أي شيء آخر، على الرغم من أن أبي يحبني. وقد يكون هذا الآن أفضل الحلول، إذا عرفت الملكة من إهلي نيكالو رأيي بها».

صمتت تالزو وأبعد نظره عن وجه كيا إلى ماء النهر المتدفق. كم كان بوده في تلك اللحظة أن يحضنها ويواسيها، وقد بدت رائحة في غضبها. لكن اللحظة تلاشت.

ضغطت كيا شفتيها إحداهما على الأخرى بعضهما. وضع تالزو يده على كتفها وقال بلطف: «كيا، أنت خائفة جداً من المستقبل، وأنا أيضاً. كل شيء مثير ومرعب في الوقت نفسه، لأن دروبنا تبدو محددة مسبقاً. أنت ستصيرين زوجة (ملك ما)، كما قلت، وأنا سأستلم تجارة راسخة مملّة وأنكبّ على لوح الحساب. ولكن هل من المحتم أن يكون الأمر كذلك؟ أنت وأنا تعلمنا كثيراً ونستطيع أن نتعلم أكثر فأكثر. وما تعلمناه كفيلاً برفعنا فوق معظم أبناء جيلنا. ترى ألا نستطيع استثمار هذه المعرفة؟ أنا من جهتي مصمّم، بعد عودتي إلى كيزواتنا، على ترك دار أهلي، وسأعرض على ملك حتوشا خدماتي مترجماً ورسولاً مفاوضاً. ألا يمكنكِ أنت أيضاً أن تفعلي شيئاً بمواهبك المتعددة؟ أنت ذكية وجميلة وجريئة ومثقفة..». وكان على وشك أن يضيف: «وأي ملك من الملوك سيفخر بالحصول عليكِ زوجة». لكنه عَضَّ على شفتيه وقال في نفسه: لا يجوز لأي ملك أن يعانقها، هذه لا! ومع هذه الأفكار أحس بحرارة تجتاحه، فسحب يده بسرعة وعاد ليحدق في الماء الجاري. كانت الشمس قد شارفت على المغيب واقترب وقت الغسق.

اعتدلت كيا في جلستها وقالت: «أنت طبعاً، فأنت رجل. والرجال قادرون على رسم خطواتهم، وعلى أن يأخذوا من الحياة ما يريدون. أما نحن فعلى النقيض، إذ يُحدد لنا ما علينا فعله، وعلينا أن نرضخ، بل لا يجوز لنا أن نشكو. ما أسهل الكلام بالنسبة إليك. خذ أمي مثلاً..». فقاطعتها تالزو: «إنها لا تبدولي ممرورة أبداً، بل متوازنة تماماً، على النقيض من أمي».

«هذه هي المسألة، فهي تخضع ببساطة وتقنع نفسها بأنها راضية بذلك».

«هل أنت واثقة إلى هذا الحد؟».

«لم أرها ولو مرة واحدة تحتج بقوة في وجه الملكة».

«ربما كانت على درجة من الذكاء، بحيث أدركت أن الملكة تغار منها».

«كيف خطر هذا في بالك؟».

«ما انطبع في نفسي هو أن أباك لا يحبك أنت فحسب محبة فائقة، بل وأملك أيضاً. منذ تناولتي العشاء معكم أول مرة، بعد وصولنا إلى قطننا بفترة قصيرة، لفتت انتباهي النظرات الشغوفة التي يخصصها بها، والتي لا يوجه مثلها أبداً إلى الملكة بلتوم».

«حتى إن كان الأمر كذلك، هذا لا يفيدني شيئاً».

«ورثاء الذات لا يفيد أيضاً، حسبما تبين لي. إنه يشل الذات لا أكثر».

«يا لك من ناصح حكيم! أيجب علي الآن أن أنحني لك؟». قالت ذلك وهي تنهض وأردفت: «إن لم يكن لديك أفضل من هذه الحكم، فشكراً، بوسعي الاستغناء عنها!». أرادت أن تجرحه ونجحت في ذلك. نهض تالزو أيضاً. لقد تلاشت ألفة البداية. استدارت بحركة عنيفة فتعثرت وكبت. كان رد فعل تالزو سريعاً فأهـك بها، وللحظة عابرة لامست شفتاه عنقها، ثم وقفت بثبات فأفلتها. وبسرعة أسدلت حجابها والتفتت مغادرة.

تركها تالزو تذهب وتابعها بنظره إلى أن اختفت في الغسق. ما الخطأ في ما قاله؟ ما الذي أغضبها بهذه الصورة؟ أليست هي من طلب الالتقاء به سرأ، أليست هي من اقترح الأمر؟ إذاً، هو لم يكن منفراً إلى هذه الدرجة. أم أنه لا ينفع إلا للتنفيس عن غضبها؟ هل تحققره لأنه ابن تاجر؟ سيربها. سيرب الجميع كيف سيمسك بزمام حياته بيديه. إنه يرى طريقه واضحاً. حيثما توفرت له الإمكانية سيلعب دور الوسيط، سيزرع السلم ويوفق بين الخصوم. أما كيف سيعيد علاقة الصداقة بينه وبين كيا إلى ما كانت عليه، فبقي أحجية.

كان الوقت ليلاً عندما عاد إلى دار تيرو، فقد انهمك طوال الطريق في التفكير بخطط مستقبله. ولكن مهما أخذته الأفكار بعيداً، كان دائماً يعود إلى كيا. لقد كانت زاخرة بالحياة وحب الحياة ومليئة بأفكار عميقة. تذكر حوارهما حول الآلهة، حين كان ذهنها مشغولاً بصورة لافتة بوجود كثير من الأرباب، غير تلك المألوفة في قطننا، حيث بيليت إكالم سيدة المدينة وحامية العائلة المالكة إضافة إلى الأجداد من الملوك المؤلهين.

«أتعرف، يامكاني تفههم أن كل رب من الأرباب يجسد شيئاً خاصاً، وأن لكل رب مجال سلطته الخاص، كأرباب المدن والبلدان، وإله الشمس وإله القمر وإله الطقس، وأرباب الشفاء وكل الآخرين. بعض الآلهة سلطتها واسعة، وبعضها أقل. وواجبنا الأسمى يكمن في أن نزود الأرباب بما يليق بهم، فنقدم لهم الأضاحي بسخاء ونرتل لهم الأناشيد ونصلي لهم ونقيم احتفالاتهم في مواعيدها كي لا يغضبوا علينا ويعاقبونا. إذا سارت الأمور كلها حسبما يرضيهم فسيوخون إلى الكاهنات والكهنة، وبطرق مختلفة دائماً: في الحلم، في قراءة القربان أو في تأويل إشارات محددة. أليس الحال عندكم في كيزواتنا مماثلاً؟».

هز تالزو رأسه موافقاً.

«وقد يوحون إلى كل فرد منا أيضاً؟». نظرت كيا إلى تالزو نظرة تساؤل وتابعت فوراً: «يبدو لي أنه كلما كبرت البلد، كثر الأرباب فيها».

هز تالزو رأسه ثانية وقال: «هذا مؤكد بالنسبة إلى حتّوشا. وما يجب أن لا ينساه أحد هو أن هذا يجلب الخطوب للملك والمملكة».

«الخطر إذاً ليس كبيراً لحسن الحظ بالنسبة إلى قطنا، حيث لا نعبد جميع الأرباب فيها - حفظتنا آلهتنا منهم! ولكن، ما رأيك تالزو، ألا يتبادر إلى ذهنك أحياناً أن الأسماء فقط هي التي تختلف، في حين أن الآلهة هي نفسها في كل مكان؟ عندكم مثلاً عندما تقدمون الأضاحي إلى ربة الحب، يدخل الناس هنا إلى معبد بيليت إكالميم، التي هي عشتار أيضاً، أليس كذلك؟».

وافقها تالزو. وهذا في رأيه إحدى خصائص الدبلوماسي الجيد أيضاً، أن يعرف هذه الأمور الدينية كلها، الأرباب وطقوسها الضرورية وخصوصية كل بلد بصورة جيدة، كي لا يهين أحداً. وما زال أمامه الكثير ليتعلمه.

نظرت كيا إليه بجديّة ومسحة تأمرية وقالت: «والآن سأكشف لك سرّاً، لا يجوز لك أن تأتي على سيرته مع أي كان. عدني بذلك! في عائلة أمي يعبدون أيضاً كثيراً من الأرباب، لكن لأحدهم مكانة خاصة»، ارتعشت وأردفت بخشوع: «إنه إله الشمس آمون رع. هو الذي خلق الأرباب الآخرين كلهم. إنه الإله المتعالي المهيمن على كل شيء والمحيط بكل شيء، والذي لا شبيه له».

أحسّ تالزو أنها متأثرة عميقاً بهذا التصور. أما هو فكان عليه أن يفكر فيه.

آه كيا، إلام ستؤول الأمور كلها؟ إن فكرة أنه لا بدّ له الآن من التحدث إلى شخص ما، دفعته إلى التفكير بالبوح إلى الأرباب، عسى أن يجد لديهم نصيحة. سيصلي لهم كلهم. لا شك في أنهم سيعذرونه، لأنه لم يتوضأ بالشكل الضروري اللائق. وهكذا دخل مباشرة إلى حرم الأرباب في قصر تيرو. وفيما هو مستغرق في أفكاره وتأملاته نسي الوقت. ثم، بمظهره المضحك، وصل إلى غرفته، ولم يكذ يخبر اللفاعة حتى دخل والده، فوقفا صامتين واحدهما تجاه الآخر. وبعد برهة سأل إحيا وهو على وشك الانفجار: «ما هو عذرك؟». فأجاب تالزو بتحدّ: «كان لا بدّ من أن أفكر»، إذ إنه لم يرغب في الانصياع دون مقاومة.

«آها، كان على السيد المحترم أن يفكر! وطوال ساعات. وطبعاً دون أن يعرف أحد، أين؟ والمواعيد؟ سيان، فليقم العجوز بالعمل، أليس كذلك؟ ما علاقتي أنا بالأمر كله؟ هكذا تفكر. لكنك هذه المرة يا صديقي شددت القوس أكثر من اللازم. لماذا تضعني في

مواقف محرجة؟ بماذا أجيّب عن سؤال: أين اختفى السيد ابنكم؟ ولدى سماعي ملاحظة: أين تعلّم ابنكم لفّ العمائم بهذه الطريقة الغربية، أمن أصدقائه البدو الجدد؟ أرخي كفتي وأطبق شفّتي. وعن سؤال: لماذا لم يأت ابنكم إلى الموعد مع كوارى وعمّه تيرو، أهو متوعك؟ - وهي ليست المرة الأولى طبعاً - أرتجل متأثراً، نعم، إنك متوعك، فيتبادلان النظرات. الشريف تيرو يجدد دعوته لنا على العشاء، لكنني لست قادراً على التكهن بموعد ظهورك. كلها مواقف محرجة، محرجة جداً. أطفل أنت لتركض وراء نزواتك ولا تسيطر على نفسك؟ كيف ستأخذ المسؤولية على عاتقك في المستقبل؟ ألم تنفق قبل مدة قريبة، بعد الحادث المشؤوم لوليّ العهد في الجبال، على أن تمالك نفسك في آخر أيام إقامتنا في قطنا؟ ألم تعدني بذلك وتؤكد وعدك؟ الآن ودون موازية أريد أن أعرف منك، لماذا غادرت دار البلد من دون أن تترك خيراً، وأين كنت؟ أجيبي هيا!.

ثبّت تالزو نظره في عيني أبيه وقال: «كما قلت لك. ذهبت إلى خارج المدينة، كان لا بدّ من أن أفكر بنفسى وبحياتى. لا أظنك ستعترض على ذلك، فهذا من حقى». وكان رافعاً رأسه بثقة وفخر مواجهاً نظرة والده الغاضبة.

«إنك تخيّب أملى فيك بصورة مريرة، ومن جميع النواحي، أنت ابني الوحيد». هز إحياء رأسه بانكسار وتابع: «لقد تركت لك الحبل على غاربه دائماً. ويبدو أنني قد أخطأت في إحضارك معى إلى هنا. الدخول والخروج مع أفراد العائلة الملكية قد قتل رأسك كلياً، فبدأت تظن نفسك واحداً منهم، وأنت صرت أفضل من تاجر شريف من ترشا».

اعتدل الوالد في وقفته وتابع: «هذا كله في المستقبل سيتغير. لقد اكتفيت من نزواتك. حالما نصل إلى ترشا، سنضع حداً للتكاسل. ستداوم في المتجر بصورة منتظمة وستقوم بجميع الأعمال التي ستكلّف بها. وسأتكلّم مع أمك بشأن اختيار الفتاة المناسبة لك. آن أوان أن تسلك أخيراً كرجل، وليس كفتى مرعوب من دخول معترك الحياة وتحمل المسؤولية. هل فهمتني؟». وغادر الغرفة دون انتظار جواب تالزو، مخلفاً ابنه وراءه مثل صبي غيبي.

رائع، فكّر تالزو. ها أنا قد توصلت في أقصر وقت إلى الخلاف مع كيا ووالدى. يا لها من بداية مشجّعة لمهنتى كديبلوماسى! لكن الأمر سيّان بالنسبة إليّ الآن. أنا حتماً لن أصبح تاجراً، سواء قبل والدى بذلك أم لا. - ترى ماذا تفعل كيا الآن؟

غادرت كيا مسرعة، تضحّ غضباً وخيبة أمل.

كان يجب أن أتوقع أنه لن يفهمني، مثله مثل الآخرين. كلهم جاهزون بالنصائح الماكرة لتوجيه سلوكي، أما همومي ومشاعري فلا يابه لها أحد. انهمرت دموعها على خديها، لكنها خشيت أن ترفع الحجاب، ما قد يؤدي إلى تعرّفها، لا سيّما أنها في غربي المدينة. و فقط عندما اقتربت من المعبد، رفعت الحجاب عن رأسها كله ولفّته على بعضه. وعندما وصلت إلى مدخل القصر سمعت نداء اسمها، وفجأة ظهرت مرّيتها تايا أمامها.

«كيا، حبيبي، بحق الآلهة أين كنت؟». سألتها قلقة، وتابعت: «إني أنتظر منذ ساعات. بحثت عنك في جميع الأماكن التي تحيّننا، بلا جدوى». «ما الطارئ المهم؟». سألتها كيا.

«لقد اختفيت من دار البلد في اللحظة التي طلبك فيها الملك. أرسلوني وراءك لأحضرك، لكنك اختفيت. أبوك غاضب جداً، لا سيّما أن الملكة قد اتهمته بعدئذ بأنه يدلّك أكثر من اللازم، وبأنك تستغلّين صبره بوقاحة. فحضّري نفسك للعتاب يا سيدتي الشابة. لم يكن أمامي أية إمكانية لحمايتك، ولم أجد عذراً أو مخرجاً مقبولاً لغيابك، وأنا آسفة جداً لذلك. لكنني أردت أن أجذرك، على أية حال، ولهذا كنت أركض بين مداخل القصر منذ مدة خيفة أن تفوتيني!».

«لا تقلقي، أنت لا ذنب لك. لم أظن أنهم قد يفتقدوني. لماذا طلب الملك البحث عني؟».

«كان هناك بعض الوفود من بلدان مجاورة في دار البلد. وموفاً ملك أموزو طلب رؤيتك».

«لم أعرف شيئاً عن الأمر، أف. ماذا علي أن أفعل الآن؟ بماذا تنصحيني؟». «لا أستطيع نصحك بشيء يا حبيبي، فمهمتي واضحة: حال ظهورك عليك المثلث أمام الملك، حتى قبل أن تدخلني إلى غرفتك أو إلى الحمامات».

تجاوزتا الحرس وأسرعنا عبر القاعات إلى جناح المعيشة الملكي. عندما عبرتا الفناء ضغطت كيا الحجاب بسرعة في يد مرّيتها هامسة: «رجاء، احفظي لي هذا معك!».

أومأت تايا برأسها وأجابتها معتقة: «سأبتهل لبيبتك إكالييم من أجلك. لا شك أنك ستنجحين في تهدئة خاطر أبيك».

وصلتا إلى الرواق ذي الأعمدة. توقف عزم القيّارة فجأة وسكت الكلام، وتوجهت

جميع العيون نحو كيا التي وقفت في المدخل مرفوعة الرأس. تفحصتها الملكة بلبثوم من فوق إلى تحت باستخفاف، ما جعل كيا تحمرّ خجلاً، لإدراكها ما هي عليه الآن، صندلها مغبرّ وقدماهما متسختان، ثوبها غير مرتّب وشعرها منكوش.

التفت الملك نحوها، نهض عن كرسيه وأشار إليها أن تتبعه. ورغم أنه قد أجبرها بذلك على المرور إلى جانب جميع الحضور، إلا أنها ارتاحت لرغبته في التحدث معها على انفراد، دون الملكة ودون أمها، التي رمتها بنظرة خاطفة ووجدتها مسترخية كالعادة. تبعت أباها عبر قاعة الطعام إلى غرفة الجلوس المجاورة، التي تجتمع فيها العائلة شتاءً. ومنها يصل المرء إلى غرفتين منعزلتين مخصصتين للملك فحسب، ملاذه الخاص حيث يعمل ويقرأ، وينام أحياناً. كانتا مريحتين ووثيرتي المفروشات، ولكل منهما إطلالة بديعة على الجانب الشمالي من مركز المدينة. في الغرفة الأخيرة كان هناك أيضاً زاوية صغيرة تضم تماثيل صغيرة للأسلاف، حيث يناجي الملك مستشاريه الإلهيين الخاصين به. نادراً ما كان الملك يسمح لأحد بدخول هذا المكان. عندما كانت كيا طفلة سمح لها بضع مرات بالبقاء هنا لفترات قصيرة، وقد تذكّرت الآن في لحظة دخولها كيف كانت تجلس على ركبتيه وهي تهلل فرحاً، ولكن دون أن تجد الآن ما يدعوها للتهليل فرحاً.

«اجلسي!». أمرها الملك، فيما جلس هو على كرسي منجد ناعم قبالتها، فقد جلست حسب إشارته على كرسي ثلاثي الأرجل، وهي معتدلة الجسم منكّسة الرأس بانتظار التوبيخ. إلا أنها أخطأت الظن. أمسك أبوها بيديها وقال: «كيا، انظري في وجهي!». بعد برهة صمت نظرا في أثنائها كلٌّ في عيني الآخر، قال إيداندا: «أتعرفين كيا، أنك

الأقرب إلى قلبي من بين جميع أبنائي. ها أنت الآن امرأة ناضجة تقريباً، وسأحاول على الرغم من سلوكك، ليس اليوم فقط، بل مرات متكررة، أن أعاملك على هذا الأساس. سأفتح معك حديثاً في غاية الجدية، يتعلق بك وبمستقبلك، وذلك قبل أن نحكي عن نزوتك اليوم».

نظرت إليه كيا غير مصدقة. لقد توقّعت كل شيء: أسئلة قاسية، اتهامات، تهديدات بالتأديب أو أي عقوبات أخرى، واستعدت نفسياً لذلك. أحست بحافز يدفعها للركوع وتقبيل يدي أيها، لكنه على ما بدا قد حسب حساباً لردة الفعل هذه، فأبقاها جالسة في مكانها وقال لها: «سنبداً الآن! استمعي لما لدي!». ترك يديها واتخذ وضعية مريحة على كرسيه وقال لها: «بصفتك ابنتي الوحيدة فأنت أميرة قطنا. وإذا كانت الإشارات التي رافقت ولادتك قد فسّرت بصورة صحيحة، فمن المفيد حقاً لملكة مستقبلية أن تكون

واسعة الاطلاع وتجيد عمليات الحساب. فالعلم سلطنة، يا بنتي! أما كيف سيكون مسار حياتك، فهذا أمر لا نتحكم فيه وحدنا، بل الأرباب في المقام الأول. فعلينا أن نصغي إلى رسائلهم وإشاراتهم. أنت صبية جميلة كيا، وقد بلغت السن التي تؤهلك للزواج. هناك كثير من الرجال سيحلمون بك ويرغبون جداً في خطبتك، لكن منبتهم الاجتماعي لا يسمح لهم حتى بالتفكير في الأمر. لذلك سستبين بينك وبين نفسك أنك لن تتمكني في حال زواجك، من البقاء في قطنا، أليس كذلك؟ إذ لا يمكن أن يتقدم لخطبتك إلا من ينتمي إلى صفوة النخبة من ملوك أو أمراء.

أومات كيا برأسها، فتابع أبوها كلامه: «أنت شاركت في اجتماع مجلس الأعيان الأخير، وحصلت بطرقك الخاصة الغربية على معلومات إضافية، أي أنك تمتلكين حالياً تصوراً عن الوضع العام القائم. أذكر هذا لسبب محدد، وهو أننا، وإن كان البعض في قطنا يخالفنا الرأي، يجب أن نحسب حساب الضغط المتنامي علينا من القوى العظمى. ورغم طموحنا لتحقيق التوازن في القريب العاجل، إلا أنني لا أستبعد وقوع نزاعات حربية، فليحفظنا الأرباب منها!». ورفع إيداندا ذراعيه مبتهلاً. ثم أردف: «ولكن في هذه الحال ستطور الأمور في وقت ما، إلى حد أن نُجبر، نحن والممالك السورية الأخرى، على اتخاذ موقف وحسم أمرنا بصورة نهائية، إلى جانب إحدى القوى العظمى، هذا إن تبقت لنا حرية الاختيار قبل أن يقع احتلالنا ببساطة. من ستكون هذه القوة العظمى؟ مصر؟ ميثاني؟ حتوشا؟ أم آشور كاحتمال لا يحسب أحد حسابه؟ وهل ستبقى بابل مراقبة ما يحدث بصمت؟ لا نعرف، حتى الآن على الأقل. أتفهمين ما أريد قوله، كيا؟».

«أعتقد ذلك»، أجابت، وتابعت: «حالياً لا شيء مؤكد. ولكن في وقت من الأوقات قد نُضطر إلى إبرام معاهدة، وعندئذ لا بد من توفر ضمانات لها لتدليلها بختمي الطرفين حسب العادة. وهذه الضمانة ستكون أنا. تماماً مثلما أتت أمي إليك».

«يُسعدني إدراكك الأمر. لا شك في أن الوقت ما زال مبكراً جداً لذلك، فأنت، حتى الآن لم تمرّي بعدُ بطقس تأهيل العذراوات. ومع ذلك، من المهم أن تكوني مستعدة. سأعتبر نفسي مخطئاً جداً في فهمك، لولا يقيني من أنك تفضلين أن تقرري مستقبل حياتك بنفسك. لكن الأمر ليس بمستطاعك ولا بمستطاع أي أحد منا. لا أدري إن كنتِ قد فكّرت سابقاً بهذا الموضوع! لا يسعنا في حدود إمكانياتنا سوى أن نجهز أنفسنا جيداً لاستقبال أقدارنا، كي لا نُداس ونضيق على نحو مزرٍ. لا مهرّب من القدر. حتى الآن كنتِ حرة مثل عصفور. وأنا أعرف جيداً أنك غالباً ما كنتِ تتلاعبين بي بسهولة، وكنتُ أدعك

تفعلين. أقول ذلك دون لهجة اتهام، لأنني كنتُ أُسرّ بذلك. أما الآن فلم تعودِي طفلة صغيرة، كيا، حتى ولو أنك ما زلت كذلك بمعنى من المعاني». ورغم الحزم كانت نظرات إيداندا مفعمة بالحب وهو يقول: «بل بالعكس، أمك ترى أن الأرباب قد وهبوك بصيرة الكهانة. خطر ببالي هذا الأمر سابقاً. ما رأيك أنت؟».

«أمي قالت لي هذا، بعد أن حكيت لها ما حلمت به في يوم المجلس. لكن هذه المنة قد تُؤخذ مني ثانية بعد طقس تأهيل العذاروات».

«لا يستطيع البت في هذا الأمر سوى شالا كاهنة الربة. إذا صحَّ ظننا بالاستقصاء عن إرادة الربة، فيحتمل أن يكون قدرك هو خدمة الربة، هنا في قطنا. تدريب الكاهنات شاقٌ ومليء بالوحدة غالباً. هناك الكثير مما يجب تعلّمه، سوى ما يتعلق بخدمات الربة وتفسير رسائلها، فالمعبد هو في الوقت نفسه دار الشفاء كما تعرفين. والكاهنات ذوات المراتب العليا يُستشرون في اتخاذ القرارات السياسية والعسكرية، أو الاقتصادية المهمة».

طيب. بعد أيام قليلة سيتزوج أكيزي أخيراً. أنا وأمه تركنا له كثيراً من الوقت لذلك. المرأة الفتية ستملاً غرف القصر بحياة جديدة، وإن شاء الأرباب وشملوا بيتنا بحمايتهم، فلا بدّ من ضمان السلالة الملكية في قطنا. هذا يعني أنه قد آن أوانك لتختاري طريقك. عليك أن تسألني نفسك حتى يتضح لك طريق واجباتك وكيف تريدين القيام بها.

أدركين مدى الاستثناء الذي أعرضه عليك، كيا، على الأقل كنوع من حرية الاختيار؟ هذا يصدر عن حبي الكبير لك، يا بتي. وأنا لن ألتي رغبات الملكة. إنها تطالب بعقوبة قاسية لك لسلوكك غير المسؤول اليوم وغير اللائق بأميرة - وهذا ما لا أريد الخوض فيه معك - وقد تكون محقة في طلبها. إنني أبتهل إلى الأرباب كي لا يعاقبوك ذات يوم، ويعاقبوني أنا أيضاً، إذا تبين لي أنني كنت مخطئاً كلياً في نظرتي إليك وأنت لم تقدرِي عاطفتي تجاهك حق قدرها».

صمت الملك برهة قبل أن يكمل قائلاً: «أتوقع منك في المستقبل أن تتعامل معي مع الملكة بكل احترام، حتى وإن صعب الأمر عليك أحياناً. لا تعطيتها الإمكانية لتقديم شكايات محقّة تجاهك! خذي أمك كمثال واحتذيه. إنها مقرّبة إلى قلبي، مثلك، منذ أن جاءت إلى قطنا وصارت زوجتي. إنها امرأة ذكية وأنا أقدر مشورتها خير تقدير. لقد أدركت منذ ذلك الوقت وبسرعة، رغم شبابها الغضّ، أنه ليس مفيداً أن تجعل من الملكة عدوة لها. بما أن المرأتين لم تتمكننا من أن تصبحا صديقتين، حرصت إيسد دائماً على

ألا تُخدش كرامة بلتوم. اكتفت بمعزتها عندي واستغنت عن موقع متميز في القصر، رغم أنها من السلالة الملكية في مصر. بل كانت بعيدة النظر، إذ جعلتني بعد ولادتك أمتنع عن إنجاب أولاد آخرين منها، كي لا يحدث أي نزاع على العرش، ولئلا يقتتل الإخوة. لذلك، ولكي تعيش في سلام داخلياً وخارجياً، تأقلمت مع الأوضاع القائمة هنا وأتقنت لغتنا، كما علمتنا فن الحياة الراقية المصري، ولكن دائماً من دون إلحاح. لهذا السبب تُعامل هنا باحترام، وتُترك لشأنها بسلام، في ما يتعلق بديانتها أيضاً. عليك أن تسلمي بذلك! ولها عليك أفضال كثيرة. لقد علمتك ما يتعلق بمصر ولغتها وكتابتها. وحدثتك عن آلهتها، أعرف ذلك. لكنها لم تحاول أبداً أن تجعلك فتاة مصرية، بل كانت تدرك دائماً أنك أميرة من قطنا، بل أميرة قطنا». ترك إيداندا لكي بعض الوقت، ثم تابع: «إضافة إلى ذلك، أتوقع منك منذ اليوم أن تتصرفي حسبما يليق بحسبك ومنزلتك. يفضل أن تراجع عقلك مرتين قبل أن تُقدمي مستقبلاً على أية أفعال عفوية. وأنا متأكد من أنك ستسماكين نفسك. أنا موقن، كيا، من أنك ستكونين مبعث شرف لقطنا، ولن تخيبي ظني!». ثم نهض وعانق ابته وقال لها: «اذهبي الآن واغتسلي. ابقِ مساء اليوم في غرفتك. مريتك ستكون بانتظارك. سنعود إلى حديثنا نحن الاثنين بعد حفل العرس. حفظك الأرباب، يا بنتي!».

**

لم تر كيا تالزو ثانية إلا في حفل العرس. فبعد كلام أبيها الرصين، بعيد الغور، جاء الحديث مع أمها في اليوم التالي، وكان له تأثير مشابه للقائها مع الملك. ما أدهشها ذاتياً، أنها لم تكن معاندة كعادتها، بل بدأت تراجع التفكير بعمق في الأمور كلها، وكانت جادة وهادئة. وفي نهاية الحديث طلبت الإذن لمقابلة كبيرة الكاهنات في معبد الربة، فسمح لها. استقبلتها شالا في جناحها الخاص وكَرست وقتها لها. تحدثت كيا، فتدفقت من دواخلها جميع الأفكار والهموم والتجارب والتصورات المترامية، إلى أن استنفدت وتعبت. قادتها شالا إلى حجرة صغيرة بسيطة الأثاث وطلبت منها أن تستلقي. ناولتها شراباً لذيذاً عطراً، شربته كيا في رشقات صغيرة. كان مذاقه يدل على وجود توابل متنوعة فيه، ومع كل رشفة كانت تشعر بقلبها أكثر خفة، في حين صار رأسها أكثر ثقلاً. أشعلت شالا مصابيح الزيت التي نشرت نوراً وروائح طيبة، عرفت كيا منها روائح خشب الأرز وزهر الليلك، وسمعت صوت شالا يتناهى إليها من بعيد: «احلمي كيا وحاولي ألا تنسي الحلم!». غرقت كيا في نوم عميق، فيما صممت الربة.

أحست بآلم واخزٍ أسفل جسمها، أيقظها، فاعتدلت ضامة ذراعها إلى جسمها. كانت الحجرة معتمة. تنفست كيا بعمق وانتظام كي تخفف من الألم. وفجأة ارتخى التشنج وصار ما بين فخذيها ساخناً. نظرت مرعوبة، ورأت بقعة دم تتسع على الفراش، وفي الوقت نفسه انهمرت دموعها. عادت وتكورت في الفراش وهي تدس رداءها بين فخذيها ما أمكن وتبكي، إلى أن غفت ثانية، وهذه المرة أيضاً بقيت الربة صامتة.

استيقظت على أصوات خافتة، وسمعت من الغرفة المجاورة صوت شالا يهمس لامرأة أخرى. اختفى الألم. تقدمت المرأتان منها عندما سمعاها تعتدل في الفراش. أشارت كيا إلى بقعة الدم.

«أهلاً بك أيتها المرأة الشابة!». قالت شالا مبتسمة وانحنت نحو كيا وضممتها إليها. ثم أشارت إلى مرافقتها قائلة: «هذه أميناية، ستذهب معك إلى الحمامات، وتجري معك شعائر التطهير. إذا أردت، بوسعك البقاء في بيت الربة، إلا أنهم بحاجة ماسة إليك في القصر، فالعرس على الأبواب!». وحنّت رأسها لكيا بحب وغادرت الحجرة.

بعد بضعة أيام عادت كيا إلى القصر، وأخذت تنجز الأعمال التي تناط بها، من دون اعتراض. وبالتعاون مع بعض بنات العمومة والخاديات جهزت كيا حجرة العروس في القصر الملكي وزينتها.

دعي إحيا وتالزو أيضاً إلى حفل العرس. في اليوم السابق التقى المدعون جميعهم في دار أوبيتا. وقامت شالا مع عدد من الكاهنات والكهان بطقوس تقديم القران للربة وللأجداد الملكيين ولبعض الأرباب الآخرين المهمين، لتطهير العروسين من أي دنس. إهلي نيكالو نذرت للربة بعض ألعاب طفولتها وأشياء أخرى من مرحلة مراهقتها، وأحد أثوابها وخصلة من شعرها، امتناناً لها لسنوات عمرها الماضية ولتكسب رضاها عن مرحلة عمرها القادمة. بعد ذلك تطهرت العروس في اغتسال طقسى بصحبة رفيقاتها. وفي الوقت نفسه أدى العريس طقوس الاغتسال التطهيري.

في صبيحة اليوم التالي بدأ اليوم العظيم، والتقى الجميع ثانية في قصر أوبيتا، وبدت قطنا كلها منهمكة بالحدث. بعد أن فحصت شالا كبد نعجة حديثة الذبح لا عيب فيها، بحثاً عن إشارات مناسبة، وبعد تجديد القرابين للأرباب، تقدمت إهلي نيكالو، فبدت رائعة في ثوب الزفاف المنسوج من قماش كتاني فاخر والمزين بزخارف جميلة بالغة النعومة. وابتكرت النساء من شعرها الأسود الطويل تسريحة فنية، ضفرن فيها مختلف

الأزهار. اقترب منها أكيزي بخطوات رزينة وتوقف لصقها. ناولته شالا حجاباً من نسيج ناعم فاخر تفوح منه رائحة عطرة، فجلبل به عروسه أمام جميع الشهود، ورفعها بذلك إلى مرتبة زوجته. تلقت إهلي نيكالو من يدي شالا إكليلاً مجدولاً من السنابل ومزيناً بالفواكه والأزهار، فتوجت به رأس أكيزي. ضجت القاعة بهتافات الفرح والتهليل وتوجه المدعوون إلى مأدبة العرس، فقد جُهزت القاعة الكبرى في قصر أوبيًا لتستوعب جميع المدعوين. اقتيد العروسان إلى مكان الشرف على المائدة، وبعد أن جلسا رفع أكيزي حجاب زوجته، وبذلك صار بإمكان المدعوين البدء بتناول الطعام. كانت المائدة متخمة بأفخر المأكولات والأدباء، وقام غازفون وعازفات بتسليّة الضيوف، فيما نال الراقصون والراقصات إعجاب المشاهدين. وساد الاحتفال جوًّا من الفرح والمرح.

كثيراً ما كانت كيا تخطف نظرها نحو إهلي نيكالو، التي بدت سعيدة، خذاها متوردان ووجهها مشرق. عندما لاحظت نظرات كيا، لُوحت لها بفرح وأرسلت لها بيدها قبلة.

مساءً رافق المحتفلون العروس صاعدين إلى القصر الملكي. أركبوا في محفة رائعة ومزينة بكثير من الورود، وتقدمها حملة المشاعل والموسيقيون. كانت بلتوم مع إيداندا بانتظار المحتفلين عند بوابة القصر الجنوبية ليرحبوا بكتيهم، فقدموا لها تمراً ورمانة رمزاً للخصوبة، كما وزع أكيزي على الضيوف كعكاً بالسّمسم والعسل. دخل الجميع القصر وانتظروا في قاعة الاستقبال الكبرى إلى أن طافت إهلي نيكالو حول المجرم الهائل في وسطها، فصارت بذلك فرداً في العائلة المالكة. انتهزت كيا الفرصة وعانقت إهلي نيكالو بحب، هامسة لها في أذنها: «أهلاً بأختي!».

مر العريسان على طريقهما إلى الجناح الملكي بين صفوف من المدعوين الذين نثروا عليهما بمرح وروداً ولُباباً وتيناً مجففاً، وزودهما بأمنيات الخلفة الغنية السعيدة. ثم حُطمت وراءهما الجرار لطرد العفاريث الذين قد ينوون بهما شراً. انتهى الموكب عند غرفة العرس. هناك رفع أكيزي حجاب زوجته الأبيض وناوله لأمه، ثم غطاها بحجاب آخر أرجواني اللون، إشارة إلى الاتحاد المتظر للعذراء بزوجها أول مرة، ورمزاً في الوقت نفسه لثراء قطننا. ووسط هتافات الفرح والزغاريد انسحب العريسان إلى غرفتهما.

في خضم هذا الهرج والمرج لم تسنح الفرصة لكيا وتالزو لتبادل الكلام. لكن كيا، على كل حال، كانت قد رحبت بتالزو بودة، عند لقائهما الأول في أول أيام العرس. كان امتعاضها منه قد تلاشى. إضافة إلى أنها قد أدركت أثناء بقائها لدى شالا، أنه محق تماماً

باتهامه إياها بالاستسلام لرتاء الذات. لذلك انتهزت دقيقة هدوء أثناء الاحتفال لتعتذر منه عن سلوكها المتجهم.

في اليوم التالي بعد العرس فتحت أبواب القصر على مصراعيها لكل من شاء. فزواج ولي عهد قطنا يجب أن يكون مناسبة فرح وبهجة لجميع الرعية. جاءت وفود عديدة من جميع المناطق التابعة لمملكة قطنا، إضافة إلى بعض شيوخ البدو، وفي مقدمتهم إيدريمي المخلص. كما جاء حكام أو ممثلوهم من الإمارات المجاورة فاستقبلوا بحفاوة ومدّت لهم الموائد في قاعة الطعام. كان بينهم مجدداً نائب عبدي عشيرتنا، ملك أمورو. وفي هذه المرة لم يكن بوسع كيا إلا أن تظهر أمامه تلبية لرغبته ويحضور أبيها. رازها الرجل مدققاً، وإلى حدّ يكاد يخرج عن اللياقة. شعرت بنفسها مثل دابة معروضة لفحص صلاحيتها. وفي أثناء ذلك كان الملك يحادثه باحترام ويسأله عن حال ملك أمورو وعائلته، غير مصغ إلى الأجوبة المتدللة. كان عبدي عشيرتنا يبحث عن زوجة، ومن المجدي أن يبحث أولاً في الإمارات والممالك المجاورة، عن مرشحات محتملات لهذه المكانة. أيمن أن يكون هذا حلاً لها؟ فأمورو ليست بعيدة عن قطنا، لكن عبدي عشيرتنا عجوز، أو على الأقل في عمر أبيها. اقشعرت كيا، وشعرت بالسرور عندما سُمح لها بالخروج.

وقف تالزو مستغرقاً في أفكاره قرب المدخل الجنوبي للقاعة الكبرى في خضم الزحام، ممتصاً في نفسه كل ما يجري حوله. وكان مدعاة لسروره أن يرى كوارى وكيا قادمين نحوه.

«هيا تعال، كفاك حزناً!». قال كوارى، عارفاً بتبرّم صديقه من اقتراب موعد الرحيل، الذي لم يؤجله إحيا إلا بسبب العرس، وأردف: «اليوم سنبتهج ونحتفل! لنذهب لمشاهدة السحرة ولاعبى الخفة قليلاً، ثم نعود لتناول الطعام! ما رأيك؟».

سحبا معهما تالزو إلى خارج القصر، وكان مسروراً بذلك. بدت له كيا اليوم كما كانت عليه قبل لقائهما عند النهر. دار الحديث بينهم بانسياب، وكانت كيا فضولية كعادتها، فسألته عن تقاليد العرس في كيزواتنا. وفي أثناء ذلك كانت تصفق بحماسة لإعجابها بالألعاب البهلوانية وعروض الحيوانات. وكانت هناك فرقة من خادמות الحب تغني أناشيد إباحية مرافقة بحركات داعرة:

«كشجرة التفاح بين الشجر،

هكذا أرى حبيبي بين البشر.

كم أحب أن أجلس في ظله،
ليلتذ فمي بحلاوة ثمرته!».

صفق الجمهور المحتشد وطالب بالمزيد، وكانت سيدات الفرقة جاهزات لتلبية
الرغبة، فغتنين:

«ساقية الخمرة حلوة،

وفرجها حلو مثل خمرتها،

وخمرتها حلوة مثلها

وفرجها حلو مثل كلامها،

وكلامها حلو مثل فرجها.

وفرجها حلو مثل خمرتها!

خمرتها حلوة الساقية!».

تطايرت التعليقات المازحة هنا وهناك في جو من الصفاء والتسلية والمرح.

وتدرجياً أخذ تالزو يتأثر بالجو الطيب السائد ونسي لبعض الوقت ألم الوداع. وانضم
إليهم بعض الشباب ممن عرفهم تالزو في حلبة التمرين والمبارزات، وبعض صديقات
كيا، فساد جو من التنكيت والمزاح والضحك، سيفتقده تالزو جداً في ترشا، فحز ذلك
في قلبه. وعندما وقف مصادفة مع كيا جانباً، مد يده إلى جيب ردايه وأخرج منه بسرعة
سلسلة ذهبية تحمل قلادة لها شكل عين حورس، وقال لها بصوت خافت: «لا أدري إن
كانت ستسبح لنا فرصة ثانية لتحدث معاً بهدوء. وفي الواقع لم يعد هناك ما يقال. لكنني
أريدك أن تعرفي أنني دائماً سأفكر بك وبأكيزي وكواري وبجميع الآخرين في قطنا. أريد أن
أقدم لك هذه التيممة، عساها تحميك من كل سوء. إذا واجهت أية شدة ورأيت أنني قادر
علي إخراجه منها، أرسلها إلي، فسأتيك على جناحي نسرٍ حيثما كنت. هل ستفكرين
بذلك؟».

«لا تبالغ تالزو. ماذا يمكن أن يحصل لي؟». قالت بلهجة رادعة وتابعت: «لكنني
سعيدة جداً بهديتك. ستذكري بك دائماً، وعندئذ سأبكي حسرةً لافتقادي من أستطيع أن
أتباهي أمامه بحكمتي وأتخاصم معه!». وضحكت، ثم وضعت يدها على ساعده وقالت:
«حقاً سنفقدك تالزو. شكراً لهديتك وأمل ألا أضطرّ أبداً إلى إرسالها إليك. بل أفضل أن
أكاتبك... بالمصرية!».

ها هي ذي شيطنتها التي يحبها. واختفت كيا في الزحام، إلى حد أن ظن تالزو أنها قد غادرت المكان، لكنها عادت فظهرت مجدداً وهي تشير إليه بحركة تأمرية أن يقترب منها. «أعطني يدك!». ووضعت في راحته شيئاً أحس أنه كالمماش، ثم أطبقت أصابعه عليه وهمست: «خبئه فوراً، ولا تُره لأحد!». وأمسكت يده الأخرى وجذبتة منها باتجاه حلقة الأصدقاء. ثم عاد الجميع معاً إلى القصر ليشاركوا العروسين في مأدبة الاحتفال.

من أواخر صيف 1353 إلى ربيع 1352 ق. م

اقترب موعد الاعتدال الخريفي، والشمس على وشك تجاوز خط الاستواء من الشمال نحو الجنوب. حان موعد إخراج البذار الجديد، وكذلك موسم الأمطار. لقد انتهى حصاد كل شيء تقريباً، ولم يبق سوى قطاف العنب، ومعه عيد الخريف الذي يبدأ في أول يوم من شهر (النيبذ الأول). كلٌّ من في المدينة وفي القصر أيضاً كان يجهز نفسه لعيد القطف، ليشكر الأرباب على الأعطيات السخية التي قدمتها الأرض، وليقدموا لهم حصتهم من المحصول قرباناً.

كان الناس بانتظار البدر الذي تُفتح به الاحتفالات الدينية. في هذه السنة بدا القمر أكبر وأقرب مما كان في السنوات السابقة. أكان ذلك فالأ؟ بشارة خير أم نذير سوء؟ كان الكهنة يراقبون السماء بعناية. في عشية ليلة البدر صعد إيداندا إلى سطح القصر، فيما صعدت كبيرة الكاهنات إلى سطح معبد الربة. ضحى كلاهما لأعلى أرباب قطننا مقاماً، وتوسلوا بركاتهم. وعلى جميع سطوح المنازل أقيمت من الأغصان بيوت للأرباب (عرزال)، ليقيموا فيها حيشما شاؤوا، كي يُكرموا المدينة أثناء أيام العيد.

وفي الكروم عند بدء القطف، أقيمت كذلك مثل تلك البيوت من الأغصان، ولكن ليقيم فيها الملاكون ومساعدوهم أثناء مدة القطف، ليحموا عناقيد العنب من الطيور الجشعة. وفي منتصف الشهر يبدأ الاحتفال بـ (الترحاب) وتوزيع نيبذ (أول قطفة). والدورُ مزدانة كلها بأغصان الكرمة والورود. وفي المطابخ كان العمل على أشده.

كان عيد الخريف حالة فريدة في البذخ والترف، فطوال يوم بكامله يسود بذخ لا يوصف. في كل مكان تفوح روائح لحوم الغنم والبقر والسمك المشوية، إلى جانب كثير

من الخضار الطازجة والمسلوقة والمشوية، وأنواع الجبن والمعجنات والحلويات. وقد توزعت في كل مكان في المدينة سلال مملوءة بالفواكه الطازجة. وأنواع الجعة المختلفة لم تخمّر من أجل الأرباب فحسب، بل لتُدخل السرور إلى قلوب الناس أيضاً. وإضافة إلى ذلك كانت هناك أنواع النبيذ الحلو والأقل حلاوة إلى جانب أنواع عصائر الفواكه وشرابات الحليب. ففي هذا اليوم تُفرد مِنَّة الأرباب كلها ليستمتع بها الجميع، في جو ممزوج بالموسيقا والرقص والضحك. وكل ذلك ليبعد عن الأذهان أن الموعد السنوي قد أزف لتسليم القصر حصّته من المحاصيل.

بالنسبة إلى كيا كان عيد القطف هذه السنة ذا أهمية خاصة. فهي تقيم منذ بضعة أيام في معبد الربة، مع بعض بنات الأعيان ممن جاءهن الحيض أول مرة خلال هذه السنة، لتحضير أنفسهن من أجل الطقوس التي تؤهلهن للقبول في مرتبة المرأة. وكان على البنات أداء خدمات مختلفة في معبد الربة. كان عليهن القيام يومياً بأفعال تطهيرية، من اغتسال وصوم وتمارين ذهنية، ترشدن فيها كاهنات المعبد. إضافة إلى تدريبات في دار الشفاء على أهم المساعدات في حالات الأمراض النسائية والحمل والولادة. وكانت هناك أوقات كذلك لأحاديث البنات وضحكهن معاً، بموافقة الكاهنات.

ثم جاء المساء المهم. فبينما كانت الاستعدادات الأخيرة لعيد القطف تجري في المدينة على قدم وساق، اجتمعت البنات، بعد صيام يوم كامل. تلقّتهن الكاهنات بغسل تطهيري جديد. في الأيام السابقة كان الاغتسال التطهيري عملية ممتعة. فالأحواض الكبيرة الموجودة في قاعة الحمام، المجهزة لهذا الغرض معمارياً، والمزينة برسومات رائعة، كانت تستقبل البنات ليتراشقن بالماء الفاتر الممزوج بزيت عطرية ويسكبهن كل على من أمامها. أما مساء اليوم فقد كُتم الضحك وصمتت جميع البنات ليتركزن عملية الغسل التطهيري تجري عليهن بجدية كاملة.

حصلت كيا على رداء أبيض بسيط، لتمثل به من دون أي زينة أمام الربة، وقد رافقتها الكاهنة أميناية عبر ممرات المعبد المنارة بسُرُج زيت صغيرة حتى بوابة في الطابق الأول، ثم قالت لها: «هنا عليّ أن أتركك وحدك، كيا. عليك أن تعبري الطريق بالاعتماد على نفسك الآن، كما في أمور كثيرة في مستقبل حياتك. ولكن كوني واثقة من أن الربة مسرورة بك، فلا تخشي شيئاً!».

بقلب خافق نزلت كيا الدرج الضيق والرطب. وتحت، تلاشت الإضاءة وكان نسمة ريح قد أطفأت السرج. أهو قبر؟ في الظلمة تلمّست كيا خطواتها عبر دهليز ضيق. تناهت

إلى أذنيها أصوات غريبة وشمّت رائحة فريدة. أهي رائحة ليلك؟ أم رائحة عفن وتَنَن؟ بعد قليل اتسع الدهليز إلى حجرة ذات إضاءة كابية غريبة. توقفت كيا وتيقّظت جميع حواسّها. هناك وكما من العدم انتصبت أمامها الربة، مثلما تعرفها كيا من تمثالها الأحمر المذهب، وسط حُجُب من دخان البخور الكثيف. ارتمت كيا أمامها أرضاً وسترّت وجهها بيدين مرتجفتين. وبقيت على هذه الحال. وتمدد في داخلها خواء هائل.

بدالها أن ساعات قد مرت قبل أن تسمع صوتاً رهيفاً يأمرها: «انهضي كيا، يا ابنة قطنا! اشربي من هذا الدم رمزاً للربة». نهضت كيا بمشقة. كان تجلّي الربة قد اختفى، وبدلاً منه وقفت أمامها امرأة محجّبة مادة يدها إليها بقدرح مملوء بسائل يتصاعد منه البخار. اجتاح كيا شعور بالغثيان لتصوّر أنها ستشرب دمًا ساخنًا، فترددت في أخذ القدرح بيديها.

«اشربي!». أمرها الصوت. أكان هذا صوت الربة؟ أطاعت كيا ووضعت القدرح بين شفيتها وارتشفت جرعة، فانتشر في جسمها دفء مريح، وعندئذ لاحظت كم كانت تشعر بالبرد. نشر الشراب حول رأسها عبقاً كثيفاً وكان طعمه لذيداً. وبخشوع أفرغت القدرح جرعة فجرعة، فيما تعتمل في داخلها أفكار وتصورات غريبة: صور أطفال، أحياء وأموات. صور نساء تضحكن وتبكين وتعولن. رأت نفسها مضطجعة على ديوان فاخر يبطن متفخ وهي تعاني الآما واخزة.

«تعالِي، اتبعيني إلى نور الحياة!». فتحت المحجّبة باباً وتقدمتها عبر دهليز مُنارٍ بمشاعل كثيرة. أكلت الإضاءة الشديدة عيني كيا، لكنها شاكّرة، تبعّت دليلتها عبر أدراج ودهاليز حتى ردهة قاعة الطعام في المعبد. هناك رأت في انتظارها كبيرة الكاهنات وأمينات وكاهنات أخريات مشاركات في الطقس، عانقنها مرحّبات وأحطن كتفيها بوشاحات صوفية تبعث الدفء. وفي قاعة الطعام كانت المائدة مزدانة بزهور خريفية. جلس الجميع وأمسكت كلّ منهنّ بيديّ من حولها، وأنشدن نشيد الربة، الذي تدرّبن عليه تمجيداً لها. رشّت شالا النساء اليافعات اللواتي أنجزن طقس قبولهن في عداد النساء، بماء مقدس، ثم قُطعت أرغفة الخبز الطازج الفواح ليفطرون به مع حساءٍ خضارٍ لذيد وبعض العجن. بعد ذلك أوصلتهن الكاهنات إلى حجرات النوم. كان بوسعهن غداً مغادرة معبد الربة للمشاركة في هرج عيد القطاف الكبير ومرجه، شكراً للأرباب. أما الليلة فسيمضيها مباركاتٍ تحت سقف بيليت إكالميم. وكن يعرفن ضرورة ألاّ يَحْنَنَّ بسّر طقس قبولهن أبداً.

كان تالزو مستلقياً في سريره وعيناه تثقبان الهواء من شدة التحديق. مضت أيام قليلة منذ عودته إلى ترشا، فباتت تفصله عن قطننا أيام سفر طويلة عبر عوالم متعددة. كان يضم بين يديه الميدالية التي كانت تحيط بعنقه عادة، وحيث يجب أن تبقى طوال حياته، فهي أعلى ما يملك. سرحت أفكاره إلى ذلك اليوم الذي قدّم فيه أكيزي وإهلي نيكالو نفسيهما لأهالي قطننا عريسين جديدين، واحتفل بهما في جميع أنحاء المدينة. كان يوم وداعه من كيا، اليوم الأشد إيلاماً وإسعاداً في الوقت نفسه، إذ إنهما لم يفترقا كصديقين فحسب؛ بل لقد دسّت له هدية خفية. وبالمقارنة معها بهت القلادة التي أهداها إياها لتحميها. فهديتها كانت جزءاً منها، خصلة شعر، سيحفظها الآن بحوزته بصورة دائمة. كم كانت قريبة إليه. وكل تلك الأفكار المتعلقة بأن كيا يستحيل أن تكون له، وأن عليه أن ينساها بسرعة، ها هي ذي قد تطايرت كقفاعات. إنه مصرّ على أن يقوم بكل شيء من أجلها، فعسى أن يُثبت ذات يوم أنه لائق بها. لا شك في أنها تميل إليه نوعاً ما، وإلا فلماذا هذه الهدية: شعرها؟

لحسن الحظ وصلت القافلة الثمينة إلى كيزواتنا من دون مشاكل أو خسائر. والبضائع التي أحضروها معهم ستجلب ربحاً جيداً، هنا وفي حتوشا أيضاً، إلى حيث سيسخن معظم البضائع. كان والده سعيداً بالعودة إلى الديار، بدا الأمر واضحاً عليه. وبهمة عالية أنجز جميع الأعمال المتروكة وراءه. فما كاد في حفل الاستقبال أن يحيي زوجته كالي وأفراد عائلته وأصدقاءه وشركائه في التجارة، حتى التقى بمدير متجره للتداول في الأمور الملحة، وذلك قبل أن يغادر إلى أدانيا ليرفع تقاريره المنتظرة في القصر هناك.

بعد الوصول مباشرة تحدث الزوجان بشأن تالزو. وبعد استقبال أمه الحنون له أحاطته علماً بموافقتهما على جميع ما خططه له والده، ثم انسحبت لتضحّي للأرباب امتناناً لعودة أحبائها سالمين. أما تالزو فكان مصمماً على ألا يكون تاجراً، وفي الوقت نفسه لم يرَ الحل في رفض المهمات التي كلفه بها والده. لا بدّ إذًا من إيجاد طريقة لجعل والديه يتفهمانه، فيحمرانه من هذا العبء، ويزودانه ببركاتهما على طريق مستقبله.

منذ مدة طويلة، وخاصة منذ إقامته في قطننا، استغرب تالزو أنه لم يسلك درب التعليم والتأهيل المناسب لمكانته الاجتماعية. فأمه أولاً وآخرًا تنتمي إلى السلالة الحثيّة المالكة. فكان المنطقي أن يُرسل إلى البلاط في حتوشا، كالعادة في ما يتعلق بأبناء العائلة المالكة الأقربين والأبعدين أيضاً منذ سن معينة، ولا سيّما أن كيزواتنا متحالفة مع مملكة حتوشا منذ مدة طويلة.

بعد أسابيع قليلة ستقام احتفالات كبرى بمناسبة رسم تليبينو، الابن الثاني للملك

شويلولوما كاهناً كبيراً في كيزواتنا، وناثباً له في أدانيا في الوقت نفسه. ولكن من الواضح أن أمه لا ترغب في اختلاطه بأسرتها، ولا والده كذلك، فهو لم يأخذه معه ولا مرة واحدة نحو الشمال، رغم كثرة رحلاته التجارية إلى تلك المنطقة. لقد حكّت له أمه كثيراً على مدى سنوات عمره عن حتّوشا، كما ذكرت بعض الأمور المتعلقة بأسرتها. لكن ما يلفت النظر هو أنها لم يأتها أي زوار من وطنها؛ بل مجرد رسائل وأخبار عن طريق المراسلين، علماً بأنها تشعر بشوق كبير إلى أهلها وبحنين إلى حتّوشا، بيد أن هذا الحزن كانت تكتمه في حناياها وتبته لأربابها.

لا شك في أن أشهر أفراد أسرتها هو أخوها الأكبر هتوتّي الذي رُفِع في عهد الملك شويلولوما، إلى مرتبة القائد العام للجيش الحتّية. وتعبيراً عن تقديره العالي له، عينه الملك حاكماً على أرض الجنوب الواسعة جنوبي بحيرة تاتا المالحة، مع امتدادٍ شرقي وغربي كبير، حدوده الجنوبية المشتركة مع كيزواتنا هي جبال طوروس، والشمالية تلاصق مركز المملكة الحتّية. تتمتع أرض الجنوب بالنسبة إلى مملكة حتّوشا بمكانة خاصة، لا سيّما أن العرش الحديديّ للملوك الحتّيين قد خرج من عاصمتها پوروشخندا، وكذلك الصولجان رمز سلطة الملك. لقد حُكي الكثير حول الحديد. فالشائعات عن مواصفاته التي لا تضاهى تسري في كل مكان. وتالزو يعرف أن بعض المواد الخام الضرورية لصنع هذا المعدن موجودة في جبال كيزواتنا أيضاً. وقد أقرن الحدادون الحتّيون صناعة سلاح منه أقسى من الأدوات القتالية البرونزية المعتادة. وفي الخارج كان الناس يسمّونه: السلاح الحتّي العجيب. أما طريقة صنعه فهي سر المملكة المصون. ومن يخون السر، عقابه الموت.

أعاد تالزو تعليق الميدالية حول رقبته وأخفاها تحت رداثة. نهض وأخذ يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً. ماذا عليه أن يفعل الآن؟ كانت أفكاره تدور في حلقة مفرغة. ثمة ما هو غير صحيح، ثمة ما أخفي عنه، ولكن ما هو؟ لم تسعفه الأسئلة في الاقتراب من حل. لا شك في أنهم في قطننا أيضاً سيحتفلون قريباً بعيد الخريف. وبصورة عفوية ذهبت أفكاره إلى كيا ثانية. كيف كانت ستصرف؟ لقد نصحته بحزم بأن يصارح والديه ببساطة بعدم اهتمامه بالتجارة وما يرتبط بها. لكنها تدرك من وضعها الخاص أن على المرء واجبات، وأن السلوك الفردي غير ممكن. لماذا الأمور كلها على هذه الدرجة من الصعوبة؟ يحتمل أن يكسب أمه قليلاً إلى صفة بشأن خططه. ولا شك في أن والده سيصغي إلى رأيها، فهو

يعاملها بفائق الاحترام ويلبي كل طلباتها، على قلبتها. فكر باللحظة المناسبة لمفاتها، ثم قرر أن يزورها فوراً في مخدعها. كان الوقت قد تجاوز العصر، ووقت القيلولة قد انتهى. يقع جناح أمه في الطابق العلوي من الدار الواسعة، وقد امتدت أمامه على السطحة حديقة بديعة مملوءة بمختلف النباتات، تمنح الناظر إطلالة نصف دائرية من السهل في الشرق إلى البحر في الجنوب فإلى الجبال في الغرب، وغالباً ما كانت تتخللها نساء منعشة.

فاجأت زيارة تالزوا أمه وأدهشتها. دعتة إلى مجلسها على السطحة، حيث كانت تقوم بأشغال يدوية. كانت كعادتها تجلس هناك وحدها، مفضلة ذلك على صحبة السلائف والصدىقات والخدمات المقربات. صبت له كأساً من عصير الرمان ومزجته بماء بارد وجلست على مضجعها بشكل مريح، ثم سألته: «ما الذي يحزنك يا بني؟». وكعادته في حضرته غمره شعور بتأنيب الضمير. ألا يأتي إليها إلا عندما يحتاجها في أمر ما؟ لا، حتماً لا، هداً من روعه فوراً.

ابتسمت كالي لابنها وهي تقول: «أقرأ في محياك أنك تريد إخباري بأمر ما. هل فكرت بالاقترحات بخصوص زواجك؟». وعندما لاحظت رد فعله الصاد، أردفت بسرعة: «لا داعي للتسرع في أي من الأمور!».

«أماه، لا يمكنني أن أتزوج قبل أن أقف على قدمي مستقلاً بذاتي!».

«لكنك على الطريق إلى ذلك. ما إن تصبح على بينة من أمرك في خيارك، حتى يزودك والدك طبعاً بكل ما هو ضروري، سيزودك بمكان إقامتك مع عائلتك المستقبلية، وسينظم أعمال المتجر بينكما، بحيث توفر لأسرتك الدخل اللازم. لا تشغل بالك بهذه الأمور!».

«ولكن ألا تدركين أنني أريد أن أحقق شيئاً بنفسى؟».

نظرت إليه أمه بذهول وسألته: «ماذا تقصد بذلك؟ من الطبيعي جداً أن يحذو الابن حذو أبيه. ووالدك أيضاً لم ينشئ المتجر بنفسه، ولا حتى والده. منذ أجيال كثيرة ينضج الأبناء شيئاً فشيئاً بإنجازهم مختلف الأعمال التي يكلفون بها، إلى أن، ذات يوم بعيد - بعده الله ما أمكن عن والدك - يستلمون شؤون المتجر بأنفسهم».

«أماه، أنا لا أشعر بنفسى مناسباً لإدارة متجر!».

«لكنك لست بحاجة إلى ذلك الآن. أنت ما زلت تتعلم!».

«أنا ببساطة لا أستمتع بالشراء والبيع!».

«وما أدراك منذ الآن؟».

«لقد أمضيت عدّة سنوات أشتغل إلى جانب والدي، وأظن أنه صار بإمكانني أن أحكم، ما إذا كنت أقوم بهذا العمل بحماسة أم لا!».

«وهل هذا هو المهم؟ أسرة والدك تُعدّ هنا في ترشا، بل في كيزواتنا كلها، وحتى فيما وراءها، من أعرق العائلات المرموقة. من ذا الذي يسأل عما إذا كان الشغل ممتعاً؟ إنه واجبك. وأنت الابن الوحيد! هذا سيكسر قلب أبيك، فهو في جميع أعماله لا يفكر إلا بك وبمستقبلك. تالزو، أناشدك ألا تخبّ أمل أبيك! احترم رغباته! لا تجعلني تعيسة ولا تتعس نفسك! كم كنت أرغب في أن تلتحق بسلك الكهنوت. ولكن منذ البداية كان جلياً أن الأمر مستحيل، فأذعنت ورضيت. سترى بنفسك، عندما يصير عندك زوجة وأولاد، ستدرك لمن تشقى. لا تختبر صبر الأرباب الذين أنعموا عليك حتى الآن وباركوك. ما الذي جرى لعقلك؟ إنني لا أفهمك أبداً!».

بذلت كالي جهداً لتقاوم دموعها. كان صدرها يصعد ويهبط، وجسمها الرقيق كله يرتجف. كم أسف تالزو لحالها، وبصورة عفوية أمسك يديها بيديه وقال: «أرجوك يا أمي، اهديني. سترين أن الأمور كلها ستسير بخير. سامحيني لإزعاجك بهذا الشكل. لم يكن قصدي أن أربكك. اعذريني!».

نهض وانحنى لها وغادر. لا، إنها لن تسانده. إنها ليست قوية كفاية لخوض معركة مع والده لمصلحته، كما أنها لم تفهم دوافعه. لم تسأله أي سؤال عن دوافعه، حتى أنها لم تفكر بسؤاله عما يريد أن يعمل بدلاً من التجارة. كانت تصارع من أجل سكينه نفسها، فكل ما يهدد هذه السكينه يصيبها بخوف مريع. تألم تالزو لإدراكه ذلك، وشعر بأسف عميق لعجزه عن مساعدتها. وعلى الرغم من ذلك، كان أشد ثقة من أي وقت مضى، بأن عليه أن يعيش حياته، أن يجد طريقه ويسير فيه بنفسه، وإن كان ذلك سيؤلمه ويؤلم والديه. وعلى طريقه إلى غرفته خطرت في باله فجأة فكرة الخلاص، التي ستقرّبه على نحو جلي من أهدافه.

بمناسبة عيد نونتارياشا (عيد السرعة) الذي يدوم ثمانية وثلاثين يوماً، سيقيم الملك شوپيلوليوما مع زوجته هنتي بزيارة كيزواتنا لأول مرة. فني كل خريف على الزوجين

الملكيين أن يتجشما عبء الترخال طوال ما ينوف عن شهر، للاحتفال مع المملكة بأسرها
ببداية فصل الخريف وعيد الشكر، بعد جمع المحاصيل، متنقلين دون هوادة من مدينة إلى
أخرى للقيام بواجبهما هنا وهناك بصفتيهما كبير كهنه الأرباب المتعديدين في المملكة.
والتنفيذ الدقيق الصحيح لتعاليم العيد هو ما كان يضمن حماية الأرباب للبلد كلها وللعائلة
الملكية، ويضمن خصوبة الأرض والحيوانات وانتصار الجيوش الحثية ورفاه الجميع.

كيزواتنا هي المحطة الأخيرة في الرحلة الملكية التعبدية. وفي أثناء عيد الخريف،
بحضور الزوجين الملكييين وولي عهد أرنواندا وعدد كبير من أصحاب النفوذ والوجهاء،
سيُحتفل في أدانيا باستلام تليبينو منصبه الجديد، ممثلاً لملك حتوشا. كانت كيزواتنا في
حالة تأهب كبير، وكذلك الحال في دار إحيًا، توقعاً لقدوم ابن حميه وصديقه هنوتي
للمشاركة في الاحتفالات. وبهذا فإن كالي ستري أخاها بعد سنوات طويلة، وسيتعرف
تالزو على أحد أخواله.

كان لا بدّ من التحضير لثلاثة احتفالات في الوقت نفسه، فالاحتفال بعيد الحصاد
والشكر لأرباب كيزواتنا، الذين باتوا أعضاء في مجلس الأرباب الحثي، لا يجوز أن يُهمل
في موطنهم بأي حال من الأحوال. فحُطِّط له كخاتمة للاحتفالات بعد أن يغادر أدانيا
ضيوفاً.

قبل أي أمر آخر، وبعناية فائقة دُرست التعاليم الحثية الكثيرة، والمجهولة في كيزواتنا
حتى الآن. فعند تقديم القرابين لا يجوز أن يقع أي خطأ، لذلك لا بدّ من ترتيب كل خطوة
على حدة، حتى وصول العربة الملكية. لكن هموم ملك كيزواتنا وطاقمه التنظيمي كانت
غير مبررة، ففي أدانيا كان قصر المعبد قد أُخلي، بحيث تم توفير أماكن إقامة العائلة
الملكية والموظفين والوجهاء، وطاقم خدمات العبادة كاملاً، من كهنة وسقاة وطهارة
ونُدلّ وموسيقيين ومغنين وراقصين، على خير ما يرام. وعند وصول الموكب إلى المدينة،
تجمهر السكان القادمون من جميع أنحاء البلد، على نواصي الشوارع المزدانة بالورود
مُهَيَّئين له استقبال المنتصر.

كانت أبرز مراحل عيد الحصاد، تقديم القرابين للأرباب، الذين نصبت تماثيلهم في
الباحة الداخلية للمعبد الرئيسي. وما كان يجوز دخول هذه الباحة إلا لعدد من المختارين،
الذين خضعوا قبل ذلك لغسل تطهيري صارم. وكان إحيًا واحداً من عائلات قليلة في
كيزواتنا حازت هذا الشرف. كانت مذابح المعبد مغطاة بالمأكولات المُعدّة قرابين: لحوم

حيوانات داجنة وطرائد برية، أنواع لا تحصى من الخبز والفواكه والخضار والأجبان والعلس. وكان السُّقاة الراكعون أمام المذابح والتماثيل يصّبون النيذ والجمعة في أباريق نحيلة يوزعونها على مقدّمي القرايين.

ارتدى الملك شوييلولوما والملكة هتي رداءيهما الرسميين الباهرين والخاصين بهذا الاحتفال، ومدّا أيديهما فوق جميع الأضاحي، لئربا الأرباب من الذي أعدّ لهم هذه المائدة العامرة، ثم أجريا معاً مراسم الشراب التي يحظيان بها على جوهر الأرباب الخارق، الذي يرتدّ خيراً على البلاد. كانت الموسيقى مع الغناء مرافقين صادحين طوال الطقوس المقدسة، قيثارات وأعود، وطبول وصنوج وخشاخيش، وأبواق ومزامير خلفية للتراتيل ولصلوات الملك والملكة. اختتمت الطقوس بمأدبة ترمز لاتحاد الأرباب بالبشر، دعي إليها كل من كالي وإحيا وتالزو أيضاً، أعقبها رقصة جماعية قادها راقصو الاحتفال.

عاش تالزو ذلك كله كما في حلم، وقد تركت فيه الطقوس أثراً عميقاً. أكانوا فعلاً بشراً، أولئك الذين أدوها؟ لقد غطى وجهه أكثر من مرة خشوعاً وتهيباً، واستقرت الموسيقى والتراتيل في قلبه. ليت كيا كانت إلى جانبه، ليعيشا معاً هذا العيد. على الرغم من روايات أمه وأحاديث أبيه، لم يكن لديه أي تصور عن البهاء الذي يحيط بملك حتوشا دائماً وحيثما حلّ. في سياق الاحتفال بذل الملك والملكة ملبسهما عدّة مرات، وبضمن ذلك الأحذية، ليتبدّيا في ألوان زاهية مختلفة. لقد تمكن بسهولة من متابعة التراتيل باللغتين الحثيّة والحورية، بيد أن كثيراً من الأدعية والأناشيد أدّيت بلغات لا يفهمها. ياله من دودة صغيرة! ومع ذلك كانت رغبته جامحة للالتحاق بخدمات هذا الملك.

لم يفصل بين الاحتفال وتسلم تليبينو منصبه سوى أيام قليلة، كانت الأكثر أهمية في حياة تالزو حتى الآن. وفي أثناء التحضيرات الرسمية انتهز الملك والملكة الفرصة لتبادل الحديث بصورة منفردة مع عائلات أعيان كيزواتنا. وكان من أول من استقبل عائلة كالي وإحيا ومن يتبعهما، بسبب صلة القرابة مع العائلة الملكية الحثيّة.

قبل ذلك قام قائد الجيوش بزيارة أخته وصهره في دارهما في أدانيا. بدا لتالزو مثل بطل متألق، عندما وصل مع رجال مرافقته وقفز مترجلاً من عربته مليئاً بالتوثب والقوة، وخطا نحوهم بخطوات نشيطة واسعة. كان طويل القامة رشيقها، إلا أن دلائل التدريب العسكري كانت بادية على عضلاته المشدودة، أما وجهه الحليق المعرّض لعوامل الطقس

بصورة دائمة فقد بدا رغم ذلك لطيفاً، مع شيء من الخبث، حسبما تدل التجاعيد المحيطة بجانبَي عينيه وفمه. وكان شعره بنيّاً داكناً ذا تموج خفيف، منضبطاً بعصاوية تؤكد عرض جبهته. كان يزيّن أذنه اليسرى بقرط ذهبيّ، ومعصميه بسوارين عريضين. كان يرتدي تنورة المحاربين القصيرة، ومن دون أي رتبة عسكرية، ولا يحمل سوى سيف في غمد حزامه. لم يبال بالرسميات بل عانق أخته كالي بحب وحنان، في حين كان لقاؤه بصهره رسمياً إلى حد ما، ولكن بكثير من الود والصدقة.

«وها هو ذا ابن أختك تالزو!».

التفت هنوتي إلى تالزو، الذي حيّا القائد والخال بكل التبريل والاحترام الواجبين. شكره هنوتي بهزة رأس قصيرة والتفت فوراً إلى أفراد العائلة الآخرين.

في باحة الدار قُدمت مشروبات منعشة، فيما وقف تالزو جانباً يراقب المشهد. تابعت أمه باهتمام حديث الرجلين عن حملات الصيف الماضي. وخلالها وصف هنوتي مصاعب وعورة الشمال الجبلي، وفصل في وصف أسلوب قتال الكشكيين الأعداء، الذين غالباً ما كانوا يزعجون المملكة بغزواتهم، وكيف تمكن الجيش الحتي هذه المرة من كسر شوكتهم.

«ماذا فعلتم بهم؟ هل سحقتموهم؟». سأله إحيّاً.

كان تالزو ينصت مأخوذاً. فهذه حياة مختلفة تماماً عن الحياة في المتجر، علماً بأن حياة الجندي لا تشيره، فقتل البشر كان يُشعره بالاشمئزاز. لكن خاله أكد بوضوح أن ملك حتّوشا يفضل استخدام أساليب تفاهم مختلفة مع الآخرين، غير اللجوء إلى الحرب. وكيزواتنا مثال ساطع على ما يمكن التوصل إليه بالمعاهدات.

عندما نهض الجميع اتبه تالزو من شروده. أيريد هنوتي الذهاب؟ لا، بل انسحب الرجلان لحديث خاص. اقتربت كالي من ابنها وسألته: «هل أعجبك هنوتي؟ لا حاجة لطرح السؤال أساساً، فقد رأيت عينيك المليئتين إعجاباً. هذا مفهوم جداً، فهو إنسان يستحق الإعجاب! سنتناول العشاء معاً!». والتفتت مغادرة.

ترك تالزو لشأنه، وكان ضمناً مسروراً بذلك. ذهب إلى غرفته وأرتج الباب وراءه. لقد غادر ترشا حاسماً أمره، وهو يعتزم الآن تنفيذ هذا القرار. تحوّل في البداية من الصعوبات المحتملة الظهور، أما الآن فيبدو كل شيء ممهداً. ففي أثناء الاحتفالات التقى تالزو عدّة مرات بضابط صفّ من الكتيبة الملكية، وفي عمره تقريباً، يدعى مورسيلي، وهو شاب

بالغ اللطف، وجد فيه تالزو جليساً جيداً. ومورسيلي هذا من سكان مدينة حتوشا نفسها وسليل عائلة من الكتبة. لكنه شخصياً أكثر ميلاً إلى الخشونة العسكرية. وحكى لتالزو أنه تدرب في حتوشا تدريباً قاسياً، الأمر الذي لا يثير اهتمام تالزو، مثلما تثيره أمور الحياة في المدينة، ولا سيما في البلاط، وهو ما أكثر من السؤال عنه، إلى حد أن استغرب مورسيلي إلحاحه، فسأله: «لماذا تريد معرفة كل شيء بدقة؟ يكاد يعتقد المرء أنك جاسوس!».

ضحك تالزو وسأله بدوره: «كيف خطرت ببالك هذه الفكرة؟ لماذا ولصالح من سأتجسس؟».

«وما أدراني؟ لم أفكر بالأمر. ثم إنك تبدو إنساناً شريفاً!».

«سأخبرك بالسبب الحقيقي، إذا وعدتني ألا تشي بي!».

«ما هذا التشويق! سأغلق فمي، أعدك بذلك».

وبناء على ذلك حكى تالزو لصديقه الجديد عن خطته. فأطلق مورسيلي صغيراً عبر أسنانه وقال: «تبدو عظامك قوية يا رجل. من وجهة نظري يبدو الأمر مجازفة خطيرة، ومجهداً جداً. ولكن إذا كنت حقاً مصمماً، سأساعدك بكل ما بوسعي».

وبكل عفوية عانق تالزو مورسيلي تعبيراً عن شكره العميق. واتفقا على أن يغادر تالزو أدانيا إلى جانب مورسيلي في إحدى عربات المتاع الحثيئة. وكان تالزو قد أخذ معه من ترشا، إضافة إلى ثيابه الضرورية للاحتفال ببعض الأشياء العزيزة على قلبه، وهربها في صناديق القافلة إلى أدانيا مع كيس متين، وضع فيه حاجاته الشتوية والأحذية. كان قد سلم بعضها لمورسيلي، أما ما تبقى فقد حزمه الآن في صرة لتكون جاهزة عندما تتحرك عربات المتاع، لتغادر أدانيا عقب تنصيب تليينو. وفجأة فُرع باب غرفته وسمع صوت إحيا يناديه: «تالزو، لماذا تُرتج باب الغرفة؟ ما هذا السلوك الأخرق! افتح!».

بسرعة مدّ تالزو غطاء على حاجاته. سحب المزلاج وفتح الباب ليرى لدهشته هنوتي مع والده.

«كنت سأرسل في طلبك، لكن خالك أصرّ على زيارتك في غرفتك».

انحنى تالزو احتراماً للضيف الكبير، الذي يريد الانفراد به، حسبما ألمح إحيًا. وقفا متقابلين صامتين وراز كلُّ منهما الآخر.

«لفت انتباهي أنك لم تكن راضياً عن لقائي بك. أردتُ أن أراقبك قليلاً، فهذا على أية حال هو أول لقاء بيننا منذ طفولتك!».

جلس هنوتي على كرسي واطع وسحب آخر لتالزو وهو يقول:

«سيكون هذا لقاءنا الخاص الوحيد في أدانيا، وأردت أن أستغله لأشكّل نفسي انطباعاً عن ابن أختي. وما أراه على ما يبدو ينال استحساني!». وابتسم ابتسامة رضا.

في البداية شعر تالزو بأن خاله آتٍ ليتقدّمه، بيد أن كلماته الأخيرة ملأته فرحاً.

«حدّثني عن نفسك!». قال له القائد مشجعاً، فحكى تالزو باختصار عن حياته وعن المعيشة في ترشا وعن الرحلة إلى قطنا. تركه هنوتي يسترسل، وكان بين الحين والآخر يهز رأسه.

«وما هي خططك؟».

تردد تالزو. هل يخبر خاله بخطه الحقيقية؟ وبينما هو يبحث عن الكلمات، أردف هنوتي: «أعرف المتجر في ترشا جيداً، وأعرف أهميّة أن تكون قريباً من أمك. لا شك في أنك ستكون سنداً عظيماً لإحيا!». «بالتأكيد!».

إذاً، من طرف الخال أيضاً لا مجال للمساعدة. ويبدو أن هنوتي لم يتبّه لتبدّل مزاج ابن أخته، فتابع: «حدّثني عن أمك. كيف أحوالها؟ كيف تعيش؟ أهي سعيدة؟». الواضح أن هنوتي لا فكرة لديه عن أخته، فكّر تالزو وقد امتلأ فجأة بنوع من العقوق الغريب عنه، أو أنه لم يعد يابه للأمر. بماذا يجيب؟ وأخيراً قال: «إنها في رعاية الأرباب!». «يا له من جواب لبق!».

أشاب الملاحظة شيء من السخرية يا ترى؟ لم يكن تالزو متأكداً من موقف خاله، الذي نهض: «لنكتفٍ بذلك الآن. سنلتقي على مائدة العشاء!».

هل اكتفى القائد الكبير من الحديث مع ابن أخته الصغير؟ هل تصرّف تالزو بصورة خاطئة؟ هل قال ما لا يجب؟ ربما لم يجد فيه ببساطة ما يثير اهتمامه كفاية. إذاً، لنكتفٍ حقاً بذلك - فهو على أية حال لن يكون عائقاً في طريقي.

كان الجميع منهمكاً باحتفال تنصيب تليسينو، الذي أقيم في القصر بفخامة. كان الملك شويلوليوما والملكة هتي يرتديان حلتين بهيتين، وتليسينو كذلك. على جانبيهما وقف كبار الشخصيات القادمة مع الموكب الملكي، وإلى جانب الملك مباشرة وقف القائد العام لجيوشه وقائد عرباته القتالية هنوتي. سلّم ملك حتوشا العظيم ابنه شارات السلطة

الحتية لمنصب حاكم مدينة، ونبهه أمام حشد الشهود إلى واجباته، وجعله يقسم مراراً على التقيد بها وتنفيذها.

ومع تليينو عَيْن طاقم مساعديه في أداء واجباته.

بعد المراسم الاحتفالية أتاحت لأعيان كيزواتنا الفرصة للتعبير عن سعادتهم ومباركتهم للحاكم، وعن ولائهم وتبجيلهم للعائلة المالكة الحتية. فتقدم معهم أيضاً إحياء وكالي وتالزو وأفراد آخرون من الأسرة. عندئذ، وخلافاً للتقاليد الرسمية، التفت الملك إلى هنوتي المدهوش. ظن تالزو أن الأمر يتعلق بصلة القرابة بين هنوتي وكالي، فقد أشار لها الملك كي تقترب منه، وطلب إليها رفع الحجاب عن وجهها، دقق النظر فيه ملياً ووجه إليها عدّة كلمات. بدا إحياء مرتبكاً، ولكن من دون أن يطرأ على وجهه أي تغيير. لو لم يكن تالزو شبه شارد لانتبه إلى أن الملك قد دقق النظر في وجهه أيضاً. أما وهو في هذه الحال فإنه لم يول الأمر كبير اهتمام. لقد كان مشغولاً بأمر أخرى.

أحس بنفسه ممزقاً داخلياً. عربات المتاع الملكي جاهزة خارج بوابات المدينة للانطلاق غداً باكراً إلى حتوشا، ومعها مورسيللي وتائوا.

تاناو هو الاسم الذي اختاره تالزو لنفسه في حياته الجديدة. في أثناء المأدبة الاحتفالية لن يتبّه أحد إلى غيابه. ولقد نقل رزمة حاجاته في ستر الليل إلى إحدى العربات، ومن ثم سيغادر المدينة مع مورسيللي ليمضي بقية الليل حتى الفجر في خيمته. يمكن للمغامرة أن تبدأ. أما نصفه الآخر فإنه مليء بالحزن. فإذا كان في ترشا قد ودّع أجباهه بشيء من السرية، فعليه هنا في أدانيا أن يفترق عن والديه، أن يتركهما خفيةً، وينسلّ من دون بركاتهما. لم يعد أمامه سوى الاعتماد على الأرباب، فإن كانوا يتنون له الخير فستكون كل الأمور الأخرى على ما يرام. ضمّ بكفيه ميدالية الشّعر وفكّر: كيا، لا رجعة عن القرار!

بينما كان الناس في جميع أطراف كيزواتنا يجهزون أنفسهم للاحتفال بعيد الحصاد المحلي، تمجيداً للربتين إشهارا وإشتار، ولربّي القمر والشمس، والأرباب هلّما وسنقرا وتوهيترا، كان ضيوف الاحتفال الرسمي الحثيون قد رفعوا خيام معسكرهم. فحُمّلت دواب النقل وتحركت عربات المتاع مغادرة أدانيا على الطريق إلى الجبال الشمالية بمحاذاة الضفة اليسرى لنهر سَمرا، لتنعطف من ثم نحو الشمال الغربي لتعبر وادي نهر

آخر. حتى الحاشية الملكية وعلى رأسها الملك والملكة كانوا على وشك مغادرة أدانيا عائدين إلى موطنهم في حتوشا. كان هنوتي يوجه تعليماته الأخيرة إلى جماعته، عندما أخبره رسول بأن ثمة من يريد مقابلته الآن في باحة المعبد الأولى. ولدهشته أشارت له امرأة في حجاب كامل، تبدو من عائلات الأعيان، حسبما لاحظ من ثيابها، وكانت واقفة في زاوية الباحة.

عندما ردت المرأة الحجاب عن وجهها، أصيب هنوتي بالدهشة ثم قال: «كالي! لماذا بهذه السرية؟». ثم انتبه إلى أنها تبكي، فأردف: «ما الذي جرى، كالي؟».

«تألزو اختفى، هنوتي!».

«وما الغريب في ذلك؟ إنه شاب حر، وله بالتأكيد مشاويره الخاصة بين الحين والآخر!».

«هذا أمر طبيعي. لكنه عادة يخبرني أو يرسل إليّ من يخبرني. هذه المرة الأمر مختلف. أنا متأكدة!».

«وما الذي يدفعه إلى ذلك؟».

«أظن أن لدي ما يفسر ذلك نوعاً ما. انظر، تألزو وإحيا لم يتقاربا إلا بصعوبة، وهذا منذ البداية. إنهما من طبيعتين مختلفتين تماماً. إحيا بذل جهده في رعاية الصبي وهيا له تعليماً جيداً، ثم أدخله في أعماله التجارية. لكن تألزو لا يهتم بالتجارة. صحيح أنه يبذل جهده، لكنه لن يحقق تصورات إحيا عن شريكه وخليفته أبداً، وكثيراً ما كان إحيا يتتقد سلوكه، وأحياناً من دون مبرر. وبين الحين والآخر قد تصل الأمور بينهما إلى حد الشجار، وهنا لا بدّ من أن أعترف بأن تألزو كان يتراجع من أجل خاطري فقط، ويقبل الاتهامات الموجهة إليه بصمت. لكن هذا تغير بعد عودته من قطنا، فقد صار إحيا بالغ الصرامة تجاهه. لا بدّ أن ثمة ما حدث إما في قطنا نفسها وإما على طريق العودة. كما كلفني إحيا بالتفكير والبحث عن صبية مناسبة للزواج بتألزو. وتألزو من جهته لم يعد يتراجع عن موقفه إذا حدث نزاع بينه وبين إحيا. بدا لي بعد الرحلة وكأنه قد تغير إلى حد كبير، نضج من ناحية، لكنه بات كثير الشرود من ناحية أخرى، وكأنه في مكان آخر في أفكاره وليس هنا!».

«لا شك في أنه قد خاض تجارب كثيرة. ثم إنها أول رحلة طويلة بالنسبة إليه، والطبيعي هو أن يتغير. أم أنك ترين سبباً آخر لذلك؟».

«إحيا يقول، إن البلاط في قطنا، حيث استقبل تألزو بودّ كبير، ليس من قبل وليّ العهد

وحده، بل من إخوته وأخواته أيضاً ومن أبناء الأشراف والأعيان كذلك، قد قتل رأسه كلياً، ولم يعد يريد أن يصبح تاجراً. كما أن لابنة الملك دوراً في القصة أيضاً».

«آها، من هناك تأتي الريح إذاً. ولكن بصراحة كالي، أعتقدين أنه يتصرف مثل فحل الإوز العاشق، وأنه الآن على طريقه إلى قطنا؟».

هزت كالي رأسها نفيًا: «لا، معك حق، لا أعتقد ذلك. ثمة شيء آخر، أود أن أخبرك به. تالزو جاءني قبل فترة قصيرة، وصارحني بأنه لا يريد استلام المتجر بأي حال من الأحوال».

«وإنما؟». قاطعها هنوتي.

«كلامه أرعبني جداً، فخشيت أن يتحطم كل ما بنته العائلة بجهد حثيث، لدرجة أنني لم أسأله عندما طلب مني مساندة في مواجهة والده. لكنني أعرف ولعه باللغات الأجنبية وأنه يتعلمها بسهولة مذهشة، وأنه مغرم بالأعمال الكتابية. إنه سريع البديهة في ربط الأمور ببعضها واستنتاج العلاقات في ما بينها، وهو ذو طبيعة متوازنة. أراد بأسلوبه الحذر أن يعرف مني سبب عدم إرساله إلى البلاط في حتوشا ليتلقى تعليمه، ولماذا لم يتعرف على عائلتنا حتى الآن، واستغرب ألا يزورنا أحد قط من الشمال. إنه يتساءل كثيراً، هنوتي، أتفهم؟».

أخذت كالي تذرِف الدموع من جديد وهي تقول: «القلق يقتلني خوفاً من أن يكون قد أصابه مكروه، هنوتي. إنه وحيد وكل شيء في حياتي. ولا حاجة بي أبداً لأن أذكرك بأنه طفل خاص جداً. أرفض أن أصدق أنه ملعون، ما دام الأرباب قد زدوده بهذه المواهب. لقد خبرته أنت الآن. هو قوي البنية ولطيف المعشر جداً...!».

«لا أظن أن مكروهاً قد أصابه، إلا إذا كنت تشبهين بشيء ما. أهنالك من يريد أن يؤذيه أو أن يؤذيكم؟».

هزت كالي رأسها نفيًا.

«إذاً فكّري كالي. هل قال شيئاً آخر يمكن أن يساعدنا؟».

«هل لاحظت كيف كان ينظر إليك وكله إعجاب بك؟ وهو معجب أيضاً بالقصر في حتوشا، وغالباً ما عبّر عن تطلعه إليه. إنه يتقن اللغتين الحثية واللوية. يتتأنيب إحساساً بأنه معكم على الطريق إلى حتوشا. لست أدري كيف دبر الأمر. ولكن لم يخطر ببالي أي حل آخر».

هز هنتوي رأسه وهو يقول: «هذا محتمل. فهو لن يلفت النظر ضمن هذه المجموعة الكبيرة».

«عدني بأنك ستبحث عنه، وأرسل إلي فوراً من يخبرني عندما تجده. اقسم لي بتهونا على ذلك! أما إذا ظهر ثانية هنا، أو سمعتُ عنه أي شيء فسأرسل لك خبراً بذلك».

«لنفترض أنني سأجده، ماذا أفعل به؟ هل أعيده إليك؟».

نظرت كالي طويلاً في عيني أخيها ثم قالت: «خذه معك واعتن به. إذا كان حقاً في قافللكم، فهي مشيئة الأرباب التي سأسلم بها. أرجو أن يجد السعادة التي يبحث عنها. بالسلامة هنتوي، رحلة موفقة، في حفظ الأرباب. ولا تنسني!».

وقبل أن يتمكن من الإجابة بشيء، كانت قد طبعت على خده قبلة سريعة وأزلت حجابها، وغادرت الباحة بخطوات عجلية. وسرعان ما اختفت في الزحام.

القطعة الرئيسية من القافلة التي يتبع لها مورسيلي ومعه تالزو كانت تتقدم بصورة جيدة. وكلما ازدادت تقدماً قلّ التفتات تالزو إلى الوراء، وخفت شعوره بخاطر أن يُكتشف بعد أن لاحظ عدم اهتمام أحد بسؤاله: من أين وإلى أين؟ وباعتباره رفيق مورسيلي فقد تُرك لشأنه. زوّده مورسيلي بحذاء وثياب ملائمة للرحلة، واهتم مع تالزو بالمتاع الذي كلفا برعايته. وكان بين أفراد مجموعته يعرف بتالزو ببساطة قائلًا: «هذا هو تانوا»، فيكتفون بذلك. بدأ تالزو/ تانوا يستمتع بمغامرته، ولا سيّما عندما علم بأن الملك وهنتوي والحاشية المقربة مع الحرس الشخصي سيستخدمون الطريق الأبعد، صعوداً، لكنه أقل وعورة على ما يبدو.

القسم الأول من الطريق بعد مغادرة أدانيا كان مألوفاً لتالزو. كان نهاراً خريفياً صحواً، والأشجار والأجمات بدأت تغير ألوانها، كما أخذت سلسلة الجبال الهائلة تقترب منهم. بعد العصر بقليل انعطفوا من ضفة النهر إلى وإد باتجاه الشمال الغربي. توثب قلب تانوا: إنه حقاً على الطريق إلى حتّوشا. وبيطء أخذت الأرض تزداد صعوداً. عندما بلغوا بقعة مناسبة للمبيت كان المساء قد حل، فنصبوا بعض الخيام وجهزوا وجبة عشاء بسيطة. وبعد توزيع نوبات الحراسة، لف كل من تانوا ومورسيلي نفسه بغطاء. وكان تانوا على درجة من الإجهاد، فما أن قبّل ميدالته حتى انطبق جفناه وغرق في نوم عميق.

استغرقت القافلة يومين آخرين على دروب تزداد ضيقاً وصعوداً، حتى اقتربت من المعبر الجبلي. كان قائد القافلة يحثهم على التقدم بلا هوادة. كان يخشى هطول الثلج مبكراً، ما يحوّل المعبر المختصر إلى مصيدة لعينة. تعرّف تانوا على بعض الزملاء الآخرين من المجموعة. كانوا غالباً قليلي الكلام، لا بسبب جهد التسلق فحسب. كان رأي مورسيلي أنهم يعرفون كونه من عليّة القوم، وهذا يربكهم في التعامل معه.

بعد الحماسة الأولى أخذ تالزو يكثر من التفكير بما لم يخطر في باله قط، وبما لم يأخذه في حسبانته عندما قرر سلك طريق الهروب هذا. وبمرور الوقت تبين له أنه لولا مساعدة مورسيلي الصدوقة له، لوقع في مشكلات كبيرة. لكن الأمور حتى الآن سارت على ما يرام، وكان واثقاً من إيجاد حلولٍ لوضعه ما إن يصل إلى حتوشا.

بيد أن الأمور اتخذت مساراً آخر. بفضل الجهود الحثيثة لقائد قافلة المتاع، وصلوا إلى البقعة المتفق عليها على الطريق الرئيسية، قبل العائلة المالكة ومرافقتها. وهذه الطريق الرئيسية تؤدي عبر معبر، يُسمى بوابة كيزواتنا، إلى منطقة تُوانوا ومن ثم إلى أرض الجنوب، المقاطعة الحثية التي يحكمها هنوتي. لكن القافلة بأسرها، بشراً ودواب، كانت على آخر رمق، وبحاجة ماسة إلى استراحة. ما زالت أرض المعسكر بعيدة أعلى الجبل، وسيتمتد الطريق على هذا الارتفاع مسافة طويلة. وما زال أمامهم عبور الجبل العالي، هناك حيث الذرا البيضاء فوق حدود المنطقة الشجرية.

لاحظ تالزو شعوراً بالقلق يجتاحه مع اقتراب موعد وصول الملك. لم يبقَ ذلك خافياً على رفيق دربه مورسيلي، الذي سأله: «ماذا ستفعل إذا اكتشفك هنا؟». وتالزو الذي أدرك باطن التلميح، اعترف قائلاً: «لا أعرف. أحب ما عندي هو أن أبقى نكرة، وسأتابع تحمل مشاق الطريق، بمعرفتك طبعاً. ثم سيكون عليّ في حتوشا أن أجد طريقة للوصول إلى الملك. لا يمكنني طبعاً أن أصعد إلى القصر، هكذا ببساطة، لأمثل بين يديه. أما إذا عاكستني الظروف فاكشفني هنوتي هنا، فلن يكون أمامي سوى أن أركع أمامه. لا أظنه قادراً على إرجاعي من هنا، ما رأيك أنت؟».

«لا، لا أظن. فظروف الطقس لا تسمح بعناء إضافي من أجل شخص واحد. ثم إنه قد يتفهم وضعك». أجابه مورسيلي محاولاً تخفيف مخاوفه.

لم يحتاجوا إلى الانتظار طويلاً، فسرعان ما ظهرت طليعةٌ أخبرتهم باقتراب القافلة الملكية. وكانوا قد جهزوا أنفسهم على خير ما يرام لاستقبالها، فنُصبت الخيام للملك

والملكة وكبار مرافقيهما من أعيان المملكة وجُهزت بالضروري من الأثاث، وأوقدت المجامر لنشر الدفء، كما نصب المطبخ. وفي عَدّة أماكن من المخيم أشعلت النار لكتيبة المرافقة ورُفعت فوقها قدور الحساء الدسم أو أسياخ شبيّ اللحوم. فُرز تالزو للخدمة في خيمة المطبخ، حيث كان عليه إنجاز كثير من الأعمال التي لم يألفها سابقاً، لكنه تحمّل كل شيء بشجاعة، متجاهلاً بإصرار النظرات المسترقة التي تروزه طوال الوقت.

جال هنوتي بصورة غير رسمية في أنحاء المخيم، ولم يكتشف وجود تالزو. ولام نفسه لاحقاً لأنه لم يصغ لابن أخته جيداً، وتكوّن لديه انطباع غامض بأن تالزو أثناء حوارهما في أدانيا كان يريد أن يبلغه شيئاً ما، ولكن ما هو؟ كان سلوكه إجمالاً حيال تالزو مرتبكاً. كيف سيفكر بخاله يا ترى؟ طلب إليه قائد قافلة المتاع وسأله عن مجريات رحلته، وعن أية طوارئ على الطريق وعن نفسية الرجال. وعلى نحو موارب ما أمكن سأله عن تالزو. نفى قائد القافلة وجود شخص في القافلة باسم تالزو، لكنه لاحظ وجهاً جديداً منذ أدانيا، وهو ليس متأكداً، إذ يحتمل وجوده مع القافلة قبل ذلك. سمعت من الرجال أنه برفقة صف الضابط مورسيلي، واسمه تانوا!«.

«ليس الأمر مهماً»، قال هنوتي وأردف مشيراً له بالانصراف: «لقد أديتَ عملك جيداً!».

بعد برهة قصيرة طلب مقابلة الملك الذي استقبله فوراً:
«ما الأمر؟».

انحنى له هنوتي باحترام قائلاً: «يا شمسي!».

«دع الرسميات الآن يا صديقي وأخبرني بما تريد!».

«ابن أختي كالي المقيمة في ترشا اختفى ويحتمل أن يكون قد انضم إلى قافلتنا!».

«ما الذي يجعلك تعتقد ذلك؟».

«كالي أخبرني أنه يتحرّق للالتحاق بخدمتك وخدمة المملكة، لكن والده لم يوافق على ذلك!».

نظر الملك إلى هنوتي مفكراً. يا لهذه الواقعة الغريبة! هل سينقلب الظن إلى حقيقة؟ دفع شوييلو عن نفسه هذه الأفكار. المهم الآن هو الجانب العملي. إذا كان ابن أخت هنوتي مع القافلة من دون علم والديه، فهذا سيؤدي إلى إرباكات. ومن ناحية أخرى يمكن اعتبار الأمر مسألة عائلية.

«وماذا تنتظر مني؟».

«إذا كان حقاً مع القافلة، فأود أن أخذه معي إلى پوروشخندا لأخضعه لتدريب تأسيسي، ولأعرف تماماً المكان المناسب له معنا، أو إعادته إلى المتجر في ترشا!».

«إنه قريب هنوتي. أترك لك حرية التصرف!».

شكره هنوتي وخرج، فيما بقي الملك يفكر في الأمر.

في صباح اليوم التالي بعد أن فكت الخيام وباتت القافلة جاهزة للانطلاق، أمر هنوتي بجمع الصف كله. لم يجد مورسيلي الأمر مستغرباً، فتهقد جماعته وأخذ مكانه، في حين خشي تالزو انكشاف أمره والفضيحة. تفقد هنوتي الرجال إلى أن وصل إلى ابن أخته الذي نكس رأسه. تخمين كالي كان صحيحاً إذاً. وبصورة ما، راق الشاب لهنوتي، إذ كان موقناً من نضج تفكير تالزو بخطوته، وأنها لم تكن اعتباطية. ومن دون أن يبدي تعرفه عليه مجدداً، وجه هنوتي تعليماته باقتضاب:

«سنعيد هنا تشكيل المجموعات. القسم الأكبر سيرافق الملك إلى حتوشا. أنت ومجموعتك يا رقيب مورسيلي ستلتحق بي وتتبعني إلى پوروشخندا. لكن القافلة لن تنقسم إلا بعد مسافة باتجاه شمال توانوا؛ مجموعتنا الآن ستقود القافلة. تحركوا!».

«يا لهذا التجديد الغريب!» قال مورسيلي بدهشة واضحة، وأردف: «هذا يعني أنني لن أعود إلى داري لمدة طويلة، وصررت فجأة أتبع رئيساً جديداً. لم يسبق لي قط أن كنت في پوروشخندا، وأن تخدم تحت إمرة القائد العام هنوتي ليس أمراً سهلاً، الكل يعرف ذلك. أعتقد أن الفضل في ذلك يعود إليك، أم تظنه لم يتعرفك؟».

«لا أستطيع إجابتك عن هذا السؤال، لأنني ببساطة لم أستطع رفع نظري إلى وجهه». «وهو لم يرف له جفن طوال متابعتي للوضع. ولو أنك لم تخبرني سابقاً أنكما تعرفان أحدهما الآخر، لما خطر ببالي الآن أبداً أنه قد انتقاني أنا بالذات. لا تقلب وجهك الآن!». ربت مورسيلي على كتف تالزو مشجعاً وأردف: «أليس مثيراً أن يتعرف المرء على أماكن جديدة. سيأتي الوقت ويخاطبك مباشرة، فلا بدّ له من أن يكتشفك ضمن هذه الجماعة الصغيرة. أو تبادره أنت بالكلام، وهذا يكون أشد مكرراً. ما رأيك؟».

«يحتمل أن تكون محقاً». وضحك تالزو مجدداً، دافعاً عن نفسه الشعور بالهزيمة.

بعد يومين آخرين وصل الجميع إلى توانوا، حيث استراحوا. سئذ أن أعادت حتوشا

احتلال نقطة التقاطع هذه، ذات الأهمية الاستراتيجية عند الطرف الشمالي من الجبال العالية، ومنذ إبرام المعاهدة مع كيزواتنا، باتت مقاطعة أرض الجنوب تعيش في سلام في منطقتها الشرقية. كان الوضع مختلفاً على الحدود الغربية، حيث كان لا بد من درء الغزوات المستمرة من جهة أززاوا، ما ينقل كاهل حاكم المقاطعة بمسؤولية خاصة تجاه المملكة. وكان الملك ومجلس الأعيان يعرفان أنها في أيدي هنوتي القادرة على حمل العبء.

بعد مسيرة يوم آخر انقسمت القافلة، وفجراً ودّع هنوتي الملك والمملكة اللذين سيتوقفان أولاً في نيسا، العاصمة الحثية القديمة الواقعة في منتصف الطريق إلى حتوشا. «ستأكل خبزاً وتشرب ماء!». بهذه الأمنية المعتادة افترق شطرا القافلة. كان الملك قبل ذلك قد انفرد بقائد جيوشه لفترة قصيرة، ذكر خلالها تالزو للمرة الثانية.

«أنت أعرف بما ستفعل، هنوتي»، قال الملك وأضاف: «لكنني أعترف بأن ما أدهشني هو استدعاؤك الصف كله، بدلاً من أن تطلب ابن أختك ببساطة!».

«لهذا سبيان يا شمسي، أولهما أنه قد غير اسمه إلى تانوا، أي أن بحثي عن تالزو لن يؤدي إلى نتيجة. وثانيهما أنني لم أبع فضحه أمام الآخرين بأي حال من الأحوال. أريد أن أعرف أسبابه قبل أن أحكم على فعلته».

«معدنك النقي هو الذي يتكلم كالعادة يا عزيزي. هل أرسلت خبراً إلى كالي؟».

«أرسلت ساعياً إلى ترشا، ولا بد أنه قد وصل الآن إلى هناك».

«هذا جيد. يمكنك الذهاب الآن. أرجو من الأرباب أن تنهي واجباتك بسرعة في پوروشخندا، وأن تلتحق بي في حتوشا من ثم، دون أن تعيقك رداءة الطقس عن ذلك. سأكون بانتظارك بفارغ الصبر».

وتعانقا.

مع الشروق ترك هنوتي ومرافقه الطريق الرئيسية وانعطفوا باتجاه الشمال الغربي، وذلك، حسبما فكر تالزو، للالتفاف حول الكتلة الجبلية الهائلة السامقة إلى يساره. تغيرت طبيعة الأرض إلى سلسلة جبال جيرية ذات تشكيلات غريبة. وأخبرهم مورسيلي عن وجود كثير من المغاور باتجاه الشمال، بل مدن من مغاور بعدة طوابق فوق بعضها، محفورة عميقاً في الحجر الجيري، وتستخدم غالباً مساكن أو مخابئ.

عند الظهيرة جاء أمر بالتوقف، ولكن ليس للاستراحة، بل لتفكيك العربات الصغيرة

وتوزيع الأحمال مجدداً. ثم انعطفوا بحذة إلى درب عريض باتجاه الغرب متوجهين مباشرة نحو ذروة مهيبة.

«هذا أحد مساكن إله النار، لكنه لحسن الحظ نائم!». قال تالزو أحد مرافقي هنوتي من لوياتا.

«وهل له أكثر من مسكن؟». سأله تالزو.

«طبعاً، أحد أعلاها ستره قريباً. سنمر به على طريقنا إلى پوروشخندا. مسكنه الرئيسي قريب جداً من مدينة نيسا. هل تعرف هديته؟». كان يهمس خشوعاً وتبجيلاً، ثم أخرج من كيسه سكيناً. كانت قطعة واحدة، لمساء، داكنة ولماعة. وأردف قائلاً: «تانونا، كن حذراً، فالنصل حاد جداً». اختبر تانونا النصل برأس أصبعه وسأله: «ما هذا؟ زجاج؟».

«أظنه حجراً. عندما يغضب إله النار فإنه يقذف ناراً هائلة مليئة بكسور حجارة يخرج منها دخان ورائحة كريهة. ثم تشتد الحرارة إلى درجة أن يذوب الجبل نفسه ويسيل نحو الوادي. عندما تتجمد هذه المادة ثانية، يتبقى ما نسميه أبسيديان».

«هذا لا يصدق! لا تقل لي إنك قد مررت بهذه التجربة. أنا كنت مت من الخوف!».

«لا، لحسن حظي أنني سمعت عنه قصصاً، لا أكثر».

«لماذا يعيش الناس هنا ولا يهربون؟».

«يا لك من ساذج! نحن نعبد إله النار، ونحمد أفضاله الكثيرة علينا! ليس للأبسيديان فقط. أكثر من يعبد في المملكة هم صائغو المعادن. قد تكون سمعت...». وتلقت حوله بنظرات خاطفة بحذر، ثم قال: «على كل حال لا يجوز الخوض في هذا الحديث، انسه. ولكن على أية حال، موطن هذا الحجر عندنا هنا، هذا مؤكد. حول مساكن إله النار تكون الأرض خصبة. انظر إلى هذا الوادي مثلاً. ولكن يجب على البشر ألا يستثيروا غضبه».

كان عليهم أن يتوقفوا ثانية ويتجمعوا عند جدار صخري نُحتت فيه في الأزمان الغابرة درجتان عاليتان. وعند هذا المذبح قدموا قربانينهم من الخبز والفواكه. وفي تجويف صغير سكب هنوتي نبيذاً من إبريق ذي مصب، ثم تلا صلاة، وبعد ذلك سمح بنصب الخيام.

لم يجد تالزو حتى الآن أية فرصة للتقدم من خائمه، الذي لم تبدر عنه أية إشارة تدل على أنه قد تعرف تالزو ويريد محادثته. إلا أن طرفهما لم تلتق أو تتقاطع أثناء الطريق. أما الآن فقد تشجع وتوجه إلى خيمته. أمره الحارس بالانتظار.

بعد برهة ارتفع غطاء المدخل وأشار له هنوتي بالدخول، فدخل وركع أمامه على الأرض.

«انهض تالزو، أم يُفَضَّل أن أقول تانوا؟».

أشاب السوأل مسحةً سخرية ثانية؟ نهض تالزو واقفاً.

«أهكذا تخيف أمك المسكينة وترعبها؟». قال هنوتي ثم ذهب إليه وعانقه مردفاً: «أهلا بك يا ابن أختي. لقد أخذت ما يكفي من الوقت لتكشف عن نفسك، لكنك قادر لا شك على تقديم تبرير مقنع. تعال، اجلس!».

قدم له هنوتي كرسيًا محفوراً قابلاً للطي، وجلس على مثله.

«ماذا أفعل بك الآن؟». سأله هنوتي بعد أن أصغى إليه صامتاً.

«لا يسعني إلا أن أرجو دعمك لمشاريعي. إذ إنني لن أعود إلى ترشا بأي حال».

«طيب. إذا كنت واثقاً من نفسك إلى هذا الحد، فستخدم عندي».

كاد تالزو يقفز فرحاً، لولا إشارة من يد هنوتي أرجعته إلى مكانه. ثم قال له:

«لا تستعجل الفرح. لن تكون لك أية امتيازات لمجرد أننا أقرباء، وليكن ذلك واضحاً في ذهنك، مثلك مثل الآخرين لا فرق. من يعرف أننا أقرباء؟».

تردد تالزو. لم يرغب في أن يكذب، ولم يرغب في الوقت نفسه أن يورط مورسيلي أيضاً.

«واضح أن أحد جماعة القافلة قد ساعدك لا بد. أهو مورسيلي؟».

هز تالزو رأسه موافقاً.

«وقد أخبرته مَنْ تكون؟».

هز تالزو رأسه ثانية.

«هل يُعتمد عليه؟».

«حتى الآن برهن على أنه خير صديق. لا أريد أن أتسبب له في مشاكل، رجاء!».

«طيب، تانوا. أنت ومورسيلي سأضمكما إلى حرسِي، وستبقيان قربي بقية الطريق.

في پوروشخندا سنقرر من ثم الخطوة التالية».

«اعذرني، ولكن ثمة رجاء آخر، يتعلق بأمي. بوذي أن أبلغها أنني بخير، وأنتي على

الطريق معك إلى پوروشخندا و..».

فقاطعته هنوتي: «لقد تم ذلك. اذهب الآن وبلغ مورسيلي. سنتطلق عند الفجر. ثم بلغا رئيس الحرس!».

استغرق الطريق حتى نينسا أربعة أيام، كانت معنويات تالزو في أثنائها مرتفعة، وأخذ يكرر على سمع مورسيلي أنه يكاد لا يصدق مدى سعادته.

تبعوا في البداية الدرب الجبلي باتجاه الغرب، والذي اشتد ارتفاعه على امتداد جبل الآلهة باتجاه الشمال. وفي السهل الذي عبروه من ثم، بدوا لأنفسهم ضئيلي الحجم وبالغي الهشاشة. وهنا أيضاً لم يكن أمامهم سوى درب وعر، غالباً ما يتقاطع مع المسيلات. أما المخاضات فقد عبروها على ظهور الدواب ما أمكن، وعلى جذوع الأشجار الساقطة، أو على الحجارة الكبيرة الكثيرة هناك، أو حفاة. كان الماء شديد البرودة. وفي مكان ما ضاق الدرب أكثر فأكثر متحولاً إلى شعَب. لقد شق النهر طريقه في منعطفات حادة عبر الصخور البركانية. كانت الجدران الصخرية الحادة الانحدار نحو الوادي من جنبيه، محيطة بغابة صغيرة من أشجار الحور والصفصاف والسرو. كانت الكتل الصخرية متشرة في كل مكان من الوادي. وبين الحين والآخر كان تالزو يكتشف في الجدران الصخرية درجات منحوتة، لافتاً إليها نظر مورسيلي الذي كان يهز كتفيه ويقول:

«يحتمل أنها تؤدي إلى مخابى في المغاور».

كان تالزو يكثر الالتفات يميناً ويساراً، فقد بهره الجمال الوحشي لهذا الشعب. كيف كان البشر يعيشون في هذه المغاور؟ ما الذي اضطرهم إلى ذلك؟ وفجأة سمع هزيماً خافتاً. الخطر غير المرئي بعد، كان قادماً من الأعلى. صرخته التحذيرية أوقفت القافلة في مكانها فوراً.

«على الجدار الصخري»، صاح رئيس الحرس.

شدوا الدواب وجروا أنفسهم جميعاً إلى ساتر يحميهم، وخلال لحظات تهاوت فوقهم كتلة صخرية هائلة محطمة في طريقها الأشجار، إلى أن استقرت في قعر الشعب، نصفها على الدرب ونصفها الثاني في النهر، وتناثر الماء في جميع الاتجاهات. ولم يبدو أن شيئاً آخر قد حدث، ومع ذلك شل الرعب تالزو الذي تمسك بشدة بميداليته، بتعويذته، برابطه بكيا.

«أنقذتنا يا رجل!».

اعترف رئيس الحرس بفضله أيقظه من جموده. تقاطعت نظرتيه مع نظرة هنوتي

المستند إلى الجدار الصخري قربه. أتخذعه عيناه، أم أن هنوتي قد غمزه بصورة غير ملحوظة؟

«تابعوا، تقدموا، يجب أن نخرج من الشعب قبل هبوط الظلام!».

«كنا على وشك...».

اكتشف تالزو حبيبات عرق على جبين مورسيلي، فهو أيضاً قد شلّه الرعب. نظّموا رتلهم مجدداً وتجاوزوا الكتلة الصخرية التي انتصبت هناك بكل براءة، وتابعوا مسيرتهم صامتين ولكن بخطوات متمرسة. أما تالزو فقد امتلأ بهجة، فالأرباب راضون عنه لا شك. ماذا كان سيحدث لو لم يحذروهم من الخطر قبل وقوعه؟ لا شك في أنه قد أنقذ حياة بعضهم، بل حتى حياة خاله!!

«ما سبب استخدام هذا الدرب الخطر والوعر؟ ألا يوجد غيره؟». سأل تالزو زميله في الحرس.

«طبعاً. لكن هذا هو الأقصر، ولا يعرفه سوى السكان المحليين».

«وماذا بشأن الكتل الصخرية المتساقطة؟».

«هذه أول مرة أختبر فيها ذلك، رغم مروري عدّة مرات من هنا سابقاً».

قطّب تالزو جبينه. لأول مرة؟ أكانت هذه إذا محض مصادفة، أم ثمة أيادٍ بشرية وراء ما حدث؟ إذا كان الأمر كذلك، فمن الذي يريد شراً بهنوتي ورجاله؟ وكيف عرفَ بأنه سيعبر هذا الدرب الآن؟ وفجأةً خطرت ببال تالزو أحداث قطنا، الهجوم على القافلة، تسلّل بدو ملثمين إلى المدينة، هذا إذا كانوا من البدو حقاً، ولقاءاتهم السرية مع أعيان من المدينة. هذا ما كان يدور في رأسه طوال الوقت. لقد شهد لقاءً بين الشريف تيرو ورجلاً ملثماً بكامله في مركز المدينة في قطنا، وسمع ما دار بينهما. الشريف تيرو وأخو الملكة. أيحتمل أنه كان متورطاً في الهجوم على القافلة؟ كان مضطراً إلى تبليغ الرجل الآخر أمراً ما. ما هو هذا الأمر يا ترى؟ ربما كان من واجب تالزو إبلاغ أكيزي، أو ربما كان من الأفضل أن يبلغ كيا؟

على مسافة غير بعيدة من الشعب، الذي خرجوا منه بعد العصر سالمين ولكن مرهقين، وجدوا نبع مياه حارة يتدفق. وبإله من بلسم للأرجل المجرحة، وإنعاشٍ للأجسام كلها، فتراشقوا ولعبوا بالماء الساخن كالأولاد.

كانت المنطقة من حولهم تتسم بتكوينات عجيبة من الصخور الجيرية، أرض أبدعها

إله النار. وهي ممتدة على هذا النحو حتى نينسا، التي وصلوا إليها في اليوم التالي، كما أنها تشكل نوعاً من الحدود الطبيعية بين سهل إكوانيا الحجري الرتيب، والجبال الصخرية التي يمتد عند سفوحها وادي النهر الطويل، الذي تبعوا مجراه طوال مسيرتهم تقريباً. تبتت نينسا أمامهم مثل واحة واعدة. أشجار الصنوبر والسرو وبساتين الفواكه ذكّرت تالزو بمحيط قطنا. ومن نينسا حتى پوروشخندا، مقر حكم هنوتي، لم يبق سوى مسيرة يوم باتجاه الغرب بمحاذاة النهر، ليصلوا أخيراً إلى هدفهم.

إن لأهميّة پوروشخندا بالنسبة إلى مملكة حتوشا جوانب متعددة. فهي ذات موقع مركزي وتقوم بدور حصن منيع في مواجهة الغزوات من جهة الغرب. وهي فوق ذلك مركز انطلاق الحملات الحثيئة باتجاه الغرب أيضاً. كما كان لها أهميّة في تأسيس المملكة، إذ تقول الروايات إن أنيتا، مؤسس المملكة الأسطوري، قد حصل على عرش وصولجان من الحديد كرمز وإتاوة، لإخضاعه حاكم پوروشخندا. ويروى أيضاً إن عرش تواناتا الحديديّ أصله من هناك كذلك. بيد أن تالزو لم يفلح حتى الآن في معرفة ميزة هذا الحديد وخاصيته. تذكّر تهامس الناس في قطنا عن سلاح حثيّ عجيب، وأن كلمة حديد وردت في سياق الهمس. فما هو؟ معدن؟ ما الذي يميزه عن البرونز المعروف، الذي تصنع منه أسلحتهم؟ أو كم يسمع بالأمس تلميحاً من زميله اللووي قد يكون على علاقة بهذا الشأن؟ ربما باستخراج المادة الخام؟ لا بد أن تكون هذه المادة موجودة هنا في الجوار، ومنذ القديم.

تقوم المدينة في سهل على الطرف الجنوبي الشرقي لبحيرة كبيرة، رأى تالزو مياهها تتلألأ من الجبال.

«نعم، نعم، هذا بحر، وإن كان مغلقاً وهادئاً ومختلفاً تماماً عن البحر الذي تعرفه»، أوضح له زميل لووي آخر، اسمه ميتا وأضاف: «الماء هنا ليس عميقاً، وطعمه مالح. في الصيف عندما يشتد الحر تجف أطرافه ويصغر تدريجياً، مخلفاً وراءه كتزاً أبيض: الملح». قرب ترشا كانت هناك حقول ملح صغيرة أيضاً. كان الملح بضاعة تجارية ثمينة، تخزن بعناية خاصة كي لا تصيبها الرطوبة.

«لا أحد يعرف مصدر هذا الملح في بحرنا الذي نسميه بحر تاتا، لكنه يعود في كل سنة ويجمع في أواخر الصيف، وهو عمل كرهه. أنا سعيد بقبولي في الحرس الذي يبعثني عنه!».

«ألدك فكرة عن مساحة بحر تاتا؟ في هذا النور لا أرى سوى ساحة هائلة متوهجة!».

«أعتقد نحو مسيرة يومين عرضاً، وأربعة أيام كحد أدنى طولاً، هذا في الصيف. عندما تمطر في الخريف يكبر أكثر فأكثر. سوار الحلفاء حوله يبين إلى أي مدى تصل المياه. يوجد هنا كثير من الإوز والطيور التي كنا نصطادها في صغرتنا».

«معنى هذا أنك قد ولدت هنا؟».

«طبعاً».

«ستلقتي بعائلتك إذاً. كم أحسبك!».

«لن تطول هذه الفرحة. لكنني سعيد بذلك جداً». قال ميتا.

«لماذا لن تطول؟ لن نبقي هنا؟».

«سنبقى، ولكن يجب علينا دائماً أن نبقي قرب القائد العام. سننام في مهاجع جماعية، لا أحد منا يسكن عند عائلته، ألم تعرف ذلك؟».

ابتلع تالزو لعابه. ما الذي سينتظره؟

بعد الظهر بقليل اقتربوا من المدينة. كانت السماء في أثناء الليل قد تلبدت بغيوم كثيفة وداكنة تنذر بالمطر مع هبوب الريح من الشمال.

«ها هي ذي أماننا هناك!». قال ميتا بفرح.

نظر تالزو في الاتجاه الذي أشار نحوه ميتا. سور المدينة المبني بالحجارة والقرميد الطيني يذوب في هذا الفصل من السنة في محيطه، بحيث تصعب رؤيته رغم المساحة المفتوحة أمام عيني الناظر. عبروا السور من البوابة الجنوبية، إلى القسم القديم من المدينة ذي البيوت المتراصة بعضها إلى جانب بعض، والشوارع الضيقة المبلطة بالحجارة بشكل منتظم، تاركين وراء ظهورهم القمة المميزة لجبل النار، لتحرس المرتفعات الجرداء ذات التربة البنية في الغرب، التي لا يمكن بلوغها، كما يبدو، إلا على طريق القوافل المتجهة نحو إكروانيا. وهذا الذي أماننا هو مقر نائب الملك؟ لكز تالزو مورسيلي في جنبه مومتأ نحو الأمام، فما كان من مورسيلي إلا أن رفع جفنيه، وأردف بعد برهة:

«المهم. هنا يوجد ما يكفي من بيوت الحب! ما رأيك ميتا، هل من نصيحة خاصة؟».

في محاولة منه للتخفيف من توتر الجو، وإذا بغالية من حوله يصهلون سروراً. لكن مزحته لم تصل إلى تالزو، الذي كان منشغلاً بمشاهدة ما حوله.

تجمع حشد من البشر لاستقبال القادمين ورافقوهم إلى القسم الأعلى من المدينة

حتى القصر. توقف تالزو عند بوابة القلعة تماماً ونظر إلى المساحة الواسعة أمامهم، ثم سأل: «ما الذي جرى هنا؟ معظم الأبنية تبدو منهارة تماماً». فأجاب ميتا وقد استنزته ملاحظة تالزو: «ماذا كنت تتوقع؟ جنة ذات سرادق للتسالي؟ القصران والأبنية الأخرى عتيقة جداً، وقد تعرضت مراراً للتدمير. في المرة الأخيرة من قبل الماروديين في أزوا، وهذا ليس من زمن بعيد. جزء من هذه الأبنية أصلح ليصبح قابلاً للسكن. لكن الوضع سيتغير سريعاً، ستري!».

في هذه اللحظة سكبت السماء دلاءها، ففرقت بوروشخندا في جورمادي شمل تالزو ومورسيلي.

كان القصر في حالة اضطراب، فقد وصل سعاة نبأ قدوم أمونحوتب، ولي عهد مصر. الملك إيداندا وأكيزي ومجلس الأعيان كانوا يتدارسون الأسباب المحتملة لهذا الحدث الاستثنائي. وأبسط سبب هو أن الوقت قد تأخر للعودة إلى مصر بحراً، فانتهمز أمونحوتب الفرصة لاستطلاع شمالي سوريا. فمن المنطق إذاً أن يزور قطننا أيضاً، لا سيما أنها متحالفة مع مصر منذ وقت طويل، كما كانت، باعتبارها مركز وساطة تجارية، موالية دائماً لمملكة النيل. وفي مقابل ذلك كان المصريون يضمنون لقطننا مساعدة عسكرية في مواجهة أعداء محتملين، سواء من الإمارات المجاورة أو الحوريين أو الحثيين.

ولكن ما سبب وجوده في سوريا أصلاً؟ فحتى الآن لم يأت الفراعنة أو خلفاؤهم إلى منطقة شرق المتوسط، إلا في حالة النزاعات العسكرية. وكانوا ينتهزون الفرصة عندئذٍ لصيد الفيلة في وادي أرانتو، الأمر الذي يشكل حدثاً رائعاً، يُذكر من ثم في وطنهم، بالكتابات والتساوير المرسومة والمحفورة. من الناحية الرسمية أعلن عن رحلة أمونحوتب كزيارة تفتيشية إلى الأراضي التابعة لمصر في كنعان وسوريا. وقد فهم من ذلك بوضوح أنه ذات يوم سيعتلي عرش فرعون، ولا سيما أن أخاه الأكبر تحوتمس قد مات، على نحو غير متوقع أبداً، في منفيس، حيث كان يؤدي الخدمة العسكرية مثل جميع ولاة العهد قبله. فصار لزاماً الآن وبأقصى سرعة تهيئة أمونحوتب للمنصب الجديد. كان قد تلقى طبعاً، مع أخيه، التعليم الخاص بالأمراء، فتعلم القراءة والكتابة وممارس الرياضة، كما أطلعته الكهنة على الأسرار العميقة للدين، وتدرّب على القيام بواجباته التمثيلية الرسمية. أما التدريب

العسكري في ممفيس والالتزامات المرتبطة به لتأهيله كاهناً أكبر في معبد بتاح هناك، فقد كانت حكرًا على تحوتمس بصفته وليّ العهد.

منذ موت تحوتمس بات أمونحوتب الذي قارب العشرين من عمره، منهمكاً بصورة دائمة، ولكن من دون رغبة حقيقية، بتعلّم كل ما هو ضروري لاستلام زمام الحكم لاحقاً. لذلك، من وجهة نظر القطنيين، ستكون لفترة ذكية منه أن يلقي نظرة على البلدان التابعة لمصر في الشمال، وعلى الإمارات الصديقة. فحتى الآن لم تبتد مصر أي اهتمام حقيقي بمناطقها، عدا المركز. في ظل الفرعون أمينوفيس الثالث بلغ الرخاء والرفاه ذروتها، ولا سيّما عبر الذهب الدائم التدفق من أرض النوبة جنوبي شلالات النيل الأولى. وكان الفرعون يتابع الأحداث العالمية بترقب، بيد أنه لم يبد ميلًا لمغادرة أرض مصر، وتدرّجياً تُركت كنعان وسوريا لشأنهما. فلماذا ظهر ابنه الآن؟ أتخفي زيارته مخططات توسعية سرية؟ أهنك شكاوى على العملاء وعدم ثقة بهم؟ أتريد مصر أن تستطلع مواقف قطنا والممالك السورية الشمالية الأخرى، في حال صدام عسكري بين ميثاني وحتّوشا الصاعدة، والذي سيقتصر فيه شويليوليو ما؟ فمصر وميثاني كانتا في كل الأحوال حليفين، ولذلك لا بدّ من إعادة النظر في ولاءات منطقة تلقّي الصدمة، ومستوى تسليحها.

رأى الملك إيداندا أن توقعاته قد صدقت بأن زمن التعايش في سلام قد شارف على نهايته. وأكثر ما كان يخشاه، حسبما أسرّ لكبيرة الكاهنات شالا، هو أخبار عملائه في قطنا نفسها، بأن هناك غلياناً بين الأعيان، ولكن دون معرفة أسماء محددة، وما الذي يخططون له. كان الملك يعرف أن صهره تيرولا يتفق معه في أمور كثيرة، لكنه لم يشكّ قط في ولاءه، بما أنه شقيق الملكة. لا بدّ إذاً من جمع معلومات أخرى. ولكن ألا يحتمل أن يؤدي التجسس على الزملاء الأعيان إلى إفساد جو المدينة؟.. على الرغم من الشرف الذي سيصيب قطنا من زيارة الضيف الكبير، إلا أن إيداندا لم يكن مرتاحاً لها. طلب إلى شالا عدّة مرات أن تسأل الأرباب عن أية إزعاجات قد تُعرّض إقامة أمونحوتب للخطر. لكن الإشارات كافة كانت عادية.

بغية استقبال الضيف بما يليق بمكانته، جُهّز جناح الضيوف في القصر بأبهة كبيرة، وبمناسبة وصوله ستقام مأدبة كبيرة على شرفه.

لم تكن الهموم السياسية وحدها ما يؤرق إيداندا. فمنذ ظهور السعاة المصريين ازداد توتر الأجواء بين زوجته بصورة واضحة. كانت الملكة بلتوم تمطره باتهاماتها لإيست، ضربتها، بأنها تعمل على إزاحتها، في حين تؤكد له إيست أنها لم تقدم على أي فعل قد

يؤدي إلى استياء الملكة. وصدّقها إيداندا، لأنه يعرف بلبتوم حق المعرفة. لقد شرح لها بكل صبر أهميّة هذه الزيارة لقطنا، وحاول تخفيف اتهاماتها لإيست، قريبة ولي عهد مصر، الأمر الذي قد يعود على قطنا بخير وفير. وأخيراً استجابت بلبتوم ووعدت باتباع اللياقة في سلوكها. ولحسن الحظ أن كيا مقيمة في بيت الربة، وإلا لأشعلت غضب الملكة حقاً وأججت ناره. أما الملك إيداندا فكان يمضي ساعات طويلة في مناجاة أسلافه الملكيين.

استيقظت كيا ونظرت إلى أميناية النائمة إلى جانبها بهدوء، وقد لاحت في الخارج أوائل تباشير النهار. ما زال الوقت مبكراً للبدء بخدمات المعبد.

إنه الحلم.. الحلم هو ما أيقظها. الحلم نفسه الذي طالما كان يربكها ويولد الاضطراب في نفسها. كانت تقف في مكانها المفضل على ضفة النهر، منصتةً إلى خرير الماء، الذي تشقّه بقواتمها بعض البطّات الطائرة خوفاً. السكون مهيمن حولها، إلا من أصوات صراخير الحقول وغمغمة الموج الدائمة. الجوّ مسائي، والشمس قد غربت، والدفاء لطيف. شعرت بخطوات تقترب منها. لم تلتفت ولم تتحرك. أحاطت بها ذراعان من الخلف وأحسّت بنفسٍ مضطربٍ وبخدّ يتمرغ في شعرها. سمعت صوتاً دافئاً يهمس في أذنها بكلمات غزل. تسلّلت يد تحت رداثها الخفيف، تتلمّسها ثم تداعب نهديها المبرعمين. ظنت كيا أنها ستفقد وعيها، لكنها كانت في كامل اليقظة، منساققة ومتوترة في الوقت نفسه. خطفت الملامسات أنفاسها، وكانت (اللحمسة) الراغبة فيها تنسكب عليها كالمرج المتتالي. استرخت من جمودها، استندت إلى الجسد النابض وراءها وتركت نفسها تسقط. وفيما أغمضت عينيها أخذت تلهث مع الرغبة المتنامية. دفعت رأسها إلى الوراء. شفتان طريتان أخذتا تقبلان جيدها. أحسّت أن جميع قواها ستفارقها عندما مزق دويّ الهواء. الذراعان اللتان كانتا نضمانها انزلقتا عنها، وثمة جسد هوى أرضاً. فتحت كيا عينيها، لكنها لم تكن قادرة على الالتفات. كانت تعرف من كان معها في مكانها المفضل على النهر: وليّ عهد مصر.

لم تحاول كيا النوم ثانية. أخذت تتقلّب في مضجعها مقطوعة الأنفاس من أثر حلمها، ونهايته تعذبها. تُرى هل أرسلت إليها الربة تحذيراً؟ أكان الحلم نبوءة؟ نهضت أخيراً ونزلت إلى الحمامات. غسلت وجهها بماء بارد. التفتّ بعباءتها الدافئة وهي ترتجف برداً. لقد قطع الخريف شوطاً، والشتاء بأقطاره والمشاق المرتبطة به لم يعد بعيداً. عبرت شاردةً

الفناء الداخلي الكبير إلى بوابة مدخل المعبد. تجاوزت البوابة إلى الخارج ووقفت، لا يفصلها سوى رمية حجر عن هداة الصباح في القصر.
نظرت نحو القصر.

الجناح الغربي بأكمله في الطابق الثاني جُهِّز للوفد المصري، فابن فرعون العظيم من زوجته الملكة تيه لا يجوز أن يتقصه شيء. بدأ الزمن لكياً أزلياً منذ وصوله إلى قطنا، فأمر كثيرة برأيها قد تغيرت، رغم أنه لم يمض على دخوله مع حاشيته من البوابة الغربية سوى عشرة أيام.

بدا بهياً. كان واقفاً برشاقة واستقامة في عرته الأنيقة ذات العجلتين، التي تجرها خيول أصيلة مزينة بفخامة. على رؤوسها كانت ترفرف شرائط وياقات من الريش، وأغطية ظهورها مليئة بتزيينات ملونة. حتى ذيولها كانت مضمورة بخيوط حمراء ذهبية. كان أمونحوتب يضع على رأسه باروكة شعر قصير متدرج القصة ومزينة بالشرائط، ويرتدي التنورة المشناة والمبكّلة بما يسمى عقدة إيزيس، وقميصاً رقيقاً جداً مع حمالات ضيقة. وعلى كلا عضديه كان يلمع سواران عريضان من لآلئ ذهبية مشغولة مع خرز لازوردي وعقيقي وفيروزي. أما الأبدع فكانت زينة صدره: عقد عريض مثل قبة من لآلئ القيشاني الأزرق بمختلف الأشكال لإبراز مظهره الملكي.

راقبت كيف ادخل الموكب وهي واقفة على سطح بيت الربة برفقة الكاهنات الأصيلات والجديدات. كانت مأخوذة بالمشهد مثلها مثل بقية النساء معها، واعترفت لنفسها بذلك سراً. ومساءً ذهبت مع شالا إلى المأدبة الكبيرة. لم تستطع أن تنفي شعورها العميق بالرضا لرؤيتها الملكة بلتوم جالسة في مكانها المعتاد في نهاية الطاولة. وفي رأس الطاولة جلس الضيف أمونحوتب، وإلى يساره الملك إيداندا، وإلى يمينه إيست خالته أخت أمه. كانت أمها تلبس حسب التقاليد المصرية، ثوباً ضيقاً أبيض بحمالتين عند الكتفين يبرز حفاظها على رشاقة قوامها. وبدلاً عن حلية الصدر، طوقت جيدها بعقد من الفراشات الذهبية الصغيرة تفصل بينها لآلئ من العقيق، مع قرطين مناسيين له. وكانت تضع في وسطى يمانها خاتم اللوتس الثمين من حجر الكهرمان، الذي أهدته لها أمها عند وداعها. كما وضعت على رأسها الباروكة المألوفة في بلاط طيبة أو ممفيس، والمصنوعة من شعر أسود أصلي، بحيث كانت كتلة الشعر مرتبة في خصل تنتهي في ضفائثر. وأحاطت وجهها المرهف بإكليل يصل حتى جبينها من لآلئ خزفية ملونة. وأولت عناية خاصة لعينيها،

فأطرت جفنيها بالكحل، مع استطلالة موازية للرموش عند زاويتي العينين. لم يسبق لكيا أن رأت أمها مصرية خالصة بهذه الصورة. ياله من تحوّل! أكانت هذه هي المرأة نفسها التي تعرفها، الدائمة التحفظ إلى حد البساطة تقريباً؟ لا عجب أن أباهما قد أغرم بها، فهي حقاً ذات حسن ملوكي.

وعلى نقيض ذلك تماماً، تمثل تأثير كيا في بساطة ثوبها وجمال شبابها وحسب. لقد أصرت على المشاركة في المأدبة حسبما ينسجم مع وضعها الجديد في المعبد. فسمت بطريقة كادت تكون استفزازية على جميع النساء الأخريات، مثل صديقتها إلهي نيكالو زوجة وليّ العهد التي تبدت على المائدة في بهرجة لافتة.

كان الجميع أثناء المأدبة متكلفاً، بذلوا جهدهم للتقيد بأداب المناسبة الرسمية في وجود ضيف بمثل هذه الرفعة، سوى إيست التي انشغلت في الحديث على سجيتها مع فرعون المستقبل، أحد أهم ثلاثة أو أربعة من كبار ملوك المعمورة. في حين كان سلوك معظم الآخرين متحفظاً وخجولاً.

بما أنه لم يوجد على المأدبة من يتكلم المصرية بطلاقة سوى إيست وكيا، فقد أدير الحديث باللغة الأكديّة. كان المتكلمان بصورة أساسية هما أمونحوتب وإيداندا، وعلى نحو متقطع أيضاً. حتى أكيزي غرق في الصمت. في هذا الجو كان لا بدّ لكيا من أن تتذكر مأدبة استقبال إحيا وتالزو في قاعة الطعام العائليّة. حينذاك كان يصعب على المرء سماع صوته في دوامة الأحاديث المتبادلة الحيوية والمزاح والضحك. أما الآن فقد كان الجميع شاكرين فضل الموسيقيين والمغنين الذين رافقوا تنالي الوجبات بمقطوعاتهم. أما مطبخ القصر فقد تفوق على نفسه اليوم، فحتى في احتفالات عرس أكيزي وإلهي نيكالو لم يقدم مثل هذه الأطعمة المغربيّة، التي كانت كيا تتلذذ بها لقمة لقمة، وبتمهل وتأمل وإكبار لكل تفصيل صغير من الصحون المقدّمة.

عندما أحست كيا بنظرات أمونحوتب موجهة نحوها، خامرها شعور بأنها قد مرت بهذه اللحظات سابقاً، ومع ذلك كان الحال الآن مغايراً تماماً لتجربتها قبل أسابيع مضت. يالهاتين العينين! حالكتين كظلمة الليل. هل تنظران بجديّة، برزانه؟ لا، بل بكآبة، وربما بتوق وقلق. لقد أثارنا أعصاب كيا، لكنها لم تستطع أن تحيد بنظراتها عنهما. أخذت تتأمل ملامح هذا الوجه النحيل الطويل، الذي تهيمن فيه العينان اللوزيتان بجفنيهما المتدائنين وحاجبيهما المقوسين بانسياب متناظر، ليلتقيا عند رأس أنفه الطويل الرشيّق. نظرت

إلى خديهِ المحدوديين قليلاً وذقنه المستديرة وشفته الغليظتين الشهوانيتين، جاهدة ألا تتجاوز حدود اللياقة.

انتزعت كيا نفسها من ذكرياتها، وكانت الشمس قد أشرقت. شدت رداءها حول جسمها وعادت إلى الداخل لتبدأ أعمالها اليومية. كان عليها اليوم تلميع أدوات خدمة الربة. لم تستطع التركيز على عملها، إذ كانت أفكارها طوال الوقت تعود إلى أمونحوتب. إذا كانت تعدُّ الإقامة في بيت الربة وتأهيلها لتصير كاهنة، أسمى أهداف حياتها، فقد باتت تبحث الآن دائماً عن أسباب لتبرير وجودها في القصر.. من أجله. ثمة ما هو سحريّ فيه يجذبها إليه. أهو عيناه؟ نظراته الملعزة التي يبدو أنها تريد إخبارها بالكثير الكثير؟ ألم يناديها؟ تذكرت حديثهما الأول. اختلقت عذراً لتطلب إذناً لزيارة أمها، فحصلت عليه دون تأخير. وحسبما كانت تأمل سراً، وجدتها بصحبة أمونحوتب، غارقة في الاستفسار عن مستجدات أفراد العائلة في مصر.

«أهلاً كيا، يا لها من مفاجأة! تعالي، اجلسي معنا!». وعانقت إيست ابنتها وهي تقول: «كنا نتسلى بأفضل شائعات البلاط»، وضحكت مضيئة: «يبدو أنه ما زالت هناك عائلات في طيبة لا تعترف بالزواج عن حب. أمر لا يعقل بعد كل هذه السنين!». عمّ كانت تتكلم أمها؟

أخذ أمونحوتب بطرف الحديث وقال: «الموضوع وما فيه، أن أبي في رأي هؤلاء الناس، لم يتزوج زوجاً لائقاً بطقته، مخالفاً بذلك أوامر الأرباب. فهو لم يرتبط بأميرة ذات دم ملكي ويرفعها إلى مرتبة زوجة الملك العظيم، بل اختار امرأة من فئة كبار الموظفين. وهذا ما لا سابقة له إطلاقاً! لكنني أنا سأسلك مثله، إن وجدتُ المرأة التي يمكنني أن أضع قلبي عند قدميها!».

أحست كيا بأن صوته الناعم الشجي الذي يشوبه بعض الأنوثة يجعلها تتورّد، فنهضت واتجهت إلى النافذة. ولكن ثمة ما جذبها للعودة إلى مكانها. أرادت أن تكون بقربه. لقد أحست به وكأنهما على وشك أن يتلامسا، رغم بعد المسافة بينهما. ومع ذلك توثبت روحها المعارضة، فقالت:

«إنكما تتكلمان عن زواج الحب، ومع ذلك فإن فرعون - أطال الأرباب عمره وحفظوه سليماً معافى - لديه في حريمه عدد كبير من النساء الإضافيات، لا عمل لهن سوى إمتاعه. فكيف ينسجم هذا مع الحب الكبير؟».

«لقد حكمت لي والدتك عن تعليمك الممتاز، ولذلك لا شك في أنك تعرفين أن معظم الحكام، وفي المقام الأول حكام الممالك المهمة، ولأسباب سياسية بحتة، لا محيد لهم عن عقد زيجات معينة. مصر ليست مضطرة إلى ذلك طبعاً. تكاد الأميرات تُقرضن على فرعون فرضاً. فهل عليه برأيك أن يكون فظاً تجاه الحكام بأن يرّد إليهم بناتهم؟».

احمّرت كيا خجلاً، ثم قالت: «لم أبعِ استفزازك».

«يعجبني أن تكون لك أفكارك الخاصة، وأن تعبري عنها أيضاً. معظم النساء لا يفعلن ذلك، حتى في مصر. ولا سيّما عندما يتحدثون مع فرد من العائلة المالكة».

عندما وعت كيا، مع مَنْ تتكلم بهذه الصراحة، أحسّت بدلو ماء حار ينسكب عليها. فالجالس قبالتها يعد حالياً واحداً من أكثر الرجال سلطة في العالم، وأبوه، حسبما عرفت من أمها، يُعبد بصفته ربّاً حياً. كادت للحظة قصيرة ترمي نفسها أرضاً أمامه، لكن عزة نفسها تغلبت ومنعتها. فهي في نهاية المطاف ابنة خالته وأميرة قطنا. نهضت معتذرة: «عليّ العودة إلى بيت الربة». فنهض أمونحوتب أيضاً، قبل أن تتمكن من منعه. أمسك بيديها وسألها: «متى أراك ثانية؟».

«لا أعرف».

«أمل قريباً!». همس أمونحوتب. ومع ذلك صدحت هاتان الكلمتان في أذنيها. سحبت يديها من قبضتيه وأسرعت نحو الباب، من دون أن تودع أمها.

«لقد تصرفتُ مثل إوزة غبية، كطفل صغير»، قالت كيا لأميناية مساءً، عندما أخبرتها عن اللقاء.

«لكنه على كل حال يبدو مهتماً بك، وإلا لما طلب رؤيتك ثانية!».

«لربما كان يشعر بالملل، أو أنه يجاملني».

«وماذا عن كل تلك الهدايا؟».

«أميناية، أنت تعرفين مثلي أنها جميلة وثرينة، لكنها لا تشير إلى شيء محدد. تبادل الهدايا أمر مألوف وعادي».

«لكن بعضها قدمه لك مباشرة مثل حنجور المرهم هذا»، وأشارت إلى حنجور زجاجي صغير يزّين رفاً خشبياً في الحجرة الفقيرة بالأثاث، وأردفت: «يبدو مثل حبة عنب زرقاء في الكف. ثم صندوق اللعب الذي يستخدم على الوجهين. أرايت سابقاً مثل هذا

الشغل البديع؟ لا شك في أنه من خشب الأبنوس. ولوح القيشاني المزجج هذا والرقيق كنسمة! مثل هذا الشغل المصدّف لا مثيل له في قطننا كلها. أي لعبة سنلعب الآن (عشرون حقلاً) أم (زينيت)؟».

كانت هذه ألعاب رقيقة مصرية علّمتها كياً لصديقتها. لكنها أشارت بيدها رافضة الآن.

بمرور الأسابيع وأثناء الجلسات التي كان الملك إيداندا وممثلون عن مجلس الأعيان يعقدونها مع أمونحوتب، بات يستعان بإيست وكياً للاستماع إلى الحوار وترجمته. من المفروغ منه أن حاشية أمونحوتب تتضمن مترجمين أيضاً. ولكن كان من المهم للملك أن يتابع الحوار من قبل جماعته، فقد كان يرى أن تقدير الوضع العام لقطنا ومستقبلها بصورة صحيحة، لا يسمح بحدوث أي سوء فهم ناتج عن قصور لغوي.

أمونحوتب نفسه لم يبد كبير اهتمام بالمباحثات السياسية. فعلاقة مصر مع ميثاني ممتازة، وموثقة برابط زواج ملكي. ثم إن حتّوشا مراقبة جيداً، ولا سيّما بعد النجاح في ضم أرزاوا على بحر أهياوا إلى الحلف المضاد للحثيين وتوثيقه أيضاً بإرسال أميرة مصرية زوجة لملك أرزاوا. لكن إيداندا اعترض معتمداً على مصادر موثوقة، بأن أولى حملات شوبيلوليو ما إثر استلامه العرش قد شكمت أرزاوا ووضعته عند حدّها. وعندما استهان وليّ العهد المصري بهذا الاعتراض، شعر أعضاء المجلس بالقلق. فهل كانت معلومات المصريين قاصرة، أم أن ما يجري في الشمال حقاً لا يهمهم؟

وأتى الملك إيداندا طبعاً على ذكر اعتلاء ملكٍ جديد عرش آشور وزواجه من ابنة ملك بابل، كما ذكر المباحثات السرية بين حتّوشا وآشور. ألا ينبى هذا عن تشكل محاور جديدة قد تلحق الضرر بمصر أيضاً؟ ماذا سيحدث إن لم تتمكن ميثاني من مقاومة الضغط الحثي؟ أو إن وقعت بين فكّي الكمّاشة: آشور من الشرق وحتّوشا من الغرب؟ فجاء رد أمونحوتب عليه بأن توشراتا ملك ميثاني قد كتب إلى والده أمينوفيس الثالث بالتفصيل عن فشل الهجوم الحثي على ميثاني، وأرسل مع الرسالة جزءاً كبيراً من غنيمة النصر: عربات قتالية وخيول جيدة التدريب وكمية كبيرة من العبيد، ثم أشار بيده دلالة على أن هذا الموضوع يتعبه. خامرت الملك إيداندا الشكوك في ما إذا كان أمونحوتب، رغم شبابه، مخططاً سياسياً بارعاً، أم أن مصر انطلاقاً من قوتها وسلطتها قد أصيبت بغرور يعميها عن رؤية السحب الداكنة، التي تذللهم في الأفق الشمالي. وقد شارك في أفكاره هذه كلاً من أكيزي وأكيلينا وأوبيا وإيست وكيا.

كان جلياً أن وليّ العهد المصري يوليّ كيا اهتماماً أكبر بكثير من اهتمامه بالسياسة والمباحثات الاقتصادية. ولم يفت إيداندا ملاحظة أسلوب أمونحوتب في متابعة كيا بنظراته في أية مناسبة كانت. ومن الواضح أن طريقتهما الصريحة والاستفزازية قد أثرت فيه، مع أنها قد تبدو في نظر كثيرين صادمة، لكون كيا صبية يافعة.

كما لاحظ إيداندا مدى استعداد كيا لحضور جميع الاجتماعات في القصر ورغبتها في ذلك. لا شك في أن إقامتها في بيت الربة لم تُفقدِها فضولها، بل بالعكس؛ إذ عليها حسب تصور أبيها أن تحتل ذات يوم مكان شالا، لتصبح كاهنة قطنا الكبرى. ولتنبؤ هذه المكانة لا تكفي الإحاطة بالمقدسات والشعائر والطقوس، وفحص القربان وتأويل الإشارات، وممارسة الطب وتفسير الأحلام؛ بل لا بدّ من معرفة راسخة بكل ما يرتبط بشؤون المدينة والقصر. بيد أن إيداندا كان يخبّن أنه إضافة إلى اهتمامها بالحوارات مع الضيف الكبير، وشعورها بالرضا عن إظهار معرفتها باللغة المصرية، كانت تراح لوجودها برفقة أمونحوتب. وقد أكدت إيست ملاحظاته، فقال لها:

«لنفترض، على سبيل إعمال الذهن، أن الاثنين صارا زوجين، الأمر غير المحتمل إطلاقاً، فما معنى ذلك بالنسبة لقطنا؟».

«معناه أن موقفنا إلى جانب مصر سيكون أشد وضوحاً، فنصبح بالتالي هدفاً مؤكداً لهجوم حتّوشا، في حال غزوها مجدداً لميتاني وإخضاعها لها».

«هذا صحيح. ومن الناحية الثانية ستلزم مصر بتقديم المساعدة العسكرية، لأنها حليفة ميتاني. ولكن هل سيرسل فرعون حقاً قوات عسكرية؟ اعذرني يا أعزّ الناس، إذ أشكّك في ذلك. ففي الآونة الأخيرة ازداد تركيز فرعون جداً على مصر نفسها، أم أن لك رأياً آخر؟».

هزت إيست رأسها مفكرة. من جهتها، لا أحبّ إلى نفسها من أن تكون قطنا تابعة لمصر. فمنذ إقامة أمونحوتب وحاشيته في قطنا أحسّت بمدى افتقادها لمصر والعائلة. وفي ما يخصّ العبادة وخاصة عبادة حبيها آمون رع، تشعر بنفسها هنا وحيدة. صحيح أنها قد أطلعت كيا على الديانة المصرية، لكنها لم تحاول قط أن تفرض عليها عبادة الأرباب المصريين وحدهم. بل على النقيض من ذلك، فقد نشأت كيا على التقاليد الدينية السائدة في قطنا. وإلا لما كانت الآن في بيت الربة. بيد أن إيست تعرف أن الاختلافات بين الديانتين قد شغلت كيا كثيراً وخلفت في نفسها أسئلة عديدة. وكانت إيست معجبة بذكاء

الملك وتقدّر أسلوب تفكيره الراجح بالأوضاع السياسية واحتمالاتها، وبسلوكه المتآني. لقد بدا لها الحاكم المثالي لقطنا. لكنها كانت تعترف لنفسها سراً بأنها ستكون سعيدة إذا ما عاشت كيا إلى جانب أمونحوتب. ثم ألم تدلّ الإشارات كافة على أنها ستصير ملكة؟

جاء مع حاشية أمونحوتب إلى قطنا الرسام مينوس، وهو في الأصل من جزيرة كِفْتُو (كريت) البعيدة. وكان في قصر أواريس في مصر السفلى قد رسم لوحات جدارية بديعة. وها هو الآن يعرض خدماته على الملك إيداندا. كان معه بين متاعه بعض النماذج التجريبية لمهاراته الفنية على ألواح صغيرة من الجص، نالت إعجاب أهل القصر. وكان سبب خصوصيتها يكمن في أن مينوس لم يكن يرسم على ملاط كلسي رطب، مضطراً للإسراع وفق سرعة جفاف الملاط، بل كان في حوزته ألوان تمكّنه من الرسم على الجدار الجاف مباشرة. راقّت النماذج للملكة بلتوم، عندما عرضها عليها مينوس بتوجيه من إيداندا. وبغية إرضائها كُفّف بتزيين جدران قاعة الطعام في جناح المعيشة الملكي وجدران غرفة المكتب. وقد خصص له مشغل واسع قابل للتدفئة مع زاوية للنوم في الجناح الشرقي من القصر.

وقدوم مينوس ولّد حماسة حقيقية لدى دونيو خزاف ميسينا. رغم أن لهجتيهما مختلفتان بوضوح، لكن أصدقاء الوطن كانت تتردد فيهما، وقد تفاهما بصورة جيدة. ورغم فارق السن بينهما صارا بسرعة صديقين متلازمين. ذات يوم التقت كيا كليهما معاً مصادفة فحيتهما عفواً بكلمة «خايرييه/ مرحباً» التي تعلمتها من دونيو، فأحست بشيء من الأسف لغربتهما واستغربت ذلك. تداعت إلى ذاكرتها الزيارات التي قامت بها برفقة نالزو إلى ورشة دونيو. تُرى كيف حال الصديق البعيد؟ بعد مغادرته قطنا مع أبيه بعدة أسابيع، وصلت منهما رسالة قصيرة تطمئنهم على وصولهما بخير، ختمها إحيًا بكلمات شكر وأرفقها ببعض الهدايا، كان بينها عقد لكيا، التي خمّنت أنه من نالزو. لكن الرسالة لم تسعفها ولو بكلمة عن حاله.

كانت كيا تنتهز زيارتها للقصر لتتابع باستمرار، تطورات العمل في الغرف الغربية من الطابق الأرضي. وما أثار إعجابها بصورة خاصة، كان تصويراً يكاد يماثل الحقيقة، لصخرة يقارب لونها البياض سمّاها مينوس (مرمراً)، وقال إن هذا النوع من الصخور بألوانه الأبيض والأصفر والأحمر والأخضر موجود في وطنه وفي كثير من جزر بحر أهياوا (إيجة) وفي أهياوا (اليونان) نفسها. وأنه يستخدم في بناء القصور وتزيينها ولنحت التماثيل وبعض

الأواني. هذا ما استطاعت فهمه من كلام مينوس، الذي كان يسحرُ بفراشيه وملوِّقه وهمَ صخورٍ صلدة بتعريفات مميزة. إنه لم يرسم هذه التشكيلات على الجدران فحسب، بل على مساحات معينة من الأرضية أيضاً، ما أسبغ على الغرف جواً خيالياً إيهاً مياً. وقد شمل ذلك غرفة المكتب والحمام الكبير برسومات مشابهة. لم يسبق أن رأت كيا الملكة بلتوم منسرحة على هذا النحو إلا نادراً. لقد انفتح قلبها للشاب مينوس وأعجبت بأعماله. كانت تأتي مرة على الأقل يومياً إلى مكان عمله لتتابع خطوات تقدمه. وذات يوم دعت شالا لزيارتها، فاصطحبت هذه كياً معها لتلبية الدعوة. ومع ذلك لم يتعكر مزاج بلتوم الراق. وبحضور الملك عرضت الملكة على شالا اقتراح أن يرسم مينوس الغرفتين المخصصتين للعبادة في القصر أيضاً، وشرحت تصورهما الدقيق لمضمون اللوحات. لم تكن كيا وحدها من اندهش.

تري بلتوم أن اللوحة، في معبد بيليت إكآليم في القصر، يجب أن تمثل منظر برية تتخللها صخور وأعشاب ويجري عبرها نهر، وأن يكون المنظر محاطاً بنقوشٍ لزهور متكررة بشكل هندسي.

«أتفهمون قصدي؟ يجب أن يبدو كأن الماء، الذي تمنحه الربة لنا، يأتينا من النهر مباشرة. أليست فكرة رائعة؟». ونظرت الملكة إلى زوجها، فابتسم لها موافقاً.

«ولغرفة الأسلاف الملكيين، فكّرت بالتالي: على الجدارين الجنوبي والغربي تصورتُ منظر نهرٍ أو بحرٍ مليءٍ بالأسماء ويقواقنا الحمراء، والشاطئ بستاناً. وفي هذا البستان يمكن أن نرى مثلاً حيوانات وطيوراً ونخيلاً وكل هذا ملون، تحيط به كذلك نقوش غنية كالتي أنجزها مينوس في الغرف الأخرى».

حماسة بلتوم أصابت الجميع بعدواها. شالا وإيداندا وافقا بسرور على دخول مينوس إلى الغرفتين المقدستين.

على طريق العودة إلى بيت الربة سألت كيا شالا: «كيف ستخبره الملكة بما عليه أن يرسم؟». «من هذه الناحية أنا مطمئنة. ستستخدم يديها ورجليها، وقد ترسم بنفسها بعض الخطاطات». وهزت شالا برأسها وأزدفت: «لم أر الملكة قط في مثل هذه الحال، طوال هذه السنوات. كانت في واقع الأمر أميل إلى الشراسة وسوء المزاج، إلا عندما يكون صغارها حولها، ولا سيّما أكيزي. في تلك المرحلة التي كنتُ فيها كاهنة شابة، كنت في كثير من الأحيان هدف سخريتها وغيرتها. وقد ذرفتُ كثيراً من الدمع بسبب ذلك، إلى أن

تعلمت فهمها. أما اليوم فقد توضح لي ما كنت دائماً أخمته: أن يشغل الإنسان نفسه بأمر يحبه، أنجح غالباً من أن يجرع عصائر الأعشاب ويتوسل نصرة الأرباب، على الأقل لفترة معلومة».

ارتعبت كيا من كلمات شالا الأخيرة وأحست بنفسها قد ضُبطت متلبسة. تُرى أتعرف شالا أنها قد طلبت عدّة مرات شراب الخشخاش، لعدم قدرتها على النوم، نتيجة تلذذها وتألّمها الشديد، في الوقت نفسه، من تكرار الحلم؟ استقرت كيا نظرة إلى جسمها فوجدت نفسها أكثر نحولاً. ونظرتها الصباحية في المرأة الصغيرة كانت تُريها الهالات الداكنة تحت عينيها. لكن شالا تابعت مشيها غير مبالية.

كان سبب مجيء إهلي نيكالو إلى بيت الربة، هو توقف حيضها الشهري ومعاناتها هجمات غثيان مضية. أمرت لها شالا بشراب مسكن من حبوب الشمرة البرية، ثم سألتها وفحصتها وأخبرتها بالنبا السعيد، فسالت دموع إهلي نيكالو. لذلك طلبت شالا حضور كيا لتواسي صديقتها وزوجة أخيها، ولترافقها من ثم إلى القصر.

«ألسيت فرحة بقدوم الطفل؟». سألت كيا صديقتها الباكية وهي تسندها بذراعتها.

«أكيد، طبعاً. أتعرفين، إنني أبكي ببساطة نتيجة شعوري بالارتياح».

لم تفهم كيا قصدها، فنظرت إليها متسائلة، ثم سألتها:

«ألا تريدان إخباري بما يثقل عليك؟ أهي الملكة؟».

«لا. بلتوم طيبة تجاهي. لكنها نبهتني منذ البداية طبعاً إلى أهميّة أن أكون ولودة. ويا له من تعبير! وأعرف أيضاً أنه لا يجوز لي أن أشكو إليها أموراً معينة. ولكن بالنظر إلى علاقاتها أرى أنها تعاملني بلطف كبير».

«ماذا تقصدين بأنه لا يجوز لك أن تشكي لها أموراً معينة؟ أي نوع من الأمور؟».

نظرت إليها إهلي نيكالو بحزن، ثم لم تستطع كبت ما بداخلها، فانفجرت قائلة: «آخ يا كيا، لا يمكنك تصور الوضع. كنت أتصور الأمر بشكل مختلف تماماً. صحيح أنني كنت أخمن أن أكيزي ليس متعلقاً بي جداً، لكنني كنت أنا مغرمة به جداً، وأنت تعرفين ذلك. أسعد ما كنت أتخيله هو أن أكون زوجته. وأنا في واقع الأمر سعيدة. غير أن الليالي غالباً ما تكون مريعة. لكن الأمر انتهى الآن». مسحت دموعها بكمّها، نظرت إلى كيا بطيبة وأردفت: «فأنا الآن حامل! سأنجب صبيّاً، سترين، والجميع سيرضون عني».

استعادة الحامل هدوءها، أفرح كيا، فأفكارها كانت تحوم حول أمور أخرى:

المتطلبات في بيت الربة، الموضوعات الكثيرة والمختلفة هناك، والتي كانت تحفز رغبتها في المعرفة أكثر مما تشبعها. أسرار الربة ما زالت إلى حد كبير تكمن وراء حجاب، والطريق إليها طويل، وفي بعض الأيام كانت كيا موقنة بأنها على الطريق الصحيح. لكنها من حيث لا تدري تجد أن أفكارها تسرح عائدة إلى أمونحوتب. وقد أربعها إدراكها أنه أول وآخر من يخطر في بالها يومياً. كل توقها كان يخصه، إنه يحتل تفكيرها، والأسوأ من ذلك هو أنه قد غرس شكوكاً في داخلها. ما قاله عن ربه، الذي تعرف أنه رب أمها أيضاً، كان يحرك أعماقها. وبناء على قوله، تولد لدى كيا تصور أنه لا أبواب سواه. بيد أن هذا لا يمكن أن يكون صائباً. إذ كيف يكون رع، حافظ الدنيا الذي يعبر السماء في محفته نهاراً والعالم السفلي ليلاً، ويكون في الوقت نفسه رب الخلق آمن الذي كوّن جميع الأرباب. هل يعقل ألا يوجد سوى رب واحد، عليّ وقادر على كل شيء هو رب الشمس؟ وماذا عن أربابها ورباتها؟ إنهم حتماً موجودون! ألم تتجلى بيليت إكآليم لها بالذات في أحلامها مراراً؟ أكان هذا كله خطأ كبيراً، حسبما قال أمونحوتب؟ بدت لها عبادة رب واحد أمراً رائعاً، من ناحية، ولكن من ناحية أخرى، هل يقدر رب واحد حقاً على القيام بمهام، كانت موزعة على كواهل أرباب عدة؟ إلا أن أكثر ما كان يجعل قلب كيا يخفق هو فكرة كانت تلح عليها باستمرار، وتستجلب العقاب لا شك: هل بمستطاع البشر حسم موضوع وجود الأرباب؟ سجدت كيا عند قدمي الربة وتوسلت إليها الإجابة. لم تجد في نفسها الشجاعة للبوخ لثالاً، فبقيت وحدها مع شكوكها وخوفها. حتى أنها لم تتحدث في الموضوع مع أمونحوتب نفسه، خشية أن يسيء فهمها، أو أن يجرحه كلامها. بدا لها متشرباً بموضوعه كلياً، وهو عندما يتحدث عن ربه تضيء عيناه، وكأن ربه مائل أمامه بكامل جسده، فتأخذها حماسته معه.

«ألا تدركين ما يعني هذا لمصر؟ أخ، ماذا أقول، أقصد للعالم المسكون كله؟». ضحك، ضمتها بين ذراعيه ودار بها حوله مثل طفلة صغيرة. وبعد أن أوقفها على الأرض ثانية، لم يفلتها، بل بقي ضاماً إياها وهو ينظر في عينيها وأضاف: «ألا تستطيعين مرافقتي على دربي؟ ما أجملك يا صغيرتي، مثل زهرة! وتفهمين ما أقول وما أفكر. قلبي يقول لي إنك تكنين لرع حباً خاصاً».

كانت كيا على وشك أن تقول له من كل قلبها: «نعم!». عندما دخلت مربيتها الغرفة. بقيت الكلمة حبيسة قلبها وهي تغادر القصر مسرعة.

تنهدت كيا وسألت إلهي نيكالو: «كيف الحياة في القصر مع المصريين؟».

«ألا تعلمين أنهم قد غادروا قطننا؟».

نظرت كيا إلى زوجة أخيها بحيرة واضطراب وهي تقول: «لكن الوقت غير مناسب للسفرا وهكذا، من دون وداع؟».

«ما بك كيا؟ وجهك شاحب جداً. لا تغتمي، فأكيزي يقول إن أمونحوتب سيعود، بعد أن يزور جبيل وربما أوغاريت. أي أنه لن يغيب سوى بضعة أسابيع».

حبست كيا دموعها. كيف يمكن لأمونحوتب بعد كل ما كان بينهما أن يختفي هكذا ببساطة مثل لص؟ أم أن الجميع قد أخفوا عنها موعد الرحيل؟ حاولت أن تتماسك وركزت على مهمتها.

«لا شك في أنك تعتبريني بلا قلب، يا عزيزتي، اعذريني. جئت إلى بيت الربة مهمومة مكروبة، وأنا لا أعتني بك كما يجب. إذا كنتِ تشعرين بتحسّن حالك، فسأرافقك إلى القصر. أشربت كأس منقوع الشمرة؟ سيفيدك».

«كيا، أنا مسرورة بمساعدتك لي. أتعرفين، كم أشتاق إلى لقاءاتنا المعهودة!». واستندت إلهي نيكالو على كيا ومشت قائلة: «في فترة قصيرة تغير كل شيء. الآن بدأت أدرك، كم كنا سعداء، بلا هموم ولا مسؤولية». توقفت في منتصف الطريق وقالت لكيا: «هل أخبرتك بأن عليك زيارة أمك. لديها شيء لك».

بعد أن أوصلت كيا صديقتها إلى مخدعها واطمأنت إلى استلقائها بارتياح، مرت بحجرة والدتها. رفعت إيست عينيها عمّا كانت تظرزه، أمرت الخدم بالخروج وأشارت لكيا كي تقترب منها، ثم قالت:

«لقد تركت انطباعاً ممتازاً في نفس وليّ العهد!».

«لماذا لم يخبرني أحد بأنه مسافر؟».

«كانت تلك رغبة أمونحوتب. أراد أن يمنحك وربما نفسه أيضاً الوقت للتفكير في كل شيء، هذا انطباعي أنا. كيا، أعتقد أنه من المحتمل جداً أن تلعب دوراً مهماً في حياته. اليس هذا رائعاً؟».

أحست كيا وكأنها بحاجة إلى هواء لتلتقط أنفاسها. ما الذي تقوله أمها؟ فحتى في أشد أحلامها جراءة لم يبد الأمر محتملاً. لقد أظهر لها أمونحوتب طبعاً أنها تعجبه، ولكن هل

كان الأمر جاداً. إنهما يكادان لا يعرفان أحدهما الآخر. ولكن قد لا يكون هذا ضرورياً. ربما ساقهما الأرباب أحدهما إلى الآخر، أو: الرب؟
«ما رأي أبي بالأمر؟».

«سيكون فخوراً وسعيداً. تصوّري، أميرة من قطنياً تصبح ملكة مصر. كل ما عدا ذلك يجب أن يبقى في المرتبة الخلفية. کیا، يجب أن يكون هذا هدفك الكبير. إنسي تأهيلك، اتركي بيت الربة، إنني أناشدك ذلك. يجب أن تمسكي بالأمير. سيكون ذلك نعمة للجميع، سترين!».

«ليتم ذلك، لا بد أن يكون هو هنا!». أجابت کیا وقلبتها يخفق من الانفعال. ثم أضافت:
«عذراً أمي، إنني أفهم ما ترمين إليه. سأفكر في الأمر!».

«أتمرحين؟ ليس ثمة ما يحتاج إلى تفكير. في حال خطبك الأمير، لن تترددي. في المقام الأول أبوك لن يتردد. ظننت أنك تميلين إلى أمونحوتب، أليس كذلك؟ لا أظنك تفكرين بذلك الشاب من كيزواتنا؟».

نظرت کیا إلى أمها نظرة كلها دهشة. تالزو؟ كيف خطر في بالها؟

«أمي، يجب أن أذهب»، وأخذت تشبك أصابعها وتفصلها في قلق.

«أعرف أنك نكرهين أن يتدخل أحد في شأنك، لكن هذا هو نصيبنا يا صغيرتي الحبيبة. فكري بهدوء في كل شيء. ستتابع حديثنا مرة أخرى. انتظري لحظة. علي أن أعطيك شيئاً!».

نهضت إيست، غادرت الحجرة وعادت بعد لحظات. سلّمت کیا لفافة من ورق البردي، باركتها مودعة وتركتها تذهب. خبأت کیا اللفافة في رداثها. ما معنى هذا؟ وممن؟ أهي رسالة؟ أسرع في العودة إلى بيت الربة، أملة أن لا يزعجها أحد في حجرتها. لكنها ما إن دسّت اللفافة تحت غطاء سريرها، حتى وقفت أمينية في الباب.

«کیا، السيدة تنتظرك منذ مدة. اذهبي إليها فوراً. إنها في مخدعها!».

«ماذا حدث؟».

«لا أستطيع إخبارك بأكثر من هذا. أسرع. إنها لا تحب الانتظار.».

هل سمعت ما يشي بعتاب؟ أسرعت کیا إلى جناح شالا شاعرة بالذنب. ماذا ستقول لشالا؟ لقد صممت طويلاً حتى الآن، فهل عليها أن تفتح لها قلبها الآن؟

وجدت شالا مستلقية في مضجعها. لدى دخولها اعتدلت الكاهنة الكبرى في جلستها. «خذني أدوات الكتابة في يدك!». قالت شالا دون كلمة تحية وبدت مجهدة. لم يسبق لکیا أن رأتها كذلك. ناولتها خادمة شراباً، أنعشها. جلست کیا متربعة على وسادة سمیكة عند أسفل المضجع. وضعت لوحاً خشبياً على فخذيها، وضعت عليه لوحاً طينياً طرياً ونظرت إلى شالا بتشوق.

«إلى سيدي تقول شالا ما يلي: منذ سقوط مُلك أبيك لم أر قطّ حلماً من هذا القبيل. رأيت الإشارتين كما يلي: في حلمي دخلت إلى معبد الربة بيليت إكألیم، وإذا بالربة ليست في مكانها! والتماثيل الصغيرة التي تقف عادة أمامها، غير موجودة أيضاً. رأيت ذلك وبكيت دون توقف. حلمي هذا رأيته خلال ساعة الحراسة الليلية الأولى. إشارتي الثانية: أخبرتُ عن امرأة في معبد سيدة القصر، عشتار المحاربة، نهضتُ في حالة غشية وقالت: (أيها الملك، لا تقدّ حملةً، أبوق في قطنا!) وأنا بالذات أقولُ من دون توقف: يا سيدي، لا تُهمل، انتبه إلى حماية نفسك!».

انتظرت شالا إلى أن انتهت کیا من الكتابة ثم قالت: «أضيفي المعتاد، ولا تنسي إنجاز نسخة لمحفوظاتنا!». وسقطت في وسائدها منهكة من تأثير النبوءتين اللتين أملتتهما توأ. كانت کیا مستغرقة في الكتابة كلياً، بحيث لم تدرك فحوى ما كتبت إلا الآن. نظرت إلى شالا مرعوبة وسألت: «سيدتي، ما معنى هذا؟».

«ما رأيك أنت، کیا؟ إذا شاءت الأقدار أن تبقي في المعبد، فسيكون أحد واجباتك ذات يوم أن تفسري النبوءات والأحلام والرؤى، سواء الخاصة بك أو بأخرين. إذاً، ما رأيك؟».

نظرت کیا في النص الذي كتبه لتوها ثم قالت: «الواضح تماماً أن الملك لا ينبغي له أن يغادر قطنا، كي لا يوقع نفسه في مخاطر خارجها. أو قد يكون المقصود، لتجنّب حرب؟ ولكن ضد من ومتى؟ ولماذا غادرتنا الربة؟».

«إذا كان تفسيري للحلم صائباً، فقطناً مهددة بالخراب، لربما في الساعات الأولى من الليل. هذا ما يدل عليه الفراغ: خلوّ المعبد من تماثيله المسروقة. لقد غالبتُ نفسي طويلاً لأصدق هذا الحلم، فأحلام الرؤى ليست الربة من يرسلها إلينا دائماً. بعض الرؤى قد تؤدي إلى تضليلنا أحياناً. لذلك يصعب البت في ما هو صحيح وما هو مضلّل. ثم تذكرت رؤياك التي جاءتك أثناء الاجتماع، والتي ستعرض فيها قطنا لتهديد موجة بحرية

هائلة. أمك حكمت لي الرؤيا، عندما تعلق الأمر بقبولك في بيت الربة. كما وصلني في وقت حلمي نفسه تقريباً أن هناك إشارة أخرى تدل على حرب أو غدر. لذلك أعتقد أن الإشارات تتكاثف وقد آن الأوان لتحذير الملك. أنت يا بتي ستسلمين هذا اللوح إلى الملك. وأطلب منك الصمت المطلق عن كل ما تحدثنا فيه، تحت طائلة العقاب الشديد!». صوت شالا الذي كان حتى الآن خافتاً ومتعباً، تضخم مع الكلمات الأخيرة، فاعتقدت كيا أن الربة تكلمها عبرها.

«والآن، دعيني وحدي!». تابعت شالا بصوتها المعتاد «سأصوم وأبتهل إلى الربة أن توحى إليّ بمخرج. عندما ترجعين من القصر، تشاوري مع أميناية حول التحضيرات لعيد الهلال الجديد. يجب أن تأخذ جميع الأمور مسارها المعتاد!».

بعد أن انتهت كيا من جميع مهماتها كان المساء قد حلّ. كانت متعبة ومشتاقة إلى سريرها. تلمست طريقها في عتمة حجرتها، وعندما اندست تحت الغطاء، اصطدمت يدها باللفافة التي خبأتها هناك. غداً ستطلع على مضمونها ومغزاها، أما الآن فليس في رأسها سوى فكرة واحدة: النوم.

عندما استيقظت بعد ليلة من دون أحلام، كان النهار مشرقاً من أيام أواخر الخريف، وكان الوقت بعد الشروق بقليل. شعرت بنفسها متعشة ومحرة من أهوال الأمس. أميناية ما زالت نائمة. حاولت بهدوء فرد لفاقة البردي. وجدتها مسطورة بكثافة وبحبر أسود، وتوضّح لها فوراً من أرسل إليها هذه السطور. أخذت تقرأ بكل انتباه:

«جميلة تبدين

أيتها الشمس الحية، ياربة الزمن اللامتناهي.

إنك متوهجة، جميلة وقوية،

حبي لك عظيم وعارم،

شعاعك يلامس كل وجه،

وجلدك المشع يحمي القلوب،

لقد ملأت البلدتين حباً بك.

أيها الإله العليّ الذي شكّل نفسه بنفسه،

وخلق البلاد كلها وما فيها

من بشر وقطعان وحيوانات برية،

وجميع الأشجار النامية من الأرض،
كلها تحيا عندما تشرق من أجلها.
أنت الأم والأب لكل ما خلقت؛
عندما تشرق يرون من خلاله.
أشعتك أنارت الأرض كلها،
وكل القلوب تطرب لمراك،
فلقد سطعت بصفتك سيدهم.
عندما تغيب في الجانب المضيء من السماء غرباً،
تنام مخلوقاتك، كما في حالة الموت؛
رؤوسها مغطاة وأنوفها مسدودة،
إلى لحظة بزوغك في الجانب المضيء من السماء شرقاً.
كل النباتات الحية التي تنبت من الأرض،
تنمو بشروقك،
سكرى بمراك.
وجميع الحيوانات البرية ترقص على قوائمها،
والطيور الهاجعة في أعشاشها تطير فرحاً،
والأجنحة المضمومة تنفرد ممجدة إياك
تمجيداً للشمس الحية، تمجيداً لخالقها!.

كانت كيا مستغرقة في قراءتها، إلى حد أنها لم تنتبه معه إلى أن أميناية كانت تراقبها.
«ماذا تقرئين؟»

«أموئحوتب كتبها. أنشودة تمجيد لإله الشمس. لم يسبق لي قط أن سمعت أو قرأت ما يقارن بها. إنها مؤثرة. اعذريني، لست مهياًة الآن لقراءتها لك»، واغرورت عينها بالدمع.
«أيرسل إليك مثل هذه؟». سألت أميناية صديقتها مضطربة، وأردفت: «لا شك في أنه يحبك حتماً ويشق بك بلا حدود، كي يبتك أكثر أفكاره خصوصية!».

«لن تخبري أحداً بذلك؟ أتوسل إليك!». طوّقت كيا بذراعيها كتفي أميناية ونظرت في عينيها عميقاً.

«كوني واثقة من أنني سأصمت!». وعدتها وقبلت خذيتها بنعومة، ثم سألتها: «كيف سيكون قرارك يا صغيرتي؟ هل ستبقين في المعبد أم ستذهبين معه؟».

«أخ، أميناية، هل الخيار لي أنا؟ وربما من الأفضل ألا أحتاج إلى التفكير في الأمر. أمونحوتب إنسان رائع وجيد. لديه خطط كثيرة للمستقبل، ويريدني إلى جانبه في تنفيذها. كيف لي أن أتمتع. يريد أن يحقق لجميع الناس السلام والحب وأن يرشدهم إلى إله الشمس مانح الحياة، الذي يراه أهم الأرباب قاطبة. أتعرفين، كم أنا متشوقة لعودته إلى قطننا!».

اختفت الدموع من عينيها. وأخذت ضاحكة تدور بأميانيا راقصة في الحجرة الصغيرة، إلى أن سقطتا معاً على أحد الأسرة.

لكن أمونحوتب لم يعد إلا بعد عيد هلال الشتاء.



بالنسبة إلى تالزو كانت الأيام والأسابيع في يوروشخندا مدرسة قاسية. وتحذير هنوتي لم يكن مجانياً. فعلى الرغم من توازن شخصيته وإرادته المصممة على تنفيذ كل شيء بما يرضي هنوتي، كان عدّة مرات على وشك الاستسلام، لولا زميلاه مورسيلي وميتا وبقية المجموعة. آخر الخريف ومطلع الشتاء جلبا معهما أمطاراً وعواصف ويرداً رطباً مزعجاً، لم يختبر تالزو مثيلاً له في أسوأ شتاءات ترشا.

«اصبر عليه، تانوا. الطقس سيتحسن بعد هلال الشتاء. صحيح أن البرد سيصير قارساً، لكن الشمس ستسطع وسيغطي الثلج كل شيء!». انثنى ميتا على نفسه من شدة الضحك، عندما نظر إليه تالزو غير مصدق وهو يرتعد رعباً.

الشكنة التي عسكروا فيها كانت غالباً باردة كالصقيع، ما يجعل النوم عسيراً. لكن تالزو مساءً كان دائماً منهكاً إلى درجة أن يسقط في سريره كجذع شجرة؛ فالتمرينات كانت تستمر طوال النهار في العراء من أجل اكتساب اللدنية والخشونة. ومع ذلك فإنه لم ينسأ أبداً أن يقبل ميداليته قبل النوم، فهذه اللحظة من اليوم كله كانت تخص كيا.

لم يتغيب هنوتي عن المشاركة في التمرينات القتالية. لم يركن قط إلى إراحة نفسه، وذلك ليكون قدوة حسنة لرجاله. ولهذا السبب كانوا يحبونه وعلى استعداد لخوض النار والجليد من أجله. وكانت كلمة مديح من فمه تلهب الرجال إلى أقصى درجات

الإنجاز. وكان بصفته قائداً ينتهز هذه الفرص ليراقب كفاءات كل منهم. كان يعرف كل أفراد مجموعة الحرس وأغلب أفراد الفرقة بأسمائهم، ويعرف نقاط قوتهم وضعفهم. وقد عامل تالزو كسائر الآخرين، وأحياناً بحزم أشد قليلاً. بيد أنه كان يتابع تطوره باعتزاز كبير. ولا شك في أن الشاب كان يشق طريقه بشجاعة. لقد برزت عضلات جسمه وكان يقاتل بتعقل وتدبر، كي لا يهدر طاقته، سواء بالقوس أو بالسيف أو بالرمح. وكان لا بدّ من الانتظار لمعرفة ما إذا كان تدريبه كافياً لمعركة حقيقية. حاول أن يتناسى حالة الطقس التي لم يكن معتاداً عليها قط، علماً بأن هنوتي قد لاحظ مرات أن البرد الرطب يؤثر فيه أكثر من غيره. لم يعد يصعب عليه فكّ العربة القتالية وتركيبها، بعد أن استوعب طريقة بنائها. أما قيادتها بنجاح، فمسألة تحتاج إلى وقت. وأكثر ما أفرح هنوتي هي قدرة تالزو - مثله - على التعامل مع الجياد بجودة لافتة، رغم أنه لم يسبق أن خدم قط في اصطبل. وإذا ما داهمته الهموم والحنين إلى الوطن، كان بارعاً في إخفاء الأمر. وكان زملاؤه يقدّرونه ويحترمونه. وأثناء حديث عمل بين هنوتي والنقيب المسؤول عنه، أشاد النقيب بقدرة تانوا على حل الخلافات والنزاعات، وأشار إلى إنصات زملائه لما يقوله. وبهذا بات هنوتي راضياً عن ربيبه من الجهات كافة؛ فلا شك في أنه سيسترف القصر. فقرر أن يصحبه معه حتماً إلى حتوشا، ولم يعد راغباً في أن يفترق عنه. وإنه لأمر غريب أن يختار الفتى لنفسه تحديداً اسم تانوا. أهو حدس؟ أهو وحي؟ لم يرغب هنوتي أن يشغل ذهنه بالأمر.

تساءل تالزو في نفسه عما إذا كان خاله راضياً عنه. أحياناً كان يتراءى له أن نظرة خاله تستقر عليه لبرهة أطول من نظراته إلى الآخرين. غير أن هذا قد يكون وليد الخيال أو الرغبة الذهنية. كان المديح أو التقرير يشمله كالأخرين من دون تفریق. وقد توقف عن ذكر الموضوع أمام مورسيلي، كي لا يتقل على صديقه.

بعد الحديث الشخصي بينه وبين هنوتي في الخيمة، لم يلتق به على انفراد ثانية. وكان راغباً في معرفة رد فعل والديه على اختفائه، لكنه كان يرجح أن هنوتي سيخبره في حال وصول رسالة منهما مع الساعي. ولم يكن بمقدوره طرح أسئلة شخصية عن الظروف المعيشية لخاله، وخمّن بعدم وجود أحد في پوروشخندا من عائلة هنوتي، وبالتالي من عائلة أمه. بدا أن لا زوجة له ولا أولاد، إذ لم يأت ذكر الأمر على لسان أحد، رغم كثرة ما تتطرق إليه الألسن. ولم يكن بوسعه كذلك سؤاله عما يخططه لمستقبله، وهذا الأمر تحديداً كان شاغله الأول. إنه لا يريد الانخراط في السلك العسكري، فهل عليه أن

يخوض مرحلة التأهيل كاملة؟ ولكن هكذا بدا الأمر حالياً. تُرى أليس بمستطاعه تقرير أمره بنفسه أبداً، لأنه قد سلّم أمره لخاله؟ عندئذ سيكون كمن انتقل من تحت الدلف إلى تحت المزراب، من دون فرصة لتقرير مصيره بنفسه، ولأن يمارس ما هو قادر عليه ويحبه. لربما كان أكبر حالم في الدنيا. لكنه لن يستسلم دون كفاح، ولن يترك وسيلة إلا ويجربها، كي يقترب من هدفه ما أمكن. وأقسم على أن يفعل كل شيء، كي لا يترك لهنوتي مجالاً لانتقاده من أية ناحية، على أمل أن يحصل على كامل رضاه. ومن ثم فإنه سيتهز الفرصة القادمة حتماً ليعرض موضوعه عليه.

وقد جاءت هذه الفرصة على نحو مفاجئ جداً.

كان تالزو قد تعلّم بعض أمور أنظمة القتال الحثيية، وهو موضوع له المكانة الأولى في مملكة قيد البناء، لن تكفي بعقد اتفاقيات ذكية فحسب، بل عليها أن تكون قادرة على إخضاع العدو في ساحة القتال أيضاً. وهنا يأتي في المقام الأول العربية القتالية السريعة والخفيفة الوزن، بحيث يستطيع جندي واحد حملها مفككة، حسبما رأى تالزو على الطريق إلى پوروشخندا. هذه العربية يجزّها حصانان ويركبا إما جنديان أو ثلاثة: سائق يحمل ترساً يحمي به نفسه ورامي السهام، أو سائق ورامي سهام وحامل الترس الذي يستخدم حربة في القتال القريب. وراء العربات يتقدم جنود المشاة بكامل أسلحتهم ورماة السهام. وكان بدهياً أن النخبة يشكلها مقاتلو العربات الذهبيون - هكذا يُلقب سائقو العربات - لا بسبب الأكلاف وحدها طبعاً، فكل سائق عربية يرتي حصانيه بنفسه. وهذا أمر مكلف وطويل الأمد. كانت الخيول الضرورية تُجلب من كيزواتنا ومناطق أخرى في المملكة، وتخضع لتربية خاصة، ثم بناءً على خطة محددة، تُدرب الخيول إما لتجرّ عربية قتالية وإما للمركوب من قبل سعاة البريد، وليس في ساحة القتال.

أحبّ تالزو وجوده في الاصطبلات، إذ كانت الخيول الأصيلة تهبجه. إضافة طبعاً إلى دفء الاصطبلات. وحتى ذلك الحين لم تكن له علاقة مباشرة مع الخيول إلا لماماً، لكنه اهتم بها جداً من الناحية النظرية. هذا ما حكاه ذات يوم لمورسيلي وميتا في أثناء خدمتهم في الاصطبلات. كان يَحسّ بالفرشاة القاسية حصانه المفضل المدرب للمركوب، والذي تعلّق به إلى حد كبير، لدرجة أن صار يصهل مرحباً به كلما دخل الاصطبل.

«يبدو أن الحصان قد عشقك فعلاً!». قال ميتا وبدأ شغله.

«لأنني أعرف ما يحتاجه وأجيد التعامل معه. وهذا يسري أيضاً على خيول جر

العربات».

«ما هذه الحكاية الجديدة تانوا؟ ألم تحاول إقناعنا بأنك لم تتعامل مع الخيل قط سابقاً فما الصحيح الآن؟».

«كلاهما صح يا صديقي، كلاهما».

«هات إذاً، احكِ! لا أظنك تتصوّر، كم هي مكلفة تربية الخيول!».

«اسمع إذاً المهم أن يكون عندك جياذ وأفراس جيدة للتدريب، وأن تعرف من أين تحصل على مثلها - من موطني مثلاً - لأنها الوحيدة التي تصلح لجر عربة قتالية. ويجب أن تكون قادراً على دفع ثمنها. عندما يصبح عمرها أربع سنوات، يبدأ التدريب، ولا يجوز قبل ذلك أبداً. خيول الجر تُدرّب من ثم لمدة سنة على السير بالجبل، ولستين بعد ذلك على جر العربة. يجب على الخيول أن تكون قادرة على التأقلم مع حالة الجر، سواء في الحرب أو الصيد أو الاستعراض أو المواكب و..».

كان ميتا يستمع إليه فاتحاً فمه دهشة، ثم اقترب منه مورسيللي قائلاً:

«توقف عندك! كفاك تعالماً علينا أيها المدعي. أريد الآن وفوراً أن أعرف، من أين حصلت على هذه المعلومات؟».

«وأنا كذلك؟!». كان ذلك صوت هنوتي.

نقز الثلاثة معاً. لم يتبهاوا إلى وجود أحد سواهم في الاضطراب، فما بالك بالقائد العام نفسه. تقدم هنوتي منهم، التفت إلى تالزو وقال: «أريد أن أراك بعد أن تنهي عملك!».

وغادر.

«أكان ذلك جيداً أم سيئاً؟ من صوته وسلوكه لم يكن من الممكن استنتاج ما إذا كان غاضباً أم مسروراً أم حيادياً وحسب».

تابعوا عملهم صامتين ولكن بانتباه. بعد مدة كان مورسيللي من كسر الصمت بقوله: «اللوم الوحيد الذي يمكنه توجيهه إليك وإلينا أيضاً، هو أننا كنا نثرثر، أليس كذلك؟ وأنت لم تقل أشياء سخيفة، بل بالعكس».

«قل لنا الآن، من أين عرفت كل هذه الأمور؟ وإلا سأفقع من الفضول!».

«الأمر في الواقع بسيط جداً. عند أمي، بين كتبها في بيتنا، نسخة من كتاب حثي قديم، يتحدث بالتفصيل عن تربية الخيول وترويضها وتغذيتها وتدريبها، ولا سيّما خيول الجر. مؤلفه معلّم في سياسة الخيل، وأنا قرأته، لا أكثر».

«قرأته؟ يا رجل! يا رجل! أيها الأرباب ارحموني!». علق ميتا، ثم تنهد وقال: «لا تقل إنك تعرف الكتابة أيضاً؟».

«أعرف طبعاً!».

قرر تالزو تلبية طلب هنوتي بأسرع ما يمكن، ففي هذا تحقيق للقاء المنشود وجهاً لوجه منذ مدة طويلة. هكذا أمل على الأقل.

كان هنوتي يقيم في جناح خاص من القصر الغربي. وهو أحد القصرين اللذين جُهِزَا للإقامة مؤخراً، ولم يسبق لتالزو أن دخله. الواجهة الملساء الكتيمة التي سار على طولها، تخللتها ردهة معمّدة متقدمة، يوجد المدخل الرئيسي فيها. أبلغ تالزو الحرس بمراده، فرافقوه إلى حجرة صغيرة، كان يجلس فيها عدد من الرجال، تعرّف تالزو على اثنين منهم خلال الرحلة، وكانوا يتسلّون بإحدى ألعاب الرقعة. قال له أحد الحراس: «انتظر هنا!». وغاب. عاد بعد قليل وقال له: «اتبعني الآن، سأقودك إلى القائد العام!».

تلقت تالزو حوله. في الطابق الأرضي تالت واحدة بعد واحدة غرفٌ مربعة الشكل. بعضها للشؤون الإدارية، ثم غرف عمل الخدم وإقامتهم، ثم غرف مؤونة ومستودعات جناح المطبخ، ثم قاعة اجتماعات واسعة تُذكر بقاعة عرش، ومن بعدها تكرر المشهد السابق. كانت الوحدات المعمارية ترتبط في ما بينها بدهايز، وكانت هناك عدّة فسحات داخلية صغيرة كمصدر لإضاءة الغرف التي تحدّها. ثمة رجال يتابعون أعمالاً ما، يتحركون هنا وهناك، وجنود وضباط وخدم وموظفون. ترى هل يوجد هنا نساء أيضاً؟

قاده الحارس عبر أحد الأدراج الضيقة إلى الطابق الثاني، حيث توجد غرف معيشة هنوتي. هذه لفئة مهمّة، فهنوتي سيستقبله في الجناح الخاص وليس في أحد المكاتب. أخذ تالزو شهيقاً عميقاً. وأخيراً توقفاً أمام باب عالٍ، وقال له الحارس: «ادخل، إنه بانتظارك!».

شكره تالزو وفتح الباب. دخل غرفة واسعة نسبياً، فقيرة الأثاث، لكن دفاء مجدر، الفحم الضخم بناره التي تنثر جعل جوّها محمولاً. شدّ معطفه حول جسمه بشدة وانتظر، إذ لم يكن في الغرفة أحد.

«اقترّب من النار!». قال هنوتي داخلاً من مخدع جانبي صغير، وأردف: «اجلس. أتريد أن تأكل شيئاً؟ أنتم الشباب جاعون دائماً!». صفق بيديه عالياً وأعطى تعليماته للخادمة

التي دخلت، ثم قال لتالزو ضاحكاً عندما لاحظ نظراته المتنبّهة: «إنها جميلة، أليس كذلك؟ خذها!». وناولها قدحاً مملوءاً بشراب ساخن ذي رائحة طيبة. أخذه تالزو وارتشف نبيذاً مبهراً وممزوجاً بالعسل. أغمض عينيه. لقد ذاقه في البيت مرات، دون أن يبالي به. أما الآن فقد بدا له أن الأرباب أنفسهم لن يحصلوا على أفضل منه. كان وزملاؤه يحصلون مع الوجبات على جعة لا بأس بها، لكنها لا تقارن بجعة زَمَرِ الممتازة القوية بكحولها، والتي لم يجربها سوى مرة واحدة أثناء المأدبة الملكية في أدانيا. وهذا يعود إلى غابر الأزمان.

أخذ هنوتي يراقب ابن أخته. لا شك في أن تانوا منذ هروبه من البيت قد تخلى عن كثير من رفاهيات العيش التي ألفها. لكن هذا حتماً لم يلحق به أي أذى. أليست المتعة الآن أشد تأثيراً؟

أحضرت الخادمة أرغفة خبز طازج ساخن وصحوناً مملوءة بالزيتون والحمص المهروس (المسبّحة) والجبن والفواكه المجففة.

«أليست كنتراً؟». وغمز هنوتي باتجاه الخادمة، التي لم يخطر في بالها أن تستجيب، ثم قال لها بحيوية: «عودي لاحقاً يا حمامتي الصغيرة!». ثم ملاً صحنه من كل الأنواع وأشار لتالزو كي يحذو حذوه، فلم يتمنع أبداً. وأثناء تناول الطعام بدأ هنوتي الحديث.

«الملك، كبير قادة العربات القتالية، سيفرح بك فرحاً شديداً. فأنت لا تُحسن التعامل مع الخيل بصورة ممتازة وحسب، بل وعندك القدرة الضرورية على تفهّمها. كما أنك كما يبدو تمتلك معرفة جيدة حول تربيتها وترويضها، لأنك نشأت في كيزواتنا»، وقال الجملة الأخيرة بسرعة ليستبق إشارة تالزو إلى أهم بضاعة للتصدير من وطنه ثم تابع: «حك لي، كيف حصل هذا؟ حتى الآن كنت أتصور أنه ليس ثمة ما يشغل بال العجوز إحيًا سوى مخزن البضائع!».

ارتبك تالزو. ما هذه الطريقة التي حكى بها هنوتي عن أبيه؟ ثم تذكر أنهما أصدقاء منذ الطفولة، فاسترخى قليلاً، لكنه بقي متنبهاً. لم يكن لديه أي تصور عن المسار الذي سيأخذه الحديث، فحتى الآن كان خاله تجاهه غير واضحٍ من حيث الموقف، أما بصفته رئيساً فقد كان واضحاً تماماً.

«منذ الصغر كنتُ أحب أن أتعلم وأن أعرف، وأمي دعمت ميلي هذا. كانت تتكلم معي بالحيّة ولقنتني بدايات القراءة والكتابة، وكانت في السنوات اللاحقة ترشدني دائماً إلى نصوص معينة من مكتبتها -معظمها نصوص دينية- وذات يوم وأنا أفتش الرفوف عثرتُ على رُقْمِ مدرّب الخيل. هكذا كان الأمر».

استعداد هنوتي في ذاكرته جيداً، أنه كلما سُئلت أخته عما ترغب في إرساله إليها من حتوشا، لم يكن لديها سوى رغبة واحدة: كتب من كل الأنواع. وكان هذا مفهوماً إلى حد بعيد، فمَنْذ يفاعتها كان مخططاً لها أن تلتحق بخدمة المعبد، وهذا يشترط إتقان القراءة والكتابة، لكنها من ثم صارت زوجة وأماً. وحتى إحياء نفسه كان يجلب من زيارته لبلد زوجته، كتباً دائماً، ويُظن أنه كان يرشو بعض الكتبة لينسخوا له كتباً معينة. وهذا يعني أن ولع كالي بالكتب جاء لمصلحة ابنها تالزو.

التقط هنوتي الخيط ثانية بقوله: «أي أن موهبتك قد تزوجت مع أساس نظري متين. عليك التفكير بتأهيلك لتصير محارباً على عربة قتالية. من يدري، فقد تترفع بمساعدتي لتصبح بسرعة واحداً من مقاتلي العربات الذهبيين. وعند ذلك لن تكون فقط مسؤولاً عن مجموعة كبيرة من المحاربين وتدخل المعركة إلى جانبي، بل تصير عضواً في مجلس الأعيان ومجلس الشيوخ، ويصير عملك لصيقاً بالملك. وهذا هو ما تتمناه لنفسك!».

«هذا صحيح. كنت دائماً أتصور أنه سيكون رائعاً أن أكون في خدمة الملك، ولكن ليس كمحارب!». كان صوت تانوا ثابتاً وهو يقول ذلك.

«لكنك تتقدم بصورة ممتازة. راقبتك مرات عديدة، أكثر مما تتوقع، وسألت النقيب عنك. وقد شهد لك بالقدرة الكبيرة والإقدام في جميع أنواع التدريب، وأكد استعدادك الدائم لتحمل الصعوبات. ففي حين كان بعض الآخرين يتخاذلون ويتكاسلون أو يمارضون أو يجنحون إلى الراحة، كنت أنت دائماً تتحمل بصلافة. وأنا راض عنك للغاية!».

أخذ تانوا يسخن ويبرد. ها هو ذا المديح الذي تاق إلى سماعه. وليس هذا فحسب، فلقد عرض عليه خاله حمايته الكاملة، وعلى نحوٍ كان يستبعده حتى الآن قطعياً. وللحظة خطر بباله أن خاله يختبره فحسبُ بهذا الكلام، إلا أنه لم يصدّق الفكرة، لأن هنوتي كان يبدو فعلياً فخوراً إلى حدٍّ ما بأن يكون هذا الشاب ابن أخته. ثمة احتمال كبير إذاً لبلوغ مكانة رفيعة، بشرط أن يكون أداؤه في المعارك مثله في التمرينات. ولا شك في أن هذا سيساعده على الصلح مع أسرته، ولا سيما مع والده. ولكن هل ينبغي تعلّم مهنة تجلب الموت للآخرين؟ لا، ثم لا. بل يريد أن يبذل كل ما في وسعه لجعل القتل فائضاً عن الحاجة. فهل يجرؤ ويخبر رئيسه وقريبه بالحقيقة؟

صمت هنوتي مدة طويلة، تاركاً المشاعر المتناقضة في نفس تانوا تنهي معركتها، كما يبدو جلياً على وجهه. نظر تانوا في وجه هنوتي نظرة صريحة وقال: «لست مثل..»،

وانحسبت الكلمات، ثم استعد مجدداً وقال: «إني لا أحب القتال أبداً، وأمارسه ضد قناعتي!».

لم يصدق هنوتي أذنيه. ماذا يتخيل هذا الفتى؟ أنا ذراع الملك اليمنى الضاربة سنة وراء سنة في المعارك من أجل المملكة، أنا الذي أضحي بنفسه يوماً في سبيلها، ويعارضني ا حاول جهده أن يبدو مسترخياً، مع شعوره بفوران الغضب في داخله.

«أها، عجبي، عجبي. المقاتل المتمرس يتكرم علينا من حكمته. ما معنى هذا؟ أحتاج القتال إلى رغبة وقناعة؟ إنه بكل بساطة ضرورة وحسب. وإلا فكيف ستسكت خصومك وأعداءك؟ نورني!».

«مع كل الاحترام يا خالي، أنا أعتقد أن هناك وسائل وطرقاً أخرى. فلماذا لا تكون هذه الإمكانيات الأخرى مفيدة أيضاً للمملكة؟ ألم تُبرم اتفاقات كثيرة مع ملوك آخرين من دون أية مواجهات عسكرية؟».

«طبعاً لا بدّ من تجنّب سفك الدماء إن أمكن ذلك. ولكن ليست هذه هي المشكلة. ما الحاجة إلى هدر قوى عاملة ثمينة، إن لم يكن ذلك ضرورياً. ولكن غالباً لا يوجد سوى هذا الحلّ! فكّر بمملكة ميتاني! فكّر بالكشكيين! وبوسعي أن أضيف كذا بلداً وكذا شعباً. نحن بحاجة إلى الأرض لكي تزدهر المملكة. نحتاج إلى حدود آمنة، لنتمكن من العيش في سلام. وهذا لا يأتي من الهواء، هكذا ببساطة. مشكلتك أنك لا تعرف شيئاً في هذه المسائل!».

«لست واثقاً من ضرورة قتلي لإنسانٍ ما، كي أعرف لاحقاً أن الأمر لم يكن صائباً».

«حتى الأرباب يخوضون معارك، فكّر بريتكم شاونغا!». وازداد هنوتي غضباً.

«إنها ربة حرب من المقام الثاني، لكننا نعبدها بصفحتها في المقام الأول ربة الحب».

إنه ببساطة لا يُحتمل. هذا الفرخ لا يكف عن النقاش، لم يفقس من البيضة بعدُ ويعرف كل شيء أفضل منك. لم يمر على هنوتي شيء من هذا القبيل سابقاً. كان لا بدّ من أن يتمالك نفسه، كي لا ينفجر. لكنه لن يستسلم لعملية التعرية هذه بأي حال من الأحوال، وهو الذي يعدّ واحداً من أهم رجال المملكة! ضبط نفسه وهذاها، شرب جرعة نبيذ وقال:

«ورغم ذلك يدعم الأرباب الحرب، ويسبقون الجيش دائماً إلى أرض المعركة! وإذا كانت المملكة في شدّة فإنهم ينخرطون في المعركة مباشرة، بأن يثيروا العواصف ويرسلوا البروق، أو بأن يبتلوا الملك الخصم بالأمراض. أليس هذا تعبيراً عن إرادتهم؟».

«وكم من المعارك تُخسّر؟ فعلامٌ يدلّ ذلك عندها؟».

«تاناوا! إني أحذرك!». صار صوت هنوتي هادئاً إلى حد الخطر، وتعكّر مزاجه بصورة قصوى، وبان ذلك في ملامحه وصوته: «لا تتماذا! لا تأثم في حق الأرباب! يُحتمل أنك أجبين من أن تواجه العدو رجلاً لرجل!». وبذلك انتهى النقاش.

في تلك الليلة نام هنوتي بصورة سيئة. وضجيجته التي ظهرت حسب أمره بعد مغادرة تاناوا، طردها، مع شعوره بالأسف لخيبة أملها الجلية. رغم طبيعتها الجافة كانت تحبه بإخلاص، وقد أثبتت ذلك لهنوتي مرات عديدة. وكان من عادته أن يتقبل عاطفتها شاكرًا. أما اليوم فقد أراد البقاء وحيداً ليفكر.

لماذا لا يجد المدخل الصحيح إلى تاناوا؟ كلما التقيا، بدا الأمر واعدًا جدًّا، ليتهي من ثم بغضب الطرفين. لماذا يتعمت الفتى بهذه الصورة؟ لقد قدم له عروضه، فرفضها، بصورة تكاد تكون وقحة.

في صباح اليوم التالي كان غضب هنوتي قد خفّ، لكنه لم يخمد بعد. وبدلاً من أن يلتفت بتركيز إلى المهام المتوجب عليه القيام بها، أخذ يذرع القاعة جيئةً وذهاباً بقلق وسوء مزاج وحيرة في ما عليه عمله. حرّكه حافز ما، فتمنطق بسيفه وغادر القصر، محاطاً بنظرات مرؤوسيه المندهشة، الذين كانوا بانتظار تعليماته. هواء الشتاء النقي البارد سيفيده لا شك. كان نهراً مشرقاً. في البعيد انتصب جبل النار بفوهته المستديرة مغطى بالثلج.

وجّه هنوتي خطواته نحو ساحة التدريب، حيث بدأت التدريبات منذ مطلع النهار. بناء على إشارة من النقيب المشرف توقف الجميع وأنزلوا أسلحتهم تحيةً لقائدهم العام. كان هنوتي في العادة يمازحهم أو يشجعهم ببعض الكلمات، يعطي ملاحظاته، يصحح، يوبخ أو يمدح. أما اليوم فإن وجهه العابس لم ينبى بخير.

«تابعوا!». قال ذلك بصيغة الأمر. وقف جانباً في مكان مرتفع قليلاً، واستعرض بنظره جمع المتدربين الذين عرفل وجوده حرية حركاتهم، فصمتوا وتابعوا الاشتباك بأسلحة التدريب. وبعد برهة قصيرة زمجر غاضباً: «إلى أين سيوصلنا هذا برأيكم؟ أهذا كل ما تقدرين عليه؟ لا شك في أن عدوكم سيسر بمواجهتكم، لأنه سيوجد لكم كعبدان القش. أعطوني انتباهكم الآن وانظروا كيف يجب أن يكون القتال!».

تقدم هنوتي إلى وسط الحلقة التي شكلها المتدربون بسرعة فائقة، فالكل كان يعرف

أنه لا مزاح بتاتاً مع حاكم البلاد السفلى والقائد العام للقوات المسلحة الحثية، ولا سيما في مزاجه هذا.

«تقدم أنت!». قال أمراً مشيراً نحو تانوا.

«أعطه سيفاً حقيقياً!»، أمر النقيب بحزم واستل سيفه من غمده.

هيمن السكون على الحلقة الآن، بحيث بات يُسمع صوت ريشة ساقطة. حبس الجميع أنفاسهم. ميتا ومورسيلي شحبا وصارا بلون الكلس. من جميع الموجودين لم يقع خيار القائد إلا على تانوا ليطبّق عليه ملاحظاته. أيها الأرباب، ساعدونا!

وقف هنوتي وتانوا متقابلين. أخفضا سلاحيهما كتحية متبادلة، مثلما يليق بالسادة الأشراف. كان هنوتي يتمسك بالقواعد جميعها بشدة، ولم يتراخ بأي منها بسبب تانوا، الذي كانت ضرباته الجيدة مدعاة للدهشة. وتدرجياً نسي زملاؤه من يبارز من، وصاروا يشجعون تانوا بصيحات عالية، ولكن بمرور الوقت لم يفده التشجيع شيئاً. لم يكن بمقدوره التجلد طويلاً في مواجهة هذا البطل المعجب. أخذت مقاومة ساقيه تتراجع شيئاً فشيئاً، كلما ازداد بذلاً للطاقة. ولم تعد مناوراته تكفي لتفادي الجروح التي أخذت تتكاثر الواحد تلو الآخر. صحيح أنها لم تكن خطيرة، لكنها مؤلمة. وأخيراً تعثر وهوى أرضاً. وفي التو واللحظة ارتدّ هنوتي عنه وأعاد سيفه إلى غمده. تبادلنا نظرة طويلة.. الشاب ملقى على أرض الشتاء الباردة وهو يتنفس بصعوبة، والمنتصر فوقه من دون دلالة واضحة على الجهد الذي بذله.

وأخيراً التفت هنوتي عنه ورفع نظره إلى الآخرين الساكتين وقال: «هكذا يكون القتال! اعتبروا زميلكم مثلاً، أيها الخرعون».

كان موضوع الحديث أثناء تناول طعام الغداء المبارزة الإيضاحية بين الاثنين، رغم غياب الشخص الرئيسي تانوا. لقد ساعده كل من ميتا ومورسيلي، إذ لم يكن قادراً على النهوض وحده، فحملة الصديقان إلى سريره في المهجع، ووافاه ميتا بحساء ساخن من المطبخ، لكنه لم يرتشف إلا القليل منه. كل ما أراه هو أن ينام.

في الليل أصابته قشعريرة. استيقظ مورسيلي على أنين صديقه الذي كانت أسنانه تصطك بشدة. فردّ فوقه معطفه الدافئ؛ دونما فائدة. كانت جبهته حارة مثل النار، ونتيجة شعور مورسيلي بالعجز استلقى إلى جانب تانوا كي يبيت فيه الدفء، منتظراً برعب انبلاج

الفجر. ساءت حالة تانوا، فقرر مورسيللي إعلام النقيب المشرف. الجروح السطحية التي أصابت تانوا بقيت من دون تطهير، وهي بالتأكيد مؤلمة. لكن معرفة ذلك لم تكن ممكنة، لأن تانوا كان عاجزاً عن التعبير عن نفسه.

هز النقيب المشرف كتفيه مستخفاً بالأمر كله، بعد سماعه تقرير مورسيللي، وقال: «على تانوا الطيب أن يتحمل. لا يمكن لهذه الجروح السطحية المعدودة أن تكون بهذه الخطورة. سيشفى بسرعة. دبر له مشروبات ساخنة!».

احتار مورسيللي في أمره. كان واضحاً له أن تانوا لا يعاني فقط نتائج المباراة. فهذه الحمى الشديدة لا تتأتى فقط عن المباراة بالسيف. لربما كان الانتظار هو الحل. حاول مورسيللي أن يسقي تانوا جعة ساخنة، ثم دبر حجراً ساخناً وألصقه بقدمي تانوا المتجمدتين برداً. لم يكن باستطاعته أن يفعل الآن أكثر من ذلك، إذ عليه أن يبدأ خدمته. لكن قلقه على صديقه لم يفارقه. فماذا إن تدهورت حالته؟ هو الوحيد في الكتيبة الذي يعرف أصل تانوا وصلة القرى بينه وبين هنوتي. أفلا يجب عليه إطلاع القائد العام على وضع ابن أخته؟ قبل حلول المساء تمكّن مورسيللي أن ينسلّ قليلاً من الخدمة. وجد تانوا مستلقياً بهدوء، ولكن بدل الحرارة العالية كان جسمه كله بارداً. هزه مورسيللي وناداه باسمه، لكن تانوا لم يتحرك ولم ينبس ببنت شفة. وضع أذنه على صدر تانوا، فسمع قلبه ينبض ولكن بضعف. «كيف حاله؟»: سأل ميتا الذي دخل لتوه.

«إنه فاقد الوعي، لكنه حيّ. ابقَ إلى جانبه ميتا ودفئه بقدر ما تستطيع. سأعود حالاً». بعناد وعبوس مر مورسيللي على حواجز القصر كلها. لا بدّ من أن يكلم القائد العام وجهاً لوجه، وهو لا يريد أن يذكر السبب للحرس. سخر الحرس منه وطرده، لكنه بقي في مكانه، مبتهلاً إلى الأرباب حفظ حياة تانوا، وأن يتفهم أحد الحرس حاله ويسمح له بالمرور. أخيراً كوفى صبره وإصراره. أخذه أحد الخدم معه إلى الطابق الثاني. وهناك نجح في إقناع خادمة، تقدم وجبة المساء لهنوتي، بأن ترجوه الإصغاء إليه قبل فوات الأوان. أخيراً فتح له الباب، فاندفع داخلاً الغرفة التي تناول فيها هنوتي الطعام البارحة مع ابن أخته. ومن دون أن ينتظر سؤال هنوتي له، ركع أمامه وشرح له وضع تانوا.

«ما اسمك؟». أراد هنوتي أن يعرف، وعندما سمع اسم هذا المندفع من أجل تانوا، قال: «من المطمئن أن أعرف أن لتانوا صديقاً مخلصاً يُعتمد عليه. اذهب الآن، سأهتم أنا بكل ما هو ضروري!».

هز مرضٌ تانوا هنوتي أكثر مما كان يتوقع. تلاشى غضبه بصورة كاملة. شعر بقلق شديد بشأن علاقته بالفتى الذي بات في وصايته. هل ستحسن الأمور حقاً، حسبما وعد مورسيلي؟ ماذا إن كان الأرباب... ومنع نفسه من متابعة الفكرة.

لقد تبارزا بالكلمات وتقاتلا بالسيوف. أما حان الوقت للوثام؟ عندئذ لا بدّ لتانوا من أن يتنازل ويدرك أنه كان يفكر في مصلحته. ولكن ألم تكن رغبة هنوتي الذاتية التي أراد فرضها، هي أن يصير تانوا مقاتلاً، مثله؟ كي تتحدث الأجيال القادمة عن سلاله المحاربين الشهيرة. أكان الوعد برعايته نابعاً فقط من غروره بنفسه، رغم أن هذا يتعارض مع مبادئه تماماً؟ لا ضرورة للرعاية، عندما يثبت المرء نفسه دفاعاً عن موقفه. طبعاً ما كان لهنوتي أن يغيض النظر ويسكت عن الطريقة التي وصف بها تانوا حرفة الحرب، فهم ليسوا قتلًا إنهم يمارسون عملهم في سبيل الأرباب الذين يدعمونهم. ولكن أما كان عليه، على الأقل، أن يحترم موقف تانوا؟ فهو حقاً ليس جباناً. لقد أدرك هنوتي أن اتهامه لم يكن مبرراً، وأن رد فعله كان عنيفاً. لقد أخرجه الفتى عن طوره بسهولة، كما كان يحدث أيام شبابه؛ فقد كان حاد المزاج سريع الغضب. لكن الطبع الحامي شرط لا بدّ منه لمن يريد أن يكون مقاتلاً متميزاً. إنه يدور في حلقة مفرغة. متى كان الأغرار يقررون بأنفسهم مستقبلهم؟ ليس على الغرّ أن يحذو حذو أبيه؟ - هراء، قال هنوتي لنفسه. على الإنسان أن يجلس في المكان الأنسب لمؤهلاته. هل أخذ هو مهنته عن أبيه؟ لا، وهذا السؤال لم يطرح في حينه من الأساس: والد الملك الحالي كان بحاجة إلى كل رجل للدفاع عن مملكته المستباحة المغزوة. منذ اليوم الأول الذي قدر فيه على حمل السلاح، دخل هنوتي المعركة وراء الملك تودهااليا إلى جانب شويليوليوما الذي يماثله سنًا. بعد ذلك قادا حملات أخرى وحدثهما، لأن الحرب كانت مفتوحة على عدّة جبهات ضرورية على حدود المملكة.

تابع هنوتي محاولة تنظيم أفكاره. ألا يحتمل أنه ببساطة يريد الاحتفاظ بتانوا قريبه؟ وعند ذلك يستطيع أن يوليه عناية أكبر وأن يراقبه، وهذا سيرضي أخته. أفلم توصه به؟ ولكن ربما كان هناك سبب مختلف تماماً لعدم رغبته في الانفصال عنه. أيجبه يا ترى؟ صعب على هنوتي الإقرار بهذه الفكرة، فهو محارب خشن، قدوة تُحتذى لأتباعه، ودعامة الملك الرئيسية. لهذه الأسباب معاً كان يتجنب دائماً إبداء مشاعره، أو أن يرتبط بأحد، بأي أحد إطلاقاً. ولكن لا بدّ الآن من أن يعترف لنفسه بأن تانوا قد احتل مكاناً في قلبه. إنه معجب به وفخور به ولسوف يساعده. لقد حسم أمره واتخذ القرار بأن يوصل تانوا بكل الوسائل إلى المكان الذي يجد نفسه فيه سعيداً ومفيداً. حتى ولو كان في ذلك خطر أن

ينفصلا أحدهما عن الآخر. ولو تعلق الأمر بهنوتي وحده، لما انفصلا ثانية أبداً. وأقسم على ذلك بالربة ترهونا. لا بدّ للأرياب من أن ينقذوا حياة هذا الفتى البريء وسيحاول استعطفهم بأصحياته.

حالما يستعيد تانوا قواه سينطلق هنوتي نحو حتوشا، كي لا يطيل انتظار الملك له. وسيستشير في أمر تانوا. أنسب مكان له من وجهة نظر هنوتي، لدى كبير الكتاب الذي يمسك بالشؤون الإدارية للمملكة ويشرف على المراسلات الدبلوماسية والعلاقات الخارجية كلها. وهو يفضل أن يتلقى تانوا تعليمه هناك، ثم ينتقل للعمل في خدمة الملك، وخدمته مراسلاً حربياً و مترجماً أو مرافقاً للبعثات الدبلوماسية والحملات العسكرية. فيتعرف بذلك على المملكة كلها وحدودها، ويكون لنفسه فكرة عن البلدان التابعة لها، وعن الأعداء على نحو خاص. ممتاز! لم يبق سوى أن يشفى تانوا بسرعة.

عند انبلاج الصباح غادر هنوتي پوروشخندا القارسة مع بعض ضباطه وتانوا ومورسيلي وكتيبة المرافقة ومجموعة الحرس الخاص. لم يبق الكثير حتى هلال بداية الشتاء، وكان هدف هنوتي الوصول إلى حتوشا في الموعد المحدد للمشاركة في العيد. ناقشوا مطولاً أي مسار للرحلة سيطرقون. المسار الذي يوفر لهم سقفاً آمناً كل ليلة ويمر عبر نيناسا، نيسا، معبر مرأستا، كوسورا وتاوينيا إلى حتوشا، والمعروف من قبل الجميع عدا تانوا، والذي يحتاج إلى أيام كثيرة، قد تتجاوز موعد العيد.

«وما المسار البديل؟». سأل تانوا هنوتي.

«هناك بديلان آخران، وكلاهما أقصر. أولهما السير تقريباً بمحاذاة الشاطئ الشرقي لبحيرة تاتا حتى نهايتها شمالاً، ثم نعب نهر مرأستا قرب تيبوا على الضفة الشرقية، حيث يمكننا التزود بمؤونة طازجة. ومن هنا إما أن نأخذ طريقاً مباشراً نحو حتوشا يؤدي إلى الطريق الرئيسي عند تاوينيا، أو نتبع نهر مرأسانتا باتجاه الشمال حتى تقاطع الطريق الشرقي الغربي ونعطف عنده نحو الشرق. هذا الأخير أطول قليلاً، لكنه مريح أكثر. لكنني لا أريد أن أخفي عنكم أن لكلا البديلين مساوي كثيرة»، ونظر هنوتي في أعين رجاله بجدية.

«مثل ماذا؟».

«المسلكان ليسا معبدين. علينا أن نمتطي دوابنا، لكننا لا نستطيع ذلك طوال الطريق.

هناك مسارب تجبرنا على جرّ الدواب وراءنا من أرسُنْها. ولا فكرة لدي عن حال الثلوج هناك. لكن هذا كله قد يكون الجانب الأقل سوءاً». «والأكثر سوءاً؟».

تَبْقُظ الجميع. أخذ هنوتي نفساً عميقاً ثم قال: «في الصيف الماضي، في منطقة تابيكا في الشمال ألقنا هزيمة كبيرة بالكشكيين اللصوص الأشقياء، واسترجعنا من قبضتهم مناطق كانوا قد اغتصبوها عنوة. لكن المعركة كانت مع قبيلة واحدة من قبائل الكشكيين. وبعد ذلك أبرمت معها معاهدة، لكن بقية القبائل من الأندال، لم تولها أي اهتمام. رجال استطلاعنا أخبرونا مؤخراً أن كثيراً من هذه القبائل بعد الهزيمة قد عادت إلى مضاربها». «إلى مضاربها؟ إلى أين؟».

«بحثوا لأنفسهم عن مراع ومضارب جديدة، في الشرق وفي الغرب، بالتحديد، علم ذلك عند الأرباب. مقاطعاتنا الشمالية الغربية: تومانا وپلا وكلاسما صارت بأيديهم. سيكون أمامنا في السنوات القادمة عبء كبير لحصرهم داخل حدودهم، لا تنسوا هذا! ويبدو أن بعض العشائر قد دخلت تورميّاً واحتلتها بنية استيطانها بقبائل كشكية. وبهذا يكونون قد ضربوا إسفيناً طويلاً في جسم المملكة من شمال پوروشخندا مباشرة. وأخمن أنهم قد توسعوا على الجانب الشرقي من نهر مَرَأَسْتَا، فالنهر ليس عائقاً إذا تجنّب الإنسان مواسم الفيضان ومنحدرات النهر الجارفة. ويشاع أنهم قد احتلوا الطرف الشمالي من بحيرة تاتا، حيث تتاح للمرء أفضل إطلالة على البحيرة كلها، بل ولأبعد منها حسب صفاء الجو. فإذا بالغنا قليلاً يمكن أن نقول إن الكشكيين يقفون عند باب دارنا!».

ساد لفظ غرفة الاجتماع إلى أن قال أحد الضباط: «إذا قرأنا الوضع بوضوح: نحن نجهل ما إذا كان جزء من الطرق غير سالك، بسبب الكشكيين الهائجين الذين يعتبرون الحتّيين عدوهم اللدود. صحيح؟».

بعد نقاش طويل وكثير من الأخذ والرد، اتفقوا أخيراً على أقصر الطرق، أملين ألا يلتقوا وجهاً لوجه بالكشكيين، وأن يتمكنوا من تذليل مخاطر أسوأ البدائل. وقد استحسن تانوا عدم اتخاذ هنوتي القرار وحده ببساطة، بل إشراك جميع الآخرين في حسم الخيار. وهذا بحد ذاته ينم عن ذكاء، فقد توزعت المسؤولية الآن على الجميع بالتساوي، علماً بأن بعض كبار الضباط كان يُحتمل أن يسلكوا على نحو مغاير. وموقف هنوتي هذا عمق قناعة تانوا بسبب تبجيل الجنود قائدتهم على الرغم من صرامته. ففي مواقف الشدة يكون دائماً وببساطة واحداً منهم، يدعمهم مثلما يدعمونه.

أعاد تانوا التفكير مرة أخرى بمجريات الأيام الفاتئة، بالأزمة التي اصطخبت داخله. أكان مجرد كرة لعبٍ بالنسبة للأرباب والبشر؟ أهو ملزم بتنفيذ إرادتهم؟ هل كانت تصوراتته خاطئة؟ وأخيراً أنقذه هنوتي، أطباؤه عالجه، وهو نفسه لازمه طوال الوقت، أمسك بيده وجفف جبينه ورطب شفثيه. واعترف قائلاً: «أنا كنت مخطئاً - لا، لا تقل شيئاً الآن، سنوضح الأمور كلها ونناقشها عندما تتحسن حالتك. أما الآن فما علينا سوى الصلاة لأربابنا الذين بأيديهم مصائرنا، ويحيطون بكل شيء علماً، وعندئذ ستنام بهدوء لتشفى بسرعة».

أطلعه هنوتي على خطته لأن يصحبه معه إلى حتوشا وليحدث الملك بشأنه، كي يلحقه بالإدارة الملكية ليتلقى التعليم الضروري، ولا سيما أنه يمتلك معارف تأسيسية ويتقن عدّة لغات، ولا شك في أن الأمور ستسير بسرعة وسهولة. كما أنه سيتعرف على العائلة. لم يعد الأمر سرّاً: في پوروشخندا بات الجميع يعرف أنه ابن أخت هنوتي، ومنها سيتشر الخبر في الدنيا كلها. وبذلك تحول تالزو نهائياً إلى تانوا.

في هذا اليوم كان تقدمهم ممتازاً. وقبل أن يخلدوا إلى النوم قال هنوتي: «إذا تقدمنا غداً مسافةً تماثل التي قطعناها اليوم، فسنكون قريبين من نقطة مخاضة مراسمنا. وعلى الجانب الآخر من سلسلة الجبال سنكون في مأمن من الكشكيين».

انطلقوا ثانية مع الفجر، ولم يظل بهم المسير حتى بزغت الشمس إلى يمينهم مثل كرة حمراء فوق الجبال المغطاة بالثلج، ثم تسارع ارتفاعها حتى سطعت بكامل بهائها. اتجه بهم الندرِب شمالاً، وكلما تقدموا ازداد توترهم، حتى وإن لم يأت أحد منهم على ذكر الموضوع بكلمة. كان المهم بالنسبة إلى هنوتي ألا يتفرقوا. «من ناحية تحمل الدواب خيامنا وكافة المعدات الأخرى اللازمة للمبيت، ومن ناحية أخرى لا أريد أن أخاطر. فإذا صادف أن التقينا بكشكيين هنا، فمن المهم أن نكون كلنا معاً».

«ما سبب كل هذا الاهتمام بالكشكيين؟ لا أظن مملكة بقوة حتوشا قاصرة عن الانتهاء منهم كمشكلة متكررة. إنهم كما قلت، رعاة رُحّل، يتنقلون صيفاً طلباً للكلا ويقضون بقية الوقت في مضارب كالقرى الصغيرة. يبدو أنهم مسلّحون جيداً ومنظّمون!».

«ليس كل الكشكيين سواء». اكتفى هنوتي بهذه الملاحظة وأصدر أوامره: «سنغيّر ترتيب القافلة. أنتم!». وأشار إلى ميتا وجنديين آخرين: «ستولّون معي الطليعة. أحكمم

يؤمن الارتباط، في حال تخلفت المؤخرة. قم أنت بذلك! وأنتما تحرسان مؤخرة القافلة كي لا نفقد أحداً»، وأشار إلى تانوا ومورسيلي.

«ها إذا!». والتفت إلى تانوا قائلاً: «سنكمل حديثنا عن الكشكين في وقت لاحق، ثمة ما يجب أن تعرفه، ولكن ليس في حديث عابر على الطريق. هيا انطلقوا!».

سارت الأمور كلها من دون معوقات، رغم أن الجزء الأخير من الدرب كان خطراً. وحتى وصلت دواب الحمل وتانوا ومورسيلي إلى مكان المبيت قرب سفح الجبل، كان قد حل الظلام. على ضوء المشاعل جُمع الحطب وأوقدت النار ونصب معسكر بسيط. وسرعان ما حصل كل منهم على حساء ساخن مشبع.

لاحظ تانوا أثناء الطريق بعض الجنود يجمعون حطباً. أما أغصان البلوط الرفيعة وسلخات الخشب الجافة لإيقاد النار، فكانت تؤخذ عادة من نقطة الانطلاق وتُحفظ ككتز. أما كيف يتم إشعالها فكان لتانوا لغزاً، لذلك طلب من الوقاد أن يفسر له العملية.

«انظر، في هذا الصندوق الصغير الخاص، الذي يجب ألا يرشح إليه الماء أبداً، أحفظ المادة السريعة الاشتعال، ويفضّل أن تكون من الصوفان المجفف أو من أي مادة مشابهة أخرى كالخشب الميت وعيش الغراب. تُجهّز هذه المادة أمامك ثم تأخذ حجر صوان قاس وتقده على حجر بوريطس بهذه الطريقة. هل رأيت؟ الحجر الثاني يولد شرارة تشعل المادة. بسرعة الآن أضع على اللهب سلخات مشربة بالراتنج وبعض الغصون الصغيرة، فتشعل النار». وأضاف مورسيلي: «عند الضرورة يمكنك استخدام عصوين أو حجرين، وسيمشي الحال، لكن النار لن تبدو احترافية كهذه!».

الصباح التالي كان مشرقاً ومنعشاً. لكن هطّل الثلج لم يكن مستبعداً. تبعوا فرعاً صغيراً من مراساتنا وتركوا المنطقة الجبلية بأسرع ما أمكنهم. وفي الوادي بدا كل شيء هادئاً ومسالمًا. لم يمروا في طريقهم بأي مستوطنة. عندما وصلوا ثانية إلى مراساتنا الذي كان إلى يمينهم، غزير المياه وعريض المجرى، انعطفوا نحو الشمال وساروا بموازاته مع التيار.

«لم تعد نقطة المخاضة بعيدة!».

«مياه النهر غزيرة جداً!».

«لأن الأمطار كانت غزيرة».

«أتساءل كيف سنعبّر إلى الضفة الأخرى».

«سباحة!».

مل الرجال. والثرثرة استمرت على المنوال نفسه. فجأة دوّت صفره حادة كأنها صوت طائر جارح. وفوراً أشار هنوتي بالتوقف. تانوا ومورسيلي اللذان شكّلا الطليعة اليوم رمحا عائدين وتوقفا عند هنوتي.

«المخاضة هناك.»

«رائع. فلنسرع إذا ولنعبّر إلى الضفة الأخرى!».

«لكنها ليست حرة!».

«ماذا تقصد؟».

«حسبما رأيناه، هناك على الضفتين ناس وقطعان ماشية.»

«حتيون؟ لوثيون؟».

«لا هذا ولا ذاك، حسب الخيام والملابس. لست متأكداً تماماً، لكني أعتقد أنهم كشكيون». أجاب مورسيلي.

«هل رأوكما؟».

«لا أظن!».

«إذاً، لا تعرفان. حسناً»، والتفت هنوتي إلى الرجال وأمر: «خذوا التشكيل فوراً!». وبكل انتظام اتخذ الجنود شكل إسفين، تمركزت دواب الحمل في وسط مؤخرته العريضة محروسة من قبل جنديين وراءها. بقوا هكذا فترة، دون أن يتحرك شيء أمامهم، وحتى المنعطف التالي كان حوض النهر مرثياً جيداً.

«ورطة. لم أتوقع وجودهم على الضفتين معاً. توقعت وجودهم أبعد شمالاً. يحتمل أنهم مرتبكون لوجودنا كارتباكنا لوجودهم. ويحتمل أن تكون تيبوا في أيديهم، رغم أنني لا أتصور ذلك. فهي محصنة جيداً. ولكن مع رعاة خنازير كهؤلاء، على المرء أن يحتاط لكل شيء. فعلى كل حال، قبل وقت غير بعيد غزوا حتوشا نفسها ونهبوها».

لم يسبق لتانوا أن سمع بذلك. أي نوع من البشر هؤلاء يا ترى؟

«علينا أن نفكر جيداً»، تابع هنوتي: «فكرة أن نهاجمهم، لا أحبذها، رغم أنني لم أكوّن لنفسي صورة عن الوضع بعد. لكن وجود خيام وقطعان في حظائر يعني أنهم يبحثون عن مراعى للشتاء حتى على الضفة الأخرى، حيث توفر غابات البلوط وأشجار الأجرح كلاً»

معقولاً. الأمر الآخر هو وجود رجالهم كلهم. حتى إذا كان عنصر المفاجأة لمصلحتنا، فلا يمكننا التغلب عليهم إلا على هذه الضفة. أي أننا لن نستفيد شيئاً.

«علينا التوجه جنوباً إذا».

«لا! لن أراجع بهذه السهولة. الالتفاف سيكلفنا عدّة أيام».

«وهنا قد نخسر حياتنا!».

رمى هنوتي المتكلم بنظرة غاضبة أسكتته. فعلق آخر:

«نحتاج إلى قارب أو إلى طوف، ليس كذلك؟ عندئذ تتمكن من تجنبهم من دون أن تضطر للالتفاف جنوباً».

«بماذا تهرف يا رجل؟ من أين لنا في هذه الضائقة بقوارب أو ظروف منفوخة للعبور. وحتى لو وجدناها، علينا البحث عن مخاضة ملائمة للعبور».

«لماذا لا نكلمهم ببساطة؟».

بعد سؤال ثانوا هذا صمت الجميع، لكن كل واحد منهم أخذ يفكر وحده: نكلمهم؟ هؤلاء المجرمين؟ كيف سنكلمهم؟ هل بيننا هنا من يتكلم الكشكية؟

نظر هنوتي إلى ابن أخته مفكراً. لطالما أدهشه هذا الفتى. كان واضحاً أنه لا يمزح. ففي نهاية المطاف وحسب رغبته، هذا ما سيحدد مستقبله: أن يتحدث إلى الناس، يتفاوض معهم، يقنعهم.

استمر الوضع أمامهم ساكناً على حاله. ليس ثمة ما يُرى أو يُسمع. حدق الجميع في هنوتي منتظرين قراره.

«جرب! إذا فشلت جميع المحاولات، سنضطر لتخليصك بالقوة والهروب جنوباً».

رفع ثانوا يده محيياً قائده واستدار بجواده، فإذا بمورسيلي يقول: «قف. ألا يمكن أن أرافقه؟».

«طبعاً، رافقه أنت وميتا. سنراقب من هنا ما يجري عند المخاضة. إذا نجحتم أعطونا إشارة. إذا تورطتم في مشاكل، تكفي صفرة كالسابقة التي أعجبتني! إذا لم تعودوا حتى المغيب، سنهجم. رافقكم الأرباب!».

لم يضطر الرجال إلى الانتظار طويلاً، فقبل العصر أخبرهم الحارس أن مورسيلي عائد على جواده نحوهم. وكانوا قد راقبوا قبل ذلك وصول الثلاثة إلى المخيم على هذه الضفة

وترجلهم ودخلهم إحدى الخيام، ثم سمعوا فجأة صفيراً ونداءات من الضفتين، ثم عاد وحل السكون حتى ظهور مورسيلي.

«يبدو تانوا قادراً على السحر أو ما شابه ذلك»، قال لاهثاً، وأردف: «يمكننا العبور، اتبعوني».

«وإذا كان هذا فخاً؟».

«لا، ليس فخاً».

«وما أدراك؟».

«لأن تانوا وكبير العشيرة تحالفاً أو تأخياً أو ما شابه ذلك. لم أستوعب الأمر تماماً. لكن تانوا يقول على كل حال إنه يضمن سلامتنا».

تدخل هنوتي وقال: «ليس أماننا خيار آخر. أخفضوا الحراب وحاولوا إخفاء السيوف، ولتكن خناجركم جاهزة، من دون إظهارها. لن نقاتل إلا بناءً على أمري».

انحدروا بانتظام وصمت باتجاه المخاضة. وبالصمت نفسه وقف الناس على ضفتي النهر. بين الحين والآخر كان يُسمع ثغاء النعاج ومأمة العنز. بدا وكأن الجميع يحبسون أنفاسهم. لم يكن مستوى ارتفاع ماء النهر عالياً، لكن التيار بدا خطيراً.

«عليكم التمسك بالحبل جيداً»، سمعوا صوت تانوا المألوف يخاطبهم، خارجاً مع ميتا من أكبر خيمة، بصحبة رجل عجوز، وقور الهيئة، سفعت الشمس بشرته. انحنيا له باحترام وامتطيا جواديهما وانضمّا إليهم.

«لقد جدلوا حبلًا من خيوط نباتية، لم أفهم ذلك تماماً. ولكن علينا التمسك به جيداً كي نقاوم التيار».

عبروا المخاضة من دون مشاكل، الفرسان والبغال التي جروها وراءهم. كان تانوا آخرهم، وعند وصوله إلى الضفة الأخرى استدار ولوح بيده عبر النهر. على هذه الضفة شكل الناس بأجسامهم زقافاً عبره هنوتي ورجاله. وبعد فترة قصيرة انعطفوا نحو الدرب المؤدي إلى تيبورا بمحاذاة فرع صغير من مرآستنا باتجاه الشمال الشرقي، ولم يلتقوا بقية الطريق بأي كشكيين. مع أواخر الغسق بلغوا بوابة المدينة، حيث اكتفى حرسها باسم هنوتي وحده ليفتحوا لهم بسرعة، ولاستقبالهم خير استقبال.

مساء اندفع الزملاء إلى مورسيلي وميتا طالبين منهما إخبارهم بتفاصيل الحادثة، غير

راغبين بالانتظار حتى عودة تانوا من مقابلته مع هنوتي. بدأ مورسيلي الحديث مبتهجاً بالوجوه المشوقة: «تعرفون ربتنا شاونغا، مرة ترسلنا إلى الحرب ومرة تسبقنا إلى الحب. لا، لتترك المزاح جانباً. أعتقد أننا كنا تحت حمايتها، لأننا عندما اقتربنا من المضارب، التي يصعب منها فعلاً اكتشاف مجموعتنا، من تعتقدون أننا صادفنا أولاً؟».

«وما أدرانا. بمن؟».

«ثلاث صبايا جميلات، كن ينتظرنا نحن الشباب الثلاثة الوسيمين!».

«وكيف عرفت أنهن جميلات؟». اعترض ميتا: «لقد غطين وجوههن بالمناديل فوراً».

«على كل حال، لم يهربن زاعقات، أليس كذلك؟ بل قابلتنا بوذة ورضاً». وأخذ مورسيلي يذرع الغرفة جيئة وذهاباً كالطاووس، ثم تابع: «قام تانوا بعدة حركات بيديه، لا تسألوني عن معناها. بدا أن الفتيات فهمن مراده، فأشرن لنا كي نتبعهن بعد أن عقلنا جياذنا. أثناء ذلك انتبه إلى وجودنا عددٌ آخر من العشيرة، لكنهم لم يقتربوا منا. أوصلتنا الفتيات إلى أكبر خيمة في المضارب، ودُعينا من ثم لدخولها. طلب منا تانوا أن نترك له أمر التفاهم، فتقيدنا طبعاً بتعليماته ويسرور». فحصد موجة من الضحك. فتابع ميتا الحديث: «في الخيمة كان يجلس رجل عجوز - رأيتموه - على كرسي مغطى بفراءٍ خراف رائعة. كان واضحاً أنه كبير العشيرة. وكان في الخيمة أيضاً شابان، ربما كانا ابنيه أو حارسيه الشخصيين. تانوا صلّب ذراعيه على صدره».

«ونحن أيضاً»، علق مورسيلي،

«وانحنى أمامه عدّة مرات»،

«ونحن أيضاً»،

«وأخيراً ارتمى على الأرض أمام العجوز».

«نحن لا». اصطخب ضحك الرجال حولهما وهم يضربون أفخاذهم بأيديهم. تابع ميتا قائلاً: «أشار العجوز لتانوا كي ينهض». فسأله أحد الجنود.

«لماذا ارتمى أمامه على الأرض؟ أمام كشكي؟».

«يبدو أنه قد احتك سابقاً بمشايع بدو، في مكان ما من سوريا، ورأى كيف يحيون هناك كبير العشيرة، فقال لنفسه إن لم تنفع هنا فإنها لن تضر، وهي فعلاً لم تضر!». صدرت عن المجموعة همهمات إعجاب.

«وبعد ذلك؟».

«فتح تانوا كيسه، أخرج منه قطعة من خبزنا المجفف وبعض قطع الملح الجميلة مثل الكريستال، وناولها للعجوز. فصفق هذا بيديه، وإذا بإحدى الصبايا تدخل حاملة صفيحة معدنية ثمينة - أرايتها، ميتا؟ - وضيقتنا كؤوساً مملوءة بحليب ماعز فاتر».

هز مورسيلي جسمه وهو يقول: «لا أستسيغ طعامه!». ثم تابع: «حتى الآن لم ينطق أحد بكلمة. وتانوا لم يتكلم، بل انتظر إلى أن خاطبه كبير العشيرة، برطانة عجيبة كلها عجن وطقطة وعلك!».

«تانوا أجاب بالحيّة ثم بالحورية وأخيراً باللوشية. يبدو أن أحد الشابين فهم نوعاً ما، أما أن يتكلم!». ورسم مورسيلي على وجهه تعبيراً يغني عن أي كلام «لكنه كرر تحية ترحيب عدّة مرات، فقط لا غير».

«إذا كيف أفهمت العجوز ما تريدون؟».

«لن يخطر ببالك. أنا على كل حال ذهلت. تانوا هذا يا أخي فلتة، حفظه الأرباب من عين الحسودا أخرج من جعبته صفحة بردي وقطعة فحم، ثم رسم أولاً مجموعتنا: ثلاث شحطات وأشار إلينا ثلاثنا، ثم شحطات كثيرة أخرى وأشار إلى مكان انتظاركم. هز العجوز برأسه على أنه قد فهم. ثم رسم تانوا النهر بخطوط متمارجة وأشار بيده إلى الضفة الأخرى فصار كل شيء واضحاً. قال العجوز شيئاً، فغادر أحد الشابين الخيمة. ثم سمعنا صيحات عالية جداً و صفيراً، وأخيراً نهض العجوز وأشار بيده، فالتفت تانوا إليّ وطلب مني أن أطير إليكم لأحضركم. البقية تعرفونها. نجحنا أليس كذلك؟». علّق ميتا بقناعة تامة: «أعتقد أن تانوا سيصبح شخصية مهمّة جداً».

لقد أثبت تانوا أنه واحد منهم، غير أنه كان واضحاً للجميع أن مستقبله سيكون مختلفاً.

لم يمنّ عليهم هنوتي باستراحة طويلة في تيبووا، رغم رغبتهم في ذلك، فداخل جدران السور يشعر الإنسان بطمأنينة. كثير من بيوت المدينة كان مبنياً من الخشب والطوب معاً، فاستخدام الخشب في بناء الدور كان متشراً في المنطقة، وكان للدور الجيدة التدفئة باحات داخلية، وقد التذّ الجنود بهذا الدفء. في أثناء ذلك ناقش هنوتي وضباطه الوضع مع أمر المدينة، الذي أخبرهم بأن الطريق إلى تاوينا سالك، لكنه لا ينصح بمتابعة السفر في هذا الفصل، نظراً لخلو الطريق تقريباً من محطة كبيرة وكافية ليستريحوا فيها، وسيحتاجون من خمسة إلى ستة أيام.

«خمسة إلى ستة أيام! كان بوسعنا أن نأخذ الطريق الطويل والمريح إذا!». قال هنوتي عندما غادروا تيبووا المضيفة من بوابتها الشمالية الشرقية، وأضاف: «لا بدّ من قطع المسافة بأسرع من ذلك. القمر يصغر بسرعة، ولم يبق الكثير على بزوغ الهلال الجديد. يجب أن نصل قبل بدء العيد!».

قطعوا فعلاً مسافة جيدة. صحيح أن الهضبة السهلية كانت مغطاة بالثلج، لكنه كان ثلجاً جافاً و متماسكاً ينسحق تحت الحوافر. حاباهم الطقس الجيد طوال يومين، ورأى هنوتي والآخرون الذين سبق أن طرّقوا هذا الدرب في فصول أخرى من السنة، أنهم قد اجتازوا ثلثي المسافة حتى تاوينا. في صباح اليوم الثالث كانت السماء مدلهمة، وارتفعت درجة الحرارة في الليل، وامتلا الجو برائحة الثلج. تمكنوا حتى الظهيرة من الحفاظ على توجههم. كان أمامهم جبل وحيد منعزل، نقطة علام واضحة، لا بدّ من اجتيازها شرقاً للوصول إلى الدرب المؤدي إلى مخاضة أخرى، في نهر كبير آخر، عليهم عبورها. عند الظهيرة لم تعد قمة الجبل مرئية وانخفضت السحب. قال أحد الرجال ممن يعرفون المنطقة: «الثلج على وشك أن يهطل. يجب، بسرعة، أن نجد مخبأ يحمينا. لا يوجد أية قرية قريبة يمكن أن نلتجئ إليها. في الجبل نفسه يوجد بروز يشكل ما يشبه مغارة مكشوفة، يمكننا أن نحتمي فيها نوعاً ما».

«استلم القيادة حتى هناك إذا، اتبعونا جميعكم!».

تساقطت أولى ندف الثلج، وسرعان ما ازداد غزارة، بحيث لم يعد المرء يرى كفه أمام عينيه، وهبّت ريح شرقية.

«أما زالت المغارة بعيدة؟».

«اقتربنا جداً. ابقوا متقاربين!».

اشتد الهطل بكثافة، لم يعد الركوب معها ممكناً. فأخذ كل منهم يجزّ بالرسن جواده وأحد البغال، محاولاً جهده ألا يفقد أثر من يتقدمه. اندفع هنوتي إلى المقدمة مستطلعاً مع الدليل مكان الساتر أو المغارة. فإن لم يصلوا إليها، كان عليهم التوقف وتشكيل حلقة لحماية أنفسهم ما أمكن، والانتظار، وإلا فإنهم سيفقدون أثر بعضهم، بلا أمل. ولكن كم مضى من الوقت فعلياً؟ هل اقتربوا من المغارة أم تجاوزوها، أم باتت وراءهم؟

حملت الريح الثلجية معها ندفاً بلورياً يخز الجلد كالإبر، فغطى الرجال رؤوسهم ووجوههم، وحرنت الدواب في مكانها، ما اضطرّ ساستها لبذل أقصى طاقتهم لجرّها

وراءهم، وكادت أن تتجمد أصابعهم غير المحمية إلا ببعض الخرق والمزق. بدا وكأن ساعات قد انقضت إلى أن سمعوا صيحة الخلاص: «ها هي أمامنا!».

كان الأمر إما معجزة أو أن حدس الدليل الباهر، هو ما قادهم نحو التجويف الجبلي مباشرة، الذي كان عريضاً كفاية ليتسع للجميع مع الجياد وبغال الحمل. لكن التفكير بإشعال نار هنا كان مستحيلاً، لاسيما أن التجويف كان مفتوحاً على اتجاه الرياح، التي كانت تعصف بلا هوادة، ما دفعهم إلى فكرة تحويل الشدة إلى مزية، فأخذوا يصنعون من الثلج مكعبات كبيرة يرفعونها فوق بعضها كجدار. الحركة والانهماك في تنفيذ المهمة، شغلهم وأبقى على حرارة أجسامهم رغم أنهم فقدوا الإحساس بأيديهم، لكن الجدار زاد في حمايتهم. وأخذت أجسام الدواب تشع دفئاً، بحيث بدأت الوجوه والأيدي المعذبة تستعيد ليونتها، ثم أخذت تتوهج.

بعد العصر وقبل هبوط الظلام توقفت العاصفة الثلجية، فمدوا رؤوسهم من وراء الجدار. سكنت ولولة الرياح، ولم يعد يُسمع بين الحين والآخر سوى شخير الدواب. رأوا أمامهم امتداداً لعالم عجائبي أبيض، لكن فكرة متابعة المسير لم تكن واردة أبداً.

«لماذا لا نوسّع جدار الثلج»، قال تانوا «لنشكّل ما يشبه الحظيرة للدواب لثبات فيها؟ علينا أن نُنزل عنها جميع المتاع والأغطية، تحسباً لهطول الثلج مجدداً. فائدة ذلك أننا ستمكن من النوم على أكياس السفر بعد أن نضع تحتها أغطية اللباد السميكة!».

دبّت الحياة مجدداً في المجموعة وبدأ العمل بسرعة لتنفيذ المقترحات.

«يجب على أحدها بالتناوب أن يبقى يقظاً. من يدري أي نوع من الحيوانات يعيش في هذه المنطقة: ذئب، نمور، أبناء آوى، فهود، وربما دبية!».

«أنا أفضل الخنازير البرية!». قال ذلك مورسيلي الذي أفلتت زمام مزاحه. تبادلوا الطعام من أكياس مؤوتهم، وعلقوا للدواب مَخالي العلف على أعناقها. رتل هنوتي صلاة وشكر ترهونا إله الطقس، ورب الجبل الذي يؤويهم، على حمايتهم لهم، وتوسّل إليهما ليلة هادئة. اقتربوا من بعضهم حتى تلاصقوا وناموا جميعهم بعمق. وككل مساء قبل تانوا ميدالينه وودع كيا حتى الغد. وكان قد تطوع لمناوبة الحراسة الأخيرة قبيل الفجر.

على الطريق حتى حتّوشا لم يمر بهم ما يستحق الذكر، رغم ازدياد الغابات والجبال، فقد كانوا يعرفون الطريق جيداً، فوجدوا نائماً دريهم الصحيح في خضمّ الوديان والأنهار

والجداول والسهول المتشابهة. كما أن إله الطقس قد أرسل إليهم طقساً مشمساً وثابتاً غير متقلب، وإن كان بارداً. كانوا يقطعون يوماً المسافة كاملة بين قريتين، إذ كلما اقترب المرء من العاصمة، كثرت القرى والبلدات. وكانوا كل مساء يجدون مكاناً ملائماً لمبيتهم. وعلى الرغم من ذلك وصلوا إلى حتوشا متأخرين يوماً واحداً عن بداية عيد قمر الشتاء.

دخولهم المدينة كان أشبه بموكب نصر، ترحيباً بهنوتي البطل! احتشدت الجماهير على الطريق قبل المدينة بمسافة، لتحية كبير المحاربين وجماعته من الشجعان، ولمرافقتهم إلى البوابة الجنوبية الغربية، بوابة الأسود، المبنية في السور الحصين الهائل المحيط بأعلى المدينة، التي يحرسها أسدان حجريان عملاقان. تسبق البوابة على الجانبين تحصينات وأبراج عالية كالصروح، تمنحها منظراً بالغ الأثر. وللبوابة معبران، زُود كل منهما بباب خشبي ثقيل بأقفال، تُغلق وتُختم كل مساء، وتُفحص أقفالها كل صباح قبل فتحها.

لم يسبق لتانوا أن رأى مثل هذه المنشأة. حتى بوابات قطننا بدت له في ذاكرته أصغر. أما الأبنية الفخمة الأخرى في أعلى المدينة، والمنتشرة على يسار طريقهم إلى أسفل المدينة وإلى الحصن الملكي، فلم يولها تانوا كبير اهتمام، إذ كان يتلفت باحثاً عن الحصن. والحصن كان مبنياً على مرتفع صخري يظل على أسفل المدينة ومنطقة المعابد الواسعة، وعلى أعلى المدينة المبنية على منحدر الجبل، وكان محاطاً بسور متين. مر الطريق بمعبر بين قمتين ثم على جسر متين وعريض فوق فتحة وإد جنوب غربي الهضبة الصخرية، التي تحمل الحصن. وهكذا وصلوا إلى جنوب الحصن حيث تداخلت الأسوار القديمة مع أسوار الحصن المنيعة. سرحت عينا تانوا حوله: يا لها من مدينة ضخمة! لا شك أن فيها الكثير مما يجب اكتشافه. وصلوا إلى البوابة الرئيسية الخارجية، المحروسة أيضاً بأسدين. كيف لمثل هذه المدينة أن يغزوها الكشكيون الهمج وينهبوها؟

توقع تانوا أن يستقبلهم الملك العظيم عند البوابة، غير أنه أخطأ الظن، فمن استقبل هنوتي وجماعته كان أحد كبار خدم القصر، بالتحية المعهودة: «ستأكل خبزاً وتشرب ماء!». وناولهم شراب الترحيب، فشربوه شاكرين في صحة الملك والملكة، طبعاً بعد أن نثروا رذاذاً منه تقدمةً للأرباب. فقد قطعوا المسافة بين پوروشخندا وحتوشا في مدة قياسية، رغم المعوقات الشتائية ووصلوا بالسلامة. رفعوا أنخاب بعضهم ولا سيما نخب هنوتي.

استلم منهم صبيان الاضطربات جيادهم ودواب حملتهم، أما هم فمشوا على بلاط أحمر عريض، أزيل عنه الثلج، من بوابة الحصن عبر الفناء الأول ليصلوا إلى فناء الحصن الثاني.

«هنا يوجد مهاجع للحرس واصطبلات وأحد مستودعات الأسلحة»، همس هنوتي وأشار نحو الخلف إلى بناء القاعات، وأضاف: «هناك فناءان آخران أحدهما وراء الآخر، وجميع الفناءات أو الباحات متشابهة معمارياً، على ضلعيها الطويلين توجد أروقة معمّدة كالتّي تراها هنا»، فأشار مورسيلي إلى اليمين واليسار، ثم تابع قائلاً: «أو جدران تربط ما بين الأبنية. وعند الضلعين القصيرين توجد مباني البوابات كفواصل، مما يوّلّد هذا الانطباع الرائع». ياله من دليل ممتاز! «معظم الغرف مخصصة هنا للإدارة وتدير شؤون القصر. هناك يساراً يوجد مبنى بوابة أخرى خاصة بمن يستخدم الدرب الصاعد إلى الحصن من أسفل المدينة. إلى جانبها مباشرة ترى قاعة اجتماعات تستخدم بديلاً عن قاعة الاستقبال الملكية الكبرى. من هنا وإلى الأمام توجد مقرات أعلى موظفي البلاط، وخالك أحدهم. سيكون لدينا متسع من الوقت لاستكشاف كل شيء. أما اليوم فنصليّ شكرًا للأرباب ونستحمّ ونأكل ونحتفل وننام، ولا شيء سوى ذلك!».



في حتوشا كان كل شيء مختلفاً عن المدن والقصور التي زارها تانوا حتى الآن، فهي تقع في أعلى الجبل. إذا جاءها المرء من الجنوب فسيري أمامه في الوقت نفسه النقطة الأعلى والأبرز جنوباً، حيث تنتصب البوابة المزدانة الجانبين بالأسدين المجنّحين، وهي إحدى تقنيات الدفاع المبتكرة في السور المحيط بالمدينة. ومن هذه الذروة يطل المرء شمالاً على فوضى من الشعاب المنحدرة بين كتل صخرية هائلة وتتوءات ضخمة كالقباب. والحصن مشيدّ على أكبر هذه الكتل، وعلى الأصغر منها هناك معابد ومبانٍ إدارية. وبين أبرز كتلتين وأشدّهما انحداراً يوجد شعب عميق شاقولي تقريباً. وفي الجهتين الشرقية والغربية، تحدّ هذه الشعاب الجبل، الذي توزعت المدينة فوقه، وهذا ما يمنحها صفتها الرادعة، التي يرسخها السور المحيط بها. جهة الشمال هي الوحيدة التي يفتح فيها الأفق، فتطل العين على سهل شاسع، يمتد من ثم باتجاه الغرب، تتخلّله جداول وأحد فروع مرآستنا. وهذه المنطقة هي مصدر تموين المدينة الخصب، لكنه مكسو الآن بطبقة من الثلج. المدينة تهيمن على الطبيعة التي تقوم في الوقت نفسه بحمايتها. إضافة إلى ذلك تنتشر الينابيع الفوّارة في كل مكان، بما يكفي لأراضي الرعي والصيد والغابات الكثيفة التي تختلط فيها أشجار السنديان والعرعر والصنوبر في الأماكن المرتفعة، والصنوبر الإبري والدردار والحوور والقيقب وأشجار الفاكهة في الأماكن السفلى، ما يؤثّر الخشب

اللازم للبناء وكذلك للتدفئة التي تولد البهجة، لا سيّما في هذا البرد، مع الرياح الصافرة التي تهبّ غالباً مساءً.

ثمة طرقات من جميع الاتجاهات تؤدي إلى المدينة، وإلى داخلها عبر البوابات الفخمة: من مرآستتا والغرب عبر البوابة الغربية، من الشمال وبحر الشمال الأسود من مدينتي زالبا ونريكا - المهمتين دينياً واللتين سقطتا في أيدي الكشكيين - عبر البوابة الشرقية التي يحرسها ربٌّ منحوت في الصخر. ومن هنا وعبر درج حجري طويل يمكن للإنسان النزول مباشرة إلى الحصن. أما من الجنوب فيستخدم القادمون بوابة الأسود، وهذه هي أهم بوابات السور.

كان لاتساع المدينة وكبرها أثره في نفس تانوا، لكن الأعمق تأثيراً كان الحصن الملكي المشيد على عدّة مساحات من الهضبة الصخرية، في منتصف الجهة الشرقية تقريباً. هنا كانت النقطة الأعلى في الشمال، وهنا توجد باحة الحصن العليا والمقر الخاص لإقامة الملك. وفي اليوم الثالث سُمح لتانوا لأول مرة بالدخول إليه بعد الاستقبال الرسمي في قاعة الاستقبال الملكية، التي تقع على الجانب الغربي لباحة الحصن الوسطى.

حتى الآن لم يحظ تانوا برؤية الملك والملكة إلا خارج عاصمتها. وحسب انطباعه كانت الاحتفالات في أدانيا قد نُفّذت بمتهى الدقة والصرامة. لكن ذلك لم يكن شيئاً مقارنة بالحفل الذي أقيم في القاعة الملكية للترحيب بهنوتي ورجاله. في حتوشا بدا الملك والملكة وكأنهما ليسا من البشر، بل من الأرباب. كان ممنوعاً بصورة قطعية الاقتراب منهما دون خوض تطهّر معقد، غير أن تانوا كان مسروراً جداً بالاغتسال بالماء الحار مراراً، وفي صباح الحفل تلقى ثياباً مطهرة حديثاً وفق الشروط، وتفوح منها روائح رائعة، فشعر بنفسه كالمولود مجدداً. وقد سرى ذلك على جميع الآخرين أيضاً. مشت المجموعة محاطة بأفراد من الحرس الملكي بكل جلال، من مقرّ إقامتها، عبر البوابة الجانبية إلى الباحة الوسطى، وصعدوا إلى قاعة الاستقبال. عند باب القاعة استقبلهم أمر الحفل وأعطاهم تعليماته وتبعوه عبر ردهات. بقي تانوا وميتا على مقربة من مورسيللي، مقلّدين إياه ما وسعهما ذلك. وصلوا أخيراً إلى ردهة الدرج وصعدوا إلى قاعة الحفل الواسعة، التي يدعم سقفاها صفّان من الأعمدة الخشبية. ولكن من حيث الاتساع والفخامة وبهاء الأثاث لا تقارن هذه القاعة بقاعة استقبال قصر قطنا. هكذا فكر تانوا. وفجأة استعاد في ذاكرته صورة تلك القاعة ذات الدعامات الأربع الهائلة والمجمر الضخم واللوحات الرائعة. رأى نفسه يتجول في أنحائها مع كوارى وحبيبته كيا، فانقبض قلبه وحشّة.

لكن سرعان ما تلاشى هذا العارض عند رؤية الملك والملكة على العرش في صدر القاعة. كانا يرتديان زيّاً رائعاً من الجلد الأبيض وقد جمّلا وجهيهما بالمساحيق والخطوط، فبات يصعب التعرف فيهما على شخصيّ شويليلوليوما وهتتي، بل صارا ممثلين لأعلى الأرباب: رب الطقس في حتوشا وربة الشمس في أريتا. لم يجرؤ تانوا على رفع نظره، لكنه كان مصراً على رؤية العرشين الشهيرين، اللذين أرسلهما ذات يوم حاكم پوروشخندا للبارنا (الملك الأعظم) تعبيراً عن خضوعه. يقال إنهما من مادة سماوية، أئمن من أي مادة أخرى في الدنيا. وبالمقارنة معهما تبدو عروش الملوك العظام الآخرين، الفضية والذهبية تافهة القيمة تقريباً. غير أن ما رآه خيَّب توقعه جداً: أهذه المادة الرمادية كالفضة الكابية ثمينة إلى هذا الحد؟ نهض الملك ممسكاً بصولجانه المعقوف. خرّ الجميع أرضاً. وبصوت من خارج هذا العالم تقريباً رتل الملك صلاة الصباح، فتردّد صداها في القاعة:

«يارب شمس السماء،

يا سيدي،

ياراعي البشر،

من البحر تصعد،

يارب شمس السماء،

وفي السماوات تسير!».

في أثناء عودة الملك للجلوس، سُمح للحاشية المحتشدة بالنهوض. وفي الوقت نفسه دخل القاعة مجموعة من الكهنة بقيادة وليّ العهد أرتواندا. بدأ عزف الموسيقى، فاقشعرّ بدن تانوا، فهذه الألحان المتناغمة وجدت طريقها إلى روحه منذ أذانيا. لم يستطع أن يجد لنفسه تفسيراً لوضمّ الجنوبيين للحتيين بالخشونة. فهذا غير صحيح أبداً. خطأ أرتواندا نحو المذبح وتناول الأضاحي من الكهنة، ووضعها شيئاً فشيئاً على المذبح. وفي الختام دار حول طاولة القرابين وصبّ نبيذاً من إبريق مقدس، ثم توقف عند وسطها ومدّ ذراعيه فوق الأضاحي، وبهذه الحركة يكون قد ناولها للأرباب، تعبيراً عن الشكر لنجاح رحلة خدّمهم من الأراضي السفلى.

«أنتِ ياربة شمس أريتا، يا ذات الوجاهة،

اسمك وجيه بين الأسماء،

تمارسين سلطتك الملكية برحمة

في السماء والأرض.

أنت ياربة شمس أريئاً تمنحين التائب العفو والمغفرة.
أنتِ الأب والأم لكل بلد من البلدان!.

بعد هذا الطقس نهض الملك والملكة واصطفَ إلى جانبيهما أفراد العائلة الملكية. تقدم الواصلون الجدد، الواحد تلو الآخر، فأبدوا بتجيلهم وتلقوا كلمات الترحيب بهم. كان تانوا بالغ الانفعال، لدرجة أنه عندما خاطبته الملكة هتتي بودّ واستفسرت منه عن أحواله، كاد لا يجرؤ على الإجابة. بدا له كل شيء وكأنه من خارج هذا العالم، وكان مسروراً بانتهاء الاستقبال وبمغادرة البناء.

أدرك تانوا بسرعة أن الاحتفالات الطقسية هي فقط أحد الجوانب التي يظهر الملك والملكة في أثنائها بصفتهما ممثلين لسلطة الأرباب في حتوشا. أما الجانب الآخر فيظهرُ الملك شويلبوليوما وزوجته هتتي وأبناءهما كبشر عاديين ذوي احتياجات عادية، بأيام سعيدة وأخرى نعيسة. وقد اتضح هذا، عندما تبع الاستقبال الرسمي لهنتوتي ورجاله لقاءً خاصّ دعي إليه تانوا وآخرون في مقر الإقامة الخاص بالعائلة الملكية. في البناءين الرئيسيين المؤلف كل منهما من طابقين - القصر الفعلي - وفي البناء الثاني الذي يتقدمهما ويضم المكتبة الخاصة بالملك أيضاً، تعيش العائلة الملكية إضافة إلى توانانا، أي أرملة الملك المتوفى تودهااليا وأم شويلبوليوما. فهي تحافظ على مكانتها طوال حياتها، وبعد وفاتها فقط، يجرؤ لهنتتي حمل هذا اللقب. كان هذا جديداً على تانوا.

جرى اللقاء في غرفة واسعة في الطابق الأول من القصر، مُدّت أرضها بعدد كبير من السجاد وتوزعت في أرجائها كراسي للجلوس، وقد زينت الجدران برسومات ذات أشكال هندسية وبمشاهد صيد. إنها غرفة تبعث الراحة في النفس، وقد عبقّت فيها روائح أطيب الأطعمة الممدودة على طاولات طويلة مغطاة بأقمشة ملونة ومطرزة. ظهر الجميع في ثياب عادية، وإن كانت فاخرة. عند الباب استقبل شويلبوليوما هنتوتي ورحب به وعانقه وربت على كتفه باستحسان.

«لم أتصور أنه سيمكنك القيام بهذه الرحلة. وهذا يدعوني إلى شكر الأرباب أكثر، لجسارتك ووصولك بالسلامة. أنت تعرف كم أحتاج إليك هنا. سمعت أن طريقكم كان شاقاً مجهداً!.

«ليس إلى هذا الحد»، أجب هنتوتي وأردف: «لكنك تعرفني، كلما ازدادت المشقة ازداد الإغراء. كان يُحتمل لطريقنا أن يكون أشدّ عسراً، على نحو ما. ما أزعجني هو فقط أننا لم نصل في موعد بدء العيد. في المرة القادمة ستكون الأمور أفضل!». وضحك.

«في المرة القادمة سيكون ربيك وابن أختك أكثر معرفة بالطريق وبالظروف. يبدو أن جزءاً من الفضل يعود إليه في عدم تأخركم مزيداً من الوقت. أين هذا البطل الصاعد؟ آه، إنه يتوَدَد إلى الملكة، وهذا عين الصواب!». وسحب شوييلوليوما هنتوتي معه عبر الغرفة إلى زوجته وتانوا.

«عذراً يا حبيبتي إذ أبعد عنك هذا المعجب الشاب!». رجع تانوا على ركبته، لكن الملك أمره بالنهوض، وأضاف: «سمعت بكفاءة أنك يا ابن إحيًا وكالي ومُخَضِّع الكشكسين! يبدو أن مهارتك لا تقف عند هذا الحد. طيب، يسرنا أن تدخل في سلك خدمتنا، ولكن ثمة ما يجب تسويته أولاً، ألا تعتقد ذلك؟

أوما تانوا برأسه موافقاً ومنقبض القلب، إذ أدرك ما يلتمح الملك إليه. كان راغباً من صميم قلبه في التصالح مع والديه، لكنه لم يدِر كيف له أن يحقق ذلك.

وكان الملك قد قرأ أفكاره، فقال له: «ما رأيك برسالة؟ نحن على كل حال سنرسل ساعياً إلى الجنوب. يمكنك أن تطلب المغفرة من والديك، وأن تشرح لهم مجدداً باختصار موقفك، وتُعلمهم بأنك الآن في السلك الملكي، وستدخل الخدمة حالما تنهي تأهيلك لدى كبير الكتاب!». وأخذ الملك والملكة يتمليان وجه تانوا المملوء دهشة وسعادة. استرق تانوا نظرة شكر إلى خاله، وأمسك أثناء ركوعه يد الملك ليلثمها، لكن هذا سحب يده وأردف: «سرعان ما ستجد أيها الشاب أن الخدمة هنا ليست أقل مشقة مما هي عند خالك. ونحن نتوقع منك الكثير! ولهذا السبب سنزود الساعي بملاحظة موجهة إلى صديقنا إحيًا وزوجته، وبملاحظة أخرى من خالك أيضاً. فمن خلال توصيتنا المشتركة قد ننجح في الحصول على مغفرتهم لهروبك وتمردك، وعلى مباركة الأسلاف لطريق مستقبلك عندما يصل إلى علمهم كم تعلمت وأنجزت. لا شك عندي في ذلك!». حتى ذلك الحين لم ينطق تانوا بكلمة واحدة. لكن رأسه كان منهمكاً بالتفكير. كان يوده أن يتقدم برجاء. ولكن كيف يفعل ذلك؟ جاءت النجدة من خاله الذي ضحك وقال: «عندما ينظر تانوا بهذه الطريقة، ثمة أمر ما. أنا أعرف هذا التعبير على وجهه، ولن يتغير أو يزول إلا عندما يقول ما في قلبه. هذا الفتى يمكن أن يكون ملحاحاً جداً!».

«هيا إذاً، قل ما تريد. سيكون من دواعي سرورنا تلبية، إذا كان الأمر بمقدورنا!». «أيها الملك العظيم المنان!». بدأ تانوا كلامه جاداً، دون أن يلاحظ محاولات الآخرين لكبت ضحكهم «نعم، لدي رجاء. لقد ذكرت أن ساعياً سيرُسل نحو الجنوب. إضافة إلى الرسالة إلى والدي. هناك شيء ضروري بوَدِّي لو يأخذه معه، إلى قطننا!».

لحسن الحظ أن ما في قلبه قد خرج.

«قطناً؟ آه، تقصد كَتَانًا!». ونظر شوييلوليوما نحو هنتوتي متسائلاً. فأوضح هذا: «في العام الماضي أمضى تانوا هناك عدّة أسابيع بصحبة أبيه، وعقدَ هناك صلوات عدة». هذا أمر مهم جداً. فيحتمل أن يكون الفتى أكثر فائدة لنا مما يتوقع. وهذا لا بدّ من التشاور بشأنه مع هنتوتي بهدوء. لذلك صرف الملك تانوا مشدداً على تهيئة جميع الرسائل، فبإمكان الساعي توصيلها حتى أوغاريت على الأقل. وعندما غادر الجميع أشار الملك لهنتوتي كي يبقى. فهناك الكثير للتشاور بعد.

انسحب الرجلان إلى غرفة صغيرة. وبدأ شوييلوليوما الحديث قائلاً:

«هنتوتي، يا صديقي وشريك المخلص في القتال. دون مقدمات طويلة. حدثت عدّة أمور منذ أن افترقنا في الجبال. مع ذلك لم أرسل لك ساعياً بالأخبار، لأملي بأنك ستأتي حسبما اتفقنا. هناك الكثير مما يجب أخذه الآن في الحسبان عند التخطيط والتحضير. هذه الأسابيع القليلة المتبقية حتى اقتراب الربيع، ومعه العمليات الحربية الخشنة، ستكون صدقني، بمثابة الهدوء الذي يسبق العاصفة!». شرب الملك بضع جرعات من نبيذ العسل الساخن، ثم قال: «ثمة قلاقل جديدة في ميثاني!».

«أي نوع من القلاقل؟».

«بين الملك توشراتا والمدعوم من طرفنا أرتانما. حسب علمنا، غالبية رعية توشراتا غير راضية عن حكمه. وكلاهما على كل حال يتنافسان على العرش في واشوكاني. وهذا طبعاً لمصلحتنا، فكلما تزعزعت أوضاع البلد داخلياً، صار التلاعب بها بأيدينا أسهل، فنهزمها في المعركة ونجعلها تحت سيطرتنا!».

«وقد يكون من الأفضل، ألا نضطر للدخول معها في معركة. إني قلق جداً بشأن السنة القادمة. إن ساءت الأحوال، فقد نكون مشغولين على عدّة جبهات في الغرب والشمال والشرق والجنوب الشرقي، وهذا يتجاوز قدراتنا!».

«لنتطلق من أن أرزاوا مستحافظ على هدونها، وأنا ستمكن من صدّ الكشكيين، علينا عندئذ أن نملي على الأمير آزّي هياسا، مراقبة الحدود الشمالية لميثاني، فنتفرغ نحن بهذا لميثاني نفسها!». رسم قائد الجيوش خطة موسعة ومقنعة. لكن يبدو أن الملك لم يكن مرتاحاً لها تماماً، وقال: «إذا حافظت على هدونها، إذا راقبَ الحدود. ثمة كثير من إذا يا عزيزي!».

«ألدك خطة أخرى؟».

هز الملك رأسه موافقاً، وقال: «سأنطلق من أن الفرعون أمينوفيس الثالث سيقف رسمياً إلى جانب الملك توشراتا، لأنهما حليفان أساساً. لذلك وللمرة الثانية أرسلتُ ساعياً موثوقاً إلى أرتاتما، مؤكداً له دعمنا الكامل له في صراعه من أجل عرش ميتاني، إذا ما نجح أخيراً في إزاحة توشراتا أو طرده أو التخلص منه، سمّها ما شئت!».

«ولكن ما الذي يضمن لنا أن أرتاتما بعد اعتلائه العرش، لن يحذو حذو سلفه. ماذا سيكون موقعنا إذا عادانا مثله؟».

«هو أولاً ملتزم تجاه حتوشا، إذ كان عليه أن يقسم يمين الولاء. ثم إنني أنطلق من أنه في البداية سيكون منشغلاً بثبيت دعائم حكمه داخل أرضه ولدى الإمارات التابعة له. لكن قلقك مبرر تماماً. إذ إنها لن تكون المرة الأولى التي تتغير فيها الجبهات. وما يدعو للتساؤل أيضاً هو: كيف ستصرف مصر في حال اعتلاء أرتاتما العرش؟ لكنني لم أهمل الأمر».

«لا أشك في ذلك أبداً، يا مليكي! إنك تثير فضولي. ماذا فعلت؟».

«لعبتُ دور الأرباب. ويُحتمل أن يصادفَ شيان بعضهما بصورة ناجحة. وأظن أنني قد أفلحتُ في استمالة الفرعون إلى جهتنا بشكل واضح!».

«هذا أمر لا يصدق. كيف حققت ذلك؟».

«وجهتُ إلى أخي المصري رسالة تحية، أكدت له فيها أننا لا نطمح أبداً إلى بسط نفوذنا في جنوبي سوريا ولا في المحميات المصرية شمالي سوريا. بل على النقيض من ذلك، نحن لا نقبل فحسب، بل نضمن المصالح التجارية المصرية، التي تنحصر فعلياً في أخشاب البناء الضرورية جداً لمصر. وإضافة إلى ذلك سرّبت بعض التلميحات بشأن مواد خام معينة، وأكثر من عبارات الود والمجاملة. وأرفقت كل هذا بالهدايا المعتادة، ومن بينها خنجر جميل الصنعة من معدننا السماوي!». وغمز الملك هنوتي غمزة بليغة المعنى، وأردف: «وأرسلت الكلل مع الساعي!».

مكتبة الرمحي أحمد

«وهل حصلت على جواب؟».

«قبل وصولك عاد الساعي. وهذا وحده يُعدّ انتصاراً. لكنه جلب معه أيضاً جواباً ودياً إلى حدٍّ لم أحلم به في أكثر أحلامي جسارة. تفضل، اقرأ! إن لم يكن في الأمر حيلة مضمرة، نكون قد نجحنا في تمرير مقلب مهمّ. بمرور الوقت يترسخ انطباعي بأن ما يهم

المصريين حقاً هو مصر فقط. وسوى ذلك لا يابهون لشيء ما دامت شحنات الخشب مستمرة دون عراقيل. لقد أسقطوا من حسابهم على كل حال مملكة أرزاوا، بعد أن خيَّب ملكها توقعاتهم بعدم احتلاله حتوشا أو تدمير جيشها على الأقل، علماً بأنه متزوج من أميرة مصرية. المسكينة ستموت كمدماً الآن في العاصمة أبسا. لم ينتقد الفرعون هجومنا المعاكس، بل أهمل ذكره كلياً!.

«هذه أخبار جديدة سارة تملأ البطون والرؤوس، هذا رائع! وعلى الرغم من تعبيره البالغ التمتع لم يتمكن سيد النيل من إخفاء شهيته لهديتنا السماوية!».

«بمرور الوقت سيدي الجميع اهتمامهم بها، هنوتي. إنها أقوى أسلحتنا! علينا أن نزرع الخوف منها في كل مكان وننشره، ولا بد لنا من حمايتها نفسها، وفي الدرجة الأولى حماية طريقة تصنيعها!».

شرب كلاهما شيئاً من نبيذ العسل.

«كنتَ تتحدث عن شيئين إذا تصادفا..».

«صحيح. أحزر من اتصل بنا؟».

«الأمر علاقة بميتاني أيضاً؟».

«أنت على الطريق الصحيح».

«أتقصد ذلك المتبجح؟».

«هو نفسه. أيمكنك تصور أنه يطالب منذ الآن بضمّه إلى أخوية الملوك العظام، رغم أن آشور لم تتحرر كلياً بعد من قبضة ميتاني؟ أتشوق لمعرفة رأي فرعون في الأمر، فهو بالغ الحساسية حيال مرتبة الملك العظيم! و(آشور أوباليت) هذا سيكون حاكماً معاصراً مزعجاً، ولا بد لنا من أن نحسب حسابه، فهو ينوي بناء آشور عظمى، وسيلجأ إلى كل الوسائل لتحقيق هدفه. إنه يخطط لرابطة زواج مع ملك بابل، وقد كتب لي ذلك بكل وقاحة. ومعنا نحن، يريد العودة إلى المفاوضات، وهو اقتراح ملائم لنا نوعاً ما الآن، فأشور قد تكون هي الضمان الذي أشرت إليه قبل قليل. فإن جاء سلوك أرتاتما تجاه حتوشا غير مناسب، ستمكن من أخذ ميتاني بين فكّي الكماشة: نحن من الغرب وآشور من الشرق. حتى وإن خرج الملك توشراتا من الصراع العائلي متصراً، فإن بلده لن تحتل حرباً على جبهتين. وآشور يهتمها جداً أن تتوسع غرباً. أي أنه يمكن تقسيم ميتاني بيننا، وستتفق على الحدود المشتركة!».

«لكن هذا يعني أننا في كل الأحوال سندخل حرباً، أنت تمنى تجنبها!».

«علينا أن نتنظر. سأتجنب التسرع في الإجابة على رسالة آشور أوباليت. علينا قبل ذلك أن نكون على بينة من أمر كل هذه الإمارات في شمالي سوريا، من حيث ارتباطاتها بميتاني أو بمصر: أوغاريت، كركميش، قطنا. أماننا عمل كثير لا بدّ من إنجازه!».

قد تكون هذه مهمة مثالية لتانا، هكذا فكّر هنوتي. إنها أفضل طريقة لدعمه. فاقترح على الملك: «يمكننا أن نربط ابن أختي بهذه المهمة، فلا أخطر منه في جمع المعلومات. لقد زار مع أبيه معظم الإمارات التي ذكرتها، لكنهما أطلاا الإقامة في قطنا، التي اطلع على أحوالها من كتب، ولا سيّما أنه قد صادق أبناء العائلة المالكة، خاصة وليّ العهد، على حد علمي».

«هذا ما خطر في بالي أنا أيضاً، أقصد احتمال الاستفادة منه، عندما ذكر قبل حين، لدهشتي، أنه يود إرسال رسالة إلى هناك. ولكن يجب علينا أن نعرف أولاً مضمون هذه الرسالة، ألسنت معي في ذلك؟». ثم بدّل الموضوع فجأة وسأل هنوتي: «هل زرت أهلك وعرفتهم على تانا؟ أظن أن غالبيتهم لا يعرفونه».

«حتى الآن لا. ألقىت السلام على أمي سريعاً، لكن زيارة الترحيب بعودتي لم تحدد بعد. كما أنني لم أرغب في أن يواجه تانا العشيرة كلها دفعة واحدة».

«أعتقد أن هذا الشاب سيملاً قلبنا سروراً، أنا متأكد من ذلك. جيد أنه قد بحث عن طريقه إلى حتوشا ووجده». ونهض الملك متابعاً كلامه: «هذا كافٍ لليوم، هنوتي. أشكرك لقدومك يا صديقي!».

«يا شمسي!». ونهض هنوتي أيضاً وانحنى، ثم تعانقا وانسحب هنوتي.

«ألا ترين أيضاً أن الشبه كبير جداً بين الخال وابن الأخت؟ بنية الجسم نفسها، وعيون كليهما زرقاء، والهيئة العامة أيضاً!». سأل شويلو مساءً زوجته وهما يناقشان أحداث النهار، وأردف: «دققتُ النظر فيهما منذ احتفال أدانيا!».

«أليس هذا متوقِعاً مع هذه الدرجة من القرابة؟».

«نعم، بلا شك. على كل حال، ليس في تانا أي شيء من إحياء. لم أستطع اكتشاف أي شبه».

«دعني أتعرف لك بأني لم أولِ إحياء أي اهتمام»، قالت هنتي مفكرة، ثم تابعت: «أيحتمل يا عزيزي أنك ترحب بذلك؟ أعني عدم التشابه بين الفتى وإحياء».

التفت شويلو عنها إلى الناحية الأخرى. للحظة خيم الصمت عليهما. لم تلح هنتي عليه، لكنها تساءلت في نفسها عندما لاحظت أن زوجها يستصعب الإجابة. أخيراً هز كتفيه ولم يجب عن سؤالها. غير أنها التقطت طرف الحديث مجدداً ببساطة قائلة: «ثمة أمر آخر لفت انتباهي، وهو معاملة هنوتي للفتى. في أدانيا لم أرهما قط معاً. وأثناء الطريق كان مستغرباً إنكار هنوتي له..».

«لقد فسّر لي ذلك»، قاطعها شويلو «لم يُرذ فضحّه أمام الجميع: ابن أخته، هارب من البيت، وفوق ذلك كله باسم مزور. كيف سيكون وقع ذلك؟».

«طيب، لكن علاقتهما الآن انقلبت رأساً على عقب، صارا كالسمن والعلسل. نادراً ما رأيت هنوتي شفيحاً إثارياً كالآن، ويبدو أنه يحبّد حتى تبديل الاسم، فأتساءل، ما الأمر؟».

لدهشة هنتي ثانية، تجاوز الملك تساؤلها، فبالنسبة إليه لا فرق بين تالزو أو تانوا، ثم قال: «ربما كان على هنوتي أن يعتاد أولاً على حمل مسؤولية ريب، إن شئت هذه التسمية، حتى وإن كان الريب في عمر يؤهله للوقوف على قدميه وحده. وهذا الانطباع تأكد اليوم بصورة لا لبس فيها. حتى وإن كان الشاب حتى الآن على شيء من الخجل، ولنقل بدقة إنه ما زال مأخوذاً بالقصر ومرتبكاً تجاه عاداتنا الرسمية هنا، لا يسعني سوى تأكيد تقييم هنوتي له: هذا الشاب يعرف ما يريد وبدقة. ولسوف يشقّ طريقه بنفسه!».

كانت الملكة تشارك الملك رأيه هذا، فانطباعها عن الشاب كان إيجابياً جداً. ذهبت هنتي إلى شويلو وربت على شعره بركة. جذبها شويلو إلى حضنه. كم كان الوقت ضيقاً لمثل هذه اللحظات الحميمة في زحمة أعباء المملكة المتنوعة. تنهد شويلو. وكان هنتي كانت تقرأ أفكاره، فتابعت الحديث: «هناك أمر آخر استرعى انتباهي لأنني استغربته، وهو حالة التوتر في التعامل بين كالي وهنوتي في أدانيا».

«لا داعي لإيلاء الأمر أهمية يا حبيبتى. المناسبة كانت رسمية، وهما لم يلتقيا منذ زمن. حسب ما أعرف، كالي متعلقة جداً بأخيها هذا، وبأسرتها ككل أيضاً. غالباً ما تعاني من الحنين إلى وطنها. أعرف هذا من هنوتي نفسه». قبل شويلو هنتي على جبهتها وأضاف: «هذه المسألة لن نحلّها اليوم يا حبيبتى، فدعينا ننتقل إلى موضوع آخر!».

هذا الإنهاء المفاجئ للموضوع أدى إلى مزيد من التساؤل لدى هنتي. كان واضحاً أن شويلو يخفي عنها أمراً ما، أو، وهو الأقرب، أنه مضطر لإخفاء هذا الأمر عنها. هنتي كانت تعرف أن هناك أموراً معينة لا يجوز للملك الحثي أن يتطرق إليها مع أي كان، ولا حتى مع

زوجته، التي تحوز ثقته المطلقة في كل شيء، ورغم كونها نديمته المفضلة. ولكن أيمن لإحيا وتانوا وهنوتي أن يكونوا على صلة بسر من أسرار المملكة؟ هذا مستبعد: ماذا يكمن إذاً وراء سلوك شويلوليوما الغريب؟

لقد استيقظ فضول هتي.

لم يحظَ تانوا بوقت كاف للراحة، وهو لم يحتج إليه. في اليوم التالي لحفل الاستقبال أوصله هنوتي شخصياً إلى كبير الكتاب (ميتاناموا)، مدير الشؤون الإدارية للدولة. وكان هذا ذا بنية رشيقة تميل إلى النحول، بيدين ناعمتين أيقنتين. ووجهه المستطيل تعلوه جبهة عريضة مميزة. نظراته يقظة ونفاذة، والشيب الذي بدأ يخط شعره جعله يبدو أكبر سناً مما هو عليه. كان يلبس رداء طويلاً يؤكد هيئته الظاهرة. لم يترك في نفس تانوا انطباعاً مُرهباً بل حازماً. تقع مكاتب عمله في الفناء الأوسط من الحصن، ملتصقة مباشرة ببناء المحفوظات ومكتبة القصر. من كلمات الترحاب الحارة والقليلة بين الرجلين أدرك تانوا أن كل ما يتعلق به قد بُحث بينهما سابقاً. ثم غادر هنوتي بناء إدارة الدولة.

«بتي، تاتيّا، واشيّا وأنتم أيضاً تعالوا رجوا بزميلكم الجديد!». نادى ميتاناموا وأردف: «أقدم لكم تانوا، ابن إحيّا من كيزواتنا وكالي من حتوشا، أخت القائد العام للقوات المسلحة هنوتي». حاول تانوا حفظ الأسماء التي ذكرها ميتاناموا بالتالي.

«أنا وأنت تانوا ستحاور قليلاً الآن ليتسنى لي تقدير مستوى معارفك، ثم مبدئياً ستعمل تحت إشراف رئيس الكتاب بتي»، وأشار إلى رجل في أواسط العمر وحادّ القسّات، «وهو سيطلعك على أسلوب عمل الإدارة ومهامها. يمكنك دائماً التوجه إليه بأسئلتك. أما اليوم فعليك أن تشغل معظمه بنفسك، لأننا منشغلين بأعمال ملحة. أفضل ما تعمله هو أن تستفيد من الوقت بكتابة رسائلك الخاصة التي ستذهب خلال أيام مع الساعي نحو الجنوب. إذ إنك لن تجد وقتاً لذلك في الأيام القادمة!».

عاد الجميع، كلٌّ إلى عمله، في حين تبع تانوا ميتاناموا إلى غرفة أصغر معدة للمشاوَرات. ومن دون مقدمات بدأ كبير الكتاب بامتحانه، فسأل تانوا عن اللغات التي يعرفها، ثم أعطاه جملة نموذجية ليرجمها إلى الحورية واللوقية والأكدية. بعد ذلك وضع أمامه عدداً من الرُّقم وطلب منه قراءة السطور الأولى من كل منها. سارت الأمور بأفضل مما كان يخشى بعد الانقطاع الطويل بسبب السفر، فتراجعت مخاوفه وتبرعت فرحته لقول ميتاناموا: «أربع لغات، هذا جيد!».

«وأعرف بعض العبارات بالإيجيه!».

«جيد، هذا سيفرح الملكة هتتي، فهي كما تعرف أميرة إيجية، ابنة الملك العظيم اتارسيا أو أتريوس، حاكم ميكناي أو موكانو حسب لفظنا. ولكن لنعد إلى العمل. ما ينقصك إذاً هي لغة بلا الشمالية، لكنك ستتعلمها بسرعة حسب تقديري. اللغتان الهتية (الحتية القديمة) والسومرية لا تُستخدمان فعلياً إلا في الطقوس الدينية وما يرتبط بها، أي أنك لن تتعامل بهما، إلا إذا تخصصت في هذا الاتجاه. دعنا نرى مستواك في الكتابة المسمارية!».

وضع أمام تانوا لوحاً طينياً طرياً وناوله بيده قصبه الكتابة، وقال: «سنختبر الجانبين. أولاً سأملي عليك نصاً، وبعد أن تنتهي سننسخ نصاً آخر. أجاهز أنت؟».

أوما تانوا برأسه وركز على المهمة. كانت البداية جيدة. صيغة تحية مألوفة، تلاها عدّة جمل، اضطرّ إلى ترك بعض الكلمات منها، لأنه لم يعرفها، ولأنه لم يستوعب الموضوع ككل. يا إلهي، كم ستكون النتيجة مخزية! وتلاشى شعوره بالنشوة. أخذ منه كبير الكتاب اللوح دون تعليق، وناوله لوحاً آخر وأداة كتابة غريبة، وسأله: «ما مدى معرفتك بالكتابة الصورية؟».

احمرّ وجه تانوا، لكنه أجاب بجرأة: «في ترشا لم نستخدم سوى الكتابة المسمارية، ولهذا فأني لا أعرف الكتابة الصورية!».

فأجابه ميتاناموا بهدوء: «طيب، هذه أمور يمكن تعلّمها، فأنت هنا لهذا السبب». لم يصدق تانوا أذنيه. وأردف كبير الكتاب: «اتبعني الآن، سأريك المكان حيث يمكنك نسخ النص. وعندما تنتهي أعطه لبنتي. ثم يمكنك الالتفات إلى كتاباتك الخاصة. هنا ستجد ما تحتاج إليه من ألواح وأدوات كتابة. بعد أن ننهي كل شيء يمكنك العودة إلى مقر إقامتك. غداً سأرسل في طلبك!».

تلقت تانوا حوله في قاعة العمل الواسعة، مأخوذاً بعدد الكتاب الكبير وبالرفوف الممتلئة بالرّقم. لم تتطلب عملية النسخ منه جهداً كبيراً، لا سيّما أن النص كان مقطعاً من عمل يسرد تاريخ غلغامش ملك أوروك. أنهاه بسرعة، وهو راضٍ عن النتيجة، فقد كتبه بحروف متناسقة، واضعاً الإشارات الخاصة بالسومرية بصورة نظيفة واضحة، محافظاً على استقامة السطور. وبعد فترة قصيرة اقترب من طاولة بنتي وناولها اللوحين معاً، فتناولهما هذا دون تعليق.

والآن كان لا بدّ من البدء بالرسالة الموجهة إلى الوالدين. كان قد جهّزها في رأسه مراراً وتكراراً. أراد لشروحه أن تكون مقتضبة وواضحة، آملاً أن تصل سطورهِ إلى قلبي والدته ووالده، في حين تقوم رسالة الملك ورسالة خاله بعملية الإقناع الضرورية. وهكذا أنهى هذا الواجب أيضاً بسرعة.

على مقربة منه جلس شاب لا يكبره بسنوات كثيرة، رفع رأسه عن عمله في تلك اللحظة، فالتفت عيناه بنظرته المتفحصة، فابتسم له. سأله الشاب هامساً: «أجدد أنت هنا؟».

أوماً تانوا برأسه وأجاب بهمس أيضاً: «أنا من كيزواتنا!».

«اسمي (نانينزي). منذ وقت قريب عبرتُ كيزواتنا. ما زال الطقس دافئاً هناك».
«هدوءاً». هتف أحد الكتبة.

«دعنا نتحدث خارج القاعة!». ونهض نانينزي ومشى نحو الباب، فتبعه تانوا إلى ردهة، حيث تبادلوا الحديث حول كيزواتنا وطقسها وهذا وذاك. انتبه تانوا إلى أن محدّثه يتجنّب تقديم معلومات واضحة على سؤالَي: من أين؟ وإلى أين؟. لكنه عرف على أية حال أنه يقوم بخدمات بريدية، ما أثار اهتمامه. لكن كلام نانينزي بقي غائماً غير محدد. فقدّر تانوا أنه يحظر عليه الحديث عن مهامه أمام الغرباء. وهذا أمر لا بدّ من قبوله. وأخيراً قال:

«سأعود لأتابع عملي الآن. قل لي، أتعرف اللغة المصرية؟». وكان يفكر بالرسالة إلى قطننا وإلى كيا، التي كانت تتباهى بأنها تجيد كتابة الهيروغليفيات المصرية. وما أذهله كان قول نانينزي: «طبعاً أعرفها، ويمكنني كتابة بعضها، ماذا تحتاج؟».

«صيغة تحية مألوفة، سيكون هذا رائعاً!».

«لا أسهل من ذلك! تعال، سأكتبها لك!».

«لكنك ستقول لي أيضاً معنى ما سنكتبه في اللوح!».

«طال عمرك في صحة وعافية!».

«يجب أن تكون: طال عمرك في صحة وعافية!».

ضحك نانينزي وقال: «إذا كان المخاطب سيّدة، نضيف علامة وينتهي الأمر!».

امتلاً تانوا حماسة. ما هذه المصادفة! لا شك في أنه محظوظ. كم بوّدّه رؤية وجه كيا عندما يريها أكيزي الهيروغليفيات. بدأ كتابة الرسالة إلى أكيزي باندفاع. وكان يتوق جداً

لأن يعرف أصدقاؤه في قطننا، كيف سارت أموره، وأنه قبل كل شيء، ما زال وفيّاً لأهدافه. لقد فكر بهم جميعاً وكتب أسماءهم وخصّصهم بتحياته. وفي الختام تماماً أضاف صيغة التحية التي تعلمها لتوه، وكما ستعرف أنها المقصودة بذلك. ماذا تفعل يا ترى؟ إنها حلم. حلمه. بلسم حياته. وتلمّست يده ميدانيته. هذه الخصل السوداء الرائعة التي يمكن للمرء أن يدفن نفسه فيها. وهذه الجدالات الملهمة وذكاؤها وحدة لسانها. وفجأة تذكّر ما لا بدّ من أن يخبرها به، وكان يفكر فيه طوال الوقت، وإذا به يكاد ينسى الآن. ولكن كيف؟ لا يمكنه هكذا ببساطة أن يملأ لوحاً جديداً؛ ثم إن الموضوع بالغ الحساسية. فماذا إن كان مخطئاً؟ فكر، إلى أن وجد حلاً جيداً. لملم أشياءه، وحيّاً نانينزي برأسه بودّ وأسرع إلى جناح الضيوف. تناول تانوا من رزمة أغراضه ورقة بردي محفوظة بعناية، وحبراً وريشة. بدأ كتابته بحكمة مأثورة، ثم بصيغة مرتبكة ومقتضبة، دون ملاحظاته عما رآه في قطننا آنذاك، وما سمعه من حوار بين الشريف تيرو والبدوي. قد يكون الأمر مهماً وقد لا يكون. وأمل أن تتمكن كيا من قراءة حروفه المسماوية التي خطّها وتستفيد من المعلومة. ولكن من يمكن أن يستفيد منها سواها؟ في أسوأ الحالات يمكنها أن تحرق البردي ببساطة. لف ورقة البردي ثم ختمها بعناية وكتب عليها اسم كيا. ثم خطرت في باله فكرة أخرى، فلف سلسالاً حولها. وأخيراً وضعها في صندوق صغير ملاء بهدايا صغيرة متنوعة، ثم أغلقه وختمه أيضاً. غداً عندما سيطلبه ميتاناموا سيحزم كل شيء معاً ويعطيه لساعي البريد.

إذا طلبه ميتاناموا.



أولى الملك إيداندا أهمية للتحذيرات التي أرسلتها إليه شالا، بعد حلمها بالمعبد المهجور، كما شاركها رأيها في أن الحياة في قطننا يجب أن تأخذ مسارها المعتاد. ولهذا السبب، وككلّ سنة أعدت التحضيرات لعيد قمر الشتاء الجديد واحتفل بالعيد، حتى وإن كان يحمل له خاصة أخطاراً مختلفة. وقد واجه الأمر في نفسه بكل رصانة، فهو مستعدّ لمواجهتها ولقبول مشيئة الأرباب. لقد رتب شؤون بيته بأفضل ما بوسعه. لكنه كان قلقاً بشأن بكره، فهل نضج هذا كفاية لحمل العبء؟ هزّ الملك كتفيه، ماذا بوسعه أن يفعل إذا رغب الرب (موت) بأن يأخذه معه؟ لقد قرأ لأكيزي أفضل تربية وتعليم، وحاول أن يكون قدوة له. ليس بوسعه أكثر من ذلك. وعلى أكيزي الآن أن يقف على قدميه بجدارة. وبكل

هدوء ورزانة حضر الملك نفسه لأداء واجباته. لكنه صلى للأرباب كي يمنحوه بعض الوقت على عرشه. وعلت وجهه ابتسامة من يضحك على نفسه.

كيا وإهلي نيكالو وبعض الفتيات والفتيان الآخرين شاركوا لأول مرة في عيد القمر الجديد. وكما في كل الأعياد الكبرى كان شرط المشاركة هو المرور بطقس التطهر. ولم يكن يجوز إلا لقلّة من المصطفين الدخول إلى الحرم الصغير الواقع في شمال غربي القصر، والمخصّص للأسلاف المؤلّهين.

لقد نجح مينوس حقاً في رسم الجدار الخلفي للحرم برسوم رائعة، يبث فيها الحياة، النور المتدفق طوال النهار من جهة الشمال. كان قد هباً الإفريز الكامل في ورشته، وذلك بمدّ طبقة من الجص على كل قطعة على حدة وتمليسها ثم فرش الألوان عليها. كان لون الخلفية غالباً أبيض يميل إلى السيج، أما الأشكال المرسومة عليها فجاءت بالأحمر الداكن والبني والأسود والأصفر والرمادي الداكن، إضافة إلى الرمادي المزرق والرمادي الفاتح للأغصان الرقيقة وأوراق الأعشاب والحشائش، ما أسبغ على المنظر ككل تأثيراً خارقاً. تجسّد اللوحة منظر نهر، تغطي ضفتيه حشائش وورود وأشجار نخيل، وهناك على طول ضفته القريبة أربع سلاحف وراء بعضها، فيما تتراقص في ماء النهر دلافين وأسماك وسراطين وبعض القواقع المقدسة. ويحيط بالكل إطاراً بنماذج هندسية التنسيق من أوراق النباتات وعروقها الحلزونية المعقدة التشكيل. وبكل عناية كانت القطع الجاهزة تُلصق بالجص بدقة متناهية على الجدار، بحيث لا تلاحظ العين أي اختلاف في مستويات السطوح المشكّلة للوحة. وفي الختام شرّب مينوس سطح اللوحة كلها بالحليب، ما منحها بعد جفافه طبقة لماعة وبريقاً غامضاً.

راقبته كيا صامته خلال العملية الختامية، ولم يستوعب عقلها أن الأرباب الذين يهبون رجلاً مثل مينوس هذه المواهب، هم الأرباب أنفسهم الذين يرسلون الموت والدمار. هل أئمت قطنا؟ ولكن إشارات الرؤى قد تكون مجرد أوهام. وقد يتغير كل شيء في المستقبل عندما يمدّ أمونحوتب يد الحماية فوق قطنا. ليته يأتي. كم تشتاق إلى قربه منها، إلى نظرات عينيه، إلى عناقه، إلى كلماته الحلوة لها. انتفضت كيا من أفكارها عائدة إلى واقعها. حيّت مينوس برأسها بودّ وغادرت.

في تصورات سكان قطنا الدينية المرتبطة بقمر الشتاء الجديد، يجري تقارب خاص بين الأحياء والأموات. فالأموات لم يفقدوا طاقاتهم، ولكن ليحتفظوا بقدراتهم على دعم

عشائرتهم باستمرار، يجب أن يبقوا منضوين مندمجين في نطاق كل أسرة. ولهذا السبب تُستعاد ذكراهم على نحو دائم، ويُحتفل على شرفهم بعيد قمر الشتاء الجديد في المدينة كلها وفي أريافها. فتقدّم لهم الأضاحي وتُلمس بركاتهم.

في حرم القصر ناجى الملك، وهو كبير الكهنة في الوقت نفسه، أسلافه من الملوك الموتى. ودعاهم مع سائر أسلافه إلى مأذبة مشتركة مع الأحياء، في صلاة الطعام في القصر، حيث التقى عشية قمر الشتاء الجديد نخبة أشراف المدينة.

طوال أيام قبل ذلك كانت شالا توجه الكاهنات القديمات والجديدات، اللواتي خضن الطقس إلى واجباتهن. وكان لها حديث خاص مع كيا، فقد أرادت التأكد من استعدادها وعدم تراجعها، إذ لاحظت بشيء من القلق تغيرات في نفسية الصبية. كان جلياً أنها تمر بحالة عشق. ولكن هل الارتباط بأمونحوتب هو قدرها؟ هل ولي عهد مصر جاداً يا ترى في علاقته مع كيا، أم أنها كانت رفيقة لطيفة لتمضية الوقت في الغربة؟ كان لا بد لشالا من الاعتراف لنفسها، بأن رغبتها الدفينة الخاصة ليست وحدها ما يدفعها لجعل كيا خليفتها، بصفتها كبيرة كاهنات المعبد، بل الاندفاع الذاتي للفتاة نفسها. غير أنها عبر تجربتها الذاتية المؤلمة كانت تعرف معرفة يقينية، أن على كيا بنفسها ولنفسها مواجهة هذه الأخطار، وليس بوسع شالا سوى أن تدعمها بكل حبها.

خفف نور بعض المشاعل العتمة في صالة الاحتفال، حيث سرت مهممات خافتة بانتظار أرواح الموتى المدعوين. ومن العدم ظهر في وسط الصالة الرب إيل، خالق الكون، ورب الأرباب. وقف وسط المحتفلين بجلالته الإلهية وردائه الملكي البهي. كان شعره الأبيض كالثلج هو الدلالة الوحيدة على سنه الأزلي، في حين كانت وقفته ورجل ناضج. رغم معرفة كيا بأن كبير الكهنة هو الذي يجسد رب الأرباب وأبا البشرية إيل، فقد جعلها مرآة تتجمّد في مكانها. ارتمى الضيوف أرضاً وحجبوا وجوههم مرحين بالرب وهم يرتلون بصوت رتيب:

آه إيل! آه، يا أبناء إيل!

آه يا أبناء إيل المجتمعين!

آه يا أبناء إيل الوافدين!

آه يا إيل ويا عشيرات!

نلمس الرحمة منك يا إيل!

نلتمس الحماية منك يا إيل!

أسرع يا إيل لنجدتنا،

أسرع إلى جبل الرب صفون

لنجدة قطنا،

بالرمح المرفوع عالياً يا إيل،

وبالبلطة الفالقة يا إيل! ١٠.

عبر الرب القاعة وجلس على العرش المخصّص له. نهض الجميع عن الأرض وجلسوا في أماكنهم أيضاً. وحسب الخطة ناول كاهنان الربّ قديحاً بعد الآخر، مملوءين بشراب أعشاب سكر ممزوج بالخشخاش. قدم الربُّ الأوّل لأرباب العالم السفلي وسكبه على الأرض، ثم شرب الثاني جرعة فجرعة حتى تخدّرت حواسّه تماماً.

هيمن صمت على القاعة. حاول كلُّ من الحضور استعطاف أرباب العالم الآخر عن طريق سكب جزء من شراب القربان ورشف جزء آخر منه باستمتاع، وهو يصلي مبتهلاً ظهّور أحبائه من الموتى، متمتماً أسماءهم، بحيث يتجسدون أمام ناظره. لا، لم ينس الأهل أقاربهم الموتى، وليكن هؤلاء واثقين من أن الأهل يبتجلونهم ويُعنون بهم وليطمئنوا برضا، إلى وجودهم في العالم الآخر. أما اليوم فقد جُهِزت هذه المأدبة لهم هنا، فلماذا تغيّبوا؟

مع ضربة كهدير الرعد ظهر الربّ موت، ربّ العالم السفلي، بين المحتفلين. كان منظره مرعباً، بشدقيه الهائلين القادرين على ابتلاع البشر. دَوّت صيحة عبر القاعة، فحجب الجميع وجوههم ثانية، وحل صمت القبور. دار موت معزّماً، حول إيل، سيّد الأرباب وربّهم، حاملاً بيده مبخرة يتصاعد منها عبقٌ ساحر. جعل موتٌ إيل المخمور ينتشي بأدخنة مبخرته المخدّرة حتى الذرورة. وبرعب تابع الحضور فقدان إيل حواسه، بحيث لم يعد قادراً على شيء. وبينما كانت جميع الأنظار موجهة إلى الكهنة الذين أمسكوا بإيل وهو ينزلق كالميت عن عرشه، اختفى موت، ولكن بعد أن فتح الطريق لأرواح الموتى، رحمةً بهم، عقب انتصاره على إيل؛ وبذلك تحقق التواصل مع عالم الموتى. وأخيراً كُشفت الحجبُ عن موكب تماثيل ملوك قطننا وملكاتنا السابقين، التي استدب فيها الأرواح. وبأزيائها البهية تحت أضواء المشاعل بدت التماثيل وكأنها حية، وأمام كل منها امتدت صفحة لتلقّي الهدايا، فهلّل الجميع وصفقوا. ولهذا لم يتبّه أيٌّ منهم في بادئ الأمر، إلى أن الملك الذي يجسّد إيل ما زال على الأرض بلا حراك، رغم أن شالا التي

تجسد ملكة السماء قد قطرت في فم الإله الميت بلسماً لإيقاظه من غشية النشوة. غير أنه لم يُبدِ حراكاً. أمرت شالا الجميع بالصمت. أرقدت رأس الإله في حضنها وأخذت تبذل شفتيه بيلسم الإنعاش. تفتحصت تنفسه ونبض دمه.

اقتربت كيا وأخذت تتابع برعب ما تفعله ملكة السماء الجالسة على الأرض. ماذا، إن لم يستيقظ الرب؟ وقع نظرها على وجه ملكة السماء، فرأته يشحب حتى بات بلون الرماد، وأمسك بها مرافقوها بقوة، كي لا تعكّر مسار الاحتفال.

في تلك اللحظة أدركت كيا، أن ثمة ما ليس على ما يرام. أم أن هذا أيضاً جزء من خطة الطقس المرسومة مسبقاً؟ بعد دقائق، شعرت بها كيا أبدية، تحرك الملك ورفّ جفناه، ثم فتح عينيه وأخذ يتهياً للنهوض. فانفلت فجأة غناء مديح متحرّر، فذبّحت الأضاحي الحيوانية، وأحضرت المعجنات والزيتون والجمعة والعسل والسّمسم وأشياء أخرى كثيرة، إذ صار يمكن البدء بالوليمة المشتركة. لكن كيا رأت الجهد الذي بذله أبوها الملك للنهوض مستنداً إلى كاهنين. كانت حركاته بطيئة، ثم جلس جامداً على كرسيه مدة طويلة. إلا أنه ابتسم لبلتوم مطمئناً إياها. دهم كيا شعور غريب مهذّب، لكنها لم تستسلم له، فقد كان الجميع يحتفل باسترخاء وحبور، متلذّذين بأطياب الطعام، ولا سيّما بالمشروبات المسكرة رافعين أنخاب اللقاء بالموتى. وكان الكهنة والكاهنات منهمكين كلياً في الإشراف على سير الاحتفال الذي استمر طوال الليل، وكان كل منهم، وبضمنهم كيا، مسؤولاً عن متابعة مجموعة من المحتفلين. ولا سيّما أن كثيراً منهم لم تحتمل أجسادهم نشوة اللقاء مع الأسلاف، فكان لا بدّ من دعمهم، إما بالعقاقير وإما بالماء الساخن لتطهيرهم. وفي أسوأ الحالات نقل الخدم بعضهم إلى دار الشفاء.

«هذا أمر لا يصدق!».

توقفت كيا عندما سمعت صوت أكيزي الغاضب. نَبّهت إلى وجودها بأن نقرت على باب غرفة عمل والدها ودخلت، ثم قالت: «أرجو ألا يكون في وجودي إزعاج لكما!». أشار لها الملك أن تقترب منه. بدا متعباً، لكنه ابتسم لابنته فرحاً بها وقال: «تعالى يا بنتي، واجلسي إلى جانبي. وجودك يفرحني!».

جلست كيا إلى جانبه ملتصقة به وقبّلت يديه وخصديه، ثم نظرت إليه بقلق. بدا لها وكأن

تجربة عيد القمر الجديد ما زالت مؤثرة فيه. كما نظرت بقلق إلى أخيها أكيزي الذي كان يذرع الغرفة جينة وذهاباً وهو متوتر. ثمّة ما هيج غضبه بلا حدود.

«أسمعان لي بالسؤال، عمّ تتشاجران؟».

بقي أكيزي صامتاً، لكنه نظر إلى الملك باستفزاز.

«أكيزي غاضب لاتصالي برجل ارتباط بيننا وبين حتّوشا. فقد التقى مصادفة اليوم بالساعي الذي أرسله رجل الارتباط إلي!».

«كان عليك أن تضيف يا أبي، أنها ليست المرة الأولى التي يدخل فيها هذا الساعي القصر. بوذي أن أعرف، منذ متى تتفاوض مع الحتّيين من وراء ظهورنا، أم أن أوتيا وأكاليينا وتيرو ولوايا على علم بالأمر؟».

استقام الملك في جلسته قائلاً: «أعتقد أنني أعمل لمصلحة قطنا. ثم إنني أتساءل عن اللهجة التي تخاطبني بها يا بني. هل أنا مسؤول تجاهك؟».

«نعم يا أبي، مع فائق الاحترام، أنت مسؤول تجاهي وتجاه أعيان قطنا كافة!».

فتدخلت كيا جاهدة للتخفيف من توتر الوضع واستفسرت: «لأي غرض جرى ذلك؟ أقصد، لماذا تعقد صلاتٍ مع الحتّيين؟ لا شك في أن لديك مبررات مقنعة يا أبي!».

«أنا سأجيبك. إنه أسلوب عمل أبنائنا، أن يكون على علاقات جيدة مع جميع البلاد، ما أمكن. من النظرة الأولى هذا جيد ولا غبار عليه، وهو إنجاز ديبلوماسي كبير. لكن مصر سترتبك بل وستغضب لاحقاً، عندما تعرف أننا نبحت عن حلف مع عدوها اللدود، أليس كذلك؟ والدنا يرى أن جانب مصر مكفول لنا، والضمانة هي السيدة المبجلة إيست أولاً، ثم أنت يا صغيرتي!». وابتسم أكيزي في وجه أخته وهو عملياً يكشّر ممتعضاً، فاحمرت لا إرادياً. أكان ميلها إلى أمونحوتب جلياً إلى هذا الحد؟

«ولن يدهشني أبداً وجود سعاة على الطريق سراً إلى توشراتا ملك ميتاني، وإلى آشور أيضاً. ففي نهاية المطاف لا أحد يعرف كيف ستطور الأمور. ألسنتُ محقاً؟».

تعالم أكيزي جعل الملك يتنفّض واقفاً. وظنّت كيا للوهلة الأولى أنه سيرفع يده على ابنه، غير أن إيداندا كان متماسكاً. لكنه قال بحدة:

«أنا أمتنع من هذا السلوك العاصي المتطاوّل، أكيزي! قد أجزى لمجلس الأعيان أن يلومني، أما لك فلا! ما هو هذا الخطأ الفادح برأيك في جهودي؟ حتّوشا هي القوة

القادمة. شويلوليوما لن يهدأ، حتى يُخضع ميتاني لسلطاته ويحتل آشور. لهذا يجب أن نكون جاهزين، أم تريد لقطنا أن نُهرس بين القوى المتصارعة؟».

«أتظن أن قطنا لن نُهرس، فقط لوجود اتفاقيات تجارية بينها وبين الجميع؟ وعندما يصل النزاع بين حتوشا ومصر إلى مواجهة مسلحة، أتظن أن شويلوليوما سيهتم لوجود قطنا؟».

«طبعاً سيهتم، بل أنا موقن من أنه سيهتم. نحن نحتل هنا خط المواجهة تجاه بلدان الفرات ودجلة. متوجات هذه البلدان وموادها الخام ضرورية دائماً، مثلما أن متوجاتنا وموادنا الخام ضرورية لها!».

«التجارة والثروة هما الأمران الوحيدان اللذان يوجهان تفكيرك!». تفاقمت سورة غضب أكيزي، بحيث تجلّى جوهره المنفلت في حركات جسمه كله.

«إن قصرَ نظرك سياسياً وسوء تقديرك لميزان القوى يدفني إلى حجب وجهي حزناً. وبغض النظر عن ذلك، ألا توفر لك ثروة قطنا عيشاً مرهاً؟».

تابعت كيا بانزعاج النزاع بين الاثنين، إذ لم يسبق لها قط أن سمعتهما يخاطبان أحدهما الآخر بهذا الأسلوب. ما الذي جرى لأكيزي؟ كيف يمكنها التوسط في هذا النزاع؟ التفتت إلى أخيها وسألته: «ما الذي تريده؟ ما هو الصواب برأيك؟».

«أبي يعرفه تماماً»، فتح أكيزي وأردف: «نحن مرتبطون بمصر، وخيراً نفعل بذلك. ونحن بأمرّ الحاجة الآن، أكثر من أي وقت آخر، إلى هذه الحماية القوية. ولكن تحديداً بعد زيارة ولي عهد مصر لسوريا وإقامته بين هذه الجدران بالذات، نسمح لسعاة حتوشا بالدخول والخروج حسبما شاؤوا. هذا لا يعقل!».

«من المؤسف جداً أنك على ما يبدو غير قادر على التفكير بمبرراتي بهدوء»، قال الملك إيداندا، وأضاف: «أرجو أن تتركني مع كيا وحدنا الآن!».

كوّر أكيزي قبضتيه بغضب، لكنه انحنى محيياً بتصنّع وغادر غرفة العمل. نهضت كيا مضطربة، وتوجّهت إلى أبيها وعانقته. كم كانت مؤلمة له هذه الملاسة. نظر إيداندا إلى ابنته بامتنان، ثم قال لها: «يؤسفني يا صغيرتي خوضك هذه التجربة. أتعرفين؟ أسوأ ما في الأمر أن أكيزي محقّ في تهمة واحدة: ما كان يجوز لي الاتصال بحتوشا من دون إطلاع المجلس على الأمر. ما أسره لك يجب أن يبقى بيننا، كيا! أنا لم أطلع أحداً على الأمر، ليقيني من وجود أكثر من خائن في المجلس. ورغم كل جهود مخبرنا ما زلت لا أعرف

هويتهم. وأنا لست قادراً على تخيل أحدهم خائناً: أوبيا، تيرو، لوبايا، لا يمكن لأي منهم أن يعمل ضد مصلحة قطنا. لكن جميع المؤشرات تدل على ذلك. إذا تسرب الآن خبر اتصالنا بالحتيين، فمن المؤكد أن علاقتنا بمصر ستعقد، وكذلك وضعنا هنا في قطنا، ولا سيما علاقاتنا ببعض جيراننا السوريين. أنت تعرفين أن لهم وجهة نظر مختلفة عما يجب أن تكون سوريا عليه. أشعر أحياناً بحيرة كبرى وبارهاق شديد. وإضافة إلى ذلك، لم يتغير انطباعي بأن الأرباب يحجبون مساعدتهم عنا!.

جلس الملك إيداندا قرب المجرم مرتجفاً من البرد، وأخذ يفرك يديه ببعضهما ليدفئهما.

«هل سيكنتم أكيزي الأمر؟».

«أكيد، لا تشغلي بالك بالموضوع!».



بعد عيد قمر الشتاء الجديد ببضعة أسابيع عاد أمونحوتب إلى قطنا، إثر رحلة ممضة. لقد حوّلت أمطار الشتاء الدروب إلى أوحال، جعلتها إلى حد كبير غير صالحة للعبور. اعتبر الملك إيداندا هذه العودة إشارة جيدة. فما من سبب آخر لتحمل الأمير هذا العبء بملء إرادته، سوى لقاؤه بكيا مجدداً. وقد أحضر معه من أوغاريت وبييلوس أشياء كثيرة جديدة، من بضائع وهدايا ورسائل، ومنها رسالة لأكيزي.

وهذه المرة تمكنت كيا من الترحاب بالأمير بصورة لائقة. أرادت أن تكون رزينة هادئة، وعاهدت نفسها على ذلك. لكن مجرد تفكيرها به جعلها تقور وتغلي. وعندما وقفت قبالتها لم تر سواه. رمته بنظرة حارقة، فيما أبقى أمونحوتب عينيه مركّزين عليها طويلاً، ثم ابتسم وانسحب إلى الجناح الغربي ليظهر نفسه من الرحلة.

احتاجت كيا إلى بعض اللحظات كي تجمع أشتاتها، وقررت أن تمضي الوقت في القصر حتى موعد المأدبة المشتركة. وما هي ذي بعد مدة طويلة تجلس ثانية مع إخوتها في غرفة المعيشة. بدا أن التوتربين بين الملك وأكيزي قد تلاشى، فاطمأنت لهذا الجو الأليف، وبدأ كل شيء طبيعياً. إن حياتها الحالية مختلفة، وكم ستغيب يا ترى، إذا ما صارت كاهنة! كان محور الحديث هو الرسالة التي جلبها المصريون معهم من أوغاريت لأكيزي، الذي كان طيب المزاج عندما دخل الغرفة وسألهم: «احزروا، من المرسل!».

كانت كيا قد فكّرت بالأمر وتوصلت إلى نتيجة، فأجابته فوراً: «ما أسهل الجواب. بما أن الرسالة من أوغاريت، فمرسلها لا يمكن أن يكون سوى تالزو. لا أعرف شخصاً آخر قد يرأسك من هناك، أم تراك خطبت أميرة أوغاريتية، يا محطّم القلوب!؟».

ضحك الجميع، لكن موضوع السخرية بقي متماسكاً، فقال: «أخطأت الهدف يا أختي العزيزة! على غلاف الرسالة هناك اسم قائد عسكري كبير يدعى هنوتي». وسُرّ أكيزي لمرأى وجه كيا المذهول.

«هنوتي؟ إنه شخصية بارزة جداً في حتوشا. حسب علمي هو اليد اليمنى للملك شويلوليوما»، قال كوارى وتابع سائلاً: «وما علاقتك أنت به؟ هيا، اعترف!». فقد ثار فضول كوارى أيضاً.

بُهتت كيا. تذكّرت النزاع بين الملك وأكيزي قبل أيام قليلة، ومدى غضب أكيزي بسبب الصلات مع حتوشا، وها هو ذا الآن يتحدث بكل هدوء عن رسالة من قائد حتّي، دون أدنى إشارة إلى شعور بالذنب. ما هي اللعبة هنا؟ فسألت بصوت أجش:

«هل يعني هذا أن الرسالة مكتوبة في حتوشا؟». ولاحظت فوراً من جوابه سلامة نواياه، فقد كان مستمتعاً بحالة الإثارة.

«طبعاً في حتوشا، وهذا واضح من شكل الرُّقْم! وهي من شخص يدعى تانوا».

انزاح حجرٌ عن قلب كيا. إنها من تالزو إذًا، وقد عرفت ذلك من البداية. لكنها جذبت الخيط الذي مدّه أكيزي وتابعت غزله قائلة: «آه، من تانوا. لماذا لم تقل ذلك فوراً. فهذا لم يخطر في بالي مطلقاً. أمر رائع!».

نقل كوارى نظره من أكيزي إلى كيا وقال: «ما عدت أفهم شيئاً. عمّ تتكلمون يا جماعة؟».

غير أن أكيزي أيضاً أصيب بالدهشة، فقال: «أختنا الصغيرة الماكرة تصعب هزيمتها. أخبريني، أقادرة أنت على الاستبصار؟».

صمتت كيا. غير أن أفكارها سرحت عائدة إلى ذلك اليوم الذي حكى لها فيه تالزو عن مشاريعه، عن أنه سيغادر ترشا إلى حتوشا، حتى رغم إرادة والديه. وأنه في هذه الحالة سيبدل اسمه إلى تانوا. حينذاك ضحكت منه ولم تتصور أنه سينجح في مسعاه. لكنه قد نجح على ما يبدو.

«طيب، لن أطيل عذابكم. إنها حقاً رسالة من تالزو. الأرباب وحدها تعرف كيف

حزرت کیا ذلك. إنه في حتوشا، في خدمة الملك، ويتلقى تعليمه هناك، تماماً مثلما كان يرغب. صار يتبع الآن حاشية القائد العام هنوتي ويحمل اسم تانوا. حياته تبدو قاسية جداً، لكنّه راضٍ عن وضعه. إنه يفكر بنا - انظروا هنا، ذكر أسماءنا كلنا - وهو يرسل لنا تحياته!».

فعلّق كوارى: «يفرحني أن أسمع أخباره. إنه شاب جيد. وفي أيامنا هذه من المستحسن أن يكون لنا في حتوشا شخص نثق به. وماذا عن إحيّا؟». فأجاب أكيزي:

«عن والديه لم يكتب شيئاً. ولكن ثمة رسالة إضافية هنا خاصة بكيا!». ومدّ يده نحو كيا بالرُّقْم. كان على الرقم أربع إشارات مصرية، استدعت ابتسامة من كيا. ياله من إخلاص! إنه فعلاً لم ينسَ أنها أرادت أن تكاتبه بالمصرية، فبذل جهده ليتعلمها. قرأت كيا بصوت عالٍ: «طال عمرك في صحة وعافية!». وهذا ما أتمناه لك أيضاً، قالت في نفسها.

غادرت كيا غرفة المعيشة، وعلى طريقها بين القاعات لحق بها أكيزي وسحبها من يدها إلى غرفة عمل الملك الخالية، قائلاً: «أريد أن أكلّمك، كيا. اجلسي!». وسحب من كمّ رداثة لفافة بردي، فسألته: «ما هذه؟».

«هذا ما أريد أنا معرفته، يا أختي العزيزة. صديقنا تالزو أو تانوا، كما تشائين، أرسل عدّة رسائل في طرد واحد. اللوح الطيني موجه إليّ ولنا جميعاً، ثم هذه اللفافة المزينة باسمك، وكانت مخبأة في إحدى الهدايا، مختومةً ومحاطةً بسلسلة ذهبي ناعم يشبه سلسالك. استحيل أن يفترض تالزو أنني لن أعثر على اللفافة الموجهة إليك، إذاً فقد أخفاها لأسباب أخرى. وأنا من جهتي أريد أن أعرف ماذا يكتب لك، وليس لي أنا. كيا، أنا أخشى.. تعرفين ما أعني، أليس كذلك؟ هذا سيخرّب جميع الخطط مع أمونحوتب، ويحتمل أن يؤدي إلى فضيحة كبيرة. أرجوك، افتحي لفافة البردي هذه. إذا كان فيها ما أتوقّعه، فيجب أن نعدّهما بأسرع ما يمكن وأن نكتم أمرها كلياً!».

ناولها أكيزي اللفافة.

تحسّست البردي بيدها والختم والسلسال. لقد زوّد تالزو نفسه بالبردي من قطننا. كانت موجودة إلى جانبه وهو يجمع الأوراق الفاتحة والناعمة بكل عناية. لقد اختار أفضل الأنواع. لم تتصور أن يوجد في حتوشا مثل هذا الختم الخاص والجديد؛ أمر يسترعي الانتباه! لحسن الحظ أن حروف الإطار كانت أكديّة، أما العلامات الصوريّة في الوسط فلم تعرفها، إذ لا علاقة لها بالهيري وغلبيات المصرية. لا بدّ إذاً من أن تكون علامات

كتابة حثية. لا شك في أن تالزو يتقدم في عمله سريعاً. فكّرت فيما إذا كان عليها أن تفكّ السلسال، وما إذا كان عليها أن تفتح اللفافة هنا، حسبما يتوقع أكيزي منها.
«أفضّل أن أقرأ الرسالة وحدي في بيت الربة!».

«لا يمكنني أن أسمح لك بذلك بأي حال من الأحوال، كيا، وأنت تفهمين ذلك. فكّري بالمجازفة القائمة. ماذا سيحدث إن اعترضك أحد وأضعت اللفافة لسبب ما. لا، لا نقاش حول الأمر. يكفيك أني قد أعطيتك إياها بنفسني، وفوق ذلك، غير مفتوحة!».
«ماذا جرى لك؟ لا يمكنك هكذا ببساطة أن تحجب عني أخباراً موجهة لي، أو أن تفتح رسائلي. إنني أقولها لك بطيبة، أكيزي، إذا وصل إلى علمي مرة أنك تخدعني بهذه الطريقة..!».

فقاطعها أكيزي قائلاً: «عفواً يا أختي. هذا لن يحصل، طبعاً. أنا قلق وحسب، ولا داعي لأن أذكرك بالسبب. من المهم جداً لقطنا أن يقف أمونحوتب إلى جانبنا. وأنا أريد تجنّب أية مخاطرة. أنت تعرفين معزة تالزو عندي كصديق، أما أن يصارحك بحبه ويقسم على الإخلاص لك، فهذا غير وارد إطلاقاً. لذلك أرجوك، كيا، افتحي ورقة البردي لتتضح لنا الأمور!».

«حسناً، لتتفق على ما يلي: إذا تحققت مخاوفك فسأعطيك الرسالة لنحرقها. أما إذا كانت بريئة فسأحتفظ بها. موافق؟».

«ما معنى هذا؟ لا يمكن لأي رسالة منه أن تكون بريئة! ألا تفهمين؟ كيف يخطر في باله أساساً أن يخاطب أميرة قطنا؟».
«لعله يخاطبني، لأننا أصدقاء، أنسيت؟».

عصّ أكيزي على شفته. لا مكان الآن لخلاف بينه وبين كيا. ولطالما كانت أخته تعرف دائماً ما تريد. فقال: «موافق!».

جلس إلى إحدى طاولات الكتابة، بينما حلّت كيا بروية السلسال الناعم عن اللفافة وخبّاته في رداها. ثم كسرت الختم وفردت اللفافة وأمسكتها بيديها. كانت الصفحة مملوءة بالكتابة. بدأت الرسالة بصيغة تحية مألوفة، وقد ابتسمت كيا عندما قرأت اسم الربة التي اختارها تالزو لها: «حفظتك الربة شاونشغا». ولم يكن في الرسالة ما يبرر مخاوف أكيزي. طارت عيناها عبر السطور، من دون أن تفهم شيئاً. عمّ يتحدث تالزو؟ ولكنها في القراءة الثانية التقطت ما يلتمح إليه الصديق، فارتعدت وأملت في الوقت نفسه

ألا يكون أكيزي قد انتبه إلى ذلك. إن ما لاحظته تالزو بشأن تيرو يجب أن تكتمه لنفسها، وحتى أكيزي لا يجوز أن يطلع عليه. وإن اضطرت فوالدها فقط، فلعله الوحيد القادر على استيعاب الأمر وتفسيره. على كل حال، ليس في الرسالة ما يسرّ، وقد تبدى لها ذلك جلياً. أثناء قراءتها شغل أكيزي نفسه بتفحص أحد الرُقم على الطاولة، كي لا يستثير غضب اخته بأكثر مما هي عليه. ولذلك فإنه لم يستجب فوراً عندما نهضت وتوجهت إلى المجرم ورمت لفافة البردي الجاف لنتشعل فيه. لكنه عندما رأى ما فعلت قفز وسألها عابساً: «ماذا تفعلين؟ يبدو أن مخاوفني كانت في محلها! تجاسره هذا ساحاسبه عليه!». كانت كيا قد تماسكت، فقالت له مهدئة: «يا أخي أكيزي، أرجوك استمع إليّ لحظة بهدوء. لم يكتب تالزو أي شيء مما تتهمه به. عليك أن تصدقني في ذلك، فأنا لن أكذب عليك!». «لماذا لم تُرني إذاً، ما أراد أن يقوله؟».

«لا يسعني أن أتحدث في الموضوع إلا مع أبي. ويفضّل أن تنسى الأمر كله».

وعلى غير عاداتها قبلته على خدّه وغادرت غرفة المكتب بسرعة، فيما بقي أكيزي مشوشاً والشك يأكله. أيمكنه الاعتماد على كيا؟ أيمكنه الاعتماد على صديقه تالزو؟ ما الذي كتبه لها يا ترى؟ ولماذا لها بالذات؟ اشتعل حقناً، فهو وليّ العهد وليس صبيّاً طائشاً. كيف تتناول كيا عليه بهذا التبرير؟ إلى جانب من تقف كيا؟ كان يعتقد أنها تحب أمونحوتب. والآن تالزو؟ هل للرسالة علاقة بصلات الملك مع حتوشا؟ وأخيراً بدا له هذا حلاً معقولاً. لكن هذا يعني أن كيا تقف إلى جانب الملك، الذي يدعم الارتباط بين كيا وأمونحوتب، ويمدّ مجساته ورغم ذلك نحو الحثيين. ما هذا اللعب المربك! كم يكره هذا العبء المرتبط بالسلطة والحكم، وقرّر أن يفرق غضبه بالشراب وأن يبحث عن إحدى ضجيعاته، فحمل إهلي نيكالو يضحجه.

الرسائل الأخرى التي وصلت إلى قطننا مع أمونحوتب، لم تكن سارة أيضاً. ففي إحداها يخبر (ريب أدي) حاكم جبيل الملك إيداندا بأن أمنّ طريق القوافل قد ساء جداً. فأحدى القوافل المنطلقة من قطننا والمزمع متابعة شحن حمولات حميرها بالسفن إلى مصر، كانت عند وصولها إلى جبيل قد فقدت عدّة حمير مع حمولاتهم الثمينة. وقد علم ريب أدي بحادثة مشابهة تتعلق بقافلة منطلقة من نَشْلا إلى أوغاريت. وكتب ريب أدي إضافة إلى ذلك أنه قد سأل ملك أمورو وملك قادش وحكام إمارات مجاورة أخرى عما إذا كانوا قد سمعوا عن حوادث مشابهة في مناطقهم. لكنه لم يحصل حتى الآن سوى على

جواب حاكم أمورو الذي قال إن الأمن في مملكته مستتب، وإن رقابته مشددة على كل شيء فيها. غير أن هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً، في رأي ريب أدّي، فقد علم من مصدر موثوق أن حوادث الاعتداء على القوافل قد وقعت في أمورو أيضاً، لكنه لا يعرف مبلغ الأضرار الناجمة عنها.

«حالما تتحسن أوضاع الطرقات وتعود صالحة للسفر، لا بدّ لنا من الاتصال بريب أدّي»، قال إيداندا لأقرب أعضاء مجلس الأعيان، بعد أن ناقش معهم رسالة ريب أدّي، وأضاف: «لنعرف ما إذا كانت الهجمات على القوافل تشابه ما مر بنا. في حالة واحدة على الأقل، نعرف أن الغنيمة كانت ثمينة جداً. لكن الرسالة لا تخبرنا ما إذا كان المالك من قطنا».

«أليس غريباً أن تتكاثر الهجمات في هذا الصيف تحديداً؟! في السنوات الماضية لم يكن الأمر هكذا. يبدو لي أن ثمة من يريد إثارة القلاقل. ولكن لأيّ غرض؟». قال أوبيّا وهو يهز برأسه. فعلق أكالينا: «لا أدري أيهما أكثر أهمية: تعرّض أمن طرق القوافل للخطر وضرورة تحسين حمايتها، أم أن البضائع المنهوبة هي الأمر الحاسم في الأحوال كلها. بالنسبة إلى عائلتي كانت خسارتنا فادحة، كما تذكرون حتماً، فالمهاجمون قد استهدفوا أعلى ما في الشحنة كلها».

«عندما نعرف أكثر، ستمكن من إيضاح تساؤلك!». قال تيرو.

«الشريف تيرو محقّ في قوله»، علّق أوبيّا وتابع: «لكن ما لا أفهمه هو ما يخبرنا به ريب أدّي عن الملك (عبدي عشيرتا). لماذا يزعم هذا أنه لم تقع أية هجمات على القوافل في أمورو، رغم أن الواقع غير ذلك؟».

«تعرفون جميعكم»، أجاب إيداندا «مدى اعتزاز عبدي عشيرتا بنفسه إلى درجة الغرور. إن مجرد التلميح إلى أنه لا يُحكّم سلطته الكاملة على ما يجري في مملكته، سيخرجه عن طوره. فليضحك إذا ريب أدّي في عبّه لكون تصريحه لم يؤدّ إلى استدعائه للمبارزة». فضحك الجميع، ثم سأل تيرو ملتفتاً إلى إيداندا:

«وما حكاية ابنه عزيرا؟».

«ماذا تقصد؟».

«ظننت أنه معجب بابتك، كيا. أليس كذلك؟».

«ما هذا الكلام؟».

«لن تكون أسوأ الزيجات إن جمعت بين قطنا وأمور، وأنت تدرك ذلك جيداً، إيداندا!».

«أرجوك تيرو، لا تفتح هذا الموضوع مجدداً!».

«لا تستغيني يا صهري العزيز، أنا أعرف تماماً بمن تفكر عريساً لأميرتك!». ونهض تيرو منزعجاً وانسحب من الاجتماع.

مخاوف تانوا من أنه لم يكن في مستوى متطلبات كبير الكتاب لم يكن لها ما يبررها. لقد علم بذلك من هنوتي، الذي أخبره بفخر، بأن معلمه المستقبلي راضٍ عنه وعن إمكاناته كل الرضا.

«لكن كلمات كثيرة في النص لم أعرفها، فلم أستطع كتابتها».

«لا أحد يتوقع منك أن تأتي إلى الدنيا ضليعاً بالحنية في لغة الإدارة والقانون الاختصاصية. معلوماتك اللغوية ممتازة. وذكرك اللغة الإيجية كان ضربة ذكاء منك!». «رغم عدم معرفتي بأن الملكة من تلك المنطقة. ما هذه المصادفة؟».

«هناك علاقات سلمية أيضاً مع بلدان بحر الغرب الكبير. أما أن يصل جنون العظمة عند ملك أرزاوا حداً يعلن فيه العداء تجاهنا، ويضطرنا إلى خوض عدّة معارك ضده، فهذا ما لم يتوقعه أحد. الملكة هتتي جاءت مع عدد من أشرف إيتجة وأرزاوا لزيارة حتوشا كالعادة. في تلك الزيارة، أذكر أنهم رافقوا تمثال ربة الشفاء. وأثناء ذلك اشتعلت شرارة بينها وبين الملك»، وضحك هنوتي.

يبدو أن هذا الشرار لم يلمع في وجه هنوتي حتى الآن، فكر تانوا. وهذا الأمر يؤرق شوميري، أم هنوتي وجدة تانوا. وهي سيدة نبيلة متينة البنيان، استقبلت بعد طول غياب ابنها، بحضور أفراد العائلة الذين لا يحصى عددهم، في دارها الكبيرة الواسعة الواقعة بين الحصن والمعبد الكبير في منطقة سكنية راقية. وكان سؤالها الأول له: «متى ستزوج لأرى أحفادك؟»، فانتهز هنوتي الفرصة بمزاج طيب وأجابها:

«لأجبتك يا أمي الحبيبة عناء الرضع ومتاعبهم، أحضرت لك معي كتعويض حفيداً ناضجاً حسن التربية ممتاز التعليم: ها هو ذا تانوا، ابن كالي!».

أيخذه انطباعه يا ترى أم أن الصمت قد حلّ فجأة حقاً؟ يُحتمل أن يكون الأمر مفهوماً، نظراً لبعده الشقة وطولها مع كالي، فكان الجميع فضوليين تجاه ابنها، ولكن بتحفظ. رحبت به شوميري بود، وعرفته بالحضور. أراه هنوتي بعض قاعات الدار وشرح له المبدأ المعماري الذي بُني وفقه معظم دور الأشرف والقصور والمعابد في حاتوشا:

«تُعَدّ الدار بمنزلة كونٍ مصغر: فالعمود الذي يتوسط القاعة الرئيسية هنا يمثل العمود الذي يدعم السماء. في جميع المنازل والقصور والمعابد يوجد هنا عرشُ سيّد الدار أو الملك أو الرب، أو كرسيه. وهنا يوجد أيضاً مكانُ الشرف لكبار الضيوف. سقف الدار يمثل السماء، والزوايا الأربع تمثل الاتجاهات الأربعة. الموقد هو مركز الدار، حيث نقدم الأضاحي لأرباب الدار. وأرضية الدار تمثل الأرض التي يوجد تحتها العالم السفلي».

تجتمع الحضور حول هنوتي في القاعة الرئيسية وأخذوا يسألونه عن مغامراته. شعر تانوا بالفرح عندما تمكن من الجلوس بجانب هنوتي إلى مأدبة الطعام، فقد كان يشعر بنوع من الضياع رغم ترحيب الجميع به. ولاحقاً، عندما عاد للتفكير في هذا اللقاء الأول لفت نظره أمران. أولهما أن خالة عجوزاً فقط، هي من استفسر بالتفصيل عن حال أمه من بين جميع أفراد العائلة. لكن ما أثار استغرابه أكثر، وقد انتبه إلى الأمر مصادفة عند مغادرتهما دار العائلة مساءً، هو أن عدداً من أفراد العائلة وراءهم، قد رفعوا أكتفهم ليحموا أنفسهم من مصيبة نازلة. شعر تانوا بنفسه في مواجهة الغاز، لكنه لم يجرؤ على السؤال.

كان تانوا مسروراً بالعمل في مكاتب الإدارة، رغم ضغط الفروض والواجبات التي كان عليه إنجازها يومياً. فقد وضعوا له برنامجاً ساعتياً، فكان ينتقل يومياً من مدرّسٍ إلى آخر. وأكبر ما كان ينقصه هو تعلّم قراءة العلامات الصورية وكتابتها، غير أن تقدّمه كان سريعاً لأنه كان يطيل السهر وهو يتمرن في مقرّ إقامته.

ومقرّ إقامته كان في دار هنوتي، في بناء يقع إلى غرب باحة الحصن السفلي، حيث خصّص له خاله غرفتين. وكما كان الحال عليه لدى الأهل في ترشا، لم يكن مطلوباً منه هنا سوى أن يهتم بتعليمه، وكل الأمور الأخرى الضرورية كان الخدم يقومون بها. وقد حصل على هذه الميزة لقاء اندفاعه الكبير في أداء جميع واجباته.

إضافة إلى تعلّم الكتابة الصورية، تلقى تانوا دروساً بلغة البّلا الشمالية الغربية، كما تعلم التمييز بين أنواع النصوص: الشعائرية، الاحتفالية، الصلواتية، الأسطورية، الحكائية،

والنصوص الأدبية السومرية والأكدية والأخرى التي تتضمن مدونات تاريخية. وتعلّم إضافة إلى ذلك كتابة الديباجة الصحيحة لمختلف الرسائل، وتحضير نصوص المعاهدات والائتفاقيات. وتدوين محاضر اجتماعات مجلس الشيوخ ومباحثاته، وتدوين النصوص القانونية. وفوق ذلك كله كان عليه تعلّم إدارة المكتبات والمحفوظات. ولتسهيل ذلك كان يُلجأ إلى ملصقات طينية صغيرة على مختلف الرفوف تدل باختصار إلى مضامين مجموعات الرُّقم.

ولخلق نوع من التوازن مع العمل المغبّر، حسب وصف هنوتي لعمل الدوائر الحكومية، كان على تانوا ما أمكن أن يتابع التدريبات الجسدية المنتظمة. وكان هنوتي هو من طالب بذلك، تحسباً لمشاركة تانوا في حملات عسكرية. وقد شعر تانوا بأن التدريبات اليومية مفيدة وتبقيه على اتصال بزملائه وأصدقائه.

انصب اهتمام تانوا على دراسة جغرافية حتّوشا، والبلدان الأخرى أيضاً التي لها صلات مع حتّوشا. وكانت محفوظات الإدارة تحتوي على ملفات واسعة عن كثير من هذه البلاد. وقد سرّ تانوا لوجود ملف حول كِتّانا حسب اللفظ الحتي لِقَطْنَا. ولكن بدا أن كاتب الملف لا يعرفها من كتب، أو أنه قد زارها عابراً. وتضمن الملف إشارة إلى مادة الصباغ الأحمر التي تستخدم لتلوين أجزاء من الأردية والأثواب. فكُلّف تانوا بتجديد معلومات الملف، نظراً لإقامته عدّة أسابيع في تلك المملكة.

بدأ تانوا بالعمل، وفكر بالعرض من معلوماته، وتبيّن له بعد فترة قصيرة أنه يواجه مشكلة. وتأكد ذلك عندما أعلمه ميتاناموا بأن الملك يريد شخصياً تبادل الحديث معه حول قطنا. عندئذٍ أحسّ أنه في ورطة. فهو في قطنا موضع ثقة، وأكيزي كان صديقه! وهو في حتّوشا موضع ثقة كبيرة. فلقد اطّلع على محفوظات الإدارة، كما أُطلع بشكل أو بآخر على المراسلات الديبلوماسية. ويات يعرف ما يدور في مركز السلطة في حتّوشا وما حولها، وما المطلوب منه أثناء المفاوضات، إذا ما رافق هنوتي والملك في الحملات العسكرية. والنتيجة باختصار: عليه أن يكرّس حياته في سبيل حتّوشا، وأن يكون ولاؤه لها مطلقاً، ولا سيّما بعد أدائه القسم الرسمي.

ولكن ماذا عن قطنا؟ وعن الملك إيداندا وأكيزي؟ وماذا عن كيا؟ بعد تفكير بالأمر، أحسّ بارتياح لأنه فعلاً لم يطّلع على المنطقة المحظورة في قطنا وما يجري فيها. لذلك ليس لديه الآن ما يكشف عنه، ولولا ذلك لكان لديه الكثير ليدوّنه.

يا ترى إلى جانب من تقف قطنا؟ ماذا حدث فيها منذ سفره منها؟ ليه يمتلك المرأة السحرية المذكورة في الحكايات! في الخارج كانت الرياح الشتائية تعصف بصخب، فيكون لاندفاعاتها بين المنازل صغير حاد. وقلب تانوا كان يعصف أيضاً. لم يكن بوسعه سوى التضرع للأرباب الألف كي لا تصبح قطنا ذات يوم مشكلة لحتوشا، وأن تصبح معلوماته فائضة، مع موازنته لها الآن بتأناً. وفي زحمة هذه الأفكار خطرت بباله أيضاً رسالته إلى أكيزي وكيا. كان قد سلم كل شيء إلى الإدارة ليذهب مع ساعي البريد، من دون أي ارتياب. إنهم مطلعون على صلاته إذاً، ولا شك في أنهم قد تساءلوا عن السبب الملح الذي دفعه للكتابة إلى وليّ العهد. لقد وضع اللوح الطيني في الكيس المعتاد وختّمه. وماذا عن ورقة البردي؟ أيجتمل ألا تكون الرسائل قد أرسلت قط؟ كم كان ساذجاً سليم النية! عليه أن يتعلم أكثر بكثير من كتابة العلامات الصورية!

لقد ظن أنه يعرف، من الذي أرسل نحو الجنوب، فنانينزي لم يعد يظهر في مكاتب الإدارة. إلى أين في الجنوب؟ قيل أوغاريت. إذا وصلت الأمور بين حتوشا وميتاني إلى الحرب، فحال أوغاريت ستكون في خطر، مثل قطنا. إنه يحتاج الآن مثل الملك إيداندا! ليس بوسعه أن يفعل شيئاً الآن سوى أن يجهز نفسه للأسئلة. لذلك لا بدّ له من أن يوضح الأمور في ذهنه ليعرف بماذا سيحجب. والأفضل هو أن يقول الحقيقة ببساطة، وهم سيحترمون هذه الحالة الاستثنائية. لا، لن يترك الأمور لتصل إلى هذا الحد. لا أحد يعرف شيئاً عن حبه لكيا. حتى أنه لم يُبَخْ بالأمر لمورسيلي، ولا لهنوتي. والده هو الوحيد الذي قد يخمن ذلك، لكنه بعيد جداً. ومن ترشا لم يصله حتى الآن كلمة واحدة. إذاً لا ضمانة لديه، أن الرسائل قد أرسلت. إنه لم يصبح بعد فرداً في عداد الخدمة الملكية الفعلية، وها هو يورط نفسه في مشاكل. إنه مستعد بكل قواه لخدمة حتوشا، لكن وعده المقدس بالمساعدة لكيا يأتي في المقام الأول. ماذا سيفعل، إن أرسلت له ذات يوم تميمتها؟ عندئذ سيهرع إلى جانبها، ولن يعيقه عن ذلك شيء. ترى هل سيقبل أرباب حتوشا بذلك؟ يقال إنه لا جدوى من الكذب، لأن الأرباب يعرفون دائماً ما إن كان المرء يكذب أم لا. ولكن إن لم يسأله أحد عن كيا، فإنه لن يكذب.

وبقلب مثقل تناول بيده اللوح الطيني، طلاه بطبقة طازجة من الشمع المذاب، وشرع يكتب عليه كل ما يستحق أن يروى.

بمرور الوقت بات تانوا يعرف العاصمة الواسعة بصورة جيدة. فكلما سنحت له الفرصة

بين دروسه وواجباته كان يتجول فيها وحده، نادراً مع هنوتي وأحياناً مع مورسيلي وميتا أو مع الزملاء الجدد في الإدارة. ومنهم عرف أن القصر ليس المكان الوحيد في حتوشا، حيث تتم عمليات التدوين والنسخ والحفظ. ففي المعبد الكبير لرب الطقس فقط يوجد أكثر من خمسين كاتباً ثابتاً، من دون أن نحسب حساب المعابد الأخرى. كانت الحاجة إلى الكتاب الجيدين كبيرة جداً، ففي جميع المقار الملكية يجب أن يسود المستوى الجيد نفسه. إضافة إلى ذلك هناك كثير من الكتاب المتنقلين الذين يرافقون الملك في جولاته وحملاته العسكرية، إلى جانب مختلف المترجمين.

كما قبل سنة تقريباً مع كيا في قطنا، كان تانوا هنا في حتوشا يصغي للشروح الدقيقة. وقد أعجب على نحو خاص بمجمع مباني المعبد الكبير لرب الطقس الواقع في المدينة السفلى على مساحة شاسعة، وهو معبد من معابد كثيرة غيره في المدينة. في المدينة العليا يوجد حي المعابد المشكّل من نحو عشرين بناء مخصصة لمختلف الأرباب، وتكاد تكون متلاصقة. الأرباب المبعجلون في حتوشا لا يحصى عددهم، وكل واحد منهم بحاجة إلى مقر، إما وحده أو مع أرباب آخرين. وكان لأرباب الدرجة الثانية، أمكنة يُعبدون فيها، تتألف كحد أدنى من شاهدة حجرية مقدسة أو من دغلٍ مقدس.

«هنا تم التفكير بكل شيء بعناية»، قال له هنوتي في أثناء إحدى الجولات، وكانت طبقة من الثلج الأبيض ما زالت تغطي كل شيء، فبدأ المنظر نقياً جليلاً. «خذ مثلاً تنظيم الأبنية المهمة. مساكن الأرباب تقع في مكان خاص منعزل أعلى القصر الملكي الذي يقع أعلى المدينة السفلى بأحيائها السكنية الكثيرة. وهكذا أمكن تجسيد نظام الدنيا بالحجارة!».

«إذاً ما سبب وجود المعبد الكبير في المدينة السفلى؟».

«لقد بني هذا المعبد قبل زمن بعيد جداً، هو والحصن يشكلان نواة المدينة. هنا يقيم رباً المملكة الأعلى مرتبة والأكثر أهمية: رب طقس السماء وربة شمس أرينا. قديماً لم تكن المدينة بهذا الاتساع، وتدرجياً أخذت تتوسع وما زالت باتجاه الجنوب، حيث ما زال السور جديداً، نوعاً ما، وغير مكتمل في بعض المواضع. علينا من وقت إلى آخر زيارة ورشة البناء في أقصى جنوبي المدينة. سيكون السور صرحاً عملاقاً. لقد رأيت مخططات البناء ونموذجاً طينياً له».

«تلك الأبنية هناك على الهضبات الصخرية الثلاث تبدو مثل قلاع صغيرة خاصة. من

يعيش هناك؟».

«الموتى»، قال هنوتي وأردف: «إنها أحرام لعبادة الموتى»، وعندما رأى تانوا يقطب جبينه، أضاف: «ومن يدري لأية أشياء أخرى. زيارة المكان ليست إلزامية».

«السور في الشمال الشرقي هائل أيضاً. مشيت بمحاذاته حتى وصلت إلى الجدول. ما سبب ترك فتحة في السور هناك؟».

«جميع المحاولات هناك أخفقت، لأن الفيضان السنوي في الربيع يحطم أي سور. لكن المكان هناك محروس بكثافة دائماً، إلا في أعماق الشتاء».

«وهذا الوادي الذي يمتد إلى يمين السور ويساره..؟». فقاطعه هنوتي على نحو باتر قائلاً: «ستحدث عنه في فرصة أخرى. هناك من ينتظرنى».

فعلقت تانوا: «يبدو أن لكل مدينة سرّاً».

توقف هنوتي في مكانه وسأله: «ماذا تقصد بذلك؟».

«دائماً هناك حيّ محظور ومسور ومحروس. وإذا سأل الإنسان، عمّا يوجد هناك، فإما أن يأتيك جواب موارب أو الصمت المطبق!». وضحك.
«أين مثلاً؟».

«مثلاً، في قطنا!». وعضّ تانوا على شفته.

«آه، وماذا يخفون هناك؟».

«لا أعرف. ولكن يمكنني التخمين فحسب. لكن هذا موضوع أردت منذ مدة أن أحدثك فيه يا خالي». غلطة ثانية، فقد نبّه هنوتي ألا يخاطبه بصيغة يا خالي، بل باسمه المباشر هنوتي أو برتبته العسكرية أمام الآخرين.

«أي موضوع؟ قطنا؟ بكل سرور، لكن علينا تأجيله الآن. إنهم ينتظرونني في مجلس الشيوخ. وداعاً الآن إلى حين!».

«أنت لا تعرفين، كم ألهمتني يا كيا، وكم جعلت عقلي ينشط يا جميلتي! لم أتوقف عن التفكير فيك منذ غادرت قطنا، وباستمرار. ترى هل أرسلك رع إلي؟ هذا ما كنت أسأل نفسي عنه طوال الأسابيع الماضية. فتدفقت السطور مني إليه بكل امتنان وبهجة. ومنذئذ أضيفت إليها سطور كثيرة أخرى. هل ستقرئينها؟».

فقلت کیا بصوت خافت: «لقد أسعدتني جداً يا أمونحوتب بما أرسلته إلي. جميلة تبتدين، أيتها الشمس الحية، يا سيدة الزمن اللا متناهي!». وأخذت تقرأ القصيدة.

كانت واقفة هناك في ردائها البسيط، بوجهها الجادّ المستغرق، وقد أحاطت خصل شعرها الأسود به وبعينيهما المضيئتين، فركع أمونحوتب أمامها على ركبتيه بتأثر عميق، وأحاط خصرها بذراعيه. وعندما رفع ناظره إليها كانتا مغرورتين بالدموع.

«أنت كل شيء في حياتي!». قال هامساً «نعم، لقد أرسلك رع إلي!».
وبكل نعومة اضطرتّه کیا للنهوض.

«أتعرفين، لدي خطط عظيمة. في قادم الأيام، عندما سأجلس مكان أبي -أطال الأرباب في عمره- سأنجز ما بدأه مع الملكة حتى الكمال. سأعلن على الملأ مع زوجتي رسالة النور الأوحّد، رسالة مانح الحياة وسيد الكون، رسالة رب الأرباب. سنبنّي له معابد رائعة، يغمرها النور في كل مكان في البلاد. أرض مصر السوداء - كيميت، ستزدهر أكثر فأكثر وستنشر ضياءها على جميع البلدان الخاضعة لها والممالك المتحالفة معها. وذات يوم سيغمر النور جميع البلاد، فتضجّج به. سنكون نحن كبيرى كهنة رب الشمس، وستنشر رسالته في كل مكان!».

أنصتت کیا إلى رؤياه. ما قاله أمونحوتب بدا مقنعاً. نسيت التهديدات العسكرية التي تورق أباهها، ونسيت النبوءات السيئة التي عصفت بشالا، والأخبار المزعجة التي انطوت على مزيد من الألباز، بدلاً من أن تحلّ بعضها. كما نسيت أحلامها المنذرة بالسوء. أن تحيا إلى جانب أمونحوتب، أن تدعم معه أفكاره، أن تتماهى فيه.. إنها مستعدة للتضحية بكل شيء في سبيل ذلك. إنه قدرها! رفع أمونحوتب عنها وشاح كتفيها برقة وتحسّس يديها وساعديها. رفع يديه إلى كتفيها ثم أغرق أصابعه في شعرها. استجابت کیا لملاطفاته.

بمرور الأيام تنامى شعور کیا بثقل خدمتها في بيت الربة. وباتت تتوقع يوماً أن تطلبها شالا لتسائلها. ولكن لم يحدث أي شيء من هذا، وسرعان ما تراجعت مخاوفها. كانت تمشي على سُحْبٍ، وتشعر بكل ما يجري حولها خافتاً وناثياً. لم تعد تعرف شيئاً عن حياة القصر، ولا عن الحركة التجارية الدائبة في دار البلد، ولا عن نشاطات كل حي من أحياء المدينة. لاءمتها رتابة الحياة الساكنة في بيت الربة. فعلمت الكثير عما كانت موقنة بأنه سيفيدها كملكة أيضاً: مهارات في كتابة لغات مختلفة، والكثير في شؤون الطب.

كانت کیا شديدة الإعجاب بمهارات بعض الكاهنات في دار الشفاء، في استخدام

أيديهن ومعارفهن الواسعة وحدهن لمعالجة الحالات المرضية. كانت هناك في مكتبة المعبد تدوينات حول أمراض بعض الأعضاء الداخلية كالمرارة والطحال والكبد، وحول أمراض الرأس ومشاكل العين وأمراض الأسنان وسيلان الأنف والسعال وأمراض الرئتين والقلب والأمراض الجلدية والأورام والدمامل وأمراض الدم. إضافة إلى ذلك كانت هناك تدوينات أخرى حول ما يسمى المَسّ والإصابة بالعين الشريفة، ومختلف حالات الجنون وغيرها كثير. وبالتدريج اكتسبت كيا معارف واسعة حول مفعول العقاقير والأعشاب الشافية، التي جيء ببعضها من بلدان نائية. ففي بعض أمراض العين مثلاً استخدم حجر الشبّ الذي كان يستورد من مصر أو حتّوشا، والذي كان يستخدم أيضاً للتعقيم. في حياتها اليومية كانت كيا تعرف الكثير من المواد من دون دراية باستخداماتها الطبية، كالزيوت والثوم والبقس. وهناك كثير من العقاقير التي لم تسمع بها قط.

في دار الشفاء كانت تُصان أسرار وصفات خاصة جداً، كتحضير شرابات مخدرة تستخدم في طقوس احتفالية معينة. ومعرفة التركيب والمعايير اللازمة تتطلب مسؤولية كبيرة، وفي الوقت نفسه معرفة دقيقة بالشخص الذي سيتجرع الشراب. وقد اطلّعت كيا على ذلك وخبرته في شخص أبيها الملك أثناء عيد قمر الشتاء الجديد. إلى جانب ذلك كان على الكاهنات التعامل مع المواد المسكّنة للألام التي قد تؤدي إلى حالات تخدير، ونشوة إذا زاد العيار عن حدّه. إحدى هذه المواد كانت تستخرج من نبات الخشخاش، الذي كان يزرع في حقل تابع لمعبد خارج أسوار قطنا.

كان محور اهتمام دار الشفاء هو الشؤون النسائية، فكانت الكاهنات تعالجن اضطرابات الدورة الشهرية والحمل والتوليد، كما كنّ بارعات في إزالة شعر العانة والإبط على نحو سليم. حتى في حالات شكوى المرأة من تراجع قدرات زوجها الجنسية، كانت الكاهنات غالباً ما يقدمن المقويّات.

كانت كيا تمتص المعارف والمعلومات كقطعة أسفنج. وإضافة إلى ذلك كانت تُسعدّها يومياً نظرات الشكر والعرفان في عيون نساء، ساعدت يداها ومعارفها في تخفيف آلامهن.

على الرغم من ذلك كان أمونحوتب يلتقي يومياً تقريباً بكيا. بدا لها أن الجميع من حولها يجذبون هذه اللقاءات ويدعمونها، فكثيراً ما كانت تصادف حالات يجدان نفسيهما فيها معاً وحدهما. وكان أمونحوتب يتهز هذه الفرص ليحدّثها عن رب الشمس، الأمر

الذي كان يتجنّب في حضور آخرين، سوى إيسيت. كانت تنصت منجذبة إلى استفاضاته، التي كانت تشعرها بنوع من النشوة. يا للهالة الكاريزمية التي كانت تشعّ منه! سيكون مخلّصاً للبشرية.

«سأعود قريباً إلى مصر!». قال لها ذات مساء. رفعت كيا عينيها عن رقعة اللعب ونظرت إليه متفاجئة. كانت مستغرقة في التفكير بنقلتها التالية، عساها تنتصر على أمونحوتب. هذه اللعبة المعقدة المؤلفة من خمسة أحجار من الأبنوس ومثلها من المحار ورقعة من الصدف واللازورد، تعلمها أمونحوتب بسرعة كبيرة وأتقنها حتى بات معلماً لا يبارى في خططها وحركاتها، إلى درجة أن صاروا كلهم يبدلون كل مهاراتهم لمنازلته والصمود في وجهه.

«الجزء القاسي من الشتاء شارف على نهايته. حالما تصبح الطرق صالحة للعبور، وينتهي فيضان نهر أراتنو، سأتحرك نحو الساحل. لقد آن الوقت لأغادر قطنا، رغم ما يعنيه ابتعادي عنك من ألم يا نجمة عيني. وفي الوطن سأندبر الأمور كلها، فهناك الكثير مما يحتاج إلى التفكير والترتيب. وفي أسرع وقت ممكن سأرسل في طلبك!».

إلى حدّ ما كان هذا الإعلان مبالغاً لكيا، فسألت بشيء من التردّد: «هل ستكلّم أبي قبل ذلك؟».

«أكيد. ثم هناك بعض الأمور التي لا بدّ من إيضاحها معه».

«أحقّ لي أن أسأل عن أية أمور؟».

«طبعاً يا مهجة فؤادي. أنا لا أخفي عنك شيئاً. هناك أولاً الرسالة التي أحضرناها لأخيك من أوغاريت. في البداية لم أفكر بالموضوع. وما الداعي؟ فالأمر الطبيعي هو أن الإمارات، وخاصة تلك المرتبطة ببعضها باستثمارات تجارية متنوعة، كالحال بين قطنا وأوغاريت، تتراسل فيما بينها. وقد أحضرنا معنا رسائل من جيبيل أيضاً، لكنها تتعلق بأمر محلية لا تهمنا. غير أنه وصل إلى علمنا أن الرسالة الموجهة لأكيزي قادمة من حتّوشا وليس من أوغاريت».

احمرّ وجه كيا. نظر إليها أمونحوتب مندهشاً وسألها:

«أتعرفين شيئاً عن الموضوع؟».

ولانزعاجها نوعاً ما من ردة فعلها، أجابت ببساطة: «هذه رسالة لا أهميّة لها. إنها من ابن شريك تجاري من كيزواتنا، وهو موجود حالياً في حتّوشا!».

«هكذا إذا!».

فأومات کیا برأسها مرتاحة.

«ماذا تقصدین بحالیا یا حبیبتی. حسبما قيل لي، الأمر يتعلق بشخص مقرب جداً إلى قائد جيوش حتوشا هنوتي، إذا كان هذا الاسم يعني لك شيئاً».

«نعم، أذكر أن كوراي قد تحدث عن هذا القائد. حتى هذا له تفسيره، فأتم هذا الذي ذكرته أصلها من حتوشا. لهذا من الطبيعي أن تكون هناك صلوات».

«اذكري لي إذاً يا حبیبتی اسم الشخص، إذا كنت محيطة بالموضوع!».

«اسمه تالزو».

«نحن إذاً بصدد شخصين مختلفين. فمرسل الرسالة على كل حال ليس تالزو».

ارتبكت کیا. من الواضح أن أمونحوتب يعرف أكثر بكثير مما أوحى لها بمعرفته، فجاء كلامها كمن يهوي على حد السكين. فجأة تتحول مسألة بسيطة إلى أمر بغیض، فلا شك في أن أمونحوتب الآن سيتكون لديه الانطباع بأنها لم تقل الحقيقة أو بأنها تخفي عنه شيئاً. هل تراه يلمح بكلامه إلى الرسالتين؟ حتى في هذه الحال لن يكون الأمر شيئاً أبداً، فالرسالة الرئيسية لأكيزي لا مشكلة فيها، والرسالة الموجهة إليها تتعلق بتظنا فحسب. من أين له أن يعلم بكل هذا؟ مؤكداً ليس من أكيزي، إلا إذا تطرقا إليها في حديث عام بينهما وليس بصيغة استجواب. لا، لقد نُقلت إليه المعلومات، ومن شخص يبغى الإساءة إليها أو لعائلتها.

«أتعرف، إنها حكاية طويلة»، قالت محاولة لفلفة الموضوع.

«احكها لي. لدينا ما يكفي من الوقت!».

أحست کیا بشيء من الحدة في كلماته، مما فاجأها. فحككت له بالتفصيل عن إقامة تالزو في قطننا وعن همومه الشخصية، وأنهت حديثها بقولها: «ولهذا غير اسمه الآن إلى تانوا». وأمونحوتب كان يصغي إليها طوال الوقت دون أن يقاطعها، بل كان يومئ برأسه بين الحين والآخر. وبعد برهة وجيزة علّق: «من الواضح أنك قد شعرت بميل نحو هذا الشاب أو أنه قد مال إليك!».

هل يشعر أمونحوتب بالغيرة؟ أم تراه يتهمها ب...؟ أحست بسخونة تسري في بدنها، ورفضت أن تنهي الفكرة. لكنها أحست في تلك اللحظة بمتطلبات أمونحوتب من زوجته

القادمة. لا يجوز قطعاً أن يشوب سمعتها أي شائبة. استُفرت روحها المتمردة. أيتقن أمونحوتب بها أم لا؟ تالزو كان شاباً لطيفاً وصديق الجميع، لا أكثر من ذلك. هل هذا ممنوع؟

«لا أعرف ما تريد!». قالت وعيناها تومضان بغضب: «لا أستطيع ولا أريد أن أحكي لك المزيد عن تالزو، أكثر مما شرحت، إذ ببساطة ليس هناك أكثر مما قلت. وإن لم تفهم ذلك فلا أستطيع مساعدتك!».

نظر إليها أمونحوتب مندهشاً. لا تذلل ولا تخنوع، بل اعتراض. إنها لم تتراجع، ووجد نفسه يُقرّ داخلياً بأن هذا هو ما يعجبه فيها. فلطّف لهجته قائلاً: «اهدئي يا جميلتي. سنهي هذا الموضوع. لم يكن هذا قصدي. دعينا نكمل لعبتنا. إنه دورك!».

كانت كيا على وشك أن تسترخي على وسائدها ثانية، عندما أطلق أمونحوتب سهماً آخر: «بقية الأمور، كما سبق أن قلت، سأباحث فيها مع أبيك قبل سفري. فلا شك في أنه سيوضح لي طبيعة العلاقة بين الزيارة البريئة لتالزو - تانوا الذي يعمل في خدمة هنوتي، والزيارة البالغة السرية التي قام بها موفد حتوشا إلى القصر في قطنا أثناء غيابي!».

جمدت كيا في مكانها. آه يا أبي، فكّرت، إنك تربكني، إذ لا يمكنني التظاهر بأنني لم أدر بشيء مما جرى. وأنت أمونحوتب، أتجبرني على أن أحسم أمري، وأعلن إلى أي جانب أقف؟ عندئذٍ انقلب شعورها إلى غضب واضح. لماذا، إذاً، يزعجها أمونحوتب بهذه التهم السخيفة؟ فانفجرت: «كنت أظننا سنستمع بالساعات انقلية المتبقية، وبينما أرتعد لفراقك، أجد أن لا هم لك سوى طرح الأسئلة وتوجيه التهم إليّ. أجدك تحوّل رسالة ودية من شابٍ لطيف إلى قضية كبرى وتجعل من البعوضة فيلاً. ألهذا الحدّ تجهل من أنا؟ أوتعرف أن أشد ما يرعبني هو أن تخطر ببالك مثل هذه الأفكار السافلة!». وانتفضت واقفة فأسقطت رقعة اللعب وحجارتها، وضاعت اللعبة. غمرها حزن شديد. نظرت في عيني أمونحوتب كسيرة القلب، ثم غادرت الغرفة هاربة إلى بيت الربة.

طوال أيام مديدة لم تسمع كيا كلمة من أمونحوتب، وكانت الأيام تمرّ بلا هوادة، ثم هذا الصمت المحيط بها. حتى صديقتها أميناية بدت منهمكة بشغلها، لدرجة لم تسنح معها الفرصة لحديث بوح. أدت كيا واجباتها كما هو منصوص عليه في بيت الربة، وكانت تُمضي الاستراحات القصيرة عند الربة، على أمل أن تساعد، أن ترشدها في هذا الظرف العصيب، لكن الربة صمتت كعادتها غالباً. لعلها غاضبة مني لأنني موشكة على ترك بيتها؟

أجهدت كيا فكرها، ولكن عبثاً. ما الذي عليها أن تفعله؟ على الرغم من هذا الشجار، هي تحبّ أمونحوتب. ستتخلّى عن كل شيء في قطننا من أجله، وسترحل معه، وستصبح إلى جانبه حاكمة مصر، وستدعم جميع أفكاره وخططه المحلّقة عالياً في السماء. هو الذي قال بلسانه، إنها هي المختارة له من قبل رع. لماذا لم يعد يكلمها؟ ما الذي يتوقّعه منها؟ أعليها أن تعتذر؟ ولكن عمّ؟ إنها لم تخطئ في شيء يتعلق به أو بمصر. هل كانت حقاً صادقة مع نفسها في كل شيء؟ ما أسدّ هذا الألم! أعليها أن تتحدث إلى أبيها؟ لكنه المسبّب الفعلي لتعكّر المياه بينها وبين أمونحوتب. ليتها لم تسمع ذلك الحوار بين أكيزي وبينه، لكنت الآن صافية وبريئة وغير مرتبكة. ولكن من هذه الناحية من حقّ أبيها أن يتحدّث مع من يشاء، لما فيه الخير، فقطنا ليست خاضعة لمصر، بل هي بلد حرّ. لكن كيا شعرت أن حججها لا تقف على قدمين راسختين. ومع ذلك استغفّر عنادها القديم. إنها لن تراجع ولن تتذلّل.

وفجأة انتصبت شالا أمامها، وكأنها قد انبثقت من الأرض، كما يحدث في الأحلام. شالا! رمّت نفسها كغريقة تروم النجاة بين ساعدي المرأة الحبيبة الحكيمة. نسيّت في تلك اللحظة أن شالا هي الكاهنة العليا للربة.. لا، لا شك في أن الربة نفسها قد أرسلتها إليها. فانهمرت دموع الخلاص. أحاطتها شالا بذراعتها وقادتها إلى جناحها الخاص الذي تعرفه كيا من كتب. أخذت برؤوس أصابعها بضع قطرات من حنجور بلسم، وفركت بها صدغيّ كيا وجبينها، فهدأت وصفت أفكارها وتحرّرت. ناولتها شالا مشروباً مقويّاً ذا نكهة رائعة بالنعنع والصعتر وبعض أوراق الزهور. رفعت يديها الممدودتين وباركتها.

وما نجحت شالا في إخفائه بمهارة عن كيا، هو الصراع الحاد الذي تعيشه بنفسها. فكيف وبماذا تستطيع أن تنصح ربيبتها انطلاقاً من ضمير صاف؟ ها هي ذي شالا في مواجهة نفسها ومصالح المعبد. إنها تحب كيا كابنتها، وكيا بلا أدنى شك هي الدعامة الملائمة والخلف المحتمل المناسب لمرتبة الكاهنة العليا، فلقد منّ عليها الأرباب بمهارات وقدرات كثيرة. ويبدو أنها مشيئة الربة أن تبقى كيا في بيتها. فإذا أكملت تعليمها وتأهيلها بما يوسع المعبد أن يقدمه لها، فإنها ستتجاوز شالا معرفة وقدرة. لا بدّ من تشذيب حساسيتها لتزداد رهافة. غير أن شالا تدرك من تطورها الذاتي، أن الأمر يحتاج إلى وقت، حتى يتغلب المرء على تعلقه بزخارف الدنيا ويتجاوز حاجاته الجسدية ويكرّس نفسه كلياً للربة وبقية الأرباب، وللمدينة ومملكة قطننا.

من مصلحة قطننا أن تؤهّل كيا لمرتبة الكاهنة العليا، وفي الوقت نفسه من المفيد

والصحيح لقطنا أن تصبح كيا زوجة ولي عهد مصر. هذا أمر سيحسمه الأرياب، وربما الملك أيضاً، حتى وإن كان ذلك رغماً عنه. لقد تناقشت شالا مراراً مع الملك، حول الخطوات الدبلوماسية الأكثر فائدة للحفاظ على البلد، واستوعبت حججه. ولكن ماذا عن بقية الأعيان؟ ليسوا جميعهم موافقين على آراء الملك. وكم سيبقى هذا الملك حاكماً لهذه المملكة؟ هل أخطأت يا ترى في تفسير الإشارات المختلفة؟ تذكرت برعب تجربة عيد قمر الشتاء الجديد، عندما خافت على حياة الملك أثناء أداء الطقس. لم يكن الخطأ في الشراب الذي قدّمته إليه.

وفي نهاية المطاف كيا. ما المقدّر لها يا ترى؟ ماذا تملك في يدها؟ لقد فكّرت شالا فيها طويلاً، وساءلت الربة، لكنها لم تستطع التوصل إلى صورة واضحة. لقد رأت كثيراً من الحزن والألم والأيام العصيبة. ولن يحل الهدوء في قوس حياة كيا إلا في مرحلة متأخرة ومعها تأتي السعادة.

بالنسبة إلى شالا كان أمونحوتب أكبر المشاكل. رغم كل ما بذلته من جهده، لم تستطع ولوج شخصيته وتقييمها. وهذا كان حال إيداندا أيضاً، إنها تعرف ذلك. أكان ذا شخصية طاهرة. نبيلة تكرس حياتها لخدمة الأرياب وخدمة وطنه؟ أم تُراه ذئب في فروة خروف يوظف استعراضاته الدينية التي رأت قطنا شيئاً منها أثناء إقامته، ذريعة للوصول إلى أهداف عملية أخرى؟ أهداف تخصّ مصر في المقام الأول: السلطة والرخاء المادي. فتكديس كنوز خيالية وتشيد عمارات لتمجيد الأرياب والفراعنة تدهش العالم بأسره، دليل يُبنى عن نفسه. وذات يوم عندما سيحكم أمونحوتب مصر لن يكون وحده، فسلطة كهنة طيبة مرهوبة الجانب حتى خارج حدود مصر. وحتى الآن لم يستطع أي فرعون الإفلات من هيمنتهم. وقد بلغ الأمر حد المعجزة أن صبروا على عقد قران والده أمينوفيس الثالث على صانعة السلالة. وما سهّل الأمر حتماً، هو أن عائلتها ممثلة جيداً في صفوف كهنة طيبة. وهذه الواقعة يمكن أن تفيد الآن في عقد رباط الزواج بين أمونحوتب وكيا؛ فهي على كل حال ابنة أخت تيه. الواضح حتى الآن هو أنه في حال طلب أمونحوتب كيا زوجة، فإنها لا تستطيع الرفض. وهي لن تفعل ذلك بأي حال من الأحوال، بل ستطير لاحقة بحب حياتها العظيم، محاطة برايات خفاقة. لقد رأت شالا بجلاء كيف وقعت الصبية في شبك كاريزما هذا الرجل. أولاً يحتمل أن تكون شكوكها تجاه أمونحوتب وليدة نوع من الغيرة، فهي بالتالي غير مبررة؟ أولاً يحتمل أيضاً أن أمونحوتب يبادل كيا الحب حقاً؟ نادراً ما شعرت شالا بمثل هذا العجز؛ الحجب تجلجل كل شيء، فلا تستطيع رؤية المستقبل

عبرها. «سأكون دائماً إلى جانبك يا صغيرتي، مهما حدث!». همست كبيرة الكاهنات في إذا ربيبتها «وستحدث أمور كثيرة، وستخوضين في عذاب أليم يا أميرة قطنا. لكن العذاب سيظهرك ويجعلك نقية، عندما تقترب النهاية!».

كانت كيا منشغلة بهمومها الخاصة، لكنها كانت تعرف أن الأمور، حتى بالنسبة إلى كبيرة الكاهنات، لا تسير دائماً على ما يرام، غير أن الربة أولاً وأخيراً معها.

الربة! ربما هذه هي أكبر المشكلات التي تؤرق كيا. قبل أن يدخل أمنوحوتب حياتها كانت مسرورة بوجودها في بيت الربة. صحيح أنه قد شغلها السؤال حول وجود هذا العدد الكبير من الأرباب، واختلافهم باختلاف البلدان. لم يكن صعباً على شالا في هذه النقطة أن تتمكن من إقناعها، بأن شرحت وبرهنت لها على أن أسماء الأرباب هي التي تختلف، وفي بعض الحالات مسؤولياتهم أيضاً. الأمر الأشد صعوبة كان الجدل حول تعدد الأرباب. ولم يسبق لكيا قبل ذلك أن طرحت عليها هذا السؤال. في عالم الأرباب هناك مراتب، كما عند البشر: سلاطين، ملوك، حكام، أمراء محليون، وهكذا حتى نصل إلى رب العائلة العادي. بدأت الشكوك تظهر عندما لمحت إيسيت أول مرة إلى إمكانية وجود ربٍّ واحدٍ أحد، يجمع في ذاته كل هذه التمظهرات الأخرى، لكنه يتجلى في مظاهر مختلفة. كانت تتحدث عن رع، عن رع أمنوحوتب الذي يجيز طبعاً وجود أرباب آخرين في ظلّه. غير أن كيا دأبت على السؤال: أي مكان تشغله بيليت إكالميم في سماء الأرباب هذه؟ أفلا يلغي وجود رع في نهاية الأمر الأرباب الآخرين؟ ومعهم الربة التي خدمتها، والتي ستخدمها مستقبلاً بصفتها كاهنتها؟ أيجوز أن تستبدل بهارِع؟ أهي جزء منه مختفية فيه؟ عندما يتحدث أمنوحوتب عن رع بتلك الحماسة، تبدو لها الأمور بسيطة وواضحة. أما عندما تفكر وحدها في سكون حجرتها، فيبدو كل شيء معقداً وصعباً، ويملؤها الخوف من أن تعاقبها الربة لأفكارها الأثمة، وأن تهجرها نهائياً.

ثمة أمر آخر كان يقلقها: ألا تكون جديرةً كأجنبية للقيام بمهام الزوجة والأم والملكة في مصر العظيمة والبعيدة. فلطالما سمعت عن الخصوصيات المصرية وعن مؤامرات البلاط العديدة. تجري الحياة هناك على نهر طويل بلا نهاية، وفي الشمال تجري الحياة على الجهة المقابلة تماماً للبلدان التي تعرفها. والسؤال حول هذا النزاع ما زال قائماً لمن تتبع قطنا حقاً؟ أهي فعلاً بلد مستقل حسبما يقول أبوها، ويحق لها بناءً على ذلك عقد تحالفاتها بحرية، أم عليها الخضوع لمظلة السلطة المصرية، حسبما يطالب أكيزي؟ ألا

يُفترض بالممالك السورية أن تتحد ثانية، أم أن ذلك سيسهل إهانة لجميع القوى العظمى وستكون له تبعاته؟ وولاء كيان نفسها، بأي طرف عليها أن تلتزم: بأبيها وقطنا، أم بأموئحوتب ومصالح مصر؟

وقد صارحت شالا بكل ما كان يقلقها.

«ما كان موضوع خصامكما؟». سألتها شالا التي أنصت إلى بوحها بكل انتباه. لقد أدهشها كل هذا الذي يعتمل في داخل هذه الصبية، حتى وإن كان ما يزال أمامها الكثير لتتعلمه، وعن نفسها خاصة، فقد ترسخت قناعة شالا مجدداً: لقد خلقت كيا لتفعل، لا لأن تخضع لأحد. ولكن لعل الأرباب ينتظرون منها طاعتهم لقاء عطاياهم. من يدري؟ حكّت لها كيا تفاصيل الشجار بينها وبين أمونحوتب، ثم قالت: «ببساطة لا أدري ما إذا كان عليّ أنا أن أئين!».

«ماذا يقول لك قلبك؟».

جاء الجواب خافئاً جداً: «لا أعرف، أليس هذا مريباً؟». ونظرت كيا إلى شالا يائسة. «ألا يجب عليّ أن أفعل كل شيء لأسعد أمونحوتب، لأبعد عنه الأذى، لأجنبه النزاعات، ما دمت أحبّه؟ ولكن دائماً كلما أردت الإسراع إليه، ثمة صوت في داخلي يقول لي: لا، ففي هذا اعتراف بخطئي. وليس هناك ما يوجب ذلك. ولكن أتلعّب مثل هذه الأمور دوراً بين الأحبّة؟».

«ربما، عندما يكون الحبيب وليّ عهد مصر!».

«وماذا عليّ أن أفعل الآن، شالا؟ لا يجوز أن يغادر قطنا دون أن نتصالح!».

«انتظري وأنصتي بروية إلى صوتك الداخلي. واعتمدي على الربة!». أجابها شالا بأوممة «هي سترشدك إلى الحل!».

مع انبلاج فجر اليوم التالي جاءت خادمة من القصر إلى بوابة المعبد، وطلبت كيا، لكنها أبت بصلافة دخول بيت الربة. فاستدعت كيا إلى البوابة. عرفت كيا هذه الصبية الرشيقة التي تعمل في خدمة الملك والملكة، ونُذبت مع غيرها لتعمل في خدمة أمونحوتب أثناء إقامته.

«ماذا تريدن؟». سألتها كيا مستغربة.

«رجاء سيدتي، تعالي معي!». أجابت بصوت خافت، اضطرت كيا للانحناء نحوها

لتفهم ما تقول. أمسكت الخادمة بيمنى كيا ودست فيها شيئاً، جُعلاً من اللازورد. قرأت كيا على بطنه اسمها محفوراً بطريقة مرتبكة، لكنه مقروء.

«هو، الرب أرسلني إليك!». همست الخادمة، وأردفت: «يجب عليّ إحضارك إليه، لكن يجب أن تأتي وحدك. هل ستبعينني فوراً؟».

قفز قلب كيا. لقد نسي الأمس بكل شكوكه وهمومه ومخاوفه، كما تلاشى الغضب كله. لا قيمة الآن إلا لشيء واحد: لقد أرسل في طلبها. وهي لن تتردد لحظة واحدة. كل شيء يجذبها نحوه. ومن دون تردد شدت عباؤها على جسمها وخرجت إلى الفجر البارد. هرولت الخادمة عبر الشارع، لدرجة أن كيا لم تستطع أن تحذو حذوها. باغتتها السرعة مثلما باغتتها ظهور الخادمة. توقعت كيا أن يدخلها من البوابة الجنوبية، لكنها أخطأت. مشت الخادمة بحذاء جدار القصر على الجانب الغربي حتى بوابة عند نهاية الجناح الغربي، الذي يقيم فيه وليّ العهد المصري. أشارت لها الخادمة كي تسرع. كانت كيا مرتبكة وغير قادرة على التفكير. وبطريقة غير ملكية رفعت يديها طرف معطفها كي تتمكن من المشي بسرعة. عبرتا البوابة وصعدتا درجاً، لا تريدُ درجاته أن تنتهي.. هل سبق لها أن كانت في هذا المكان؟ أخيراً عندما توقفتا لالتقاط أنفاسهما، كانتا على سطح القصر، تطلان على المدينة من علي. عندما نظرت كيا نحو الشمال شعرت بدوخة، فالمكان هنا ليس فقط أعلى طوابق القصر الثلاثة، بل يضاف إليها الانحدار الشديد للهضبة الصخرية التي بني عليها القصر.

ماذا تفعل أعلى هذا السطح؟ اختفت مرافقتها وكان الأرض قد انشقت وابتلعتها. والباب الأرضي الذي وصلا عبره إلى السطح كان مطبقاً. كانت وحدها، وحدها على سطح القصر عند انبلاج الفجر في أواخر الشتاء. أتضحك؟ أتبكي؟ أتصرخ؟ هل ارتكبت خطأ؟ أكان هذا فخاً؟ لا، لا يمكن. فهي كثيراً ما صعدت إلى سطح القصر؛ قبل عيد الخريف وبعده مثلاً. هناك مداخل متعددة إلى السطح. لا بدّ من حل آخر. في الشرق بدأت السماء تصطبغ بالحمرة. رجعت كيا إلى حيث وطئت قدمها السطح، وعندئذ رأت على الأرض أحد أحجار اللعبة المصدّفة، التي كانت تلعبها مؤخراً مع أمونحوتب. رفعته بيدها، ورأت حجراً آخر على مسافة قريبة، ثم ثالثاً. إنه أثر، أثر عليها أن تتبعه. أوصلها الأثر إلى هياكل سقف قاعة الاجتماعات، أعلى نقطة. ثمة سلم كان مسنوداً إلى جدار الهيكل يوصلها إلى المستوى الأول، ولما بلغت دعاها سلم ثان إلى الصعود إلى المستوى الثاني. وأخيراً وصلت. وجدت أمامها عند منتصف السقف مذبحاً بسيطاً. في تلك اللحظة انبثق

من الأفق قوس الشمس المتوهج مرسلأ أوائل أشعته إلى الدنيا الموشكة على الاستيقاظ. وكما في حلمها، أحاطها أمونحوتب من ورائها بذراعيه، بحيث استقرت يدها على نهديها المستورين، ثم وقف إلى جانبها في رداثة الأبيض الفضفاض. كان يحيط جيده بعقد عريض من حجارة ثمينه، ويغطي رأسه بقماشه بيضاء حسب التقليد الملكي المصري. أمسك بيدها اليمنى، ثم رفعها بإيقاع واحد سواعدهما باتجاه الشمس. بصوت واضح أخذ أمونحوتب يرتل آياتاً، اعتقدت كيا أنها تعرفها رغم تبدل كلماتها:

«جميلة تظهرين في أفق السماء،

أيتها الشمس الحية، مانحة الحياة!

من أفق الشرق بزغيت

وملأت بجمالك البلدان كلها.

جميلة أنت، عظيمة وساطعة،

عالياً، على البلدان كلها.

أشعتك تحيط بالبلدان،

حتى آخر ما خلقت.

أنت رع، عندما تبلغين حدودها،

فتجعلينها تسجد لابنك الحبيب.

أنت بعيدة، لكن أشعتك هنا على الأرض؛

أنت في مواجهتها، لكن مسارك خفي!«.

رتل أمونحوتب مقطعاً فمقطعاً. لم تتمكن كيا من ملاحقة الكلمات، وتركت نفسها لإيقاع الصوت الرخيم، الذي نقلها من هنا إلى عالم سماوي. صمت الترتيل، وشق أمونحوتب ليديه طريقاً تحت معطفها مداعباً إياها بحب ونعومة. أشرقت الشمس وسطعت على خدمها. تركت كيا نفسها ليديه وصوته الذي همس بكلمات غزله في أذنيها عن الحب والمستقبل، وهو يسميها «يا جميلتي ووحيدتي». استدارت نحوه ببطء. غرق كل منهما في نظرات الآخر، وذابا معاً في قبلة.

أخيراً ذاب معظم الثلج الأبدي في حشوا، ولم يتبق منه إلا ما اختبأ معانداً في الزوايا الظليلة. خلال الأشهر التي أمضاها تاناو في العاصمة حقق نجاحات ملحوظة وفاز بالرضا.

بعد عيد رأس السنة الذي سيُحتفل به في المملكة كلها، سيبدأ موسم زابابا، إله الحرب. وتحضيراً له تعاقبت جلسات مجلس الشيوخ التشاورية، لدرجة أن اضطّر الكتاب إلى تمديد أوقات عملهم، وإنجازه بنور سراجات الزيت والمشاعل. كانت تتجمع الخيوط كلها في مكاتب الإدارة، حيث يجهز ميتاناموا، كبير الكتاب، المعلومات الواردة لاجتماعات مجلس الشيوخ. لم يكن القتال ضرورياً دائماً، إذ أمكن ترتيب كثير من الأمور بالتفاوض والتعاهد. ولكن إلى أن تُبرم إحدى هذه المعاهدات كان الجهد المكتبي المبذول هائلاً.

فُرز تانوا للعمل تحت إدارة هنوتي، الذي أصر على حضور ابن أخته جميع الاجتماعات التحضيرية ليوكب كل ما يجري. وفي الاجتماع الختامي كان لا بدّ من اتخاذ القرارات النهائية الحاسمة. كانت تلك أول مرة يحضر فيها تانوا، ويشكّل لنفسه صورة عما يعنيه اجتماع مجلس الشيوخ الموسع وطبيعة عمله.

تألّف الحضور من الملك العظيم (لابارنا) وأمه (تواناتا) التي تشاركه الحكم بعد موت أبيه. ثم هناك زوجة اللابارنا، هنتي، والأشراف؛ وهم جميعهم أمراء من العشيرة المالكة يقدمون المشورة للملك؛ ويمارس كل منهم في دائرته أعلى سلطة إدارية ودينية بعد الملك، كما بوسعه قيادة جيشه الخاص. وما أدهش تانوا هو تساويهم فيما بينهم، غير أن ما أذهله هو أن هذه المناصب لا تُمنح مدى الحياة ولا تُورث، بل يشغلها الأقدر على أداء المهام المنوطة به، أي أنّ على المرء إثبات جدارته باستمرار.

إضافة إلى كبار الأشراف يأتي الصف الثاني من القادة أي المديرين، ثم حكام المقاطعات وأسياد الأرض أو أسياد الثغور الحدودية، ومجموعة من الأتباع المرتبطين مع الدولة بعقود، والذين مُنحوا لقب سادة لأسباب مختلفة. ولكنهم، حسبما علم تانوا، لم يحضروا جميعهم، ولعل السبب يتعلق بحالة الطقس. قبل الاجتماع شرح له معلمه ميتاناموا مختلف صلاحيات مجلس الشيوخ: لا تنحصر مهامه في تقديم المشورة فحسب، بل إنه يسهم في سنّ القوانين وإبرام المعاهدات، أي أنه المحكمة العليا، التي يخضع لها حتى الملك والملكة، وهو الذي يُقرّ الابن المرشح من قبل الملك والملكة لولاية العهد، ويسمي الابن الأكبر (تليينو) للملك والملكة معاً. هذه النخبة البارزة إذاً هي من اجتمع في قاعة الاستقبال، يرافقها حشد من الكتاب.

بعد الصلوات والابتهالات بدأ النقاش حول ما يجب إنجازه في هذا الفصل ذي

الطقس الطيب، من أجل تحسين الحالة الأمنية للبلد. ما عدا الجنوب وبعض المناطق الصغيرة في الشرق، ما زالت هناك بؤر اضطرابات حول الحدود. ولكن ما دامت ميثاني منشغلة بزراعتها الداخلية، فيُستبعد وقوع هجوم من تلك الجهة.

«لدينا من الأنباء ما يطمئنا إلى عدم ضرورة شن هجوم على ميثاني في هذه السنة. فلنركّز جهودنا على مشاكلنا المزمنة في شمال المملكة وغربها».

لاقت كلمات الملك قبولاً عاماً، ثم قدم كل من (زيدا)، شقيق الملك وقائد الحرس الشخصي وحاكم المنطقة العليا، وهنوتي، قائد الجيوش وحاكم المنطقة السفلى، تقيماً لأوضاع قبائل الكشكيين وشعوب ممالك أرزاوا. وسرعان ما اتفق الجميع مبدئياً على إرسال قوة اقتحام كبيرة لاستعادة أراضي حثية من أرزاوا، ولشيتت النطاق الحدودي الغربي بعد النصر العظيم الذي تحقق عند جبل تيواتاسا. ولا سيما أن جنود الاستطلاع الحثيين هناك لم يلاحظوا أي تحركات عسكرية تشير إلى تخطيط ممالك أرزاوا لهجوم ضد حثوشا. وطبعاً لا بدّ من مراقبة الحدود بعناية. أُسندت قيادة هذه الحملة إلى (هيمولي)، كي يعوّض هزيمته قبل سنتين في مواجهة قوات أرزاوا. وعليه أن يتقدم بقواته عبر بوروشخندا وإكووانيا باتجاه بحر الغرب الكبير، وأن يراقب خطوات بناء حرم النبع هناك ويرسل تقريراً بذلك إلى حثوشا، قبل أن ينطلق إلى المنطقة الحدودية في بوراندا.

الأمر الأصعب كان اتخاذ قرار بشأن التعامل مع القبائل الكشكية، وهي قضية أثارت النفوس وكانت مدعاة لغضب شديد.

«هؤلاء الهوام يشبهون أسراب الناموس القارص المزعج! ألا يمكنهم أن يحشدوا أنفسهم معاً لخوض معركة نظامية؟ لا، بل يقومون دائماً بغزوات فجائية صغيرة على مناطقنا. ينزلون علينا كالسيول من غاباتهم الجبلية الكثيفة، ويختفون ثانية بالسرعة نفسها. هذه حال تدفع إلى الجنون!».

«كما لا يمكن توقع سلوكهم مسبقاً، ولا يمكن استخدام العربات القتالية ضدهم، لأنهم يحتمون وراء الأشجار والصخور!».

«إنهم ببساطة يقاتلون وفق القواعد التي تناسبهم. ولكي نتمكن منهم لا بدّ من استمرار وجودنا عسكرياً في كل مكان وبشكل دائم! وهذا مستحيل، إذ لا يسعنا وضع جندي مرافق لكل فلاح وراع وصياد وفتحام وخزّاف!».

«علينا التفكير ببناء نزع من السور على طول الحدود!».

«لا، هذا لا جدوى منه. لأن منطلقنا الأساسي هو استعادة أراضينا بالقوة. نريكا على الأقل يجب أن تعود إلى الحصن حتي! فعلى أية حدود تريد أن تمد السور؟ مثل هذا التحصين الثابت سيقطع المياه عنا نحن!».

«تصور كلفة ذلك من حيث المواد واليد العاملة. والكشكيون سيتفرون علينا بفضول فحسب، أليس كذلك؟».

«في المستقبل يمكننا بناء عدد من القلاع تجعل غزوهم لمملكتنا عسيراً. وهذه القلاع يجب أن تشيد ما أمكن على مرتفعات مشرفة، وأن تُحصن جيداً، وأن تكون قريبة من مصادر مياه وأراض زراعية. ويمكن دعم منظومة القلاع هذه بأبراج حراسة صغيرة ومراصد. غير أن هذا كله رهن بالمستقبل. أما الآن فعلينا أولاً ضبط غزوات هؤلاء الأندال!».

«وكيف سنحقق ذلك؟ لا يمكننا أن نتصدى لهم بجيش، سنوياً، لنسحقهم ونجر جرحهم إلى حتوشا. فمرور الوقت ستضرر نحن أيضاً من ذلك!».

«كما لا يمكنك أن تجازف بتركهم يغزون حتوشا وينهبونها!».

«ما يزيد الأمر صعوبة فوق كل ما ذكر، هو تعدد قبائلهم وعشائرتهم واختلافها. بعضهم بدو دائمو الترحال، وبعضهم يستقرون مدة من الزمن ثم ينتقلون، لا عاصمة لهم ولا ملك يجمعهم. ثم إنهم لا يابهن بالمعاهدات، على الأقل أولئك منهم الذين لم يوافقوا على المعاهدة شخصياً!».

«إضافة إلى ذلك أرى في الأفق خطراً يهددنا. إذا تابع الكشكيون توسعهم فسوف يتصلون غرباً بممالك أرزاوا. فإذا تحالفوا معها، ستكون النتائج كارثية بالنسبة إلينا. لقد توسعوا من الشمال الغربي إلى الشمال الشرقي، وبين بحر الشمال الكبير وحدود مملكتنا».

«لحسن الحظ أنهم ليسوا جميعهم محاربين. كشكيو منطقة تورميثا يدون حتى الآن رعاة مسالمين».

«إذاً، ليس بينهم مسالمون حقاً!».

كل هذه الاعتراضات لم تحظ باهتمام هنوتي، لكنه تدخل في الحديث قائلاً: «من المزعج بلا شك أن نجد منطقة تورميثا مملوءة بهم حتى بحيرة تاتا. أستطيع حتى من پوروشخندا أن أراهم. ونتيجة لذلك فإن بلا في الشمال الشرقي تكاد تنفصل عن المملكة، ولا يمكننا القبول بهذا!».

«هذا يعني إذاً أن نحدّ من مراعيهم في الشمال الغربي. قد نتوصل إلى ذلك بالتفاوض معهم. علينا أن نحاول ذلك. أما فيما يتعلق ببقية الكشكيين فأني لا أرى أي بارقة أمل. سوف يدافعون جميعهم عن الأراضي المملوءة بالكنوز!». وهز الملك رأسه بقلق.

«أيها السادة!». قال هنوتي ثانية «دعوني أقترح الآتي بخصوص حملتنا العسكرية: سنوزع الجيش إلى أجزاء. حالما ينتهي عيد رأس السنة، يتحرك الجزء الرئيسي من القوات المسلحة والمشاة بكثير من الصخب ومع المفاوضات المسبقة المعهودة، نحو الشمال مباشرة باتجاه نريكاً، مكاننا المقدس المفقود. بعد فترة قصيرة يتحرك جزء آخر، من المشاة غالباً، باتجاه الشرق. نقطة التجميع والانطلاق ستكون ساموحا. وعلى القوات الرديفة من الممالك التابعة لنا في الشرق أن تتوجه إلى هناك أيضاً. في الوقت نفسه، يتحرك جزء ثالث ليعبر مرآستنا في الغرب، ليتخذ مواقع أعلى تورميتا في مواجهة الكشكيين. علينا أن نحمي المنطقة الجبلية، كي يبقى الطريق إلى بلا سالكاً. هناك سنحاول التفاوض. في حال إخفاقنا سيكون علينا الهجوم!».

«هذه وجهة نظري أيضاً»، قال الأمير زيذا.

لم يرتبك هنوتي، بل تابع: «هجمات أجزاء الجيش الثلاثة يجب أن تُنفَّذ في الوقت نفسه ما أمكن، فهذا هو الهدف! سيكون من الصعب نوعاً ما ضبط التوقيت، لكن النصر في الختام سيكون أعظم. فعندما سيشرح خبر أن الملك الشمس قد ظهر وقاتل في ثلاثة أماكن في الوقت نفسه، فسيُظلم الكشكيون رؤوسهم أخيراً!».

«إنها خطة رائعة!».

«بهذه الطريقة سنتصر!».

طلب الملك الهدوء، فأفضل قادته لم يتتبه من الكلام بعد. تابع هنوتي قائلاً:

«منذ الآن وحتى انطلاقنا، علينا تدريب جنود المشاة على طريقة في القتال تقارب طريقة عدونا: أي القتال بمجموعات صغيرة سهلة الحركة من دون أن ينقطع نفسها بسرعة. العربات القتالية تتقدم ما أمكنها ذلك وتنجز الباقي. سنحرق وندمر ما أمكن كل ما يمكن الاستغناء عنه. أما المضارب الرئيسية فعلياً أن نصونها طبعاً. الأسرى وقطعان الماشية سنحضرهم إلى حتوشا».

حصل اقتراح المخطط العسكري البارِع على موافقة جماعية. فتابع هنوتي قوله:

«في الوقت التحضيري علينا ما أمكن تحسين معلوماتنا عن القبائل المختلفة. وفي

هذا المجال لا شك في أن مكاتب الشؤون الإدارية ستساعدنا من خلال المترجمين الذين سيكونون إلى جانبنا. علينا أن نسأل الأسرى الذين لجؤوا إلينا، والكشكيين الآخرين الذين يخدمون في جيشنا كذلك. وهذا أمر منوط بضباط الكتائب كلاً على حدة».

«أحسنت الكلام يا صديقي هنوتي!». قال شويلوليوما وأردف: «إننا لفخورون بوجودك بين صفوفنا!». أبدى بقية أعضاء مجلس الشيوخ إعجابهم بالتصفيق بالأقدام وبتعليقات بأصوات عالية. لا شك في أن الرب زابابا كان راضياً عنهم، مسروراً بهم!



ربة اليمام المبشرة بالربيع دخلت حتوشا، فانتشر دفاء الشمس الساطعة بضعة أيام، مغوياً الناس بالخروج إلى الهواء الطلق. وازداد حنين تانوا إلى موطنه، فالربيع في ترشا ساحر أيضاً. امتلأت الشوارع والساحات بالناس هرباً من ضيق الشتاء، وفي كل مكان كانت التحضيرات لعيد رأس السنة على قدم وساق. ترى هل سيصل بعده جوابٌ من الأهل؟ أم أنهم لم يسامحوه حتى الآن؟ أيتصل بهم مرة ثانية؟ استبعد تانوا هذه الفكرة من رأسه، ولا سيما أن أفكاره قد سرحت إلى قطننا. ومن هناك لم يصله شيء أيضاً. فكر بأكيزي وإهلي نيكالو. أهما سعيدان يا ترى؟ وكيا؟ كيا الحلوة؟ مرة واحدة فقط، كان حقاً قريباً منها. مرة واحدة فقط، لمس بشرتها غرضاً وتشتق عقب شعرها. وهذا اللقاء بينهما على نهر قطننا الهامس، كان تانوا يزيد من ألوانه في ذاكرته: لقد اقتربت ثم ارتعبت عندما وجدته أمامها في مكانها المفضل وأرادت أن تنسحب فوراً، لكنه أمسك بيدها وسحبها وهي مترددة، إلى جانبه على ضفة النهر. التفتت نحوه في ضوء الغسق، فرفع الحجاب عن وجهها. أبقَت عينيها مغمضتين وثرغها المشقوق قليلاً كان مغوياً جداً لـ...

بترهنوتي أحلامه بقوله: «سنزور العائلة مرة أخرى. لقد آن الأوان!». فطوال الشتاء لم يزورا دار أم هنوتي سوى مرة أو مرتين. وقد اكتفى تانوا بذلك، إذ كان غارقاً في الشغل، ويفرح إن زاد لديه بعض الوقت ليمضيه مع أصدقائه، قبل أن يسقط في سريره كالقتيل. فكانوا يترددون على الحانات ودور الحب. ونظراً لإقبال مورسيلي على الحياة بنهم، كانوا يستمتعون دائماً. كما ترددوا أحياناً على حمام السوق، حيث كانوا يغطسون أجسامهم في أحواض خزفية مملوءة بالماء الحار الممزوج بأرواح زيوت منعشة تاركين أنفسهم لأيدٍ مدرية تدللهم بخبرة. وعندما تحمى أجسامهم كانوا يركضون عراة إلى العراء ليمرغوا

أنفسهم بالثلج ويطراموا بكراتٍ منه ويلعبوا كصغار الأطفال. كان يتسم كلما تذكر هرجهم معاً. وفي بعض الأحيان كانت تتراجع كيا في ذاكرته نوعاً ما. وقد ساعدته هذه الصداقات أيضاً على احتمال عدم التواصل مع أقاربه، من دون أن يغيب عن باله تحفظهم الجلي في التعامل معه. قد يعود سبب ذلك إلى رحيله عن دار أهله بتلك الطريقة غير اللائقة، في حين لا تسمح لياقتهم العالية بمواجهته بذلك. ما زال هنوتي مديناً له بجواب على تساؤله. لكن تساؤله لم يكن ملحاً، فثمة أمور أخرى كثيرة تشغله.

«وافق مجلس الشيوخ في اجتماعه على أن ترافقني في حمليتي»، قال هنوتي وأضاف: «سنرافق الملك حتى نريكا، بهدف إثارة الغضب والاستفزاز». والتفت نحو ابن أخته ليري رد فعله. لكن وجه تانوا لم يبد أي تعبير، بل عاد عوضاً عن ذلك إلى طرح أسئلته الكثيرة.. ياله من شاب لا يشبع!

«لطالما أردت سؤالك: ما السبب في أن نريكا هذه مهمة إلى هذا الحد؟».

«لا أعرف بالضبط منذ متى، لكن نريكا وزالبا في أقصى الشمال أيضاً مدينتان حثيتان قديمتان جداً، ونريكا تحديداً تعد أقدم مدينة مقدسة في المملكة. هناك، حسب الشروط الربانية، يجب أن تجرى مراسم تنويج الملك دائماً. وكونها بيد أعدائنا، يعتبر عاراً. ولكن ثمة امرأة آخر يرتبط بنريكا والشمال، ففي الجبال المحيطة بحوض نريكا يوجد فضاء ورصاص ونحاس ومعادن أخرى. وكلما اتجهنا شرقاً مع هذه الجبال تكاثرت فلزات هذه المعادن».

«طيب، وماذا بعد؟».

«إنها مواد خام تحتاج إليها المملكة بصورة ضرورية».

نظر تانوا إلى خاله متسائلاً، فأردف: «ضرورية لصنع الأدوات، وللمعابد مثلاً، ولكن قبل كل شيء آخر لصناعة الأسلحة».

«السلاح الحثي العجيب؟».

«أهكذا يسمونه؟». وضحك هنوتي وأردف: «هذا جيد!».

كانا قد بلغا دار الأسرة، ما اضطرّ تانوا إلى تأجيل أسئلته الأخرى: من يستخرج هذه الكنوز الأرضية وكيف؟ كيف تبدو؟ وكيف تنقل إلى حتوشا؟ هل يسرقونها ببساطة أم يقايمونها بأشياء أخرى؟

بدا له الاستقبال في دار جدته هذه المرة ودياً ومنشراحاً أكثر من السابق. كان تانوا هذه

المرّة أكثر معرفة بالعادات المتبعة، وأكثر اطلاعاً على أحوال بعض أفراد الأسرة. وفيما هو يفكر باحتمال وجود مناسبة معينة للزيارة، فُتح بابٌ وراءه، فسكّنت جميع الأصوات. التفت وحبس أنفاسه دهشاً. وإلى أن أدرك من القادم نحوه، كان إحياء قد وصل إلى ابنه. وقفا أحدهما قبالة الآخر صامتين، وكل منهما يحدق في وجه الآخر: تانوا مندهشاً وإحياء مذهولاً من التغيرات التي طرأت على الفتى! ها هو ذا يرى أمامه شاباً يافعاً أنيقاً قوياً، ويوحى بأنه مرتاح البال. لم يبقَ شيء من ذلك الفتى الخجول الشاحب، الذي ما زال في ذاكرته من أيام ترشا. انفجر إحياء بضحكته القلبية الصاخبة، فتح ذراعيه وضم إلى صدره الابن الضال. تعالت بعض الهتافات وصفق هنوتي بيديه. تبادل الاثنان التحيات، ثم فرد إحياء ذراعيه، مبعداً تانوا عنه قليلاً، رازه وهو يهز برأسه وقال: «دعني أتملى منك! هذا لا يصدق!».

على مائدة طويلة مُدّت مادبة احتفالية باذخة. تكوّن الطبق الأول من أنواع مختلفة من اللبنة المنكّهة بأنواع من الأعشاب والمصفّاة من لبن الماعز والنعاج والبقر، إضافة إلى القريش. ثم قُدّم نوعان من حساء الخضار بعدس وبازلاء وحنطة وشعير. تلا ذلك صحاف مملوءة بلحوم باردة أو ساخنة من أرانب وخراف وبط، وعجّة بالسّمك. وانتشرت في جو القاعة روائح زكية صادرة من الخبز الطازج والسّمك النهري المشوي. أما المحالي فتشكّلت من نبيذ حلو ومكسرات منوعة وتفاح وإجاص وخوخ ومشمش وتين مجفف، إضافة إلى خبز بالعسل والكعك المحلّى. وفي الختام قُدّمت صحافٌ جبن منوع.

منذ مدة طويلة لم يأكل تانوا كالأيوم، ولم يكن بمثل هذه السعادة والانشراح كما هو الآن. تحدث مع أبيه عن العائلة والأصدقاء والمعارف، وعن المتجر والأحداث المهمة في ترشا. لقد قبل والداه بقراره، وسلمه والده رسالة من أمه، سيصونها ككنز، ولن يقرأها إلا عندما يكون وحده.

لم يسأله والده أية أسئلة. ولم يتمكن تانوا من معرفة ما إذا كان ذلك نتيجة عدم اهتمام أم بسبب لياقة مبالغ فيها. لم تنكمش الهوة بينهما، بل بالعكس، فقد بقي والده غريباً عنه، على نحو عجيب. لا شك في أنه هو أيضاً قد تغير، فصار أكثر ثقة بنفسه وأكثر استقلالاً. قرر القبول شاكراً بعودة السلام إلى علاقته بعائلته، وألّا يغضب لعدم اهتمام والده بعمله، فلربما كان بحاجة إلى وقت ليستوعب الأمر.

في وقت متأخر من الليل افرقوا وعاد كل منهم إلى داره. ورغم أنه لم يكن صاحبياً

تماماً، إلا أنه لاحظ بطرف عينه عند المغادرة كيف رُفعت الأيدي بإشارات درء الشر وراءهما. وتساءل في نفسه: أيعرف الأرياب معنى هذه الإشارات يا ترى؟ على أية حال لن أدعها تقلقني اليوم.

كانت رسالة أمه مليئة بالحب والحنان، ولكن أيضاً بسلسلة من التحذيرات. إنها لا تشعر حياله إلا بالقلق، مما أزعجه وأثقل عليه. فيها هو ذا ثانية السبب في لجونها إلى الأرياب والابتهاال لهم من أجله. لكنه سيتحمل ذلك ويتابع طريقه. فاكثفى بإرسال تحياته لها مع والده، وبسلامات لمرتيته العجوز والعمات والأعمام وأفراد الأسرة الآخرين، فوالده سيقوم بإخبارهم بما رآه وسمعه. وما هو ذا قد أنهى أعماله بسرعة، ولا يبدو أنه سيكرس أي وقت لحوار تفاهم فيما بينهما. قبل تانوا قرار والده. لكنه سيتحدث مع هنوتي في هذا الشأن. وخلال الحملة سيكون هناك من الوقت ما يكفي ويزيد.

لم تمر زيارة إحيًا من دون جديد مثير، ترك أثره البالغ، لا في نفس تانوا فقط. فقد أخبرهم إحيًا بأن أمونحوتب ولي عهد مصر قد ظهر فجأة في الساحل السوري وأمضى الشتاء هناك. لم يفاجئ أحداً خبر زيارته لجيبيل وأوغاريت، أما أن يقيم معظم الوقت في قطنا فقد حيرهم ذلك، وأخذوا يتكهنون بما قد يعنيه: أهى محض مصادفة، أم أنها خطة محكمة؟ استدعي تانوا، فهو في حتوشا الآن أفضل من يعرف قطنا.

«زوجة الملك إيداندا الثانية هي خالة ولي عهد مصر، فلربما كان هذا هو السبب».

واعترف لنفسه فوراً بأنه هو نفسه غير مقتنع بهذا السبب.

«الزيارة العائليّة أمر جيد لا غبار عليه. ولكن لهذه المدة الطويلة؟ جيبيل وأوغاريت تُعدان منطقة مصرية، وميتاني حليف وثيق الصلة؛ فأخت الملك موجودة في حريم أمينوفيس، فلماذا قطنا غير التابعة لمصر وغير المتحالفة معها حسب علمنا؟ ويبدو أن القلق قد انتاب ملكنا بخصوص مصر؛ فلماذا لم يحاول أمونحوتب، وإن بصورة غير مباشرة، الاتصال بنا؟».

كان هذا جديداً بالنسبة لتانوا. ألهدا أرادوا منه كل هذه المعلومات؟ تذكر النقاشات الكثيرة في قطنا، عندما كان هناك مع والده، الذي سئل بالتفصيل من قبل مجلس الأعيان عن الأوضاع في حتوشا. ما الذي يجري في قطنا يا ترى؟ ما سبب وجود ولي عهد مصر هناك؟ إنه لا يعرف أي شيء عن أمونحوتب هذا. والده يقول إنه قد سمع بأنه رجل وسيم بشخصية كاريزمية. وما مغزى ذلك. ثم إنه لا أقل من ولي عهد مصر. ماذا جرى مع كيا يا

تري؟ إنها تتقن اللغة المصرية، فلا شك في أنها قد اعتُمدت مترجمة أو جليسة مع الضيف. لا شك في أن الاثنين قد التقيا كثيراً. فجأة أحس تانوا بانقباض في بطنه. لم يشعر حتى الآن بغيرة ولا بحسد، لكنه يحس الآن بكلا الشعورين يدهمانه. وخطرت بباله النبوءة: كيا، الملكة. ملكة مصر المستقبلية يا تري؟ لا بدّ له من البحث عن نانيزي المراسل، إذ يحتمل أن يعرف شيئاً أكثر دقة.

في حتوشا استُقبلت بداية الربيع باحتفالية كبيرة مكلفة. وعيد رأس السنة الجديدة المسمى (هوراليا)، يوظّف في الوقت نفسه لتأكيد ثبات اللابارنا على عرشه، ولهذا ترافقه احتفالات متنوعة رائعة، لكن عامة الشعب غالباً لا تشارك فيها، بل تحتفل بعيدها على هواها، باسترخاء وانسراح، بعيداً عن صرامة المراسم، وتمتلىح الحانات ثانية وحتى الدور بالمحتفلين بصخبٍ بانتهاء الشتاء القاسي وبالقدرة على احتمالته مجدداً.

بعد الاحتفالات في العاصمة انطلق الملك والملكة، كما في الخريف، في رحلتها المجهدة عبر المملكة المتنامية، للاحتفال مع جميع الرعايا بعيد (كروكوس) في أماكن مقدسة معينة. في كل مكان تفتحت براعم الربيع وضياءً بلون أصفر محبّب. في أثناء غيابهما كانت في حتوشا تجري التحضيرات للحملة العسكرية، فأخذت الوحدات العسكرية تصل من مختلف القواعد. وانطلق زيذا نحو ساموفا في الشرق ليشرف على تنفيذ الأعمال الضرورية هناك.

كان تانوا يراقب تجمّع الوحدات العسكرية بشعور متنام بالنأي، وقد امتلأت المدينة وما حولها بضجيج التدريبات. وبدأ التنافس بين المشاة وقواد العربات القتالية، وأخذوا يتبادلون الرفسات مثل جياذ هانجة، فكان لا بدّ يوماً من فضّ النزاعات وفكّ الشجارات، ليتبين في معظم الحالات أن الديكة المتصارعة من الجانبين لا تعرف سبب الشجار، ولا سيّما أنهم غالباً كانوا يتكلمون لغات مختلفة. في هذه الأجواء تفتّحت إمكانات ميتا ومورسيلي، فقد اعتبرا استراحة الشتاء اختباراً هادئاً، أما الآن فثمة أخيراً ما يحدث. جدول الخدمة كان قاسياً، فقد نُظّم كل شيء من الفجر وحتى المساء. وبدا أن هنوتي موجود في كل مكان في الوقت نفسه، والتقدير يلاحقه أينما توقف، حتى بات يُبجّل مثل إله الحرب زابابا الذي تجسد كرجل يعتلي أسداً، ممسكاً رمحاً يميناه وترساً يسراه، قوياً كدبّ وشجاعاً كأسد ورشيقاً مرناً كجواد، مفتول العضلات وجميل المعيا، محبوب الأرباب، وجميع النساء طبعاً. هكذا كان يحكي الجنود عن قائدهم بكل احترام.

في مكاتب إدارة شؤون الدولة فُرز تانوا مع مجموعة من المراسلين الإخباريين للعمل حسب الاختصاص. فالرسائل العاجلة ليست وحدها المهمة، بل تقارير الوضع التفصيلية، والملاحظات الخاصة بدروب حركة القوات والطرق المتصلة لاحقاً بشوارع، وكل الملاحظات المفيدة أثناء سير الحملة بشأن الينابيع والمخاضات والمعابر، والأماكن الصالحة لزراعة الحبوب، وطلبات الإمداد، وتحضير الاتفاقات والعقود، وغير ذلك من أمور كثيرة مفيدة. وأهمها على الإطلاق، إضافة إلى تدوين الأحداث، تسجيل بطولات الملك التي سيرفها لاحقاً في تقريره إلى الأرباب. وقد نُدب عدد كبير من السعاة الخياليين للتحرك جيئة وذهاباً بين أماكن وجود الملك والعاصمة وأجزاء القوات المسلحة الثلاثة للحفاظ على التواصل الدائم. فالملك وبقية القادة في مواقعهم كان لا بدّ من أن يطلعوا باستمرار على ما يجري في حتّوشا والمملكة وعلى الحدود وفي بقية أنحاء العالم. بعض الأخبار كانت تُرسل ليلاً بالإشارات النارية. وهنا تعمق الانطباع لدى تانوا حول جودة أنظمة العمل والتفكير بترابطها معاً. لا تُنظم توصيل المعلومات فحسب، بل تنظيم شؤون المدينة أيضاً، إذ لا بدّ من توفير الغذاء للجميع، والسلاح لكل جندي. إذ لا بدّ من تأمين ما يكفي من المواد الأولية، كما لا بدّ من سياسة اقتصادية جيدة لتأمين مواد احتياطية، إضافة إلى حرفيين اختصاصيين. لا، إنه غير نادم إطلاقاً على حسم أمره لصالح حتّوشا.

بعد انتهاء جولة الملك والملكة عبر المملكة، هيا شويلوليوما نفسه عسكرياً، وكذلك بكره أرنوواندا، وليّ العهد، فانتظما يومياً في التمارين القتالية. وقد ذهل تانوا لمرأى تحول الملك في صفوف الجنود، إذ لم يعد بعيداً ومحصّناً، بل بدا إنساناً عادياً من لحم ودم. يلبس الرداء نفسه مثل ضباطه، ولا يبارى في قتال العربات، فحتى هنوتي لم يصمد أمامه.

رافق تحركّ الجيوش احتفالاتٌ وداع رائعة. وفي ختامها ظهر الملك والملكة معاً أمام المقاتلين المحتشدين، فصلياً لربة الشمس في أريتا، ولربّ طقس المملكة ولجميع الأرباب، وخاطبهم الملك قائلاً: «في نريكا وهورساما وكستاما وسيريسا وهيمووا وتاغاشتا وأرض كماما نهب الكشكيون المعابد، التي هي بيوتكم في تلك المناطق. لقد حطموا التماثيل التي جسّدكم بها الناس. سرقوا الفضة والذهب وأباريق شراب القربان وصحافاً من فضة وذهب ونحاس، سرقوا أدواتكم البرونزية وثيابكم، وتوزعوا الغنائم فيما بينهم. لقد طاردوا الكهّان وأصحاب القداسة، طاردوا الكاهنات والمحشومين

والموسيقيين والمغنين والطباخين والجنازين، طاردوا الفلاحين والبستانيين وأخذوهم عبيداً لهم. هذا ما جرى، بحيث لم يعد هناك من يذكر أسماء الأرباب، أسماءكم، لم يعد هناك من يقدم إليكم الأضاحي اليومية والشهرية والسنوية، ولم يعد هناك من يحتفل بأعيادكم ويؤدي التمثيليات الغنائية. إننا نعاهدكم على إعادة الأماكن المقدسة إلى ما كانت عليه، فأمدونا بعونكم!».

صدحت حناجر الرجال الذين لا يحصى عددهم بهتافات التأييد، وهم يخبطون بأيديهم على تروسهم. ثم بدأ الجيش يتحرك باتجاه الشمال.

**

لم يكن ممكناً التوصل إلى معرفة ما إذا كان الملك إيداندا قد نجح في إبعاد شكوك أمونحوتب، بشأن الاتصالات مع حترشا، فلقد سَوَّغها بضرورات تتعلق بالشؤون التجارية، ولكن يحتمل أن ظنون المصري قد ازدادت. هذا ما استنتجه إيداندا من واقعة أن أمونحوتب لم يفتح الموضوع معه فحسب، بل أيضاً مع لويوا وأكالينا، علماً بأن ذلك كان سيزيد من إيضاح الوضع للمصري؛ فهما في نهاية المطاف أهم ممثلين لتجارة قطنا. لكنهما من ناحية أخرى غير مطلعين على جميع تحركات إيداندا على رقعة اللعبة السياسية، وهذا في هذه المرة قد يُعد ميزة، أو مثلبة. ومن الذي سيحسم الأمر؟ وإيداندا لا يريد ولا يستطيع أن يستفهم منهما عن الأمر، خشية أن يقع في ورطة جديدة، هو في غنى عنها.

ومن ناحية أخرى ازداد قلق إيداندا عندما وصل إلى علمه أن أمونحوتب قد اتصل بتيرو، أو كان الأمر بالعكس؟ هل كان تيرو هو الذي طلب مقابلة أمونحوتب؟ هذا التفصيل لم تستطع (آذان) إيداندا أن تتبينه بوضوح، لكنها أخبرته بوقوع لقاء بين الاثنين، وفي جوٍّ من التكتّم، إذ لم يحضر اللقاء أي مترجم من قطنا. ولكن يبدو أن اللقاء كان فائق الأهمية بالنسبة لأمونحوتب، إلى حد أنه على غير عادته، قد توجه بنفسه إلى دار تيرو وبثياب محلية لا تلفت النظر. ولولا يقظة (الآذان) وحرفيتها العالية لما كُشِف، ولما أمكن تتبّعه حتى مكان لقائه.

دائماً تيرو، دائماً تيرو. لم يعد بوسع الملك إيداندا أن يغمض عينيه بعد الآن عن حقيقة أن سلفه تيرو متورط في قصة ما، غامضة يصعب كشف سترها. وأسئلته المبطنة المواربة

لزوجته بلتوم كانت سرعان ما تثير غضبها، ما إن تشم رائحة نقد لعائلتها، ولا سيّما لأخيها. فأسرتها في نهاية المطاف كانت الأسرة المالكة السابقة في قطنا، ولا بدّ من التعامل معها باحترام. كانت هذه وجهة نظرها. أهنا يكمن السر؟

غادر أمونحوتب قطنا قبل عيد رأس السنة، وبكامل الرضا، على ما يبدو، عن كل شيء. وعلى شرفه أُقيمت ثانية مأدبة احتفالية عامرة. وجمع القصر ما لا يحصى من الهدايا الثمينة لينقلها أمونحوتب معه كعطايا رمزية للفرعون وزوجته وأعضاء آخرين في الأسرة المالكة. وكتبت إيست لأحبائها عدداً كبيراً من الرسائل. وفي مقابل ذلك ترك أمونحوتب لخالته البالغة الحزن لسفره، مذبحه الخاص المنحوت من الحجر بفتية عالية، والمزود بعدد من الدروج المتحركة والأبواب الخشبية المنحوتة بإتقان كبير، وذلك لأداء صلواتها التقية الخاصة. وكان قبل ذلك قد أوصى له بصناعة عدد من الأنواب الأرجوانية البديعة، وأبرم اتفاقيات تجارية مع عدد من كبار تجار قطنا.

من الجانب الرسمي لم يتقدم أمونحوتب لخطبة كيا، ولم يكن إيداندا سعيداً بذلك. لكن السلوك العام لوليّ العهد تجاه كيا طمأنه وأبعد عنه القلق. وقد صعب على أمونحوتب جداً أن يفترق عن كيا، التي لم تستطع هي أيضاً تصوّر الحياة في قطنا من دونه. في أثناء الأيام الأخيرة حاول كلاهما ما أمكن أن يكونا معاً ويستمرّا في التخطيط للمستقبل. وكرّر أمونحوتب على مسامعها ما عليه أن ينجزه في مصر، وأنه في أقرب فرصة ممكنة سيرسل في طلبها مع مرافقةٍ لاثقةٍ بمقامها. وموكب العروس البهيّ لن يعبر البحر، بل سيمرّ بجميع بلدان الساحل السوري وكنعان حتى مصر في الجنوب، حيث سيسرع إلى استقبالها.

وعندما لم يعد هناك ثمة مجال آخر لتأجيل الوداع، فكر أمونحوتب بأن يواسي كيا بطريقة خاصة - ولربما كان يواسي نفسه - فزينها بمجموعة مصوغات فريدة من الذهب والأحجار الكريمة وخزف القيشاني الثمين. كانا وحدهما، وكانت هي في ثوبها البسيط. فأمرها: «أغمضي عينيك!». ثم وضع على رأسها إكليلاً وطوّق جيدها بقلادة وعضديها بسوارين وخصرها الرشيق بزئار، ثم رفع مرآة أمامها وقال: «انظري الآن إلى جمالك الذي لا مثيل له!».

وضع في يدها زوج الحلق لتثبتته بنفسها في أذنيها. وقفت أمامه شامخة باعتزاز، وعيناه لم تشبعا من مرآها، فضمّت هذه اللحظة إلى مخزون قلبه. وفي الختام أسمعها مزيداً من أسطر نشيده إلى رع، وصيةً حتى لقائهما. تبادلوا القبلات لآخر مرة ثم خرج أمونحوتب،

وحيا الكثيرين الذين أتوا لوداعه، ثم ركب عربته وغادر على الطريق الطويل إلى وطنه. رافق حشدٌ كبيرٌ الضيفَ الساعي حتى خارج البوابة الغربية. أما مراسلو الملك فقد رافقوه إلى جيبيل، فقادش، فأمورو.

وعدت كيا حبيبها أن تستفيد من الوقت حتى لقائهما لاستكمال تعليمها. فقريباً ستصبح زوجته. وهل في الدنيا سعادة أكبر من ذلك؟ ومع ذلك لم تتمالك نفسها، فانهمرت دموعها في المكان نفسه على سطح المعبد، وهي تتابعه بنظراتها مغادراً، مثلما رأته لأول مرة قادماً إلى قطنا قبل شهور. متى سيلتقيان ثانية يا ترى؟ دهم كيا شعور غريب، لكنها عزته إلى ألم الفراق. وبشروذ نزعتم المصوغات الجديدة واحدة تلو الأخرى، تاركة القلادة حول جيدها، وحفظت جميع القطع الأخرى في صندوقها.

ربيع 1352 ق. م حتى نهاية العام

اقترب موعد تعادل النهار والليل الربيعي. وطال أمد سطوع الشمس. في قطنا والمناطق التابعة لها استعدّ الناس لفلاحة الحقول والبساتين، التي تبدأ عادة في نيسان، الشهر الأول من السنة، أي شهر البداز. بداية السنة يُحتفل بها في (عيد رأس السنة الجديدة) الذي يمتد عدّة أيام، لكن الشعب لا يشارك في أيام العيد الأربعة الأخيرة. فاتحة كل يوم من أيام العيد تبدأ دائماً مساءً، ومساره مرسوم بدقة مسبقاً. ولا بدّ من إيلاء كل الاهتمام لإقامة الشعائر بعناية ليأتي حصاد السنة طيباً وغنياً، والعبء الأكبر يقع على عاتق الملك والملكة، فصحتهما وقوتهما وإرادتهما الطيبة هي الضمانات لتجديد رضاء الأرباب والحصول على بركاتهم.

التحضيرات الواسعة للعيد شغلت القصر وجميع التابعين له، وجميع المعابد مع كل التابعين لها انشغالاً كلياً، فكانت بالنسبة لكيا تسرية محببة. لم يسبق لها أن فرحت بعيد، كما بهذا. أرادت أن تستمتع بكل مباهجه حتى الشاملة، وإن كان فرحها مشرباً بحسرة، حسبما اعترفت لإهلي نيكالو. فلربما كان هذا آخر أعيادها الكبرى في قطنا.

«كيف تحسّين؟». سألت كيا صديقتها «لا يبدو عليك أبدأ أنك تتظرين طفلاً!».

«لكنني أحس به بكل وضوح!». أجابت هذه بفرح. بدت متوردة وبعاية جيدة. شعرت كيا بالارتياح لكون الأمور قد اتخذت مساراً جيداً.

«وهل يشعر أبوه بالفرح أيضاً؟ لا يمكنني أبدأ تصوّر أكيّزي بدور الأب!».

انظماً الفرّح على وجه إهلي نيكالو، وأجابت بعجل باترة: «أكيّزي مشغول جداً. وفرّحه بيديه بطريقته الخاصة»، وعندما لاحظت أن كيا ستستمر في الكلام، قالت متوسلة:

«أرجوك كفى أسئلة. أنا فعلاً بخير، وراضية بما أنا فيه. صدقيني. لا يمكنك تصور الطريقة التي تدلني بها الملكة، وأمي أيضاً. إنهما قرآن رغباتي من عيني. وعليّ الحذر لئلا يزقوني مثل إوزة!».

عادت إهلي نيكالو إلى طريقتها في الكلام كالسيل. ولكن كان واضحاً أن ثمة ما ليس على ما يرام بينها وبين أكيزي. وستتهزّز قريباً أقرب فرصة لتسأل أمها وتايا.

«أنا ببساطة لا يمكنني تصور أنك قريباً ستغادرين قطننا إلى الأبد!». هذا التبدل في المزاج جاء مفاجئاً جداً، وإهلي نيكالو كانت تنظر إلى وجهه كيا بحزن. ثم أردفت: «لقد أمضينا كل حياتنا معاً. وقريباً قد لا أراك ولا ترينني أبداً!».

ضمتّ كيا صديقتها بين ذراعيها، ثم قالت: «انظري يا عزيزتي، أعمق أمنية عندي هي أن أعيش سعيدة مع أمونحوتب. وما أظنك تفضّين علي بهذا، أليس كذلك؟».

أومأت إهلي نيكالو برأسها محاولة أن تكبح دموعها. ثم قالت باندهاش: «أتمنى لك من كل قلبي رجلاً يحبك ويقدرك ويدللك. ستبين رائعة كملكة في تلك الأتواب الشفافة والنيجان الرائعة». ضحكت كيا، فهكذا عهدت صديقتها.

«ملكة! حتّى ما زال الوقت باكراً. ثم إنني ما زلت هنا!». قالت من قلبها، وأردفت: «لن ننسى بعضنا أبداً، يا أختي. ولن نُنغص على أنفسنا عيد رأس السنة الرائع هذا، اتفقنا؟».

خلال الأيام الثلاثة الأولى أقيمت الشعائر نفسها بالطرق المعهودة نفسها. ابتهل الجميع إلى الرب بعل؛ رب المطر والخصب، ولزوجته وللملوك المؤهلين وزوجاتهم أيضاً.

قبل انتهاء الليل بساعتين غادر الملك والملكة والحاشية القصر عبر البوابة الجنوبية، وحملة المشاعل ينيرون لهم الطريق. شكّلوا موكباً احتفالياً على طول الشارع العريض إلى بيت الأرباب، غير البعيد عن معبد بيليت إكاليم. وهناك كُرس إناء ذهبي لنهل ماء أرائنو المقدس وحمله من النهر إلى الحوض المخصص له في بيت الأرباب. بهذا الماء غُسل وطُهر كبير كهنة الرب بعل، ثم فُتحت الستارة الكتانية عن قدس الأقداس. غطى الجميع وجوههم إلى أن قال: «بعل، يا سيد الأرض وفارس السحاب، اغفر لأبناء قطننا جميع ذنوبهم. احم بيتك!».

فتحت بوابات المعبد الرئيسية، كي يتحرك الأرباب دخولاً وخروجاً من دون

عائق، فيما كان المغنون والموسيقيون يرفهون عنهم بفنهم. وخصّص ما تبقى من النهار لتحضيرات أخرى، ونُصبت مائدة طعام احتفالية.

في اليوم الرابع بدأت الشعائر الدينية في وقت مبكر من الليل. رتل كبير الكهنة صلاةً، ثم خطا نحو باحة المعبد الرئيسية. التفتَ باتجاه الشمال ورتل صيغة ابتهاج أخرى:

«أيها الجبار القادر القوي،

يا من تسرع عبر السحاب،

يا من تسوق الغيوم كالغنم أمامك،

يا مالك البرق والرعد،

أمطر قطنا ثلاث مرات!».

بعد أن أشرقت الشمس دخل الملك المعبد في رداء احتفالي مزين، وتناول الصولجان الملكي من كبير الكهنة. وهذا الفعل المقدس يُذكر، من جهة، بعملية تنصيب الملك عند تسنّمه زمام الحكم، ومن جهة أخرى، بضرورة تجديد الملك سلطته في قطنا سنوياً، والمصادقة على هذا التجديد من قبل الأرباب ومن مجلس المدينة.

عقب هذه المراسم المهمة مشى الملك والملكة عبر الأراضي الزراعية والحقول في الاتجاهات الأربعة حتى العلامات الرمزية لحدود المملكة، وقد استغرق ذلك حتى الغسق، إذ كان على الجميع أن يقتنعوا باستعادة الملك سلطته.

في جميع الأمكنة التي توقفوا فيها، تليت مقاطع من أساطير الخلق وتكرر استجداء الرب من أجل الماء والخبز والنيذ والزيت وعلف الماشية ونماء جميع المخلوقات. كان الناس يقفون على جوانب الطرقات وعلى سطوح الدور أو على التلال ويصلّون طلباً لبركات الأرباب.

كاليوم الرابع بُدئ بالشعائر الاحتفالية قبل نهاية الليل بأربع ساعات. وبعد الشروق ناول الكهنة الملك تمثال الرب، فوضعه في العربة إلى جانبه وجال به عبر شوارع قطنا، إلى أن عاد أخيراً إلى بيت الأرباب، فاستقبله خدمه استقبالاً حافلاً تعبيراً عن شكرهم لعودته.

بعد ذلك أراد الملك نفسه دخول المعبد، لكنه مُنع، حتى خلع أسلحته وتاجه ووضعها جانباً مع صولجانه. وعندئذ سُمح له بالدخول ليخضع لامتحانات أخرى. وبحضور الملكة وحاشية البلاط جرّ كبير الكهنة الملك من أذنه وسأله: «هل أئمت أو فسقت؟».

لتأكيد أهمية السؤال صفع كبير الكهنة الملك صفةً سألت لها دموعه، وأجاب حسبما هو منصوص عليه: «كان سلوكي دائماً خالياً من الإثم». وللتأكد من صحة هذا الزعم سُئِلت العرافة.

بالنسبة إلى کیا كانت كل هذه الطقوس جديدة. لم يُسمح لها سابقاً إلا بالمشاركة في الاحتفالات العامة. والتأثر الذي كان يغمرها دائماً عند مشاهدتها أفعالاً مقدسة، لم يرغب عنها اليوم أيضاً. فكانت مرعوبة بانتظار نتيجة العرافة، فيها ترتبط موافقة الأرباب على بعض تصرفات أيها الاستبدادية.

ذُبِحت نعجة عمرها أقل من سنة، ولا عيب فيها، وشرُحت حسب الأصول بحيث تُمكن مراقبَ القربان من ملاحظة الكبد ومحيطه بدقة وتأويل الإرادة الإلهية الكامنة فيه. من بيت الربة كانت کیا تعرف نماذج أكبادٍ وتأويلاتها المدونة، وتعلمت أن العالم الكبير ينعكس مصغراً في هذا العضو الحيوي المهم. كان واضحاً أن الكبد لا شائبة فيه كالنعجة الصغيرة نفسها، فُبشّرت قطناً بمستقبلٍ حافل بالخير. تنفست کیا الصعداء، كما ارتسم الارتياح على وجه الملك، فخطا نحو تمثال بعل وأمسك بيديه، كي تنتقل قوة الرب إليه. وبعديئذٍ حقَّ له أن يستعيد رموز سلطته الملكية. عند الغسق تكرر طقس العرافة، وكان القربان هذه المرة ثوراً. ولما كانت نتيجته أيضاً بما يرضي الجميع كامل الرضا، خُتم المساء بمأدبة احتفالية.

في اليوم السادس كان على الرب أن يبرهن على قوته للملك. فأحضرت إلى المعبد تماثيل أرباب ذهبية وأجري الصراع الذي كان حامياً وقاسياً، حسب الأصوات الصادرة من وراء الستائر. تصدى جميع الأرباب لبعل، لكنهم لم يستطيعوا أن يصرعوه، فهو سيدهم ومعلمهم وبقي منتصراً. وكان هذا إشارة لأرباب المناطق المجاورة، لتقديم فروض الطاعة له. عند الغسق دخلوا قطناً عبر بواباتها، فاستقبلهم الشعب بالهتافات ورافقهم حتى المعبد. في صباح اليوم التالي غُسلوا بعناية ومُشحوا وعُطِّروا، ثم ألبسوا ثياباً جديدة، فصاروا جاهزين للذروة الأولى من احتفالات اليوم الثامن. عرضت جميع التماثيل أمام الشعب، الذي بات شاهداً على تجليل كلِّ الأرباب لبعل، مانح الأمطار وقاذف البروق الجبار، وعلى قسمهم بالولاء له والوعد بالخير في السنة الجديدة. بعد طقس القسم خرج الشعب مع تماثيل الأرباب بقيادة الملك والملكة وبمرافقة الموسيقى والغناء على طريق المواكب إلى نهر أرانتو، حيث ركبوا القوارب لمسافة قصيرة مع التيار. ثم ترجلوا وُرُفعت

القوارب على عربات جرّ، نقلتهم إلى دار السنة الجديدة، حيث قُدمت قرابين سخية. كان الشعب المشارك في الاحتفال مواكباً للأرباب طوال الطريق، مهللاً مغنياً، بانتظار المراسم الأكثر أهمية. ففي دار السنة الجديدة حصل الأرباب على أزياء جديدة وقُدمت لهم أطيب المأكولات والمشروبات، تمهيداً لتلقيهم الهدايا والأعطيات. لذلك في اليوم التالي وضع الملك أمام الأرباب في دار السنة الجديدة نفائس من ذهب وفضة وغيرها، مما قدمته عائلات التجار والأشراف في قطنا. وقبل الأرباب كل شيء بإعجاب ورضا، وتركوا كل شيء لمديري شؤونهم من البشر في المعابد، ليعتنوا بهم طوال العام، فهذا من واجبات البشر تجاه أربابهم، ولأجل هذا خلقهم إيل.

والآن كان لا بدّ للعام الجديد من أن يكون سنة خير. كل فرد على حدة أرسل التماساته الشخصية إلى السماء، ومن بينهم كيا أيضاً التي تضرعت إلى الأرباب من كل قلبها. ماذا ستجلب لها السنة الجديدة؟ وماذا ستجلب لكل أحبائها؟ لأبيها وأمها وأخوتها، وإهلي نيكالو التي كانت تشارك في الرقص باسترخاء ممسكة بذراعها؟ ثمّة طفل سيولد! أخ، وأمونحوتب؟ وشالا؟ وتالزو؟ فجأة خطر الصديق في بالها، كان سيستمع بهذه الاحتفالات وجوهره المرهف سيرتشف فرحها. كيف يحتفلون يا ترى في حتوشا النائبة والباردة بعيد رأس السنة؟ احتشد الناس معاً لينشدوا تمجيداً لرب الخصب:

«لقد صبّ زيتاً وقال: أنعش الأرض والسماء!
 جالّ حول أطراف الأرض الزراعية،
 وعبر أخاديد أرض الحنطة العميقة.
 فلتهطل على الأرض الزراعية أمطارٌ بعل.
 وعلى الحقلِ أمطارٌ ربّ الأرباب!
 ليكن مطرٌ بعل حلواً للأرض الزراعية،
 وللحقلِ أمطارٌ ربّ الأرباب!
 ليكن حلواً للحبوب في الأخاديد،
 وللحقلِ المحروث حديثاً، ففاحت روائح تربته
 كعبق أعشاب زكية!
 رفع حارثو الحقول رؤوسهم،
 وعالياً رفعه العمال الزراعيون.

فقد نفذ الخبز من السلال،
ونفذ النبيذ من الدنان،
ونفذ الزيت من الجراراً».

لم يكن بوسع الجميع الانغماس في مبهاج العيد طوال أيامه، ففي أثناء وجود الملك والملكة والحاشية في دار السنة الجديدة، كان أصحاب قطعان الغنم منهمكين في العمل، وخاصة منهم الذين يعيشون حياة البداوة رغم تبعيتهم لمملكة قطنا. فعيد رأس السنة الجديدة هو في الوقت نفسه موسم جزّ الغنم، ولذلك لم يشارك شيوخ البدو إلا في احتفالات محددة من العيد في قطنا.

يتطلب جزّ هذه الأعداد الكبيرة من الغنم مهارات خاصة وقوة جسدية وصبراً. وقد كُرس الجزّ للأرباب، وفتح الكهنة أعينهم لاصطفاء الرؤوس ذات الفراء الخاص. فإذا كانت فروة رأس معين مبرقة بطريقة استثنائية، فهذا بشيرٌ لمالكة بالخير والرفاء والسعادة. ومن لا يتوق إلى ذلك؟ وفي الأراضي الزراعية أيضاً كان العمل على قدم وساق، فما زرع في التربة في الخريف، لا بدّ الآن من تهويته وتحريره من الأعشاب الضارة. وهناك بعض المحاصيل التي آن موعد حصادها، بينما كانت حقول أخرى تُحرث وتُبدر مصحوبة بغناء الفلاحين.

مع غروب شمس اليوم العاشر جاءت الذروة الأخيرة لعيد رأس السنة الجديدة، وهي طقس الزواج الإلهي بين الرب بعل وزوجته، الذي يضمن خصوبة الجنس البشري. وبعده مباشرة استضاف الملك جميع الحضور إلى مأدبة عامرة تعبيراً عن امتنانه للأرباب لما قدّموه في السنة الفائتة مع التماس بركاتهم للسنة البادئة. استمر العيد حتى ساعة متأخرة من الليل بين الأكل والشرب والغناء والرقص والضحك. وكثير من الأزواج حذوا حذو ربهم بعل وزوجته على أمل أن الاتحاد الجسدي في هذه الليلة ستكون مكافأته أطفالاً أصحاء. عمّ الفرح والانشراح في كل مكان.

في صباح اليوم التالي غادر الأرباب والبشر دار السنة الجديدة منهكين، وعادوا إلى قطنا، مثلما جاؤوا منها، وبعضهم اتخذ الدرب المباشر. من كان بوسعه ألا يعمل هجع ليرتاح، أما الملك فكانت أمامه واجبات كثيرة: كان عليه تعيين أشخاص جدد أو تثبيت القدامى في أعمالهم، وأن يتلقى قسم الولاء من ممثلي جهات كثيرة، وما شابه ذلك. كان الملك مرهقاً، لكنه فرح بنجاح كل شيء على ما يرام، فأوى عقب ذلك إلى ملجئه الخاص

ليفكر. أليس غريباً أن كل ما حذرت شالا من وقوعه لم يتحقق، وهو ما بقي يخشاه طوال الاحتفالات؟ أم إلى متى يمتد أمد هذه التحذيرات؟ عند هذه النقطة جنبه الأرباب المزيد من التكهنات، فللجسد حقه أيضاً، وإذا بالملك يغرق في نوم طويل بلا أحلام.

**

أتى الربيع بوفرة في الإزهار والاختضار وبأيام دافئة. والسعاة المرسلون إلى جبيل وأمورو وقادش عادوا إلى قطنا ومعهم أخبار تؤكد الخشية من أن الأسرة المالكة في قطنا قد تعرضت لمزيد من الخسائر. عبرت رسالة ريب عدي لأخيه الحبيب إيداندا عن أسفه الشديد لتعرض القافلة المتوجهة نحو جبيل لهجوم أدى إلى فقدان عدد من الحيوانات بكامل حمولتها، وتبين أنها هي التي تخص الملك إيداندا. وقد بينت تحرياته لاحقاً أن الهجوم قد اتبع الأسلوب نفسه، كما في الهجوم على قافلة قطنا، التي وصلت إليه أخبارها، وأن ثمة جماعة من البدو متورطين في العملية. وهذا هو ما أكدته أيتاكما، حاكم قادش، وحكام بقية الإمارات عند سؤالهم عن الأمر، إلا عبدي عشيرتا حاكم أمورو، الذي يصر على نفي أن تكون أية قافلة قد تعرضت لهجوم على أرضه. ويرجو ريب عدي من أخيه إيداندا أن يخبره عما ينوي اتخاذه من إجراءات بهذا الشأن، أما هو من جهته فسيعلم الفرعون بالأمر.

كما أرسل حاكم قادش إلى إيداندا رسالة شخصية، لا تتضمن أية معلومات جديدة، سوى أن استجوابه للبدو الذين يرعون قطانهم على أرضه لم يُسفر عن شيء. وهذا لم يدهش أحداً في قطنا.

«هناك من يجمع ثروات هائلة. ولكن من هو؟ ولأي غرض؟». كانت هذه هي الأسئلة التي بقيت دون أجوبة.

بعد أن علمت كيا بعودة السعاة، استفسرت في القصر، بعد تردد، عن بقية رحلة أمونحوتب. قيل لها إنه قد مخر البحر فوراً، دون استراحة في جبيل. لكن السعاة لم يحضروا لها رسالة أو خبراً منه. وبناء على حسابات كيا يُحتمل أن يكون الحبيب الآن في تارو، أحد الموانئ المصرية، ليتابع رحلته من هناك إلى طيبة.

خبرتها شالا أن تبقى في بيت الربة أو أن تعود إلى القصر. ثمة صوت داخلي نصحتها

بالبقاء في بيت الربة، على الرغم من البرنامج اليومي المنتظم بصرامة. غير أنها، مع ذلك، كانت تشعر هنا بحرية في الحركة أكثر من القصر، ثم إن صداقتها مع أمينية قد توثقت أكثر خلال الفترة الماضية. لقد وجدت كل منهما الطريق إلى الأخرى من خلال خدمة الربة. تحدثنا في مواضيع شتى، ولا سيّما مساءً في حجرة نومهما المشتركة، وضحكتنا كثيراً معاً. إذا كان الفضل يعود إلى أمينية في اكتساب كيا درجة من الجدية شيئاً فشيئاً، فإن أمينية بدورها تشعر بالامتنان لفرح كيا الجامح غالباً، والذي كان يصيبها بعدواه. تعد أمينية واحدة من ذوات الأيدي الشافية، التي اكتسبت الكثير من الخبرات الطيبة. وكان دافعها إلى ذلك شعور إنساني عميق وتعاطف أصيل مع جميع المخلوقات. وعلى الرغم من ميلها الشديد إلى كيا، لكنها لم تتوان عند الضرورة عن انتقادها، من دون أن يُفسد ذلك للود قضية. وهذا التوازن المبني على الحب والاحترام معاً، كانت كيا تقدره أعلى تقدير. وفي الوقت نفسه كان التلاقي مع النساء والفتيات الأخريات في بيت الربة يرجح خيار تفضيل كيا البقاء هنا، على العودة إلى القصر، حيث طرأ على المزاج هناك تغيير كبير.

«لا!». قالت إيست «أنتِ من تغير، ولذلك تبدو لك الحياة هنا مختلفة. أنت لم تعودي تلك الطفلة الصغيرة التي تتقافز في كل مكان، وتدس أنفها في ما لا يعينها، وترد على الملكة بكلمات وقحة، وتغيظ إخوتها أو مربيتها، تمزج الطعام من المطبخ وتلعب بعقل الملك. وهذه الأخيرة ما زلت تفعلينها!». وضحكت.

«أكنتُ مشاكسة إلى هذا الحد؟ هذا مريب. أمل أن تنجب إهلي نيكالو طفلة حلوة ودودة وهادئة، لتكون لاحقاً أميرة قظنا اللطيفة! أمي، ما القصة بين إهلي نيكالو وأكيزي؟». كان هذا السؤال يؤرق روحها طوال الوقت. كانت إهلي نيكالو غالباً مرحة، وقد لاءمها الحمل. بطنها تكور شيئاً فشيئاً، وكان متعةً لكيا أن تتلمس رفسات الجنين على جدار البطن. ويا له من شعور عارم وجليل، أن تحمل في بطنك حياة جديدة أرسلتها الربة. ولكن في أيام كثيرة بدت إهلي نيكالو مكروبة بعد نوبة بكاء.

أخبرتها أمينية أن تبدل المزاج أمر طبيعي في المرحلة الأولى من الحمل، وشرحت لها قائلة: «تصوري كل ما يطرأ من تغيرات على الجسم، عندما ينمو داخلك إنسان صغير». لكن كيا كانت تتذكر تلميحات إهلي نيكالو المتكررة، والتي ما زالت لا تفهمها.

«بالنسبة إلى كثير من الرجال يشكل حمل زوجاتهم عذاباً لهم»، شرحت إيست «لأنهم لا يستطيعون بعد، تلبية رغباتهم الملحة في المرأة».

«لكن البديل في هذه الحالة موجود»، اعترضت كيا منزعة.

«لا شك في أن أكيزي يلجأ إلى هذا البديل. لكن هذا يؤدي إلى فقدان زوجته كثيراً من اهتمامها بها، الأمر الذي تحتاجه بصورة خاصة مع الطفل الأول. لكنني لا أؤتمك كيا، أنا لا أتصور أكيزي ذلك الحبيب الذي يراعي حبيبته. يحتمل أنه قد أجبرها، مما أشعرها بالإهانة، فقد كانت مغرمة به جداً. بعد العرس سرعان ما تولد لدي الانطباع بأنها باتت تخشى الليالي المشتركة معه».

«يحتمل أنك محقة. فقد ألمحت إلى مثل هذا مرة. لكنني لم أستوعب ما عنته، حينذاك».

«لا أريد أن أبدو متشائمة، ولكن على الأغلب، سيكون قدرها مثل كثير من النساء. عليها أن تلد للملك الجديد - هذا إذا صادق مجلس الأعيان على ذلك، بعد ألف عام إن شاء الرب - أبناء وبنات من دون أن تحظى بحبه. وهذا قد يؤدي من جهته تجاهها إلى سلوك أرعن وفظ. وهي كمشيقة فراش لا تستهويه كما يبدو، والعكس صحيح. وأفضل ما يمكنها عمله هو أن تعود نفسها على هذا الوضع بأسرع ما يمكن، لتستفيد من أفضل ما يقدمه بأقل الخسائر. سيكون وضعها مثل الملكة بلتوم، ستفتح من خلال أطفالها. وهذا ليس أسوأ الحظوظ! أكيزي لن يتنظر طويلاً حتى يرتبط بمن تشتهيها نفسه، حسب ظني!».

«هل كان الوضع هكذا بينك وبين أبي؟». سألت كيا أمها باستياء واضح.

«لا، كان وضعنا مقدرًا من الأرباب. فهو لم يعرفني سابقاً، ثم إن أباك كإنسان يختلف عن أكيزي اختلافاً بيناً. كان واعياً دائماً أن لا يسيء إلى أحد، رغم عدم إمكانية تجنب ذلك في حالات معينة. ولكن حتى الملكة تعرف أنه يبذل جهده من أجل ذلك».

كانت كيا مرتبكة ومضطربة عندما غادرت مخدع أمها. لم تتصور الزواج على هذا النحو. ولحسن الحظ أن الحال بينها وبين أمونحوتب مختلف. مع كل يوم يمر، كان قلق كيا يزداد تلهفاً لوصول الساعي ومعه الخطبة الرسمية والإعلان عن موعد رحلة العروس. لكن شيئاً من هذا لم يحصل.

في القصر كانوا مشغولين بجهاز العروس، وبدت إهلي نيكالو أكثر انشغالاً بالأمر منها، وكانت تخبر صديقتها بكل المستجدات باستمرار.

«ماذا كنت سأفعل من دونك؟». قالت كيا: «لا بد أن تأتي معي، بلا نقاش، رغم أن هذا يعني للأسف أن قطنا لن تحصل على ملكة».

كان الأوان قد فات، عندما عَضَّت على شفتها ندماً. فهذه المزحة أخفقت من جميع الوجوه. إذ كم كان بود إلهي نيكالو أن ترافق صديقتها، على الرغم من مقتها الشديد لفكرة مغادرة قطن! هل نطقت كيا بنذير سوء؟ لقد انفجرت إلهي نيكالو باكية. فقد كانت تعلم علم اليقين أن مكانتها القانونية، قبل ولادة طفلها الأول صحيح البنية، ستبقى غير مضمونة. ما أسرع ما تنقلب الأيام السعيدة إلى نقيضها، حتى في القصر الملكي.

«أنا آسفة، أرجوك اعذريني. كان هذا سهواً مني. كل ما كنت أريد أن أقوله لك، هو مدى امتناني لك لتدبرك كل هذه الأمور من أجلي، في حين أنني لا أجد الوقت ولا الرغبة للقيام بها، وكم أفتقدك منذ الآن.. هل تماسكتِ؟». وعانقتها كيا نادمة وهي تقول: «ما أخبر ابن أخي الصغير؟ لا شك في أنه يمد لي لسانه الآن، ليعاقبني على كلامي الغبي!». ضحكت إلهي نيكالو قائلة: «ما هذا الكلام؟ عليّ أن أذهب»، وقبّلت كيا وغادرت.

لم يكن هذا أول حديث يفتحه الملك مع كيا حول ارتباطها بولي عهد مصر. فقد انقضت عدة أسابيع ولم يُسمع شيء بعد من مملكة النيل بهذا الشأن، رغم أن التبادلات التجاري بعد عطلة الشتاء قد عاد إلى نشاطه برأ وبحراً، مما زاد الملك قلقاً. وتعليقات الملكة الساخرة دوماً، مثل (مَنْ يطيل النظر إلى النجوم ستؤلمه رقبته) لم تساعد في تحسين مزاجه. حتى إيسْت لم تنجح في تخفيف قلقه، ولا سيّما أن الوضع السياسي قد بقي على حاله من حيث التعقيد، إن لم يكن قد ساء أكثر فأكثر.

العائلتان المتنافستان على السلطة في ميثاني زادتا في غموض الوضع. وبات مؤكداً أنه لا بد من الأخذ في الحسبان هجوماً حثياً قريباً على المملكة المستضعفة، مما سيؤثر بالدرجة نفسها على الإمارات الحدودية والتابعة أيضاً. وعلى السوريين الانفصاليين تشمّم المزيد من الفرص لهم، من دون أخذ سلوك مصر وبابل وآشور في الحسبان. ولكن، لو أن نهب القوافل يتوقف. فانعدام الأمن على طرق القوافل سيلحق الضرر بالجنح السوري، هذا إن لم يُعتبر هو وراءه. هذا الإدراك كان يترسخ في نفس إيداندا بمزيد من الاقتناع، إذ ليس ثمة من تفسير منطقي آخر. فالغنائم ستُستخدم لشراء حكام المدن المترددين وجعلهم بذلك في صف الانفصاليين. كما ستستخدم الغنائم لكسب مزيد من المقاتلين. لقد أخبره الشيخ إيدريمي في إطار احتفالات رأس السنة الجديدة، بأن رجالاً غرباء قد تحدثوا مع شباب من قبيلته ودعواهم إلى مشاركتهم في مغامرات. هكذا ستسير الأمور: سيسلحون الشباب الغُفْل ويدفعونهم إلى التضحية بحيواتهم من أجل قضية لا جدوى منها. يا له من

جنون! ميتاني وحتوشا ومصر وبابل أيضاً سيجدون أنفسهم مضطرين إلى الاتحاد معاً لتدمير المنطقة السورية وتقاسمها فيما بينهم. ألا يرون ذلك؟!

ظهور كيا انتزع إيداندا من أفكاره. تنهد بعمق. كان في الآونة الأخيرة متعباً دائماً. لا بد أنه تأثر الربيع. لا شك في أن وقوع حدث مثير، سيكون مفيداً له وللجميع. وزواج كيا من أمونحوتب سيرفع قطننا مرة واحدة إلى صدارة الحديث، حتى ما وراء حدود سوريا، وسيُمتن سلطتها التجارية بشدة.

«اجلسي يا بنتي، ارتاحي!».

قبّلت كيا يدي أبيها وخديه ثم جلست. يبدو أن معتزله الخاص صار مكان إقامته الدائم. لم يعد يطلبها إلا إلى هناك، عندما يعني رؤيتها، أو إذا كانت هناك أمور للحديث فيها. أيستحسن يا ترى أن يعتزل بهذه الطريقة؟ نظرت كيا إلى إيداندا بتشوق.

«أظنك تستغربين مثلنا كلنا عدم تسلمنا أي إشارة من مصر. إنني أفكر في الأمر، ولا أريد تجاهله. من البديهي أنه لا يمكننا استبعاد أن ارتباطكما لا يعجب فرعون، أو أنه خلال غياب الأمير لظروف قاهرة قد اختار له زوجة أخرى، لا يعرف أمونحوتب عنها شيئاً بسبب وجوده هنا وفي جيبيل وأوغاريت. ولكن في مثل هذه الحال يُفترض إبلاغنا برسالة بواقع الحال الجديد. إضافة إلى ذلك، هناك في مصر، لا يُحظر عليه أن يرتبط بالمرأة التي يحبها إلى جانب الزوجة الملكة الأولى. هذا لاحقاً طبعاً، بعد أن تلتحق تيبه بالأرباب. أنا لا أريد طبعاً أن أثير من القلق ما لا جدوى منه، فقد تُحل الأمور كلها قريباً. ومع ذلك أريد أن أسألك: أيخطر في بالك ما قد يعيق أمونحوتب؟».

«أبي، لقد رأيت بعينيك، كم كان مؤلماً ابتعادنا الاضطراري أحدنا عن الآخر. لقد غمرني بالهدايا!».

«نعم، طبعاً. كما أنكما لم تلتقيا كثيراً معاً، إلى حدّ أن تختلفا، ثم علام ستختلفان يا زوج الحمام؟». كان الملك يفكر بصوت عال، أكثر من كونه يتحدث مع كيا. ربت على يديها وأردف: «خطر بيالي فقط...».

«أنت مخطئ يا أبي» قاطعته كيا «لقد تشاجرنا، مرة، وشجاراً حاداً».

«هل لي أن أسألك، عمّ كان الشجار؟».

«حول الرسالة التي كتبها تالزو لأكيزي. أتذكر؟ جئتُ إليك بعد فترة على سفر أمونحوتب، لأن الرسالة كانت تتضمن خبراً لي أنا وقد أخبرتك به».

«لكنك لم تخبريني بأنك قد تشاجرت مع أمونحوتب لهذا السبب».
«لم يبد لي الأمر مهماً، مقارنة بأهمية الخبر بالنسبة إلى قطنا وحدها».
«أهميته تتعدى قطنا كثيراً للأسف. لكن هذا موضوع آخر».

فكر إيداندا برهة بعملية الربط الذكية، التي قام بها ذلك الشاب من كيزواتنا. ففي نهاية المطاف لم تدعم ملاحظة تالزو شكوكه وتحرياته فحسب، بل وضعته على درب محسوس وصحيح. ولقد وضع سلفه تيرو منذئذ تحت رقابة مشددة. ولكن ما دام تيرو يتصرف بسرية وروية، تبقى يدا إيداندا مقيدتين، للأسف. إضافة إلى ذلك كان من المهم التوصل إلى معرفة المحركين الفعلين. فهو لا يعتقد أن تيرو قادر وحده على مثل هذا الإنجاز، بل هو مجرد تابع. طيب، لكن الموضوع الآن مختلف.
«عفواً، لقد شردت قليلاً. قولي لي ثانية، عمّ كان الشجار؟».

«من شخص ما، عرف أمونحوتب أن الرسالة الموجهة إلى أكيزي لم يكن مصدرها أوغاريت، بل أنها قد كتبت في حتوشا وأرسلت منها. وأن أوغاريت كانت مجرد محطة على الطريق. كما ربط المرسل تالزو أو تانوا - وهذا الاسمان بلبلا ذهنه جداً، لكني أوضحت له كل شيء - وهو كاتبُ القائد هنتوتي، ربطه مع الساعي الذي زارك هنا في القصر، أثناء غيابه. وهذا أيضاً وصله عن طريق شخص ما. وبناء على ذلك أراد مكالمتك في الأمر! ألم يكلمك فيه؟».

هز إيداندا رأسه نافياً: «لا، بل سألني عن الساعي، ولماذا أحيطه بهذه السرية. لكنه لم يذكر كلمة واحدة بشأن تالزو».

«غير أن هذا لم يكن كل شيء!». قالت كيا ولاحظت تصاعد الغضب داخلها فوراً: «أسوأ ما في الأمر هو ارتيابه حقاً في أنني مغرمة بتالزو أو أن تالزو مغرم بي. وجدت الأمر لا يطاق، فانفجرت باكية وهرعت إلى بيت الربة. لكنه أدرك خطأه، وبعد بضعة أيام استرضاني. عندما سافر كانت الأمور بيننا على أحسن ما يرام، صدقني يا أبي!». صمت الملك. لقد أجهده الحديث جداً، على غير العادة. فرك عينيه بتعب.
«ما بك يا أبي؟ تبدو مرهقاً جداً».

«أنا مرهق، هذا صحيح. إنني أتقدم في السن يا بنتي. كل شيء يجهدني».
«لكنك لست عجوزاً أبداً يا أبي!». نهضت كيا وجلست إلى جانبه ملتصقة به، كما كانت تفعل وهي طفلة، ثم سأله بقلق: «أتعاني هذا منذ وقت طويل؟».

«لا، لا. لا تقلقي. عارض و سيزول. لربما كان هذا من عواقب عيد الربيع، طوال تلك الأيام الكثيرة المتتالية. حتى ولادة الطفل الجديد سأكون قد تحسنت، سترين. عند ذلك ستبدأ هنا حياة جديدة. عليه أن يواسيني عندما تغادرني حبيبتى الصغيرة».

ترك الملك كيا تغادر، وفي ظنه أنه قد طمأنها كفاية. إلا أن أفكاره، رغم إرهاقه، أخذت تحوم حول ما سمعه. أكان أمونحوتب يا ترى يغار من حبيب سابق مفترض واستمر صامتاً؟ عندئذ يكون قد أجاد التمثيل في فترة إقامته الأخيرة في قطنا. أم أن اتصالاته بحتوشا هي السبب؟ لكنه شرح للأمير بالتفصيل، عن شريكه هناك، وعن ميزات التبادل التجاري المباشر لكلا الطرفين، بصدد بضائع بعينها من دون الوساطة المعقدة عبر كيزواتنا، بشرط استتباب السلم بين ميثاني وحتوشا. كما شرح له إضافة إلى ذلك، أن الأمر يرتبط بعلاقة شخصية، ولذلك لم يشأ أن يربك بها زملاءه التجار في قطنا، ولكونها نوعاً من جس النبض على أعلى مستوى. وقد ولد لديه أمونحوتب الانطباع بأنه قد فهم الأمر. ولكن لماذا ذلك الحديث مع تيرو إذا؟ وحول ماذا تحدثنا؟ لماذا لم يذكر شيئاً بشأن تالزو؟ ربما لتبينه في حينها أنه لا يستحق الذكر، هذا محتمل. على الرغم من أن الشاب كان جيداً. كم يتمنى لو أن أكيزي يمتلك شيئاً من بعد نظره ورزائه. لكن أكيزي بذل جهده فعلاً. يجب أن يكون منصفاً. ولا شك أن علاقته مع إلهي نيكالو ستتحسن بعد ولادة الطفل. أعليه أن يتحدث مع أكيزي في هذا الموضوع؟ سيكون مريعاً في المستقبل أن يكون مزاج إلهي نيكالو سيئاً مثل مزاج الملكة. استبعد الفكرة. فإلهي نيكالو فتاة بريئة بسيطة. لا شك في أنهما سيستمر كل منهما في نطف ريش الآخر، فهما لا يزالان شابين.

قلقت كيا بشأن أبيها. بدا لها جلده في حالة سيئة. هل تستشير في الأمر شالا أو أميناية؟ ألفت نظرة على غرفتها، وجدتها فارغة. لم تستطع مقاومة الغواية. فتحت صندوقها وأخرجت قطع المصوغات وأخذت تتأملها وتلمسها وتقبلها قبل أن تعيدها إلى مكانها. وأخيراً مدت يدها إلى رسالة البردي، رغم أنها قد حفظت مضمونها كلمة فكلمة. استلقت على فراشها وضمتها إلى قلبها. كان الحبيب شديد القرب منها. سمعته يتحدث. سيكون لقاؤهما كما في الحكايات. هي في محفتها وهو في عربته القتالية - هكذا سيكون اللقاء، مجرد نظرة ملتبهة بينهما، ويتابعان طريقهما إلى المكان أو المعسكر القادم. وهناك عندئذ، أخيراً ومن دون رقيب سيرتيمان كل منهما في ذراعي الآخر ويتبادلان القبل والقبل والقبل.

هيجتها تخيلاتهما. أحست بيديه على نهديها، وبشفتيه على شفثيها. كان شوقها إليه من الشدة بحيث أحست بألم. هل سمعته يهمس:

«آه، أنت يا حبيبتى المغوية!
بريق عينيك يشعرنى بالحلاوة.
قولي فوراً «نعم» يا أختي الحبيبة!
قبلت على صدري عند اللقاء تشعرني بالحلاوة،
قولي فوراً «نعم» يا أختي الحبيبة!
التوق إليك تأكلني مُدْ كُنا في دارك،
كشهوة طفل إلى كعكة أمه المعجونة بالعسل!
يا أختي الحبيبة، التوق إليك
يتأكلني منذ البداية! قولي فوراً «نعم»!
أنت حقاً أميرتي - قولي فوراً «نعم»!
يا أختي الحبيبة!».

صدت كيا هذه الأفكار عن نفسها، وإلا كيف ستحمل هذا البعد بينهما؟ وبدلاً من ذلك أخذت ترسم في ذهنها صورة مسار الرحلة. رأت على ضفة النيل قارباً مزيناً بالورود على قضبان ذهبية ومغطى بمظلة ثمينة. كان هناك تحت المظلة كرسيان بمساند، جليلا الهيئة، وأمام كل منهما كرسي صغير واطع للقدمين. هناك سيجلسان أحدهما إلى جانب الآخر في رداءين خفيفين بيضاوين وكأنهما على عرشين. ومن ورائهما عبيد يحركون الهواء بمراوح للتبريد. سينزلق القارب ماخراً الماء، ترافقهما الزوارق من الجانبين، وتتقدمهما زوارق المنادين وعازفي الأبواق. والناس يقفون على الضفتين، يلوحون بأيديهم ويهتفون.

انتفضت كيا واعتدلت. هل نامت وشاهدت رؤيا؟ ويا لها من رؤيا جميلة!

نظرت في اتجاهه، لكنه لاحظ فوراً أنها لم تره. طبيعي، فلقد تغير. صار مفتول العضلات، أميل إلى الرجولة والجدية. إضافة إلى الثياب الحثيية التي يبدو فيها كالمقاتلين، بالقميص القصير والسترة فوقه. أما هو، فقد رآها فوراً. كانت واقفة بهدوء برداء أبيض

طويل، تلعب به النسومات. توجه إليها ورأى أنها تبتسم. لا ابتسامتها الساخرة تلك، بل ابتسامة تعرّف وفرح قلبي. فتح ذراعيه وأسرع في مشيه. وهي؟ ركضت إليه وارتمت بين ذراعيه، فدار بها مؤرجحاً إياها فرحاً باللقاء. ثم وقفا متعانقين، والخذ على الخد، والقلب الخافق على القلب الخافق. استنشق عبير بشرتها. بحث بشفتيه بحذر عن فمها الذي كان في انتظارهما.

«ها تانوا، اخرج، لقد بدأت»، صاح مورسيلي وشدّ تانوا بقوة متزعاً إياه من حلمه.

في محيط نريكاسال الرب زبابا وجال على نحو عنيف. لقد فشلت جميع المفاوضات التمهيدية، التي عزم تانوا على المشاركة فيها، معتمداً على نجاحه السلمي مع الكشكيين في تورميता. غير أن هنوتي منعه، متذرعاً بأن عليه أولاً جمع بعض الخبرات وتعلّم المزيد من لغتهم. وأوفد بذكاء، مجموعة من المفاوضين المجريين، يدعمها كشكيون كانوا عبيداً وأعتقوا، أو من الذين التحقوا بالحتيين وخدموا في صفوفهم. غير أنهم عادوا من الوفاة إما مقتولين أو مشوهين ماتوا بسرعة عقب وصولهم، إن لم يكن زملاؤهم قد حرروهم من الآمهم.

لم يكن هناك إذاً احتمال لتسوية تفاوضية. وبلغ غضب الجنود حدّه الأقصى بسبب الاستفزاز الوحشي في التعامل مع الوفد. أما تانوا فقد اضطرب ودُهل لمرأى هذه القسوة لأول مرة في حياته. وعلى الرغم من ذلك فقد نجح في إغضاب هنوتي مجدداً. فجواباً على تساؤل هنوتي، عمّا إن كان قد أدرك الآن أنه لا خيار أمام المملكة سوى التدخل وبقسوة، تجرأ على التصريح بأن الحتيين قد فوّتوا على أنفسهم انتهاز الفرصة باكراً للبحث عن حلول للتعايش المشترك جنباً إلى جنب. وأضاف سائلاً: «هناك متسع للجميع، أليس كذلك؟».

«ما هذا هو الموضوع إطلاقاً»، قال هنوتي وهو ينفخ غيظاً: «إما أنك لا تريد أن تفهم وإما أنك لست قادراً على الفهم. هذه المنطقة في الأصل منطقة حتية، من البحر الكبير الشمالي وحتى نيسا جنوباً. أجدادنا القدامى احتلوها وسكنوها وعمروها. نحن من بني المعابد فيها، نحن من نظم الري وفتح الترع والقنوات ومدّ نوعين من الأنابيب لنقل الماء النظيف والماء الوسخ، نحن من شيّد الدور والقصور وصوامع الحبوب ومخازن الغلال، كي لا يجوع الشعب في سنوات القحط. لكن عصابات اللصوص هذه لا تريد ذلك. وأنت ترى ذلك بأعينك!».

«ألا يحتمل ببساطة أنهم يريدون أن يعيشوا بصورة مختلفة؟».

لقد أثار تانوا غضب هنوتي عدّة مرات، هذا صحيح، لكنه علّمه شيئاً جديداً أيضاً: أي الخروج من أساليب التفكير الثابتة والتخلي عن الميزات القديمة المريحة. فحتى الآن لم يتصور أحد أنه من الممكن التخلي عن استراتيجية مجربة وناجحة، في التعامل مع ممالك مثل ميتاني، وتبني استراتيجية العدو، مع احتمال النزول إلى مستواه أيضاً. غير أن المهم حقاً الآن هو النجاح. لا بدّ لهم من السيطرة على الشمال، لضمان ظهرهم عند الالتفات إلى المهمة الرئيسية، وهي إخضاع ميتاني وإعادة احتلال شمالي سوريا بكل ما فيه من كنوز.

على الرغم من ارتفاع الخسائر لدى الجانبين، نجح تكتيك هنوتي في القتال وأثبت جدواه. فقد انتاب القبائل الكشكية المختلفة شعور بأنهم يصطدمون بالحتّيين حيثما اتجهوا. فمجموعاتهم القتالية الصغيرة، التي كانت تنجح عادة في هجماتها، سحقتها الآن قوات المشاة الحتّية بمرافقة العربات القتالية قبل أن تتأهب مجموعاتهم جيداً للهجوم. وفي حال الهروب إلى الغابات والجبال أخذت وحدات المشاة الحتّية تلاحقهم وتسحقهم. كثيراً ما أباد الحتّيون المعسكرات أو المستوطنات، التي كان المقاتلون الكشكيون يلتجئون إليها، عن بكرة أبيها، بغض النظر عمّن فيها من شبوخ ونساء وأطفال. وكانت الجثث تترك في مكانها لتفترسها الحيوانات. تصاعد دخان الحرائق فوق الغابات والمرتفعات والسهول، وفي أيام الصحو، كانت العين ترى حتى القرى الفقيرة المدمرة. كانت قطعان الماشية تُجمع وتُساق مع القوات. وفي حال إعلان الكشكيين استسلامهم، كانوا يُؤخذون أسرى وتُدمر مساكنهم، إلى أن يُبْت لاحقاً في أمرهم، فإما أن يشتغلوا عبيداً في حتوشا وإما أن يُقتلوا.

كان تانوا يفرح في كل مرة لعودة مورسيلي وميتا سالمين، مع بقية المقاتلين من هجماتهم. كان مورسيلي على استعداد دائم، إما للقتال وإما للمرح. وإن صدرت عنه أحياناً بعض الملاحظات الساخرة المتشائمة، فما كان يلتقط فحواها سوى تانوا. وكان يبذل جهده ما أمكن لئلا تتبدى عليه أهوال ما تراه عيناه.

في جميع العمليات القتالية، ولا سيّما في الاشتباكات الصغيرة أو المناوشات كان على تانوا أن يجلس في الخيمة ليكتب، وفي بعض الأحيان كان يدهمه شعور بانفقاد وضعه إلى الرجولة. لكنه كان ممتناً لذلك، لا لجنبه عن المشاركة في القتال، بل لأمله

بأن ما يقوم به سيحقق ذات يوم شيئاً ما. وهكذا كانت سمعته في وحدته القتالية: كان الجميع يعرف أنه مقاتل ذكي في التخطيط، لكنه أبرع بصفته وسيطاً مفاوضاً، ولذلك كان يتمتع باحترام الجميع. كان يطلب من أصدقائه وزملائه إخباره بالتفصيل عن كل ما مروا به ورأوه أثناء القتال. حتى على هذا الصعيد برز مورسيلي، لا لجودة وصفه فحسب، بل ولدقة ملاحظاته لأشياء كانت نفوت الآخرين. ومع ذلك ما كان من شأنها أن تغير موقف تانوا من لا جدوى مغامرتهم الخطيرة. قرويون ورعاة فقراء. ما الغنيمة منهم؟ لا بد من وجود شيء آخر. فالمقاومة المستميتة تدفع إلى استنتاج أن في الأمر خسارة أخرى، غير المراعي والحقول، التي كان من المؤكد أن الملك سيضعها تحت تصرفهم. ربما لم يصل الجيش بعدُ إلى العمق المطلوب. لا بد من وجود الكنوز التي ذكرها هنوتي في مكان ما هناك. لكن الأمر كله ما زال غامضاً بالنسبة إليه.

لم يتمكن تانوا إلا نادراً من التواصل مع أسرى الكشكيين المحشورين في ما يشبه الحظيرة حتى يساقوا إلى حتّوشا. كانت نظرات رجالهم عابسة، وسرعان ما كانوا يلتفتون عنه، أما نساؤهم فكان دائماً متزويات. كان يصعب التعرف على قادة بينهم، وإن حدث ذلك، فكان أحد الضباط يحضره ليُستجوب بمساعدة مترجم. ولكن نادراً ما كانوا يعطون أجوبة، ونادراً ما كان أحدهم يلتجئ إلى الحتّيين، إذ ما كان لينجو بجلده طويلاً. كانت نظرات فتيات الكشكيين تتابع سراً حركات تانوا الوسيم، ولكن ما إن يخاطبهن بمفرداته الكشكية القليلة، حتى ينزوين خائفات. وكان يتفهم موقفهن.

طال أمد القتال. ورغم الانتصارات الكثيرة لم تتحقق هزيمة العدو، ولم تنته الهجمات المتتالية، ولم يتقدم الجيش، ولم تحرر نريكا. لكن الأنباء القادمة من ساحتي المعارك الآخرين كانت تدعو للتفاوض. ففي الشمال الغربي، حسب ما هو مأمول، أدت المفاوضات إلى تسوية الأوضاع. ربما بسبب سرعة انتشار أخبار تغيير الحتّيين لأسلوبهم القتالي، أو - حسب تقدير تانوا - لكون القبائل المستوطنة حول مخاضة مراستنا أقل ميلاً إلى القتال والعنف. إذ كانوا يلتمسون من أربابهم ومن أرباب الحتّيين دوام السلام والبقاء في المناطق الرعوية المخصصة لهم. وفي الشمال الشرقي تمكن زيدا بعد معارك قليلة من إبرام اتفاقية سلام، فاندفع إلى عمق شمال شرقي المملكة، كي ينقل إلى أتباع الحتّيين هناك مسؤولية الحفاظ على السلم مع المناطق المجاورة، ما يرفع عن كاهل الجيش الحتي عبئاً قليلاً.

مع هذه الأنباء الجديدة وصل إلى المعسكر أيضاً خبر الرسالة الموجهة من الملك

إيداندا في قطننا إلى لبارنا حتوشا شوييلوليوما، والتي علم بها تانوا من هنوتي. من الواضح أن الملك يبدي استعدادة للخضوع للحتيين.

«ما رأيك بهذا؟». سأل هنوتي تانوا.

«إني مندھش جداً. ولا سيمّا بعد ما سمعنا من والدي أن ولي عهد مصر كان في قطننا. فهل حدثت قطعة مع مصر؟».

«الرسول الذي جلب الرسالة لبي طلبات الملك إيداندا، وزاره عدّة مرات زيارات خاصة، من دون علم مجلس أعيان قطننا كما يبدو. وقد أحاط الملك زيارات رسولنا بسرية تامة. وهذا يشي بسلك فردي. ولكن لأي سبب؟».

«لربما يشعر الملك بنفسه مهتداً!». أجاب تانوا متفكراً.

«من قبل من، ولماذا؟ إذا كنت تعرف أو تخمن شيئاً، فهات ما عندك. فقد يكون بالغ الأهمية!».

فحكى له تانوا قصة الهجوم على القافلة كاملة، وذكر تفاصيل الغنيمة، واستماعه مصادفة إلى الحديث بين شقيق الملكة وأحد البدو في لقاء سري. لم يعلق هنوتي بأي شيء على ما سمعه، سوى أنه سينقل فحوى الحديث إلى الملك. لكنه قال في نفسه: إن قطننا تغلي. شقيق الملكة.. إنها ليست المرة الأولى التي يقوم فيها شخص كهذا بزرع الشقاق.

«بالمناسبة، أخبرني والدي لاحقاً أن أعضاء المجلس قد اختلفوا فيما بينهم، لإصرار الملك إيداندا على إبقاء قطننا محطة تواصل تجاري مستقلة، بموافقة القوى العظمى. فهناك حزب في المجلس يميل إلى جانب مصر كلياً، وثمة حزب آخر يناهز باستعادة أمجاد قطننا الماضية. لكنني ذكرتُ هذا كله في تقريرتي».

كان هنوتي كله آذان. لم يتصور أن تكون حدة الصراع بين القوى بهذه الحدة في مدينة صغيرة كقطننا. وهذه كلها معلومات مفيدة بصدد التخطيط للحملة على ميتاني، وعلى شمالي سوريا إن شاء الأرباب. لكن تانوا قاطع أفكار هنوتي سائلاً: «وهل من أخبار سوى ذلك من قطننا؟».

«هل تتوقع شيئاً؟».

تردد تانوا ثم قال: «كنت كتبت لوليّ العهد، فأنا صديقه». وحكى لهنوتي عن رحلتها إلى الجبال، ومحاولة الاغتيال المزعومة وتعاهدهما على الصداقة.

«هذا يفسر طبعاً سبب اهتمامك الدائم بقطنا يا عزيزي. للأسف لا أخبار أخرى. يحتمل أن يكون ساع أو رسالة في انتظارك في حثوثنا».

هز تانوا رأسه.

«وماذا عن كيا هذه؟».

احمر وجه تانوا حقاً، كمن ضبط متلبساً.

«أنت مغرم! هذا رائع! وأنا الذي ظننتك لا تهتم بالنساء. هل هي جميلة فعلاً؟ لا تخف، لن أكشف سرّك لأحد. ولكن عليك الانتباه لئلا يخطفها المصري منك!». واستمر هنوتي في سيل كلامه وهو يمازح تانوا بود، في حين يزداد غضب تانوا. ألا يدرك الخال محنته؟ ابنة ملك قطنا، وهو ابن تاجر.

نريكا ومخاضة مرآستها باتتا على مشارف النظر. كانت أرتال الجيش في الطقس الجيد تتقدم إلى الشمال من دون معوقات. وانتشر بين الجند نوع من المزاح العابت بأنهم بدلاً من القتال، سيتسابقون حتى البحر الأسود.

سارت الأرتال عبر مناطق جبلية على دروب وعرة مهملة، سبق للحثيين أن شقوها، ودخلوا في عمق المناطق الكشكية. بقي هنوتي مع مؤخرة الجيش، متفادياً الوقوع في خطأ اللولج في أرض العدو بعيداً، والتعرض لانقطاع الإمدادات نتيجة حصاره من الخلف ولكن على الرغم من كثرة ما أرسل من كشافين ومستطلعين، بقي كل شيء هادئاً. لم يروا أي كشكي. وبقي طريق السعاة سالكاً من دون أخطار. وقد سبب له هذا مزيداً من القلق. ما معنى هذا؟ إن لم يكن العدو وراءه أو على الجناحين، فليس من حل آخر سوى أنه في الشمال. أما أن يكون قد انسحب إلى مخابى معينة بانتظار انسحاب الحثيين، فهذا مستبعد. كاد هنوتي مع مرافقته أن يبلغ المعسكر الرئيسي عندما التقى من الاتجاه المعاكس تانوا مع مجموعة جنود.

«جلالته ينتظر بك بأقصى سرعة»، قال تانوا باقتضاب بعد أداء التحية العسكرية، واستدار بحصانه فوراً. كان يحمل لهنوتي خبراً آخر. انطلق هنوتي وراء ابن أخيه حتى ابتعدا عن مرأى الجنود، فشد تانوا عنان جواده وقال لهنوتي: «لقد حشدوا جموعهم في السهل أمام المدينة! واضح أنهم يفوقوننا عدداً!». صفر هنوتي من بين أسنانه وقال: «كنت أتوجس أنهم أمامنا. ولكن بهذه الكثرة؟ دعنا نسرع!».

بعد ركوب سريع وصلوا المعسكر الملكي المقام على مرتفع جنوب المدينة، بحيث يتيح مجالاً واسعاً للرؤية. غير أن ارتفاعه هو ميزته الوحيدة. كان السهل، كما عبّر تانوا، حاشداً متخماً بالمقاتلين. ولبلاً أرتهم النيران أن أمشاط الجبال من حولهم محتلة من قبل العدو أيضاً. باختصار: العدو متفوق عدداً بصورة لا تصدق.

بعد أن دخل هنوتي الخيمة الملكية للمشاورة قال: «لقد تركونا نصل إلى هنا متعمدين ذلك. هم على بيّنة من أننا نريد استعادة المدينة. لقد استغلوا الوقت الذي احتجناه للوصول إلى الشمال كي يحشدوا قواتهم هنا. لكنهم ليسوا قبيلة واحدة. عجيب!».

«ليس هذا وحده ما هو عجيب يا عزيزي!». ونظر شويلولوما إلى قائد جيوشه متفكراً: «بات عندهم ملك الآن! خرج من بينهم رجل اسمه (يهونيا) ونجح في توحيد عدد من قبائل الشمال معاً. كان واثقاً من نفسه جداً عندما أرسل إلي رسوله ليبلغني بأنهم ينتظرون المعركة ببالح السرور!».

«إنهم كومة من الجنود سيئي التدريب وسيئي التسلح»، قال أحد الضباط.

«أوافقك جزئياً فحسب. هم سيئو التدريب من منظور طريقتنا في القتال، ولا سيّما على ما يبدو أن قواتهم تتألف من المشاة فحسب. لكنهم ينافسوننا حتماً بأسلوب زج المشاة بمجموعات مفاجئة لا يحسب حسابها مسبقاً. أنا متلهف لمعرفة تشكيل قواتهم في المعركة. لكنهم ليسوا سيئي التسليح مطلقاً. اسمح لي أن أذكرك فقط بأنهم لا يملكون المواد الخام فقط، بل أفضل الحدادين أيضاً. لا، لا. علينا استخدام مهاراتنا التكتيكية كلها كي لا نقع هنا في مصيدة. قوتنا الضاربة تعتمد على زج العربات القتالية في المعركة، ولا يمكننا فعل ذلك من هذا المرتفع».

«لقد أئنا المعسكر من جميع الجوانب، ولا سيّما من ظهرنا. هناك ستبقى كتيبة جيدة التسلح ولا تغادر مكانها مهما كان الثمن»، قال الملك، وهز هنوتي رأسه موافقاً.

«علينا أن نرسل كشافين، من الكشكيين العاملين في صفوفنا ما أمكن، ليستطلعوا لنا على الأقل المناطق الجبلية المحيطة بنا، لنعرف عدد الموزعين هناك. قد يكون الأمر خدعة، ليجعلونا نصدق أن قواتهم الاحتياطية عديدة، في حين لا يوجد حول النيران هناك سوى بضعة رجال».

لم يدر تانوا من يخص بإعجابه أكثر، الملك أم خاله. كلاهما كان مسترخياً تماماً، وكان الأمر لا يعدو تحريك بعض الأحجار على رقعة اللعب للتغلب على الخصم.

ويخيل للمستمع إليهما أنهما يتنافسان بأفكارهما التكتيكية، في حين كانا في الواقع يكمل أحدهما الآخر على نحو ممتاز.

الأيام والليالي التي تلت ذلك، لم ينسها تانوا طوال حياته. وقد تبين من استطلاعات الكشافين أن مُشعلي النيران هم نساء وأطفال يختفون نهائراً لجمع الحطب، وأن النيران ليست بغرض الخديعة فحسب، بل هي وسيلة لنقل الأخبار. وقد عرف الجيش الحتي ذلك من صدامات سابقة. ولذلك كان الحتيون في غزواتهم الليلية يُيقنون المرأة المسؤولة عن النار حياةً، للتمويه بأن الخدعة لم تُكشف بعد، ويقتلون جميع الآخرين، ويضعون في مكانهم جنوداً حتيين.

دارت معركة اليوم الأول بين قوات المشاة، وتوسل الجيش الحتي الدعم من أرباب حتوشا، وخاصة رب الحرب زبابا ورب الطقس. وأكد الملك في صلاته قبل المعركة أن عملهم مشروعٌ ومبرر.

قسم شويبوليوما وهنوتي الجيش إلى مجموعتين اتخذتا موقعيهما عند الفجر. ووضعت فرقة رماة السهام في منتصف المنحدر لصد العدو، إن بَكَرَ في هجومه. لكن العدو بقي قرب المدينة تاركاً مشاة الحتيين يمشون مسافة طويلة، ليتعبوهم. كان ذلك خطأً جوهرياً، إذ تقدم المشاة بصفوف منتظمة بمرافقة أناشيد حماسية تمجد زبابا. كانت حرارة الصباح محتملة. أثناء التقدم بقيادة كبار الضباط انفصلت المجموعتان إحداهما عن الأخرى، تاركتين بينهما ثغرة. كان التحام الجيشين قاسياً. صحيح أن الرماة قد حصدوا الصفوف الأمامية من العدو، لكن عدم تدخل العربات زاد العبء على مجموعتي المشاة. وقد أحبط الجنود علماء بأن العدو سيهجم بشكل فوضوي دون تنظيم قتالي معين، وهذا هو ما وقع. لذلك بات كل جندي مسؤولاً عن حماية نفسه من جميع الجوانب. وفضل التسليح المتنوع (حرا ب، سيوف طويلة، سيوف قصيرة، خوذات جلدية، تروس) تمكن الجنود من الصمود ويجلّد. كانوا يساندون بعضهم ما أمكنهم، لكن العدو كان في كل مكان. غير أنه بسبب انقسامهم إلى مجموعتين، وجد نفسه مضطراً للمقاومة جبهتين، فتوزع النقل وخف زخم المواجهة بالاعتماد على التفوق العددي. مات كثيرون من الطرفين أو أصيبوا بجروح خطيرة، ولم يتمكن الحتيون من إنقاذ جرحاهم، لأن جميع السواعد كانت ضرورية للقتال. كان جلياً أن الكشكيين يبدلون مقاتليهم، إذ بدأ أن مقاتلين جدداً، بالزخم والعتاد، يدخلون المعركة بين الأونة والأخرى، وكانت صيحاتهم التي تصم الأذان تدب

الرعب في صفوف الحثيين. لكن هؤلاء نتيجة جودة تدريبهم كانوا أقدر على الصمود في المعركة. ومع ذلك لم يستطع أي من الجانبين حسم المعركة لصالحه. مع حلول المساء انسحبت القوات الحثية إلى المعسكر، واستنكف الكشكيون عن مطاردتهم، لعلمهم بما في ذلك من مخاطرة كبيرة على مشاتهم.

لقد حققت الاستراتيجية ما توقعوه منها، وإن بضمن باهظ. فالمقاتلون الحثيون الذين خسروا الكثير في المعركة سمحوا لزملائهم في المؤخرة بإنزال قطع العربات الخفيفة إلى السطح وتركيبها هناك، فباتت جاهزة للزج في المعركة في الصباح التالي. ركب الملك شويلوليوما والقائد هنوتي وضباطه مورسيلي وميتا وغيرهم كثير، العربات القتالية وكأنهم آلهة. كانت كل عربة يجرها حصانان وعليها قائدها والسائق حامل الترس. وعلى الرغم من تفوق هذه الوسيلة القتالية فإنها لم تحقق خلال الأيام التالية نصراً صريحاً. صحيح أنها قللت الخسائر، ولكن لسبب رئيسي، هو أن العدو كان المرة تلو الأخرى ينسحب إلى المدينة أو إلى الجبال، ليهاجم فجأة من جهة أخرى. كان هذا مرهقاً ولم يحقق أي ظفر، إذ يبدو أن احتياطي الكشكيين من المقاتلين لا يتهي. وأسلحة الطعن والضرب التي غنمها الحثيون، فرضت احترامهما من حيث جودة الصنع والمتانة. أما أقواس النشاب فقد كانت بائسة، مقارنة بالأقواس الحثية المصنوعة من الخشب وقرون الحيوانات. ومع ذلك فقد أصابت بعض سهامهم أهدافها.

«لقد تزوج!»

وقف الملك إيداندا في الباب فجأة، دون خبر مسبق. فوجئت إيست، فرفعت رأسها عن التطريز الذي تشتغله بيديها ونهضت مسرعة لاستقبال زوجها الملك.

«أهلاً بك يا حبيبي، تفضل!» أبعدت بعض الأشياء جانباً، ثم دعت سيدها للجلوس إلى جانبها وسألته: «أترغب في شراب منعش؟»

«لا، لا أريد. بل أريد معرفة رأيك. لا شك أن لك رأياً في هذا؟»

«هدئ من روعك يا حبيبي، وقل لي، من الذي تزوج؟ أنت لم تذكر اسمه بعد!»

«أمونحوتب!»

«ولي عهد مصر؟». ذهلت إيست: «لكن هذا مستحيل! لقد أراد.. من التي...؟»

«ابنة رجل يدعى أيا من إيبو، حيث تقيم أسرته أيضاً. اسمها نُفرتيتي!».

«هكذا فجأة؟ دون أن يعلم أحد بالأمر؟».

«نحن هنا في قطننا لم نعلم، يا حبيبتي. لا رسول ولا خبر، حتى أنت قريبته المقربة، لا

شيء».

«ربما أصاب الساعي خطب ما؟».

«والسعاة إلى جيبيل وأوغاريت وميتاني وغيرها، مما لا أدري إلى أين أرسل ساعاته، لم

يصبهم شيء، كلهم؟».

«الآخرون إذاً تلقوا أخباراً؟ كيف عرفت بالأمر؟ هل هو حقاً صحيح؟».

«نعم، إنه خبر صحيح. أنظنين ريب عدي يكتب لنا حكايات خرافية؟ هو طبعاً لا

يدري أننا قد أمّلنا، بسبب كيا. يا للإهانة ويا للعار! ماذا ينبغي هؤلاء الكلاب القذرين؟

عفواً، إيست. لم أتعمد إزعاجك، لكنني خارج عن طوري. أنا غاضب جداً، ومن نفسي

أولاً. لقد أحسست بأن ثمة خطأ في الأمر. الأمير الشاب سمح لنفسه بأن يمازحنا. ما كان

يجوز لي أبداً أن أشجع كيا، ولا حتى في ميلها إليه، المسكينة. روابط الحب هذه كلها لا

جدوى منها. الوالدان يختاران الرجل المناسب، وكفى!».

«يا عزيزي، دعك من لوم الذات. ما كان لنا أن ندرك ما يجري، صدّقي. ثم قبل أن

نعرف بالدقة ما جرى، لا يحق لنا أن ندين أمنوحوتب. لقد كان جاداً تجاه كيا، وأنا واثقة مما

أقول. لقد أمضيت وإياه وقتاً كافياً لأعرفه، ومعهما معاً أيضاً. كانا مغرمين أحدهما بالآخر.

لا بد من وجود أسباب أخرى لمنح الأفضلية لابنة عائلة ملكية ثانوية!».

«هذا إذا كان الشاب قد أتى على ذكر كيا هناك. كان مستغرباً أن لا يصلنا منه حتى

تحية. ربما كنتُ أنا السبب. لربما يكون قد استاء مني لالتفتاتي إلى حتّوشا، رغم أن الأمر

لا يعنيه. إنه ليس سيدي المطاع. أن يستغل كرم ضيافتنا وطيبتنا بهذه الطريقة البشعة! أن

يضلّل فتاة بريئة ويتخلى عنها بهذه البساطة! لم نعد بحاجة إلى أميرة قطننا.. تصوري! هل

الملكة تيّه وراء ذلك يا ترى؟ ربما كان يعرف مسبقاً نفرتيتي هذه، وكانا موعودين أحدهما

بالآخر. لا أستبعد شيئاً عن هذا الخيالي المتوهم. سيرى العالم العجب منه بعد. إيست،

يا لي من أحمرق!».

ودفن رأسه في صدرها. لم يسبق أن رأته إيست في مثل هذه الحال، غاضباً وياتساً

ومستسلماً. في الآونة الأخيرة بدا إرهاقه الدائم قد تراجع، فامتلات أملأ بعودته إلى

حيويته ونشاطه السابقين. والآن جاءت هذه النكسة. إذا أعدنا التفكير، سنجد أنه كان من حسن الحظ عدم إعلان خطبة رسمية. وإلا لكان ذلك مدعاةً لسخرية الجميع من قطننا. أما بهذه الصورة فقد بقيت الإهانة محصورة بأهل قطننا أنفسهم. لو أن أمونحوتب لم يفتح فمه، لما علم أحد بالموضوع. لكن هذا وحده سيّء بما فيه الكفاية. كيف سيكون وقع الخبر على كيا؟

«ماذا عن مستقبل قطننا؟». سأل الملك واعتدل ثانية في جلسته: «المصريون لا يُعتمد عليهم. كل ما يريدونه هو خشبنا وما يحتاجون إليه من متجاتنا، وما سوى ذلك سيّان بالنسبة إليهم، سترين. نحن بعيدون جداً عنهم، وما نمارسه هنا في الشمال لا يعادل عندهم طنين ذبابة. الأمراء يرسلون بناتهم إليهم زوجات، ويعدون أنفسهم سعداء إن أدخلوهم إلى حريمهم. لا حاجة لسادة النيل إلى أن يخطبوا بناتنا هنا في الشمال. ما الذي جال في ذهني آنذاك؟ لماذا اعتبرتُ ابنتي أنا استثناءً؟ لكنها أبداً لن تكون زوجة في حريم هذا المخادع.. أبداً، ما دمت حياً، ولو تسبب ذلك في حرب!».

شعرت إيست بنفسها عاجزة. يأس إيداندا انتقل إليها، ولم تعد تعرف ما عليها أن تقول، لتواسيه وتهدئه. كان الأمر بالغ القسوة. ها قد تدفق الماء في طواحين الملكة بلتوم، كم ستطرب للخبر وتشتت، ولا سيما أخوها تيرو. لا شك في أنه سيبدل قصارى جهده مجدداً لبيع كيا لراعي الغنم عبدي عشيرتا.

«علينا أن نحاول لملمة الموضوع ما أمكن يا عزيزي، ألسنت من رأيي أيضاً؟ ألا يسعنا أن نغفر لكيا علاقة حب عابرة؟».

«إيست، ما هذا الكلام؟ لن تقبل كيا بذلك مطلقاً. لقد كانت جدية تماماً في كل ما واجهته، وأنت خير من يعرف ذلك. ومن يعرفها كان يرى أنها مغرمة بهذا المشعوذا!».

«إيداندا!». قالت إيست وقد ازوَّرت عنه قليلاً. نادراً ما عارضته في الرأي، لكنها شعرت الآن بضرورة مواجهة هذا التجني: «إيداندا، إنك تأثم بهذا الكلام. وأظن أن يأسك هو السبب. لذلك سأغفر لك. أرجوك، دعنا لا نتشاجر حول الموضوع. احترم إيماني، كسابق عهدك دائماً. أمونحوتب ليس دجالاً، إذا كان هذا ما تعنيه. الحقيقة متغلغلة في روحه. إنه واع برسالته، وهو سيجلب الخلاص للبشر وللشعوب!».

«وهل سيسألهم ما إذا كانوا يبيغون ذلك؟». سألتها إيداندا بمرارة.

«ما هذا الكلام؟ وهل الناس العاديون بصورة عامة، قادرون على إدراك ما فيه

خلاصهم حقاً؟». ثم لطفت لهجتها وتابعت: «لكن، ليس هذا موضوعنا الآن. قل لي، متى ستكلم كيا؟».

«فكرت، أنه من الأفضل قبل ذلك، أن أستدعي شالا إلي».

«من غيرنا يعرف الخبر الجديد؟».

«الساعي أتى إلي مباشرة. لكنه يمكن أن يتحدث بالأمر إلى كثيرين: أكيزي، لوايا، أويا، وربما تيرو أيضاً، ويُحتمل أنه قد تحدث إليهم، فما يخبرهم به عن لسان ريب عدي ليس سرّاً. وخبر كهذا سرعان ما يتشهر».

«ألا يفضل إذاً أن نسرع ما أمكن في إخبار كيا؟ سيكون مريعاً أن تدري من جهة ثالثة».

«أرسلني أنت في طلبها. حالياً لا طاقة لي على ذلك. حاولي أن تكلميها من امرأة لمرأة. أنت أكثر قدرة مني على حبك قصة ما حدث، أو إيراد مسوغات لزواجه السريع. هل تعرفين هذه الفتاة نفرتيتي؟».

هزت إيسر رأسها نفيّاً.

«وأباها؟».

«نعم، لكن ما أتذكره عنه وعن أسرته قليل جداً. ولكن هناك صلة قرابة بينهما. أكثر من هذا، لا أعرف للأسف».

«لعل الأمر كله حلقة في سلسلة زيجات الأسرة المتعارف عليها في مصر: الأخ يتزوج الأخت، العم ابنة أخيه، العمة ابن أخيها وإلى آخر ما هنالك، من أجل تماسك الأسرة المالكة وضبطها. وفي هذه الحال لن تحتاج نفرتيتي سوى إلى تملّقه كما ينبغي، ولا سيّما أن هذا الخرع على أتم الاستعداد لذلك، وهذا بادٍ على وجهه بجلاء. ثم تأتي وعودها بأشياء أخرى، وقد تعدّه بكيا نفسها، فتكون بذلك قد أطبقت عليه. ومن يدري إن لم يكن هناك طفل على الطريق!».

أخذت شكوك الملك تتزايد، فقال: «خففي الأمر على صغيرتي ما أمكن، أرجوك. أنا سأنسحب، فعذراً يا عزيزتي. أنا بحاجة إلى السكينة لبعض الوقت!».

قبّل إيداندا يدي إيسر وخديها وغادر الغرفة منكرساً بخطأ ثقيلة. بقيت إيسر جالسة طوال دقائق وهي تنظر إلى النهار المشمس من أيام أواخر الربيع. كالعاصفة أطبق عليها خبر الملك، وهيمن فجأة سكون منير. لا بدّ من أن تثوب إلى نفسها أولاً. ربما كانت فكرة الملك باستدعاء شالا أولاً، صائبة. إنها الشخص الوحيد القادر على إنهاض كيا

مجدداً. هل تستدعي كيا إليها؟ الأمر مستعجل. قررت إيست إرسال المرتبة إلى بيت الربة لاستدعاء كيا.

عندما دخلت كيا الفناء، همدت الأحاديث. نظرت مستغربة في وجوه الجالسين وانحنت محيية. لم ينهض سوى إهلي نيكالو، وإن مثاقلة، فقد استدار جسمها مثل كرة، ولم يعد يوم الولادة بعيداً. وفيما هي في طريقها إلى كيا، ابتدرت الملكة بلتوم من كرسيها الكلام، من دون أن ترد التحية، وكان صوتها بحلاوة العسل: «موضوع عرش مصر لم ينجح، ها! مدللة أبيها لم تكف، يا للأسف. ولكن ماذا بوسع المرء أن يقول بعد؟».

لم تسمع كيا سوى السخرية الجارحة التي صبّتها عليها الملكة بلتوم، لكنها لم تستوعب مضمون كلامها الذي جعل إهلي نيكالو تتوقف في مكانها من هول ما سمعت. وعندما تمايلت هرعت إليها كيا لتسندها، فقالت ودموعها تسيل على خديها: «أنا أسفة من أعماق قلبي يا أختي!».

اعتدلت كيا في وقتها. دهمها حافز أن تهاجم الملكة بالكلمات أو بالأيدي أو بكليهما معاً، هذه الشخصية الوقحة الحقيرة! فلتصبّها الربة بالجدام أو الطاعون! لكنها تمالكت نفسها. لا، إنها لن تمن عليها بهذا النصر. لقد تبدت تربية بيت الربة جلية في سلوكها: إنها مسيطرة على نفسها. وبكل استرخاء خارجي، بل حتى بجلال، قالت ببرود وهي ثابتة النظر في عيني الملكة: «عرش مصر؟.. هذا لمن يطلبه. ما يهمني أنا شخصياً أفضل منه!». شحب وجه الملكة. لم يجرؤ أحد على مخاطبتها بهذه اللهجة المتمردة. يا لها من وحش متمر. هذه ليست فتاة صغيرة تتناول على غيرها، بل صببية ناضجة وواثقة من نفسها تقابلها كعدوة. تصاعد غضب بلتوم إلى ذروته، فصاحت: «كيا!».

لكن كيا كانت قد صارت على الدرج صاعدة إلى الطابق العلوي، من دون أن تمنح بقية الموجودين حتى التفاتة. صعدت مرفوعة الرأس درجة فدرجة، تتبعها تايا المرتجفة وهي تجر قدميها.

بات معروفاً لها الآن ما ستخبرها أمها به. ولكن يبدو أن القصر كله على علم بالأمر، وسرعان ما سيصل الخبر إلى بيت الربة وإلى أعيان قطننا ووجهائها، الذين كانوا على علم بالمخططات، أو علموا الآن بها. كوّرت كيا قبضتها. إنها ترفض أن تبدي ضعفاً تجاه أحد. أسرع في مشيتها لتصل إلى جناح أمها.

**

إذاً، لقد جعل من امرأة أخرى زوجة له. لقد تصورت كيف جميع الاحتمالات الممكنة، سوى هذا، فإنه لم يخطر في بالها. علماً بأنه حلٌ في تناول اليد. بصفته ولي عهد مصر يجوز له ذلك. وها هم جميعهم يركضون وراء المصريين ويعرضون عليهم أميراتهم بالحاح. لكنها لن تعرض نفسها عليه، بل تفضل الهروب على ذلك. بدأ الأمر مع تلك الشكوك والاتهامات. ولا يمكنها أن تربط نفسها برجل كهذا. يا له من وغدا! انفجرت كيف باكية، انهمرت دموعها رثاءً لحالها، وانتحبت غضباً، إلى أن جفت مآقيها. وعندئذ هدأت قليلاً.

وقع نظرها على صندوقها الذي يحتوي المصوغات التي أهداها إياها. ذاك الكلب! لقد دفع لها كما يدفع لعاهراته، وهي لم تتبه للأمر مطلقاً.

ولكن لا. هذا غير معقول. كان على قناعة تامة بأنها مرسله لها. أليس هو من كتب هذه السطور الرائعة؟ وقال إنها هي التي ألهمته إياها؟ أكانت هذه كلها أكاذيب؟ حتى أمها كانت مقتنعة بأن ثمة أمراً آخر وراء هذا القرار.

لا بد لها من الخروج من هذا الضيق، من بيت الربة، والأفضل من المدينة كلها. كم تشتاق إلى مكانها الحبيب على النهر، مكانها الصغير المعزول. نهضت من سريرها، تناولت وشاحاً وغادرت المخدع، آملة أن لا تلتقي أحداً. عند البوابة سُئلت إن كانت تحتاج لمن يرافقها كالعادة. هزت رأسها نافية، وخرجت بسرعة إلى الطريق، خيفة أن يبقوها في المعبد. لا بد لها من الوصول حتى القصر. مغادرة المدينة غير واردة الآن، فهي معروفة، ولا يلبق أن تتجول وحدها. ولكن لا بد من وجود معتزل تلجأ إليه حاملة كل هذا الألم. في قيظ الظهيرة كانت الحركة في الطريق خفيفة. وصلت إلى الباب الصغير في نهاية سور القصر، وجدته مفتوحاً. رفعت الحجاب عن وجهها ورأسها وأخذت نفساً عميقاً. كالمرّة السابقة أسرعرت صاعدة الدرجات التي لا نهاية لها. تمكنت وحدها من فتح الباب الأرضي الثقيل. وتدرجياً أخذ خفقان قلبها يهدأ.

على مسافة قريبة منها رأت هيكل السقف فوق القاعة الكبيرة. هناك تعاهداً، وقبل فترة ليست بعيدة. ألم يمجداً معاً هناك رب الشمس؟ اليوم لم يكن هناك سلالم على جدران الهيكل. اليوم كانت وحيدة ومهجورة. مهجورة من قبل حبيها.

وإذا كان مسحوراً؟ لربما أتى على ذكرها عند وصوله مصر مباشرة، فرمى أحدهم بسحره عليه. أحد معارضي هذا الارتباط. ملكة مصر نفسها، أو تلك التي تزوجته الآن.

أهي أجمل منها يا ترى؟ ما هذا الاسم! نُفَرِّتِي.. الجميلة قادمة. أهكذا يدعونها؟ أمونحوتب لَقَبها يا جميلتي مرات لا تحصى. هل أصابه العمى؟ أيظن أنها عنده هناك؟ لا، إنها لم تأت بعد. هناك أخرى بين ذراعيه. أهي مثيرة يا ترى؟ لا شك في أنها قد استخدمت جميع الحيل الممكنة، لتستأثر بانتباهه، فوقع في أحاييلها. ومن دون التعاويذ الصحيحة لا يمكن تخليصه من الشياطين. يجب أن تسرع إليه لتتقذه. ولكن كيف؟ إنها مقيدة هنا. يستحيل أن تركب عربة وتقول للحوذي: إلى طيبة! لا بد من أن تتنكر وتسافر كرجل. هذا غير وارد، فهي أميرة قطنا. لا، ثم لا. لن تركض وراءه. لولاه لما تعرضت لإهانة الملكة، أمام كل تلك النسوة. يا للعار!

صارت الشمس في الأفق الغربي. نهضت كيا واقفة. أحست بنفسها متييسة. تمطت ومشت بضع خطوات. هنا في الأعلى، لن يبحث عنها أحد. يا له من إحساس مريح. اتكأت بجسمها على الجدار الغربي الذي تشرب دفاء الشمس، ثم استلقت على ظهرها تاركة أشعة الشمس تغلغل فيها وأخذت تتنفس بعمق.

عندما استيقظت ثانية كان الوقت ليلاً تقريباً. نامت بلا أحلام وشعرت ببعض التحسن. كانت مناديل دموعها قد جفت. من جهة البحر تهب ريح خفيفة. نهضت واقفة وهي ترتعش برداً. منذ ساعات لم تأكل أو تشرب شيئاً. ولكن هناك لا يوجد ماء، إذأ عليها أن تنزل، رغم أنها لا تريد مغادرة هذا المكان المسالم، ليس بعد. ركزت كي تقهر شعورها بالعطش. في السماء ظهرت أوائل النجوم، ونجمة الزهراء كانت تضيء بقوة. تكوّرت كيا على الأرض عند الجدار وأخذت تحديق في قبة السماء. أليست هي المسؤولة عن هذا الانهيار؟ كان يجب عليها أن تستجيب لأمونحوتب، فهو رب تقريباً. كان عليها، كما أمها، أن ترتمي عند قدميه وأن تغمره حباً وتبجيلاً وحمداً. ولكن لا، كان لا بد أن تُظهر اعترازها بنفسها، وأن ترد على اتهاماته، وأن تفوقه معرفة. أي رجل سيقبل بهذا؟

فجأة خطر تالزو في بالها. لقد تحمّل بعض المجادلات معها، ورغم معاملتها الزرية له أكثر من مرة، لم يتخلّ عن إظهار الاحترام لها. لكنها تذكر مرة وحيدة أبدى فيها حزنه من غطرسها، وقد شعرت بعدها بخجل شديد. لكنها كانت لا تزال طفلة تقريباً، وكان محقاً في تأنيبه لها، ابن التاجر! على الرغم من ياسها وغضبها وجدت نفسها تبتسم. لكنها شتمته وبسءاء. كم كانت إوزة غبية. لم يكن يستحق ذلك أبداً. رغم كل التدريب الذي خاضته في بيت الربة، فإنها لم تتعلم شيئاً: إنها لا تزال كسابق عهدها متطرسة، معتدة بنفسها ومتكبّرة. نهضت واقفة ومشت بضع خطوات في الظلام.

ما أقوم به هنا لا يعدو أن يكون تمزيقاً للذات، فكّرت كيا. الأجدى، بل من الضرورة
بمكان أن أكون واثقة من نفسي، إذ لا بدّ للناس أن يعرفوا مع من يتعاملون: مع ابنة الملك.
بدا الأمر غريباً، وحدها على السطح العالي وفي الليل. يستحسن أن تنزل وتعود بهدوء.
تحركت بحذر نحو الباب الأرضي، وتلمست جوانبه. تحتها ثمة هوة عميقة تتشاب وتنتظر
نزولها فيها، مثل نفق إلى العالم السفلي. لقد أطالت الانتظار.

هل أطالت الانتظار أيضاً بشأن أمونحوتب؟ ألم يكن حبها له خطأ؟ لقد كان أجبن من
أن يرسل إليها خبراً صغيراً. أم أن عدم مبالاته بها قد وصل به إلى حد عدم التفكير بالأمر؟
طيب، تجاه والدها كحد أدنى! فهو ملك وليس تابعاً لمصر. يا لهذا البلد المتغطرس!
سيعاقبه الأرباب كما فعلوا في بعض الأحيان. في حالات اليأس منه كانوا ينتزعون
السلطة من السلالة الحاكمة ويسلطون عليه غزاة أجنبي ليحتلوه، أو يبلوه بالمجاعة بعد
غياب فيضان النيل. ثار غضبها مجدداً فأحست بكرهية ورغبة بالانتقام، إلى أن تقززت من
نفسها وهي خادمة الربة. لماذا تفلت العنان لنفسها على هذا النحو؟ كانت السماء فوقها
صافية ومليئة بالنجوم، مما ساعدها لبرهة في طرد الأفكار السيئة من رأسها. ارتجفت
برداً. نزلت الدرجات مترددة وببطء. إن أغلقت الباب الأرضي فوقها فسيُتسبب ذلك في
ضجة تلفت الأسماع إليها، إضافة إلى أنها ستبقى أسيرة ظلمة الهاوية. تصاعد خوفها.
كانت وحيدة مع الظلال الزائلة. سمعت أصوات طقطقة وديب خطوات ثم أتينا من أحد
الأركان، وأخذت الأصوات تتزايد في أذنيها، فتكورت ما أمكنها على إحدى الدرجات،
وبدت لنفسها ضئيلة ومسكينة تثير الشفقة.

وماذا إن كانت هذه مشيئة الربة؟ جلست كيا في العتمة، وتذكرت فجأة حلمها الذي
رأت فيه أمونحوتب بعد دخوله قطناً بمدة قصيرة، وبسرعة البرق عادت إلى ذاكرتها الرؤية
المفرعة. الربة إذا لم تشأ تحقق هذه الرابطة بينهما. لو ارتبط بها الأمير لمات. هذا ما أراد
الحلم أن يقوله لها. ولهذا منعتة بيليت إكالميم من الاقتراب منها أكثر، فقد اختارتها الربة
لها. أيعقل أن كيا كانت عمياء وصماء إلى هذا الحد؟ لهذا كان غضب الربة يزداد في كل
مرة تسير فيها كيا تصورات أمونحوتب، كما عندما تحدث عن أنهما كليهما سيصيران
كاهني رع الوحيدين. ألم تحجب عنها الربة القدرة على الرؤية والحلم طوال الأسابيع
والشهور الماضية لتعاقبها ولتعيد إرشادها إلى الطريق الصحيح؟ بثت هذه الأفكار قوة
في نفسها وانتزعتها من آلامها. ألم تحسم أمرها منذ مدة طويلة بأن تخدم الربة إلى الأبد؟
ثمة سؤال ما زال يعذبها. لماذا سمحت لها بيليت إكالميم بالتقرب من الأمير إلى ذاك

الحد؟ هل أرادت أن تختبر صمودها؟ أم أنه كان على أمونحوتب أن يريها شيئاً، لطالما كان يتحرك في قلبها منذ مدة طويلة؟ فكرة، ما كان ليسمح أمونحوتب بأن تملكها. هل أرادت الربة أن توصلها عبره، إلى أن فكرة الوحداية صحيحة، ولكن ليس وحداية رب، وإنما ربة؟ لقد وجدت الحل!

على سطح القصر، في أعماق الليل، قررت کیا بعد كل سخطها وحسرتها، أن تطلب من شالا إخضاعها لطقوس تطهير قاسية، كي تعود إلى حضن الربة نقية، ولتخدمها في المستقبل وحدها، وبكل طاقتها. هذه هي مهمة حياتها. وبهذه الثقة المطمئنة غفت کیا في جلستها غير المريحة. عند الفجر عادت بمشية منتصبة إلى بيت الربة، دون أن تولي اهتماماً للحرس.



خطوة فخطوة نجح الحثيون في السيطرة على معظم الهضاب والجبال المحيطة. لم يكن في الأمر أية بطولة، فكل هذه المواقع كان يحرسها نساء وأولاد. غير أنهم بهذا العمل تمكنوا من شد الحزام حول السهل الذي كانوا قد نقلوا معسكرهم إليه. وصل جيشهم في الجنوب الغربي إلى مرस्ता. والكشكيون ما زالوا يقاومون صامدين، رافضين أي عروض اتفاقيات. وملكهم يهونيا لم يره أحد من الحثيين، لكن رسله استمروا في نقل رسائله الساخرة إلى شوبيلوليوما. كان الوضع يستنزف قوى الجيش، الذي هبطت معنوياته بالتدرج، ولا سيما أنه لم يتوقع أي دعم من حثوشا، بل العكس هو ما جرى، إذ وصلت إلى الملك ذات يوم رسالة تطلب منه الإسراع بأقصى ما يمكن لدعم القوات المقاتلة على حدود أرزاوا. لكن الانسحاب كان مستحيلاً دون إحراز نصر حاسم. بات الوضع بالغ التعقيد، مما أدى إلى زج الجميع في المعركة، وبضمنهم ذوو الإصابات الخفيفة، كما صدر أمر بعدم أخذ أسرى، بل قتلهم فوراً.

أخيراً قررت القيادة ضرب حصار حول نيريكاف قبل أن تصلها إمدادات كشكية جديدة، مما أدى إلى ازدحام لا يحتمل داخل المدينة. وقدمت للأرباب الأضاحي تلو الأخرى. ما بالهم لا يمنحون النصر لحثوشا؟ صحيح أن تفوق العدو قد كُسر، لكنه ما زال صامداً. انتشر التذمر في صفوف الحثيين، ووصل حتى إلى أدني تانوا. كره الجنود حالة العطالة والانتظار من دون وسائل حصار فعالة. فأخذوا يمضون الوقت بمحاولات سحرية لشل

قوة العدو القتالية، منها أن ألبسوا تمثال إله حرب كشكي غنموه في المعركة، زينة نسائية. استبدلوا بكلمات نشيد لزبابا كلمات توحى بالسخرية، وأخذوا يغنونها بأصوات كظيمة:

«جلبن معهن المغازل،

عوضاً عن الحراب.

جلبن معهن أدوات الزينة،

عوضاً عن الهراوات...».

إلى ما لا نهاية له من الأبيات المشابهة، لكن ذلك كله لم يفدهم شيئاً. ثم وصل البريد الجديد من القائد هيمويلي على حدود أرزاوا، يطلب فيها دعماً مستعجلاً كي لا تضع انتصارات العام الفائت هباء. لذلك وعلى الرغم من العار، رفع الحثيون الحصار عن نريكا خلال أيام معدودة وانسحبوا إلى المعسكر القريب من المخاضة. وأخيراً نجحت هذه الحركة على رقعة المعركة. فالكشكيون المحررون من ضيق الحصار خرجوا من المدينة. وفي الليل انقض الحثيون عليهم، ففقد عدد لا يحصى من الكشكيين حياتهم. ومع انبلاج الفجر تبين أن السهل بات مغطى كله بالقتلى أو الموشكين على الموت. ومن كل مكان كانت تفوح روائح الدم والعرق والفضلات، وكانت صيحات الجرحى وتأوهاتهم تُكسّم بطعنات الرحمة، ولم يعد يسمع أخيراً سوى خنفرة الجياد.

طوال الحملة شارك تانوا بحماسة في المشاورات والمناقشات التكتيكية بين قادة القوات، وكان يلجّ خلالها على تقديم عروض تفاوض، غير أنه مع عودة كل رسول كان يضطر إلى الاعتراف بأن الأعداء لن يوقفوا القتال، وبأنه حقاً لم يبقَ أمام الحثيين من خيار آخر سوى متابعة القتال. ولكن هذا الانقراض الليلي، هل كان يليق بملك حثوشا العظيم؟ أهذا هو النصر الباهر الذي منحه الأرباب للحثيين؟

فكر تانوا بالمعارك الأولى، حينما كانت المواجهات رجلاً لرجل. عندها كان هناك للمقاتل كحد أدنى فرصة ما للنجاة، علماً بأن الذبح المتبادل من الطرفين كان يروّع تانوا. حاول أن يفتح الموضوع مع مورسيلبي وميتا، لكنهما كانا مأخوذتين بنشوة القتال. لم يسبق منذ سنوات أن كان الهدف بمتناول اليد، كالآن. نريكا! لا بدّ أن تعود حثية. سيدخلونها منتصرين، ليتابعوا زحفهم من هناك إلى زالبا على البحر الأسود في الشمال، وبذلك ستستعيد المملكة عظمتها تحت لواء الملك المظفر المجيد شوبيلولوما. أدرك تانوا أنهما غير مستعدين الآن لمناقشة هذا الموضوع. وعلى الرغم منه أصابته حماسهم بالعدوى.

ثم جاء يومٌ في خضم المعركة، قفز فيه هنوتي من عربته القتالية لينجد بعض المشاة. كان تانوا يراقب المشهد واقفاً في مكان مرتفع نسبياً وغير بعيد، لكنه ليس في المعركة. رأى عدداً كبيراً من الكشكيين يضيّقون الخناق على هنوتي من عدّة جهات، ثم انبته إلى رامي سهام كشكي يتناول سهماً من جعبته ويسدّد ليقتل هنوتي. من دون أدنى تردد رفع تانوا قوسه ورمى الكشكيّ بسهم قاتل قبل أن يُفلت ذلك وتر قوسه. هكذا إذًا، ينهي الإنسان حياة إنسان آخر، بكل بساطة. لم يستطع إطالة التفكير في الأمر، فقد انبته الكشكيون إليه. لكنه لاحقاً، بينه وبين نفسه، اعترف بأن ما دفعه حينها إلى رمي الكشكيين بسهام متتالية لم يكن خوفه على نفسه ولا قلقه على هنوتي، بل شعور جامح بالقوة غمره فجأة، وجعله يصبّ ويطلق، من دون أن يخيب أي سهم هدفه، وتساقط الكشكيون، حتى بعدما سيطر هنوتي على الوضع. ولولا انتهاء السهام من جعبته لما توقف. وكان في ذروة النشوة عندما رفعه هنوتي إلى عربته وأوصله إلى المعسكر.

وكلما استعاد المشهد في ذاكرته كان يفرح ببقاء هنوتي حياً. وفي حلقة الأصدقاء قال خاله إنه مدين له بحياته، فطرق الأصدقاء أسلحتهم ببعضها معاً اعترافاً بفضله، فيما أحس هو بخجل شديد، لكونه قد أصبح هو أيضاً مجرد قاتل. أين كانت مبادئه النبيلة وقناعاته؟ أمحت وكأنه قد أكثر من شرب الجعة أو النبيذ. قدم اعتذاره للقتلى وابتهل إلى الأرباب، وخاصة زبابا، أن يحفظوا عليه حياته في المستقبل، ولا سيّما أنه بات عارفاً بأزمة القتال. في ظروف معينة سيُقدم أيُّ كان على القتل. وفي حالته، فإنه فقط لتمتعه بميزة الانتماء إلى الإدارة الملكية، تمكّن من إبعاد نفسه عنه، غالباً على الأقل. وهذا ليس بفضله، بل بالفضل عليه. وما دام القتال شريفاً، فلا يجوز له أن يلوم أي جندي. ولكن أن يُذبح الأعداء ليلاً؟ أهي إرادة الأرباب؟ يكفي الانتصار لنسيان ذلك؟ لكنه بات يعرف الآن أنه لا يحق له إداة العملية. ولم يعد بوسعه سوى بذل كل جهوده، حيثما أمكن ذلك، لتجنّب وقوع صدامات عسكرية.

بعد المذبحة الليلية استسلم الكشكيون، ربما لعلمهم بمرور الوقت أن بقية القبائل الكشكية في الشمال الشرقي والشمال الغربي لا تقاتل، بل أبرمت اتفاقيات مع حتوشا. أرسل الملك ييهونيا وفداً عرض الاستسلام والتمسّ البدء في مفاوضات سلام، فلاقى قبولاً. ومن أجل ذلك نُصبت خيمة فخمة في حقل مكشوف، وظهر الملك شوييلوليوما بكامل زينته لاستقبال المهزومين. كان الملك ييهونيا رجلاً متقدماً في السن، وقوراً، مرفوع الرأس، ذا نظرات صريحة، ثبتها على الملك شوييلوليوما من دون أن يرف له

جفن طوال مدة تقديم تحيات الاستسلام العسكرية من طرف زعماء القبائل الكشكية أمام الملك الشمس. وكانت بنود الاتفاقية قد حُضرت بعناية وبصورة غير مجحفة: بقي معظم الأراضي الزراعية والرعية في تصرف رابطة القبائل الكشكية بقيادة يهونيا. تعود نريكا والأراضي الأخرى إلى الحثيين شكلياً، مع حق بقاء الكشكيين القاطنين والعاملين فيها على حالهم السابق، بشرط الابتعاد عن المعابد. كما نُتبت مبلغ الضريبة السنوية والمواد العينية، إضافة إلى الالتزام بتقديم المساعدة العسكرية. وقد سُمي الملك تانوا مترجماً ومفاوضاً. فكانت هذه عملياته المهمة الأولى تحت أنظار الملك العظيم وأسماعه. ومثلما فعل يومذاك على الطريق من پوروشخندا إلى حتوشا، طلب تقديم خبز وملح للقادة الكشكيين. ورأى الدهشة في أعينهم عندما خاطبهم باحترام وحيّاهم بلغتهم. من الجليّ أنه قد التقط الخيط المناسب. أنصتوا إليه بهدوء وهو يعرض بنود الاتفاقية؛ وهزّوا رؤوسهم موافقين بعد كل بند، ثم أقسموا بأربابهم وبأرباب الحثيين على التقيد بالاتفاقية. وشويلولوما بصفته السيد الأمر الأعلى عسكرياً أقسم برب طقس حتوشا، وبصنمي الحماية في كارزي وهبانتالي، وبزبابا، وبربة العرش وصنمها الملكي، وبصنم المحفوظات الملكية من الرُقم، بأن الكشكيين، في حال نقضهم الاتفاقية، يُعتبرون ملعونين من جميع هؤلاء الأرباب وأصنامهم. كان اللابارنا الجبار واقفاً هناك في الخيمة وكأنه رب، وقال: «إذا خرقتم أي بند من الاتفاقية، أو جتتم لغزو أراضي حتوشا، فليقلب زبابا أسلحتكم إلى نحوركم لتمزق لحمكم، وليقلب اتجاه سهامكم لتخترق قلوبكم!».

رغم الاتفاق على عدم التطرق إلى موضوع أمنوحوتب وكيا، كان لا بدّ من التحدث في مستقبل العلاقة مع مصر. ضغط الملك في مجلس الأعيان باتجاه اتخاذ قرار حاسم. وإضافة إلى عدم وفاء مصر عامة بوعودها وعدم اهتمامها الواضح بالمنطقة، طرح الملك مشكلة ميتاني العسيرة على طاولة النقاش، قائلاً: «عاجلاً أم آجلاً سنعرف من الذي سيمسك بزمام السلطة، الملك توشراتا، أم منافسه أرتاتاما. أنا لا أفهم كيف يفجران الصراع على العرش، وهما يريان أن الحثيين وراء الباب». فأضاف أويّتا: «يفترض أن يكون واضحاً لكليهما أنهما لا يجازفان بوجود ميتاني فحسب، بل يجزّاننا جميعنا إلى حيز الخطر. والسبب في ذلك كله هو تعطش أرتاتاما للسلطة!». وأخذ يهزّ برأسه.

«أو إخفاق تو شراتا في إدارة دفة الحكم. حتى رجاله يتخلّون عنه»، قال لو وايا، فأضاف أكالينا: «ولكن بغض النظر الآن عمّن هو المذنب، هذا الصراع الداخلي يضعف البلد على نحو خطير، ويفتح شهية الصقور، للهجوم من الغرب والشرق، وحتى من الشمال. وعلينا نحن أن نعتبر الأمر نذيراً لنا».

«تماماً. هذا هو رأيي أيضاً. ولا متقد لنا من مثل هذا المصير سوى اتحاد سوريا وتكاتف صفوفها»، قال تيرو، فأجابه أكالينا بسرعة: «ولكن يا عزيزي تيرو، أنا لم أنطق إلى هذا الموضوع، بل أردتُ التنبيه إلى أنه علينا التصرف بشكل لا يثير الغبار من حولنا ما أمكن». فعلتُ إيداندا: «أو أن نعقد الأحلاف المناسبة. علينا أن نستند إلى القوة المناسبة، هذا وحده هو ما يمكن أن ينقذنا».

«وما اسم هذه القوة يا صهري؟ طبعاً ليس مصر، بعد أن رفضوا هناك دلو عتك الحلوة. أنت ستودي بقطنا إلى التهلكة، لمجرد أن كبرياءك قد جُرحت، ولأن العار والسُنار قد ألحقا بابتك كيا! هذه هي الحقيقة! أنت لا تفكر إلا بنفسك، لا بخير البلدا».

شحب إيداندا، لكنه لم يحز بأي جواب.

«تيرو، أنت مخطئ، وليس في لهجتك فحسب!». أجابه أويا بقسوة وأردف: «مَنْ هنا سيودي بقطنا إلى التهلكة؟ ليس سواك حتماً، فسلوكك يضرب المدينة ويمصالحها. أنت تريد أن تبيننا لأمورو. بماذا وعدوك لقاء ذلك؟ بحكم المدينة؟».

انتفض تيرو واقفاً، وظهر كأنه سيهجم على أويا. لكنه ضبط نفسه، عندما رأى أن بقية الأعضاء قد نهضوا جميعهم. قال بعد لحظات: «أنتم تريدون إساءة فهمي. وهذا جلّي جداً. فبدلاً من أن نقرر معاً، أن نتصرف حسبما يمليه العقل، أراكم تتكالبون على مناصبكم لا تريدون التخلي عن شيء، ولا التبعية لأحد، بل تفضلون شراء حماية قوة عظمى بأموالكم!».

«أن ندفع ضريبة لقاء حمايتنا أفضل من مهاجمة القوافل ونهبها مثل اللصوص الأشقياء»، قال إيداندا وهو ينظر إلى تيرو باستفزاز.

«لقد طفح الكيل. لن تجرؤوا على اتهامي بذلك! أنا سأجعلكم تدفعون ثمن ذلك!». رفع أويا صوته، بصفته رئيس المجلس، وقال: «اهدأ واجلسا! هذه تهمة كبيرة بحق تيرو. ألدك دليل يبررها يا إيداندا بن أولاشودا؟ ألدك شهود وقرائن؟».

نفى الملك ذلك. إن ملاحظة تالزو ومعلومات الشيخ إيدريمي ليست كافية لمواجهة

تيرو في المجلس. ما الذي دفعه أساساً إلى ذكر الموضوع؟ انزعج إيداندا من نفسه. ما هذا الغباء؟ ها هو ذا ينبئه الأشقياء إلى شكّه بهم. أين رزائنه المعهودة ورجاحة عقله وتبصره؟ «من واجبك إذاً أن تعتذر من سلفك. وإلا فإنك تشوّه سمعته، وله الحق في مقاضاتك!». «أما هو فيحق له ببساطة أن يهينني وعائلي؟». «علق إيداندا بقسوة.

«يكفيكما هذا! نحن لا نناقش هنا مشاكلكما الخاصة، بل نداول بشأن مستقبل قطنا. يجب أن نقرر ماذا سنفعل. هذا هو واجبنا الآن!».

تدخل كوزيا بن أكابا في النقاش قائلاً: «نعم أيها السادة، لو ايا محق في ما ذهب إليه تماماً. أعتقد أننا قد فعلنا حسناً حتى الآن بسلوكنا الحيادي تجاه مصر، وتجاه ميتاني أيضاً. ولكن في حال اضطررنا لاتخاذ موقف، فنصيحتي التي لا محيد عنها هي أن نضع أنفسنا تحت حماية أمينوفيس. فمصر موجودة في كل مكان على الساحل السوري، وهناك مصاهرة بينها وبين بابل، ومصاهرة وحلف مع ميتاني. لا يجوز بأي حال من الأحوال أن نلتفت إلى حتّوشا. وإذا حدث، بعكس ما هو متوقع، أن تنتصر حتّوشا على ميتاني وتحاول ضمّها إليها، عندئذ من واجب مصر أن تتدخل بصفتها حليفها. أنا لا أتوقع أن تتخلي مصر عن مصالحها في المنطقة وتشتري الأرز في المستقبل من الحثيين».

سُمعت من عدّة زوايا أصواتاً تقول: «معك حق!».

أما غابوللين شيئاً فقال: «علينا ألا ننسى أن آشور أيضاً ستحاول التدخل مطالبة بنصيب من القسمة. وهذا كله سيجري من دون أن يمسنّا مطلقاً، بشرط أن نبقي إلى جانب مصر». هزّ معظم الأعضاء برؤوسهم موافقين. وهكذا انفضّ اجتماع المجلس.

انسحب إيداندا إلى معتزله. لقد أجهده اجتماع المجلس إلى حد كبير، ويات بحاجة إلى الراحة. لكن رأسه لم يتوقف لحظة عن العمل. إذاً ليس أكيزي وحده، بل تقريباً معظم أعضاء مجلس الأعيان يقفون ضده. ربما ما زال أوبيا وأكالينا إلى جانبه، رغم عدم يقينه من مشاطرتهما رأيه في أن حتّوشا هي القوة المستقبلية في شمال سوريا، علماً بأنه يرى الأمر بكل جلاء. ألم يتوصل شويلوليو ما إلى جعل المنطقة كلها تضطرب بمجرد التهديد بسلاحه العجيب؟ وماذا عن المفاوضات مع آشور؟ من يدري ما قد يفعله أيضاً: حلف مع بابل، صلح مع مصر، وماذا بعد؟ لا، سيكون عليه التصرف بمفرده ثانية. وسيأتي يوم

يشكرونه فيه على تبصره الذكي! أما اليوم فإن أعيان المجلس لم يفهموا قصده. لذلك عليه لاحقاً أن يهتم بمشكلة تيرو. وعندئذ لا بد من الحذر الشديد. في واقع الأمر لا بد من وضعه تحت رقابة دائمة. مشاكل، هموم، مشاكل حيثما التفت، حال تدعو لليأس. ولكن لو أنه لا يشعر بهذا الوهن. ربما كان عليه إرسال أحد إلى دار الشفاء، ليجلب له مسكناً.

«أعرف ذلك من مصدر موثوق!».

«أسماء، أريد أن أسمع أسماء!».

«ما هذا التطاول؟ ألا تصدقني؟».

«يا عزيزي تيرو، لا يمكنني ببساطة أن أثق بكلمتك وحدها، اعذرني يا أميري!».
وانحنى الشيخ بوسور انحناءً مبالغاً فيها لتيرو، ثم أضاف بحدة: «أنا أخاطر برأسي!».
«لست وحدك فقط!».

«إذا أرجوك، من أين أتيت بمعلوماتك؟».

صرف تيرو بأسنانه. لم يشعر بأي إلحاح لكشف المزيد من أموره لشيخ البدو هذا. ولكن لولا مساعدته لما حققوا ما وصلوا إليه حتى الآن. فقال أخيراً: «من الملكة».
صرف البدوي من بين أسنانه ثم قال: «وهل يُعتمد عليها حقاً، أم أنه هذر امرأة تريد أن تمنح نفسها أهمية؟».

«يا لك من وقح..»، خرج تيرو عن طوره، وخشي مزيداً من الوقاحة.

«لا تخطئ يا أميري!».
وضحك البدوي في وجهه وهو يقول: «تعرف جيداً أن خنجري لا يحتمل أي إهانات. فجاوب عن سؤالي لكي أعرف ماذا أقول للملك العظيم عبدي عشيرتا في أمور».

قرر تيرو ألا يقول المزيد لابن الصحراء التتن هذا. أخبره بالضروري، وهذا يكفي.
«قل له، إن علينا الاجتماع بأسرع ما يمكن، قبل الهلال الجديد، لتتخذ القرارات النهائية. وفي المكان المعتاد نفسه».

«أنا من عليه أن يقطع الطريق الأطول دائماً». دمدم الشيخ بوسور.

«وماذا عن أيناكما؟».

«حاكم قادش؟ ماذا عنه؟».

«أنت تعرف تماماً ما أعنيه. أهو معنا؟».

«سوف نرى! كن صبوراً يا أميري!».

ضاق تيرو ذرعاً بهذه الوقاحات. لماذا يضطر الإنسان للتعامل مع هذه المخلوقات؟

«اذهب الآن، بوسور، وكن حريصاً! لا أريد المزيد من المشاكل في قطنا بسببك».

«لا تقلق تيرو، يا أميري. فقد يظن المرء أنك تخطط لارتكاب جريمة. حافظ على

هدوئك. حافظ على صحتك حتى لقائنا القادم».

انحنى شيخ البدو مجدداً أمام تيرو بصورة مبالغ فيها، وغادر الغرفة السرية الصغيرة

وهو يضحك بصخب. عند الباب حجب وجهه وانسل من المخرج الجانبي لدار تيرو

واختفى في غبشة الغسق.

كاد تيرو ينفجر غيظاً، فشرب جرعة نبيذ كبيرة، شطف بها حنقه وغضبه. جسارة هذا

البدوي كانت استفزازية مغيظة، إلا أنه يؤدي عمله بصورة جيدة، لا شك في ذلك أبداً.

كانت مخططاتهم تسير على خير وجه، وكم كان مفيداً أن يساعدهم إيداندا، من حيث لا

يدرري! سنرى! من سيفضحك أخيراً يا صهري! قريباً ستنسى ما هو الضحك. في صحتك!

لطالما عاود إيداندا التفكير في الغلطة التي ارتكبتها قبل أسابيع بحق زوجته. كيف

وصلت الأمور إلى هذا الحد؟ لقد بقي يتجنبها منذ الشجار معها. إن السخرية التي عاملت

بها كيا، أصابته في نخاع العظم. لقد أدلته بإذلالها كيا. وإذا كان قد أبدى حتى الآن الكثير

من التفهم لغيرتها الهوجاء ولو خزاها المتكررة، فإنها هذه المرة قد تمادت جداً.

كانت إيست من وقف إلى جانب منافستها اللدود، فقالت له: «انس إهانتك ما أمكنك.

تصالح مع الملكة. ليس في مصلحتك أن تقف ضدك في هذه الأيام العصيبة. وحتى بسبب

أكيزي، فلها عليه على الأقل نفوذ معين. وعليك أن تأخذ ذلك بعين الاعتبار».

«آه يا حبيتي، ماذا كنت لأفعل من دونك؟ لكننا لا نتحدث إلا عني أنا. اعذريني، فأنا

لم أسألك بعد عن حالك. لقد لحقت بك الإهانة في نهاية المطاف، لا من طرف عائلتك

فمحب، بل من طرف عائلتي أيضاً. وكما أعرفك، أجلك تحتملين كل شيء بتماسك

ووقار».

صمتت إيست. لقد رأت كم يعاني الملك، وبدا لها أنه بات عجوزاً في غضون أيام.

وتنامى قلقها من ازدياد شكواه من الوهن وسوء الحال. كانت حتى الآن تعزو الأمر إلى كثرة الأعباء. وها هو ذا يقلق مجدداً بسبب الإضطراب في مجلس الأعيان، إضافة إلى كل ما يدور في الخفاء. أكان ضرورياً يا ترى؟ إنه لأمر خطير، إرسال ساع إلى حتوشا مجدداً، وليس إلى وسيط هذه المرة، بل إلى اللابارنا مباشرة. تكتمت على آلامها الذاتية أمام الملك، الذي يجب أن يجد راحته عندها. وتابعت بحثها بلا كلل عن أسباب يمكن أن تبرىء ساحة أمينوفيس وثيئه وأمونحوتب. ولكن من دون معرفة الدافع أو الحجج التي تسوغ الزواج بنفرتيتي، بقيت غارقة في الحيرة. وما دفعها إلى مشارف الانفجار هو أن لا يرسل إليها أحد من عائلتها توضيحاً لهذا السلوك. لم تبح بهذا كله إلا لأمون رع وهي تبحث عن سلوى لنفسها أمام تمثاله.

بعد الحديث مع إيست أرسل الملك في طلب زوجته بلتوم. وعندما رأى كيف هرعت إليه، حال دخولها الغرفة وطلبت صفحة عما بدر منها، فكر إيداندا بأن إيست محقة كالعادة. عانق بلتوم برهة، وكانت شاكرة له ذلك، وعادت إلى طبيعتها، كما في الأيام الطيبة. حكّت في أمور كثيرة من هنا وهناك، لكنه لم يكن منصتاً، لأنه بأفكاره كان في مكان آخر. ولاحقاً لم يعد يتذكر كيف جرى، على نقيض عادته، أن باح لها بهومومه.

أنصتت إليه بلتوم بتهذيب، من دون تعليقات أو تعاليم عُرف عنها، وهو ما لم يكن يطيقه فيها. تركته على سجيته. وكان حديثه نوعاً من التفكير بصوت عالٍ، وازن به الأمور وقارنها ببعضها، تابع الفكرة الأولى حتى أشبعت، وانتقل إلى الثانية، وهكذا دواليك. وفي سياق أفكاره ذكر أيضاً أنه قد اتخذ قراره وراسل شوييلوليوما. وفي تلك اللحظة فقط رفع نظره والتفت إلى بلتوم. رأى وجهها المتحجر، وأدرك للتو أنه قد ارتكب خطأ فادحاً. حاول الإمساك بخيط الحديث مجدداً والتظاهر بأنه لم ينتبه إلى رد فعلها نهائياً. فتحدث عن القوافل والاتفاقات التجارية مع حكام الإمارات المجاورة، وعن الملك توشراتا. لكن الأوان كان قد فات للفت انتباهها عن ذلك الموضوع. لقد وقع المحذور، ولا راد له. لم يشأ أن يطلب من زوجته كتمان الأمر، إذ يحتمل أن يوقظ بذلك كلاباً نائمة أخرى. صحيح أنه كان من واجبه دائماً، ألا تُسرّ لأحد بما يأتئنها الملك عليه، ولكن ليس جاتراً أن تمر بما مر به للتو، فتعيد ما سمعته منه في سياق حديثها مع إحدى أخواتها أو زوجات إخوتها؟ وما أدراه بما يدور من أحاديث بين النساء. أنجدوني يا أرباب! فالمصائب لا تأتي فرادى.

الحياة في القصر وفي بيت الربة وفي المدينة تابعت مسارها المؤلف. والقوافل

القادمة من تدمر وجبيل وأوغاريت وصلت إلى قطنا سالمة من دون أن تتعرض لأي طوارئ على الطرقات، وفي الوقت نفسه جُهزت قوافل جديدة وسارت في دروبها. تابع التجار أعمالهم وزاروا شركاءهم، أو دققوا مخزونهم من أخشاب الغابات. وحتى تيرو جهز نفسه لجولته السنوية التي تمتد حتى الساحل، وذلك تحت رقابة (عيون) الملك المرتابة، والتي رفعت تقريراً بذلك إلى الملك وسألت عما إذا كان من الضروري تتبعه. لكن الملك نفى ذلك. فخطَّ جولته معروف، وشركاؤه في التجارة معروفون كفاية، ولا يُشتم من جولته رائحة خطر.

لكن قلق إيداندا تفاقم، لعدم وصول أي جواب من حتوشا. غير أنه كان لا بد من الأخذ في الحسبان أن اللابارنا منهمك منذ فترة على إحدى الجبهات. وقد كشف رجال استطلاع ميتانيين عن وجود قوات حتية بجهوزية قتالية في الشمال والغرب. يبدو أن حتوشا قد أجلت موضوع ميثاني حتى أواخر الصيف، أو غصّت النظر عنه حتى العام القادم. غير أن ملك ميثاني امتلاً بالقلق، وكان الجيشين قد اشتبكا فعلياً. وهو من جهته لا يجرؤ على مهاجمة المملكة الحتية، لأن منافسه أرتاتما يتربص به ويتنظر تغيّبه لينقضّ على العاصمة واشوكاني ويحتلها.

كان شمال سوريا كله مع ميثاني في حالة توتر، لأن طريق زحف الحتيين لا يمكن إلا أن يمر عبر كيزواتنا، إلى معبر جبل الأمانوس، فإلى مخاضة الفرات قرب كركميش، فإلى حرّان مدينة رب القمر المقدسة، أو إلى إزيته، إحدى مدن ميثاني المهمة، للوصول أخيراً إلى واشوكاني. وقد يخطر ببال شويلوليو ما نهب الممالك التابعة لميثاني وتدميرها بغرض إضعاف مملكة توشراتا.

أرسل إيداندا ساعيين إلى ملكي أوغاريت والألاخ، أي إلى عنوانين غير مريبين. ولعله يحصل منهما على معلومات أفضل. فقد أضناه الانتظار وبات سريع الانفعال، الأمر الذي أحس به أكيزي على نحو خاص. لقد تفاقمت الخلافات بين الأب والابن بدلاً من أن تتراجع، وإيداندا كان يجد دائماً ما ينتقده في ابنه، وترسخ لديه انطباع بأنه ببساطة غير مؤهل لأعباء هذا المنصب. وماذا بوسعه أن يفعل أكثر مما فعل، ليهيئه بصورة أفضل، إذا كان أكيزي يرفض بعناد؟ أحياناً كان إيداندا يشعر بنفسه كالمشلول، وهذا لا يسري على حالته العقلية فحسب، بل الجسدية أيضاً. لكنه كان يتكلم على ذلك ويحتفظ به لنفسه، محاولاً التمويه على ضعفه.

عند الظهيرة التقى تيرو مع عبدي عشيرتا، ملك أموزو، وأيتاكما، ملك قادش، ويوسور شيخ البدو، الذي تقيم قبيلته مضاربها جنوب شرقي قادش، ليس بعيداً عن التل العظيم لغابات الأرز الملكية جنوبي السلسلة الجبلية. بكل جسارة، وفي بؤرة الخطر، على طريق القوافل الرئيسي إلى الساحل، الذي تستورد منه قطننا حيواناتها البحرية، فهنا لن يخطر وجودهم في بال أحد. وإذا حصل أن رأهم أحد من سكان قطننا، على غير ما هو متوقع، فإنه لن يستغرب رؤيته أو رؤية أيتاكما هنا. إذ أي طريق سواه سيسلكان إلى الجبال شمالاً أو إلى الوهدة جنوباً أو إلى الأماكن الساحلية؟

كان مكان الموعد قد جُرب سابقاً بنجاح، وهو استراحة بعيدة قليلاً عن الطريق، نادراً ما يرتادها أحد، وغالباً ما يتجنبها المسافرون ليلاً، بسبب كونها مسكونة بأرواح شريرة. لكنه المكان المثالي للمتأمرين، حتى وإن كان تيرو يرغب بمغادرته بأسرع ما يمكن، لهذا السبب تحديداً.

«الأمر صحيح إذا؟». ابتدر عبدي عشيرتا الكلام.

«هلا تكرمتم وأخبرتوني أولاً، لماذا هذا الاجتماع الطارئ المستعجل! إذ يبدو أنني الوحيد غير المطلع!».

«اهدأ قليلاً، أيتاكما. لن يتجاوزك أحد منا. إذأ، تيرو، أخبرنا!».

«لقد باع إيداندا قطننا لشويلوليو ما ملك حتوشا».

«ما الذي يدفعه إلى فعل ذلك؟ أنا لا أصدق هذا». سأل أيتاكما.

«أنا سأقول لك ما دفعه إلى ذلك. إنه شرفه المهان».

«ما هذا يا تيرو؟ ليس هذا من عادته. ثم ما الذي أهان شرفه إلى هذا الحد؟».

«حسناً، ألن يهان شرفك، إن أقام أحد أبناء نخبة الأعيان علاقة مع أبتك، ثم تخلى

عنها وتركها وهي ربما حامل منه؟».

لم يكن تيرو مرتاحاً لمبالغته هذه، ولكن المهم في الأمر الآن هو جذب ملك قادش المتردد إلى صفهم، ولهذا السبب أضاف مشدداً: «إيداندا خرج عن طوره من الألم والغضب، وأقسم على الانتقام لهذا العار بكل الوسائل المتاحة، حتى ولو فوق الجثث. أنت تعرف مدى تعلقه بابنته كيا».

وقف أيتاكما فاغراً فاه، ثم سأل: «ومن كان هذا النغل، الذي ألحق به هذا العار؟».

«ولي عهد مصر».

«أمونحوتب؟».

«ما غيره».

«هذا وضع مأزوم للغاية. في مثل هذه الحالة الدنيئة، التي تمس الشرف، يجوز أن تطلب أياً كان للنزال، ولكن ليس ولي عهد مصر». قال أيتاكما وهو يهز رأسه.

«ولكن هذا تماماً هو ما فعله إيداندا»، قال عبدي عشيرتا «فهو باصطفافه إلى جانب حتّوشا، يوجه صفقة إلى الفرعون، الذي لن يسكت حتماً، على مثل هذه الإساءة. فإيداندا بحركته هذه، يمنح شويپيلوليوما رأس جسر استراتيجي، يمكنه من احتواء جميع الممالك في شمالي سوريا، بل يضعه على الحدود المصرية مباشرة، أي أنه يؤمّن له مركز انطلاق للزحف على قادش». قال عبدي عشيرتا وهو ينظر إلى أيتاكما نظرة ذات مغزى، وباستفزاز أيضاً، ثم أضاف: «وبالتالي ستصبح أمور وجيل وغيرها وغيرها من ممالك الساحل مكشوفة أمامه».

«لقد اختلقتم هذا كله معاً!». قال أيتاكما ذلك كمحاولة أخيرة، وإن ضعيفة، دفاعاً عن إيداندا. ولكن كان جليلاً أنه إنما يحاول إقناع نفسه.

«لا، نحن لم نخلق شيئاً. أخبره يا تيرو عن مصدر المعلومات». قال عبدي عشيرتا. التفت أيتاكما إلى تيرو بفضول، بينما وقف پوسور بملل وهو يعلك شيئاً بأسنانه، ثم قال: «هيا يا أميري تيرو، أخبره!».

«من أختي».

«من بلتوم، ملكة قطنا»، أضاف عبدي عشيرتا بلذّة «وما أظنك ستشكّك في كلامها؟». «لا يمكنك تصور مدى الإساءة التي تشعر بها أختي. لقد أهملها الملك منذ سنوات ليلتفت كلياً إلى زوجته الثانية ذات الحظوة، وبات يدلّل البنت بصورة تلفت النظر. وها هو هذا العجوز الخرع الآن، نتيجة تعلقه المبالغ فيه بابنته ورغبته في تتويجها، بيع مدينتنا الجميلة قطنا ومعها الساحل السوري كله للحتيين». وبذلك بلغ تيرو أقصى ما عنده.

«لا يمكن أن يستمر الوضع بهذه الصورة! لا بدّ أخيراً من أن تتدخل!».

«ماذا يمكننا أن نفعل؟».

«لا بدّ من إبعاد إيداندا. هل فهمت ما أقصد؟ ابنه، وليّ العهد، يمكننا تحريكه بأيدينا بسهولة. أكيزي في كل الأحوال يقف إلى صفنا. ولكن لا يجوز مطلقاً أن يعلم بأننا وراء العملية. بل لا يجوز لكائن من كان أن يعلم بالأمر، وهذا ما سنقسم عليه الآن هنا بجميع

أربابنا وأجدادنا. بعد أن يطوي النسيان القصة، وفي الوقت المناسب لنا، سندفع علناً باتجاه وحدة ممالك منطقة الساحل السوري، وإن اضطرننا، فسنفرضها عسكرياً، وهذا ما كنا نهيم له». وضحك عبدي عشيرتا ضحكة مبهمة. ولكن عندما أدرك أن أيتاكما لم يفهم ما يقصده، تابع متسائلاً: «ألم تدرك بعد أن كثيراً من القوافل كانت تدفع لنا الضريبة، وإن لم يكن ذاك بمطلق إرادتها؟».

«أنت من دبر الغزوات على القوافل؟».

«نحن، يا عزيزي، نحن! المسؤولية مشتركة. كيف كان بوسعنا في رأيك أن ندفع للمرتزقة الضروريين؟ ثم إن بعض الأمراء يفضلون قبض الذهب والمجوهرات على التورط في حرب. هذا كله ضروري لإنجاح خطتنا. وأنت ترى أننا قد فكرنا بكل شيء». التفت أيتاكما عنه برهة، لكنه أخيراً أدرك الضرورة، بلا جدال، لإزاحة إيداندا. فأن يقرر وحده رمي نفسه عند قدمي شويلوليوما، ضد الإرادة الصريحة لأعيان قطنا، كان عملاً لا يُغتفر.

كان لا بدّ من تنفيذ الخطة في قطنا. ومن سيفذها هما تيرو ويوسور، علماً بأن المسؤولية الرئيسية ستقع على عاتق الأخير. إذ أكد تيرو احتمال أن يُشتبه به في تنفيذ العملية، لأنه طالب أكثر من مرة في المجلس بتأسيس مملكة سورية جديدة. ثم أضاف بمكر، أن من الأفضل توجيه الشبهة إلى ابن الشيخ إيدريمي، بصورة تتلبسه تماماً، باعتبار أن ما قام به ليس إلا انتقاماً متأخراً لانتهاهم بسرقة قافلة تدمر. كما اقترح تيرو إضافة إلى ذلك، إضعاف إيداندا بالسّم تدريجياً قبل توجيه الضربة القاتلة إليه. إلا أنه تكتّم على شريكه في المؤامرة، الذي يقوم منذ أسابيع بتسريب سَمّ فعّال للملك في مشروباته. سيأتي يوم تذهلهم فيه تصرفاته! وأنهى كلامه راضياً بقوله: «وبعد ذلك يمكننا بهدوء انتظار دفن إيداندا وتتويج أكيزي قبل الانتقال إلى خطواتنا التالية».

«وماذا عن ابنة إيداندا؟ فهي يقظة وصعبة المراس. قد تشكل خطراً علينا!».

«لا، أبداً»، قال عبدي عشيرتا باستخفاف وأردف: «سنزوج الصغيرة لابني عزيزا، فنتهي من نزواتها. سنلجمها وستصير فرساً راضية. إنها بحاجة إلى من يجيد ترويضها، إن فهمتم قصدي».

أدى المتآمرون الأربعة القسم، ثم تفرقوا بسرعة. عند الوداع ربّت عبدي عشيرتا على كتف تيرو قائلاً: «كن على ثقة يا صديقي بأنك ستحتل مركزك!».

شارفت إهلي نيكالو على موعد الوضع، وكانت تتمنى أن يأتي أخيراً، لتخلص. فقد كان حملها صعباً وثقيلاً. كانت لا تتوقف عن الابتهاج إلى ربّتها وتقديم الأضاحي لها، مع أمها وحماتها. كل شيء كان جاهزاً ومهيأً لاستقبال الإنسان الجديد. كثيرات هن من قرأن على الحامل إشارات لا تخطئ تدل على صبي، وكثيرات قرأن أيضاً ما يدل على بنت. إذاً، لا بدّ للإنسان من تعلّم الصبر. عرفت إهلي نيكالو كل ما يخطر على البال من ضروب العناية. عولج بطنها بزيت مهدئة، ودُكّ ظهرها وساقها وأخذت حمامات طقسية، وأشبعت كل رغباتها الطعامية، ما دامت لم تشته مأكولات أو مشروبات محظورة. فسمنت سمناً مفرطاً.

وقد وُضِع صبرها وصبر من حولها على محك تجربة صعبة. الأيام تمضي الواحد تلو الآخر، ولا يُسمح لها بمغادرة غرفة الولادة قبل أن تستعيد طهارتها. وطريقة الغسل هذه كانت الأفضل، لإبعاد الأرواح الشريرة عن الحامل. وتوسلن جميعهن للربة الأم، ورتلن لها الأناشيد كي تخفف من آلام ولادتها، ولم يكن الجنين قد اتخذ بعد وضعية النزول الصحيحة. تناوبت أمها وحماتها على حراسة الأميرة الحامل، مع وجود إحدى القابلات دوماً. وكلفت خادمة بالوقوف على استعداد طوال الوقت للانطلاق حال بدء المخاض، لإحضار إحدى الكاهنات، وحتى شالاً نفسها، لتلقّي فال الولادة.

جاءها المخاض عند منتصف الليل. كانت الطلقات منتظمة، لكنها خفيفة، لا تساعد على دفع طفل للخروج إلى نور الدنيا. وأخيراً تدخلت القابلة وتلمست بيدها الطريق لضبط وضعية رأس الطفل. فابتسمت لها إهلي نيكالو شاكرة. ثم سألت: «هل يمكن لكيا أن تأتي؟».

«لن يكون الأمر سهلاً، إذ عليها عندئذ أن تخضع لحمامات تطهر معقدة».

«ولكن هذا مهم بالنسبة إلي يا أمي». وتغرغرت عيناها بالدموع.

«طيب، سأرسل في طلبها. اهدئي يا حبيبي!».

دهمتها موجة طلقات أقوى، فأحاطت بطنها بذراعيها مرعوبة.

«سيكون الألم كالسكاكين يا صغيرتي. استعدي لأقصى ما يمكنك تصويره من ألم،

وسنكون نحن هنا لمساعدتك ما أمكن».

«أرجوك يا أمي، اعذريني. اعذري خطاياي في حقك. لم أكن دائماً متفقة معك في

الرأي».

«ليس هناك ما يستحق الاعتذار عنه يا حبيبتى، لا تقلقى. ستلدين طفلاً سليماً صحيح البنية. هذا هو الأمر الوحيد الذي ستركزين عليه الآن. أما الأمور الأخرى، فهي ثانوية، أو بإمكانها الانتظار».

«أماه، إن لم تكرمي الربة بهذه الولادة، فعليك أن تبليغي أكيزي حتماً، أنني لم أحب سواه. عديني بذلك!».

«طبعاً يا حبيبتى، أعدك بذلك، حتى وإن لم يستحق حبك». لم تسمع إهلي نيكالو الكلمات الأخيرة، التي لم تكن موجهة إلى أذنيها أصلاً، فقد دهمتها موجة طلقات جديدة. «ألا يفضل أن تنهض واقفة؟».

نفث القابلة ذلك بهزة من رأسها ثم قالت: «ما زال هناك وقت. الفتحة ما زالت مغلقة تماماً. إذا دعت الضرورة فسأعطيها بعد قليل شيئاً من زيت الخروع».

انقضت ساعات، سبحت خلالها إهلي نيكالو في عرقها، فاضطروا لتبديل رداثها عدّة مرات بصعوبة. كانت تكافح، محافظة على هدوئها. لقد رتبت كل شيء، فإذا أرادت الربة أن تأخذها إليها، فستقوم كيا برعاية الطفل. لقد وعدتها صديقتها وأخت زوجها بذلك أمام شهود. قبل أن تضطر كيا للعودة إلى المعبد، عانقتها وقالت لها مع ابتسامة: «أولادك الكثر ستربينهم بنفسك يا عزيزتي صدقيني!». ثم رمت لها قبلة يدوية واختفت. فلتحقق الربة رجاءها. ولكن إن لم تفعل، فإهلي نيكالو واثقة من حصول طفلها على أفضل رعاية. ولم يعد يهمها ما سيأتي، مهما كان. فاسترخت حتى جاءت موجة الطلقات التالية وانتزعت منها الصراخ رغماً عنها.

«الرأس، أرى الرأس الصغير مغطى بشعر كثيف. يا له من فأل حسن! بسرعة هيا! ساعدوني على إيقافها على قدميها».

بجهود متكاتفة أنهضت إهلي نيكالو، ثم قرفصت على الأرض سائدة ذراعيها من الجانبين على النساء. لم تنتبه إلى أن ظهرها ووركها قد دُهننا بزيت زيتون ثم بحليب بقر، كما لم تنتبه إلى دمدمة التعويذات. وبآخر ما تبقى لديها من قوة ضغطت الطفل إلى الخارج، ثم خطف الألم حواسها لفترة قصيرة.

استعادت وعيها والنساء يُضجعنها على السرير ثانية. بقيت عيناها مغمضتين. أما زالت حية؟ هل عاش الطفل؟ إنها لا تسمع شيئاً، رحمتك يا ربتي! ولكن لا، ها هو ذا صراخه. «انظري، انظري أيتها الأم إهلي نيكالو! افتحي عينيك! انظري ابنك! يا له من صبي صغير رائع!».

وضعت القابلة الصبي على بطن الأم، ريثما يتم تنظيف وجهه الصغير وجسمه تنظيفاً أولياً. أخذ يصيح بأعلى صوته، فيما أمه تضحك وتبكي في الوقت نفسه.

ظهرت شالا لتقييم شعيرة فصل حبل الخلاص. فاستدعت (غولا)، ربة الولادة والخلاص، فهذه هي لحظة تقرير مصير الوليد الجديد. وحسب العرف المتبع، وُضِعَ في يدي الصبي خنجر وسهم كي ينشأ ويصير رجلاً بطلاً قوياً. ولكن كان لا بد من محاولتين لتثبيت السلاحين في مكانيهما، فارتعدت شالا وأملت ألا يكون قد لاحظ ذلك أحد. ثم باركت الطفل أثناء عقد سرته.

أثناء العودة إلى بيت الربة تنهدت شالا عميقاً. حتى هذا الطفل، مثل كثير غيره، لن يعيش طويلاً. بأي كلمات يمكنها أن تموّ النبوءة المتناقضة كي يتحملها الوالدان؟ لا بد من انتظار نتائج غسل الفم. أما الآن فستنشر الخبر السعيد في المعبد: الولادة كانت ناجحة.

كالنار في الهشيم انتشر الخبر السعيد في القصر وكذلك في دار البلد، وفي المدينة كلها. عمّ الفرح في كل مكان وبلغ حتى غرف الخدم وأكواخ العمال المياومين. رقص أكيزي من الفرح والسعادة. لقد أنجب ابناً صحيحاً وقوياً، هكذا أخبروه، فأرسل تيممة صغيرة للوليد الجديد وسلسال رقبة ثميناً مع قرطين لزوجته، مُزِعاً أن يطلب مغفرتها حالما تغادر سرير النفاس، وأن يوليها في المستقبل اهتماماً أكبر، غير أن هذا الوعد بقي سرّاً بينه وبين نفسه. ثم قام بزيارة للملك، في مخدعه الخاص الذي بات يقضي فيه معظم الوقت مؤخراً. وكانت هناك خادمة قد زودته للتو ببعض النيذ والخبز، وخرجت حال دخول وليّ العهد. تابعها بنظراته بشيء من الاستغراب، لكن ذلك لم يشغله إلا هنيهة، إذ كان مثلهفاً على الوقوف مقابل أبيه.

«أكيزي» قال إيداندا خالي الببال «ما سبب هذا الصخب؟». ومن ضحكة سروره أدرك أكيزي المزحة. فتابع إيداندا: «هيا، أخبرني، لا تعذب أباك العجوز بالمماطلة. أهو صبي؟». عندما أكد أكيزي توقع أبيه، عانقه بسعادة وهو يقول من صميم قلبه: «الشكر لربتنا ولجميع الأرياب»، وأردف: «والأم الشابة، كيف حالها؟».

«وضعها جيد، رغم أن الولادة لم تكن سهلة. يقولون إنه فرخ جميل وقوي!». كان أكيزي فخوراً على نحو لا يوصف، فهل هناك في بيت ملكي ما هو أكثر أهمية من استمرار السلالة بوريثا! وقد تحقق هذا. بقي أكيزي لا مبالياً كعادته، رغم علمه بالأخطار الكثيرة

المحقة بالوليد الجديد وبأن الكثير من الأطفال أثناء السنة الأولى من أعمارهم يأخذهم الأرباب إليهم. أما اليوم فلا يجوز لهذا كله أن يمسه.
«ماذا تريدون أن تسموه؟».

كان هذا سؤالاً بالغ الأهمية.

«يمكن أن نسميه باسم أحد الأجداد، إيداندا أو ناپليما أو أحد الأسلاف الملكيين، مثل سينادو أو أدو أو ربما باسم أيبك أو لاشودا. أيها أنسب برأيك؟».

«أمامك بضعة أيام لتقرر، ولا شك في أن النساء يرغبن بأن يكون لهن رأي في الأمر. ولا تنس استشارة الكهنة. هل كانت شالا حاضرة؟».

«نعم كانت.»

«جيد. دعهم يحضرون لمأدبة احتفالية يا بني. سنحتفل بهذا اليوم السعيد بشكل لائق. وحتتذ سأرتاح قليلاً.»

أفاقت كيا في سريرها بغتة. أيقظتها صرختها. كانت تلهث بشدة غارقة في عرقها. همهمت بأنين واه: «أميانية، أميانية، الربة زارتنى ثانية. ولكن يا لهول عقابها لي ولنا جميعاً!». فأفاقت أميانية من نومها الخفيف أصلاً وسألتها: «ماذا رأيت؟». فأجابت وهي ترتجف: «أرجوك خذيني إلى شالا»، ونهضت بجهد من سريرها. كان الفجر قد انبج، ورأت أميانية برعب وجه كيا الشاحب وهي تقف أمامها جامدة، فجففت عرقها والبستها رداء نظيفاً ثم توجهتا إلى جناح شالا.

وشالا أيضاً استيقظت حال دخولهما. أوصت أميانية تكليف المطبخ بتحضير حساء ساخن لكيا. باركت كيا همساً وجلست قبالتها بهدوء منتظرة أن تماسك.

«الملك سيموت!». نشجت كيا بصوت جاف عميق وغريب الوقع. عرفت شالا أن الربة حاضرة، فركعت على الأرض أمام كيا وجمدت في مكانها.

«الوقت ليل. الملك يمشي نحو هاوية وهو في رداءه الملكي، ولكن من دون رموز السلطة. الرجل العقرب والمرأة العقرب اللذان يعني مرأهما الموت، يعترضان طريقه، فيتراجع، لكنهما يحيدان عن طريقه ثانية ويجبرانه على التقدم. يمشي ويخطو خطوة زائدة، فيترنح ويهوي. يسقط في حفرة عميقة، حفرتها أيد بشرية. الجدران ملساء والقاع

بعيد الغور، بحيث لا يمكن للإنسان الخروج وحده، ولا مساعدَ هناك. يغوص الملك في آلاف العقارب القاتلة، التي تفتح وتطبق مقصاتِها الهائلة، وتهجم كلها على الملك وتلدغه. فيسودّ لونه ويثقل تنفسه ويكاد يختنق، لكنه لا يدافع عن نفسه ولا يصرخ مستنجداً، بل ينتظر موته».

تسرّبت من الخارج زفزة عصفير صاخبة إلى هدوء المخدع.

استعادت كيا وعيها. انتفضت وصرخت: «ستكون نهايته مؤلمة جداً. ولكن لماذا،

لماذا؟». مكتبة الرمحي أحمد

عادت شالا فوراً للجلوس إلى جانبها، وأحاطتها بذراعيها وضغطتها إليها بركة. أشارت إلى أمينية التي عادت من المطبخ، وأسلمتها كيا لترعاها. أخذت كيا تناول ملاعق الحساء المنش من يد صديقتها مثل طفل صغير. كانت منهكة كلياً. أما شالا فقد قامت بالمهمة الصعبة ودوّنت كل ما تنبأ به فم كيا.

كان عليها أن تتحدث مع الملك ووليّ العهد، وكان لا بدّ بسرعة من تحضير طقس «عرس الروح الميتة». يجب أن يحاولوا كل شيء من أجل إنقاذ حياة الملك المهددة، وذلك تحديداً في الوقت نفسه مع الاحتفال بولادة بكر أكيزي وإهلي نيكالو. كم من الوقت بقي للملك؟

هل سيكون للطقوس أي مفعول؟ ألم يوافق الأرياب مسبقاً على الموت الذي خطط له بشر؟ وإلا ما هو تفسير أن الرجل العقرب والمرأة العقرب، حامبي الشروق والغروب، يدفعانه على الطريق نحو الهاوية؟ كان الملك مجرداً من رموز سلطته، فبقيت وراءه لخليفته. ولكن: لماذا أرسلت الربة هذا التحذير؟ هل تدافع الربة عنه؟ ضد من؟ أم يجب فهم الإعلان عن الموت كإشارة لإيداندا، كي يرتب أمور بيته بأسرع ما يمكن ويهيئها لخليفته؟ أم هكذا يجب أن تُفهم أيضاً إعاقة الشيطانين له، كتأجيل قصير لموته؟ علام يُعاقب الملك بهذه القسوة؟ يبدو أنه قد شدّ وتر قوسٍ ما أكثر مما ينبغي. على الأغلب، سيموتُ بالسم وطعنًا أيضاً، لهذا وقف العقربان. هل يجب عليها حقاً إخبار الملك بكل شيء؟ لا، لا يجوز لها ذلك. ولكن أغلبه.

قيل العصر التمسّت شالا مقابلة الملك. نهض من كرسيه المريح ليستقبلها ويحييها، فتهيأ لها أنها تقف قبالة رجل عجوز. كان شاحباً، وبدت بشرة وجهه مريضة ومبقّعة. لماذا لم يخبرها أحد بذلك؟

عرض عليها إيداندا مكاناً للجلوس وشراباً مقويّاً، غير أنها ارتاعت عندما انتهت إلى

بطء حركة الملك والجهد الذي بذله للجلوس ولمدّ يده للإمساك بالقدح. وللحظة خافت أن يسقط القدح من يده، إذ بدا وكأن يده لا تستجيب له. ما الذي كان يجري هنا يا ترى؟ ابتدر الملك الكلام قائلاً: «أيتها العزيزة شالا، إنه لمعاً يفرح قلبي أن تأتي شخصياً لتباركي لي بولادة حفيدي الأول، وأنا شاكر لك ذلك. وأنا كلّي الامتنان للأرباب لكون استمرار عائلتي قد صار مؤكداً. وأنا واثق من أن هذا الوليد لن يكون آخر ما سينجبه هذان الزوجان القويان».

كاد الغثيان يدهم شالا ألماً، لما عليها أن تخبر به الملك. فالإشارات ذات دلالات سيئة، ليس بالنسبة إليه فحسب، بل أيضاً بالنسبة للطفل وللمدينة. مدّت يدها إلى قدحها وشربت لتموّه ترددها، فيما ذهنها يشتغل بحمي الغليان. فماذا لو كانت مخطئة؟ ماذا لو كان ما جمعته من الدلالات غير كاف؟ أليس من الخطأ أن تستند فقط على نبوءات كيا؟ أما كان على الربة أن توحى لها تحديداً، بعد أن تجنّبتها كيا طوال شهور؟ ألا يحتمل أن روحاً شريرة ما تنصب لها شركاً؟ لا، لا يمكنها أن تبوح بشيء الآن، قبل أن تتأكد إلى درجة اليقين. ولكن عليها أن تعرف ما الذي يُثقل على الملك، وكم مضى على اعتلال صحته. فأخبرها بأمر الساعي الذي أرسله إلى شويلوليوما، وعن تهوره وإخبار الملكة بلتوم بذلك. كما أخبر شالا بأمر النزاع مع أكيزي، وبمشاكله مع بعض أعضاء مجلس الأعيان، وتخوفه من وجود أكثر من خائن بينهم، وبقلقه بشأن كيا. كثير من هذه الأمور كانت شالا تعرفها أو أنها قد حَمَّتْها، غير أن بعضها الآخر كان جديداً، فارتاحت لقدمها، آملة ألا تكون قد تأخرت كثيراً في ذلك.

«قل لي إيداندا، منذ متى تشعر بنفسك متوعكاً؟».

«لا يمكنني تحديد ذلك بدقة، ولكن عندما أفكر في الأمر أقول إنني منذ عيد رأس السنة، لم أعد بعافيتي المعتادة. لقد أصبح كل شيء تدريجياً أكثر مما أحتمل أ». وضحك بارتباك.

«صف لي كيف يتبدى مرضك، أرجوك!». ألحّت شالا.

«دعك من ذلك، لا أكثر من نوبات وهن بسيطة»، قال الملك متهرباً.

«أرجوك إيداندا!». أصرّت شالا.

«في البداية لاحظتُ شعوري الدائم بالتعب والوهن. فما إن استريح ثم أشتغل قليلاً حتى يعاودني الوهن العام. ثم تراجع هذا كله لفترة قصيرة، وأملت بأنني قد تجاوزت

الأمر. لكنني الآن أشعر بالوهن والكلل نفسه، بل ربما أشد. ولأجيبك بصدق، شالا، تمر بي لحظات أشعر فيها بأني مشلول. يداي وساقاي لا يستجيبون لي، أفقد الإحساس بهم. وبعد مدة يزول هذا الشعور وأعود إلى طبيعتي».

«أوجاع؟».

«في الحقيقة لا».

«هل لاحظت إن كانت نوبات الوهن تأتيك في أوقات معينة؟».

«ما قصدك بذلك؟».

«مساء فقط أو بعد الأكل. أتغيب في الليل تماماً؟ هذا قصدي».

«دعيني أفكر. غالباً بعد العصر وقيل المساء. لا أستطيع أن أحدد لك بدقة».

«ماذا تأخذ ظهراً وبعد العصر؟».

«شالا، أتشبهين في شيء؟».

«الواقع أن لون بشرتك ووضع جلدك يقلقاني. يحتمل وجود مشكلة في الكبد، أو في

المرارة».

«هكذا إذاً، كدت أظن..».

«ماذا ظننت؟».

«لا، انسي ما قلته، كانت مجرد فكرة عابرة».

«يا مليكي، كل شيء مهم، عندما يتعلق الأمر بك أنت تمثل قطنا. إذاً، ماذا ظننت؟».

«أن الأمر لا يتعلق ربما بمرض أرسله الأرباب، وإنما من صنع البشر».

«من أية ناحية؟».

«يبدو لي الأمر الآن غير معقول تماماً ونحن نتحدث عنه، ولكن عنِّي في بالي أن يكون

السبب سمّاً».

لم تبدِ شالا أي تعبير على وجهها، مع شكها في الأمر مثله. ثم هناك حلم كيا! آه أيها

الأرباب!!

«من يضمن لك الشر إلى هذا الحد، والأهم من بوسعه تجريعك السم؟ إذ لا بد أن

يُمزج في طعامك أو في شرابك، كهذا الذي نشره الآن. ولا سيّما أنك لا تتوجع. فمسكّن

الآلام والمُنوم قد يتسببان في آلام رهيبية إذا زادت الجرعة عن عيارها».

«عزيزتي شالا، لا بد أن أفكر في هذا كله بهدوء. طبعاً لي أعداء. في المجلس هناك خلافات حول الحليف المستقبلي لقطنا».

«وصلني خبر ذلك».

«وهناك مسألة كيا. والغزوات على القوافل ونهبها، التي لم تكشف من وراءها بعد. هناك أكيزي وتعتته برأيه. كثير من الأمور تتداخل معاً. ولكن ليس بينها في تقديري ما يتجاوز المألوف من المشاكل، لدرجة التفكير بالتخلص مني بهذه الطريقة. لا، لا. أعتقد أنك محقة، بأن العلة في الكبد أو المرارة، وهذا ما يسبب سوء حالي».

«ليس عليها أن تترك الملك على اعتقاده هذا؟ على الأقل إلى أن تتوضح لها الأمور؟ هل تحدثت في الأمر مع أحد ما؟». استفسرت شالا.

«لا، ليس بصورة مباشرة. لكنني فكّرت عدّة مرات بأن أطلبك، ولكن»، وأشار بيده أسفاً «كانت الوعكة دائماً تزول. قد يكون أحدهم لاحظ أنني لست بخير: كيا، أكيزي، إيست، الملكة. ألا أجد عندك عشياً فعلاً لي؟».

«سأهتم بالأمر فوراً. وسأعطي تعليماتي حول ما يجوز وما لا يجوز أن تأكله وتشربه في الأيام القادمة».

«يفضل أن ترتبي الأمر مع الخادمة التي تخدمني دائماً».

«حسناً، أرسلها إلي. كان الأرباب في عونك يا ملك قطنا».

حاولت شالا تذكّر الطقوس التي يمكن اللجوء إليها لوقاية الملك. كانت لا تزال مبلبلة تماماً. لو أنها تعرف فقط، أعليها مكافحة خلل في عضو داخلي، أم ضد سمّ تسبب في مرض الملك؟ بعض الدلائل تشير إلى الاحتمال الثاني، وخاصة رؤيا كيا. أي نوع من السموم هو يا ترى؟ سمّ ينهك الجسم ويسبب شللاً جزئياً، ولا طعم له، أو يمكن تمويه طعمه بالبهارات. في الطعام؟ في الشراب؟ التعب والغثيان يشيران إلى سمّ عشبيّ، والشلل الجزئي يحيل إلى سمّ الأفاعي. يستحيل، ولكن من دون معلومات إضافية لن تجد الترياق المضاد. كان عليها دفعة واحدة أن تدقق في أمور كثيرة. لا بد أولاً من فحص مسببات وضع الملك. ثم لا بد من إيجاد الطقس الصحيح المؤدي إلى وقاية الملك، ولكن قبل ذلك لا بد من استشارة الربة حول جواز استخدامه. فمن المسيء جداً لحياة الملك بعد موته أن تتصرف ضد إرادة الأرباب. بماذا تبدأ؟

انزعجت شالا لانقطاع سلسلة أفكارها بسبب وصول خادمة الملك، التي كانت على درجة من الوقاحة أن طلبت حضور شالا إلى بوابة بيت الربة، فقد رفضت أن تدوس الحرم المقدس رفضاً قطعياً. طيب، لن ترهقها بضع خطوات حتى البوابة. على الطريق فكّرت شالا بما يجب على الملك تجنبه. كان الأمر محيراً جداً: فما هو ضار لمرض الكبد والمرارة كالزيت والحليب الدسم يُعدُّ مفيداً في حال التسمم. فماذا تنصح؟

مغليّ البصل والصعتر وورد السياج، لا يمكن أن يكون ضاراً، في كلا الحالين. قليل من اللحم، فواكه طريه، خبز غير طازج. وهذه كلها محاولات غير فعّالة، كانت تعرف ذلك. توقعت شالا أن تلقى خادمة وقحة وفضّة بانتظارها، غير أنها وجدت فتاة ناعمة، تبدو خجولة مطيعة. أنصتت إليها الخادمة بانتباه، وكررت ما سمعته بأدب، وإن بصوت يكاد لا يُسمع. استجوبتها كبيرة الكاهنات بدقة عن عادات الملك في طعامه وشرابه، ومع ذلك لم تحصل منها على معلومات كثيرة. إنه يتناول الوجبات المعتادة، غالباً مع أفراد العائلة. لكن شالا كان يهمها أن تعرف ما إذا كان يطلب شيئاً بين الوجبات. نعم، أحياناً، بعد الظهر، فواكه مجففة. وهل هي التي تحضر دائماً هذه الوجبات؟ فجاءها الجواب: نعم، بلا استثناء تقريباً. وهل هي من قطنا، ومنذ متى تشتغل في القصر؟ فأجابت الفتاة بأن عائلتها تخدم الملك الحاكم في قطنا منذ أجيال. كان هلع الخادمة يزداد مع كل سؤال، وعندما صرفتها شالا كان كثفاها يرتجفان. لم تستطع شالا أن تتبين ماهية الخادمة. فلقد بدت لها مطيعة جداً، تبجل الملك وكأنه ربّ، وتلتي طلباته بورع. ومع ذلك تصرفت مدعية الخجل والخشية من أن تدوس بيت الربة. وهذا كان مستغرباً.

«عذراً يا كبيرة الكاهنات!». قالت كيا وهي تقترب من شالا.

«ما الأمر؟».

«عمّ تحدثت معها؟».

«إنها خادمة عند أبيك».

«أعرف. وكانت في خدمة أمونحوتب طوال إقامته في قطنا. كانت هي التي..».

وسكتت كيا، لكن شالا عرفت فوراً إلّام تلمّح.

كان هذا لافتاً للانتباه جداً أمونحوتب. إنه لم يخطر أبداً في بالها.

«تعالى معي، لن نبقى واقفتين في الباحة». عادت إلى مخدع شالا، حيث أخبرتها عما

دار أثناء زيارتها للملك. ارتعبت كيا بشدة.

«أيها الأرباب! أردت أن أخبرك بذلك فوراً. كان ذلك قبل أسابيع عندما تحدثت آخر مرة بالتفصيل مع أبي. قبل وصول هذا النبأ التعيس. لماذا لم أفعل ذلك؟ صرفني من عنده لأنه كان يشعر بوهن وعجز. ليتني جئت فوراً».

«علينا الآن أن نهتم بما يمكننا عمله، وبأسرع ما يمكن».

«ماذا تريدان؟ تعرفين جيداً أنه لا يجوز لك أن تأتي إلى هنا، أيتها الغيبة!».

«اعذرنني سيدي، ولكن كان لا بد من أن آتي. إنها تعرف كل شيء!».

وأخذ جسمها كله يرتجف.

«من هي؟». جاءها السؤال بلهجة فظة متعجرفة.

«كبيرة الكاهنات».

«شالا؟ وما أدراك أنت بذلك؟».

«استدعني إليها واستجويني سؤالاً وراء آخر: منذ متى أخدم في القصر، ماذا يأكل الملك وماذا يشرب، وإذا كنت أنا من يأتيه بكل شيء وأسئلة من هذا القبيل. وأمرني أن أحضر له مغلي أعشاب».

وازدادت الخادمة اضطراباً.

«تماسكي يا بنت. وإلا أنت تعرفين ما ينتظرك! هذا كله لا معنى له. لقد لاحظوا أن صحة الملك متراجعة، ولذلك أرسلوا في طلب من يفهم في الطب. سبق أن قلت لك: عليك أن تحسبي حساب أن يطلب الملك المساعدة! هل نسييت؟ انظري!».

«لم أنس يا سيدي، لم أنس. قلت لي ذلك». وكانت على وشك أن تبكي.

«أرأيت؟ كوني مطمئنة إذاً. تعالي يا صغيرتي. لا تتصرفي بهذا الشكل! قلت لك تعالي. أنت ما زلت عصفورتي الصغيرة، أليس كذلك! لا تنسي أبداً من هو سيدك، وإياك والخطأ، وإلا..».

ارتعشت خادمة الملك.

«اسمعيني جيداً الآن! أوقفي السم لثلاثة أيام، واضح؟ بعد ظهر اليوم الرابع ضعي له كل ما في الحنجور. عليك أن تدبري ذلك وحدك، هذا شغلك أنت. لا يجوز أن يلاحظ

أحد أي شيء. بعد ذلك تنتهي خدمتك. غادري القصر حسب التعليمات. هل فهمتِ ما قلتِ؟».

«نعم، سيدي!».

«اسمعي يا حمامتي! أحب أن أسمع بوضوح، ما إذا كنتِ قد فهمتِ ما قلتِ». وأمسك تيرو الفتاة من ساعدها بقسوة.

خفقت عينا الفتاة وقالت بصوت أعلى: «نعم، سيدي!».

«أترين، ليس الأمر صعباً. انصرفي الآن، ولا تعودي إلا عندما أرسل في طلبك يا نعجة. ولا تقلقي بشأن أمك!».

وفيما أسرعت مغادرة سمعت ضحكه المدوي.



أمعنت شالا التفكير فتوصلت إلى أن الأجدى هو استشارة العرافة، وبعد ذلك سيكون هناك يقين كحدٍ أدنى، ولا سيما أن الوقت يلح. خلال أيام قليلة سنبدأ في القصر الاحتفالات بولادة الطفل. إذاً، لم يتبقَّ سوى يوم أو يومين، والأمر يحتاج إلى تحضيرات متعددة ضرورية. قبل كل شيء لا بدّ من الحصول على حيوان مناسب للقربان. ثم انتقت شالا مساعداتها. وبعد أن ترددت بادئ الأمر، أضافت كيا إليهن، رغم أنها ما زالت مبتدئة وأن الأمر يتعلق بأبيها. ولكن ألم توحِ الربة بتحذيرها الجلي الأول إليها؟ ثم إنها ستكون مجرد مساعدة، ولن تلمس القربان.

طُهرت قاعة القربان في الحرم من كل الأرواح والشياطين الشريرة التي يُحتمل أنها قد تمكنت من التسلل إليها. أحست شالا بطهارة القاعة التي كانت غارقة في دغشة الغسق، عندما دخلتها مجموعة من الكاهنات والمساعدات بعد أخذ حمامات التطهير المنصوص عليها. كان على المذبح أوعية مملوءة بماء مقدس ونبذ وقمح مطحون. تصاعدت من مجامر البخور أدخنة عبقة مدوّخة. تقدمت شالا إلى المذبح ورفعت صوتها قائلة: «بتقدمنا هذا الحمل يا بيليت إكالميم، نأمل الفوز برضاك، كي تكرمي وتكشفي لنا أموراً من المستقبل، عسى صفاتك الألوهية تنقل إلينا عرفتك في أعضاء هذا الحيوان».

أعيد نثر صمغ السرو على المجامر، فانتشر الدخان في القاعة مثل الضباب. قامت

كاهنتان بسكب جعة وشعير هدية في الصحفة البرونزية المليئة بالفحم المتقد، وعندئذٍ أدخل الحمل الأبيض المختار بروية إلى القاعة.

رفعت إحدى الكاهنات ذراعيها متوسلة وقالت:

«ألتمس إليك يا ربتي أن تقي مكان العرافة هذا من أن يمسه أي نجس!
وأن تقي حمل القربان هذا من أن يكون غير صالح أو ناقص!
وأن تقي هذا الحيوان عند ذبحه من أن يؤثر رداءً قربانٍ دنسٍ أو طعاماً أو شراباً
دنسٌ تناولته إحدى الكاهنات، على مفعول العرافة، فيحجب رؤية المستقبل!
وأن تقي فم كاهتك من أن يُفلق الجواب منه على نحو متسع!».

والآن جاء دور شالا لتطرح السؤال. كانت مستغرقة تماماً وسمع صوتها سماوياً جلياً:

«إني أسألك، بيليت إكالميم أيتها الربة الكبيرة، ما إذا كانت قطنا وملكها سيكونان

سعيدين؟».

دوى في القاعة صوت صنج عميق، فيما قامت إحدى كاهنات المعبد بقتل الحمل بطعنة سريعة على شريان الرقبة. وحلّ الصمت بانتظار انتهاء التزييف. ثم حملت كاهنة أخرى الحمل الميت، وفتحت جسمه بمشرطها بحركاتٍ خبير. خلال ذلك أحرق المزيد من صمغ السرو، وشُكِب مزيد من الجعة والشعير. اقتربت شالا من الحيوان وعينت بروية وضع أحشائه. فصلت بعناية الكبد، مقر الحياة والروح، حيث تركت الربة آثارها، وأخرجته. بعد انتهاء نزفه غُسل الكبد بماء مقدس، وعندئذٍ حملت كبيرة الكاهنات الكبد بيدها واتجهت نحو كرسي العرافة المرتفع قليلاً، فركع الجميع. إلى يمين شالا ويسارها جلست كاهنتان لتدوّنا كلمات العرافة، واتخذت كاهنتان أخريان موقعيهما إلى جانبيها. ناولتها الأولى صحفة لتضع عليها الكبد، بحيث يكون الجانب الكبير باتجاه الشرق. عاينت الكاهنات الكبد بعناية صامتات.

«قَبَّة الكبد تماثل رأس أسد، هذا يعني أن الخدم سيتسببون في عذاب السيد».

«انظروا، إنها تشبه أذن أسدٍ مشرومة. وهذا يعني حسب النصوص أن الأرباب سيتخلون عن الملك على الحدود».

«الجانب الصغير يشبه أذن خروف أو لسان ثور، أي أن أتباعاً غير مخلصين أو أعداء ينوون بالملك شراً».

الملاحظات اللاحقة لمراقبات القربان الثلاث لم تكن مفهومة.

جمدت شالا في مكانها. شحب وجهها وتخشب. أنصت إلى داخلها، كي تتمكن في استغراقها من تأويل كلمات الربة على نحو صحيح.

من وراء ستارة المذبح تنهى نشيده رتيب الوقع، تتناوب فيه أصوات الكاهنات. أخيراً فتحت شالا عينيها، بدت نظرتها قادمة من مكان ناءٍ، من الطرف الآخر للعالم.

«لقد شُيّد تمثال ضخّم يبلغ ارتفاعه غيوم السماء. رأسه من الغرانيت، جسمه من الحجر الرملي، وأقدامه من فخّار. عندما تزلزل الأرض تحت أقدامه الفخارية وتعصف الرياح حول رأسه الغرانيطي، سيفادر الملك إلى أسلافه».

مزقت صرخة الصمت اللاهت، فغطت جميعهن وجوههن من الرعب، وفي اللحظة نفسها تداعت كيا وشالا وسقطتا معاً.

بعد مرور سبعة أيام على الولادة غادرت إهلي نيكالو مخدع النفاس في القصر. وأخضعت الأم الشابة لجميع إجراءات التطهر الضرورية. صحيح أن آثار الحمل لم تكن قد زالت بعد، غير أنها كانت سعيدة بأن تكون بين الناس وينظرات إعجاب الجميع. وقد أولاها والد الطفل اهتماماً كبيراً عوّضها عن كثير من كربها.

اجتمع الكل في القاعة الكبرى منتظرين. ومن قاعة العرش دخلت إهلي نيكالو حاملة الطفل على ذراعها. عند بوابة حرم بيليت إكالم في القصر كان في انتظارهما شالا مع سائر الكاهنات والكهان الذين باركوهما. ثم خطت إهلي نيكالو مع الطفل إلى وسط القاعة، حيث كان أكيزي بانتظارهما. وضعت الصبي الذي بدا غير آبه بهذا كله، على الأرض العارية أمام أكيزي، الذي انحنى أمام أعين الجميع ورفع عاليًا، وبذلك اعترف بأبوته للطفل. ومنذئذ بات الثلاثة عائلة، من الناحية القانونية أيضاً. وبذلك ارتفعت مكانة إهلي نيكالو، فهي لم تعد زوجته الرسمية فحسب، بل أم ابنه أيضاً. ولم يعد بإمكان أكيزي من بعد أن يتخلى عنها من دون سبب وجيه. لكنها في تلك اللحظة لم تفكر بهذه الأمور. كانت سعيدة، كما لم تكن في حياتها قط.

دار الزوجان مع الطفل حول المجرم الكبير، لا لكي يظهره رمزياً بالنار الموقدة فحسب، بل أيضاً ليصبح عضواً في العائلة والعشيرة والمدينة ومملكة قطنا. انتشرت ضجة الحماس في القاعة، فارتعب الصبي من الضجيج المفاجئ وأخذ يبكي، لكنه سرعان ما هدأ عندما أنصت الجميع، كي لا يفوتهم النطق بالاسم.

«ليكن اسمه أموت بان»، أعلن أكيزي بصوت عال.
وكان لا بدّ من الاحتفال بذلك.

كان إيداندا سعيداً لتمكّنه قبل العصر من الانسحاب من صخب الاحتفال، وكان يشعر منذ يومين بشيء من التحسن، أضيفت إليه فرحة الاحتفال، فشعر بنفسه مبسوطاً وراضياً، لكنه لم يرغب في التماذي، فقد آن أوان ساعة الراحة. كانت بلتوم منشغلة بلا انقطاع بالوليد الصغير، وكلها فرح ورضا، بينما كان الوالدان يتلقيان التهاني والهدايا، محاطين بأفراد العائلة الكثر. لن يتبّه أحد إلى تغيّبه القصير، فلوح بيده لكيا عند تقاطع نظراتهما وانسحب بهدوء، بأن مرّ عبر قاعة المكتب والباب السري للوصول إلى معتزله الأثير على قلبه. مساءً سيتحدث بالتفصيل مع كيا، فقد اتفقا على ذلك.

شعر بالحر، فمال على مضجعه، نصف جالس نصف مستلقٍ، وأخذ يهويّ طالباً البرود. انتبهت خادمتها المخلصة إلى عودته، فظهرت في إطار الباب وعرضت عليه شرباً بارداً منعشاً، فشكرها راغباً. المسكينة، المتحفظة دائماً، الكتومة دائماً. ونتيجة حذرهما وتخوفهما الباديين جلياً، كان بوسع إيداندا تصور مرارة التجارب التي مرت بها هذه المسكينة.

شرد قليلاً. هبت نسمة عبر الغرفة ذات الإنارة الضعيفة. ترك العنان لأفكاره كي تسرح على هواها. وربما يكون قد غفا قليلاً، فقد نَقَزَ عندما دخلت الخادمة ثانية. لقد جاءت في وقتها لتطفي عطشه. قدمت له قدحاً كبيراً يسبح على سطحه بعض الثلج. عصير رمان مع منكهات منعشة، لم يتمكن من تمييز روائحها العابقة. شرب بنهم جرعات كبيرة.

«ماذا في الكأس إضافة إلى عصير الرمان؟». سأله.

«روح وردة السياج»، أجابت، «كبيرة الكاهنات قالت إنه..».

«نعم، نعم، هذا صحيح. هل أحضرت هذا القدح فقط، أم أكثر؟».

«هناك المزيد في هذا الإبريق يا صاحب الجلالة».

«أشكرك. دعيني الآن وحدي يا بنتي».

استلقى الملك على مضجعه وأغمض عينيه.

راقبت الخادمة لبرهة بهدوء، ثم قامت ببعض الإشارات باتجاهه وانحنت مصلبة ذراعها وغادرت الغرفة.

عندما استيقظ ثانية كان الغسق في بدايته. أراد النهوض، لكن ألماً واخزاً أعاده إلى الوسائد. أحس بحرقه شديدة في حلقه. مد يده بصعوبة إلى القدح، فوجده فارغاً، ولم يكن بمستطاعه الوصول إلى الإبريق. حاول أن يتذكر. كان يوم الاحتفال بولادة أموت بان. كم نام يا ترى؟ أين الخادمة؟ من أين هذا الألم؟

سمع أصواتاً من وراء الباب. أحدهم قال مؤكداً: «الملك لا يريد أن يزعجه أحداً». هو الذي طلبني إليه. وسأدخل الآن!».

ابتسم الملك رغم ارتباكها وألمه. كان ذلك صوت كيا.

«أبي»، قالت عندما رأته مستلقياً كالعاجز، «ما بك؟».

هز إيداندا رأسه بضعف ولحس شفثيه.

«أنت عطشان؟ انتظر، سأحضر لك ماء طازجاً بسرعة».

عادت إليه بلمح البصر، جلست إلى جانبه ممسكة بالقدح على شفثيه، فشرب ببطء، وقد صعّب عليه البلع جداً. كان يحس بنار في حلقه. حاول أن يتنحّج، لكن ما صدر كان مجرد حشرجة.

«هل أحضر شالاً؟ ما به حلقك؟ هل عندك سخونة؟».

هز الملك رأسه. الأفضل هو النوم. ثم همس لها: «تعالى غداً باكراً يا صغيرتي. أنا الآن مهدود، لست قادراً على الكلام معك. تعالى باكراً!».

«كان الأرباب معك يا أبي الحبيب!».

غادرت كيا الغرفة وهي في غاية القلق. لا يمكن لكلمات الربة أن تتحقق بهذه السرعة! سألت عن الخادمة التي تحدثت شالاً معها. لم يرها أحد منذ ساعة، لكنها قالت قبل ذلك إن الملك لا يرغب في أي إزعاج. ليس في الأمر ما هو غير عادي، سوى أنه قد جرى اليوم تحديداً. لكن الخدم لم يستغربوا الأمر. أمرت كيا الخدم بتحضير شراب مسكن للحلق ويأحضار وجبة خفيفة للملك. وأمرت بضرورة أن يبقى أحدهم قربه ليهتم بمضجعه ويهوي له ويشرف على راحته. وإذا ساء حاله فليطلبوها من بيت الربة بأقصى سرعة. هذه المرة توجهت كيا إلى شالاً مباشرة وأخبرتها بكل شيء.

ناوشت الملك أحاسيس مقلقة، ونأى عنه النوم. اعتدل قليلاً وتمكّن بصعوبة من شرب جرعة ماء. كان مذاق الماء لذيذاً جداً، رغم الحرقه في حلقه. ورد النسياج، أكان

هذا ما لم يناسبه؟ لكن شالا هي التي نصحت به، وهي تعرف ما تفعل. شالا! لا بد من ترتيب أمور كثيرة معها، ومع أكيزي كذلك. كيف ستكون الحياة بالنسبة إلى إيست بعد أن يموت؟ وكيا؟... هداً من روعه، فكيا ستكون في المعبد في حماية جيدة. ولكن إيست! بلتوم ستحترم رغباته. يجب أن يجعلها تعده بذلك. لماذا لم يعد الساعي من حتوشا؟ ربما لم يصل إليها مطلقاً. هل اصطادوه على الطريق؟ هل أصابه مكروه؟ أمور كثيرة قد تحدث. كل هذه المشاكل بدأت بزيارة أمونحوتب الغريبة. هذا الشيطان. اختلطت الصور في رأسه. نَقَز. مَنْ في الغرفة؟ لا، لا يوجد أحد. ظن للحظة أن أباه يقف أمامه. أيها الأرياب، احموا قطناً! ما هذا الضجيج؟ أيحلم ثانية؟

لكن هذا صوت تيرو. ماذا يريد هذا الآن؟ لم يكن يريحه أبداً أن يبدو في حال سيئ أمام سلفه. شدّ عزمه وتجلّد عندما دخل عليه خادمٌ ليعلن قدوم الشريف تيرو الذي يصر على الدخول، ليعتذر من الملك.

يا للعجب، هذا خبير سار. لم يكن يتصور طوال مدة حكمه أن يتصرف تيرو بولاء. كان الوقت متأخراً في واقع الأمر، فقد حل الظلام في الخارج، وهواء الليل البارد يهب على الغرفة. ولكن في سبيل الصلح لن يكون الوقت أبداً متأخراً. أشار بيده أن أدخله. ساعده الخادم على أن يعتدل ويجلس، ورتب له وضع رداءه ثم أذن للضيف بالدخول.

لم يدخل تيرو وحده، بل في صحبته شيخ بدو، لم يسبق لإيداندا أن رآه. ومن المدخل قال تيرو من دون التحيات الرسمية:

«يا صهري إيداندا، لقد انحل لغز الغارات على القوافل! تفضل، هذا الشيخ المحترم يمكنه أن يعطينا كل المعلومات اللازمة.»

تقدم الرجلان معاً. أراد إيداندا أن يقول شيئاً، لكن حلقة ازداد ورمأ فصار الكلام أصعب.

«ألا تستطيع الكلام يا مليكي؟». سأله تيرو وأضاف: «جيد جداً.»

ظن إيداندا أنه لم يسمع جيداً. كان جانساً هناك على مضجعه، عاجزاً، غير قادر على الحركة ولا على الكلام. ثبت نظره على تيرو. تحولت الظنون إلى يقين. وفيما شفتاه تشكلان لعنة تشمل المجرمين معاً، استل شيخ البدو من تحت عباءته خنجرأ ذا نصل ضيق وطويل، وهمس:

«عليك أن تطعن من تحت بشكل مائل.»

وضع تيرو رأس الخنجر أسفل صدر إيداندا. كانت سحنته تشبه شيطاناً مرعباً. وما قاله لم يسمعه إيداندا، فقد انغرز الخنجر في قلبه دون أية مقاومة. مدّاه معاً كأنما ليرتاح، وغطياه بشرشف ملون. غادر تيرو الغرفة أولاً، وبعد فترة غادر البدوي بعد أن أطفأ السُّرج.

استيقظت كيا في الوقت نفسه مع أميناية. كان جو المخدع حاراً، وسكون الموت يهيم في الخارج. ثم سمعتا هزيماً مرعباً. من الساخط يا ترى؟ إيل أم يا أم عشتار؟ اعتدلت الفتاتان في سريريهما.

telegram @ktabpdf

«ما معنى هذا؟».

«هذه هي الإشارة، وفوراً ستزلزل الأرض»، قالت كيا «يجب أن نهض فوراً». لفتتا نفسيهما برداءيهما.

«هيا، لنخرج من هنا. الأفضل إلى الباحة، هيا نوقظ الأخريات».

أسرعتا إلى المخدع المجاورة وصاحتا بالأخريات للخروج. ثم جاءت الرجة الأولى. كانت خفيفة كالشعور بميلان قليل على سطح قارب. دوت صرخات في الحرم. وهبت ريح في الخارج.

صاحت كيا: «بسرعة إلى الباحة أو إلى الطريق». ثم شقت طريقها إلى شالا. كانت تعرف أنها أرادت أن تمضي الليل عند قدمي الربة راجية العون للملك ولقطنًا.

«احفظي شالا يا ريتي!». همهمت كيا مهرولة: «لا تتخلي عن خادمك!».

كانت شالا متمددة كالميتة. من دون مراعاة الطقوس الواجبة، اندفعت كيا نحوها ووضعت أذنها على صدرها. القلب يخفق بقوة. بكت كيا ارتياحاً وأخذت تنهزها وتنهزها. عندما فتحت شالا عينها كانت الأرض تهتز.

«إيل ساخط»، قالت كيا «هيا انهضي!».

بطء استعادت شالا وعيها.

«إيل ساخط؟ هل وقعت الواقعة إذا؟».

شدت كيا شالا وراءها ببساطة نحو الباحة، حيث تجمعت النسوة كلهن. كانت شالا قد تيقظت تماماً، فجاء سؤالها الأول: «أينقص أحد؟». ثم تلفتت حولها. بدا على ضوء المشاعل أن الأبنية من حولها لم تصب بأي أذى بعد، فلا حجارة متساقطة ولا حرائق. تكرر الهزيم والأنين، ولكأن الجدران تتأوه تحت ثقل ضاغط. اشتد هبوب الريح.

خرجت كيا إلى الطريق والقلق يتأكلها لترى ما إذا كان القصر أصيب بأضرار، أو ما إذا تجمع سكانه على السطح. صاحت بها شالا لتعود، ثم قالت: «لنبقَ معاً. هيا إلى الحديقة، هناك سنتظر الفجر. ولنأمل حتتذ أن تهدأ أمانا الأرض. ابتهلن للأرباب طلباً للرحمة، صلّين لإيل وعشتار، لياو وييليت إكالم!».

يبدو أن الدعوات الصادقة قد استجيبت، إذ توقفت الهزات، ولم تتشقّ الأرض. كما خمدت الريح، وبدت السماء صافية بنجومها المتلاثلة. بعد فترة قصيرة سمعن نداء أول طائر ليلي، وكان ذلك إشارة الخلاص.

«ربما لم تكن قطنا المقصودة»، همهمت شالا «أم أن إيل قد أرسل نذيره؟ نذير آخر؟ أم إنذار؟ أيأ يكن فهي علامة سوء».

كشفت ضياء النهار عن بعض الأضرار داخل المعبد وخارجه. لن يصعب إصلاحها، وها هو الأجر الطيني قد صمد ثانية.

كبر الأمل في قلب كيا، فالهزة الأرضية كانت خفيفة، وتلك الريح لا يمكن أن تسمى عاصفة. وإذا ليست هي الإشارات المرتبطة بالملك، ولا بدّ أن لها تفسيراً آخر. وهناك، حيث كان أثر الزلزال شديداً، في أمور أو الألاخ أو في أي مكان آخر، هناك كان هدف رسالة الأرباب. ومع ذلك كانت تجربة صبرٍ قاسية، أن تنتظر حتى السماح لها بزيارة والدها. لقد منعها شالا من دخول القصر قبل أن تُفتح بواباته الكبيرة، وحتى إن كانت شديدة القلق على والدها. مهما كان الأمر مريعاً، لم يكن بوسعهن أن يفعلن شيئاً. فمن القصر لم يصل إليهن أيُّ خبر، والخادمة تلك لم تظهر. الأمل والانتظار. إذا كان تأويل العرافة صائباً، فقد تأخر الوقت وانقضى الأمر.

كان حراس القصر ما زالوا يتشاءمون، وكان كل شيء هادئاً، سوى بعض الأصوات المألوفة من جناح المطبخ. كانت الأضرار هنا أقل من المعبد. الواضح أن الجميع عادوا ليناموا بعد أن هدأت الأرض. لم تبال كيا بهذا كله. كانت تأمل ألا يكون وصولها مبكراً على نهوض أبيها. كانت تأمل أن تعانقه فوراً، وأن تجري معه الحديث الذي طلبها من أجله، فقد كان الأمر يهمه جداً. ولكنها كلما اقتربت من معتزله ازداد انقباض قلبها. ماذا قالت شالا؟ إذا سخط إيل، فقد انقضى الأمر!

لم تر أحداً في غرفة المعيشة ولا في ردهة المعتزل. ربما جعل الزلزال الخادم يهرب ولم يعد.

الشكر للرب! ما زال الوالد نائماً! تقدمت كيا منه بهدوء. لكنه لم يتحرك، ولم يتنفس.
«أبي!». انحنى فوق مضجعه، بللت أصبعها ووضعت فوق فمه. أحست بنفحة نفس
تخرج من فمه، أم تراها مخطئة؟
«أبي!».

وانتهت إلى البقعة المبلولة على غطاء السرير. حمراء. رفعت الغطاء واكتشفت
الخنجر. لبّت أول حافز ألم بها وسحبت السلاح من جسمه، فنزف الجرح بشدة. في تلك
اللحظة فتح إيداندا عينيه، واعتقدت كيا أنها لمحت ابتسامة على فمه، فانهمرت دموعها.
أمسكت بمنديل وحاولت إيقاف التزيف دون أن تفارق عيناها عينيه.
«يا نور عيني!». همس الملك.

حاول أن يقول شيئاً آخر: «تالزو يعرف، أن ت...»، هذا ما فهمته. بذل الملك جهداً
جباراً ليبدأ الكلام من جديد: «أ...». ولم يخرج من فمه أكثر من ذلك. وبعد لحظات:
«عليك بالمجرمين!». ومات صوت الملك.

أضواء وجهه لهنيهة، وعندما انطفأ كان الدم الأخير قد نزف من الجرح. صار ملك قطناً
على الدرب إلى أسلافه.

وجدت شالا كيا تتحب على صدر أبيها. لقد تحقق كل ما جاء في النبوءة. ولكن على
الرغم من الألم الذاتي كان لا بدّ من برودة الأعصاب، فهي مدينة للملك بذلك. سحبت
كيا بلطف وعزم، وأغمضت عيني الميت.

«اجلسي هنا، إلى جانب الملك، كيا. ستقوين الآن بحراسته!».

رتبت شالا بدقة وعناية جميع الأمور الضرورية أنياً. سترت آناء الاعتداء ما أمكن،
فردت غطاء جديداً على الملك وأخفت مكان الطعنة، ونهت كيا لثلاثاً تسمح لأحد
بالدخول إلى المعتزل. ثم أرسلت خادماً إلى المطبخ، وآخر إلى أكيزي، وأمرت خادماً
ثالثاً بالوقوف عند مدخل غرفة المعيشة لمنع الغرباء من الدخول، وعادت إلى غرفة
الميت. فتحت بحذر فم الملك للحظة. كان لسانه متورماً ومبقعاً. وهذا ما توقعته. رتل
دعاء تبريك على رأس إيداندا. كان لا بد لها من تأجيل جميع الطقوس الضرورية إلى أن
تتحدث مع أكيزي، كي يتفقا على الخطوات الصحيحة معاً. وأثناء الانتظار عاينت الغرفة
بدقة إلى أن رأت الإبريق الفخاري بجانب السرير، فتناولته وتشممت رائحته: عصير رمان.
ولكن ماذا أيضاً؟ ستحاول حل هذا اللغز في بيت الربة لاحقاً.

بنظرة واحدة على ما يبدو أدرك أكيزي الوضع، فوقف عند المدخل مرعوباً. «هذا غير ممكن، يا ربي! هكذا فجأة! ماذا جرى؟ ما بها كيا؟».

نهضت شالا وسحبت أكيزي إلى غرفة المعيشة وقالت له: «واضح أن الملك كان يُسمّم منذ فترة، كي لا يتمكن من المقاومة عندما يطعنه القاتل. الاغتيال جرى مساء أمس أو أثناء الليل. وربما أثناء غضبية إيل، ربما لهذا السبب أرسل الرب إشارات. لا أعرف، لكنني لا أصدق أن الأمر محض مصادفة».

«ما هذا الذي تقولينه؟ أيها الأرباب! يا لها من مصيبة. من يجرؤ على عمل كهذا؟ هل عرفت الملكة؟».

«ليس بعدُ. أردت أن أكلمك أولاً، كي تكون مستعداً لمجلس الأعيان».

«ما الذي ترمين إليه؟».

قاطعهما دخول الخادم حاملاً إفطار الملك من المطبخ. أخذت شالا منه الصينية وصرفته، ثم عادت إلى أكيزي وتابعت كلامها: «يجب أن تهيم نفسك لعدم موافقة المجلس على وراثتك العرش، ما دام والدك قد مات مقتولاً».

شحب لون أكيزي وقال: «لا يجوز أن يعلم أحد بالأمر، شالا».

انضمت إليهما كيا دون أن يلاحظا ذلك، وكانت تحمل بيدها سلاح الجريمة، وقد أزاح حنقٌ بارد بكاءها المتفجع جانباً. وإذا كانت قبل قليل تتحجب مثل طفل، فقد بدت الآن تجسيدا لربة الانتقام. قالت لهما: «يجب أن تنقضي ما جرى مساء أمس بعد أن غادرت. هل استقبل الملك أحداً مساءً؟ هو ذكر (مجرمين). أي من الخدم بقي في خدمته؟ لماذا اختفت تلك الخادمة بلا أثر؟».

في الوقت نفسه تقريباً سألهما كلاهما: «كان الملك حياً عندما أتيت؟ وتكلم أيضاً؟».

ثم قال أكيزي فجأة: «دعيني أرى هذا الخنجر!».

«أتعرفه؟».

«أظن ذلك. إنها قطعة سلاح تلفت النظر. انظري هنا، هذه القبضة العاجية النحيفة والمحفورة بعناية كبيرة بأشكال حيوانات برية. إما هذا أو ما يشبهه، رأيته في خيمة الشيخ إيدريمي المحترم. وأظنه خنجر ابنه. لكن هذا غير معقول مطلقاً».

«سنناقش كل شيء بهدوء. أما الآن فلا يسعنا الانتظار طويلاً. الطقوس الضرورية يجب أن تأخذ مجراها»، قالت شالا بالحاح وأضافت: «ولا تأذت روح الميت!».

فأجاب أكيزي: «معك حق، شالا المبعجلة، يا كبيرة كاهنات قطنا. ولكن قبل ذلك، علينا أن نحسم صيغة الإعلان الرسمي عن الوفاة. صياغتها لن تكون أمراً سهلاً. إذا أعلنت حقيقة أن الملك قد قُتل، فسيكون لدفنه طقس خاص، ولا بدّ من تطهير القصر من الخطيئة. وهذا يعني أن الملكية لا يمكن أن تبقى في عائلتنا. وهذا سيسبب اضطراباً كبيراً في قطنا وعند جيراننا أيضاً، وتحديداً في هذه الظروف الحرجة المتوترة. لا يجوز أن نسمح بحدوث ذلك. لا يجوز لبنت شفة أن تخرج من هذه الغرفة بشأن حقيقة قتل الملك!».

«كيف يمكنك الكلام بهذه الصورة؟ لا بدّ أن نتقم لأبينا. قتلة جبناء جعلوه عاجزاً وطعنوه، وهذا أسوأ من نحر أي حيوان. يجب أن نجد القثلة ونفصح كل شيء. لماذا كان موته ضرورياً؟ هناك عدّة أطراف متورطة في الأمر. لا يمكنك أن تتكتم على هذا، فقط من أجل عرشك!».

«كيا، يا أختي، أرجوك افهميني. الأمر لا يتعلق بي أنا. بل بقطنا.»
«وفّر هذا النفاق. أنت لا يهملك سوى العرش. لطالما كنت طوال الوقت ضد أبي. ولربما كان يقصدك أنت!».

دهمتها موجة رعب جديدة. تهاوت على كرسي بلا ظهر ووضعت رأسها بين يديها وأخذت تتحب. لم يمنع هذا أكيزي من الهياج، فكاد أن يهجم على أخته، لولا أن أوقفتها شالا.

«اجلس!». قالت له بحزم. انتظرت قليلاً ثم قالت لكيا: «عليك أن تخبرنا الآن بما قاله الملك. كرري كلماته بدقة.»

«سأخبرك أنت فقط.»

«أكيزي أخوك، والملك القادم، يجب أن يعرف مثلي تماماً.»

فأجابت كيا قانطة: «لقد حسبت أمركِ إلى جانبه إذأ!».

«مثلما حسبت أنت أمركِ إلى جانب قطنا»، قالت شالا من دون تردد. «لا أريد أن أعيق الوصول إلى الحقيقة، بل بالعكس. ولكن ليس في مصلحة أبيكما أبداً أن تتمزق قطنا، نتيجة اضطرابات داخلية، فتصبح طريدةً مائغة للأعداء. أمورو مثلاً تتربص بنا وستنقض علينا إن أعطيناها الفرصة، لنضمننا إلى مملكتها. أنا أعتمد إذأ على رجاحة عقلك، وأرجوك مجدداً أن تكرري علينا الآن كلمات الملك الأخيرة!».

ازدردت کیا ريقها، وقد أدركت أن لا خيار آخر أمامها. لكنها لن تقول جميع الكلمات، فائتان منهما تخصّانها هي فقط! ثم قالت بتلعثم: «عندما وصلت إليه كان قد نرف كل دمه تقريباً، لكنه بمعجزة ما بقي حياً. ربما كانت تلك رغبة القربة، أن يخبرني بمن قتلوه، ولماذا. لكنه لم يكلفني بأمر واضح. قال أولاً: (تالزو يعرف، أن ت..). ثم حاول أن يضيف شيئاً آخر، ربما كان يقصد شخصاً ثانياً، لكنني لم أفهم منه سوى (أ..). ثم قال بوضوح: (عليك بالمجرمين..). وهذا يعني العثور عليهم وفضحهم. أليس كذلك؟».

«ماذا قصد بقوله (تالزو يعرف)؟». سأل أكيزي شالا التي هزت كتفيها.

«كيا، ماذا قصد بذلك؟».

هل تفرط بكل معلوماتها؟ لكن الأمر قد انقضى وحُسم. أكيزي سيصبح ملكاً وتبقى الملكية في العائلة. وذات يوم سيجلس أموت بان الصغير على العرش. وإذا خطر في بال أكيزي أن يؤديها في المستقبل، فيمكنها تهديده بكشف الأمور المخجلة، التي جرت هنا صباح هذا اليوم، فلن يجرؤ.

فأخبرتني بملاحظة تالزو التي حولت شك أبيها إلى يقين: تيرو كان الخائن أو أحد الخونة. تيرو، سلفه، شقيق الملكة. ثم أضافت: «ربما كان الشخص الثاني بدوياً. والبدوي في قطننا لا يلفت النظر. قلت لكما إن علينا إيجاد الخادم الذي كلمته البارحة مساءً، واستجوابه..».

«هل جاء هذا في الرسالة التي أرسلها تالزو إليك؟». سأل أكيزي مقاطعاً إياها.

فأومأت كيا برأسها.

«سنعود إلى هذه المسألة. وعند سماعك (أ..). خطر أكيزي ببالك، فالأمر واضح!». قال أكيزي بسخريته الواخزة.

«لا، هذا غير صحيح! فقط عندما سمعتك تتكلم بهذه الطريقة ووالدنا لَمَّا... اعذرني، كنت مخطئة. كنت حانقة ساخطة وهاجمتك دون وجه حق، أنا آسفة. في الواقع، مَنْ أشتبه به يرعيني». وأخذت كيا ترتجف.

وقفت شالا وأحاطت كيا بذراعها وكأنها تحميها. ثم قالت: «ألا يفترض بنا، بل ألا يجب علينا تأجيل الموضوع الآن؟ يجب أن نولي اهتمامنا للملك، ويجب أن نخبر الملكة وأوييا الناطق باسم المجلس، وكهنة قطننا. هذا لا محيد عنه. أكيزي، نحتاج هنا إلى خدم موثوقين مخلصين. في حال الضرورة عليك أن... حسناً، أنت تعرف شغلك. عليهم

مساعدتي في تحضير الملك للتسجية. أعطني الخنجر، سأحتفظ به عندي. عليك أن تكلم كبير كهّان بعل، وعندما أصبح هنا جاهزة عليك بسرعة أن تخبر أمك وبقية أفراد العائلة». «وماذا علي أن أقول؟».

فجأة بدا أكيزي كالعاجز. الأمل أن يحسن القيام بدوره، فكّرت شالا وتذكرت تحفظات إيداندا على بكره. ولكن لا بديل عن أكيزي، ثم إنه لا يشبه خاله في شيء. ولقد تم تدريبه وتحضيره للمنصب. حتى وإن لم يكن بقامة إيداندا، لكنه يعرف دوره. ولربما ساعده الأرباب في هذه المهمة.

«ستقول: الملك توفي فجأة أثناء الليل، ربما بسبب مشكلة في الكبد أو المعدة، كانت تعذبه منذ مدة. ووجبة الاحتفال أمس سرّعت النهاية. کیا وجدته ميتاً عندما جاءته صباح اليوم بناء على طلبه. والحرس يمكن أن يؤكدوا دخولها القصر». «لكنني جئت باكراً جداً!».

«كنت غارقة في ألمك، فتأخرت في إخبار أكيزي».

«وأنت؟ الحرس رأوك والخدم أيضاً».

«كان عندي ما أخبر به الملك، فجنّت دون أن يستدعيني. ثم اعتنيت بك أنت. لا تقلقي، کیا. لا يحق لأحد أن يسألني بشأن سلوكي». «وماذا بشأن غضبة إيل؟».

«لم يكن قصدها قطناً، فالهزة الأرضية هنا كانت خفيفة جداً. ربما أصابت منطقة الساحل، علينا أن نتنظر الأخبار، التي ستصل قريباً». «وماذا إذا تكلم تيرو؟».

«سيكون معتوها بأن يسلم رقبته لسيف الجلاد».

«تقولين هذا لأنك تصدقين کیا. ولكن في حال اتهم ابن الشيخ إيدريمي؟».

«بأي دليل؟ أبعده عنك الهواجس، أكيزي. الخنجر مخبأً عندي. إذا كان تيرو يعرف بأمره، فهذا يكشف أنه كان موجوداً. الشرط هو أن نصمت ثلاثتنا. والخدم. عليك بسرعة أن تجد الخادم والخادمة. اذهب الآن وأرسل إلي مساعدين موثوقين. کیا، أذهبي أنت أيضاً. خذي معك هذا الإبريق واحفظيه بحيث لا يمسه أحد. ثم أخبري أميناية بأن الملك قد مات وأن عليها أن تأتي إلي في القصر حالاً. هي تعرف ما علينا فعله. أما أنت فابقي في بيت الربة. كلي شيئاً!».

بفضل سلوك شالا الذكي سار كل شيء على ما يرام، من دون أن يشتهه أحد بشيء أو يطرح أسئلة مزعجة. كادت الملكة تفقد صوابها الماء، واستمرت تنتحب وتندب فقدان الملك والزوج حتى حدود الانهيار. ولم يتمكن أكيزي وإهلي نيكالو من إقناعها بالنوم بعض الوقت لتتراخ، بل إنها لم تغادر غرفة الميت إلا لبرهة قصيرة، سمحت لإيست برؤية زوجها وسيدها. بأسلوبها الرصين، ورغيم حزنها العميق انتبهت إيست إلى غرابة منظر الملك، لكنها حافظت على صمتها. فما الذي تعرفه عن طقوس الدفن في هذا البلد؟ لا شيء تقريباً. هل سينتظرها زوجها الحبيب في الغرب يا ترى؟ هذا ما كان يهمها، ولا شيء سواه.

عدة قرعات عميقة على صنوج برونزية أعلنت على الملأ في المدينة كلها موت الملك. وأرسل السعاة إلى المناطق المحيطة بالمدينة لنقل الخبر المريع. استمرت شعائر الموت أربعة عشر يوماً، بدأت بـ (وقت الشدة) ما دام البلد الآن من دون حاكم. ولهذا السبب دخل كل من يرتبط بحضور الشعائر بمرحلة صوم طوعي، وقد شمل هذا: الكاهنات والكهان، الندابات ومن يلحق بهن، أفراد العائلة الملكية، كبار ذوي المناصب وزوجاتهن. وتكريماً للميت ذبح ثور حرثٍ ووزع لحمه مع نبيذ، ثم كُسرت الدنان الفارغة وقدمت للميت. بعد مغيب الشمس أقيمت شعيرة الكفارة وبدأت ليالي السهر على الميت.

بعد منتصف الليل حمل رجال بأقنعة عجيبة مرعبة جثمان الملك إلى بيت الأموات. لا يسمح بالدخول إلى بيت الموتى إلا للمخولين، وسوى التكهانات لا يعرف أحد ما يجري هناك. ولكن بناء على الأدخنة المتصاعدة يمكن التخمين بأن للنار شأناً هناك. ثم إن كميات الجعة والنبيذ والمشروب الخاص التي طُلبت تشير أيضاً إلى استخدام النار، على الأغلب لإطفائها، ولكن ليس هناك من يصبر على معرفة التفاصيل بدقة. وكان الناس بكل إجلال وخوف يتجنبون الساحة التي يوجد فيها مدخل بيت الموتى. ولا يعرف أحد من الذي يقوم بالخدمة هناك. وكانت ترافق الشعائر الغامضة وجبات من الأضاحي مقدمة للأسلاف والأرباب والحزاني.

بعد الإقامة في بيت الموتى أعيد الملك إلى قصره، حيث سجي بعناية على الحامل الخشبي ووضع في قاعة الاستقبال، حيث يمكن للجميع المشاركة في الحزن عليه خلال الأيام القادمة. أما حالياً فقد سُلم لرعاية الكاهنات.

أنجزت شالا مع مساعداتها عملاً بديعاً، فقد ألبسن الملك زينتته الأجمل، ولا سيما

معطفه الملكي المزيّن بالشراريب، ثم جاءت السلاسل حول رقبته والأساور العريضة حول ذراعيه. وحسب التقاليد عُقد شعره أعلى رأسه على شكل عقصة عريضة مربوطة بشریط قماشى رفيع، وسرح شعر لحيته فبدت ملساء. كان لوجهه وعينيه المغمضتين وفمه تأثير رجل نائم بسلام، ولم يدر سوى خاصة الخاصة أن وجهه قد غطي بطبقة بلون البشرة الطبيعي كقناع موت. وبعد ذلك زوّد الملك بإشارات مُلكه، فألبس التاج لآخر مرة على رأسه المرفوع على وسادة نفيسة. وفي يمينه وضعت العصا المعقوفة، رمز الراعي العادل، الذي يرعى خرافه بإخلاص وعناية. وفي يساره المبسوطة على صدره وضع الصولجان. وأمامه أشعل سراج إلى جانب إناء مملوء بزيت فاخر. وبعد ذلك صار ممكناً إجراء شعيرة الميزان. حصل الأرباب على مشروبهم المفضل، الجعة، وعلى أفخاذ الخراف والزيبب والزيتون والخبز، إضافة إلى ندائف الصوف. ثم تناولت كبيرة الكاهنات في يدها ميزاناً، وضعت في كفته الأولى فضة وذهباً وجواهر، وفي كفته الثانية حفنة تراب، وقالت في الحوار مع مساعدتها: «ليحضر أحدهم إيداندا، من سيحضره إلى هنا؟».

«رجال قطنا والقضاة سيحضرونه إلى هنا».

«عليهم أن لا يحضروه إلى هنا!».

«خذي الذهب والفضة!».

«لن آخذ الذهب والفضة!».

ومع التكرار الثالث تقول الراقية قارئة العزائم: «سأخذ التراب».

ثم يكسر الميزان ويوضع إلى جانب الميت، ويعود الترتيل والندب. تُقدّم أبقار وخراف قرباناً للأرباب. تملأ صيحات الندابات القاعة وهن يمزقن أرديتهن حسب ضرورات الطقس. يتناوب الكهان في السهر على الميت جالبين معهم بخوراً يملأ عقب دخانه القاعة للحصول على رضا أرباب العالم السفلي. عمّ الحزن مملكة قطنا، فتوقفت الأعمال والأشغال اليومية، أو تم تأجيلها. فالرعية تودع راعيها المحبوب.

إن موت الملك المفاجئ وغير المتوقع، أثار نوعاً من الفزع والذهول بين أعضاء مجلس الأعيان، الذين دعبوا للاجتماع على نحو مستعجل. وعلى الرغم من ذلك، استمرت الحياة على منوالها المعتاد. لكن المدينة لم تستطع البقاء دون قيادة، ولذلك، وبناء على الأنظمة المعمول بها، تسلّم رئيس المجلس، أوبيّا، مهام الملك مؤقتاً.

«يا أعيان قطنا! إن الحزن يغشى وجوهنا لفقدان ملكنا المحبوب. احجبوا وجوهكم وصلوا لأرباب العالم السفلي ملتسمين له قبولاً رحيماً». بهذه الكلمات افتتح أويبا الجلسة، ثم طلب من ولي العهد تقريره. كان حزن أكيزي عميقاً، لكنه تماسك عندما أخبرهم بأن الملك كان معتل الصحة منذ فترة، دون أن يولي مرضه الاهتمام الضروري. ولكن مع تفاقم المرض والآلام المرافقة له طلب المساعدة من دار الشفاء، إلا أنه تأخر في ذلك على ما يبدو. حسب تشخيص الخبراء كان سبب علته المعدة أو الكبد، وعلى الأغلب كليهما معاً.

«واحتفال الأمس بمأكولاته الدسمة وشرب النبيذ صافياً قد أدى بسرعة إلى تشنجات ونوبات مغص ومن ثم إلى موت سريع، بحيث لم يكن بوسع أي طقس أو دعاء أو صلاة أو دواء أن يؤثر في ربة الموت».

«عندما زرتة بالأمس لأهنته بحفيده الرائع»، سُمع صوت تيرو وكأنه آت من قبر، يقول: «شكا بأسلوبه المتناسك من أنه ليس على ما يرام. عرضت عليه إرسال أحد إلى دار الشفاء، لكنه رفض. يا ليتني فعلت! أترأه كان موقناً من قدوم الموت؟ آه منكم أيها الأرباب الظالمين، لماذا هو بالذات؟ في ذروة نضجه وخبرته!».

تدخل أويبا فوراً طالباً منه الصمت وعدم التجديف، كي لا يستنزل عليهم مصائب أخرى. لم يصدق أكيزي ما سمعت أذناه، فنظر إلى خاله بحيرة وذهول. أيمن لأحد أن يكذب بهذه الدرجة من الإقناع؟ ولكن يجوز أنه لا يكذب، وأن الملك أراد قول شيء مختلف لكيا. ها هو ذا يعترف، على الأقل، بأنه قد زار الملك. لا بدّ من مراجعة هذا كله بدقة وسراً. هناك الآن ما هو أكثر أهمية: أن يُعترف به وريثاً للعرش ليس سوى إجراء شكلي، لكن المرء لا يمكن أن يكون على يقين تام من ذلك. موقف تيرو من الأمر لا يزال غامضاً.

«الملك سيلتحق بأسلافه الملكيين. ونحن سنبدل كل ما في وسعنا كي يعبر طريقه إلى العالم السفلي بنجاح، فيبقى هناك حياً حسبما يليق به إلى أبد الأبدين». صمت أويبا برهة قبل أن يردف قائلاً: «ونحن المجتمعون هنا يجب أن نتفكر الآن بالعواقب المترتبة على موته، فهذا هو سبب اجتماعنا. الملك إيداندا ترك لنا قطناً في وضع مثالي. وخليفته على العرش منياً بأفضل صورة. ونحن المنوط بنا أن نقر ذلك الآن. بصفتي الناطق باسم المجلس يحق لي تقديم الاقتراح الأول، وأنا أوصي بأكيزي بكر إيداندا وبلثوم الذي تأهل بكل عناية لهذا المنصب!».

ترددت في القاعة أصداء موافقة عامة على الاقتراح.

«وكيف تفسر غضب إيل!». سأل غابوللي. مرّر أصابع يده على لحيته الرمادية الطويلة والقلق باد على وجهه من نذير الشؤم هذا، وأضاف: «ألا يجب أن نتفكر فيه أيضاً؟».

«ترى كهانتنا أن الزلزال لم يستهدف قطنا. ورغم ذلك تقترح كهانتنا إخضاع الملك القادم لحكم الرب، لإزالة أي شك محتمل».

وثانية ترددت في القاعة همهمات الموافقة. لم يظهر على وجه أكيزي أي نوع من التعبير.

«هل ثمة اقتراحات أخرى لخلافة الشريف إيداندا؟». سأل أويّا متلفتاً في القاعة.

لم يتقدم أحد من الأعيان باقتراح. ومع ذلك نظر أويّا وأكاليّا عدّة مرات صوب تيرو. فهو لم يتوان أبداً عن المجاهرة بمعارضة المخط السياسي لصهره. والآن بإمكانه أن يدلي بدلوه، أن يرشح نفسه مقابل أكيزي. لكنه لم يقدم على ذلك. أيخشى حكم الرب يا ترى؟

«حسن إذًا، جميعنا موافقون على أن وليّ العهد أكيزي، بكر إيداندا بن أولاشودا وبلتوم بنت ناپليما، سيكون وريث العرش في قطنا. بعد مراسم الدفن عليه أن يخضع لحكم الرب لتأكيد خيارنا. ومن ثم يمكننا تنويجه. كان الأرباب في عوننا وغون قطنا!». رجع أويّا إلى الخلف وجلس على كرسيه.

تقدم كاهن من أكيزي، وفي أثناء تقديم قرابين البخور والشراب مُشَحّ وليّ العهد المرشح لورثة العرش، واقتيد إلى الكرسي الشاغر المرفوع على منصة في منتصف القاعة. أبدى الجميع تبجيلهم للملك القادم. بذل أكيزي جهده ليبدو مسترخياً، لكن قلبه كان يخفق بشدة من الفخر. وللحظة عابرة غابت عن ذهنه الأحداث المهدّدة وخوفه من حكم الرب القريب: هكذا ستكون الأمور دائماً في المستقبل، الجميع سينحني له احتراماً. سيكون السيد، ملك قطنا.

كان تيرو آخر من تقدم منه، فنهض أكيزي بصورة غريزية واقفاً، فكان أطول من خاله برأسه تقريباً.

«يا ابن أختي الحبيب، أخبرني عندما ستحتاج إلى دعمي إياك بخبرتي الواسعة وعلاقاتي الجيدة. أنا هنا من أجلك في أي وقت، ولا سيّما أنك قد بتّ يتيم الأب!». وعانق أكيزي على نحو مبالغ فيه. وفجأة خطر في بال أكيزي أنه عملياً حتى الآن لم يولّ خاله أية أهميّة. ولكن في لحظة العناق انتابه إحساس بأن أفعى تلتف حوله.

انسحبت إلهي نيكالو وأمها وطفلها إلى المخادع، كانت تتألم حزناً على وفاة حميها الذي احتل مكانة عالية التقدير في نفسها، وخوفاً من المستقبل. وكانت تأمل ألا يكون ذلك فالأ سيئاً لصغيرها أموت پان، أن يموت جده احتفالاً بولادته. لقد أخبرها أكيزي، وإن متعجلاً، بأن المجلس صادق على ورائته العرش، وكان فخوراً بذلك. كيف سيكون عندما يصبح ملكاً؟ وكزوج؟.. ستترتب عليها أعباء كثيرة، حتى وإن احتفظت بلتوم طوال حياتها بلقب الملكة. لن تتوانى إلهي نيكالو عن دعم زوجها بكل طاقته، وستقوم بواجباتها كاملة وبسرور. مسحت بحب على شعر صغيرها الحريري وألقتمه ثديها.

في مساء اليوم نفسه أرسل أكيزي في طلب كبيرة الكاهنات وأخته ليجتمع بهما. كان في حاجة ماسة لتبادل الحديث مع أشخاص موثوقين. في القصر كان الجميع منشغلاً بالتحضير لمراسم الدفن. ولم يكن بوسعه مناقشة الأمور التي تقلقه مع إلهي نيكالو، فاهتمامها الأول حالياً هو الطفل. وهو لا يريد توريط المزيد من أفراد العائلة، كي لا يعرضهم ويعرض نفسه معهم للخطر. ولهذا استبعد أخاه كوارى أيضاً، الذي كان يميل عادة إلى التباحث معه في أمور شتى. فقد ورث أخوه الأصغر عن أبيه الرزانة وتدبر الأمور، وإمعان التفكير بروية قبل الإقدام على الفعل، ولهذا كان ناصحاً جيداً. أما في هذه الحالة فلا يمكنه المساعدة، إذ يجب على حلقة العارفين أن تضيق ما أمكن.

التقوا في الجناح الغربي من القصر، في الطابق الأعلى. هناك، وبعد رحيل أمونحوتب فرش أكيزي لنفسه بعض الغرف بإطلالة بديعة على الغرب والشمال، كي يلتقي فيها بمن يشاء دون إزعاجات. دخلت شالا وكيا القصر من البوابة الرئيسية ووصلتا إلى الطابق العلوي عن طريق الدرج دون أن تمرا من قاعة الاستقبال. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يدعوها أكيزي فيها إلى هذا الجناح. بقيتا في غرفة الاستقبال المفروشة بصورة مريحة بسجاد وكراس وفراء غنم وبقر. ولم ترغب كيا في التفكير بالغرف الأخرى للجناح ولأية أغراض يستخدمها أخوها.

بعد القلق الشديد استمتعت كيا بلحظة من الهدوء الظاهري. ألم تمض حقاً سوى بضع ساعات على موت أبيها بين ذراعها؟ ألا يتوجب عليهم أن يبكوا ويندبوا ويبتهلوا إلى الأرباب ويقدموا إليهم الأضاحي لاستمالتهم، بدلاً من أن ينغمسوا في السياسة ويطاردوا المجرمين؟ كل شيء يبدو غير حقيقي. تناولت القدح الخزفي وشربت جرعات خفيفة من نبيذ مبرد. أيجوز شرب النبيذ أثناء الحزن؟ استرقت نظرة إلى شالا بين رشفتين.

انتبهت بعد قليل إلى قرب هذه الغرفة من الدرج المؤدي إلى سطح القصر. أهنالك باب يا ترى بين الطابق الأعلى وممر الدرج المؤدي إلى السطح، ولم تره رغم قضائها نصف ليلة هناك؟ عندئذٍ سينحل لغز وصول أمونحوتب إلى السطح دون أن يُرى أو يُسمع، وكذلك اختفاء خادمته السريع. أمونحوتب - أمونحوتب! بفظاظة أعادها صوت أكيزي إلى أرض الواقع، قائلاً: «كان عليكم سماعه بنفسيكما، وهو يقول بكل ثقة بأنه قام بزيارة تهنته للملك؛ خالي المحترم! إذا كانت كيا محقة بأنه وراء العملية كلها، فقد كان بتصريحه بارعاً جداً، لأنه يعرف تماماً أن بعض الحرس والخدم قد رأوه، وأنها مسألة وقت لا غير حتى نكتشف ذلك».

فأجابت شالا: «لكنه لا يمكن أن يخمن بأننا نشبهه به. هو يفكر بأننا سنتبع الأثر المتروك، والذي سيقودنا إلى الشيخ إيدريمي وابنه. أو أنه واثق من أننا لن نفعل أي شيء. من وجهة نظره، هكذا يجب أن تبدو الأمور. أما نحن فإننا لا نعرف ما إذا كان قد قال الحقيقة فعلاً. لربما كان حقاً عند الملك وغادره وهو حي!».

«أنا أرى أنه يكذب. أبي صرفني لأنه كان مضطراً للراحة حتى الصباح. لم يكن قادراً حتى على النطق وكان منهكاً. فلماذا يسمح بدخول تيرو عليه، أليهنته؟ لا بد أن يكون تيرو قد أغواه بأخبار مهمة، وإلا لصرفه بالتأكيد، على الأقل كي لا يكشف سوء صحته أمامه». «هذا يبدو مقنعاً. سنستجوب الخادم. لقد عرفته وعرفت الحرس المناوب أيضاً». «والخادمة؟».

«لا أثر لها إطلاقاً. يبدو أنها قد تركت القصر. بحثت عنها عن طريق عبدة كتومة عجوز، وحتى الآن بلا طائل. لم تولينها كل هذه الأهمية؟».

فتدخلت شالا قائلة: «هذه الفتاة التي تبدو وجلة، نديها إيداندا لخدمة أمونحوتب الشخصية، طوال إقامته هنا». «والمعنى؟».

«أكيزي! لا بد أنها هي التي كانت تسرب السم للملك، من غيرها؟ ولكن من الذي كلفها بالأمر؟».

«أتقصدين أن أبي قد كشف هذا كله و..». «وأراد أن يقول أمونحوتب». انقبض قلب كيا وهي تصرخ بشبهتها المخيفة. هز أكيزي رأسه ثم نهض وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً. ثم تساءل: «ما مكسب

أمونحوتب من تسميم الملك إيداندا؟ تسميم وطعن؟ هل الخادمة هي أيضاً التي طعنت الملك؟ لا، كانت قد اختفت. شوهدت آخر مرة في المطبخ عند العصر، ثم اختفى أثرها. إذاً، مَنْ الذي نفذ هذه المهمة القذرة؟ إيدريمي أم ابنه؟ أهو تصادفٌ لمأربين أم عملية مشتركة؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟

«أكيزي، كفى! على هذا النحو لن نتقدم خطوة، فالأمور كلها تتشابك. يجب أن نتابع كل خيط على حدة. لكني مرهقة كلياً. ألا يمكننا أن نتابع غداً؟».

«تدبراً أمركما غداً من دوني. هناك الكثير مما لا بدّ من تحضيره للجنّازة. ولكن أعلموني بكل ما يستجد»، قالت شالا التي تابعت حديث الأخ والأخت صامتة. غادرت المرأتان تاركتين وراءهما أكيزي غارقاً في تفكيره.

نُحت للملك الميت تمثال في وضعية الجلوس، ليأخذ مكانه في القصر في اليوم السابع. كانت الندابات يحطن بالجثمان في عدّة دوائر، وقد أُحرق في الوقت نفسه رداء ملكي وقش وزيت مقدس. وحزناً على الميت كُسر دَنّ جعة ودَنّ نبيذ، ونُحرت أبقار وخراف قرباناً للأرباب والأسلاف ولروح الميت، التي كانت الأكبّاد من نصيبها. قُدمت للأرباب قرابين نبيذ وجعة، ولروح الميت قرابين خبز، ثم سُقيت الندابات نبيذاً على روح الميت وهن ينادينه باسمه بأصوات عالية.

خُصصت الأيام التالية لتجهيز الميت للعالم الآخر. ولكي يتم هناك استقباله بصفته ملكاً، وليتم قبوله في حلقة أسلافه، لا بدّ من تزويده بالأفضل من موجودات هذه الدنيا. مثال ذلك، أن ذُبحت أبقار وخراف في مرعى يافع العشب وعند النبع، تحت أنظار تمثال الملك الجالس الذي جُرّ إلى المرعى على عربة، لكي يشهد بنفسه على حسن اختيار الحيوانات والمرعى والمياه. كما زُوّد بدنّ نبيذ ومعول ومجراف ومحراث ومضارب دراسة وكثير من الأدوات المفيدة الأخرى. ثم أُجلس في خيمة على عرش ذهبي مزوداً بقوس وكنانة سهام، ليتناول هناك مع أهله وجبة الموتى. وفي ختام النهار جُمعت له عند بوابة القصر أكوام من الحبوب والفواكه، وزين الميت بالورود. وفي نهار آخر وُضع التمثال على عربة وسيق إلى الخيمة، حيث أمسك خليفته المصادق على وراثته، بالفأس الفضية وقطع بها كرامة، بصفتهارمزاً آخر للحياة. ثم زينت الكرامة بشرائط وبعناقيد طازجة للأحياء وأخرى مصنوعة من الصوف للعالم السفلي ووضعت على طاولة الميت. ثم جُهزت له زوائد أخرى لرحلته: صحيفة ثمينة، دوايب من عجيين، رداء فاخر، دورق

زيت ممتاز. ثم عاد الجميع إلى القصر، حيث احتفل ليلاً بقربان نبذ للميت، فوقف إلى يمين المجرم الكبير ويساره ساقيان يسكبان من إبريقيهما النبيذ المخصص لروح الميت على أطراف المجرم، بشرط ألا تنطفى النار. تلا ذلك شعيرة (القدمين) لإرضاء روح الميت، فوضعت أرغفة خبز على قدمي التمثال الجالس وردد الحاضرون معاً: «انظر، لقد وضعنا على قدميك خبز الجنود، فلا تسخط بعدئذ! كن طيباً تجاه أولادك! مملكتك ستستمر لأحفادك وأحفاد أحفادك! وسيكون لسلاطتك مهابة وحرمة، وستقدم لك القرابين». بعد نطق هذا الوعد يوضع مزيد من الخبز والفاكهة عند قدمي التمثال. ثم تأتي شعيرة (الحبل) الذي يرمز إلى آخر صلة بالحياة الدنيا، والذي لا يجوز للميت أن يبقى ممسكاً به. وخلال هذه الشعيرة تصدح ترانيل النساء وصيحات الندابات.

«من كان ليخطر في باله أن أختي الصغيرة ستصبح ذات يوم مستشارتي الأولى وموضع ثقتي؟». لم يكن بوسع أكيزي ترك مزاحه جانباً.

«كفاك تناديني يا أختي الصغيرة طوال الوقت، وكفاك سخرية بي كلما التقينا!».

«أنا لا أسخر بك، كيا. الحقيقة هي أننا كلانا كنا الأقرب إلى أينا، وها نحن نحاول معاً حل لغز الظروف الغامضة التي أحاطت بموته. إذًا، لا مزاح بعد الآن، بل كل الجد. أنت جديرة باحترامي، كيا، صدقيني. منذ مدة لم أعد أنظر إليك كطفلة صغيرة، لكنني مع ذلك، عندما أتاديك بأختي الصغيرة، فذلك فعلاً بكل حب أخوي. أفهمين ما أقصد؟».

هزت رأسها مصالحة وقالت: «هل نبدأ؟».

«فلنستمع أولاً إلى أقوال الخادم. هل يمكنك تدوين رؤوس أقلام، للطوارئ فقط؟ هاك لوح شمع نظيف!».

كان الخادم رجلاً في أواسط العمر، قصيراً وصلب العود، وقد بدا الشعور بالذنب جلياً على وجهه. وقف منكس الرأس، مضطرباً وقلقاً. ما إن دخل حتى ارتمى على الأرض مستعظفاً: «الرحمة، الرحمة!».

أخبرهما بكل ما جرى يوم الوفاة منذ ما بعد العصر. ونتيجة استفسارات أكيزي وكيا كرر روايته عدّة مرات: استلم مناوبته عند الملك من تلك الخادمة، التي نقلت إليه أمره، بأن لا يجوز لأحد أن يزعجه. لم يظهر أحد سوى الأميرة، التي تجاوزت تعليمات الملك كعادتها، مبررة إصرارها بأن الملك يتوقع قدومها. بعد وقت قصير خرجت الأميرة وأمرته بالألا يسمح لأحد بالدخول وأن يقوم على حراسته وأن يجلب له وجبة خفيفة من المطبخ.

طلب منه أكيزي أن يصف بدقة ممّ تألفت الوجبة، فهمست له كيا بأن هذه الوجبة قد تم تحضيرها بناء على تعليمات شالا، وأنها لا يمكن أن تحتوي أي سم، وإلا لظهر طعمه على لسان الملك في مادة الوجبة. فأمر أكيزي الخادم: «تابع! ماذا جرى بعد ذلك؟».

«بعد ذلك جاء الرجل الشريف».

«أي رجل شريف؟».

«الشريف تيرو، يا صاحب الجلالة، وقال إنه يريد طلب المعذرة من الملك. أعلمت الملك بالأمر، فبدأ مسروراً جداً بذلك، ثم أدخلت السيدين إلى الملك». أثناء ذلك تصيب الخادم عرقاً.

«من أيضاً؟ لم تذكر حتى الآن سوى الشريف تيرو؟».

«نعم، كان معه شيخ بدو غريب، لديه معلومات عن هجمات على قوافل. سمعت ذلك لأن الشريف تيرو أعلن ذلك بصوت عال من المدخل، وأنا أعادر لأجلب شراباً منعشاً للضيفين».

تبادل كيا وأكيزي نظرة.

«تابع!».

«يبدو أنهما لم يرغباً شرب أي شيء. فعالما عدت لأقدم الشراب خرج الشريف تيرو مغادراً، وقال لي إن ملكنا المبجل يريد أن ينام بعد أن يغادر الضيف الثاني. وهذا خرج بعد وقت قصير من غرفة الملك ورافقته حتى بوابة القصر حسبما يمليه الواجب. ثم أقيت نظرة سريعة على غرفة الملك فوجدت السُّرَجَ مطفاة جميعها ولم أسمع شيئاً».

تبادل أكيزي وكيا نظرة ثانية، ثم سأله كيا بلهجة اتهام باردة:

«لماذا لم أرك صباحاً باكراً؟».

أخذ الخادم يرتجف. فعاجله أكيزي:

«هيا تكلم، أجب عن السؤال!».

قال إنه قد اضطجع في الردهة حسب التعليمات، كي يكون جاهزاً فوراً لأي طلب. ثم بدأ اللوي المرعب وأخذت الأرض تهتز بصورة لا توصف.

«ذعرتُ وامتلأت خوفاً من أن تقتلني الشياطين»، ولوح بكفيه مبعداً عنه الشر. «وأردت فقط أن أركض إلى الخارج». وصرخ فجأة بصوت عال، مما جعل الحراس

يندفعون داخلين، ثم قال: «أعرف أنني غبت عن مركزي. سامحوني! سامحوني! ما كان يجوز أبداً أن أترك مليكي المبجل. فليعاقبني الأرباب على تقصيري هذا!». وارتدى على الأرض ثانية.

«لماذا لم تعد إلى مركزك فوراً؟».

«كنت مرعوباً من تخاذلي وخائفاً من العقوبة، لذلك انسلت إلى مخدعي حالما سكن غضب إيل»، وأخذ يندب باكياً: «والعقوبة كانت فظيعة، بل لا أظفح من ذلك». وأخذ يشد شعره ويلطم وجهه. بدا ألمه وشعوره بالندم الشديد حقيقين.

«خذوه وضعوه في الحجز حالياً». بعد برهة التفت أكيزي نحو كيا قائلاً: «أقوال الحرس تؤكد ما قاله هذا المخلوق البائس: تيرو والبدوي الغريب دخلا القصر معاً من البوابة الرئيسية. تيرو غادر القصر بعد فترة من البوابة نفسها. لم يتابع المشاركة في الاحتفال. وعندما أعود بذاكرتي الآن إلى الورا، أجد هذا صحيحاً، فأنا لم أراه طوال المساء. لم يخطر في بالي شيء تفسير الغيابه، وبصراحة أنا لم أفتقده أبداً. أمي علفت على الأمر بكلمة، ربما. لكنني سأبعدها ما أمكن عن المسألة كلها».

«غريب ألا يسأل الحرس البدوي الغريب عن اسمه»، قالت كيا.

«في يوم كهذا ويرفقة أحد أشرف قطنا؟ ما الداعي لذلك؟ البدوي بالمناسبة خرج من البوابة الجنوبية، وفي العتمة بعد ذلك لم يلفت نظر أحد. حراس بوابات المدينة لم يلاحظوا أي شيء. الواضح: هو أنه لم يكن إيدريمي أو ابنه حسب شهادة الخادم وأحد الحراس الذين رأوهما في القصر سابقاً أثناء جلسة المحاكمة».

«والشيخ إيدريمي؟ هل شوهد هو أو أحد أفراد عشيرته في قطنا مؤخراً؟».

«هنا في القصر لم ير أحد الشيخ إيدريمي وابنه، طوال الأيام الماضية. لكننا لا يمكن أن نستبعد وجودهما في المدينة. أنا شخصياً أستبعد ذلك، وأرى أن نتجنب سؤالهما قدر المستطاع».

«إن لم يكونا هنا قط، فليس هناك سوى نتيجة واحدة، أن تيرو والبدوي المجهول يريدان تليس تهمة ما لإيدريمي أو لابنه».

«وماذا إذا كان الخادم قد فعلها بتكليف من ابن إيدريمي؟ ففي هذا تفسير لهربه واختبائه، أليس كذلك؟».

«لا، يبدو لي هذا مجافياً للصواب. أولاً، سيكون عملاً غيبياً من قبل ابن إيدريمي أن

يعطي الخادم سلاحاً معروفاً يدل عليه مباشرة. ثانياً، سيصعب فهم لماذا لم يختفِ الخادم كلياً. كان بوسعه مغادرة قطنا من دون مشاكل، ولا سيّما أنه ليس عبداً.

«أم أنهم جميعهم قد طبخوها معاً بدهاء! لن يشتبه أحد بعشيرة إيدريمي انطلاقاً من أن رجالها ليسوا أغبياء لتركوا وراءهم سلاحاً يدل عليهم. ولكن بصراحة وتجرد، ماذا يدفع ابن إيدريمي إلى قتل الملك؟».

«عزة النفس، الانتقام، الثأر. لأن الملك، وإن لمدة قصيرة، لم يستبعد شبهة أنهم من نهب القافلة».

«لا، مستحيل. لقد أكدت لإيدريمي بوجود ابنه فوراً، أن ليس فينا من يشك في ولائهم. وقد كررنا ذلك عدّة مرات: عند استجوابهما في الخيمة وأثناء المحاكمة كان تالزو حاضراً. لا، هذا غير وارد، ولا يخطر في بالي شيء آخر يحتمل أن يكون بين الملك وعشيرة إيدريمي. لا، في تقديري، الجنّة أرادوا توجيه الشبهة نحو جماعة إيدريمي. لماذا؟ لا أعرف».

«إذاً، أنت لا تعتقد أن الخادم هو الفاعل؟ ولا أنه قد فعلها بتكليف من تيرو والشيخ، وأنه لهذا السبب قد هرب؟ التهمة كلها غير معقولة، فهو على ما يبدو، لا يعرف شيئاً عن الجريمة، فهو بالتالي يقول الحقيقة. ولولا وقوع الزلزال لكان اكتشف الجريمة صباحاً بنفسه، وليس أنا».

نكّست كيا رأسها وأخذت تعاودها حقيقة أن: أبي مات. لن يناديها بعد الآن باسمها بحنان. ولن يشملها بعد الآن بحمايته ورعايته. ما مصيرها ومصير أمها من بعده؟ لا شك في أن سلوك أمها المتحفظ وتواضعها سيثبتان جدواهما الآن. لكنها في فترة وجود أمونحوتب كانت الملكة السرية لقطنا. لن تصابا بالعوز، فلأمرها ثروة لا يستهان بها، أما هي ففي وقاية منه على نحو جيد. ومع ذلك يحتمل أن تجعل الملكة بلتوم حياتيهما عسيرة. لو سارت الأمور حسبما كان مخططاً لها، لكانت كيا منذ مدة زوجةً مكرمة معززة في مصر.. لا، هذا يكفي.

وأكيزي أيضاً كان غارقاً في أفكاره. ومن هدأة الصمت سألهما: «ما الذي دفعك للتفكير بأن الخادمة تتصرف بتكليف من أمونحوتب؟ صحيح أنها قد فرزت لخدمته أثناء زيارته لنا، لكن هذه الحجة ضعيفة. ثم ما دافع أمونحوتب أساساً ليكلفها بمثل هذه المهمة؟ فكّرت بالأمر طوال الليل، ولم أتوصل إلى أي دافع يحفز مصر على ارتكاب جريمة قتل. فماذا في ذهنك؟».

نظرت كيا إلى أخيها طويلاً، ووجهها الدقيق القسماش يشي بارتعاشات غامضة. دهمتها كل الذكريات المؤلمة فتغرغرت عيناها بالدموع، وأخيراً قالت: «حصل خلاف بيني وبينه، بسبب صلوات أبي مع حتوشا. ظن أمونحوتب أن لتالزو علاقة بالأمر. هناك من أخبره بأن الرسالة الموجهة إليك آتية من حتوشا وليس من أوغاريت، وهناك من أخبره أيضاً أن رسولاً حتماً قد زار الملك سراً، أثناء غيابه في الساحل. حنقت عليه جداً، فقد وجه إليّ اتهامات لا معنى لها أصلاً. لكنه عندما أتى على ذكر الرسول، ماذا كان بوسعي أن أقول؟ من الذي أخبره بكل هذه الأمور؟ حتماً ليس أنت! من كان مطلعاً عليها؟».

هدر الكلام من فم كيا كالسيل، فشعرت بشيء من الارتياح، وسكنت قليلاً وهي تنظر في عيني أكيزي بألم. هل هذا هو ما حطّم سعادتها؟ أكان أمونحوتب قادراً على التظاهر تجاهها بأنها أحبّ الناس إليه في الدنيا، ثم عند رحيله يكلف شخصاً بجريمة قتل، وقتل أبيها الحبيب؟ لا، قال قلبها.

كان جلياً أن أفكار أكيزي قد ذهبت في الاتجاه نفسه، إذ قال: «كيا، ما تخشينه لا يعقل. لا داعي لأمونحوتب للجوء إلى طرق تأمرية خسيصة. كان بمقدوره مواجهة أبي صراحة. ولكن بغض النظر عن ذلك، لا يحق له التدخل في أمور مراسلاتنا، فقطنا بلد مستقل، لا يتبع أحداً. وبالنسبة إليّ هذا تأكيد جديد لموقفي السابق بأنه لا بدّ من الاعتماد على مصر. وأول ما سأقوم به لاحقاً، هو الكتابة إلى أمينوفيس الثالث. هذا مؤكد»، ولما لاحظ رد فعل كيا أردف: «مع الاعتذار منك. ولكن لا محالة من أن نعقد معه صلوات متينة. رتبي أمورك على هذا الأساس، وإن ألكمك ذلك. أزمة وتزول»، أضاف مواسياً أخته وإن بارتباك. لماذا تأتي ردود أفعال النساء دائماً بهذه الحساسية؟

«في كل الأحوال، لا علاقة لأمونحوتب بموت أبيتنا، هذا واضح. ولكن يبقى السؤال، من أين حصل على المعلومات، هنا أنت محقة. من عرف بموضوع الرسول الحتي؟ أبونا وأنت وأنا فقط. وربما أيضاً أمك أو أمي؟ لا علم لي بالأحاديث التي كانت تدور بين أبي ونسائه. ولكن من أيضاً؟ لقد كان يبالغ في حذره. أنا لم أعلم بالأمر إلا بمحض المصادفة، وحق الأرباب!». وانتفض أكيزي وأخذ يجول كالنمر، ثم قال: «لن نصل إليّ نتيجة. الأسئلة تتكاثر في وجهنا ولا أجوبة. إذًا، لنعد ثانية إلى خالطة السموم تلك. أنا أظن أنها تعمل بتكليف من تيرو والبدوي المجهول. لقد تمكنا من رشوتها بشيء ما. وربما كانت تريد ذهباً وفضة لتعتق نفسها».

«أنا أرى أنها على الأغلب قد تعرضت لابتزاز. فالجميع يشهدون بولايتها المطلق للملك، بل إنها كانت تبجله وتحبه، وأبي كان يثق بها. أخبرني أنه يقدرها جداً للهفتها وإخلاصها. وشعورها الدائم بالخوف كان يؤلمه، واستتج أنها قد مرت بتجارب مرعبة في حياتها، ولهذا كان طيباً جداً تجاهها».

«طيب. لكن سواء بالرشوة أم بالابتزاز يبقى الأمر سيّان. أتعرفين عنها شيئاً؟ قد يساعدنا هذا. ألهها عائلة في القصر؟ علينا أن نعرف ذلك. ولكن لنعد الآن إلى تيرو والبدوي المجهول. ماذا يفعل هذان الاثنان مع بعضهما؟ ما الذي جمعهما؟ الغارات على القوافل حتماً. هذا ما نعرفه من صديقنا تالزو اليقظ. وهذه الفتاة الخادمة سمعت أن تيرو قد استخدمها كمفتاح. فإما أنهما يعرفان بالأمر وإما أن أيديهما ملطخة».

«أعتقد أنهما متورطان. تذكر أن الذين نهبوا القافلة كانوا من البدو».

«في جميع الغارات التي وصلتنا أخبارها من ريب عدّي أو أيتاكما كان المغيرون من البدو».

«السؤال التالي يجب إذاً أن يكون: ما الغرض من الغارات وماذا يفعلون بالغنائم؟ أرجح أن أبي أراد أن يتحدث معي في هذا الموضوع. يحتمل أنه توصل إلى معلومات جديدة».

«لماذا معك أنت، وليس معي أنا؟ أنا ابنه!»، وكوّر أكيزي قبضته غاضباً.

صمتت كيا. ماذا كان بوسعها أن تقول؟

تماسك أكيزي مجدداً، مع أن دلائل المرارة قد رسمت خطأً حول فمه، ثم قال: «أتعرفين ما قاله أويّا لتيرو في المجلس مؤخراً، بعد هجوم تيرو الشنيع على الملك؟ اتهمه بالاستعداد للتآمر مع عبدي عشيرتنا، وبأنه جاهز لبيع قطننا له. وسأله عما إذا كان ملك أمورو قد وعده بتنصيبه حاكماً للمدينة لقاء ذلك. نتيجة لذلك ثار غضب تيرو وقال إن أبي علي وشك أن يبيعنا بأبخس الأسعار لأي قوة عظيمة تحميننا، أو ما شابه ذلك. وعندئذ أجابه أبي، بأن هذا أفضل من الإغارة على القوافل ونهبها كاللصوص العاديين».

«أكيزي، هذا هو الحل بعينه. لماذا لم تقل ذلك حتى الآن؟».

«لم أتذكره إلا الآن. في حينها ظننت أن كلاً منهم يستفز الآخر، أما الآن فيبدو أن أبي كان يعرف أكثر مما يخمن، ويرجح أنه قد أسر بذلك لأويّا. ولكن فعلياً ما معنى هذا؟».

كان عقل كيا يشتغل بتوقد. قالت: «هناك مؤامرة، يشارك فيها على الأقل شيخ بدو

نجهل هويته، وتيرو من قطنا، وعبدي عشيرتنا من أمورو. هدفهم أن تصير سوريا مملكة مستقلة. ولجذب حكام المناطق الأخرى إلى صفهم بالرشاء، يغيرون على القوافل وينهبونها. لم يكن أمراً عسيراً معرفة موقع أفضل الغنائم في القافلة. ففي دار البلد ما كان لأحد أن يرفض إطلاع تيرو على ترتيب البضائع المعدة للشحن في القافلة. أبونا كان، قوياً واحداً، ضد مملكة سورية. ونحن نعرف أن الأفضلية عنده كانت مؤخراً، أن ننضوي تحت جناح حتوشا. سرّه هذا كُشف، فكان لا بدّ من أن يموت. .. تشير إلى أمورو! هذا ما أراد أن يقوله لي. الآن يتوضح لي ذلك جلياً.

صفر أكيزي صفرة اعتراف وإعجاب، فحده ذهن كيا كانت فعلاً تلفت النظر. تابع أكيزي نسج خيوط أفكارها متسائلاً: «ولماذا لم يرشح تيرو نفسه الآن للعرش، بل صادق على ترشيحي؟».

«ربما كي يبقى في الخفاء حتى تنضج الظروف. وربما لمعرفته بأن معظم الأعضاء، بل حتى كلهم سيصادقون على ترشيحك. وربما لا اعتقاده بقدرته على جذبك إلى صفه». «في هذا سيكون خطوه هائلاً. فانا لست دمياً ليلعب بها من يشاء. كان موقفي الثابت دائماً إلى جانب مصر».

«أكيزي، هذا قد يعني أنك أنت أيضاً معرض لخطر شديد! يجب أن تتخذ كل الإجراءات لحماية نفسك!».

«لم أصبح ملكاً بعد! بالمناسبة، يجب أن أخضع لحكم الرب. هل علمت بذلك؟». «لا، لكن هذه خطوة حكيمة لدرء ظهور أي شك. ولكن كيف سيتحقق ذلك؟». «تساءلت كيا بذعر... فماذا إن قضى أكيزي بسببه؟ عليك استشارة شالا بشأن ذلك!».

أوما أكيزي برأسه. لقد اعتدل مزاجه وتلاشت سورة غضبه... لا شيء يسير على ما يرام، في مسألة قتل الملك هناك افتراضات مشتركة صائبة، ولكن من دون أدلة. حتى وإن تمكنوا من إثبات فعل القتل، لا يجوز لهم الإقدام على أي عمل، بل عليهم التزام الصمت، كي لا يتعرض تنويجه للخطر. وماذا عن الخادم الذي ما زال في الحجز؟ لا ريب في أنه بات يشك بأن ثمة ما ليس على ما يرام. وتلك الفتاة، إن ظهرت ثانية، قد يفضحان سرهم أو يبتزّانهم. لا يجوز أن يبقيا أحياء، فكر أكيزي. أهكذا سيبدأ عهدي؟

**

مساء اليوم الثالث عشر أغلقت جميع بوابات القصر. من السطوح سمعت أصوات أبواق وصنوج. في الوقت نفسه أوصدت جميع بوابات المدينة وأبواب المعابد ودار البلد وجميع بيوت المدينة بالمزليج. إنه (يوم إصابة قطنا بمكروه كبير)، والكل كان يعرف: إنها بداية رحلة الملك إلى الأرض التي لا عودة منها.

في المعابد تجتمع الكهان والكاهنات وعائلات الوجهاء حول المذابح، حيث وضعت القرابين. وفي فسحات مداخل المعابد تجتمع الرعاة والفلاحون والحرفيون وصغار التجار، ليقدموا هداياهم للأرباب.

لم يرافق الملك إلا قلة من المختارين: كبير كهان بعل وكبيرة كاهنات سيدة المدينة ومساعدتهما، عائلة الملك وعلى رأسها أكيزي وريث العرش المختار وزوجة إيداندا الملكة بلتوم وأبناؤهما، وابته كيا، وإخوة الملك وأخواته. أما زوجته إيست فقد تغيّبت، إذ حزنّت على الحبيب المتوفى حسب الطقوس المصرية.

أحاط المرافقون بالملك المسجى على محفة الموتى إلى جانب محراب سيدة المدينة وعيونهم موجهة نحو الغرب. بدا الملك كالنائم. وعندما نظرت كيا إلى وجهه انتابها ألم حاد، ودهمها خوف أن تنسى هذا الوجه ذات يوم. حاولت أن تحفظ في ذاكرتها كل التفاصيل وهي تقاوم دموعها. البوابة المؤدية إلى قاعة العرش ما زالت مسدلة الستائر، لكن الوداع الأخير بات وشيكاً.

«إني أخاف الموت، ولهذا أسرع عبر الصحراء،

مصير صديقي ما زال يثقل كاهلي.

هل سأضطرّ مثله إلى الاستلقاء،

دون أن أعاود النهوض إلى أبد الأبدين؟».

هذا ما كان يرتله كبير كهان بعل من أبيات (ملحمة غلغامش) التي تروي بطولات غلغامش وصديقه إنكيدو، وتركز في المقام الأول على بحث غلغامش عن الخلود. تابع الكاهن بصوته المجلجل الذي تغلغل في جميع الواقفين في المكان:

«الموت ظلوم، لا يعرف الرحمة.

هل نبي داراً إلى الأبد؟ ونبحر إلى الأبد؟

هل سيستمر الخصب إلى الأبد على الأرض؟

هل سيرتفع النهر إلى الأبد ويدفع مياه الفيضان؟

منذ الأزل لا استمرارية هناك،

النائم والميت، كم يتشابهان!«.

ارتفعت أصوات الندب، وفوراً علا صوت أمر بالنهي عنه. فلقد بدأ الدرب إني العالم السفلي.

كان لا بدّ من عبور سبع بوابات والهيمنة عليها، إذ كان لكل منها حراس مرعبون. فإن لم يفسحوا المجال للعبور، فستحلّ بالملك لعنة أبدية، فيبقى روحاً ضالة بائسة تهدد مجتمع الأحياء، محكومة بالتيه بين الدنيا والآخرة بلا خلاص. لهذا لا بدّ من حمل ما يكفي من الأعطيات والهدايا والمأكولات والمشروبات لحراس البوابات أولاً، ومن ثم لأرباب العالم السفلي: الرب موت والربة (أللاني) وغيرهما. ولا بدّ من ترتيل أناشيد ساحرة لتلطيف أمزجتهم. وكان يحق لكل من المرافقين أن يُسر للملك بآخر ما لديه وأن يلمسه. ثم اتخذ الموكب شكله التراتبي، يقوده الكاهن الأكبر، يتبعه أربعة كهان يحملون محفة الملك إيداندا، فيما اتخذ الآخرون الأمكنة المحددة لهم حاملين ما تم تزويدهم به للرحلة.

في أولى المحطات السبع يودّع الملك واجباته الدنيوية. وكان قد حضر لتوه آخر استقبال في القاعة الكبرى، وما هو ذا الآن أمام البوابة الأولى.

«إنه يقدم هدايا لحراس بوابات العالم السفلي السبع.

الراعي العادل يعرف قلبه نظام العالم السفلي.

الملك يقدم الهدايا قرايين للعالم السفلي.

إيداندا يقدم الهدايا قرايين للعالم السفلي».

من بوابة قاعة العرش المسدلة الستائر خرجت تحت ضوء المشاعل هيئة مريعة المنظر، على رأسها ريشٌ بطٌّ برّي، الوجه مغطى بقناع يذكر بخنزير بري، الجسم أحمر بلون الدم الذي كان يسيل على فروة الخروف الملفوفة حول الخصر.

«تقدم إيداندا، ادخل!». قالت الهيئة بصوت ناعم ذي وقع أجوف، غير متوقع من مثل هذه الهيئة الفظيعة، التي تقدمت من المحفة ورفعت التاج عن رأس الملك، وأضافت: «كن مطمئناً إيداندا، هذه هي الهدية المناسبة للعالم السفلي». وبأيدي غير مرئية رُفعت الستائر عن البوابة، فعبرها الموكب، ثم أسدلت وراءه بلا صوت.

عبر الموكب قاعة العرش حاملاً الملك الذي لن ينطق بالحق من على هذا العرش من

بعد، لكنه زوّد لرحلة الموكب بعرش متحرك. بلغ الموكب البوابة الثانية التي ظهر منها أيضاً حارس مربع الهيئة، سمح للملك وحاشيته بالعبور إلى قاعة المآدب بعد أن تلقى العرش المتحرك كهدية. هنا تناول الموكب الوجبة الأرضية الأخيرة برفقة تراتيل تعود إلى عهود سحيقة. وللأرباب قُدمت الجعة الفاخرة والطحين الفاخر.

كانت كيا تمشي إلى جانب كوارى وهي تشعر بالارتياح لقربه منها. تُرى كيف ستكون بقية الدرب إلى حيث لا عودة؟ لم يكن في ذهنها أي تصور، رغم أن معرفة محطات الدرب والشعائر المرتبطة بها تُعدّ جزءاً من تأهيلها للكهانة. كم تختلف التجربة الواقعية عن الدرس! انتابتها قشعريرة. لم يسبق لها أن فكّرت بمكانٍ دفنٍ أفراد العائلة والأسلاف. كانت تعرف أن هناك لقاءات دورية في مواعيد ثابتة مع الأسلاف الملكيين، لكنها لم تعرف مكان انعقادها. فهذا محصور بفترة محددة، باتت واحدة منها منذ اليوم.

حمل الكهان الأربعة المحفة ثانية وانتظم الموكب مجدداً. إلى أين سيتجه؟ تلفتت كيا حولها. كانت هناك بوابات وأبواب تؤدي إلى أجزاء القصر الأخرى باتجاه الشمال والجنوب الشرقي. لكن هذا الاتجاه لا يؤدي إلى العالم السفلي، أم ماذا؟ بينما كانت كيا تفكر، انفتح فجأة في الجدار الشمالي بابٌ، لم يسبق لها قط أن لاحظت وجوده. كانت جميع جدران قاعة المآدب مزينة بلوحات كبيرة من الحفر النافر، تجسد مشاهد مختلفة من أعياد السنة. لوحة الجدار الشمالي كانت تجسد طاولة مأدبة عامرة كالتي تقدم في عيد قمر الشتاء الجديد. لكن الحفر النافر هنا لم يكن مجرد زينة جدارية، بل لإخفاء البوابة الثالثة، وهي إنجاز فائق المهارة لمعلم البناء والنحت.

«تقدّم إيداندا، ادخل!». صدح صوت معدني، وفي الوقت نفسه امتدت يدٌ هيئة مغطاة بالحرشف من رأسها حتى قدميها وتناولت عصا الملك. وأضاف الصوت: «كن مطمئناً إيداندا، هذه هي الهدية المناسبة للعالم السفلي»، مفسحاً في المجال لعبور الموكب من الباب الضيق، وانغلق وراءه من دون صوت بعد أن نزل الموكب عدّة درجات شديدة الانحدار. لقد باتوا أسرى:

كان الدرج المنار بإضاءة خفيفة عريضاً، يتسع لأربعة أشخاص معاً. ضغط أفراد الموكب أنفسهم على درجات السلم السبع عشرة - حسبما عدّتها كيا - لوجود باب بمصراعين في الطرف الآخر يسد إمكانية المتابعة. ومجدداً دهم كيا خوف محرّج لوجودها في هذا المكان المغلق، فأخذت تلهث. ماذا، إن لم يكن ثمة عودة لهم جميعاً؟ أمسكت بيدها الحرة رداء كوارى وتشبّثت به.

فُتِحَ المصراع الأيمن العريض وظهرت منه في ضوء المشاعل هيئة شيطانية مفزعة. وبعد أن قيلت الكلمات الشعائرية وحصل الشيطان على الصولجان هدية، عبر الموكب إلى دهليز منحدر وبلغ في نهايته المدخل الخامس. كانت كيا تعرف قصة نزول الربة عشتار إلى العالم السفلي، التي كان عليها أن تجتاز عقبات سبع بوابات. هل يتكرر النزول هنا؟ إذاً، هناك أمل. لكنها شخصياً ما زالت تحت الأرض. شمت رائحة العفونة الباردة، وسمعت خشخشة الثياب، وليس أمامها سوى المجهول. ومع ذلك فقد عاد جميع الأحياء، وعذبه هي الفكرة التي عليها أن تنسب بها. قُدم للبوابة الخامس رداءً نقيّ هدية، فسمح لهم بالعبور عبر باب مزدوج، استمر الموكب بعده بالنزول انحداراً حتى بلغ باباً مماثلاً للسابق. ظهر حارسه في النور الضعيف وطالب بهديته التي كانت إناء مرهم فاخراً مملوءاً بزيت زكي الرائحة. بعد الباب السادس نزل الموكب عدّة درجات ثم سار في دهليز منحدر، ولكن بعد خطوات قليلة بلغ جداراً من أحجار كلسية ضخمة.

أخذ قلب كيا يخفق بشدة. هي إذاً سجينه هذه الجدران مع الملك الميت، وقسم كبير من العائلة الملكية. ماذا إن أبقاهم القتل هنا وتركوهم للموت؟ وتسألوا بهذه الطريقة إلى عرش قطنا؟ كيف لهم أن ينقذوا أنفسهم من هذا المكان؟ لماذا لا يُسمح لهم بالمتابعة؟ حاولت التنفس وهي متشنجة الجسم. التفت كوارى نحوها، فرأت عينيه الكبيرتين اللتين بدتا في ضوء المشاعل أكبر. هل ينظر إليها لاثماً؟ حاولت أن تلمسك، فائلة لنفسها بأن كل مخاوفها ليست سوى وساوس حمقاء. سنعود إلى وجه الأرض، سوى أبي. أغمضت عينيهما. وقف الجميع بلا حراك، ثم بدأ الترتيل. طلبوا من الحارس الأخير فتح بابَه وقدموا له ماء وطحينة حتى لان جانبه، وأخذ كل من الكاهن الأكبر ومحفة الملك والأشخاص، الواحد تلو الآخر يغيبون عن أنظار كيا. وبعد مدة قصيرة، عندما تمكنت أخيراً من أن تتقدم بنفسها، انتهت إلى أن الدهليز ينعطف بزواية حادة نحو اليمين عبر باب خشبي آخر، أي البوابة السابعة، التي يقف حارسها وراءها رافعاً في يده بحركة انتصار سلسلاً نفيساً وثميناً جداً. وأدركت أن الدهليز ينتهي بلا شيء.

انفتحت أمامه فجوة محفورة في الصخر، ويصدر منها شعاع نور خفيف، لا يمكن النزول فيها إلا على سلم خشبي طويل. ناولت كيا الأيدي الممدودة لمساعدتها الصرة التي كانت تحملها بيدها، ونزلت على درجات السلم بشيء من الارتباك حتى البسطة الأولى. ومن هناك يستمر النزول على سلم ثان. في هذه البسطة خيّل لكيا أنها قد رأت إحدى أنفس المزهريات الغرائبية التي أحضرها أمونحوتب معه كهدايا. وعندما وصلت

إلى الأرض خامرها شعور بوجود برج أسود شاقق يتصبب فوقها. حاولت تجنب النظر نحو الأعلى. اجتمع أفراد الموكب جميعهم الآن في غرفة مستطيلة متوسطة الاتساع، جزء منها منحوت في الصخر والجزء الآخر مبني بحجارة كبيرة، ولا يضيئها سوى مشعل واحد. في الجدار الصخري الأيمن نحت مدخل خشن، زين جانبا بتمثالين متشابهين، من الحجر الرمادي القاتم، لملكين جالسين من الأجداد، وقد ألبسا بمناسبة هذا الحفل الطقسي، كرمزين للسلطة الأبدية، بغض النظر عن العائلة والزمن. وضع كل منهما يده اليسرى على صدره واليمنى تحمل إناءً مستندة على الركبة اليمنى. كانا يرتديان المعطف التقليدي الطويل ذا الأطراف السميقة. وفي الإنارة الشبحية تبدى الوجهان حيين: هل كانا يحركان شفاههما الممتلئة؟ هل كانا يهمسان بالبركات أم باللعنات؟ وعيونهما ذوات الأحداق السوداء في المقلات البيضاء، كانت تبدو شاخصة لكل واصل جديد. وكانت تسريحة شعرهما مثل تسريحة إيداندا. كانت كيا تعرف هذين التمثالين من حرم الأسلاف في القصر. إلا أنهما هناك كانا يرتديان تاجين مقرنين رمزاً لألوهيتهما. صبَّ كاهنان جعة طازجة في إناءي الملكين، ووضعها في حضنيهما خبزاً فواحاً، تنشقت كيا رائحته بتلذذ، فقد قربتها الرائحة خطوة من الحياة. وبدهشة أخذت تنظر إلى الأشياء الكثيرة المنقولة من يد إلى يد على السلم نحو القاعة السفلية.

عبر الموكب المدخل بالترتيب نفسه إلى مساحة تشبه قاعة، هي الهدف، أي قصر الملك الميت وجميع الأسلاف الملكيين. أشعلت المشاعل ووضعت في الحوامل الجدارية، فأضيئت القاعة الرئيسية ومدخل ثلاث غرف فرعية منها. وقفت كيا وظهرها للمدخل الرئيسي وأخذت تراقب ما حولها بحذر. رأت أربعة أعمدة خشبية ضخمة تحمل السقف هنا، كما في قاعة الاستقبال في القصر. في منتصف المربع المتشكل بينها نُصبت مجامر، أخذ الكهان يزودونها بفحم متقد. كانت الأرضية مغطاة بكتل طرية. أهي من قماش مهترئ أم من صوف قديم أم من سجاد؟ في الفراغات بين الكتل كانت تلتصق صفائح ذهبية كالتي تخاط أحياناً على الألبسة. تقدمت كيا متنبهة كالآخرين.

وضع الكهان محفة الملك في الغرفة المقابلة لمدخل القاعة، التي زود جانبا مدخلها العريض بعمودين خشبيين مزدانين بأشغال حفر جميلة. وهناك في الغرفة انتصب سرير عظيم مغطى بأقمشة نفيسة ذات بريق ذهبي ووسائد ناعمة فاخرة، وهو المكان الذي خصصه الأرباب لوجبة الملك اللاحقة. نُقل الملك بروية إلى السرير ووضعت المحفة جانباً، ومن ثم رتبت على السرير وأمامه الأغراض والمأكولات التي سيحتاجها في حياته

الجديدة وكذلك هدايا الأرباب. ومن هذه الأغراض قوس الملك وجعبة سهامه المغلفة بطبقة رقيقة من الذهب نُقشت عليها بمهارة عدّة مشاهد صيد. وكان في الجعبة عدّة سهام ذات رؤوس برونزية، إضافة إلى سهام أخرى، ومغرفة قربان النيذ للأرباب، وحناجير المراهم، وحلي وجواهر، وأدوات طعام فاخرة وأشياء أخرى كثيرة.

وإلى يسار مدخل الغرفة هذه، وضع أيضاً عرش الملك المتوفى الجديد، وهو كرسي ذو مسند ظهر عالٍ مُطعمٌ بالعاج. يتبع العرش كرسي قدمين منجّد وملبّس بقماش قرمزي اللون. كان يجب أن تبدو هذه الغرف مألوفة للملك كقاعة الاستقبال وقاعة العرش وقاعة المآدب. في أثناء هذه العملية جلس أفراد العائلة في قاعة الاستقبال السفلية على مقاعد حجرية مزودة بوسائد على كراسي خشبية قابلة للطي. في الجهة المقابلة نُحت في الصخر ما يماثل مقاعد حجرية على قواعد دائرية الشكل، وقد رُتبت عليها وعلى الأرض بجانبها أبراج من الصحف والصحون والأقداح والكؤوس والأباريق والزجاجات وغيرها من أدوات الشرب. وكانت الكاهنات منشغلات في هذا المطبخ.

بمرافقة التراتيل وُجّهت الدعوة إلى أرباب العالم السفلي إلى مأدبة مع الأسلاف الملكيين، هيأها لهم الملك إيداندا. كما وضعت الهدايا المخصصة لهم في مكان بارز. وهذه الدعوة الجماعية كانت تتكرر تباعاً. وفي أثناء أداء شعائر أخرى كانت لحوم الغنم والبقر قد جهزت وشويت. وسرعان ما عُبقت في المكان روائح الشواء اللذيذة التي أنست الحضور الدخان المزعج.

أخذت كيا تراقب، في الطرف المقابل من غرفة الأعمدة الأربعة، الكهان الواقفين عند تابوت حجري مفتوح ويضعون فيه أشياء، ربما صحافاً وقرابين. وكانوا يرتلون بالتناوب نشيداً تعزيمياً رتيباً. ثم اختفوا في الغرفة إلى يسار التابوت، حيث سكبوا جعة وحلياً. بعد مدة طويلة عرفت كيا أن هذه الغرفة تحتوي على رفات جميع المدفونين من الأسلاف، منذ بناء هذه المقبرة الملكية: عظام، جماجم، هدايا قربانية كالحلي وأدوات الطعام والشراب. بعد ذلك انتقل الكهان إلى غرفة العرش الجديد والمآدب، حيث كان الملك مسجى على سريره. وهنا أيضاً صب الكهان جعة وحلياً في طاسات، وصبوا حبوباً وطحيناً وملحاً في أوانٍ مصفوفة، معظمها هدايا عتيقة من حكام غابرين.

حالما نضج اللحم نهض أكيزي واقفاً، وهتف باسم أبيه إيداندا ملك قطنا، داعياً جميع أسلاف العائلة بأسمائهم المعروفة إلى المآدبة، والد والده أولاشودا وزوجته، والدي

أولاشودا، وأجدادهما وجميع الآخرين الذين لم يعد يحفظ أسماءهم أحد: «تفضلوا! كلوا هذا! اشربوا هذا! واستقبلوا ببركاتكم وفي وسطكم إيداندا ملك قطنا».

صب الكهان جعة وحليباً قرباناً لأرباب العالم السفلي وللأسلاف. قدموا لهم لحمًا مشويًا زكي الرائحة وجوباً وملحاً وخبزاً طازجاً وزبدة. قامت الكاهنات بخدمة الملك أولاً، فوضعن أمامه مأكولات متنوعة. ثم حصل الجميع على الطعام وبدأت المأدبة مع تناول الجعة وارتفاع الأصوات. وبينما كانت كيا تمضع بعض الخبز صامتة، فكّرت بالأجيال الكثيرة المتعاقبة التي اجتمعت في هذا المكان تحت الأرض. كم من الأحياء، وكم من الأقارب الأموات من طرف شخص واحد، أيها! سلسلة لانهاية لها حتى البداية، عندما خلق الأرباب البشر لكي يخدموهم ويرعوهم. أليس هؤلاء البشر كلهم أقرباء؟ عائلة كبيرة واحدة؟ أليس صحيحاً إذًا، أن يعيشوا مع بعضهم في سلام؟ أخذت لقمة جديدة وهي سارحة وراء أفكارها. ولكن، إن لم يتمسك حتى الأرباب بذلك؟

كل المعالجات الضرورية للميت التي أجريت في الغرف الجانبية لمدفن العائلة لم يكن يعرفها ولا يجوز أن يقوم بها سوى العالمين بالأسرار. ولهذا السبب اختتمت طقوس الموتى صباحاً بعد الدفن. استيقظ سكان قطنا في وقت مبكر على صياح الكهنة المروع من سطح القصر وهم يطردون الشياطين التي تحوم حول الميت. عندئذٍ فتحت جميع الأبواب والبوابات للقادرين، كي ينصتوا إلى التراتيل المتبادلة بين كاهن على السطح وكهان عند البوابة الرئيسية الغربية يجسدون أرباب القبر.

«إلى أين ذهب إيداندا؟»

فأجاب الأرباب الموجودُ عندهم: «لقد ذهب إلى دار الموتى». ويجب أن يستمر تكرار السؤال والجواب إلى أن يتم إرضاء الأرباب بحصولهم على مناديل، وعندئذٍ يحييون عن سؤال: «إلى أين ذهب إيداندا؟». بقولهم: «إلى هنا ذهب!». ويكررون قولهم ست مرات. وفي المرة السابعة يأتي جواب الخلاص من الأرباب: «لقد خرجت الأم للقائه، فأمسكت بيده ورافقته».

عندئذٍ يكسر على السطح إناء فخاري وتُسمع وصلة نذب أخيرة وتُقدم وجبة وفاة أخيرة. وبذلك يسود يقين بأن إيداندا قد وصل إلى ملكوت الموتى، منفصلاً انفصلاً كاملاً عن الأحياء، مزوداً بكل ما يلزمه بأفضل صورة وقد استقبله الأسلاف بترحاب.



لم تسنح الفرصة لتانوا لرؤية المدينة الشهيرة نريكا. القسم الأكبر من الجيش تقدم بقيادة هنوتي بمسيرات سريعة نحو الجنوب الغربي، عبر المنطقة الكشكية، التي سادها السلام مجدداً، على حدود أرزاوا، بهدف دعم القائد هيمولي. هُزمت مقاطعة هبالاً ونهبت، وعيّن فيها باسم الملك العظيم شويلوليوما حاكم موالٍ للحتّين، تحذيراً لأرزاوا. في أواخر الصيف عاد تانوا أخيراً إلى حتّوشا حيث نام في سرير حقيقي.

في مكاتب إدارة شؤون الدولة بُدئ بعناية بتقييم كثير من الملاحظات والمشاهدات التي دونها تانوا وبقية الكتاب والسعاة والرسل. أما في التقرير الملكي حول مجريات الحملة فقد دوّن ما يلي:

«أنا اللابارنا شويلوليوما، عندما كنت أقاتل في أرض أرزاوا انقضّت القوات الكشكية من وراء ظهري على أرض حتّوشا ونشرت الخراب فيها. لذلك أمرت، أنا شويلوليوما، قواتي في السنة التالية بالتحرك ليلاً، وحاصرت قوات العدو، وساعدني الأرباب في إسقاط جيش الكشكيين بين يديّ، لذلك أوجه شكري لربة الشمس في أرينا، ولرب الطقس في السماء وللربة حامية حتّوشا ولزّاماما وعشتار وسين وللوانني، فبدعمهم هزمتُ الأعداء واحتللت أرضهم. ومهما كانت البلد التي اندفعت منها الجيوش لتشارك في المعركة، كان الأرباب يتقدمونني فيفتحون أمامي البلدان التي أعلنت الحرب عليّ. قُتل عدد كبير جداً من قوات الأعداء. من أسرناهم وما غنمناه من الثيران والأغنام وممتلكات البلدان أخذته معي إلى حتّوشا. والآن بعد أن دمرتُ أرزاوا، عدتُ إلى وطني حتّوشا. بلغت الغنيمة عشرة آلاف جندي مشاة وستمئة عربة خيل مع سائقيها؛ أحضرتهم إلى حتّوشا ووطنتهم فيها. وحيثما توجهتُ في معاركي كنت أهزم العدو وأحتل أرضه بقوة. لقد دمرتُ البلدان وأنهيتُ سيادتها».

1351 - 1342 ق. م

انتهت مدة الحداد الرسمي، وطُردت الأرواح الشريرة من القصر ثم نُظف جذرياً. وكانت أخبار الزلزال قد وصلت إلى قطنا. لم تستغرب شالا ولا أكيزي وكيا أن مركزه كان على الساحل، حيث تسبب في أضرار جسيمة، لا سيّما في إزقاتا عاصمة أمورو. وبذلك اطمأن مجلس الأعيان، لتأكده الآن من أن تحذير الرب إيل أو عقابه لم يكن موجهاً إلى ملك قطنا.

على الرغم من ذلك لم يُعف أكيزي من قرار حكم الرب، إذ لم يشأ أحد الوقوع في الخطأ. كما بُرر القرار، إضافة إلى ذلك، بأن كثيراً من حيوانات البحر على طول الساحل قد قضت، وبضمنها (أفخاذ إنكيديو) أو القواقع المقدسة، ذات الأهمية الكبيرة لقطنا. فلقد طالب رب البحر (ياو) بنصيبه. وكان لهذا الخبر وقع مخيف، إذ سيمضي وقت طويل حتى ينمو ما يكفي من القواقع وتُجمع لتلبية حاجة قطنا. ولم يكن واضحاً، إلى متى يكفي مخزون المادة اللونية لإنتاج الأقمشة الأرجوانية المرغوبة والمطلوبة. وكان ذلك ضربة موجعة للعائلة المالكة، فهي السلطة الوحيدة المخولة بهذا الانتاج.

كلما اقترب الوقت، ازدادت خشية أكيزي من حكم الرب، العجائب على كاهله، لا سيّما أن لا فكرة لديه إطلاقاً، عما قد يواجهه. أيسمح الأرباب بالتفاوض معهم؟ أيدركون أنه لأسباب محض سياسية لم يكن بوسع التصرف على نحو آخر؟ ومن ساعة إلى أخرى كانت خشيته تتصاعد إلى خوف لا اسم له. حاول في البداية مداراة خوفه عن زوجته وأمه وبقية أفراد العائلة، وكان يفرغ توتره ببلسمه الشافي الوحيد، بأن يجر إهلي نيكالو إلى السرير وينقضّ عليها. أليس هذا حقه بعد انتظار طال شهوراً! وكانت ترضخ بلا حول ولا

قوة، مواسية نفسها بقولها إن هذا هو واجبها الذي كلفها الأرباب به. وذات مرة كان أكيزي تالف الأعصاب إلى درجة أن انفجر في حزن زوجته باكياً كأنه رضيع. وبارتباك ونوع من العجز، ورغم كل شيء، أخذت تربت على أسدها وتبت في الأمل. وأخيراً أرسلت خبيراً إلى كيا.

مساءً ظهرت كيا في القصر مثل ظل، طلبت الانفراد بأكيزي، وبعد فترة قصيرة عادت إلى بيت الربة. شعر أكيزي بعد ذلك بنوع من التحسن، وليس الخلاص. لكنه بات متمسكاً في انتظار دعوته إلى معبد بل.

إضافة إلى الكهان، كان المجلس حاضراً بكامل أعضائه ليدلي بشهادته. كان على أكيزي أن يجلس بحضور الجميع. عُصبت عيناه وناولته كبير الكهان كأساً، وبعد التماس الأرباب للحضور وهو يدور حول مكان جلوس أكيزي أمره كبير الكهان قائلاً: «اشرب، أكيزي يا ابن قطنا، وأثبت جدارتك!».

تذوق السائل بحذر. امتلأ فمه بشيء مَرَّ ولَد له إحساساً بفطير سام. كان لا بد من أن يسيطر على حواسه، كي لا يبصق أو يسعل أو يكشّر بطريقة لا رجولة فيها. مع كل جرعة جديدة كان يتولد لديه انطباع بأن معبر حلقومه يزداد ضيقاً. ومع ذلك أفرغ الكأس حتى القطرة الأخيرة من دون أن يفصح حقيقة إحساسه، وخلال ذلك كان يبتهل إلى الأرباب أن يمدوا له يد المساعدة. كان عليه أن يبقي الشراب في معدته، وألا يتعرق، وأن ينهض واقفاً بعد تناول الشراب ويمشي مستقيماً حتى باب المعبد. وهناك يحق لخدمه أن يمسكوا به ويقودوه إلى القصر. كانت تلك هي الشروط.

أكيزي نفسه لم يصدّق كيف جرت الأمور، لكن الأرباب أسبغوا عليه من رحمتهم في كل شيء، فخرج من التجربة من دون خطأ أو مثلبة. وفي جميع أنحاء البلاد أعلن المنادون: «أكيزي، ابن إيداندا سيصبح ملك قطنا!». وسرعان ما توصل كهان العرافة إلى اليوم المناسب لتتويج الملك الجديد. وحتى موعد التتويج، كخاتمة للاحتفالات، وحين يستلم مهام عمله فعلياً، كان عليه أثناء الاحتفالات أن يقدم مختلف البراهين على قوته وقدراته، كي لا تصاب المدينة والبلد بأي مكروه. وفي ختام ذلك كله تنتظر قطنا احتفالاً، بمنزلة عيد.

ملأت بيت الربة أصوات ثرثرة ونقنقة. ففي الباحة الهادئة عادة، اجتمعت في ساعات ما بعد العصر بنات عائلات الأعيان والأشراف، سواء أكنّ يخدمن في الحرم الآن أم لا.

من هذا الحشد وبعد أسئلة الكاهنات لكل واحدة على حدة، سُمح لسبعة منهن بالبقاء، وكيا من بينهن، لأنهن يمتلكن السمات المنصوص عليها. أما بقية الفتيات الغارقات في صوصة متداخلة هائجة فقد اختفين مساء من المعبد، فعاد إليه السكون. وإذا حزن بعضهن لعدم وقوع الخيار عليهن، فإن المنتخبات لم يكن متأكدات من ضرورة شعورهن بالسعادة، لهذا الشرف العظيم الذي أُسبغ عليهن وعلى عائلاتهن. فلقد انتُخبن لتجري عليهن قرعة منهن التي ستنوب عن الربة في طقس العرس المقدس. وكانت الكاهنات مسؤولات عن إعداد هذا الجزء من العيد، فهن من يتقنن بعناية فائقة المرشحات الأول. أما القرار النهائي فتحسمه الربة نفسها، بأن تضع يدها على العذراء التي عبر جسدها ستعاشر الملك. والعذراء تعبر الربة جسدها فقط، ولن يعرف الملك مطلقاً أي المرشحات ستكون من نصيبه لهذه المرة الوحيدة. وكان هذا الأمر يحاط بسرية كاملة.

وأفضل بشارة خير للملك الجديد ولقطننا هو حمل نائبة الربة، الذي يعد هدية الربة لملكها المحبوب وبلدها المحبوب. ولهذا اختارت شالا أفضل كاهناتها علماً لطرح الأسئلة على الصبايا. وفي الليلة نفسها بدأت عملية القرعة. دخلن فرادى وبكل خشوع إلى غرفة صغيرة مجاورة لقاعة المذبح. قدمت لهن شالا طاسة مغطاة لتأخذ منها كل منهن بعينين مغمضتين حبة حمص وتناولها من دون أن تراها للكاهنة الكبرى. بالتالي سحبت كل واحدة منهن حبة حمص سوداء، إلى أن لم يتبق في الطاسة سوى الحبة البيضاء، وصيبة واحدة عند المدخل: كيا. من دون أن تبدي أي نامة، أنهت شالا العملية وأرسلت الفتيات إلى أسرتهن، دون أن يعرفن النتيجة.

تُوِّج أكيزي ملكاً، بمشاركة واسعة من سكان قطننا وفي حضور عدد من كبار الضيوف. وخلال العيد المتعدد الأيام حُسيب حساب كل وجه من وجوه الحكم الملكي بما يليق به. فالملك هو الممثل السياسي الأعلى للبلد، وفي الوقت نفسه كاهنه الأعلى، فهاتان الوظيفتان مرتبطتان إحداهما بالأخرى لا تنفصلان. لكنه أيضاً الفلاح الأعلى، والراعي الأعلى، والصيد الأعلى، والناظر الأعلى للبلد. وقد افتتحت الاحتفالات في معبد بعل، بإلباس الملك عباءة القداسة التي تُبرز هوية أكيزي الجديدة، أي أن جميع أفعاله في المستقبل ستكون بتكليف من الأرباب.

ومن ثم ركب مع زوجته العربة ذات الدولابين التي يجرها جوادان وهو يقول: «ربة العرش منحتني، أنا الملك، شارات السلطة والعربة!». وفي موكب احتفالي طويل وصل

أكيزي إلى القصر الذي غادره وريثاً للعرش، ودخله الآن من البوابة الجنوبية ملكاً لقطنا. رافقه موكب الحاشية عبر قاعة الاستقبال إلى عرشه، الذي يرمز إلى ديمومة السلطة، حيث استلم بيديه الصولجان الذي صُنع له خصيصاً، ثم ناوله أحد الكهان العصا الذهبية المعقوفة المطعمة بتزيينات فضية، التي ترمز إلى السلطة القضائية. بعد ذلك ناوله كاهن آخر حربة النصر، رمز الحكم الملكي والقوة العسكرية، التي وضعت في مكانها الدائم إلى يسار العرش.

«المخفر بيد الملك وحجر الرحا بيد الملكة، بهما تهيئان يا سليلي الأرباب الخبز والشراب قرابيناً إلى أبد الأبدين»، هكذا صدح الغناء تمجيدياً للصفات الفلاحية للزوج الملكي، لتأكيد أن الأرباب قد منحوهما القدرة للتأثير في نمو الطبيعة. وأخيراً ألبس الملك معطف الرعاة، فعلى الراعي الأعلى أن يوفر للمراعي السلام والازدهار. ثم جاء دور مديح الصياد الأعلى الذي يوفر الغذاء للناس بطلقات سهامه المحكمة، ومن بعده الناظر الأعلى الذي يشرف على طبيعة الأرض وغابات الأرز وبساتين التمرور وكروم العنب. وتخلل احتفالات العيد تقديم قرابين طعام وشراب للأرباب والأسلاف ومآدب عامرة للأحياء المحترفين.

ناجت شالا ربتها لفترة طويلة. لماذا كيا؟ عمّ تريد الربة أن تعبر بهذا الاختيار؟ هل يمثل هذا الخيار مستقبلاً خيراً أم لا بدّ من اعتباره إشارة تهديد؟ راجعت شالا فوراً النصوص كافة. هل ارتكبت خطأ ما؟ أكان من غير الجائز اعتبار كيا واحدة من مجموعة الصبايا، لأنها تحدّث من العائلة الملكية؟ لكن النصوص لا تذكر شيئاً بهذا الصدد، بل ذكرت: من عائلات الأعيان والأشراف، فقط. زواج الإخوة كان محظوراً في قطنا. والعرس المقدس ليس زواجاً، بل نكاح إخصابٍ لمرة واحدة لا غير. ومع ذلك يحتمل أن يسيء لكيا بصفتها أميرة قطنا. ولكن لن يدري أحد قط أن كيا كانت تجسد الربة. النساء كن ملزمات بالصمت، وسيقين شهراً كاملاً في بيت الربة، هذا إن لم يكن أصلاً من المبتدئات في سلك الكهانة. وإذا حدث حمل، فإن الطفل يؤخذ من أمه عقب الولادة فوراً، ويتبع للمعبد.

أن يقع خيارُ الربة على صبيةٍ للعرس المقدس، يُعد عادةً ذروة حياة الصبية، لأنها ستمثل الربة في اعتلاء الملك عرشه، دون إعلاءٍ من قدها الاجتماعي. أما في حال كيا فإن كبيرة الكاهنات، ببساطة، لم تكن متأكدة. قلبت شالا الأمر على وجوهه، دون أن تتوصل إلى مخرج. كل ما ارتبط بتتويج أكيزي كان غير عادي، فهو في نهاية المطاف قد اشترى من

الأرباب بضمن باهظ. وشالا امرأة واقعية لا تخدع نفسها. تُرى هل ينتقمون؟ حتى وإن كان كل شيء الآن يبدو في مساره المعتاد؟ المؤثرات السابقة التي قرئت بقيت ملتبسة. ولم تحصل شالا على أجوبة عن أسئلتها. وأخيراً تجرأت وحسنت أمرها بأن الأجوبة لم تأت، لأن أسئلتها كانت نافلة. کیا ستكون خليفتها المختارة، وكل ما عدا ذلك لا أهميّة له بالنسبة إلى الربة. ومع ذلك كان قلبها مثقلاً بالهم للقبول بهذا الخيار: أن تشارك کیا في طقس العرس المقدس مع أخيها غير الشقيق، بصفتها تجسيدا للربة بيليت إكالم سيدة المدينة ولربة الحب عشتار.

والآن، لا بدّ من تهيئة المختارة للمشاركة في الفعل المقدس. أرسلت شالا في طلب أمينية، لتشد من أزر صديقتها. فقد سبق أن كانت أمينية مختارة من قبل الربة، وأدت واجبها في عيد رأس السنة، ولكن ليس كعذراء. فالعذرية شرط عند تتويج الملك فقط. سرحت أفكار شالا إلى سنين خلت. عند اعتلاء إيداندا العرش كانت هي التي شاركته السرير المقدس. هل علم بذلك لاحقاً يا ترى؟ طوال تلك السنوات كانت علاقتهما مبنية على الثقة والاحترام. كان عشيقاً حساساً، متعاطفاً، حنوناً، ومع ذلك ممثلاً فحولة وثقة، فلم تعان مطلقاً آنذاك في سرير الزهور.

«جهّزي كل شيء أمينية»، قالت شالا عائدة من شرودها إلى أرض الواقع: «مساء اليوم ستحصل المختارة على الإكليل وتُهيأ للغد».

«أنت هي!».

اندفعت أمينية إلى المخدع المشترك وعانقت کیا مبتهجة وهي تقول: «أنت يا حلوتي، ولا أحد غيرك. الربة تريدك أنت! لقد اختارتك وباركتك منذ البداية. مالك صامتة! ألسيت سعيدة بذلك؟».

«أتقولين إنني أنا والملك.. نحن، تقصدين أن الملك وأنا يتوجب علينا إقامة الطقس؟ لا شك في أنك مخطئة. أنا أخته!».

«وماذا في ذلك؟ إنها مشيئة الربة. لقد سحبت القرعة. ستحلّ الربة في جسدك، وستمنح الأرض البركة والخصب». وأخذت أمينية ترقص من البهجة. إنها المنة الأعلى التي قد تمنحها الربة لعذراء أو امرأة، فيا له من يوم سعيد!

جلست کیا على سريرها مذهولة. هذا مستحيل. كل ما فيها كان يرفض. لا، ليس أكيزي!

«صديقني يا كنزي، لا داعي للخوف أبداً. مساء اليوم ستكلمين بصفتك مختارة الربة. وستتم التحضيرات بكل عناية لنهار الغد ومساؤه. ستلاحظين سرعة حلول الربة فيك. عندئذ لن تكوني كيا، وهي التي ستقودك إلى السرير المقدس»، قالت أميناية بخشوع، ثم أضافت: «سأتي لأخذك عندما يحين الوقت!».

سخطت كيا، رغم معرفتها بأن الربة ستعاقبها لعصيانها وعنادها. لماذا هي؟ إنها لا تريد هذا الشرف. أهذا عقاب مساعدتها لأكيزي في أمور لا تستند على أرضية صلبة؟ لكنها لم تتصرف بملء حريتها، بل أجبرت على الصمت لأنه الأفضل لقطنا.

بعد فترة اعترفت لنفسها بخوفها من أكيزي الذي تعرفه بصفته أخاً، ومن أحاديث إهلي نيكالو بصفته عشيقاً. وكان تصوورها عن فض عذريتها مختلفاً تماماً. فكّرت بأموئحوتب وقبلاته ويديه. آه، يا للأحلام الضائعة. وبكت كيا، إلى أن انتزعها صوت جليل من الحزن على نفسها: «الأمر لا يتعلق بك أنت، كيا أميرة قطنا، ولا برغباتك وأحلامك. عليك تلبية الواجب المناط بك، وعليك أن تخدمي الربة بسرور، مهما طلبت منك!». انتفضت كيا واقفة وحمرة الخجل تغطي وجهها. إنها لم تسمع شالا داخله. كيف يمكن لشالا أن تقرأ دخيلتها بهذه البساطة؟ لم يبدُ على شالا أي رد فعل، بل أضافت: «اذهبي إلى الحمام. إنهن بانتظارك!».

في حلقة النساء مُشحت مختارة الربة بمصاحبة الغناء والرقص، ثم ألبسها إكليلاً من زهور صفراء فوّاحة، ورافقنها إلى مخدع النوم، وأسلمنها لرعاية الكاهنة أميناية، التي حكّت لكيا بتفهم لحالتها، تصوورها لمسار الفعل المقدس وشرحت لها ما عليها أن تفعله. كان لشروح أميناية وتشجيعها وقربها أثر مريح في كيا. ابتهلنا معاً إلى الربة، وطلبت كيا غفرانها نادمة على عصيانها وتعالها.

كان النهار التالي مملوءاً بالتحضيرات للاحتفال. وبما أن نوم كيا كان مضطرباً وقليلاً ودون أحلام، فقد جعلها التعب هادئة. غسلتها النسوة المرة تلو الأخرى وحلقن عن جسمها كل شعرة مزعجة ومشحنها وعطرنها. غنّت لها الكاهنات أغنيات غزلية، وتلّونَ على أذنيها وهنّ يزينّنها مقاطع معينة من الأساطير القديمة. وفي لحظة ما غمرتهن بهجة الحياة الصافية، فاختلطت النصوص المقدسة مع الضحكات والنكات. كانت كيا مترددة في الاندماج معهن. كانت تعرف ما هو المتوقع منها وحاولت أن تهيم نفسها له. لم ترد أن

ترتكب أي خطأ، ولا سيما أن الخوف والرفض كانا مرافقها الدائمين. شاكراً تناولت بعد العصر شراباً مبرداً، فقد فرض عليها الصيام منذ مساء أمس. كان يجب أن تكون نقية من الداخل والخارج عندما تسكنها الربة. بدأت الكاهنات بتزيين وجهها، وأخذت كيا تتابع في المرأة بدهشة التغييرات التي تتالت عليها. هل هذه هي نفسها؟ رأت صبية عارية جميلة ومشتهاة، رأسها مزين بشعر الربة المستعار وكل حليها، فغمرها شعور مستعذب. وفي غمرة نسيانها نفسها شربت قدح الشراب الثاني. ثم ألبست ثوباً خفيفاً شفافاً، ولما نظرت إلى صورتها في المرأة تملكته رغبة مجهولة. زينت خادמות الربة أصابعها بالخواتم. وتدرجياً أخذت شخصية كبتاً بالتلاشي حتى الامحاء. تغزلت الكاهنات بالربة وقدمن لها القرابين وتوسلن قريبا. أشعلت المشاعل وأوقدت المباخر. وتحرك الموكب الذي سيوصل الربة إلى الملك.

كان العرس المقدس في بيت بيليت إكاليم إحدى ذرا العيد. فبعد أن يثبت الملك مهارته في الصيد وشطارته في الفلاحة وكونه راعياً يعول عليه، يأتي دور عقد الرباط بين الربة والملك بصفته ممثلاً للربة، من أجل ازدهار البلد. والمغزى من اتحاد ربة الحب مع الملك الجديد هو تأكيد قدرته على الإخصاب، أي على شرعيته كحاكم جديد، بصورة علنية. ومن ثم فقط، يليق به لبس التاج.

في أثناء تنفيذ المراسم جميعها كان أكيزي بالغ التوتر، إذ لا يجوز له وإلهي نيكالو أن يرتكبا أي خطأ. صحيح أن معلمي المراسم كانوا إلى جانبهما، ولكن كان عليهما النجاح في تنفيذ الأفعال العلنية بنفسيهما، إذ لا يجوز لأحد أن ينوب عنهما هنا. وقد سارت الأمور كلها على خير وجه، أما الآن فقد وجب على الملك الشاب أن يثبت رجولته أمام شهود. لم يشك ولو للنظفة واحدة فيما إذا كان قادراً على إسعاد امرأة بناء على طلبها، بل بالعكس، فقد كان مستعداً لأي رهان، على نجاحه في إرضاء أكثر من امرأة في وقت واحد، وخادמות المعبد خير شاهد على ذلك. ولكن أن يكون محط الأنظار وهو يؤدي واجباً، فهذه تجربة جديدة. والتي تنتظره ليست أية امرأة، بل صفة الربة!

انقطع حبل أفكاره بدخول زوجته. إنها لا تأتي إلا في اللحظات الحرجة!
«ما الأمر يا حبيبي؟»

«جئتُ راجية لك الحظ السعيد. فلا شك في أنه فال خير أن تنتظر الربة في ذكرى مرور سنة على زواجنا!»

للحظة أحس أكيزي بالخجل، وعلى نحو عفوي خطر أبوه في باله. فرغم مشاغل منصبه ومهامه الكثيرة، نجح في أن يكون لأمه زوجاً يراعي مشاعرها. وأكيزي يعرف أن بلتوم لم تكن زوجة بسيطة أبداً. ضم إليه إهلي نيكالو وقال واعداً: «سنحوض كل شيء حالما تختتم الاحتفالات الرسمية. أما الآن فلا بد لي من أن أهين نفسي، وأنت تفهمين ما أقصد. قبلي أموت بان بالنيابة عني!».

دفعها برفق إلى خارج الغرفة. وقال لنفسه: سنة! قبل سنة كانت في سريري عذراء حلوة. من ناحيتي، لا مانع من أن يصبح هذا قاعدة. رغم التزامه بواجب الصيام حاول بعض أقداح النبيذ أن يهدئ من قلقه المتزايد، وهل سيخفف النبيذ من تشنجه يا ترى؟

في أوائل المساء حضر الخدم ورافقوه من الجناح الملكي نزولاً إلى حمام القصر المجهز بترف. فكشطوا شعر بدنه وقصوا أظافره، إذ لا يجوز أن يزجج الربة أو يؤذيها شيء. رافق ذلك موسيقا وغناء مجموعة من الصبايا، ما نقل أكيزي إلى جوٍّ مترع بالتوقعات. ثم مُشح الملك من رأسه إلى قدميه بزيوت فواحة حتى طري جلده وبات لنداً. لم يتزين الملك بأي حلي سوى خاتمه. وفي الختام لف الخدم جسمه بثوب خفيف.

في الحرم هتئى سرير العشق للربة والملك بعناية. غمر فضاء الحرم نوراً ناعم وزُيّنت جدرانها بأكاليل الزهور، وعبق الجو بروائح زكية. كانت العازفات يداعبن أوتار القيثارات بألحان ناعمة لمرافقة أغنية العشق: «عالجت سريري بالمرّ والصبر والقرقة..». كان السرير العريض من خشب الأبنوس، مغطى بمظلة من الأغصان المورقة وأغصان الأرز الخضراء، ومزداناً بورود ذهبية تتلألأ كالنجوم مع ارتعاشات النور، أما أشغال الحفر في العاج فتروي حكايات عشق الربة. وقد قامت الكاهنات بتنجيده بكل حب وهن يغنين، ففرشنه بطبقات من اللباد والفراء النفيس والأقمشة الحريرية، وفردن فوق ذلك كله شرشفاً كتانياً أبيض لا شائبة فيه. من جهة الرأس زين السرير بإكليل من الزهور الفواحة، وبمجموعة من الوسائد البيضاء، كما نثرن الزهور على السرير كله.

أثناء مرافقة الملك إلى الحرم، مرتدياً مئزراً قصيراً بسيطاً، كانت خادמות المعبد يغنين أنشودة مديح ربة الحب:

«دخلت الحمام لتغتسل، اغتسلت وتطهرت ومشحت جسمها بعطر فاخر، ثم تزينت، فصارت ساحرة تنثر الفتنة من حولها!».

رافقوا الملك إلى السرير تحت المظلة، ودعوه إلى الاستلقاء، فجلس على طرفه بشيء من الارتباك ومر بيده على الشرف الكتاني الأملس المتلألئ البياض. ولتحلية انتظاره لقدوم الربة، ناولته كاهنة صبية شراباً في قُدح خزفي لماع، فشربه بنهم وطلب المزيد. سال الشراب عبر حنجرتة كالزيت الحارق، ما أثاره وجعله يغلي. لم يعد يشعر بجميع من حوله من الناس، وأخذ يفكر بالربة ويتصور ظهورها الفوزي بجمالها الخارق، راغبة في أن تمنح نفسها له، لملك قطناً. هيّجته هذه الأفكار، فاستلقى مشحوناً بالتوق والتوقع. توقفت الموسيقى برهة، ثم صدحت القيثارات بلحن سماوي. فتح الملك عينيه. تراءت الربة له أمام السرير صبية فتية، تلتف بثوب شفيف، بيدي أكثر مما يحجب. شعرها الأسود الطويل المجدد على جبينها وكففيها، يحيط بوجه ذهبي اللعنان، بحاجبين سوداوين مزججين، وعينين سوداوين مكحلتين وفم أحمر كالورد. كانت مزينة بخواتم ذهبية وعدة أطواق من أحجار كريمة. لم يسبق لأكيزي قط أن رأى مثل هذا الجمال.

«أنا ملكة النجوم جميعها. حكمة الحياة تأتي من رحمي، وهو رحم رائع»، غنت المغنيات بصوت خافت.

اقتربت الربة وهي تكشف ثوبها قليلاً، بحيث يرى الملك نهديها وحلمتها المتصببتين الملونتين بالأحمر، ويرى مثلث عانتها الواعد. انزلق الثوب عن كتفيها كلياً عندما وقفت عند السرير. عارية وقفت أمام الملك عارضة جسدها لنظراته الشبهة. ثم صعدت إليه على السرير وحلت مئزرة، فظهر عضوه تحته مشرعاً في انتصاب كامل، جاهزاً لاستقبال الربة. كانت رغبته عارمة في امتلاكها فوراً، هذه العذراء الميساء بنهديها الصغيرين والريائين مع ذلك مثل تفاح لذيذ، بفمها الأحمر كالكرز، وأنفاسها المنعشة كالنعنع. ارتجفت ربة العشق. لم يدر الملك، أخشية أم إثارة. وللحظة قصيره دهمه شعور بالخلاء وحب التملك، وكأنه حقاً أول زوج لهذه الربة التي تتصرف كصبية عذراء، لم يسبق لها قط أن ضاجعت عشيقاً. استثاره هذا بصورة هائلة، وفي سكرة الاندفاع أمسك بها وجذبها إلى جانبه. حاول أن يضبط نفسه، تلمس نهديها وقبلهما، ثم شقت يده طريقها إلى عانتها، لكن فخذيها المضغوظين أحدهما على الآخر منعاه من الدخول، فتصاعدت استثارته. باعد أحدهما عن الآخر بيديه، بشيء من القوة، ونظر بشبق عارم إلى مدخل الحديقة السماوية، إلى الشفرين الورديين والرطوبة الواعدة. ارتمى بجموح فوق الجسد الأعزل وقد ثبتت يدها يديها. أخذت نظراته تتروي بمنظر نهديها الصاعدين الهابطين بسرعة، وبالوجه الذهبي الإلهي السرمدي النقي، والذي لم يبد نامة استجابة من جانب الربة. ومع ذلك

كانت ارتعاشات أعضائها الخفيفة تشير إلى عدم زوال مقاومتها، ما أجاج شهوته لامتلاكها وإخصابها. وعندما لم يعد قادراً على التمثل أكثر، أولج عضوه فيها. وفيما هو مأخوذ بشهوة عذريتها، لم ينتبه أبداً إلى صيحتها المكتومة، بل انجرف وراء لذته الخاصة. في الوقت نفسه بدأ كاهن وكاهنة غناءً تبادلياً من كلمات النصوص الطقسية المرتبطة بالربة إنانا وعشيقتها تموزي:

«هي أرض ذات روابٍ في السهل،
هي حقل يقصده الطير المهاجر،
هي أرض خضراء وأرض بور.
فرجي ربوة تنتظر،
أنا الفتاة.. من سيكون حارثها؟
فرجي أرض بور.
أنا الملكة، من سيكون ثور الحرث؟

سيدتي، الملك سيحرفها لك،
الملك تموزي سيحرفها لك.

احرف فرجي يا حبيبي،
فإنانا قد غسلت جسدها الطاهر.

فرجي رطب، فرجي رطب،
أنا ملكة السماء، فرجي رطب،
أنا ملكة السماء، فرجي رطب،
دع الرجل على السطح يضع يده على فرجي،
فليضع الرجل القوي يده على فرجي أ.»

انفصل الملك عن الربة وانقلب إلى جانبها، تمدد وأغمض عينيه ليتابع لذته. أحس بقماشة خفيفة كريشة تلامس كنسمة جسمه المتقد. أخذت أياد نسائية ناعمة تلحس عليه وتداعبه بنعومة. وتدرجياً بدأ يعي ما يحيط به، سمع موسيقا وأنشودة مديح ربة الحب، التي يمكنها أن تتجلى في هيئات كثيرة.

«غنوا الربة! المبجلة بين الربات!

الحمد لسيدة البشر، العظيمة بين الأرباب قاطبة!
غنوا عشتارا المبعجلة بين الريات،
سيدة البشر، العظيمة بين الأرباب قاطبة!

أجل هي! ترتدي الإغراء والفتنة،
وتتزين بمتعة الجنس والشهوة، ممثلة بالغواية.
عشتارا ترتدي الإغراء والفتنة،
وتتزين بمتعة الجنس والشهوة، ممثلة بالغواية.

شفتها عسل نحل! فمها طاقة الحياة!
ويكل ما تمتلكه، يتكاثر ضحك السعادة
بديعة هي وقد نثرت الجواهر على رأسها،
مثلثة بجمال مع ألوان عينيها البراقين».

أخذت الأيدي تدفع الملك برفق، مع الإصرار على أن ينهض. فتح عينيه، غير راغب
وغير مستعد لمغادرة هذا المكان السماوي. وعاوده الانتصاب عندما فكر بربته الرشيق،
برديها المدورين بخفة وخصرها اللذيذ وسرتها اللطيفة المزينة بوردة ذهبية. التفت فرأى
السريير إلى جانبه خالياً. كانت الكاهنات واقفات قرب، ناولته إحداهن شراباً، ثم دفعنه
للهوض، فألبسناه المثزر والمعطف الملكي، ورافقه حتى المذبح. قدم للربة جعة فاخرة
كسائر الموجودين، من النوع الذي تفضله، ثم شرب بنفسه قديماً تلو الآخر ليستعيد لذة
السكر. وفي هذه الحال وهو شبه دائخ تناهت إليه أغنية الختام.

«الأرض الممتدة بعيداً تزيّنت بالأحجار الكريمة واللازورد،
تزيّنت بالديوريت الأسود والعقيق الأبيض والأحمر وبالنيازك.
رمت السماء على النبات ثوباً من جمالها وتبدت بهائها.
الأرض الطاهرة العذراء قدمت نفسها مزهرة للسماء الطاهرة.
السماء الأكثر علواً ركمت على الأرض وأخصبتها،
نثرت فيها نطف الأبطال والأشجار والقصب.
الأرض الحلوة، هذه البقرة الجيدة التكوين،
حضنت نطف السماء الطيبة في رحمتها:

وهيات نفسها بفرح لولادة نبات الحياة.
تُقلُّ الحملُ على الأرض المبتهجة،
فتعرق عسلاً ونيذاً!.

لم يعد أكيزي يتذكر، كيف وصل إلى القصر. لم يعد حتى موقناً ما إذا كان قد غادره أصلاً. أكان كل شيء حلماً؟ ثم غمره الشعور بالفوز: لقد امتلك الربة. لقد أسلمت نفسها له، وقد أنجز مهمته كما يجب. ولهذا ستكافئه بمباركة البلد.

اليوم تُوَّج! فصار إذاً ملكاً بكامل الحقوق والواجبات. وسيعمل على قيادة البلد إلى مزيد من الازدهار، وإلى مزيد من الثراء والرفاه. اسم قطنا لا بد أن يرتفع عالياً فوق سوريا. بحماية مصر ستحدى ميثاني وحتوشا وكل من سيمد يديه الطامعتين فيها. ستحرق هذه الأيدي! في السلسلة الطويلة لملوك قطنا سيغشى نور أحدهم على الجميع: إنه أكيزي، ابن إيداندا. أما اليوم فليحتفل الجميع بأول عيد بهي في ظل حكمه، وستلوه أخرى كثيرة، ستكون موضوع حديث الناس في سوريا كلها وفي محيطها أيضاً.

«أين وجدوها؟».

سمح أكيزي للـ (مخبزين) بالدخول فوراً، حالما علم بسبب قدومهما. انتشلوها من نهر أرانتو، إلى الشمال قليلاً باتجاه زينزار. جسمها كان عالقاً بين القصب».

«كيف عرفتما بالأمر بهذه السرعة؟».

«الفلاح الذي انتشلها تعرّف على الختم الملكي على معصمها، فنقلها في الليلة نفسها بقاربه حتى مخاضة قطنا، وسلّمها هناك إلى أحد الحراس الذي أحضرها إلى دار الشفاء».

«وما أدرانا أنها الفتاة نفسها، التي اختفت من هنا؟».

«كبيرة الكاهنات أمرتنا بأن نحضر من مطبخ القصر شخصاً يعرف الفتاة. الطباخ أكد أنها هي، رغم أنها مشوهة».

«الخدّام المحتجز عندنا، يمكنه أيضاً التعرف عليها»، قال الملك مفكراً، وأضاف:
«هل وجدتما عائلتها؟».

«ليس بعد. حصلنا أخيراً على معلومة من الطباخ، قد تقودنا إلى حيث كانت تسكن». «جيد، اهتما بالأمر فوراً، ولكن بتكتم! ولا كلمة حول الموضوع لأيّ كان. وإذا وصلتنا إلى معلومات جديدة، تعالاً إليّ فوراً!».

بعد ذلك بقليل وصلت ساعية دار الشفاء، التي كان الملك بانتظارها بلهفة. في هذه المسألة الحساسة، كان لا بدّ لشالا من العودة إلى كيا، رغم رغبتها الأكيدة بإعفائها من ذلك.

بعد خوض تجربة العرس المقدس كان لا بدّ للكاهنات من حمل كيا، لعدم قدرتها على المشي بنفسها. كانت نظرتها جامدة وقاسية. تأثير الشراب المسكر الممزوج بالمهيجات الجنسية قد تطاير، وما تبقى كان واضحاً: ألم. أعطت شالا إشارة لأميناية، فاخفت هذه مع كيا، قبل أن يفتح الملك عينيه، ولا سيّما أنه كان ملتهاً مع خادما الحب. ما كان يجوز لرجل أن يرى الربة في هذه الحال. جلست أميناية على طرف سرير كيا، بعد أن مسحت عن وجهها قناع الربة، ومسحت جسمها بحذر بماء دافئ، وأعطتها قطعة قماش مدهونة بيلسم شاف لعانتها المجروحة. ثم أخذت تربت عليها وتهمس لها بكلمات لطيفة. بقيت كيا جامدة بلا حراك، بحيث لم تعرف أميناية إن كانت نائمة أم صاحية. وفي لحظة ما، رغم جلستها غير المريحة، غفت. مع الفجر، عندما استيقظت متبيسة الأطراف، نظرت في عيني كيا الصافيتين، ووجدت أن وضعيتها لم تتغير، لكنها فتحت فمها وقالت:

«كانت تفوح منه رائحة الخمر. إنه قاس وأناني فظيع. المرأة بالنسبة إليه، حتى الربة نفسها، ليست أكثر من وسيلة لإشباع رغبته. أما كيف تشعر، فهذا لا يهمه. إذا كان سيحكم البلد بالطريقة نفسها، فيا ويل قطنا منه!».

لم تردّ أميناية بشيء. فما فائدة أن تشرح كيا الآن، أنه مع مزيد من الخبرة في أمور العشق يمكن للمرأة إلى حد كبير أن تقود شريكها، وأن تُفهمه رغباتها. كانت هذه أول مرة لكيا. والخوف من ألم فض البكارة لا يمكن أن يسعد أو يمتع أية فتاة. وكون الملك عشيقاً لا يبالي بشريكته، أمر متداول بين بعض نساء قطنا. مساء الأمس سارت الأمور بسرعة زائدة، رغم المساعدات التي قدمت لكيا. الآن فقط انتهت أميناية للبيع الزرقاء على معصمي كيا. ماذا يسعها أن تقول لتواسيها؟ ثم نهضت كيا وغادرت المخدع. ولم تنبس من بعد أمام أميناية بحرف واحد حول الموضوع. أثناء أداء الطقس لا أهميّة للمشاعر الخاصة. وسرعان ما شفيت الجراح الجسدية، وتابعت كيا حياتها المعتادة في بيت الربة.

كانت تلك أول مرة تلتقي فيها ثانية بأخيها الملك بعد العرس المقدس. لم تلفت نظرها أية مؤشرات على احتمال أن يكون قد تعرّفها. كان عليها أن تستعيد لهجة الحديث المعتادة بينهما، كي لا يشبه بشيء. منذ دخولها القاعة أدركت أن أكيزي مأخوذ تماماً بمسألة الفتاة الميتة، وبالتالي فإنه لن يولي أخته أي اهتمام شخصي. وقد سهّل هذا أموراً كثيرة.

ابتدرته قائلة: «ترى كبيرة الكاهنات أن الفتاة قد غرقت. لكنها لم تدخل النهر بإرادتها. ثمة علامات على جسمها تشير إلى أن هناك من نثبها وأبقى رأسها تحت الماء». «إذاً، هناك من أبعدها من طريقه، خشية أن تحكي».

«أعتقد أن هذا يؤكد ظننا، بأنها لم تتصرف من نفسها، بل هناك من أرغمها على ارتكاب الفعل. ثمة ما يخيف وراء الأمر، وإلا لما أقدمت على تسميم سيدها المحبوب ب...». وسكتت كيا.

«قد نعرف أكثر عندما نجد عائلتها. إنه لأمر مستغرب ألا يعرف أحد في القصر عنها أي شيء. فالأمر المتبع عادة، هو أن كل من يعمل في خدمة الملك الشخصية، يُنتقى بعناية فائقة، ويُدقق في أمور عائلته. أما هذه فلا نعرف شيئاً عنها. انقلي شكري لكبيرة الكاهنات وسأرسل من يخبركم، عندما تصلني معلومات جديدة».

ولكن قبل حدوث ذلك، أسفر وصول رسول حتوشا، المنشود طويلاً من الملك إيداندا، عن حالة محرّجة جديدة. إذاً، لقد كتب الوالد حقاً إلى الملك العظيم، دون أن يخبر أحداً بالأمر. في إدارة شؤون المملكة وفي المحفوظات لا توجد نسخة عن الرسالة، ولم يستطع أكيزي معرفة من خطّها. غير أن جواب حتوشا سمح باستنتاج بعض ما ورد في الرسالة. يطالب اللابارنا بتبعية قطننا رسمياً إلى حكم حتوشا. «فالأتباع»، هكذا قال الرسول، «يحصلون من حتوشا وأربابها على حماية عسكرية كاملة، أما الضرائب المترتبة على ذلك فيمكن الحديث بشأنها لاحقاً».

انزعج أكيزي بشدة. هل عليه إطلاع المجلس على تصرف أبيه الفردي؟ أم عليه إعادة الرسول على عقبيه مع خبر بسيط للابارنا بأن الملك إيداندا قد مات؟ وأخيراً قرر مناقشة المسألة في المجلس بصراحة. فهو في نهاية المطاف ليس مسؤولاً عن سلوك أبيه. قدم للرسول مكاناً للإقامة وطلب منه انتظار جواب المجلس.

هذه المسألة تحمل جانباً إيجابياً: إنها تقدم سبباً معقولاً للكتابة إلى الفرعون مجدداً.

فرسالة إخباره بموت الملك إيداندا، وتتويجه ملكاً من بعده، لم يصل جوابها من مصر حتى الآن، وما زال الوقت مبكراً لذلك. ولكن لا ضرر من التأكيد على لفت انتباه أمينوفيس إلى قطنا.

ما تنبأ به أكيزي وقع، فقد تضاربت الآراء بحددة في مجلس الأعيان، ولا سيما تيرو الذي هاج، من دون أن يهاجم الملك الميت بصورة مباشرة. وحتى أكالينا وأوپيا تصرفا بارتباك، فإيداندا لم يسر لأحد حقاً بما فعل. وسيكون ضرباً من البراعة الدبلوماسية أن يصاغ الرد على الملك العظيم، بحيث لا يهينه، ويوضح في الوقت نفسه أن قطنا لا تفكر بالخضوع لحتوشا.

لم تكن حتوشا وحدها موضوع البحث، بل أيضاً رسالة التحية التي اقترح أكيزي توجيهها إلى أمينوفيس، والتي يجب التأكيد فيها على اعتبار قطنا نفسها في حماية مصر. «لماذا يجب علينا أن نكون تابعين لأحد، أياً يكن؟ هل من الضروري لقطنا أن نتذلل لجهة ما؟ إنني لا أفهمك، أكيزي! إنك تقترح الأمر نفسه الذي اقترحه أبوك قبلك، سوى أن اسم القوة العظمى قد تغير! وما رأي أختك الصغيرة المسكينة في الموضوع؟».

كۆر أكيزي قبضته، فقد عاد خاله، بلا انقطاع، لطرح الأمور نفسها. لكن الأمور لم تصل إلى حد التصادم بين الطرفين، لأن غالبية أعضاء المجلس أظهرت موقفها الموالي للملك.

«لا حاجة لتكرار كل شيء الآن، يا تيرو»، قال أوپيا بأسلوبه الهادئ المعهود، وكان أكيزي ممتناً لحميه. وتابع أوپيا: «لقد سبق أن اتخذنا قرارنا. ولم يتغير في الأمر شيء، سوى أن علينا الآن توخي الحذر الشديد لمنع وقوع تعقيدات دبلوماسية».

هز أكيزي رأسه موافقاً. وجرى الاتفاق على مخاطبة اللابارنا في حتوشا بلغة الورود وبكثير من الهدايا لاستمالاته مع عدم قطع الأمل، وإعلامه بأن الملك إيداندا قد غادر عالم الأحياء منذ مدة قصيرة، وبأن تتويج أكيزي قد جرى للتو. وختم أوپيا كلامه قائلاً: «عندما يصل الرسول إلى حتوشا، يكون الملك العظيم على الأغلب ما زال على الجبهة. ثم يأتي عيد الخريف ويتبعه الشتاء. في رأيي لن يحصل ما هو مهم حتى الربيع القادم، ومن ثم سنرى».

لقد وقعت المعركة الأولى، وانتصر أكيزي فيها، فكان راضياً مرتاحاً عندما فضّ الاجتماع، متجنباً وجه خاله المتجهم، وقرر أن يحتفل ابتهاجاً بهذا اليوم. بعد استلامه

مهام الحكم جدّد تأثيث الغرف الغربية لاستخدامه الخاص فصارت أجمل. كان يلتقي هنا ببعض أصحابه، حيث يضطجعون على وسائد مريحة ليستمتعوا بمداعبات خادماات الحب ويستمعوا إلى الغناء والموسيقا، وقد تتطور الأمور إلى ألعاب أخرى تمتد حتى ساعات الفجر. يا للقدر السعيدا فكر أكيزي. إنه ملك، ولكلماته وزنها في مجلس الأعيان. إنه في كامل الرضا عن نفسه.

لكن أكيزي لم يحسب حساب تيرو، الذي سرعان ما بات زائراً يوماً في القصر، يتردد على أخته الملكة بلتوم، وعلى إهلي نيكالو أيضاً، مبرراً ذلك بضرورة الاطمئنان إلى تطور ابن أخته الملك وليكون نوعاً ما بديلاً عن الجد. كان يتهزأ بفرصة للتشاور مع أكيزي حول مستقبل البلد، غالباً بكلام كالعسل، وكأنه مستعد للوقوف إلى جانب ابن أخته في أداء المهام الصعبة وتحمل المسؤولية. غير أنه بين الحين والآخر، كان يكشف عن وجهه الحقيقي. ومع كل لقاء كان صبر أكيزي ينفد أكثر فأكثر. أليس هو قاتل أبيه؟ أيعرف تيرو أن أكيزي يعرف؟ الواضح أنه لا يعرف.

«رغم شبابك كنت بعيد النظر لتدرك ضرورة الابتعاد عن الحثيين»، قال تيرو محايياً، وأضاف: «سيكون لك شأن كملك». وامتدح الارتباط بمصر، الذي هاجمه قبل حين في المجلس، ولكن باعتباره الآن نقلة ناجحة في اللعبة الدبلوماسية تدل على ذكاء أكيزي، الذي يخدم بهذا المسألة السورية أفضل خدمة. بمرور الوقت أدى استمرار هذه الوسوسات إلى تأرجح موقف أكيزي. فتصور أن لا يكون فحسب ملك مدينة يمثل إرادة مجلسها، ومنتخباً من وسطها ولكن مع قابلية تبديله في حال الشك بأهليته. هذا التصور كان مغريباً جداً، فمن موقع حاكم مملكة سوريا سيبدو العالم مختلفاً، وعند ذلك سيخاطب أمينوفيس بـ «يا أخي»، وهكذا سيخاطبه الفرعون، وهو الأهم!

أحس تيرو، بغريزة الخبير، التأرجح المتنامي في موقف الملك، رغم تأكيد أكيزي تجاهه باستمرار على ثباته. ما أسهل التلاعب بشاب غزير كهذا! إنه يراهن على غرور أكيزي. ولاحقاً سيكون أمراً سهلاً أن يضع في طريقه حجراً يهلكه.

إضافة إلى الرسالة الجوابية للملك العظيم، حمل أكيزي الرسول الحثي رسالة طويلة إلى تالزو، لا، بل إلى تانوا، يدعوها فيها لزيارة قطننا. وفكر لبرهة ما إذا كان ضرورياً لإخبار كيا بذلك، لكنه سرعان ما تخلى عن الفكرة، فأخته على كل حال تعرف أكثر من اللازم. والأفضل أن تكرر نفسها لواجباتها في بيت الربة. وفي عيد قمر الشتاء يمكن أن تُرسم

كاهنة. إنه لأمر جيد أن تكون في صفّهِ في النزاع، لكنها سرعان ما تكشف نواياه، وهذا ما لا يريحه تجاهها. هل تكلمت إهلي نيكالو معها يا ترى؟ في اللقاء الأخير بدت له متغيرة. حسناً، دواعي اللقاء كانت رسمية. كما أن معاناتها كانت أشد من معاناته نتيجة وفاة الوالد، ما أدى في نهاية الأمر إلى أن تكون وأمها متعلقتين به، بالملك، فهو رأس العائلة، وهذا لا شك لا يهيج كيا. قد لا تكون فكرة تيرو وحمقاء تماماً. لماذا لا تزوج كيا إلى عزيزا بن عبدي عشيرتا ملك أمورو؟ ترى أكان هذا ليعجب الوالد؟ بالتأكيد: لا.

قبل عيد الخريف تأكد حمل كيا. إنها حامل بهدية الربّة. منذ عدّة أيام خَمّنت شالاما بات الآن مؤكداً. كيا تعاني الغثيان، كما توقفت دورتها الشهرية. إنها فتية، ومن المحتمل أن تكون حالات القلق التي مرت بها قد تسببت في انقطاع دورتها، غير أن جميع المؤشرات كانت تؤكّد هذه النتيجة. ظاهرياً لم يتغير شيء في أسلوب حياتها اليومية، سوى أنها باتت تحت رعاية مشددة من قبل شالا وأمينية. وغيرهما لم يعلم أحد بالحمل. من الجانب الرسمي لا يعلن الأمر للملك والملكة كفال خير، إلا بعد ولادة الطفل سليماً. وحتى ذلك الحين يبقى السر مكتوماً بين جدران بيت الربّة.

لم تعلق كيا بأي كلمة على الخبر السعيد. كانت تمضي وقتها مع المبتدئات الأخريات في سلك الكهانة، وتستكمل علمها في الطب واستخدامات الأعشاب. بين الحين والآخر كانت تفكر بأمرها وتحن إليها. أما أمينية فقد لاحظت بقلق أن كيا، ظاهرياً على الأقل، غير واعية بحملها. ولكن يحتمل أن الوقت لا يزال باكراً جداً ليظهر فرحها بالطفل.



نتيجة للحملات العسكرية في هذه السنة ازداد عدد أعضاء مجمع الأرباب الحثي. فتمائيل أرباب البلاد المحتلة، التي نقلتها الجيوش العائدة معها، سُلمت بشكل احتفالي في المعبد الكبير لرب الطقس وقُبلت في رابطة الأرباب الحثيين. وهذه العملية لا يُقصد بها إضعاف المهزومين، بل عدم إهانة أي رب بإهماله. وعرف تانوا أن الأرباب يخاطبون بلغات أوطانهم ويشرف على العناية بهم كهنة يعرفونهم، ما أمكن، كي لا يشعروا بأي نقص؛ إذ يجب أن تطيب لهم الإقامة في حتوشا.

وهذا هو ما فعله تانوا أيضاً. فبعد الأسابيع والشهور الطويلة من السفر والتوتر الدائم،

ورغم الشغل الكثير انبسط بما تبقى من الصيف في العاصمة. غالباً ما كان يجلس قرب بوابة أبي الهول ليسرح بنظره فوق المدينة. حركة الإعمار على قدم وساق في كل مكان. في منطقة المدينة العليا نهضت معابد ضخمة جديدة. حُفرت أحواض للمياه ومخازن احتياطية للمؤونة يُحفظ فيها بطرق مبتكرة بفائض الحبوب لأوقات الشدة.

وأخيراً أُطلع أيضاً على سر حتوشا. ففي القسم الشمالي الشرقي من المدينة السفلى، قرب الشَّعب العميق توجد عدّة ورشات لمعالجة النحاس والذهب والفضة، ولكن ليس هذه المعادن فحسب، بل هدية السماء أيضاً! ومثل هذه الورشات موجود أيضاً في الجهة المقابلة للشعب عند سفح الجبل الصخري الهائل داخل السور المحيط. والمنطقة كلها محصّنة إضافة إلى السور بجدار مزدوج مع حراسة مشددة عليه. الطرق إلى هناك مسوّرة على الجانبين بأكوام هائلة من الخشب، والفحامون مشغولون ليلاً ونهاراً بتحضير الفحم الخشبي.

«لتشغيل الورشات وأفران الصهر نحتاج إلى كثير من الفحم الخشبي الذي يُحضّر في المقام الأول في الغابات المحيطة، وليس هنا فقط»، شرح له هنوتي.

«ولأي غرض نحتاج إلى هذه الكميات الكبيرة من الكتل الحجرية؟».

«إنها سلاحنا العجيب، حسب تسميتك أنت»، وضحك هنوتي.

«حجارة؟ ما هذه النكتة؟». ونظر تانوا غير مصدق إلى الكتلة التافهة.

«بل أنا جاد تماماً. في هذه الحجارة يكمن المعدن السماوي الذي نسميه حديداً. لكنه لا يتساقط علينا من السماء، بل نحن نستخرجه بعمل شاق جداً من الأرض في أماكن سرية».

«من بلاد الكشكيين مثلاً».

«تماماً. سريع البديهة كعادتك!». ضحك هنوتي وأضاف: «هذا المعدن إما أن يُصهّر من الحجارة في أماكن استخراجها، وإما أن يُنقل ليعالج هنا. الملك العظيم فقط، هو القادر على توفير إمكانيات الحماية الضرورية. لاستخراج الحديد النقي تحتاج إلى وقت طويل وحرارة عالية. تعال، سأريك فرناً للصهر!».

كان على هنوتي وتانوا أن ينزلا مسافة قصيرة على منحدر الشَّعب، حيث أنشئت عدّة أفران ضخمة لصهر الحديد.

«من الربيع حتى الخريف تهب في الشعب ريح قوية جداً وبصورة منتظمة، فتؤجج الأفران بقوة ولمدة طويلة، مما يؤدي إلى ارتفاع الحرارة في الفرن بما يكفي لصهر الحديد. لا حاجة هنا لهدر الجهد بتشغيل الأكوار».

«لكن الأفران مبنية من الطين فقط!».

«صحيح. لكنه طين صلصالي خاص لا يتأثر بالحرارة. بئر الفرن تبنى فوق حفرة. من أجل الصهر يُرتب في الفرن طبقات من فحم الخشب وكتل الخام بالتبادل، ثم توقد النار. تمتد العملية نهاراً وليلة. بعد ذلك تُهدم البئر للوصول في أسفل الحفرة إلى الحديد المختلط بالخبث، ثم لا بد من إجراء عمليات أخرى لاستخراج خام الحديد الجيد، الذي تصنع منه أدوات للمعبد وللزراعة والأسلحة أيضاً». تملأ هنوتي وجه تانوا الذي بدا بالغ التأثر، وأضاف: «هناك حداد اكتشف بمحض المصادفة أن بالإمكان جعل الحديد أقسى مما هو عليه. لا تسألني كيف. فأنا لا أعرف ولا أريد أن أعرف. لكن كل سيف وكل خنجر من هذا الحديد المقسى يفوق بمراحل قوة أبناء عمه البرونزيين».

«هذا لا يصدق. لكن هذا السلاح لم يستخدم في المعارك ضد الكشكيين وفي حَبَلَا، وإلا لكنت رأيت ذلك».

«معك حق يا ابن أختي الماكرة حتى الآن لا يحمل هذا السلاح سوى الملك وبعض الكبار، وغالباً في مناسبات رسمية محددة. لكن الإنتاج على قدم وساق».

لم يتمكن تانوا من معرفة المزيد منه. عند مغادرتها حي الحدادين جعله هنوتي يقسم يميناً معظماً بالألفيشي هذا السر لأحد مطلقاً.

«تانوا، أنت تعرف أن عقوبة الموت في حتوشا لا تسري إلا على القليل من الجرائم. في حال تجاوز هذا السر شفتيك، فستموت بلا رحمة!».

«أكان جريمة ما فعله شقيق الملك؟ ألهذا السبب قُتل؟». سأل كمن أفلت لسانه.

كظم هنوتي حنقه، ثم قال بفظاظة: «هناك مجرد إشاعات لا أكثر حول نوع الجريمة التي ارتكبتها تودهااليا. لا يعرف الأمر سوى الحلقة الضيقة من العائلة. لهذا السبب أستبعد أن يتعلق الأمر بإنتاج الحديد. السبب الحقيقي لإدانته لا أعرفه. كيف عرفت بالأمر؟».

«كان موضوع حديث في...».

«في قطننا، خمنت ذلك. يا ترى، ما الذي لا يحكي الناس فيه هناك؟ يبدو لي أنهم متيقظون، مهتمون بكل شيء. لا عجب في أنهم على هذه الدرجة من الغنى. وفوق ذلك

لديهم بنات يسلبن العقل، لدرجة أنك لا تتعطف بنظرة على أية فتاة من مملكة حتوشا الواسعة. أم تراك لا تفكر أبداً بحب النساء؟».

لم يستجب تانوا المزحة خاله، بل داراها بقوله: «إنك تحكي مثل جدتي! ألا يليق بي الانتظار حتى تسبني كقدوة حسنة؟». وكان جواباً مفحماً.

طلب الملك الاجتماع بأقرب مستشاريه، والتقوا في شرفة محمية من الشمس وتطل على المدينة. الريح الفاترة جعلت القيظ محمولاً. لم يكن الملك رائق المزاج، وقد لاحظ هنوتي ذلك فوراً. إلى جانب الملك جلس ميتانوما مدير شؤون إدارة الدولة. وعلى طاولة صغيرة أمامه كانت هناك ألواح طينية صغيرة الحجم، وعدة ألواح عمل كبيرة الحجم. افتتح شويلولوما الجلسة بقوله: «وصلتنا رسالتان من قطنا»، وأشار بيده لميتانوما كي يتابع، فقال: «إحدهما موجهة إلى الملك الشمس. المرسل هو الملك أكيزي. بعد التحيات المألوفة يخبرنا أكيزي بأن الملك إيداندا، والده، قدمنا قبل مدة قصيرة. طقوس دفن الملك الميت وتوزيع أكيزي أخرجت إمكانية الإجابة باكراً على كتاب الملك الشمس، ويرجو السماح. وهم منشغلون حالياً بإعادة ترتيب كل شيء وتنظيمه. وإن ليس حرفياً»، قال ميتانوما وأردف: «ولكن بهذا المعنى يمكن ترجمة ما كتب: سنكتب إليكم ثانية، عندما يطيب لنا ذلك».

ارتفعت عدة أصوات احتجاج، بعد أن أنهى ميتانوما تقريره.

«يال له من جسورا!».

«صح، أو أحقق!».

«أو ماكر!».

«ثمة ما يحدث في سوريا، هذا مؤكد. ولي عهد مصر لم يكن هناك للا شيء، صدقوني».

انتظر الملك إلى أن هدأت ردود الفعل الغاضبة، ثم سأل: «وماذا ورد في الرسالة أيضاً؟ أي شيء حول موت الملك؟ فهو لم يكن أبداً متقدماً في السن».

«لا، لا شيء آخر. إنها أولاً وأخيراً رسالة بلا فحوى، غرضها المماطلة، لا تشير إلى رسالة إيداندا السابقة ولا إلى جوابنا عليها».

«وماذا عن الرسالة الثانية؟».

«إنها لفتانا تانوا. مكتوب عليها باللغة الحورية: أكيزي ملك قطنا يهدي تحياته لصديقه تانوا»..

«عجيب!».

«لا عجب في ذلك»، تدخل هنوتي موضحاً: «تانوا والملك الشاب صديقان. لقد أخبرت بعضكم بذلك. كثير من الموجودين الآن هنا قد لا يعرفون أن تانوا ووالده إحيًا قد أقاما عدة أسابيع في قطنا في السنة الماضية، واستقبلا في القصر الملكي هناك كأصدقاء». «وماذا يكتب الصديق للصديق؟».

هز ميتانموا كتفيه وقال: «لم نفتح الرسالة».

«ولماذا لا نفعل؟».

نظر الجميع إلى الملك مستظرين، فالتفت هذا إلى هنوتي: «بماذا تنصح؟».

قلب هنوتي الأفكار في رأسه لبرهة ثم قال: «تانوا يثق بي. أعتقد أن من الأفضل أن نسلمه الرسالة، دون أن نكسر الختم. أنا واثق من أنه سيخبرني بكل شيء».

أوماً الملك موافقاً وقال: «حسناً، سنعتمد على ذلك. أنت هنوتي، ستتحمل مسؤولية وصول جميع المعلومات فعلياً إلى الإدارة».

«وكيف ستصرف حيال هذا الملك أكيزي؟ هل ستسكت على هذه الرسالة ببساطة؟».

«أعترف بأنها استفزاز سياسي. ولكن، يحتمل أن نحصل على مكسب لا يصدق، لو كان لنا حليف في وسط سوريا، وفي موقع حساس استراتيجياً. والأفضل ألا يعلم ملوك الإمارات المجاورة بشأنه شيئاً». أجاب شويلوليوما.

التفت ميتانموا نحو هنوتي وقال: «ما أخبرنا به ريبك عن قطنا، مهم جداً بالنسبة إلينا، ويدل على معارفه الممتازة. ما يؤسف له أن الوضع قد تغير الآن. فالملك السابق كان على ما يبدو ذرائعياً ذكياً بنظرة مستقبلية. أما عن الملك الجديد فإن تانوا في تقريره لم يذكره إلا عرضاً، كما أنه لم يذكر شيئاً عن جيل الشباب. وما فائدة ذلك؟ هذا التبدل السريع على العرش لم يكن متوقفاً قط. المهم أن نعرف الآن تقييمه للملك أكيزي. سأسأله في القريب العاجل، أم تفضلون أن نطلبه الآن؟».

حك شويلوليوما ذقنه متفكراً، وقد سرحت نظره لبرهة في البعيد. عادت إلى ذاكرته صور كان يرغب في نسيانها إلى الأبد. ضغط يده على القدح وشرب جرعة كبيرة من النبيذ

الممزوج بالماء. إنه يشعر بهذا الشاب قريباً من قلبه. لم يكن من عادته مراعاة الخواطر، ورغم ذلك احتكم الملك لشعوره، وقال: «أخشى أن نخرجه، هكذا من دون أن يُهَيء نفسه. فلترك الأمر لهنتوتي، ليسأله في هذا الموضوع، ويمكنه أن يطلب منه أيضاً تدوين كل ما هو مهم».

«لكن هذا لا يشكل جواباً على رسالة أكيزي بعد»، قال صاحب السؤال وأضاف: «أقترح بدلاً عن جواب قد يكشفنا، أن نرسل تانوا إلى قطنا، لنقل مبعوثاً غير رسمي، ما رأيكم؟ سيكون رسولاً لا يثير أية ريبة. أعتقد أنه، عدا الملك أكيزي وبعض أفراد العائلة، لا أحد يعرف أن تانوا يعمل في خدمة حتوشا. غالبيتهم هناك يعتبرونه ابن تاجر».

نظر شوييلوليوما إلى ميتانموا متسائلاً: «هل بلغ مستوى القيام بمثل هذه المهمة؟». «إن لم يستوجب الأمر أن يسافر غداً، حتماً، فسوف نعدّه للمهمة»، وضحك ميتانموا راضياً.

«ما رأي الآخرين؟».

«أجدها فكرة جيدة. يبدو أن الملك الجديد يثق به. لا بدّ من التأكيد طبعاً على معرفة تانوا بالطرف الذي يمثل».

«سنعرف كيف نخبر ذلك».

انفض الاجتماع بوقوف الملك. أما ميتانموا فنهض متردداً، ثم سأل: «هنوتي، هل ستسلم أنت الرسالة إلى تانوا؟».

«لا. فليتسلمها بالأسلوب المعهود».

«هذا جيداً». وهز ميتانموا رأسه باستحسان.

«رائع أنك أتيت تانوا، لي حديث معك. ماذا لديك؟ فضفض!».

حيّاً تانوا خاله برأسه بود، وقدم طلبه مباشرة: «أرغب بزيارة والديّ بمناسبة عيد الخريف».

«يا لها من أقدار ربانية سعيدة! ويا لها من فكرة جيدة. أمك لا شك في غاية الشوق لرؤيتك».

نظر تانوا إلى خاله مندهشاً، فهو لم يتوقع أن يُقبل طلبه بهذا السرور. فتابع هنوتي كلامه: «يمكننا أن ترافق على الطريق حتى نيسا. أنا سأعود إلى پوروشخندا. هذه المرة

على طرق السفر». وغمز ابن أخته بعينه مذكراً إياه بالرحلة المشتركة إلى حتوشا، ثم أضاف: «حان الوقت لترتيب الأمور هناك. إقامتي هناك بعد حملة حَبِلًا كانت قصيرة جداً. هل ستبقى الوقت كله في ترشا؟».

تردد تانوا قليلاً، ثم حسم أمره بالهروب إلى الأمام، فقال: «لا. بل أريد أيضاً أن ألبى دعوة جاءني من الملك أكيزي».

«وما زلت قاعداً هنا؟». كانت سخرية هنوتي جلية لاذعة، وفكر في أنه على الأقل لم يكذب. بقي تانوا صامتاً. قفز هنوتي مستثاراً وأحاط بكتفي تانوا قائلاً: «أخبرني، هل كنت تريد جاداً أن تقول أمامي وأمام ميتانموا وزملائك وأصدقائك بأنك ستزور أهلك في ترشا، وتنسّل سعيداً في هذه الأوقات المضطربة إلى قطننا؟ ما معنى هذا التستر على الأمور؟ ألدبك ما تخفيه؟».

«لم أريد أن أشغل بالك يا خالي».

«قلت لك مراراً، لا تتنادني يا خالي، اللعنة أولاً وثانياً. ولا تموّه الموضوع بهذا الهذر الفارغ. أشغل بالك! شيء مضحك. سيان عندي ما ستفعله في قطننا، سواء قبّلت حبيبتك الساحرة، أم رقصت الدبكة مع الملك، لكنني لا أستحق منك هذه الحكايات. وبغض النظر عن ذلك، هل فاتتك التزاماتك تجاه المملكة؟ لقد أطلعت هنا على أمور كثيرة، لا يجوز لأحد خارج حتوشا أن يعرفها..».

«لكنني لن أكشف أية أسرار!». ونظر تانوا في عيني خاله مباشرة. إنه جريء، مرت الفكرة في رأس هنوتي. ومع ذلك، هذا الدرس كان لا بدّ منه. إنه لخيره وصالحه، ويُفضل أن يأتي منه على أن يُترك ذلك لميتانموا. «لا تقاطعني، من فضلك. بديهي أنك لن تكشف أية أسرار، أليس كذلك؟ لقد أقسمت على ذلك. لكن هذا يتضمن أيضاً أنه لا يجوز لك أن تغادر البلد ببساطة، دون أن يعرف أحد بوجهتك. ماذا، إن هاجمك قطاع طرق، أو إن اختطفك أحد، أو أخذت رهينة من قبل أتباع الميتانيين؟ أنت لم تعد ابن تاجر من ترشا. أنت تعمل الآن في خدمة اللابارنا. وفي حال السفر تحصل من الإدارة على وثيقة تُثبت أنك في خدمة الملك الشمس، وهذا حسب الأعراف المتبعة يوفر لك أكبر حماية ممكنة. أحياناً أجرك جاهلاً ببساطة، لكنك تتعالم».

«أنا آسف، بصدق»، قال تانوا محاولاً لتلطيف الجو، وأردف: «أعترف بأني أرغب منذ مدة طويلة بزيارة قطننا ثانية، أما فكرة السفر أثناء عيد الخريف فقد جاءني عفواً».

«احكِ هذا الكلام لجَدَّتِكَ، ولن تصدِّقك. الأمر مرتبط بالرسالة التي وصلتكَ من صديقك أكيزي، أليس كذلك؟».

اتسعت عينا تانوا دهشة، فسأل خاله: «من أين عرفت بالأمر؟».

«أساذج أنت؟ ليس ثمة ما يُخفى هنا، ولا سيِّما رسالة من قطنا، مِن ملكها إلى تانوا الكاتب!». التفت هنوتي عنه، ناظراً نحو الخارج عبر الباحة الخادمة بلا حياة تحت شمس الظهيرة اللاهبة، ثم قال: «بعد كل ما خضناه معاً، لا أفهم إطلاقاً أن تكتم الأمر عني، فلا تذكر حتى كلمة واحدة عنه. ألم أثبت أنني أهل للثقة بالنسبة لك؟». وجاء السؤال الأخير بصوت خافت جداً.

ولمَّا بقي تانوا صامتاً، أضاف: «ظننتُ طبعاً، أنك ستأتي مع الرسالة إليّ فوراً، لأنها أمر غير عادي، ولا يمكن كتمان خبرها. على كل حال أنا كنت لأفعل ذلك».

ما أكثر الأمور التي يتكتم عليها هنوتي، فكر تانوا. لكن هذا لا علاقة له بالموضوع الآن، ولكنه الآن تحديداً يشعر بأنه يُعامل بإجحاف، فقال: «لكنني لم أستلم الرسالة إلا الآن من ميتانموا، إني لم أكد أقرأها. أردت التفكير بمضمونها قليلاً، قبل أن أحكي عنها. ولأقل بصدق، إني لم أتصور أنني سأحصل على الإذن بزيارة أصدقائي في قطنا. ليس فيها ما هو مهم. خذ، أقرأها بنفسك!».

«اقرأها أمامي»، همهم هنوتي وهو يفكر في نفسه، من يختبرُ الآخر هنا. ياله من ثعلب ماكر، ميتانموا هذا. كان على وشك أن يزرع الشقاق بينهما. ولكن رغم ذلك! لم تكن إشارة خبير، أن لا يثق به تانوا تمام الثقة. أم أن في فطرته شيئاً غير أرضي يا ترى! لم يشعر هنوتي بارتياح في نفسه. هل يتصرف تجاه ابن أخته بشكل صائب؟ ما هذا الهذرا؟ ما هذا التردد والاضطراب: المملكة أولاً.

«هل تنصتُ إلى ما أقرأ؟». سأله تانوا قاطعاً سلسلة أفكاره.

«طبعاً، طبعاً.. الأب مات، وماذا بعد؟». تابع الشاب الترجمة بكل سلاسة من الحورية إلى الحتيّة. هذا الشاب بارع جداً. لكن الملك أكيزي حقاً لم يكتب شيئاً مهما. عدا عن خسارة والده الفظيعة، الجميع بخير، وقد صار أباً لصبي، والمحصول وافر، وما شابه ذلك.

«ومع ذلك ثمة أمران يثيران قلقي، لأنني لا أجد تفسيراً لهما»، قال تانوا وأردف: «هو يكتب أن لغز القوافل قد انحل تقريباً.. لماذا هذا الغموض؟ لماذا لا يكتب ببساطة من

هو؟ والأمر الثاني: لماذا يريدني أن أزوره؟ هو يعرف أنني لم أعد في ترشا وأن العمل في المتجر يضجرني. هو يعرف أنني هنا في حتوشا. ما رأيك؟».

كان هنوتي قد استعاد هدوءه، فقال: «سؤالان مبرران. الواضح أنه يريد استشارتك أنت تحديداً في موضوع ما. أي نوع من الناس هو، أكيزي هذا؟».

لا بدّ لتانوا من أن يرتب أفكاره أولاً، للإجابة عن هذا السؤال العسير، ولا سيما أنه لم ينظر إلى أكيزي إلا باعتباره أخاً لكيا. وكان غالباً يفهم أسباب غضبها منه. ولكن ما الذي يكشفه هذا في ما يتعلق بجوهر أكيزي؟ وأخيراً قال: «من ناحية الشكل الخارجي، أنتما متقاربان. شكله رائع، قوي البنية كالمحاربين وشجاع. كانت البنات كلهن مغرمات به، ربما لأنه كان طيب المزاج، دائماً تقريباً، جاهزاً للمزاح وللمغامرات الخطرة. وهذا ما كان يجذب الشباب إلى صفه. كان مستعداً دائماً للمشاركة في المباريات، مهما كان نوعها. إنه أفضل قائد عربية بلا منافس. أمه الملكة تعبده. أما الملك، أعني الملك إيداندا، فكان في أحيان كثيرة غاضباً منه، لأنه برأيه لا يأخذ الأمور على محمل الجد باعتباره وليّ العهد، وتنقصه النظرة الشمولية، بل النظرة المستقبلية. ولكن أين هو ذلك الأب الذي يمكنك أن ترضيه تماماً؟». تنهد تانوا ثم أضاف: «أحياناً تجده سريع الغضب، ما يدفعه لاحقاً للتأسف، ومن ناحية أخرى كان يبذل جهداً كبيراً للقيام بواجباته على أفضل وجه، وانتخابه الآن من قبل المجلس خير دليل، أليس كذلك؟».

«أتقصد أنه سيتابع خط أبيه السياسي؟».

«هذا ما لا أعرفه. صحيح أننا كنا نلتقي كثيراً، لكننا لم نتطرق قط إلى هذا الموضوع. وبصورة عامة، معرفتي في هذا الموضوع محدودة جداً. كنت أفرح عندما أتمكن من التسلّل من دار البلد. واجتماعات المجلس كانت محظورة على الغرباء، إلا في حالات استثنائية. أبي حضر اجتماعاً مرة. كيف كان لي أن أتكهن بأن الملك إيداندا سيبكر في الالتحاق بأسلافه؟».

كان هنوتي قد سمع ما يكفي ليتأكد من أن تانوا لم يقصد إخفاء معلومات مهمة عنه، فقال راضياً ومن دون سخرية مبطنّة: «وعن كيا لم يكتب شيئاً، هذا الوغد!».

«ولماذا يُفترض به ذلك؟».

«إذاً، هو لا يعرف شيئاً عن عواطفك تجاه السيدة الشابة؟».

هز تانوا رأسه نائياً، متمنياً أن يُبتر هذا الموضوع ما أمكن، فمشاعره تجاه كيا تخصه

وحده. لقد ساعدته في مواجهة أوقات عصيبة، ولا يجوز لأحد أن يستثيرها، ثم قال من أعماق قلبه، بشيء من القلق: «أمل أن تكون هي وأمها بخير. کیا كانت المفضلة علناً عند أبيها. كان يعبدها ويسمح لها بأمر كثيرة، وأحياناً كان أكيزي يغار منها، أظن ذلك. الملكة بلتوم على كل حال تكرهها أكثر من كرهها لأمها الأميرة إيست، وهذا كان جلياً في سلوكها. أكيزي كان يعامل کیا غالباً مثل طفلة صغيرة يعابثها، وهذا ما كان يزعجها. يستفزها دائماً، ولكن على سبيل المزاح. كم بودي أن أعرف أحوالهما الآن، في الظروف المختلفة، من دون حماية إيداندا».

«كنت أريد أن أحكي معك عن هذا الموضوع».

«عن أحوال کیا وأمها؟». سأل تانوا مدهوشاً ثانية.

«ليس بصورة مباشرة طبعاً. اصغ إلي. هناك رسالة ثانية من الملك أكيزي وصلت إلى الملك الشمس، وهي لا تلي التطلعات المنتظرة هنا».

«آية تطلعات؟».

«لتفهم ذلك عليك أن تعرف أن رسولاً رسمياً من طرف الملك إيداندا قد سلّمنا قبل شهرين كتاباً يطلب فيه وضع قطنا تحت حماية حتوشا».

فانفجر تانوا قائلاً: «هذا لا يصدق. ليس مصر؟».

«إما أن الملك كان بعيد النظر، فأدرك أن حتوشا في المستقبل لن تترك عائقاً أمامها، وإما أن وراء الأمر سبباً آخر. إذا صح هذا الافتراض، فعليك أنت أن تكتشف ما هو».

«أنا؟».

«أنت!». قال هنوتي ضاحكاً، وأردف: «أنت من قال، إنك ترغب في أن يكون لك شأن في السلك الدبلوماسي. وها قد آن الأوان لتنتقل وحدك، بدل التمسك دائماً بطرف رداثي! ستكون مهمة صعبة وفيها الكثير من المسؤولية. صحيح أنك مبعوث الملك الشمس، ولكن ليس بتكليف رسمي. إذ يبدو أن ابن إيداندا لا يريد السير على خطا والده؛ هذا ما اتضح على الأقل من رسالته الرسمية الأخيرة التي لا يفهم منها شيء. وأن تتمكن من تغيير موقفه، وإن أمكن مواقف النخبة في قطنا لصالح حتوشا، فسيعدُّ هذا نصراً كاملاً لك. ولكن إن استطعت فقط أن تكشف غموض موقفهم، أين تقف قطنا وإلى أين تتجه، كيف يبدو ميزان القوى في مجلسها وإلى ما هنالك، تكون قد أدّيت مهمتك بنجاح».

والآن، ما رأيك؟ ظننتك ستفرح، ففي نهاية المطاف أنا الذي اقترحتك!». ونظر إلى وجه تانوا بتشوق.

كيف كان له أن يخطئ إلى هذا الحد في تقدير هنتوي حق قدره؟ فهو لم يكن موقناً حتى الآن مما يخطئه خاله له. علماً بأنه منذ المباراة بينهما في پوروشخندا لم يعد يملك مبررات للشكوى. أما الآن فقد فهم سبب خيبة أمل خاله، عندما لم يهرع بالرسالة إليه - ولكن هكذا هو طبعه. نهض وعانق هنتوي.

«ما زلت عاجزاً عن الكلام، اعذرني! لم أعتقد أن من الممكن لأملي المنشود أن يتحقق بهذه الصورة. ولا أن أكلف بمهمة على هذه الدرجة من الأهمية، بهذه السرعة. والفضل في ذلك يعود لك!».

«الفضل يعود بالدرجة الأولى لك أنت. مitanموا راض عنك كلياً، فأنت مجتهد وموهوب. وقد قدمت الدليل على ذلك خلال الحملة العسكرية»، وعندما أشار تانوا بيده تعبيراً عن تواضع ما قدمه، ألح هنتوي قائلاً: «بل قدمت وزيادة. ولكن تانوا، رغم كل هذه النشوة التي تستحقها من أعماق القلب، لا بدّني من أن أحذرك جدياً: عليك ألا تنسى أبداً مع أي جانب تقف. في المقام الأول يأتي الحفاظ على مصالح مملكتنا وتوسيعها. كل ما عدا ذلك يأتي لاحقاً. وثمة أمر آخر لا بدّ من أن تعرفه: إنني أضمنك بحياتي!».

«لماذا لم تخبراني بالأمر إلا الآن؟». صرخ الملك في وجه عمّه أكالينا وأخيه كوارى، وأخذ يذرع قاعة الاستقبال جيئةً وذهاباً.

«اعتدل في لهجتك، فهذا الخبر المروّع لم يصلنا إلا قبل قليل». أجابه أكالينا. «والبضاعة المسروقة، أهي مجدداً بضاعتنا نحن؟». سأل أكيزي متراجماً عن لهجة التائب.

«الوضع أسوأ هذه المرة. معظم المسروقات يخصّ الفرعون!». أجاب كوارى. «هذه كارثة!».

«هذا ليس كل شيء». عبدي عشيرتنا ملك أمورو، الذي وقعت الغارة على حدوده الجنوبية اتهمنا لدى الفرعون بأننا لم نوفر للقافلة الحراسة المنصوص عليها في التعليمات،

ولم نُعلم الجهات المعنية في أمور و بطريق القافلة، التي لم يرافقها سوى شخصين مربيين. فمن الواضح أننا قد خططنا لأن تُتهب القافلة، وأغلب الظن لمصلحتنا الخاصة». «ما هذا التجني الدنيء؟! من أين عرفت بكل هذا؟».

«رب أذي ملك جبلة وصلته رسالة من الفرعون بهذا الشأن، طالبه فيها بأن يرسل إلينا رسولا ليعرض علينا هذه الاتهامات».

شحب أكيزي ثم قال: «ألا يرسلنا مباشرة؟ يا لها من إهانة! ولا شك في أن ابن الكلبة الجرباء وراء العملية كلها. ما هذه الجسارة الوقحة الدنيئة! المرجح أنه قد وضع كل شيء في خرجه الخاص، مثلما فعل بغنائم غارات السنة الماضية». ثم هدر غاضباً: «ويتهمنا نحن بالذات. فليأخذ الطاعون!».

أثناء سورة غضب أكيزي بقي الاثنان صامتين، إذ كانا يعرفانه. وبعد أن همد قليلاً قال: «وأنا الذي ظننتُ أن هذه الغارات قد انتهت أخيراً»، وأردف شاكياً: «ماذا بوسعنا أن نفعل؟».

«عليك بأسرع ما يمكن أن تبعث رسولا موثوقاً إلى أمينوفيس، ليوضح له بالتفصيل أن لا علاقة لنا على الإطلاق بالغارة، وأنا لئبنا متطلبات أمن القافلة كاملة. لا أرى إمكانية أخرى سوى هذه».

«أحقاً لم نُعلم الجهات المعنية في محطات أمور؟».

«عليّ مراجعة الأمر. لا أريد تأكيد ذلك الآن. ولكن إن لم يحدث ذلك، فلا بد من وجود سبب. ما دام لم يتوضح بعد أين يجلس الخائن أو الخونة ف...».

قطع أكيزي كلام أكالينا بإشارة من يده. كان يعرف الخونة، ولكن لم يكن بمقدوره أن يكشف ما يعرفه أمام هذين. يا أيها الأرباب! «أرسلا في طلب (أكيّا) إلى مكتب العمل. وجّهز كل ما هو ضروري!».

أنعش أكيزي نفسه بقدر جعة باردة وطازجة، ما ساعده في التفكير، ثم ذهب إلى المكتب لمناقشة الرسالة إلى الفرعون أمينوفيس. يجب أن تصاغ بدكاء، فلا تقول أكثر أو أقل مما يلزم. وسيُسرّ بهم الأخبار إلى أكيّا مباشرة، فهو موضع ثقة عمياء للقصر، إذ يفضل الانتحار على أن تخرج من بين شفتيه كلمات، في مكان ما، لأذنين غير مقصودتين. إنه يعرف سوريا ومنطقة الساحل بطولها مثلما يعرف جيب رذائه. لقد زار مصر عدّة

مرات ووصل إلى عمق جنوبها في بلاد كوش. وله صلوات في كل مكان، يساعده عند الضرورة، فقد نسج خلال السنين الطويلة شبكة متينة من العلاقات. ومؤخراً عاد إلينا سالماً عبر قادش وأمورو. لا شك في أنه أهل لهذه المهمة الصعبة، وسينجح في أدائها.

أمر أكيزي كاتبه الأول قائلاً: «جهّز وثيقة السفر لأكيا. أحضرها إلي عندما تنتهي لأختهما!». وأشار بيده للكاتب الثاني كي يتبعه إلى الفسحة، حيث كان الهواء عليلًا، على نقيض جو المكتب الخانق، وقال له: «تعال معي!». أسرع الخدم وهيؤوا الوسائد لراحة الملك. جلس الكاتب عند قدميه واضعاً طاولة صغيرة فوق ركبتيه.

«لن تكون رسالة بسيطة» قال أكيزي وزفر. يارتي، أوحى إلي بالكلمات المناسبة. تلا بعض الأدعية باتجاه السماء. كان مهماً جداً بالنسبة إلى قطنا أن تعود العلاقة مع أمينوفيس إلى طبيعتها. ليس فقط بسبب الحماية التي توفرها مملكة النيل، بل لأن المصريين أفضل مستوردي بضائع قطنا ومتوجاتها، ويمتلكون مصادر ذهب لا تنتهي. ألا يستفيد الجميع منها؟! بدأ أكيزي يفتنط لطول تفكيره بالصياغة الأفضل، دونما نجاح يذكر. إن الطريقة التي يتعامل بها أمينوفيس الثالث، وابنه في المقام الأول، مع قطنا، تعد في واقع الأمر سلوكاً شاذاً. يستغل كرم ضيافتنا طوال أسابيع ثم يختفي دون شكر، ودون أن يرسل هدايا. والآن هذه الاتهامات المريعة. وفوق ذلك كله عليه الآن أن يتوسل، كي يصغوا إليه، علماً بأن قطنا ليست خاضعة لمصر. ليس بعد. أليس من الأفضل حقاً أن تستقل سوريا ثانية. انحناء وتملّق لمصر، وانحناء وتملّق واسترضاء لحتوشا وبابل وميتاني، وللجيران أيضاً، ولأشور في القريب العاجل، ربما. كم يكره هذا كله. نهض واقفاً وأخذ يذرع الفسحة جيئة وذهاباً بانفعال واضح، بينما الكاتب ينتظر. وأخيراً جلس بعد أن أرسل خادماً لإحضار مزيد من الجعة الباردة.

«طيب، لنبدأ إذاً. لا مناص ولا بدّ. أنت تكتب على الشمع. عندما تنتهي، خذ الرسالة إلى الشريف أكالينا ليراجعها مع الشريف كوارى، مفهوم؟ بعد ذلك تكتب الصيغة النهائية على الطين مع النسخ الضرورية!».

أوماً الكاتب إيجاباً. كالمعتاد إذاً.

«قل لفرعون مصر العظيم: «رسالة من خادمكم أكيزي. إني أركع سبع مرات عند قدمي سيدي وشمسي».

دقق يا سيدي في التقارير المرسلة إليك مع الساعي، وستدرك عندئذ أن قطنا ما زالت تقف إلى جانبك بوفاء. ليست قطنا من نهب بضائعك.

منذ سنين تُسَنّ على القوافل في منطقتنا غارات لنهبها. إن قطننا هي التي تُنهب، رغم كل الاحترازاات التي اتخذت لحراسة القوافل. ولكن من هم اللصوص؟ دقق بعناية يا سيدي في أماكن وقوع الغارات وستدرك مَنْ يُحتمل أن يكون الفاعل. إن قطننا تطلب مساعدتك يا سيدي. أعداؤك هم أعدائي. أما نحن فما زلنا موالين لك ولابنك.

أرجو لك ولأسرتك ولزوجتك العظيمة وسائر زوجاتك وأبنائك وبناتك وعرباتك وجيادك ومقاتليك ومملكتك، ولكل ما يخصك، كل الخير! أرسلُ إليك هدايا ستسرُّ قلبك!«.

حدث الأمر، نوعاً ما، كما في أحلامه. كان واقفاً مع أكيزي على شرفة جناح المعيشة الملكي، عندما ظهرت كيا في الباب. كان الملك قد أرسل مَنْ يدعوها، دون إخبارها بالسبب. بدت رائحة في ثوبها الطويل والخفيف، والشعر الأسود الأجعد المربوط بشريط بسيط، يحيط بوجهها. كانت أجمل ألف مرة منها في ذاكرته. ما زالت رشيقة كفتاة صغيرة، لكن ملامح الوجه اكتسبت نضج المرأة ونعومتها، أم تراه يتخيل ذلك. تعرّف من فوره ملمح الجسارة المميز حول فمها. لا شك في أنها ستسأل أكيزي فوراً عن سبب استدعائها من دون ذكر الأسباب. لكن هذا لم يحدث. بعد تردد لبرهة تعرّفته، فظهرت على وجهها ابتسامة مشرقة أضاءته، ثم ركضت فرحة كأخت صغرى وعانقته من دون أي تردد.

«تألزو، ماذا تفعل هنا؟ لماذا لم تخبرنا مسبقاً بقدمك يا وغد؟! ما أجمل رؤيتك! كيف تبدو؟ لا بأس بك في هذه التنورة القصيرة، وما هذه السمرة؟ ظننتك تجلس في مكتب!«.

أرجحها حوله، وقلبه يخفق لضمتها أخيراً بين ذراعيه ولشّم عطر جلدتها وشعرها الخلاب. لم يحتاج بادئ الأمر لأن يجيب، لأن كيا كانت تمطره بالأسئلة والملاحظات بلا توقف، فاستمتع بصمت بسعادة لحظة لا تضاهي، إلى أن رفعت ذراعيها عن عناقه لتحتي الموجودين.

«لقد صمّتم جميعكم! يا لكم من عائلة مريعة! كوارى، أنت على الأقل، كان بوسعك أن تنذرني مسبقاً!«.

«وكيف لي ذلك. جميعنا لم نعرف شيئاً عن قدوم تالزو، أقصد تانوا».
«متى وصلت؟».

كان يتنشق صوتها الجميل. سيبقى عاشقاً لهذه المرأة حتى نهاية حياته. كان عليه أن يضبط نفسه، كي لا يبقى محدقاً فيها وحدها. تنحج وحاول ما أمكن أن يبدو طبيعياً في قوله: «في الوقت المناسب لوجبة غداء لذيذة واستراحة قصيرة، يعني قبل ساعات قليلة فقط. لو كنت أعرف مكان وجودك لتركت لك خبراً في البوابة!».
«عليك إخبارنا بكل شيء»، بالتفصيل!

«طبعاً، ولكن ليس الآن»، قاطعها أكيزي وأضاف: «هناك حديث خاص بيني وبين تالزو، أعني تانوا.. علي أن أعتاد على الاسم أولاً. سنلتقي على عشاء ممتد مع العائلة كلها، التحضيرات جارية الآن. لا بد أن نحتفل بقدومك!».
«بودي أن أحبي ابنك أيضاً. كيف حال إهلي نيكالو؟ ما أخبار أمك، کیا؟ أما زال دونيو هنا؟».

«أجل أسئلتك، تانوا. سيجاب عليها كلها لاحقاً!». وضحك أكيزي.

هز تانوا كتفيه أسفاً وقال: «عندما ينادي صاحب الجلالة، فليس بوسع المرء سوى تلبية النداء». وابتسم ابتسامة عريضة. كان يشعر بالارتياح في هذا الجو العائلي. من الواضح أنهم قد افتقدوه حقاً، ولو قليلاً، وبدا مسروراً بوجوده بينهم. ثمة أمر ملح يضغظ على أكيزي، وإلا لما تصرف بهذا الأسلوب شبه الفظ.

«كم تستطيع أن تبقى؟». ابتسمت کیا، لكن نظرة عينها كانت جادة جداً.

«بضعة أيام، على الأقل حتى بداية عيد الخريف».

«هذا أفضل من لا شيء». والتفتت مغادرة دون وداع.

لاحقها تانوا بنظره، غارقاً في أفكاره. هل أخطأ في كلامه؟

«ما بال کیا؟».

قاد أكيزي تانوا إلى جناحه الغربي الخاص، حيث جلسا وشربا عصير الرمان مع الثلج.

«بئر قصركم أعجوبة. لم أر في أي مكان مثل هذه العمارة المصممة بخيال مذهل. أن

يتوافر لديكم الثلج حتى الآن، هذا أمر لا يصدق. ولكن مرة ثانية أكيزي، ما بال کیا؟ عندما غادرت بدت لي جادة جداً».

«أهذا شعورك؟ أنا لم أرها منذ دهر مسترخية مرتاحة كما اليوم. لا شك أن الأمر يتعلق بك، فهي توذك! إنها تعاني جداً فقدان أبيها وطبعاً أيضاً بس... آخ تانوا، هناك الكثير للحديث. لدينا بعض الهموم. لهذا دعوتك للقدوم. أنا أحتاج إلى مشورتك يا صديقي. هنا في قطنا لا أجد من أستطيع أن أتحدث معه حديثاً نزيهاً دون غرض ودون خوف. هناك أمور كثيرة تغيرت منذ إقامتك هنا، وبشكل خاص منذ أن صرتُ ملكاً».

أدرك تانوا أنه لا بدّ لأكيزي من أن يُفصح عن كل همومه وقلقه، قبل أن يصل إلى حالة تقديم المعلومات التي تهمة أكثر من أي شيء آخر. كان قلب أكيزي مترعاً إلى حد أنه لم يسأل تانوا، من أين وإلى أين. من الواضح أنه لم يجد ما يلفت النظر بظهوره المفاجئ في لباسٍ حتّي صارخ، ومكلفاً فوق ذلك بمهمة دقيقة. أصغى تانوا إليه بصبر. تحدث أكيزي عن الصلات السرية للملك إيداندا مع شخصية موثوقة في حتوشا أولاً، ثم مع الملك شويلوليوما. كما تحدث عن المؤامرة ضد الملك إيداندا وكيف توصل أبوه من ملاحظة تانوا، في رسالته إلى كيا، إلى معرفة الخونة، وتحدث عن احتضاره وموته، وعن الاتفاق مع كيا وشالا للتكتم على جريمة القتل، كي لا تتعرض وراثة العرش إلى الخطر، وعن تجربة حكم الأرباب التي اضطرّ إلى خوضها، وعن جسارة تيرو وعبدي عشيرتا، وعن قتل الخادمة. كان فيض حديثه لا ينضب، وقد انتقلا من العصير البارد إلى الجعة الباردة. ترك تانوا الملك يفضفض ولم يقاطعه إلا لماماً.

«آه يا صديقي الوفي العزيز، أنت لا تتصور كم يريح الحديث عن هذا العبء.. مرت أيام ظننت فيها أنني سأجنّ. شالا وكيا اختفتا وراء جدران معبدهما. وهذه المواضيع لا أستطيع أن أتطرق إليها مع أهلي نيكالو أو مع الملكة. فهي أمور في نهاية المطاف لا علاقة للنساء بها».

لا إرادياً ظهر شبح ابتسامة على وجه تانوا. هذا هو أكيزي! ألا يجلس على العرش بفضل امرأتين ذكيتين عاقلتين؟ تابع أكيزي عرض وضعه قائلاً: «أنت تدرك حرج وجودي بين جميع الكراسي. بعضهم يريد سوريا مستقلة. قد لا تكون هذه أسوأ الأفكار، وقد قلبتها في رأسي كثيراً مؤخراً. تصور، هذا الجرذ عبدي عشيرتا قد عرض ثانية خطبة كيا، يريد تزويجها لابنه، هذا الأهل الثخين عزيزاً، لتكون ضماناً لاتحاد البلدين. أنا لم أخبرها بذلك بعد. فبعد فعلته الوقحة الأخيرة، أن يسيء إلى سمعتنا عند الفرعون بسبب القافلة، أيّ جواب يتوقع منا هذا الثعبان؟ لكن هذا موضوع آخر».

كان حال تانوا كمن تتالت عليه طاسة ماء حار وراء طاسة ماء بارد. فأكيزي يتحدث عن كيا وكأنها لفة قماش. شرب ما في قدحه بجرعة واحدة وأشار إلى الخادم ليمأه له ثانية، وهو يتابع الإصغاء: «وملكك يلح عليّ أيضاً بصورة مزعجة. يعتمد على رسالة أبي المتهوره كلياً، والتي دبّجها وحده دون استشارة أحد، ويتوقع منا الخضوع له ودفع ضريبة الحماية. وقد أعلمنا بذلك عن طريق رسول وسيم جداً ورشيق»، وأدار أكيزي حدقتي عيني به حركة توحى بمعان كثيرة. نانيزي، قفز الاسم إلى رأس تانوا وهو يضحك متفهماً.

«إنني أسألك، تانوا، لماذا يُفترض بنا أن نخضع لغيرنا؟ نحن بلد مستقل. ولكن كيف يوصل المرء هذا الموقف إلى الملك العظيم دون أن يتجاوز حدود اللياقة، أو أن يحل عليه الغضب؟ لقد بذلنا جهداً كبيراً كي لا نخطئ في صياغة جوابنا، ومع ذلك لم يصلنا الرد حتى الآن».

لو أن أكيزي يعلم...، ولكن فكرة احتمال أن يكون تانوا هو من يحمل الرد، لم تخطر في باله. على كل حال، لا داعي للعجلة الآن. سيفكر بشيء مناسب.

«ثم جاء هذا النبذ من جانب مصر. وهو أصعب المشاكل بالنسبة إليّ. لقد كنت دائماً أجد فكرة أن نخضع لمصر، إذا اضطررنا للبحث عن حماية. وهذا مبرر، اليس كذلك؟ في نقطة واحدة على الأقل كان أبي محقاً تماماً، وهو أن نتجنّب التورط في السقوط المتوقع والشيك لميتاني. غالبية أعضاء المجلس مقتنعة بوجهة النظر هذه. ولكن الآن؟ يا لهذا التعقيد! أنت، بماذا تنصحيني؟». ودون أن يترك لتانوا فرصة للإجابة، تابع: «أتذكر كيف كان أبي يمتدحك دائماً كقدوة منيرة تفكيراً واتزاناً؟». وعانق أكيزي تانوا. «كان يقدرك جداً، إلى حد أنني كنت أغار أحياناً. لا، فأنا أعرف قدراتك حق المعرفة. وإلا لماذا دعوتك لزيارتي. أتظن أن أبي كان ليرضى عني الآن؟».

ضحك تانوا قائلاً: «هذا كثير، دفعة واحدة!».

شاركه أكيزي الضحك وهو يقول: «ما أروع أن تكون هنا. لم أكن أتخيل مطلقاً مدى وحدة المرء عندما يكون ملكاً. كم كنا مبسوطين في نزواتنا آنذاك، أتذكر؟ لقد انتهى هذا كله. إما أن الهيبة الملكية تحظر ذلك، وإما أن يُعتبر الأمر إشاراً على حساب الآخرين، وإما أن يوجد هناك مانع ما. كل تلك المبارزات والمصارعات الجميلة. لحسن حظي بقيت لي النساء! وأنا لهنّ!». وربّت على ذقنه.

«وما رأي زوجتك في الأمر؟». لم يكن تانوا مهتماً بتفاصيل غراميات أكيزي.

«لقد تغيرت إهلي نيكالو كثيراً، منذ زواجنا، صدقني. ومنذ أن صار لديها الطفل.. إنها على كل حال منشغلة بـ أموت بان طوال الوقت، ومعها أمها وحمايتها أيضاً. هكذا هي الحياة. خذها مني يا صديقي! استمتع بأفضل ما لدى النساء ودعك من بقية أمورهن. لكن الصغير حلو، صبي متين، مثل أبي تماماً!».

حاول تانوا ثانية ويحذر أن يعيد الحديث إلى مصر متسائلاً: «لم يتضح لي بعد سبب معاملة الفرعون لقطنا فجأة بهذه الطريقة المزرية. كانت العلاقات دائماً ممتازة، على الأقل بسبب الأميرة إيست. وهو حتماً لا يعرف أن قرون استشعار الملك إيداندا قد التفتت نحو حتوشا».

«بل يعرف. على الأقل ابنه أمونحوتب يعرف».

«وما أدراك؟».

«لأنه استجوب كيا أولاً، ثم أبي».

«لا أفهم - ماذا تقصد؟».

فأخبره أكيزي بالتفصيل عن إقامة أمونحوتب في قطنا، وعن الآمال التي عقدت عليها، من دون أن ينتبه أثناء الحديث إلى شحوب تانوا، الذي انقبضت معدته عندما أتى على ذكر هموم كيا. وعند ذكره مشاعرها تجاه وريث العرش لم يعد يحتمل. كيا حبيته، حبيبته المسكينة، وأخذ يتقلب بين الغيرة والتعاطف. الآن فهم نظرتها، إنها لم تكن جادة، بل حزينة.

ختم أكيزي حديثه بقوله: «وهو قد تزوج نوفرتيتي الآن. وأنا بصراحة لا أفهم سبب غضب والدي الشديد نتيجة لذلك».

أخذ ذهن تانوا يربط ويحلل. كان واضحاً بالنسبة إليه ضرورة استبعاد جميع الأفكار الشخصية من رأسه، وألا يبدي أية مشاعر. كان عليه كسب الوقت. أخذ جرعة كبيرة من الجعة وشرع يرتب ما سمعه حتى الآن: «لنأخذ الأحداث في تسلسلها. كانت الأمور كلها بخير، ثم بدأ التفكير برابط زواج بين مصر وقطنا، صحيح؟».

أوما أكيزي موافقاً.

«عرف وريث العرش بأمر الرسول الحتي القادم من قبل تاجر صديق في حتوشا، وليس من قبل الملك العظيم نفسه، صحيح؟».

أوما أكيزي موافقاً ثانية.

«حاول الملك إيداندا تهدئة غضب وريث العرش المصري، بتفسير الأمر على أنه يتعلق بصفقات تجارية مع حتّوشا، وسافر أمونحوتب في أجواء صافية تماماً».

«نعم، لكنه قبل سفره زار تيرو. وخالي هذا حقاً مشكلة. مكانه الحقيقي إما أمام القاضي وإما في القبر بعد أن أمر بقتله، لكن هذا غير ممكن. عند ذلك سأفصح نفسي، أتفهم؟ حالة تدعو لليأس!».

لم يبدُ على وجه تانوا أي تعبير. بدلاً من ذلك شرع يفكر بصوت عالٍ: «ما غرض المصري عند تيرو؟ لم يكن بوسعه سوى التحقق، مما إذا كان يقف إلى جانب الملك. إذا كان يعرف كفاية، كما تقول، فيجب أن يكون عارفاً أن آراء تيرو غالباً مغايرة لآراء صهره الملك. فهل يفكر به المصري بديلاً عن إيداندا؟ لكن هذا لن يفيد شيئاً، مطلقاً. إلا في حالة واحدة، وهي أن أمونحوتب لم يصدق زعم أيبك بشأن الصفقات التجارية مع حتّوشا. عندئذ يُحتمل أن لمصر يداً في قتل أيبك، وليس ذلك الذي تشبه أنت فيه. وهذا يوضح أيضاً إسقاط مشروع الخطوبة، وعدم كتابة الفرعون إليك بل إلى ريب عدّي ملك جبيل التابع إليه».

«في هذه الحالة يُفترض أن يكون تيرو جالساً على العرش، وليس أنا، أليس كذلك؟ صحيح أن أمونحوتب وأنا لم نصبح أصحاباً، لكنه كان متأكداً من أنني مطلق الولاء لمصر. لقد أرسلت إلى الفرعون عدّة رسائل، أكدت فيها ولاءنا له».

«محااجتكت تحمل جانباً من الصواب. أيحتمل ألا تشكل قطننا حالياً أية أهمية بالنسبة إلى مصر؟ على المرء أن يعرف ما يجري هناك أولاً، وقبل ذلك ما الذي قاله عبدي عشيرتنا الأموري للفرعون». همهم أكيزي حانقاً: «الأكثر مدعاة للأمن هو إزاحة عبدي عشيرتنا من الطريق أيضاً»، ثم أضاف: «قبل فترة قصيرة أرسلنا رسالة جديدة إلى الفرعون، قد تنجح في إقناعه ببراءتنا من الغارات على القوافل، فنعود الأمور إلى مجراها الطبيعي. كما فكّرت بإرسال كيا إلى أمينوفيس. ولكن ماذا يجدي هذا. مستخفي في الحريم مثل أميرات ملوك أخريات، هذا إن لم يُعدها إلينا فوراً. وكم سيكون ذلك مذلاً، يا أيها الأرباب!».

كان تانوا يعاني ألماً فظيعة. كيف يمكن لأكيزي أن يحكي عن كيا باستمرار بهذه الصورة! من الواضح أن أخته كإنسان لا تعني له شيئاً إطلاقاً. إنه مستعد لبيعها ببساطة، إذا كان في الأمر مكسب له. كيا تماسك وسأل أكيزي: «أليس للأميرة إيست قنواتها؟».

«لم أطلب مساعدتها. كانت حبيبة أبي، وهذا حقك كملك. ستحترمها هنا طبعاً، ولكن

لا أكثر من ذلك». نهض أكيزي واقفاً وأضاف: «يا عزيزي، اليوم لن نحل المشاكل. أرجو عفوك لمصادرتي إياك فوراً، ولم تمض ساعات بعد على وصولك، فضلاً عن أنني لم أسألك عن أحوالك. مساء اليوم ستخبرنا عن كل شيء بالتفصيل. سترى وجوهاً كثيرة مألوفة. أترغب في زيارة الملكة قبل أن تنسحب لتستريح؟».

أوماً تانوا برأسه إيجاباً وتبع الخادمة.

إذا كان أكيزي يخامر شعور بأنه يجلس بين الكراسي، فإن تانوا خير من يشاطره هذا الشعور. لقد أتى إلى قطنا مكلفاً من سيده للعمل على جذب الإمارة إلى الجانب الحثي. إضافة إلى ذلك، يُنتظر منه بعد عودته إلى العاصمة أن يقدم تقريراً أميناً للإدارة يتضمن كل المعلومات المهمة، التي سيجمعها أثناء رحلته. حتى الآن لا بأس. صديقه أكيزي يثق به على ما يبدو ثقة عمياء، فباح له بكل شيء، وكأنه قد سلمه نفسه. كان هذا أمراً مفهوماً بسبب رابط الأخوة الذي عقدهما بينهما. ولكن أيجوز لأكيزي أن يهين المرأة التي يحبها تانوا أكثر من حياته، وأن يتصرف بها؟ كان هذا يزعجه ويقلقه. وكان كل أمله، أن تكون كيا في بيت الربة في رعاية جيدة، فهي هناك في حماية كبيرة الكاهنات شخصياً. قد يضمن لها هذا أماناً معيناً من نزوات أخيها الملك.

لم يسعف الوقت تانوا لمعرفة ما إذا كانت كيا لا تزال حادة في الدفاع عن نفسها. ويبدو أن مرحها العفوي السابق قد تلاشى. أهي مريضة؟ لاحظ تانوا أنها تقريباً لم تمسّ المأكولات التي كان وجودها على المائدة يبهجها عادة، علماً بأن مائدة أكيزي لم تقل فخامة وأبهة عن مآدب شويلوليوما. وفي أثنائها كانت نظراته تعود دائماً لتلحظ عند كيا الجالسة إلى جانب أمها، بعيداً جداً عنه، بحيث لم يتمكن من تبادل حتى بعض الكلمات. لم يبلغ أكيزي في وعده، فقد حضر الجميع: العائلة والأصدقاء ورفاق المباريات. وقام تانوا بواجبه في الإطراء على الطفل أموت بان ومجاملة أمه، التي يبدو حقاً أن عينيها لم تفارق الصغير، حتى جاءت المربية وأخذته للنوم. أكيزي، وخاصة كوارى، سألوا صديقيهما عن تجاربه، فحاول تانوا أن يخبرهما بأسلوب مرح، ليدفع كيا إلى الضحك، وقد نجح في ذلك أكثر من مرة. حكى عن هروبه من أدانيا في قافلة عتاد الملك، وعن مورسيللي الطيب، وعن الرحلة الشتوية إلى حتوشا، ووصف لهم مشاهدتها الحساسة، وحاول جهده ما أمكن تجنّب الحديث عن نفسه. ولم يكن الأمر صعباً، فقد شارك الأصدقاء والرفاق من جانبهم بالحديث عن تجاربهم، وحتى كوارى الجاد انخرط في الحديث بحيوية ممتدحاً

قدرة تانوا على التأقلم مع الظروف. كانت أمسية مرحة، انتهت ببقاء الرجال مع بعضهم طوال ليلة بهيجة امتدت حتى أول خيوط الفجر.

استمتع تانوا، على غير عادته، بالاحتفال الذي أقيم على شرفه وبالاستقبال الدافئ. كان الوقت في أوائل الخريف، والمحاصيل بالغة الجودة ووفيرة. كان الليل معتدلاً، وعند المغادرة همست له كيا بمكان لقائهما وموعده.

في أثناء التحضيرات لعيد الحصاد قام تانوا بزيارات عديدة. لم يكن مرتاحاً عند زيارة تيرو، لكن هذا جزء من واجبه، معترف به حتى من أكيزي، فلم يكن بإمكانه تجنّب مضيف والده. لم يكن إحياءاً مطلقاً على تورط تيرو في المؤامرة، ثم إن تيرو نفسه قد تراوده شكوك. إضافة إلى ذلك كان إحياءاً قد حمّله كثيراً من الهدايا له وكلفه بترتيب عدّة صفقات. وهكذا فإن تانوا لم يتردد، بل أدى الزيارة كأولى مهامه ووضعها وراء ظهره.

كان تانوا يطيل جلوسه عند كوارى في دار البلد. هذا الرجل كان حقاً في المكان المناسب، لحسن حظ العائلة الملكية كلها. أراد كوارى الاطلاع على بعض الأمور في حياة تانوا في حتوشا، وخاصة طريقة تنظيم إدارة شؤون الدولة، وما شابه ذلك. وبالنسبة إلى تانوا كان مهماً جداً أن يطلع على وجهة نظر كوارى في أحداث الشهور الأخيرة. وأكيزي لم يجاف الحقيقة في تأكيده، أنه وكيا هما الوحيدان، من أفراد العائلة، المطلعان على الأحداث المرتبطة بموت أبيهما. لقد فكر كوارى في الأمر، لكنه لم يتوصل إلى شيء. وعندما أخبره عن المشاكل التي ظهرت بين أكيزي وإهلي نيكالو كان حصيفاً واقعياً، وصف له التغييرات التي لاحظها على أكيزي منذ انتخابه ملكاً، وقدم لتانوا أخيراً تفسيراً مقبولاً لسلوك الملك إيداندا، في قراره الأحادي بصدد الخضوع لحتوشا من دون ضرورة ملحة لذلك. فالسياسي العجوز المحنك والحكيم كان ضحية مشاعره، أي أن العار الذي لحق بكيا وما يرتبط بذلك ذاتياً، على مستوى شعوره بفقدان شرفه الخاص، هو ما كان يسيّره.

احتدم الصراع داخل تانوا بين مشاعر متضاربة. كيف كانت طبيعة العلاقة بين كيا وأمونحوتب فعلياً؟ هل تم التخطيط لتحالف عبر الزواج؟ هل تعلق وريث العرش بكيا، حسبما خشي تانوا في حتوشا، عندما سمع عن إقامته الطويلة في قطننا على نحو يلفت النظر؟ هل أحببت كيا أمونحوتب؟ حتى الآن لم يتحدث أحد في هذا الموضوع بصراحة. وقد أمل بالتوصل إلى شيء من الوضوح بزيارته للأميرة إيست، التي دعت إليها لفترة

قصيرة أمل تانوا بأن تكون كيا حاضرة أثناء الزيارة، لكن إيست استقبلته وحدها. اعترفت له بأنها تفتقد إلى الملك، وبأنها تفضل العودة إلى مصر، لولا وجود كيا. ولم يحصل منها تانوا على المعلومات المنشودة. كما حاولت بحنكة تجنب الحديث عن أمنوحوتب. أخبرته بأنها لا ترى كيا إلا لماماً، لانتقال كيا إلى بيت الربة بعد سفر أمنوحوتب بفترة قصيرة. أحياناً تضيق بوحدها.. لكن هذا قدر المرأة. ولهذا تسرها زيارته بصورة خاصة، إذ يجلب معه نسيمات من العالم الواسع البعيد إلى مخدعها. وفقط عندما نهض تانوا ليغادر، انتبه إلى كم الأسئلة التي طرحتها عليه، عن ماضيه في ترشا والديه، وأمه خاصة، عن أسباب تركه الدار وعمله في حتوشا، عن تجاربه في المعارك وعن هنوتي وشويلوليوما وهنتي والمدن التي زارها.

بعد أن ودعها تانوا وغادرها ابتسم مفكراً بأن النهم للمعرفة عند كيا قد أخذته لا شك عن أمها. راجع أجوبته بسرعة، خشية أن يكون لسانه قد زلّ بمحذور، فزمن البراءة قد ولى. ومع ذلك فإن فضول الأم قد بعث السرور في نفسه. فلا أمه ولا حتى جدته لأبيه أو أي من أفراد الأسرة في ترشا أو حتوشا قد أبدى مثل هذا الاهتمام بدرج حياته وخطه وآماله وأهدافه، أو فضولاً للاطلاع على تجاربه ووجهات نظره في العالم والأرباب.

وبما أن الوقت لم يتأخر بعد، قرر تانوا زيارة دونيو، وكانت معرفته باللغة الإيجية قد تحسنت كثيراً خلال المدة الماضية. لم يكن دونيو قد علم بوجود تانوا في قطننا. دخل تانوا الورشة قائلاً: «مرحباً، دونيو!». فأجابه دونيو من دون أن يرفع رأسه عن عمله: «اجلس!». مندهساً من هذا الجواب المقتضب، رضخ تانوا وجلس منتظراً. ما أروع القطع المرتبة على الرفوف. سرحت نظره في أطراف الورشة. أشكال دقيقة رشيقة، طاسات وصحون رقيقة، أباريق ذات أشكال متنوعة، صحاف، مطلية بألوان غير مألوفة. كل هذا يدل على وجود معلم فنان. أراد الاقتراب ليدقق النظر، وعندئذ أخيراً رفع دونيو رأسه، تردد لبرهة وتعرف تانوا، فصاح: «تالزو، أهذا أنت! إنني لا أصدق. ظننتُ أن من دخل هو مينوس. يا ليتني عرفت..». تدفقت الكلمات من فمه كالسيل وهو مندفع نحو تانوا ليعانقه بشوق ويقبله على خديه.

«من هو مينوس؟».

«ألم تشاهد اللوحات الجدارية الجديدة في القصر؟ يجب حتماً أن تراها. إنه فنان موهوب. جاء مع الأمير المصري الصغير، ومنذئذ لم أعد أشعر بالوحدة. يجب أن تعرف عليه فوراً». وأرسل دونيو أحد فتياته للبحث عن مينوس، وآخر ليحضر نبيذاً.

«هل كنت في أهياوا؟ لفظك صار جيداً».

«دونيو، أنت تبالغ جداً. ثم عليك أن تكلمني ببطء. لقد تعلمت قليلاً، ولكن ليس بما يكفي. لكنني أرى أن شغلك صار أجمل. ليتني أستطيع أخذ شيء منه معي! ألا تريد الرحيل معي إلى حتوشا؟».

برعب صَلَب دونيو سبأتيه إحداهما على الأخرى أمام وجهه وهو يقول: «اعفني من هذا. ماذا تفعل في ذاك القَفْر؟ يفضل أن تبقى أنت هنا، على أن تخرج جري». وعانقه ثانية، ثم قال: «هذا هو مينوس»، مقدماً الشاب الذي دخل الورشة للتو، وأردف: «لهجته غريبة نوعاً ما، فهو من جزيرة كِفْتو، حسب التسمية المحلية هنا لكريتا، وما عدا ذلك فهو شاب لطيف. وهذا هو تالزو»، قال لصديقه مقدماً الزائر، وأضاف: «من ترشا، تعلم لغتنا في حانات مينائها حتى صار يتقنها».

أمضوا أمسية ممتعة معاً. عرض مينوس على ثانوا في ورشته بعض المشاريع والتجارب، ما ترك أثراً عميقاً بمعلميّة مينوس في نفس ثانوا. فهذه الأعمال الفنية تنقص حتوشا، ولا بدّ له من ذكرها في تقريره. ألح عليه دونيو بأخذ قطعة كتذكّر، رغم تحذير ثانوا له بأنها لن تصل إلى الوطن سالمة. فعلق دونيو: «الحطام يأخذ الشرمعه، ألا تعرف المثل؟ على كل حال أرجعه معك في المرة القادمة لأرتقه لك!».

لم يبق لثانوا ما يكفي من الوقت لتنفيذ مهمته الرئيسية. فعيد الحصاد سيشتغل الزوج الملكي والكهنة طوال أيام، ووقته لا يسمح له بالبقاء. لا بدّ أن يبدأ رحلة العودة بعد بداية العيد مباشرة، وبأقصى سرعة عبر ترشا إلى حتوشا، ليكون طوع أوامر الملك قبل بداية عيد الحصاد الحثي.

لقد جمع معلومات مفيدة خلال الأيام الأخيرة، ولكن حتى الآن لم تخطر في باله فكرة ذكية لتحويل أكيزي إلى صف حتوشا. يُحتمل أن الفكرة لم تنتش بعد، لأن الوقت ما زال مبكراً. ففي حتوشا تعمدت القيادة عدم متابعة النزاع مع ميتاني في هذه السنة، إذ لا بدّ قبل ذلك، من توطيد الأوضاع داخل إطار المملكة وعلى جميع حدودها، عدا الجنوب الشرقي، ومن ثم يمكن توجيه الضربة القاضية إلى ميتاني وشمال سوريا. والقيادة تعمل بلا هوادة على استراتيجية للإبقاء على مصر هادئة. لا يمكن لثانوا طبعاً أن يأتمن أكيزي على هذه المعلومات. وكون أكيزي يراهن بكل شيء على مصر، مفهومٌ من وجهة نظره، وليس فقط بسبب إيست. فما مبرر أن ينقلب فجأة إلى صف حتوشا، من دون معرفة

بالخطط المستقبلية ومن دون حجج صامدة يواجه بها أعضاء مجلس الأعيان، لإقناعهم بالضرورة الملحة لتغيير هذا التوجه؟ ليس ثمة أدلة محسوسة يستطيع تانوا مواجهته بها على نحو جدير بالتصديق. ولا جدوى من إقحام كيا في اللعبة، لأن أكيزي، على نقيض أبيه، لا مشكلة لديه في اختيار أُمونحوتب زوجة أخرى، بل بالعكس. ثم إن هذا ضعيف جداً ليعتمد عليه في المجلس، وهو ما جعل إيداندا يستغني عن استشارة المجلس فيه.

ربما كان الأكثر أهمية الآن هو كيف سيتصرف الفرعون تجاه قطنا مستقبلاً. ولعل الأفضل هو كسب الوقت لمصلحة حتّوشا. إن خيّبت مصر قطنا ثانية، فسيكون أكيزي والمجلس أكثر ميلاً للعروض القادمة من حتّوشا. ولكن على المرء الانتباه لئلا تسقط قطنا في أيدي الاستقلايين، نتيجة عدم التحرك في الوقت المناسب. فهذا لن يؤدي إلا إلى إراقة كثير من الدماء، وهو ما لا تقبل به مصر ولا حتّوشا.

بعد تقليب هذه الأفكار على وجوهها، وفي أثناء الحوار الطويل الثاني نصح تانوا أكيزي، انطلاقاً من روح سياسة أبيه بأن يحاول إقامة علاقات مقبولة مع الجميع، حتى وإن وجد ذلك صعباً، كما في حالة عبدي عشيرتا الأموري تحديداً. ولذلك فإن إبقاءه على مسافة معينة، بالرد على اقتراحاته بودّ، ولكن على نحو غير ملزم، أفضل من الدخول معه في جدل عقيم ومعاملته بخشونة. وإضافة إلى الرسول الذي أرسله إلى الفرعون مباشرة، على أكيزي الاستفادة من وساطة ريب عدّي الجبيلي ذي العلاقة الودية مع قطنا. وفي هذه النقطة على ريب عدي أن يقصّر كلامه على قطنا فحسب، وألا يتهم أحداً أو يذكر أسماء بعينها.

«تانوا، ألا يمكنك البقاء عندي؟». قال أكيزي وكرر «كل شيء يبدو لي أسهل بكثير، عندما تعالجه أنت. دعك من حتّوشا. هنا أيضاً يمكنك أن تبلغ أعلى المناصب. سنجزل لك العطاء ونجعلك غنياً!».

ضحك تانوا وقال: «إن إطراءك يشرفني جداً، وكذلك عرضك بصفتك ملك قطنا، لكنك تعرف مثلما أعرف أن رجلاً مثلي لا يرتبط بمكان محدد».

«معك حق. ولكن عدني بأن تعود كلما سنحت لك الفرصة لتدعمني بمشوراتك».

وأخيراً أتت الأسئلة التي كان تانوا يخشاها.

«كيف سيبدو الأمر، إن أرسلت معك رسالة؟».

«لا مشكلة، فصدقتنا أمر معروف».

«إذاً في حال استلامك رسالة، سيعلم القصر هناك بالأمر؟ من حسن حظي أنني لم أبح بشيء من أسراري». وضحك بطريقة اللامبالية وأضاف: «وإذا تأزم الوضع حولي في المستقبل، فلا بد لي من إرسال أفضل السعاة تمويهاً إليك، كيا مثلاً». وأخذ يضرب بيديه على فخذه وهو يضحك لنجاح دعابته. ثم سأل: «هل سئلت هناك عن قطننا؟».

«نعم، طبعاً، خاصة عندما جاء أبي لزيارتي. كان الأمر شبيهاً بما جرى عندكم آنذاك، عندما وقف أبي أمام مجلسكم لتقديم إيضاحات».

«هذا جيداً فهذا يعني أنهم هناك في حتوشا البعيدة يولوننا بعض الاهتمام. أكالينا وكواري بذلاً جهوداً مكثفة لإقامة علاقات تجارية مباشرة مع القصر هناك، بهدف اختصار وساطة كيزواتنا. وهذا لن يعجب أباك أبداً». ضحك أكيزي مجدداً، ولكن مع شيء من الارتباك. فتابع أكيزي: «حتى الآن على هذا الصعيد لم ينتج أي شيء ملزم، فيمكنك طمأنته. هل أعلموك برسالة أبي ومن ثم برسائلي إلى الملك العظيم؟ وهل تعلم يا ترى سبب عدم تلقينا أي جواب؟ فأنت وخالك هنوتي لديكما صلات متينة مع القيادة العليا».

«حسبما أعرف، أعلم الملك الشمس من رسالتك بأن الملك إيداندا قد (صار رباً) حسبما يقال في حتوشا عند موت ملك. وهذا يرتبط عرفاً في حتوشا بمدة حداد طويلة، وبغذ ذلك فقط يعاودون الشؤون الرسمية. وبما أن الملك العظيم لا يرسل رسائل تعزية إلا إلى إخوته الملوك، فمن المرجح التروي إلى أن تعود الأمور هنا إلى مسارها الطبيعي. رسالتك لم تصل إلى يدي»، قال تانوا صادقاً، وأضاف: «ولكن يحتمل أن صياغتها لا تتطلب جواباً، أهذا ممكن؟».

«لم أعد أذكر تماماً. لا بد أن أرسل خادماً إلى مكتب الإدارة ليحضر النسخة. لكن ما تقوله يبدو لي واضحاً. هذا هو التفسير: لا يفترض أن نتوقع أي جواب. هذا ما سأقوله في المجلس، إذا طُرق هذا الموضوع. ماذا كنت لأفعل من دونك! ألا يمكنك أن تزكينا هناك! فبشفيع مثلك في حتوشا ستكون في مأمن!».

**

أخيراً جاء اليوم، الذي كان السبب الأساسي في سفره إلى قطننا. بتفكير مترواً اختارت كيا اليوم الذي يسبق الاحتفالات الفعلية، إذ كان الناس في كل مكان منشغلون بإنهاء تحضيراتهم في الموعد المحدد، فأقاموا الأكواخ الأخيرة من الأغصان وهيؤوا

المأكولات. كان كل شيء على قدم وساق، وفي هذه الزحمة لن يتبته أحد في بيت الربة إلى غيابها فترة من الوقت. وهي لم تخبر أحداً بمكان ذهابها سوى صديقتها أمينية.

منذ إقامة كيا في بيت الربة، غادرت مربيتها تايا القصر، إذ كان لإهلي نيكالو مرتبة خاصة لصغيرها أموت بان. وقد سكنت تايا في بيت صغير شمال شرقي المدينة. ولم تكن هذه أول مرة تزورها كيا فيها، بل كانت تكثر من زياراتها، لاستمتاعها هناك، حسب قولها، بالحياة الطبيعية بين ورشات صغار الحرفيين والمطاعم الصغيرة وحياة الشارع النشطة الصاخبة.

إلى هناك دعت كيا تانوا.

لبس تانوا رداء بسيطاً مألوفاً في قطننا وأخذ يتمشى عبر شوارع المدينة، والحسرة تملأ قلبه لاقتراب موعد السفر. ولما كان مبكراً جداً على مواعده فقد انتهر الفرصة للمرور بجميع الأماكن المتبقية في ذاكرته من إقامته الأولى. وهكذا اقترب من المنطقة المحظورة، حيث كان النشاط على أشده، ضجته تصل أذنيه بوضوح. سادت الهواء رائحة غريبة، بل رائحة نتن! أو سمك؟ أو سمك عتيق جداً ومتن؟ كاد تانوا يتقيأ. إنهم يستخدمون النار أيضاً، فالدخان كان يتصاعد من أماكن عدة. أتوجد وراء الجدران ورشات معادن؟ والرائحة القاتلة؟ ليس لمعالجة المعادن هذه الرائحة. ما سبب هذا التكم؟ في قطننا حتماً لا يوجد سلاح عجيب. حتى الملك أكيزي نفسه لا يحمل خنجراً حديدياً. لم تلفت نظره هنا قطع حلي أو أدوات كالتي رآها في حتوشا. إنه لا يعرف سوى سرّاً واحد، محميّ هنا في قطننا، وعقوبة خيانتته الموت، وهو سر اللون الأرجواني. لكن الثياب والأقمشة المصبوغة به لا تفوح منها هذه الرائحة الكريهة أبداً. يا له من لغز! لم يرغب تانوا في أن يلفت النظر إليه، فأسرع متجاوزاً السور المحيط بالمنطقة المحظورة. لأي غرض يستخدمون النار؟ لا بدّ من أن يسأل في ترشا عن عملية صباغة القماش. لماذا لم تخطر هذه الفكرة في باله مسبقاً، يا للغباء!

استقبلته تايا بتحفظ، ولم يدهشه ذلك، فهما لم يتعرفا أحدهما الآخر عن قرب سابقاً. إنه غريب وهي تخاطر نوعاً ما، بدعمها هذا اللقاء غير اللائق. عرف تانوا من كيا أن مربيتها تُقدّم على أي فعل من أجل حبيبها الصغيرة. كان البيت متواضعاً، لكنه نظيف ومرتب جداً، يتألف من مطبخ في الطابق الأرضي وغرفة نوم في الطابق العلوي، إلى حيث قادت تايا تانوا. وقبل أن تنزل ثانية ضيقت شرباً لذيذاً منعشاً أخضر اللون. أحس تانوا فجأة

بأنه قد فقد هدوء نفسه، وأخذ قلبه يخفق بشدة عندما تناهت إليه أصوات من الطابق السفلي، وعند سماعه خطوات على الدرج الضيق الشديد الانحدار. لكن الخطوات لم تكن خفيفة، بل ثقيلة تتعذب أثناء الصعود، يرافقتها أنين خافت. وأخيراً ظهرت عجوز حدباء، تمنى لو يساعدها بعضاً تخفف عنها عناء المشي. نهض احتراماً لها، فيما لدهشته، حلت حجاب وجهها.

«كيا، ألا تكفين عن هذه الشيطانات!».

«هيا اعترف بأنك لم تتعرفني!».

«وكيف لي مع هذا الإلتقان؟ هل جر جرت نفسك هكذا عبر المدينة كلها؟».

أومأت برأسها إيجاباً وتخلّصت من تنكرها وهي تقول برضا: «كم كان هذا مسلياً. والفضل في ذلك يعود إليك طبعاً نالزو - تانوا، تحياتي!».

خامر تانوا شعور بأن ما يفصله عن لقائهما الأخير ليس شهوراً طويلة، بل بضع ساعات. لم تعامله كغريب، ولم تلجأ إلى عبارات الترحيب المعهودة، بل خلقت فوراً جوّاً من الألفة والقرب، فتلاشى اضطرابه وأمسك بيديها.

«دعيني أراك. أبيت نحيفة جداً. ألا يطعمونك ما يسمن في بيت الربة؟ احكي لي عن حالك! أود أن أعرف أصغر التفاصيل منذ سفري».

«كم ستبقى بعد؟».

«لم يبق إلا القليل. يجب أن أكون في حتوشا قبل بداية عيد الحصاد عندنا».

«أبطلبك سيدك؟».

ما لم يلاحظه أكيزي طوال ساعات من أحاديثهما، أوجزته كيا منذ الدقائق الأولى.

«كيف تجمع الأمرين معاً، أن تخدم حتوشا وأن تكون صديقاً لملك قطننا؟».

«لا يوجد تضاد بين الأمرين».

«ليس بعد!».

«دعينا نتحدث عنك، كيا. لماذا اخترت خدمة الربة، أم أن الأمر ليس نهائياً بعد؟».

مثلما جرى مع أكيزي، أحس تانوا حيال كيا وكأنه قد دفع بوابة كانت موصدة حتى الآن، فندفق الكلام والأفكار. حكّت عن مقابلاتها مع أبيها الذي ترك لها الخيار بين الزواج أو خدمة الربة، وعن وصول رسالة تانوا المخبأة، وعن اغتيال أبيها وعملية دفنه، وعن مخاوفها مما قد يتغير بشأنها وأمها من بعده، وعن تكالب أكيزي على السلطة.

«ولكن ألم يكن ضرورياً أن يخلف أباه على العرش؟ لم يكن هناك من تأهل للمنصب مثله».

«كان يفترض بي أن أعرف، أنك ستدافع عنه»، قالت بمرارة وأردفت: «أنتم الرجال لا تفكرون إلا بمثل هذه الأمور، وتجدون المسوغات لدعم قراركم. وعلى ما يبدو، حتى الأرياب يتسترون على هذه الخديعة. القتلة يسيرون أحراراً. ولكن يوماً ما ستدفع قطننا ثمن ذلك». ونظرت إليه بحزن. فسألها قلماً:

«أسعيدة أنت في بيت الربة؟».

«كنت سعيدة لأسابيع كثيرة».

«ماذا جرى؟».

نظرت كيا إلى يديها وصممت. رفع ذقنها بيده بحيث تلاقت نظراتهما، ثم سألتها: «أيرتبط الأمر بولي عهد مصر؟».

«أيضاً».

«كيا»، قال بصوت خافت «أنت تعرفين أنني أحبك أكثر من حياتي؟».

ارتدت كيا إلى الوراء كمن لدغته أفعى، وهي تقول: «ما هذا الهراء؟ لا تهزأ بي. إنني أحذرك. لا تظن، لأن أمونحوتب قد تزوج، أنني غارقة في الكآبة، ولا بد لك أنت تحديداً أن تواسيني بما أنني لم أعد مرغوبة من أحد. ما زلت حتى الآن لا أعرف ما إذا كان قد اضطرّ للزواج بها رضوخاً لأحد الأسباب، التي تجيدون أنتم الرجال صياغتها (لمصلحة الوطن). ثم إنني»، ونهضت «سأخدم الربة إلى الأبد!».

اكفهرّ وجه تانوا، ونهض هو أيضاً. أما وجهها فكان متقدماً عندما قالت بصوت خافت وواضح: «إنني أحمل طفلها!». وتهاوت فجأة بين ذراعي تالزو وأخذت تنتحب مثل طفلة صغيرة. حضن الكتلة المرتجفة ذاهلاً، وشرع يمسد شعرها ويهمس لها محاولاً تهدئتها.

«بنت»، سمعا من جهة الدرج.

ارتعبت كيا وانفصلت عنه. تناولت بسرعة ثياب تنكرها وقالت له: «أقسم بأربابك وأربابي بأنك لن تخبر أحداً وإلا فسأستنزّل عليك جميع اللعنات التي أعرفها!».

أوما تالزو ووضع يمينه على قلبه. ثم سألتها: «متى سأراكِ ثانية؟».

«في المرة القادمة، في حال حدوث مرة قادمة».

«أتذكرين ما وعدتكِ به عند سفري؟».

أومأت وأرته التميمة المعلقة في عنقها.

«ما زلتُ عند وعدي. لا تنسي ذلك!».

لكنها كانت قد نزلت الدرج واختفت.

أقيم عيد الحصاد هذه السنة ببذخ وترف، فقد كانت المحاصيل وافرة جداً. ولأول مرة أدى أكيزي وإهلي نيكالو جميع المراسم الاحتفالية. وكانت الشوارع والأزقة تضج ببهجة وانسراح.

امتنع تانوا عن المشاركة في الاحتفالات مع المرافقة المألوفة للضيوف، إذ إنه لم يرغب أن يقحم نفسه فيزعجهم. شاهد مساءً الطقس المقام على سطوح الدور، وشارك السكان آمالهم بأن يبتهج الأرباب بأكواخ الأغصان، التي نصبت لهم. والوجبة التي تلت الطقس كانت بالنسبة إليه في الوقت نفسه بمثابة مأدبة الوداع، وقد شارك فيها كثيرون، لكن شالا وكيا بقيتا في المعبد لالتزامهما بواجبات لا تؤجل. كان الوداع مؤثراً صادقاً من القلب، ولا سيّما من جانب أكيزي. مع تباشير الفجر غادر تانوا المدينة بقلب مثقل بالشجن.



أثناء الطريق استعاد تانوا في ذاكرته اللقاء مع كيا عدّة مرات. كيف جمحت به مشاعره على هذا النحو؟ كان يعرف أنها لا تريد سماع شيء عن حبه لها. أكان ابن تاجر أو كاتباً في خدمة الملك العظيم، حتى ولو كانت أمه أميرة حثية، كل هذا سواء. إنه لا ينسجم مع تصورهما للحياة. إنها لا تحبه! هكذا هو الأمر ببساطة. إنها تحب أمونحوتب. ألم تعتقد، على الرغم من حنقها وعزة نفسها الجريحة، أن الزواج قد فُرض عليه فرضاً؟ بغض النظر عن حبهما أحدهما للآخر؟ نعم، هكذا كان الأمر. أمونحوتب أيضاً كان يحبها، وقد باحا بمشاعرهما واحدهما للآخر. وهي تحبه لدرجة أن تتصور نفسها زوجته الثانوية. لا، إما ملكة وإما كاهنة، هذا ما أرادت أن تقوله. ولكن ما تفسير قولها، إنها تحمل طفل الربة؟ إنها حامل وستلد طفلاً، ولكن من هو أبوه؟

لا يمكن إلا أن يكون طفل أمونحوتب، ولقّب بطفل الربة لأن كيا تعيش في بيتها. هذا

هو التفسير المعقول. ولكن لماذا كيا غير فرحة بالطفل، إذا كان أمونحوتب الذي تحبه كثيراً، هو أبوه؟ لم تكن كيا سعيدة. كانت تبكي ياساً. هل يحظر في قطنا يا ترى، إنجاب طفل قبل الزواج الرسمي؟ أيدري أمونحوتب بالأمر، أم أنه لا يعرف شيئاً إطلاقاً؟ أسئلة، أسئلة موجعة، ولا أجوبة، لأنه لا يجوز له أن ييوح بكلمة لأحد.

ماذا يملك أمونحوتب من صفات، لا يملكها هو؟ سوى أنه سيصير فرعون مصر. ضحك تانوا بمرارة. لقد وصفه كوارى بأنه متدين جداً، متوحد مع ربّ ما، بل مع ربه هو بالذات، وبأنه غير مهتم بشؤون السياسة، أو يتظاهر بذلك، على الأقل حسب قول أكيزي. كما أنه لم يُبدِ كبير اهتمام بالتجارة، إلا إذا كان قد خاض في هذا الموضوع مع تيرو. لقد أخبره كوارى بأن أمونحوتب طوال أسابيع إقامته لم يزره في دار البلد، ولا حتى مرة واحدة. ولكن قبل مغادرته بقليل فاجأهم بمجموعة طلبيات. دونيو لقبه بالأمير الصغير. ربما لكونه مدلاً. لكنه يمتلك جسماً رياضياً على ما يبدو. لا يجوز للمرء أن يبخره حقه بأي حال من الأحوال. لكنه ليس موهوباً لغوياً. لغته الأكديّة رديئة ولا يجيد الحورية، إلا إذا كان هذا أيضاً تمويهاً، كي يبقى أطول وقت ممكن مع كيا، التي كانت غالباً تترجم له، حسبما قيل له. الأميرة إيست وجدت أمونحوتب وسيماً وذا شخصية ساحرة. كانت تبجله وكأنه رب. ولكن الأمر في حالتها كان مفهوماً إلى حد ما. فهي قريبته وقد نشأت في مصر. كانت تتقن التعامل مع الفراغة وأبنائهم، ثم إنها تعتبر مدة إقامته في قطنا من أسعد أوقات حياتها.

وكيا؟ لقد فرحت برؤية تانوا، أكثر من فرح إنسان بعودة أخيه بعد طول غياب. إنها تقدره كصديق، وإلا لما خاطرت باللقاء به سراً، ولما باحت له بالكثير، ولما اتمتته على أكثر أسرارها خصوصية. ومع ذلك: لماذا لا تحبه هو؟ إنه بالنسبة إليها ابن التاجر الصدوق والكاتب الودود، والشاب اللطيف المخلص، والوفي الذي يُعتمد عليه. ولكن لا بدّ لها من أن تشعر نحوه بشيء ما: فهي تحمل تميمته! لقد مدت يدها إليها فوراً ومن دون تفكير، عندما ذكّرها بوعده لها بالوقوف إلى جانبها في أي محنة تواجهها. ربما كانت تحتاج ببساطة إلى وقت. سيستظرها ويكون صبوراً. هو أيضاً له الحق بأن يكون له حلم، حلم حياة. أمسك بميدالته، رفعها إلى شفّتيه وقبلها بحنان.

تساءل تانوا في نفسه عمّا يميز عيد الحصاد في قطنا عنه في أدانيا أو حتّوشا. ربما كانت بلاد الجنوب تأخذ الحياة بشيء من الخفة، فما يميز العيد هناك هو دفق الفرحة

والانشراف. في حثّوشا قد يسري هذا على بسطاء الناس، أما بالنسبة إلى الملك والمملكة والحاشية الدينية فإنه جهد مرهق لا أكثر. لقد مر عام الآن على مغادرته وطنه، أكانت سنة واحدة فقط؟ لم يكن واثقاً. زيارته الأخيرة لترشا على طريق عودته من قطننا رسخت في نفسه صواب قراره.

كان إحيًا مشرقاً من الراحة المرفهة، وفي غاية الرضا عن صفقات تانوا، فلا شك في أرباحها. أما خبر محاولة القطنيين عقد صفقاتهم مع حثّوشا مباشرة، فلم يؤثر فيه، بل علق عليه قائلاً: سيلاحظون بسرعة أنهم لن يغنموا أي شيء من وراء ذلك. أنتصرون مبالغ الجمارك التي سيضطرون لدفعها عند ذلك، والتي يوفرونها الآن. دعهم يحاولون. سيعودون إلينا نادمين!». وأخذ يملّس على كرشه ناسياً نفسه وهو يضحك من قلبه.

إلى جانب والده المتوسع حجماً، بدت أمه نحيلة ومحزونة. وانتاب تانوا شعور مؤرق بأنها لا تُمضي ساعات في الصلاة فحسب، بل بأنها تميت رغبات جسمها. عندما أتاها قادمًا من حثّوشا ونقل إليها أخبار العائلة هناك وقدم لها الهدايا الكثيرة، لاحظ مسحة فرح على وجهها. لكنها تلاشت الآن، وعند الوداع بدا له وجهها رمادياً. ولهذا كتبت في نفسه سؤالاً: لماذا يلوّح أفراد العائلة بأيديهم بإشارة إبعاد الشر، كلما غادر دارهم مع هنوتي؟ لا بدّ من تجنبها أي ألم إضافي. كم كان بوده لو يساعدها، أن يواسيها كحد أدنى. ولكن كيف؟ باركتها ودارت دموعها عندما امتطى جواده. شعر بنوع من الارتياح عندما باتت ترشا وراءه، وتنفس بعمق.

كلما اقترب تانوا من حثّوشا ازداد تفكيره تركيزاً في التقرير الذي عليه تقديمه. «ستصير ديبلوماً جيداً، هراء، ما هذا الذي أفوله، أنت الآن بالتأكيد ديبلوماً سي جيد، حسبما كنت تمنى لنفسك»، هكذا استقبله هنوتي عندما التقيا مجدداً في پوروشخندا أثناء رحلة الزوج الملكي الخريفية، وبعد أن استمع إلى تقرير رحلته الرسمي، وأردف: «إنه مصقول! الملك ومدير إدارة شؤون الدولة كالالك المديح على ما أنجزته. مؤكد أنها لن تكون زيارتك الأخيرة لقطننا. وعودتك في الموعد المحدد تركت انطباعاً جيداً، فتهانينا الحارة. لقد شرفت نفسك وشرفتني، إنني فخور بك. لكن ما شاب سروري مرارة هو أن الملك قد فتح عينيه عليك ويريدك لنفسه، وقال لي ما معناه، يمكنني أن أشكر الأرباب لكوني خالك، ويكفييني هذا فخراً. لكنني عارضت فوراً. لذلك، سيبقى كل شيء حالياً على سابق عهده. لكن شوبيلوليو ما لن يتراجع، إلى أن يحصل على ما يريد. وأنا أنفهم ذلك».

لطالما بالغ هنوتي وغلّف بالمزاح ما يصعب عليه قوله صراحة. أن يتنازعا بسببه، ولّد في نفسه شعوراً بالرفعة وبأنه قد أُجزي العطاء. لكنه أجاب قائلاً:

«وما هذا الأمر الكبير الذي حققته؟ بدا لي من المنطقي أن أترك للملك الخيار الحر المتوهم خطأ، ما دمنا على اطلاع على ما يجري في سوريا وفي مصر. المجموعة التي تطمح إلى سوريا مستقلة، تعمل بنشاط كبير، في حين أن مصر، بالعكس، قد انطوت على نفسها. سمعت شكاوى في كل مكان، بأن الرسائل لا تُجاب والسعاة لا يُعادون. والهدايا الذهبية توقفت».

«كيف تنسجم هذه المقولة مع الإقامة الطويلة لوليّ العهد في الشتاء في سوريا؟»
«حول هذه النقطة تضاربت الآراء. الغالبية ترى أن الفرعون لم يعتبره ولياً للعهد، ولكن عقب موت أخيه الأكبر المفاجئة، كان لا بدّ من تهيئته سريعاً للمنصب، وهذا يشمل تعرفه جيداً بالأتباع والحلفاء والمتعاونين. كان قد زار بلاد كوش جنوب مصر، وحن موعده زيارته لبلدان الساحل السوري، لكنه فوّت على نفسه الرحلة المبكرة. إنه بالمقارنة معك لا يُعد مقداماً» وضحك تانوا «فهو لا يعبر البلاد مواجهاً الريح والعواصف الثلجية!»
«يسعدني أن أكون بذلك قد تمكنت من التأثير فيك إلى هذا الحد. ولكن لنعد إلى موضوعنا. ما سبب بقاءه في قطنا تحديداً؟»

«لقد زار أوغاريت وجبيل وغيرها من الإمارات أيضاً، وليس قطنا فقط. لكنه في قطنا أحس بألفة أكثر من القصور الأخرى، لأن حالته تعيش هناك».
«وابنتها أيضاً، أليس كذلك؟ تانوا، تانوا، لقد كشفناك!»
«كيا في هذا الخريف سترسم كاهنة لسيدة المدينة».

«يال لها من سيدة شابة جديرة بالاحترام. تريد الاستقلال بذاتها - ما دام هذا ممكناً - لا أن تبقى تحت سطوة الملك وأمه. فتاة عاقلة».

«تصور أن أباه بالذات هو من نصحتها بذلك».
«هل رأى أن الاحتفاظ بها في قطنا أفضل من دسها في سرير أحد ملوك الإمارات؟ هذا هو حب الوالدين الحق. وماذا وجدت حول موته؟ يمكنك أن تخبرني أنا، بما تكتمت عليه رسمياً».

نظر تانوا إلى هنوتي مرعوباً. «ماذا تقصد بقولك تكتمت؟ أيعتقد ميتانموا أنني تكتمت على شيء ما؟»

«هو لا، ولكن أنا!».

«لماذا؟». ورمى تانوا هنتوي بنظرة شك.

«يخامرني شعور غريب، أتفهم؟ ثم إن الأمر مع السادة الرسل دائماً هكذا. إنهم لا يخبرون الذي كلفهم بالمهمة، إلا بقدر ما يروونه ضرورياً جداً. وما تبقى يحتفظون به لأنفسهم» ودمدم مضيفاً: «وهذا هو مغزى المهمة بالنسبة لهم، على ما أظن. والآن، لا تنظر إلي بهذا الشكل، بل أخبرني!».

«حول موت الملك تمكنت من التحدث مع عدّة أشخاص. دخلت حتى إلى المطبخ لجمع معلومات. قبل موته بمدة وجيزة انسحب الملك من الحياة العامة، هذا ما قاله أوبيا، الناطق باسم المجلس والحمو الملكي، وأكاليينا شقيق إيداندا، وأكيزي ولوايا وغيرهم. كان متزعجاً من نمو المعارضة له في المجلس، وخاصة بزعامة سلفه تيرو».

«شريك والدك في التجارة؟».

«هو نفسه. لكن هذا لم يكن السبب الوحيد، بل كان يشعر باعتلال في جسمه، أخفاه عن أفراد العائلة وغيرهم. حتى زوجته وابته كيا لم يلاحظوا شيئاً. تبين فيما بعد أن سبب موت الملك كان مرضاً ثقيلاً امتد طويلاً. والذين حوله الجاهلون بالأمر، بدا لهم موته فجائياً».

«وهذا عرفته من المطبخ؟».

«ليس فقط. لكنهم أخبروني هناك أنهم تلقوا من دار الشفاء، من كبيرة الكاهنات شخصياً، تعليمات خاصة بما يجوز للملك أن يأكل وما لا يجوز. لكن ذلك كان قبيل موته».

«ماذا قال خدمه؟ فهم دائماً أفضل من يعرف. لا شك في وجود صبية صغيرة بينهم تدفع للملك سريره».

«بهذا الشأن ثمة ما هو غريب. اثنان من خدمه على الأقل، من الذين يعتنون بطعامه وشرابه، رجل وامرأة، اختفيا منذ موت الملك، ولم يعد يراهما أحد في مطبخ القصر، ولا أحد يعرف مكان وجودهما. ولكن بوسعي أن أطمئنك. كان على أكيزي قبل تتويجه أن يخضع لحكم الأرباب!».

«إذاً، كان هناك شك في موت الملك ميتة طبيعية؟».

«أرجح أنهم كانوا شديدي الحذر، بسبب زلزالٍ وقع ليلة الوفاة، وكان فالاً مريعاً».

صحيح أن أثر الزلزال في قطنا كان طفيفاً، لكن أعضاء المجلس توجسوا من ارتكاب أي خطأ في حق الأرباب. لهذا لجؤوا إلى (حكم الأرباب) الذي اجتازه أكيزي بنجاح، حسبما أخبرني باعتزاز.

أوما هنوتي برأسه وقال: «الحذر واجب عند التعامل مع الأرباب ذوي القدرة الكلية». كان لقوله في أذني تانوا وقع ساخر. رحمتكم أيها الأرباب! لا شك أنه قد أخطأ السمع.

«هل رأيت محبوبتك كيا؟».

بما لا يجافي الحقيقة، أجاب تانوا: «قليلاً فقط. أثناء تناول الطعام لا توجد إمكانية لتبادل الحديث إلا مع جيرانك مباشرة، فلكل شخص مكانه الثابت حتى انتهاء المأدبة».

بدا جلياً أن هنوتي قد انتهى من موضوع قطنا ومن رحلة تانوا كلها.

«هنوتي، لقد أحضرت للملكة شيئاً من قطنا، نال إعجابها جداً».

«أنت أحضرت شيئاً للملكة؟ يا لك من شاب لبق! وما هو؟».

أخبره تانوا عن دونيو ومينوس وروائعهما الفنية. «لم يكن بوسعي نقل لوحة، لكن حنجور مرهم صغير وبعض الخزفيات نجت من الرحلة بسلام. فكّرت بأن الملكة هتي ستسّر بحصولها على شيء من بلدها».

«أنت تبجلها، ألسنتُ محقاً؟».

«أجدها تستحق كل إجلال. إنها ذكية وذات جمال أجنبي فاتن وودودة. الملك شوييلوليوما وهي يشكلان زوجاً مثالياً. ولا شك في أنه يحبها جداً. كلهم معاً، الوالدان والأمراء يشكلون عائلة نموذجية رائعة، خير دليل على بركة الأرباب في حتوشا».

«فيما مضى كان الاثنان عاشقين مغرمين. كان يجوز لهما ذلك. آنذاك كان شوييلوليوما الابن المفضل عند أبيه، لكنه لم يكن وليّ العهد. من كان يظن أن ذاك..». وبت هنوتي كلامه، ثم أضاف: «لنأمل خيراً. حتى الآن يبدو أن الأرباب يعطفون علينا. انظر فقط إلى محاصيل هذه السنة. بالمناسبة، كلنا دون استثناء كنا مغرمين بهتي. ولكن كان واضحاً، من الذي سيفوز بها في النهاية».

هل استشف تانوا شيئاً من المرارة في هذا الاعتراف؟ ألهذا لم يرتبط هنوتي حتى الآن؟

**

بعد عيد الحصاد بأسبوعين عاد أكيّا من مصر. وما جلبه معه من أخبار وُلد في أكيزي مزاجاً ممتازاً، إلى درجة أن أمر بتحضير مأدبة احتفالية عارمة، من دون مناسبة محددة، دعا إليها الأعيان وزوجاتهم، إضافة طبعاً إلى شالا وكيا وممثلين عن الكهنوت.

«يا أعيان قطنا، يا أصدقائي» هتف الملك بوجه مشرق في الجمع الأכול «أعيروني سمعكم قليلاً. إنكم تتساءلون في أنفسكم، بماذا نحتفل اليوم؟ إننا نحتفل بانبعث علاقاتنا الممتازة مع مصر. ليكن في علمكم أن الفرعون أمينوفيس لم يرسل فحسب هدايا ثمينة لا تحصى، بل أرسل الذهب أيضاً لمتابعة تجميل مدينتنا. لكن الأهم هو أنه قد برّأنا من أي ذنب، ظن حاكم أموروا أنه سيثقل كاهلنا به. إنه يؤكد صداقته لقطنا ويشكر كرم ضيافتنا لابنه المبجل أمونحوتب. لا أحد في سوريا أكثر معزّة في نفسه من قطنا. إنه يأسف بعمق لأن صديقه الملك إيداندا لم يعد بيننا، لكنه موقن من وجوده في رياض الغرب المباركة، حيث سيلتقيه ثانية. إنه يهنئ مجلس الأعيان لحسن اختيار خلفه.. إلخ.. إلخ. أليس هذا مبرراً للاحتفال؟ قولوا بأنفسكم!».

دوى التصفيق وأخذ الحضور يهتفون بحياة الفرعون. وفي غمرة الهيجان العاطفي هتفوا أيضاً بحياة الأميرة إيست، ولكن حتى هذا ما كان ليعكر فرحة الملكة بلتوم اليوم. كانت مع ابنها أكيزي في منتهى الارتياح للكلمات المنقذة التي طال انتظارها. لم يُد تيرو وجماعته أية آثار انزعاج على وجوههم، بل بالعكس. كان تيرو أول من نهض واقفاً ليهنئ الملك بهذه الأخبار السعيدة. وشاءت المصادفة - أم كان ثمة قصد - أن تلتقي في تلك اللحظة نظرات أكيزي وأكيّا. وقد عرف كلاهما أن المتكلم ما هو إلا أفعى بلسان ذي شعيبين، ويحتمل أن تكون الآن قد فقدت أحد نأبي سَمَها.

في اليوم التالي للاحتفال طلبت كيا على نحو مفاجئ مقابلة أخيها في جناحه الخاص. وهذا ما لم يحدث منذ وقت طويل، في الواقع منذ تنويع أكيزي، الذي سرّ لزيارتها ورحب بها قائلاً: «يا للحدث السعيد. لقد أفرحتني أن تجدي الطريق إليّ ثانية يا أختي الصغيرة!». وأراد أن يعانقها، لكنها لم تستجب، فبقي على مسافة منها، وقال: «اسمحي لي أن أقدم لك قدحاً. استريحي. ما المشكلة؟».

«لي حديث معك».

«هذا ما ظننته. عن تيرو، الأفعى السامة؟».

«ظننتك تصالحت معه. يقال إنك لا ترفض مخططاته تماماً».

«من يزعم ذلك؟». وظهرت على وجه أكيزي تجاعيد الغضب.

«أنت تعرف كم يحكى في القصر. والحيطان لها آذان. الحذر مطلوب دائماً. لكنني لم أت كي أشاجر معك بشأن تيرو، أكيزي. أنا أعرف أنك مضطر للحفاظ على المظهر، رغم صعوبة ذلك. لقد ورطت نفسك كثيراً. ثم إن همساته مغوية، أليس كذلك؟ سيد سوريا كلها! ولكن إياك أن تنسى أكيزي: إنه يكذب!».

تغير وقع صوتها وجمدت نظراتها على نقطة في البعيد، فأدرك أكيزي أن ثمة رؤيا تداهما في هذه اللحظة، فنهض واقفاً في شبه خشوع منكساً رأسه.

«إنه يريد السلطة لنفسه، لكن الأرباب سيحولون بينه وبينها!». ومدت كيا يدها إلى قدها. انتهت الرؤيا، وجلس أكيزي مضطرباً. عادت نظرات كيا إلى طبيعتها وكذلك وقع صوتها. هل أرادت استفزازه؟ إنها ليست أول مرة. من أين لها معرفة كل هذه الأمور؟ إنه لم يناقش آراءه بصوت مسموع إلا مع أمه الملكة بلتوم. وأشار إليها لا أكثر مع تانوا. ترى هل تحدثت معه؟ إنه لأمر مريع حقاً، ألا يكون المرء سيد بيته.

صمتت كيا برهة. تنفست عميقاً ثم قالت: «سأقدم لك عرضاً. أنا أريد الحصول على معلومات منك، ومقابل ذلك تحصل على معلومات مني. ما رأيك في الأمر؟».

«أنحن في دار البلد للمقايضة؟». مازحها أكيزي، ثم أضاف «لا بأس. حول ماذا؟ ماذا تريد أن تعرفي؟ وماذا لديك لتعرضي علي؟».

«سأخبرك بمن قتل الخادمة وبالسبب. مقابل ذلك أود مستقبلاً أن تمنحني فرصة الكلام مع المراسلين المسافرين إلى مصر أو القادمين منها. وحدي!».

«هل يهملك كثيراً أن تعرفي كيف يعيش وماذا يفعل ومن يحب؟ لماذا تفعلين هذا بنفسك؟ انسيه ببساطة!».

«هذا شأني. عدني بذلك!».

«سنجد لك زوجاً جيداً يليق بك». قال أكيزي محاولاً ثني كيا عن طلبها. أخبار المراسلين ستؤذيها، فما الداعي لتعذيب الذات؟

«عزيزا البدين مثلاً؟ إياك حتى أن تفكر بالأمر. أقسم لي هنا والآن بربتنا وأبينا أنك ستحترم إقامتي في بيت الربة. مع بزوغ هلال الشتاء سأرسم كاهنه. كل منا يخدم وطننا بطريقته!». وانتفضت كيا واقفة وهي شاحبة من الغضب. أجبرته على أن ينهض أيضاً ويقسم. فماذا بوسعه أن يفعل حيال هذه الموسوسة؟

«هل ستلبي رجائي؟».

«وهل من خيار أمامي؟ لطالما كنت دائماً تنفيذين ما برأسك، يا مدللة أبي. افعلي ما تشائين! ولكن بتكتم وتحفظ رجاء! يمكنك هنا أن تتكلمي مع أكيا، لا مانع لدي. ولكن لا تأتيني بعد ذلك وتشكين. يا للنساء! أنتن تتقرنّ دفعا، نحن الرجال، إلى حافة الجنون، وخاصة أنت. فمن هذا الذي يبغى مشاطرتك الحياة؟». اندفعت الكلمات من فم أكيزي في سورة غضب. لماذا يرضخ دائماً وأبداً لهذه البنت؟ وهو الملك. سيأتي يوم تعرف فيه من هو أكيزي.

لم تفعل إساءاته فعلها في كيا، إنما أشعرتها، بالعكس، بقوتها في مواجهة خباثته. فقالت له: «عندما تهذا سأنفذ جانبي من الصفقة». فأوما أكيزي برأسه.

«كبيرة الكاهنات أجرت استقصاءات لتتوصل إلى معرفة شيء عن أصل الخادمة وموتها، وذلك بعد أن أوقفت أنت استقصاءاتك، على ما يبدو».

«كان عندي ما هو أهم، والمخبرون لم يعودوا إلي بشيء، وإلا لكنت بالتأكيد قد أعلمتكما في بيت الربة».

«نحن عثرنا على أمها. إنها تعيش مختبئة في قرية على نهر أرائتو في شمالي المملكة. يحتمل أن الخادمة كانت على الطريق إليها، عندما وصلوا إليها وقتلوا، لكن القتل لم يعرفوا ذلك. كانوا يعتقدون أن الأم ميتة وأن عائلتها قد اندثرت. ولهذا لم يعرف أحد في القصر شيئاً عنها وعن أصلها».

«ولكن في هذه الحال، ما كانت تُستخدم في القصر. إنها ليست عبدة».

«صحيح. لكنها جاءت بتوصية. وبمستوى ذكائك ستحزر بنفسك ممن حصلت عليها».

«حتماً ليس من تيرو».

«بل منه. هو الذي أحضرها إلى الملكة، قائلاً إنها رأت بعينها موت أهلها، ولهذا فهي تعاني ذهولاً شديداً».

«لكن هذا غير صحيح».

«فيه شيء من الصحة. لكن العائلة لم تُمَحَ كلها. إضافة إلى الفتاة بقيت أمها حية. وكانت سابقاً بارعة الجمال حتماً. اليوم تحكي بعناء، ولا تنطق إلا بما هو ضروري جداً. لم نستطع معرفة أصل علاقتها مع تيرو، لكنها صارت دميته وضجيعة، يفرغ فيها شهواته

كلما عنّ له ذلك، وكأنها جارية، بل أسوأ، كانت بين برائته. لكنها تمكنت بطريقة ما من إبعاده عن ابنتها، ولقاء ذلك كان عليها أن تفعل كل ما يطلبه تيرو منها، وإلا فإنه كان يعاقب الأم أمام عيني الابنة. وهكذا تمكن من إجبار الابنة على دس السم لأبينا بانتظام. ماذا كان بوسعها أن تفعل؟».

«هل عرفت أمها بذلك؟».

«لا نعرف بدقة».

«وماذا جرى حتى أنها لم تعد عند تيرو؟».

«بعد نجاح الخطة وموت الملك، لم يعد تيرو بحاجة إليهما. وكان قد مل لا شك من المرأة المستهلكة والمكروية دائماً، فأمر عبداً بقتلها. إلا أن العبد رحمها، ولا أدري أين الرحمة في ترك إنسان يعيش بهذه الصورة. أخرجها من المدينة باعتبارها ميتة وتركها لتهرب. لا نعرف أيضاً كيف أوصلت لابنتها خبر مكان وجودها. لكنهما لم تلتقيا ثانية، لأن تيرو لم يفكر أبداً بأن يترك الفتاة لشأنها».

«هذا أمر يدفع للجنون. إننا لا نستطيع اتخاذ أي إجراء ضده. لا شيء مطلقاً. معرفتنا لا تفيدنا شيئاً».

«من يدري. قد يأتي اليوم الذي يكشف فيه كل شيء فيتلقى عقابه الحق. ماذا نعرف نحن عن مشيئة الأرباب؟».

«أكان يُفترض بها الإصغاء لأكيزي. ماذا أملت من الاستفسار من أكيا؟ أن يسحر لها رسالة سرية من جيبه؟ أو تحية ولو بكلمة، تقول لها بأنه لم ينسها كلياً؟»

«لم يحدث شيء من هذا كله، بل قدم لها وصفاً مفصلاً لحياة العائلة في بلاط طيبة. أخبرها بأن زوجة وليّ العهد امرأة غير عادية، ليست بجمال أميرة قطننا، لكنها تقاربها شبيهاً. وكان هذا مجرد مجاملة طبعاً. وهي حامل بطفلها الأول. وحمواها مفترنان بها. وزوجها يقرأ رغباتها في عينيها فيليبها من فوره، ويُظهر اهتمامه الشديد بأوضاعها، رغم أن هذا - حسب تقدير أكيا - غير ضروري، لأنها تعرف تماماً ما عليها عمله لنفسها ولزوجها أيضاً».

«لكنهما كلاهما يؤديان واجبات رسمية كثيرة. وقد تمكن أكيا من التحدث مراراً مع وليّ العهد، لأن الفرعون في بعض الأيام كان معتل الصحة لا يستقبل أحداً. ولفت نظره في الفرعون - حفظه الأرباب معافى وأطالوا عمره - أن الكلام يثقل عليه أحياناً. وهذا لا

أكثر من تخمين، إذ لا يجوز للرسول الاقتراب كثيراً من جلالتها، ولكن الانطباع الذي تولّد لديه، هو أن الخدم ووليّ العهد أيضاً يلتفتون عن جلالتها عندما يتكلم. وهو لا يستطيع أن يجزم ما إذا كان ذلك نتيجة خشوع أم تجنّباً لرائحة مريعة.

سألته کیا عما يكمن وراء الصمت الطويل تجاه قطنا، وكيف انقلب الموقف؟ فأجاب بأن الصمت كان نتيجة لظروف سيئة، وبسبب القلق الذي سببه طول غياب وليّ العهد. ولدى عودته تسارعت الأحداث وتراكمت، اضطرابات على الحدود الجنوبية وفي الواحات الغربية، تحضيرات الزواج تركزت كلها بين يدي الملكة تيه، التي تنتمي العروس إلى أسرتها، وهذا حتماً ليس جديداً بالنسبة للأميرة کیا. وثمة أمور أخرى كثيرة أدت إلى تحوّل واجب إبداء اللياقة الواجبة إلى ما يشبه العقوبة. والفرعون كان أسفاً جداً لذلك، والملكة تيه كذلك، التي أكدت أسفها. وبهذا المعنى كتبت لابنة أختها الحبيبة وأرسلت لها الهدايا، وهذا ما تعرفه کیا مسبقاً. فقد أسرعت أمها بإخبارها وأررتها الرسالة، كما قالت لها بأنها باتت موقنة بأن الفرعون وزوجته لا يعرفان شيئاً عن عاطفة أمونحوتب تجاه کیا. وكما قدّرت سابقاً بإمكانها الآن أن تتصور أنهما هما من اختار نوفرتيتي وخططا لإقامة العرس في الشتاء. ولما لم يعد وليّ العهد في الوقت المناسب إلى الوطن، واجهه حال عودته برغبتها في تزويجه، بحيث لم يجد فرصة للرفض من دون تعريض نوفرتيتي وعائلة أمه كلها إلى إهانة مشينة.

مكتبة الرمحي أحمد

صرفت کیا الرسول أكيا.

«عليك أن تتصالح مع الوضع القائم يا ابنتي!». نصحتها أمها. تتصالح! تتصالح مع حظها التعس، حسب تعبير أكيزي اللبق. أمونحوتب وهي كانا ضحيتين للظروف. أيمنها أن تطلب منه أن يتسبب في فضيحة دولة، لمصلحتها؟ لا، طبعاً لا. لكنه خانها. تخلى عنها وخانها. خان حبهما. حبهما الذي وضعه في رعاية أمون رع. كان جباناً، بالغ الجبن. أخذت کیا تغوص في ألمها عميقاً. كانت تدافع عنه وتتهمه، تحبه وتكرهه بالدرجة نفسها. وكانت في شوق إليه على نحو يجعل عن الوصف، إلى ذراعيه وشفتيه. لو أن الموت يخلصها. عندما دخلت أميناية المخدع في وقت متأخر من الليل، كانت کیا قد بكت حتى النوم.

صحت کیا وهي تصرخ. رأت دمأ في كل مكان. كان يسيل على تمثال الربة سيدة المدينة، يتدفق خارجاً منها، من حيث كان ينبثق ماءً فواح، يفيض عن حافة الحوض

ويصيح الأرض بالأحمر، ولا يني يتدفق ويتدفق. على جدران قاعة الأعمدة العظيمة رأيت آثاراً حمراء لأكف أناس يائسين، حاولوا الوقوف لآخر مرة، آثاراً مفزعة.

جثث، في كل مكان جثث. رؤوس مقطوعة، أطراف مقطوعة، أجسام مذبوحة، وجوه مشوهة بقسوة. أنين ونواح هنا وهناك، الصيحات الأخيرة لمحتضرين، آلام موت. ما عدا ذلك، سكون.

همد أتون المعركة ولم يبق سوى الموت. القاعات الثلاث كانت متخمة بالموت الذي زحف عبر القصر كله. والدماء تسيل بلا انقطاع، حمراء كأجمل أرجوان، تكفي صباغاً حتى الأبد. الأموات فقدوا لونهم البشري، ما عاد يمكن تعرّفهم أجساماً، ضاعت معالمهم. كان كل شيء يسبح إلى أحمر أرجواني هو الأجل والأشدّ مدعاة للذعر.

وقفت بلا حراك، تركت الصور تمرّ أمام عينيها، لتفرق أخيراً في الأحمر الذي بدا أنه يمتصّها هي أيضاً، غير قادرة على إدراك ما جرى.

أرسلت عشتار هبتها، فتحرّكت الريح. هبت نسمة تكاد لا تُحسّ، تسلّلت عبر البوابات، وانسلّت بهدوء عبر القاعات ولا مست الموتى بنعومة. استمدّت قوة وانتفخت واندفعت في دقات متصاعدة العزم بلا توقّف. في البداية تناهى عويل الريح من البعيد، وأخذ يتصاعد مقرباً، كأصوات شكوى تخترق الأذان، لتحوّل هناك إلى نذب، ولتضيق من ثم في هدير متصاعد. تعالت الريح من جديد متحوّلة إلى عاصفة، تسوط هبّاتها بقوة عبر بوابات القصر المفتوحة إلى أن وصلت إلى مجمر الفحم الهائل في القاعة الكبرى فتمكنت من النار وأججتها، واندفعت صافرةً فأشعلت الستائر وكل ما هو قابل للاشتعال. انتشرت ألسنة النار مثل لصوص طمّاعين، وأخذت تلحس كل ما تصادفه في طريقها، وتلثم حتى خيوط الغبار في الزوايا المنسية وتؤججها. تغطّت سجادة الدم ببحرٍ من اللهب المدمّر ذي اللون البرتقالي المزرق. انتشرت حرارة لا توصف وأدخنة غشت عيني الرائية بنظراتها المتجمدة، فسالت دموعها وكادت تختنق من الحرارة.

أغمضت عينيها وتنشّقت الروائح. غيمة دخانٍ قربانٍ مشويّ هائل الحجم - أهى مأدبة تقيمها بيليت إكالميم سيدة المدينة؟ لأي أرباب يا ترى؟ - ملأت أنفها: إنها الرائحة المميزة للشعر والقرون المحترقة. أجساد ميتة مغلفة بأردية جلدية يتصاعد منها البخار، ودروع برونزية منصهرة تبقب في الدم الأرجواني الساخن. أثقل حواسّها عطشٌ روائح لحم بشري محروق ومشوي ومحمرّ.

عندما لم تعد كيا قادرة على احتمال ما رآته وشمته وذاقته وأحسّت به، ولم يعد أمامها إلا أن تفقد وعيها، أدركت بجلاءٍ عاجزٍ عن أي فعل، أن القصر قد سقط.

«كيا، ما بك؟ كيا، أفريقي يا حبيبتى. أفريقي، كيا، استيقظي!». حاولت أميناية يائسة إيقاظ كيا، التي كان جسمها كله يرتعد وكأنها مصابة بالبردية والحمى معاً. وأخيراً فتحت عينيها، وانهمرت دموعها على خديها.

«أميناية، الوضع مخيف جداً، يجب أن نهرب».

«يا حبيبتى، اهدئي قليلاً، نحن في أمان. كنت تحلمين، كيا!».

«الحلم نفسه»، همست «الحلم نفسه ثانية». وفجأة شبّت كيا في مكانها.

«ما بك؟».

«ألم واخز»، قالت كيا لاهثة «أشعر بحرارة شديدة بين فخذي. أميناية، يا لشقائي!». وعادت لتسقط على ظهرها، ودموعها تسيل بلا انقطاع. نادت أميناية إحدى الخادמות وأعطتها أوامرها. أخذت كيا بين ذراعيها وصارت تهمس لها بعض الكلمات لتواسيها، حتى دخلت شالا.

«لقد فقدت الطفل. فقدت طفلة الرببة!». قالت أميناية وهي تنظر في وجه كبيرة الكاهنات ذي المسحة الجادة، وأردفت همساً: «ورأت ذلك الحلم نفسه!».

رفعت شالا يديها مبتهلة: «يا ربتي لا تعاقبينا، يا سيدتي لا تتخلي عنا!».

وبينما كيا مستلقية في سريرها فاقدة الشعور، كمن لا يدري بما يجري حوله، كانت الأيدي الماهرة تعتني بها، كي لا تأخذ الرببة حياتها أيضاً.

احتدم النزاع في نفس شالا. كان واجبها يحتم عليها كحداً أدنى أن تُعلم الملك بالحلم النذير. غير أن فقدان العرس المقدس ثمرته المباركة، بقي من أسرار المعبد. ثمة فارق طبعاً بين أن يؤدي العرس إلى حمل أم لا؟ لو أن الملك إيداندا ما زال حياً، لأخبرته شالا. أما أكيزي؟ فحكمه قائم على كذبة، وهي قد مدّت يدها له بمطلق حريتها، لمصلحة قطنا، حسبما ظنت حينذاك. أتراها أخطأت في تفسير رغبات الأرباب؟ هل ارتكبت خطيئة؟ ماذا أرادت الرببة أن تخبرها؟ أم تراها تعاقب كيا؟ أحست شالا بنفسها وحيدة وعجوزاً. غير أنها ستكمل ما بدأته حتى النهاية، وستحمل مسؤولية ذلك في أي وقت كان. ولن تذهب إلى الملك.

استعادت كيا عافيتها بسرعة. بدت وكأن عبثاً قد رُفع عن كاهلها. فكرست قواها

الجديدة لخدمة الربة بلا هوادة، ولاستكمال تأهيلها المعرفي الواسع. عاودها مزاجها الرائق، فكانت ودودة مع الكل، حتى أنها تصالحت داخلياً مع أكيزي، وصارت قادرة على ممازحته دون ارتباك.

وهذا جعل أكيزي يستعين بمقولته: يا للنساء! لكنه فرح بعودة التفاهم بينهما. أكثرت كيا من زياراتها للقصر ومن لقاءاتها مع إهلي نيكالو. في موعد الانقلاب الشتائي أعلن القصر أن قرينة الملك حامل بطفلها الثاني. وفي الوقت نفسه تقريباً رُسمت كيا كاهنة. وانقضى عيد الأسلاف من دون وقوع حوادث لافتة. لم يكن الشتاء قد اشتد بعد، وكان كل شيء يأخذ مساره الطبيعي المعتاد.

على الرغم من أن الوقت شتاء، فقد انتشر بسرعة الريح وعبر كل البلدان خبر أن الفرعون أمينوفيس الثالث لم يعد بين الأحياء. ففي السنة الثامنة والثلاثين من حكمه اتخذ الملك العظيم، سيد مصر العليا والسفلى، حامل التاج المزدوج، حاكم البيت الأبيض والأحمر، الفرعون، اتخذ طريقه بالقارب إلى الحياة الأخرى حيث خلود الأرباب. وبينما تحولت أرض النيل من تربة سوداء إلى حقول مخضوضرة، جُهِز جسم الملك، بمعرفة أيدي المحنطين المهرة، للعالم الآخر. قبالة العاصمة طيبة، على ضفة النيل الغربية شيد الملك في وسط مدينة الموتى معبد قبرٍ هائلاً، حيث سيوارى جثمانه هناك.

بعد سبعين يوماً، قبيل أعياد الربيع في قطنا وفي حتوشا، تسلّم أمنونحوتب زمام الحكم باسم أمينوفيس الرابع وتوّج في طيبة. قرينته كانت الملكة العظيمة نوفرتيتي. لكن ملكة مصر بقيت تيّه، الملكة الأم، أرملة أمينوفيس الثالث.

بدت السنوات التالية لكيا مثل تكرار دائم للشيء نفسه. كانت الأوضاع تمور في كل مكان، ولكن لم يحدث أي اختراق حاسم في أي مكان، ولم يتج عنها أي شيء. وطدت حتوشا سلطتها في آسيا الصغرى بقيادة شويلوليوما الحازم الحاسم الطموح، أما احتلال ميتاني وامتصاص شمالي سوريا معه، حسبما كان مخططاً، والذي كان سيؤدي بالضرورة إلى اصطدام قوات حتوشا بقوات مصر، فلم يقع. كما لم يظهر أي أثر للسلاح الحتي

العجيب، الذي كثر التغمّي به. في كل ربيع كانت كيا تتوقع تحقق الإشارات في السنة الجديدة، وفي كل خريف كانت تحمد الأرباب وتشكرهم، كيفما كانت محاصيل السنة، ولبقاء كل شيء على حاله.

وعلى الصعيد الشخصي تحسنت أحوال كيا في وضعها الجديد، الذي وفر لها سلاماً داخلياً، غطى آلامها كحدّ أدنى، فبدت منسرحة. هل كانت تخدع نفسها والآخرين؟ هي نفسها لم تكن تدري. ولقد تبين أنها لم تحصل من الربة على منّة العرافة فحسب، بل إن يديها الشافيتين كانتا مباركتين أيضاً. غير أنها لم تعالج كل من كانوا يقصدونها بالحدس وحسب، بل كانت تمعن التفكير في احتمالات علاقات الأسباب بالنتائج، وتجرب، وتفرح في حال نجاح عمليات الشفاء. كلما أتاح لها وقت المعبد فرصة، كانت تمضيها في دار الشفاء. لكنها كانت تؤدي واجبها الرئيسي على خير ما يرام، بالوقوف إلى جانب شالا في مهام المعبد كافة، وغالباً بسرور وفرح. لقد تعلمت منها الكثير، وكانت معجبة بلا حدود بهذه المرأة الرائعة. لكن هذا لم يُنسيها قطّ عقلها، وهي لم تسمح لأحد، أياً يكن، أن يمنعها من التفكير.

لكن ما لم تلاحظه كيا، كان التغيرات التي طرأت على شكلها الخارجي. كانت رشيقة القوام، لكن حدود هيبتها باتت أنعم. فقد وجهها سماته الطفولية وصارت نظراتها أنضج. كان جمالها حديث الناس.

في أثناء ذلك لم تهدأ الاضطرابات في سوريا، ومحركها الرئيسي كان عبدي عشيرتا، ملك أمورو، وهذا ما لم يدهش أحداً في قطنا. بفضل يقظة المخبرين، كان القطنيون على معرفة دقيقة بلعبته المزدوجة. فالأسلوب الذي اتبعه في المبالغة في إظهار الولاء للفرعون الجديد أمينوفيس الرابع وللمندوب المصري على التتابع الشمالية، الذي يقيم على مرمى نظره في سومورا، كان أسلوباً في غاية الوقاحة. ففي الوقت نفسه كان يحرض سراً في كل الزوايا، لدفع الإمارات السورية إلى الانفصال عن مصر، ويتابع مع شيوخ القبائل نصف البدوية في المنطقة، غاراتهم على القوافل، وأيضاً على بعض المدن المنعزلة، من دون أن يُعرف الرأس المدبر. كانت الحوادث تُعزى بصورة عامة إلى بدو البادية السورية. غير أن أكيزي في قطنا كان يعرف الحقيقة، ولكن من دون دليل ضد عبدي عشيرتا، على الرغم من خدمات مخبريه. أجابه أيتا كما ملك قادش، متجنباً استفساره بهذا الشأن، مما دفع أكيزي إلى الظن بأنه شريك عبدي عشيرتا. وملوك الإمارات الشمالية كانوا دائمي التورط في

النزاعات بين ميثاني وحتوشا. أما الإمارات الجنوبية فكانت خاضعة لرقابة مشددة من قبل أمور و قادش، بحيث لم توقع أية عقود معها.

بطريقة ما، بقيت سرّاً، تمكن أكيا، رسول أكيزي، من الحصول على نسخة من آخر رسالة لملك أمورو إلى الفرعون. وعندما قرأها أكيزي ارتجف خجلاً وقرفاً من الرياء الفاحش:

«إلى الملك الشمس، سيدي،

أرسل رسالة، أنا عبدي عشيرتا، خادمك،

والوسخُ تحت قدميك.

إني أرتمي عند قدمي الملك، سيدي،

وأركع سبع مرات فسبع مرات.

أنا خادم الملك وكلبٌ في داره،

أنا أحرس أمورو للملك سيدي!».

وبهذا الأسلوب يتابع عبدي عشيرتا، كذبة تلو كذبة. وبعد مرور خمس سنوات على اعتلاء أكيزي العرش شعر كثيرون بالارتياح وبصورة تجلّ عن الوصف، عندما انتقل خبر موت عبدي عشيرتا عبر سوريا. أشيع إنه ابتلي بمرض ثقيل، فيما رجّح البعض أنه قُتل. أسرع ريب عدّي ملك جليل بإعلام الفرعون الذي بقي صامتاً كعادته. أما الملك أكيزي فإنه لم يُعلم المجلس فحسب، بل شمالا وكيا أيضاً، فظروف الموت، حسبما تناقلتها الألسن، ذكّرتَه بالموت المثير لأبيه الملك إيداندا. وفي حال وجود تشابه، ألا يحتمل، أن عبدي عشيرتا ليس واحداً من القتلة، بل فقط تيرو وشيخ البدو الذي ما زال مجهولاً. ولكن من دون معلومات دقيقة، ليس في وسعهم سوى الحدس. كررت كيا تحذيراتها بأن من المحتمل أن يكون أكيزي الضحية القادمة. فعليه تكليف شخص بتذوق طعامه وشرابه مسبقاً.

لدهشة أكيزي أعلن عزيرا بن عبدي عشيرتا وخليفته، بسرعة لافتة، عن رغبته في زيارة قطننا. تحلّى القصر بالصبر، فهم لا يرون أن يجاهروا بصدّه، بأي حال من الأحوال. لذلك اتخذت كل الإجراءات لاستقباله بصورة لائقة. كان ثخيناً بديناً، سريع التعرّق، وجهه مشوّه بندوب سببها مرض خبيث. إضافة إلى ذلك كانت تعوزه فتنة شخصية أبيه التي لاقت صدى بعيداً عند البدو وأنصاف البدو الأمرين. ولما كان غالباً عرضةً لإهانات أبيه وسخريته وشماتته، فقد أنتج الوضع نقيضه، كنوع من الانتقام، إذ أعلن تنصّله من جميع

أفاعيل أبيه، ماضياً ومستقبلاً. هذا ما قاله على الأقل. وقد أصغى أعضاء مجلس أعيان قطنا إلى كلامه باهتمام. فإن صح ذلك فسيحدث انزياح حاد في ميزان القوى في سوريا. وكان المهم في المقام الأول، أن طرق القوافل عبر أمور وستصير آمنة، وكان هذا مطمئناً جداً لتجار قطنا. في ما عدا ذلك بقي التعامل معه مهذباً، وإن مشوباً بالريبة.

إضافة إلى أعيان قطنا وزوجاتهم، دعي إلى الاستقبال في القاعة الكبرى هيئة الكهنوت، وفي مقدمتها كبيرة كاهنات بيليت إكالميم وحاشيتها. التمس عزيزاً أن تجلس كيا قبالتة. ولاحظ الملك أكيزي والملكة بلتوم وإهلي نيكالو بنظرات خاطفة أن عزيزاً كان يلتهم أميرة قطنا بعينيه، في حين أنها لم تمنّ عليه بنظرة. بعد أن شرب عزيزاً عدة أقذاح من النبيذ المنكّه، شرع يتغنى بجمال الأميرة، بأدلاً جهداً في استحضار محفوظاته. وقد تمكنت كيا وشالا من تجنّب الاستمرار في الإصغاء إليه بالانسحاب، متذرعتين بضرورة تحضير مراسم الغد. بدا الغرض الرئيسي من الزيارة جلياً، فقد أراد عزيزاً أن يطلب كيا للزواج. وتساءل أكيزي في نفسه، عما إذا كان عزيزاً مقدماً على الخطوبة بمطلق إرادته، أم بإيحاء سابق من أبيه وتيرو. وتنهّد خفيةً مفكراً بالوضع الحرج القادم، فهو لم ينس موقف كيا من عزيزاً.

«وددتُ أن أعرف يا بني، لماذا لا تعطيه إياها؟ هذه الزيجة حل رائع ومفيد للجميع. لا أظنك تخاف مواجهة شيطانك الصغيرة؟».

«قصدك أنك بهذا تتخلصين من كيا نهائياً، أليس كذلك يا أمي؟».

زمت الملكة بلتوم شفيتها كاظمة الإهانة، ثم قالت: «ما بالك تخاطبني بهذه الطريقة؟ هذا لا يليق. تزويج الأميرات أمر عادي مألوف. مئات الأحلاف تُعقد بهذه الطريقة. ثم إنهما ملائمان جداً واحدهما للآخر. كلاهما تجاوز العشرين وسيشكلان زوجاً جميلاً».

هكذا كانت الملكة بلتوم. وأكيزي بدأ يفهم تدريجياً أسباب حنق أبيه المتكرر على زوجته، وعودته للصفح عنها مجدداً.

«فكّر بالمحور الذي سينتج من هذه الزيجة!».

«إنه لا أكثر من راعي غنم مترف، وبدين وقبيح. ومن يدري أنه لا يضمّر شراً مثل أبيه. نواياه تجاه قطنا ليست سليمة».

«أكيزي! ما هذا الهراء الذي تتلفظ به؟! ما الذي يجعلك تفتري على عبيد عشيرتنا وعزيراً؟». قالت الملكة ذلك بغضب فعليّ.

«بل بالعكس! أنا من يجب أن يسألك عن جهلك بأعمال الأب المشينة. مؤكّد أن زوجك، أبي قد حذرك منه، أليس كذلك؟».

«كانت هذه مجرد تهيوّات. كان يهجس بفكرة أن عبدي عشيرتنا هو مدبّر الغارات على القوافل. لكن تيرو كان يؤكّد لي دائماً أن هذه الاتهامات المغرضة لا أساس لها من الصحة».

«تحدثت في الأمر مع تيرو؟».

«مراراً. لا أظنك ستعترض على تبادلي الحديث مع أخي! إنك تخبّب أملي فيك. لقد دعمتكم دائماً وأبداً. ماذا عندك ضد تيرو؟ مؤخراً فقط شكّلت لي مجدداً سلوكك غير اللائق تجاهه، علماً بأنه لا يريد لك سوى الخير. وكان دائماً يناصر إيداندا ويساعده ما أمكن. لكن أباك كانت له أفكاره الخاصة، وفوق ذلك اتصل بأولئك الحثّيين. و تيرو كان منزعجاً جداً من ذلك».

«أبي أسرّ لتيرو بهذه المسألة؟».

«طبعاً لا. قبل موته بقليل كان أبوك شديد التكتّم في أموره، بدلاً من أن ينصت إلى من يريد نصحه وخيره. ثم جاءت قضية كيا والمصري، فصار مثل ذكر الحمام العاشق، ولابته بالذات! ما هذا السلوك؟ لقد خلّبت عقله منذ ولادتها. ففي نهاية المطاف هي المذنبّة في أنه أراد بيعنا لشويپيليوما. لقد تشاورت مع تيرو في هذه المسألة، عما يمكن فعله، لكننا تأخرنا جداً. كان الرسول قد سافر».

كاد أكيزي ألا يصدق أذنيه، وتبدّى الانزعاج جلياً على وجهه. لماذا لم يخطر في بال أبيه أن يتكتم على مراده أمام بلتوم؟ ففي حاجتها إلى الثروة النسائية بوسعها أن تبوح بكل ما عندها، فلا تبقى لنفسها شيئاً

«إذاً، تيرو يعرف كل شيء منك! كيف لم يخطر لي ذلك؟! لكنني ما كنت لأصدق أنك قد تسلّمين أبي إلى حد السكين! أمي، يبدو أنك لا تدركين أبداً ما فعلت! إن جهلك الظاهر هو فقط ما يشفع لخياتك المستمرة ويعفيك من العقاب الذي أصابك جزء منه».

نظرت الملكة إلى ابنتها مستغربة ومهانة، وقالت: «ما هذه الألباز الآن؟!».

«وأية أسرار أخرى أفشيتها لتيرو أيضاً؟ لوائح الشحن؟ المراسلات المهمة؟».

«أكيزي! إنه أخي، وهو موالٍ لنا كلياً».

«لا، إنه ليس موالياً مطلقاً. اذهبي الآن يا أمي، لا أريد أن أقول المزيد في هذا

الموضوع. لكنني أمنعك، بصفتي ملك قطنا وكاهنها الأكبر، من أن تذكرني كلمة واحدة عن هذا الحوار أمام تيرو، أو أي شخص آخر، وألح على ذلك. أقول لك ذلك حباً. أقسمي على ذلك بالرربة حامية مدينتنا».

«إنها أُمي»، قال أكيزي يائساً، «إنها مسؤولة عن مقتلته، على الأقل بتسريب المعلومات، بحيث بات أسهل على القاتل أو القتلة أن ينفذوا جريمتهم. لا أريد التخفيف من نصيب أبي نفسه في المسؤولية، ولكن يحتمل أن الاتفاق مع الحثيين كان بطريقة ما ممكناً. لهذا السبب، موت أبي لم يكن ضرورياً».

«تدريجياً تكتمل الصورة»، قالت كيا «أجد من السهل تحمّل ما لم يعد من الممكن تغييره، عندما يعرف الإنسان كيف حدث ولماذا».

«هل توصلت إلى شيء؟».

«ليس مباشرة. لكنني متأكدة من أن عزيرا كان يريد إخباري بشيء في هذا الموضوع. لمّح عدّة مرات إلى أنه على علم ببعض ما جرى في قطنا، وما يجري الآن، مما لا تعرف عنه شيئاً، وسترعبنا معرفة الأمور بدقة. بهذا الأسلوب تكلم».

«ربما يريد أن يناقش نفسه حقاً عن أفعال أبيه».

«هذا ما سيكشفه لنا المستقبل. أما الآن فاهتمامه الرئيسي هو أن أبلع الطعام، ليسهل علي أن أصبح زوجته».

«ما أظنك قبلت عرضه؟». ونظر إليها أكيزي مضطرباً.

«لا، ليس بهذا التعبير الصريح. لم أرفضه قطعياً. ماذا كنت لتفعل في موقعي؟ اليس مفهوماً أنني أريد أن أعرف ما حدث؟».

«وماذا قال؟».

هزت كيا كتفيها، ثم قالت: «لم يذكر شيئاً مما أملت». شخّرت باحتقار وأخذت تقلّد بإتقان صوت عزيرا الأنفي: «لا، لا يا حمامتي الصغيرة! الأمر مقايضة، واحدة لقاء واحدة. صيري زوجتي أولاً. وحالياً يكفيك أن تعرفي بأنها ستكون صفقة رابحة إذا تحالفت قطنا مع أمورو. ولم أتمكن من معرفة المزيد».

«هذا المتبجح المقرف. وكيف ستسير الأمور؟».

«اشترطت عليه مهلة تفكير».

«طولها؟».

«سنة».

«ووافق، رغم كونك كاهنة؟».

أومات كيا برأسها إيجاباً وقالت: «أمامنا سنة من الوقت لنعرف ما يمكنه إخبارنا به. أكيزي، فكر: إذا نطق بالحقيقة علناً أمام العالم كله، سيكون بإمكاننا أخيراً أن نتحرك. سيكون بإمكاننا تقديم قتلة والدنا للحساب، دون أن يمسك من ذلك سوء. يجب أن ننجح خلال هذه المهلة في جعله يتكلم أمام شهود. في الوقت نفسه علينا، رغم ذلك، التفكير بحجة تحول دون زواجه بي. لأنني لن أتزوجه، وأمل أن يكون هذا واضحاً لك. حتى ولو كان هذا الزواج ملائماً جداً لكثيرين في قطنا، كالملكة الأم مثلاً».

«لا تذهبي بعيداً في لعبتك معه، ولتوصل أخيراً فقط إلى ما نعرفه مسبقاً. لا يسعني إلا أن أحذرك من ذلك. تعرفين حق المعرفة أنني أريد حمايتك، أما إن أسأت إلى سمعتك، فستكون يداي مقيدتين».

«أنت لا تنوي الانتقام لأبينا أبداً. بل تريد الاستمتاع هنا بسلطتك، وأنا عائق في طريقك. لقد فهمت».

«كيا، أنتِ تبالغين بلا حدود. لقد أقسمتُ على ألا أدعك تسقطين!».

«إذاً، وفر على نفسك تحذيراتك الفاترة. أنا على الأقل أفعل شيئاً».

«بلعبك بالنار! ماذا قد يكون السبب مثلاً، لإنقاذك سليمةً من الأذى بعد سنة؟».

«مثلاً، لوقوع غارات جديدة على قوافلنا، ومدبرها هو عزيزا، أولزواجه بامرأة أخرى، فهو لم يخطبني رسمياً، أليس كذلك؟».

«لا. أرجح أنه كان يريد. لكنه ليس غيباً لدرجة أن يحفر بنفسه حفرة قد يقع فيها».

بموت عبدي عشيرتنا ملك أمورو، لم تدب الحركة فقط في الإمارات الواقعة على حدود قطنا جنوباً، بل شمالاً أيضاً. فبعد أن ارتحل كبير مناصري سوريا المستقلة إلى

أسلافه مباشرة، حاول ملكا إمارتي موكيش ونوحاسة توحيد بلديهما في وجه حتوشا المتمددة ببطء واستمرار.

كان ملك أوغاريت قد مات قبل خمس سنوات وخلفه على العرش ابنه نيقدادو الثاني. وفي عهده كان اهتمام أوغاريت، مثل قطنا، مركزاً على التجارة، البحرية خاصة. ولتأمين ازدهارها دون عراقيل، اعتمد ملوك أوغاريت آنذاك على حماية مصر. وكان هذا الخيار ذكياً، إذ إن مصر بعد انتهاء النزاعات مع ميتاني، قد كافأتهم باتفاقية اتحاد، كسبت منها أوغاريت كثيراً. فالتجارة البرية والبحرية إلى مصر، وإلى الأشيا (قبرص) وإلى موانئ أبعد غرباً، كانت تنظم انطلاقاً من أوغاريت، التي كانت تتقاضى رسوماً سخية من الجهات كافة. خلافة العرش في مصر وفي أوغاريت وقعت في أوقات متقاربة. وسرعان ما تبين أن وليّ العهد ذاك الذي زار أوغاريت وأقام فيها مدة طويلة لم يعد، بصفته فرعوناً، يبالي كثيراً بالعلاقات مع الأقاليم الشمالية. حتى أنه أبرم معاهدة صداقة مع شوبيلوليوما الحثي. ولما علم نيقدادو بالأمر عن طريق مخبريه، عرف أن الساعة قد حانت. كان رد فعله، مثل الملك إيداندا، البحث عن صلوات ودية على الأقل مع حتوشا، مركزاً في المقام الأول على العلاقات التجارية. لكنه بذلك عزل نفسه في شمالي سوريا. حاول جيرانه ما أمكنهم ذلك النأي عن ميتاني، لكنهم رفضوا عقد تحالف مع حتوشا. وبدلوا جهدهم في البداية لإقناع نيقدادو بالانضمام إليهم. وعندما لم يثمر ذلك، استغلوا الاضطرابات الناتجة عن موت عبدي عشيرتا، وغزوا أوغاريت ونهبوها، ليجبروها بهذه الطريقة على الانضمام إلى حلف مناهض للحتيين. على نقيض مصر التي صممت بإصرار حيال جميع طلبات النجدة، استجاب شوبيلوليوما لطلب أوغاريت الحماية، وأرسل قواته فوراً. وأخيراً حصلت حتوشا على رأس الجسر المشدود طويلاً في شمالي سوريا. ودعمت جهودها المبذولة لضمّ قطنا، عقدة الطرق التجارية المهمة الثانية، وجعلها تحت رقابتها. لكن الملك أكيزي رفض، على الرغم من جميع محاولات صديقه تانوا لكسبه بأسلوب سلمى.

خلال هذه السنوات التقت كيا بتانوا بصورة شبه منتظمة، فتمكنت من متابعة تطوره خطوة بخطوة. أثناء أدائه مهامه الدبلوماسية، التي كانت تقوده إلى شمالي سوريا وإلى جنوبي الساحل السوري، وحتى إلى مصر، كان يتوقف في قطنا كلما سنحت له الفرصة. وكان غالباً على الطريق لتنفيذ مهام ملكية، وبرفقته كاتبان خصصا له. خارجياً لم يتغير

كثيراً، سوى أن بنيته قد صارت أكثر رجولة، كما بقي في جوهره على ما كان عليه: صادقاً، ذكياً، إثارياً ومستعداً لتقديم المساعدة. ولكن أحياناً كانت تلاحظ كيا على وجهه مسحة حزن تمسها على نحو غريب، وعند ذلك تشعر بشيء ما يقف بينهما، ولم ترغب كيا في تحديده، لكنه غالباً ما يغيب قبل أن تسنح الفرصة ل طرح أسئلة.

كانت كيا تقدّر حدة ذكائه ودقة ملاحظته وآرائه المتزنة، وتشارك بحيوية في مغامرات رحلاته التي أوصلته إلى جميع أطراف العالم المعروف. وكم كانت تحسده! كان كل شيء يثير اهتمامها، حقاً كل شيء. ومن باب المزاح أثناء محادثاتها كانا يتنقلان بين اللغات. فحتى بالمصرية بات تانوا ملتماً بصورة لا بأس بها. وأخذت كيا تساعده فيها وتصحح لفظه وتعلمه مفردات جديدة. وكان طريفاً أن تقوم بدور المعلم. أما هو فكان متقدماً عليها بلغة بلدان بحر إيجه، لغة دونيو ومينوس. وعندما يلتقون معاً، كان الثلاثة يتمازحون بالإيجية ويتسلّون، وهي لا تفهم شيئاً. فكان هذا يغيظها من تانوا، وكذلك دأبه على مديح معلمته: «الملكة هتي قالت، الملكة هتي رأت، الملكة هتي فكّرت بأن..»، فأجابته مرّةً ويحدّة: «لا بدّ أن تكون امرأة رائعة ملكتك هذه!».

وكانا غالباً ما يتجادلان، جدّاً ومزحاً طبعاً. لكن كيا كانت تحترم تانوا جدّاً وتعجب بقدراته المتعددة وبجهده الدائب، بحيث لم تعد تشير أبداً إلى أصله، ورمت عن نفسها أي تكبر تجاهه. وكثيراً ما كانت تفكر في تصويره بإمكانية تعايش البلاد معاً دون حروب، إذا تنازل كل بلد قليلاً في موقفه. حقاً، لماذا لا؟ لماذا يندفع الرجال مباشرة إلى السلاح؟ ثم تفكر بطبعها المشاكس وتأمل ببعض التحسن. كان تانوا يرى أن هذا أمر مختلف تماماً، إذ يجب على الناس أن يتجادلوا بالكلام، كي يتوصلوا إلى إيضاح الأمور المطروحة، وهو يجيد ذلك معها تحديداً أكثر من أي شخص آخر في الدنيا كلها. وهذا منتهى الدبلوماسية. طوال تلك السنوات لم يعد تانوا يذكر أمامها أي شيء عن حبه، لكنها كانت تشعر بميله الشديد نحوها. وسألته ذات مرة، لماذا لم يأت أمامها على ذكر فتاة أو لماذا لم يتزوج؟ لم يجبهها بشيء، لكن نظرتة وشتت بأن مشاعره تجاهها لم تتغير. وهكذا تجنّبت هي أيضاً هذا الموضوع.

لم يتطرقا قط في أحاديثهما إلى الفرعون أمينوفيس بصورة مباشرة. ولكن في حال عودة تانوا من رحلة إلى مصر ومروره بقطنا، يكون فضولها كبيراً لمعرفة كل شيء بالتفصيل، ثم تصمت في حيرة شديدة. لقد لاحظت، بألم، أنها ما زالت تحب أمينوفيس وتكرهه بالشدة

نفسها، سنة بعد سنة، مع أن الأمر لم يعد يؤثر في حياتها اليومية. وكانت تعرف أن تانوا يعرف ذلك. وقد اعترفت لأميناية مدهوشة بأنها في كل مرة يغادر تانوا قطننا تشعر بحزن عميق وبيقين عميق أيضاً بأنه سيعود. كانت تشعر بارتياح وانسراح أثناء وجوده. أما أميناية فكانت تفسر الأمر بطريقتها. وقد وجهت إلى الربة صلوات لا تحصى لتجمع بين هذين الإنسانين اللذين من الجليّ أنهما يتيمان واحدهما للآخر، لكن الربة لم تستجب.

عندما أخبرت كيا تانوا عن عزيرا، أحس أن قلبه كاد يتوقف. كيف تجازف بهذه الطريقة؟ وكونها لم ترفض طلب عزيرا فوراً، بل استمهلت مدة للتفكير، كان ضربة صائبة.

«لم أفعل هذا إلا لأستوضح الأمر وأثبت إدانة القتلة!».

«أليس الثمن باهظاً؟ ماذا ستقولين له عندما يعود؟».

«أن عليه إخباري أخيراً، بما كان حتى الآن يلّمح إليه تلميحاً».

«ما أظنه سيفعل ذلك إلا بعد أن تعطيه يدك للزواج».

«لقد أخطأت. الآن أدرك ذلك».

«قد يوجد حل في الوقت المناسب»، حاول تانوا مواساتها.

«على كل حال أنا لن أتزوجه أبداً!». قالت بصوت خافت ومؤكدة «سأنتحر قبل ذلك!».

وبما أن تانوا قد صدّق قولها، في جانبيه، تبدّى القلق في تجاعيد جبينه.

في أثناء هذه السنة أرسل عزيرا باستمرار هدايا لكيا، التي كانت تحولها دون أن تلقي نظرة عليها، إلى الخزانة الملكية. لكنه لم يقدم لها شيئاً من معرفته المزعومة. لعنت كيا لحظة سذاجتها تلك واندفاعها الأعمى. كم كان من السهل الاحتماء بكونها كاهنة. والآن ضاقت بها السبل، فالسنة تتقدم وعزيرا لم يرتكب أي غلطة تبرر رفض طلبه من دون خزي. وكان لا بدّ حتماً من تجنّب أي تعكير للأجواء بين قطننا وأمورو. كانت كيا تعرف حق المعرفة أن رابط الزواج بين العائلتين الملكيتين من منظور سياسي، سيكون حلاً رائعاً. كل الرجاء معقود على أن يحافظ أكيزي على وعده. إذا أمرها بالزواج لأن المجلس قد قرر ذلك، فلن يمكن حتى لشلالا أن تحميها. كم كانت مجنونة. مع كل يوم جديد كان عذابها يزداد. أن تضطر لربط حياتها بعزيرا، ياله من تصور مرعب. يستحيل!

وأخبار مصر التي كانت تحصل عليها من تانوا عادة، ومن المراسلين والمخبرين القطنيين إضافة إلى ذلك، لم تكن تجلب الهدوء إلى نفسها، بل بالعكس. ففي السنة

الأولى من حكمه أنجبت له نوفرتيتي ابنة، باسم مريت أتون، محبوبة الرب أتون. وأخبرها الكشافون أن الفرعون يحتفل بحياته العائلية الخاصة في قصر طيبة وكأنها شأن من شؤون الدولة العلنية، على الأرجح بتأثير زوجته نوفرتيتي، وبطريقة لا سابقة لها. فعلى الجميع أن يشاركوا في هذه السعادة العائلية، شهوداً عند لبس الثياب، وعند تناول الطعام، وأثناء القداسات وعند دخول الحمامات وتسريح الشعر، وحتى أثناء الجلسات الخاصة. وقد خمنت كيا بأن هذه مبالغت لا شك، ولكن لا بدّ أن هذه الأوصاف تنطوي على ذرة من الحقيقة.

صحيح أن الأرباب القدامى ما زالوا يُعبدون، ولكن بعد ولادة ابنته الثانية مكيت أتون فاجأ الفرعون رعيته برب جديد: أتون. وحسبما تعرف كيا من أمونحوتب نفسه، هذا الرب موجود من زمن بعيد. ولكن حسبما يقدمه أمينوفيس الرابع الآن لبلاده، فإنه يبدو رباً جديداً. وصارت عبادته لازمة باعتباره رب الأرباب. في السنة التالية بُدئ بتشييد معبد ضخم لآتون في طيبة، فجن جنون كهنة أمون الراسخين في عبادته.

وصحيح أن الملكة الأم تيه قد دعمت الفرعون، لكنها كانت تراقب بقلق صفة الوحداية التي بات الفرعون يسبغها على ربه بصورة متنامية وعلناً. ولا سيّما بعد أن أمر ببناء معابد له في جميع أنحاء البلاد ودشنها أمكنة مقدسة. وبسبب انزعاجه من المقاومة المتصاعدة في طيبة، أمر ببناء عاصمة جديدة له على ضفة النيل الشرقية، في منتصف الطريق إلى ممفيس، خطط هندسة عمارتها في الصحراء وافتتحها رسمياً بوضع حجر الأساس لها. وكتب اسمها عليه بحروف الكتابة الجديدة التي ابتكرها بنفسه، وفرض استخدامها فوراً دون سواها. وأطلق على عاصمته اسم آخت أتون، أي: أفق أتون.

ما إن ولدت ابنته الثالثة أنخ سنبا أتون حتى كان طاقم موظفي الدولة بكامله قد استُبدل، وعلى نحو مفاجئ، إذ اختفى جميع مناهضي الفرعون. تنامى الاستياء في صفوف الشعب. ثم حدث ما لم يسبق أن حدث قط. بدّل الفرعون اسمه، وحتى اسم ولادته! صار اسمه إخناتون، أي: أشعة أتون.

وفي سنة موت عبدي عشيرتنا وولادة نوفرتيتي ابنتها الرابعة نِفِرِنفرو - أتون - تَشْرِيَت، انتقل البلاط من طيبة إلى آخت أتون، وأقسم إخناتون ألا يغادرها مطلقاً.

بين ولادة الابنة الخامسة نِفِرِنفرو - ري والابنة السادسة سِتِين - ري حدث ما لا تُحمد عقباه، إذ انقسمت مصر قسمين: قسم مندهش ساخط، وقسم مستنكر معارض؛ فقد أمر

إخنتون بإغلاق جميع معابد الأرباب الآخرين وتدميرها. ومنذ تلك اللحظة لا يُعبد في مصر سوى آتون، النور، الذي تجلى لكاهنه الأعلى إخنتون ولكاهنه العليا نوفرتيتي.

جمعت كيا كل هذه المعلومات التي وصلتها عبر السنين ودارتها في قلبها. لقد حقق إخنتون خطته، التي عرضها أمامها في قطنا آنذاك. ونفذ مراده بأن جعل ربّه المعبود الوحيد الأوحد، وبنى له معابد ومدينة. لكنه حقق هذا كله مع امرأة أخرى إلى جانبه، في حين أن هذه كلها كانت تصوراتهما معاً! لقد وقف في وجه شعبه كله من أجل الرب، وليس من أجلها! لقد نسيها! لا، إنه لم ينسها، لكنها لا تعني له شيئاً، لا شيء، لا شيء! لقد مر وقت طويل على عودة العلاقات إلى طبيعتها بين قطنا ومصر، ولو كان هناك أي خبر لها من مصر لكان قد وصل. ولكن من هناك كانت تصل للملك أكيزي وللملكة الأم ولزوجته وإخوته وأخته وجميع الأقارب أطيب التحيات. طبعاً كان هناك كتاب يدونون الرسائل، وعلى اطلاع دقيق على الأوضاع العائليّة في قطنا، وهذا كان واضحاً لها تماماً، ومع ذلك كانت تشعر كل مرة بالإهانة: إنها لا أكثر من فرد في عائلة أكيزي الكبيرة.

أحياناً كانت تشعر بالفخر لمثابرتة وكفاحه في سبيل أهدافه. يحتمل أن لا أهميّة بالنسبة إليه، مع أي امرأة إلى جانبه يسير. عندئذ تكون نوفرتيتي قابلة للتبديل! ولكن ما مبرر استعراض حياة العائلة الجميلة والمحبة، بهذا الشكل؟ ست بنات! إذاً، هو يحبها. ولكن يحتمل أن ينجب المرء أطفالاً كثيرين، حتى من دون أن يكون الحب متبادلاً. إلهي نيكالو تنتظر طفلها الرابع، فهل ما بينهما يسمى حباً؟

هل أحبها إخنتون، حسماً يسمى نفسه الآن، في أي وقت من الأوقات؟ لماذا أيتها الربّة لا تنتهي هذه الأسئلة الأبدية؟ لماذا لم تستطع نسيانه؟ لأنه صاحب رؤى؟ أم لأنه أراها مدخلاً جديداً إلى العالم؟ أم لأنها ما زالت تحس بلمساته حتى الآن؟ كم تود أن تلقاه ثانية، ولو مرة واحدة في حياتها. تريد أن ترى في عينيه، كيف يفكر بالشخص المائل أمامه، كيف يسترجع ذكرى قصة عابرة في حياته، كيف تبدأ عيناه بالإشراق... أحلام، أحلام.

أما الواقع فكان اسمه عزيزاً، وهو موجود في أمور. وقد تبادل الرسائل مع أكيزي بشأن تصوراتها عن موكب العروس من قطنا إلى عاصمته إرقاتا، وعدد المرافقين اللازم، وكذلك حول خطوات عملية الزواج. فتطرق من جانب إلى مسألة هدايا العروس، ومن جانب آخر إلى جهازها.

«ما زال الوضع على حاله، لا يتحلل»، اعترفت كيا لتانوا، الذي كان عابراً مرة أخرى، فتوقف كعادته دائماً عندها في بيت الربة، وجلسا في حديقة القصر الرائعة مستمتعين بالظلال المنعشة.

«لم يصلنا أي خبر هذه السنة عن غارة على قافلة ونهبها. ليس ثمة ما يؤخذ على عزيزا. ماذا يُفترض بي أن أفعل، تانوا؟ لا يمكنني طبعاً أن أهرب. وأكاد أموت لمجرد التفكير باحتمال أن يمسنني. كم كنت غبية! كانت تستحوذ عليّ حينذاك فكرة كشف ظروف موت أبي وعقاب القتلة. عدا تلميحاته القديمة لم ينس عزيزا بنت شفة. ويبدو حسب تقدير أكيزي منذئذ، أنه لا يعرف شيئاً».

وأكيزي الذي انضم إليهما في الحديقة، هز كتفيه حائراً وقال: «لقد حذّرتها، صدقني! لكنها كانت قد أعطته كلمتها المشؤومة، دون أن تسألني. والآن، إذا طلبها عزيزا للزواج رسمياً، فإني لا أملك أية حجة أمامه ولا أمام المجلس لرفض طلبه. فهي ليست أول ولا آخر كاهنة تتزوج!».

«لكنك وعدتني باحترام وضعي بصفتي كاهنة!».

«لكنني لا أقدر على ذلك، إلا إذا تصرفت بما تمليه عليك صفتك! ماذا جرى لك؟ يا لك من إوزة بلهاء ومغرورة أيضاً!». صاح بها أكيزي.

عاجزاً تابع تانوا شجار الإخوة. بالنسبة إليه ستضيع كيا بمجرد أن تصبح ملكة في أمور - أين أنتم يا أرباب حتوشا القادرين؟! حتى في هذا الظرف، إنقاذاً لها من مأزقها، لن يتمكن من التقدم لخطبتها، و فقط لأنه ليس من مرتبتها الاجتماعية. ماذا بوسع أن يقدم لها؟ هو الكاتب ابن التاجر. كور قبضتيه حنقاً. ما دامت كيا مقيمة في قطنا، فسيكون التقاؤهما على الأقل ممكناً. ومهما أمعن في التفكير، لم يخطر في باله أي حل. مهلة السنة المتفق عليها ستنتهي قريباً. وحتى كيا نفسها كانت مدركة أنها عندئذ ستلتحق بعريزا في أمور. وهذا سيؤدي إلى تعقيدات جديدة مع مصر، لأن لعبة عزيزا المزدوجة لن تبقى خافية طويلاً. وانتقام إخناتون سيكون مزدوجاً في رعبه. وإن رفضت عزيزا زوجاً، فسيزوّط هذا قطنا وملكها في وضع مخيف داخل سوريا. مهما كانت زاوية النظر إلى الوضع، فإن كلمات كيا المتهورة ستدمر حياتها، و حياة تانوا كذلك. كانت لحظة مغادرته المدينة أسوأ وداع ممكن. ترى هل سيلتقيان ثانية؟

كيا، الإنسان الذي يحبه أكثر من نفسه، تركه وراءه في مأزق لا مخرج منه. لم يقدر

على مساعدتها ولا على تغيير شيء. فكر في اختطافها، في أن ينتحرا معاً. ولكن كان عليه أن يدرك، مثل كيا قبله، أنهما بالغين راشدين يحملان مسؤولية، لا يجوز التملص منها، لأسباب إنسانية. ومع ذلك فقد كره نفسه لتفكيره العقلاني. فأي نوع من الحب هذا؟ ألم يقسم على مساعدة كيا دائماً عندما تكون في شدة؟ لكن ها هي ذي الآن تستدعي الشدة، بمطلق إرادتها، لتقع فيها، ولا حول لأحد تجاه ذلك.

غير أنه كان مخطئاً.

فمن سوى الأرباب الرحماء سيهديه إلى طريق إنقاذ كيا من مأزقها الخطير! نادراً ما كان تانوا، على طريق عودته، يتوقف في إمارات شمالي سوريا المتعددة. أما هذه المرة فقد قام بزيارات للعائلات الملكية هناك. لم يكن على عجل للعودة إلى حتوشا، وقد شغله قلقه على مصير كيا. وكالعادة المتبعة في حال زيارة ضيف رفيع المقام، مثل تانوا، السفير الحثي، كانت تقام له مأدبة احتفالية تتخللها أحاديث شتى. وفي هذا السياق ورد ذكر الإمارات الجنوبية، وخاصة أمورو. وما بقي من شأنها خافياً في قطنا، أضحك ملوك إمارات الشمال حتى سالت دموعهم.. ولم يدر أكيزي لاحقاً، ولا تانوا تفسيراً لذلك. فبعد وفاة أبيه بمدة قصيرة، قام الملك عزيزا بزيارات عديدة لمختلف العائلات الملكية في الإمارات السورية، ولكن غالباً ليس بشخصه الكريم، بل عن طريق مندوبه. وعلى خلاف ما جرى في قطنا، تقدم مندوبه في تونيب ونيا وحلبا وموكيش وعدد من ممالك المدن بخبطة أميرة من كل عائلة رسمياً، مع الوعد بجعلها ملكة. كان محتملاً أن لا تنفض الحكاية. لكن عزيزا، لغبائه، أرسل مندوباً واحداً للجولة كلها. ولدى سؤاله من أين هو قادم وإلى أين سيذهب، زلّ لسانه عدّة مرات. وبعد عدّة أقداح من الجعة أو النبيذ انطلق لسانه وثرثر، فبات سهلاً إعادة رسم محطات رحلته، من أميرة مختارة إلى أخرى. فوضع تانوا لائحة ترتيب زيارات المندوب وزيارات الملك بنفسه، فتوصل بنتيجتها إلى حريم محترم لا مثيل له في منطقة الساحل السوري كلها، كان موضع تندر ملوكي كمخطط باهر، طمع به عزيزا إلى التفوق حتى على فرعون، فبات مسخرة الجميع. وهكذا يُحتمل ألا يحصل على أية زوجة.

أما تانوا فقد توجه من أعماق قلبه بالشكر إلى الأقدار التي تلطفت به، وتمنى لعزيراء من دون أي تحفظات، زوجة مخلصه تسعده، على ألا تشمل هذه الأمنية كيا. وأرسل من أوغاريت كاتبه نائينزي إلى قطنا بسرعة، حاملاً إليها رسالة الخلاص. حسب استقصاءاته تأتي كيا في مخطط عزيزا، في المرتبة الرابعة.. أي وقاحة هذه! أميرة قطنا كزوجة ثانوية

ثالثة؟ أم أراد لهن عزيزاً أن يسحبن القرعة؟ وهل عليهن اللعب بالنرد للفوز بمقام الزوجة الرئيسية؟ يبقى هذا مشكلة عزيزاً الخاصة به، بعيداً عن أميرة قطنا! انطلاقاً من الوضع القائم تمكن كلا الجانبين من حفظ مياه وجهه. أما مصدر تمويل الهدايا الكثيرة لكل تلك الأميرات، فلم يستدع كثيراً من التخمين، من جانب تانوا ولا أكيزي.

كيا لم تسعها الدنيا من السعادة، فقد انزاحت صخرة عن قلبها. وعدت الربة بأصاح إضافية على مدار سنة كاملة، لأنها شملتها برحمتها. ووعدت بتقديم أصاح أخرى من أجل صديقها الطيب تانوا كي تشمله يد الربة بحمايتها.



مضت سنوات وتانوا في حالة سفر دائم. وفي حتوشا بقي الهدف الأعلى احتلال ميتاني وضمها إلى مملكة حتوشا. وبمرور السنين ازداد ارتباط تانوا بالتحضيرات ذات الصبغة الدبلوماسية التي يُفترض أن تؤدي إلى عزل ميتاني كلياً. وكانت حتوشا تهاجم ميتاني سنوياً. وفي النهاية تركزت هذه الجهود الدبلوماسية في يده. فصار بذلك أحد أقرب مستشاري الملك على هذا الصعيد. وكان الملك يعبر عن تقديره له بهدايا سخية. وخلال هذه المدة امتلك تانوا قطعة أرض يشتغل فيها فلاحون وعبيد. كما خُصصت له في القصر مساحة من عدة غرف تليق برئيس الكتبة.

إضافة إلى ابني الملك: أرنوواندا، وتليينو، وخاله هنوتي، كان تانوا واحداً من مجموعة صغيرة طوّرت خطة لتحقيق أهداف حتوشا تستغرق عدة سنوات. عُرضت الخطة على الملك ومجلس الأعيان للاستشارة. وبحسبها يتعين ضمير الجهود كلها لحل مشكلات الجنوب الشرقي، ما دامت الأوضاع في الشمال والغرب هادئة. وكانوا في حتوشا يأملون، عن طريق الوسائل الدبلوماسية، بكسب مصر بصورة دائمة، وكذلك أوغاريت وقطنا في شمالي سوريا، كقاعدتين وراء الجبهة. وكانت آشور شريكاً مفترضاً في العمليات العسكرية، فالبلد كانت تمور وتغلي بعد الاستقلال الدائم عن ميتاني، كما أنها كانت تقع خارج منطقة اهتمام حتوشا، فكان من السهل على شويلوليو ما أن يعدها بالسيادة الكاملة، في حال تحقيقها ما ينص عليه الاتفاق.

كُلف تانوا بمهمة كبير سفراء حتوشا في ما يتعلق بمصر وأوغاريت وقطنا وبقية إمارات الساحل السوري. وكُلف رجل يدعى پامبا بالمهمة نفسها في ما يتعلق ببلدان إشوا و آشور وبابل. وعلى كاهليهما معاً حملاً مسؤوليات جساماً.

كان تانوا يعرف أنه في زيارته الأولى لمصر، بمهمته الجديدة، سيجد أمامه عدداً من نقاط الوصل لمتابعتها. فحتى أمينوفيس الثالث خلال سنوات حكمه الأخيرة كان بالغ الاعتدال في تعامله مع أخيه شويلوليوما. وولي عهده آنذاك، أثناء إقامته في أوغاريت، لم يلتق بممثلي ميثاني فحسب، بل والسفير الحتي عدّة مرات. وقد نقل السفير إلى عاصمته انطباعه بأن اهتمام وليّ العهد آنذاك والفرعون حالياً، ينصب على حفظ المصالح الاقتصادية المصرية، الأمر الذي يمكن لحتّوشا أن تضمنه بصورة مؤكدة. كما كان السفير في غاية اليقظة لتشكيل صورة شاملة عن وليّ العهد، فلم يفته التفاته الجاد إلى العناية بالأرباب، وخاصة رب الشمس. وبالتالي يمكن على هذا الصعيد، تحقيق تقارب متميز بين البلدين، ولا سيّما أن للشمس دوراً مهماً في حتّوشا.

استفاد الملك الشمس شويلوليوما من هذه المعرفة مباشرة في رسالته الأولى إلى أمينوفيس الرابع، مُهنّئاً إياه باعتلائه العرش. وبدلاً من إملاله بالديباجة الرسمية المعهودة، تقرر صياغة الرسالة بأسلوب شخصي ما أمكن، وكان الطرفين صديقان قديمان. وللمخاطبة اختار الملك اسم التحجب المصري الحميم (حوريا)، الذي استخدمته كيا لمخاطبة تانوا أثناء زيارته قطننا قبيل عيد الحصاد. كان لا بدّ من ترك أثر عميق في نفس أمينوفيس، بحيث تشحب رسائل تهاني الملوك الآخرين من الأشياء أو ميثاني. ولهذا لا بدّ من الظهور بمظهر الواصل من نفسه. فذُكر الفرعون الجديد بالاتفاقيات المبرمة مع أبيه، وبالهدايا المتأخرة، المتوقع وصولها منذ زمن، ومنها تمثالان ذهبيان وآخران فضيان وقطعة كبيرة من حجر الفيروز. وبالمقابل ليذكر الأخ الفرعون ما يشاء، فأخوه شويلوليوما مستعد لإرساله إليه. وقد دُعمت الكلمات النبيلة بهدايا أصيلة ونفيسة: أيل فضي يعادل وزنه خمس مينات، ومثله بشكل كبش، وصحنان فضيان مزخرفان. مجموع وزن الفضة يعادل عشر مينات. وإضافة إلى ذلك خنجر أنيق من معدن هبة السماء.

نجاح المساعي تبدى جلياً. فبعد رحلة سفارته الثانية إلى مصر توصل تانوا إلى تحقيق اتفاقٍ هادئةٍ غير رسمي بصدد ميثاني وسوريا، موقع من قبل الملكين. وبعد سنوات قليلة تطور هذا الاتفاق إلى معاهدة صداقة، لم يدر بها توشراتا ولا منافسه. وتوشراتا الجاهل بما يجري، أرسل ابنته تادوهيا زوجةً لأمينوفيس الرابع، وكان يُعلمه باستمرار بكل نصر يحوزه ضد حتّوشا ويرسل إليه جزءاً كبيراً من الغنيمة، علماً بأن أمينوفيس لم يعد مهتماً بهذه الأمور كلها، فكان يصمت. وبالتالي كان الخناق يضيق تدريجياً حول ميثاني.

ومن أسباب ذلك أيضاً التقدم المستمر، الذي تبدى على صعيد التوسع في مملكة

أوغاريت. فمباشرة بعد استلام رسالة الملك إيداندا، أجاب البلاط الحثي عليها واتصل بأوغاريت عارضاً عليها اتفاقية تبعية لحتوشا لقاء وضع أوغاريت تحت حمايتها. أما مكسب حتوشا الفعلي فهو توسع منطقة نفوذها إلى حد كبير. لكن أوغاريت بقيت آنذ موالية لمصر. وفي السنة الثانية من حكم الملك الجديد نيَقَمَدو الثاني تغير الوضع، إذ أدرك هذا أن الحال، عاجلاً أم آجلاً، سينقلب ضد ميثاني. وقد كان لزيارات السفير الحثي تانوا، غير البريئة تماماً، اليد الطولى في تعميق إدراك نيَقَمَدو.

كانت أوغاريت آنذاك في أوج ازدهار اقتصادي، تقصدها السفن قادمة من مصر والأشياء وكريتاً وإيجا وأرزوا ومن أقصى الغرب. وكانت إضافة إلى ذلك مركزاً لتجميع البضائع من جميع أنحاء الشرق الأدنى والأوسط، وتبادلها. وفيها عدّة قصور كبيرة تشهد على ثرائها الواسع. وفي أحياء معينة من المدينة استقر عدد من التجار الأجانب على نحو دائم. على الرغم من ثرائها كانت أوغاريت ضعيفة عسكرياً، فاضطرت كبقية إمارات الساحل السوري إلى ترتيب أمورها مع القوى العظمى. في البداية راهن نيَقَمَدو مثل أبيه على مصر، التي كافأته بإرسال أميرة من بلاط طيبة ليتزوجها، من أجل تمتين العلاقات. ولكن يبدو أن جهود مصر من أجل المنطقة قد استنفدت بهذا الزواج، ما دفع نيَقَمَدو إلى الميل لقبول عرض حتوشا، بتوسيع رقعة أوغاريت. استفسر نيَقَمَدو من الملك شويلوليوما عن كيفية تحقيق التوسع، فأقنعه شويلوليوما بأن يحتل مملكتي موكيش ونوحاسه المتحالفتين مع ميثاني ويضمهما إلى أوغاريت برضا حتوشا.

في واقع الأمر لم يتم نيَقَمَدو بالهجوم، لكن ملكي موكيش ونوحاسه عرفا بالخطة، إما عن طريق الجواسيس أو الخيانة. أهي مصادفة؟ أم مكيدة حثية؟ في كل الأحوال كان المتضرر هو نيَقَمَدو، إذ هاجم الملكان أوغاريت ونهبها لإجبار نيَقَمَدو على العودة إلى حلفهم. لكنهما حقاً عكس مرادهما، وهو ما أملت فيه حتوشا، التي استنجد نيَقَمَدو بجيشها، لكن ما لم يعرفه نيَقَمَدو، هو أن حتوشا لم تراهن عليه فقط، بل أبرمت في الوقت نفسه اتفاقية حماية مع أحد ملوك نوحاسه الملقب سَرَوَيْسي، وليس معه فحسب. وبذلك اختمرت خطة حتوشا المدروسة بعناية، وصار لها موطئ قدم دائم في شمالي سوريا.

أبرم نيَقَمَدو اتفاقية مع شويلوليوما، عُرضت فيها الأحداث بصورة مختلفة نوعاً ما، لكنها حققت الغرض منها:

«على أثر انفصال كل من ملك موكيش وملك نوحاسه وملك نيّا عن شويلوليوما،

حشد هؤلاء قواتهم وهاجموا أوغاريت ونهبوها. فاستنجد نيقدمو بالملك العظيم، ملك حتي وكتب إليه: (أنقذني يا سيدي من أيدي الأعداء. إن الملوك يبتزونني). أرسل الملك العظيم أمراء ووجهاء مع قواتٍ من المشاة إلى أوغاريت، فنجحوا في إعادة الأمور إلى نصابها في أوغاريت! فالبيعة لشويليوليوما. وقد رأى اللابارنا، ملك حتي، ولاء نيقدمو له، وها قد أبرم الاثنان اتفاقية بينهما». وتلا ذلك شروط متعددة.

يعد إبرام هذه الاتفاقية أحد أبرز إنجازات ثانوا الدبلوماسية التي بوّأته مكانة محترمة في كل مكان.

«على المرء أن يكون حذراً حقاً في التعامل معك»، قال أكيزي في إحدى لحظات صفاء مزاجه المعتادة، في أثناء زيارة ثانوا الجديدة لقطنا، وأضاف: «قبل أن تطرف عين الإنسان، تكون أنت قد قلبت الجبهات وجعلته يوقع اتفاقية!».

إلا أن أكيزي لم يفكر بإبرام اتفاقية مشابهة. كما أن مجلس الأعيان كان راضياً جداً عن الوضع القائم. فمن جهة أمور وُفعت الضغوط، ولا سيّما أن سلوك عزيزاً حيال قطنا كان هادئاً بصورة لافتة، علماً بأنه قد حذا حذو أبيه تماماً، ولم يتخلّ بأي حال عن طموحه لخلق مملكة سورية مستقلة. لكنه ركّز اهتمامه على جيبيل وإماراتٍ جنوبية أخرى. أما مصر فقد تركت المنطقة كلها لشأنها. وبهذا كانت طرق قوافل البضائع سالكة آمنة، دون أية عراقيل، بل ازداد الطلب على بضائع ومواد خام معينة، ولا سيّما ما له علاقة ببناء عاصمة الفرعون الجديدة آخت آتون. فاغتنت قطنا فوق غناها.

بمرور الوقت كانت نحو تسع سنوات قد انقضت منذ اعتلاء أكيزي عرش قطنا، وأمينوفيس الرابع عرّش مصر ونيقدمو في أوغاريت، فبدأ التبدل على العروش وكأنه قد بات عادة.

ولكن فجأة توترت الأوضاع، إذ تاهبت حتّوشا، على غفلة من جيرانها، لضربة كبيرة، فتحالفت مع بابل. وبذلك باتت أيام ميتاني معدودة.

1341 - 1339 ق. م

«تحيات تانوا لكيا، كاهنة فطنا وأميرتها!

أمل أن تكوني وأحباءك في صحة جيدة، ولتكن سنة خير وخصب.
لأمر طارئ لن أتمكن من زيارتكم لمدة طويلة. ومع ذلك لا تقلقي، فسنلتقي.
إذا احتجت إليّ راسلي خالي أ.»

نظرت كيا إلى الرسالة مضطربة، ثم سألت أخاها الملك أكيزي: «ما معنى هذا؟».
«ليس لدي أي فكرة. لم يرسل إليّ شيئاً آخر. علينا التحلي بالصبر. طبعاً أنا سأحاول
الاستقصاء عن الأمر.»

«من سلمك الرسائل؟»

«سفير حتي اسمه پامبا. إنه على طريقه نحو الشرق، وسيلتحق هنا بالقافلة التالية
إلى تَرَقَا.»

«ألا يمكنك أن تستفسر منه؟»

«حتى إن كان يعرف شيئاً، فإنه لن يخبرنا شيئاً.»

«يمكننا على الأقل أن نسأله، متى غادر حتّوشا؟»

«بإمكاني أن أجابتك عن هذا السؤال. بعد عيد السنة الجديدة مباشرة.»

«وعمّ إذا كان تانوا ما زال هناك عند ذلك، ومتى وإلى أين اضطرّ للسفر..»

«انسي الأمر يا أختي. أجباني بكل أدب بأنه غير قادر على الإجابة عن هذه الأسئلة،
لأنه لا معلومات لديه، إلخ، إلخ.»

انقبض قلب كيا. ما الذي حدث يا ترى، ليرسل تانوا رسالة من هذا القبيل؟ تبدو قد صيغت على عجل، وكأنه كان مرغماً على الإسراع إلى مكان ما. ما كانت كيا لتظن أن أفكارها كادت تطابق الحقيقة.

في أثناء السنة الماضية نجحت حتّوشا في تضييق الخناق بشدة حول ميتاني. وما أسهم إلى حد كبير في هذا النجاح، إضافة إلى النزاع الداخلي في البلاط الميتاني، هو حليف ميتاني البعيد، الفرعون أمينوفيس الرابع الذي يسمي نفسه منذ مدة قصيرة إختانتون، والذي ترك الساحة لحتّوشا. كان الملك الحتي العظيم قد تمكّن بروية وتدرجياً من توحيد دول الجوار جميعها، بطريقة أو أخرى، ضد ميتاني. ولم يتبقّ سوى المنطقة على حدودها الجنوبية الشرقية بين النهرين الكبيرين پوراتو (الفرات) وإيدقلا (دجلة)، حيث لا نفوذ لحتّوشا من أي نوع كان. فكانت المهمة الصعبة الأخيرة هي ربط حاكم بابل بالحلف ضد ميتاني.

ولكن كيف؟ ماذا يمكن لحتّوشا أن تقدم له للمساهمة في إسقاط ميتاني؟ أقص هذا السؤال مضجع اللابارنا لياليّ طويلة. توسيع رقعة أرضه طبعاً. فعرض شويلوليوما على بورنا - بورياش ملك بابل، وادي پوراتو الخصب حتى أرض أشتاتا شرق حلبا، حيث سيصير لبابل حدود مشتركة مع المملكة الحتية. تمنع ملك بابل طويلاً، بحجة أن مكسبه من ذلك لا يكافئ خطر تعرضه لغضب مصر، في حال وقوفه ضد حليفها توشراتا الميتاني، كما أنه سيخسر الذهب الجميل، الذي يهديه إياه الفرعون، بين الحين والآخر، فهما أولاً وأخراً أصهار. عندئذٍ أخبره شويلوليوما على لسان سفيره پامبا، بأن هذه أبسط المشاكل، إذ يمكن تمكين الحلف برابط زواج. وهو لا بنات لديه في سن الزواج، وأخواته تجاوزن السن المناسب للزواج بأخيه العزيز، أفلا يحتمل أن يخطب هو عروساً بابلية؟

هذا معقول جداً، أجاب بورنا بورياش. فمن محاسن المصادفات أن لديه ابنة بارعة الجمال، صحيحة الجسم وذكية حاذقة، وفي العمر المناسب. إنها لؤلؤة فريدة، قرّة عينه وأثمن ما يملك. اسمها مانيغال. وهو مستعد لتقديمها زوجة لأخيه العزيز.

«رائع، ما أسهل ما تيسر الأمور!».

فرك الملك شويلوليوما يديه واحدة بأخرى والتفت إلى قريته هتتي قائلاً: «يمكننا أن

نقبل بهذا، أليس كذلك؟ ما أكفأ مفاوضينا. إنني في غاية الرضا عنك، پامبا. أخيراً شارفنا على الاقتراب من هدفنا. في الربيع القادم سنحسم الأمر. لن تتمكن ميتاني من الصمود ضد أربع جبهات».

التجاوب العام لأفراد العائلة الملكية وأعضاء مجلس الشيوخ الحاضرين دعم رأي الملك.

«لا تبدو متحمساً للأمر يا عزيزي. هل ثمة شيء آخر؟».

كان وجه السفير پامبا متحجراً. لم يسبق له أن استصعب الكلام كالآن: «يا شمسي!». قال جاداً عابساً: «ملك بابل العظيم يربط دعمه لخططنا بشرط: أن تصير ابنته زوجتك الرئيسية وسيدة حتوشا الأولى!».

ساد القاعة صمت جليدي. شعبت الملكة هتي، وكان على شويلوليوما أن يضبط نفسه، كي لا تفلت من لسانه شتيمة مقدعة. ياله من شرط قاس!

«اذهبوا يا أصدقائي، أرجوكم. سنجتمع في مرة أخرى. سأدعوكم!».

كان الملك يعاني كي يتماسك.

علم تانوا بضربة القدر هذه من هنوتي، الذي تابع قائلاً بمرارة: «كنت أعرف لماذا لم أتزوج قط، فالارتباط لا يولد سوى الزعل والمضايقات. وفي معظم الحالات لا تسير الأمور على ما يرام. هل يمكنك أن تذكر لي مثلاً يثبت العكس؟».

«نوفرتيتي وإخناتون».

«في حالهما، الكلمة الأخيرة لم تُقل بعد»، أجاب هنوتي متنبئاً.

«كيف تظن أن الأمر سيُحسم؟». سأل تانوا، رغم معرفته بالجواب مسبقاً.

«دون مساندة بابل لنا، ضد ميتاني وسوريا، وضد مصر أيضاً إن دعت الضرورة، بحماية ظهرنا، سيكون من الصعب، بل من المستحيل، السيطرة على ميتاني بصورة دائمة وكسر شوكتها نهائياً. وإن بقي هذا هدفنا الأعلى، فعلى ملكنا أن يُدعن. كل ما عدا ذلك سيكون إهانة من قبيل أننا قد خفنا من استفزاز بابل ضدنا».

«وعندئذٍ قد ينقلب الوضع، فتُجبر حتوشا على رفع يدها كلياً عن منطقة شمالي

سوريا».

«هذا سيؤدي إلى قصّ جناحينا بصورة مؤلمة، وإلى إعاقة توسيع المملكة، بل إلى إيقافه. فنحن نعتمد باستمرار على محاصيل هذه المنطقة وموادها الخام ومنتجاتها».

«ولكن لا يمكن لمملكتنا أن تصبح فجأة زوجة ثانوية! إنها أم الأمراء الخمسة كلهم».

«ستضطر للأكل من هذه التفاحة. وإلا كيف ستسير الأمور؟ لا يمكن للمرأتين أن تتساويا مرتبةً. دستورنا يمنع ذلك، ثم ما جدوى ذلك! تصوّر أن تمثّل الزوجتان رأيين مختلفين!».

«هل سيفقد وليّ العهد وضعه القائم، في حال أنجبت الملكة الجديدة ذكوراً؟ هذا مستحيل!».

«لا أتصور ذلك. وأعتقد أن هذا يحتاج إلى قرار من مجلس الشيوخ».

«لا يمكن للملك أن يسيء إلى هتي بهذه الصورة. فعلاقتها أعمق وأمتن من ذلك بكثير. ثم إنها ستفقد جميع امتيازاتها. لا بدّ من أن نجد حلاً آخر لإغراء بابل».

«أنت تثير فضولي! شطارتك لا جدال فيها، وبحق، تانوا. أما في حالتنا هذه، فإني أشك في إمكانية توصلك إلى حل مناسب. فملك بابل المعظم يجدها فرصة لرفع ابنته إلى أعلى المراتب. ما حرمة منه مصر، لن يمنعه ملكنا عنه، إما لأن زميلك پامبا كان نائماً، وإما لأن الظن بأن اللقمة قد وصلت إلى الفم، قد أعمانا جميعاً عن فحص الملحقة. كان يجب منذ البداية التأكيد على زوجة ثانوية. ولكن من كان يتوقع مثل هذه الجسارة الوقحة؟ لا يتعلم الإنسان إلا من كيسه».

ليس تانوا فحسب، بل الجميع، كل بأسلوبه، كافحوا لإيجاد مخرج من هذه الورطة القاتلة. لقد وصف هنوتي الحالة بصورة بارعة: ليس بوسعنا حتى سحب طلب الزواج، من دون أن نهين الملك بورنا بورياش وعائلته وبلاطه إهانة قاتلة. موضوع توسيع مملكته سبق أن طرحناه، فلم يبق بين أيدينا ما نطرحه، فعلاً لا شيء. لقد رمينا بأحجار لعبتنا كلها دفعة واحدة وباستخفاف.

بعد بضعة أيام استدعي تانوا للمثول أمام الملك، وفي جناحه الخاص على غير العادة المرعية. والملك المقبل على الحياة عادة، بدا مريضاً: مكفهراً الوجه، مضطرب الحركات وكأنه لم ينم منذ وقت طويل. ورغم دفء الغرفة المريح، كان يرتجف من البرد. لم يكن معه أي من كبار مستشاريه.

«تانوا، لقد أثبتَّ جدارتك حتى الآن في جميع المهمات التي أوكلت إليك، فقدمت لي وللمملكة أفضل الخدمات. اليوم سأأتمنك على أئمن وأعز ما اختبرته في حياتي: زوجتي!». وكان هذه المعلومة قد أتمته جسدياً، فاستند على كرسي. لبث دون حراك وكأنه يتمعن في تزيينات الحفر على الخشب. ثم شدَّ قوامه وأضاف: «سترافقها بأمان وحرص ودون لفت نظر إلى موطنها. ستسافران بأسرع وقت ممكن. وأنت في حلٍّ من التزاماتك الأخرى حتى إشعار آخر. ثمة أمر آخر، تانوا، عليك أن تضمناها لي بحياتك!». بدا الملك على شفا انهيار قواه. أشار إلى تانوا ليذهب. بدا تانوا كالمصعوق، ذاهلاً ومبهوتاً. وصل إلى مسكنه كالسائر في الضباب. كان هنوتي هناك في انتظاره.

«لا يمكنه أن يصرفها هكذا ببساطة!». قال جاهداً ليستعيد تماسكه. أما هنوتي فبدا وكأنه قد ارتضى الوقائع، فأجاب: «كانت هذه رغبة الملكة. صرحت أمام مجلس الشيوخ أنها بذلك تخدم أرباب حتوشا والمملكة وزوجها الحبيب على أفضل وجه. إنها امرأة فريدة. يا لهذه الشخصية! لا أتصور كيف ستسير الأمور في المستقبل من دونها».

ترك تانوا جسمه يهوي على كرسي منجد، ومد يده إلى الجعة التي أحضرها خادم لهما. جرع كأسه دفعة واحدة وطلب من الخادم أن يملأه له ثانية. وحتى هنوتي التجأ إلى الراحة المهدئة التي يوفرها تأثير الكحول.

«والأمراء؟ ألا رأي لهم؟».

«ماذا عساهم يقولون؟ أهمهم هي التي قررت، وعليهم احترام قرارها. كان واضحاً لي منذ البداية، أن هنتي لن تقبل مطلقاً بالمرتبة الثانية. ليس لأنها غير متسامحة. كزوجة ثانوية كان بمقدورها حتماً قبول البابية، ما دامت موقنة من حب زوجها. لكن التخلي عن موقعها، كزوجة رئيسية، لامرأة أخرى، وعدم المشاركة في مشاورات مجلس الشيوخ، وعدم أداء الواجبات الدينية الكهنوتية إلى جانب شويلوليوما، إضافة إلى الواجبات المهمة الأخرى، التي كانت تقوم بها بصورة مثالية، ليس بالأمر السهل أبداً. فالأمر يتعلق بكرامتها وبكرامة الملك».

«وقبل الملك ذلك؟».

«هو من ورط نفسه أساساً. فليفرح إذاً بأنها تسهل الأمور عليه».

«لكنه لم يبيع ذلك مطلقاً، هنوتي».

«أعرف»، قال مزجراً «ولكني أحياناً أشك حتى أنا، في ما إذا كان كل هذا الذي نفعله،

صائباً. في سبيل المملكة! ها هي ذي عائلة تتمزق. أتعرف ما سيقال عنها: إن الملك العظيم قد نبذها من أجل امرأة أخرى، أكثر شباباً وجمالاً وانصياعاً والخ! لن يطول الأمر كثيراً. ولن يسأل أحد عما حدث حقاً». والتفت هنوتي إلى قدحه بوجه ممرور، ثم أردف: «ما يعزيني، هو أنها ستكون بعيدة، فلن تضطر لسماع هذا اللغو المسيء».

«بعيدة جداً، هذا ما ستكونه. سيستغرق الأمر أسابيع. ماذا ستقول عائلتها؟».

«سؤال جيد. يقال إن أباهما رجل يميل إلى الشجار، هذا إن كان لا يزال حياً. هنا لا تصلنا أية أخبار من ميسينا، ما دمنا لم نبرم بعد اتفاقية سلام صامد مع أرزاوا. أتعرف تانوا، إنني أحسبك ولا أحسبك».

نظر إليه تانوا متسائلاً والخادم يملأ قدحه.

«أحسبك على الوقت الذي ستمضيه مع هتي. لكنك ستكون آخر من يجب أن يودعها». والتفت عنه، لكنه قال بعد قليل: «هيا، دعنا نشرب!».

جاء اليوم التالي محتملاً بالصداع والصحو، مُقْصِياً المواقف العاطفية.

كان لا بدّ من التحضير للرحلة بعناية. وعندما يفرق الإنسان في العمل، ينسى نفسه، وهذا جيد. طلب تانوا أن يرافقه صديقه الضابطان مورسيللي وميتا وبعض أفضل رجالهما، فحصل على الموافقة دون تأخير. كان بحاجة إلى مجموعة صغيرة قوية ومتماسكة، لا سيّما في الحالات الحرجة عند المواجهات المباشرة، دفاعاً عن ملكتهم، ودون خشية من الموت. أي طريق يفترض أن يسلكوا؟ في إدارة شؤون الدولة ناقش تانوا مع ميتانموا وهنوتي وصديقيه الطرق الممكنة.

«الطريق المباشر يتجه من حتوشا غرباً، عبر مراسستا ثم على الهضبة باستمرار. لكن جزءاً منه سيمر في منطقة كشكية حتى نهر غورتيا على حدود مملكة حبللا، ومن هناك جنوباً بموازة غورتيا حتى لالاندا»، قال هنوتي وأضاف: «هذا هو الطريق الذي تعرف بعض أجزاءه».

«ولكن هنا يمكن للمرء أن يتابع غرباً ثانية، حتى يصل إلى نهر سيانتي، ويتابع بموازاته إلى قصر كواليا، حيث يمكن للأمبر هناك مساعدتنا في ما تبقى. أنا كمراسل لم أصل إلى أبعد من كواليا. أوجد أحد هنا ركب بحر إيجه؟».

ساد صمت مبهوت، كسره ميتانموا مستطعلاً رُقم ملاحظاته: «بناء على هذه

الملاحظات يمكن للإنسان انطلاقاً من كواليا أن يسير بموازاة نهر سيانتي حتى اتحاده مع نهر أستاريا ليشكلا معاً نهر ميرا، الذي لا يبعدُ ميناء ميلاندا كثيراً عن مصبه، إذا استخدم الإنسان سفينة لبقية الرحلة». ورفع نظره عن رُقمه.

«كم يوم سفر ستستغرق الرحلة؟».

«يصعب تحديد ذلك».

«لا يعجبني أن نعبّر منطقة محتلة وأجنبية أيضاً. ففي هذا خطر، نحن بغنى عنه»، قال مورسيلي مقاطعاً.

أوماً تانوا برأسه وقال: «خطر هذا في بالي. نحن لسنا مستعجلين، بل نريد أن نصل إلى هدفنا في أفضل ظروف آمنة. أقترح أن نأخذ الطريق المعتاد عبر پوروشخندا نحو الغرب حتى بحيرات بيداسا».

«طيب، ولكن من هناك حتى كواليا سيكون الطريق متعباً، إلا إذا اخترتم الثقافة طويلاً».

«أخشى أنه سيتوجب علينا حسم هذا الأمر، عندما نصل إلى هناك».

«في كل الأحوال يجب أن نتزود بمؤونة جيدة، كي لا نكتفي بلحم الغنم والماء. فطوال الطريق لن نجد شيئاً سوى أرغفة الخبز»، قال مورسيلي والقلق يعلو وجهه.

«ما أخلى بالك!».

رغم جدية الموقف، ابتسم تانوا. كان مدركاً ضرورة وجود مورسيلي إلى جانبه.

«بأي صفة سنسافر؟ تجاراً؟ رعاة؟ حرفيون؟ جوالون؟». وأمسك مورسيلي طرف رداثة العسكري القصير ودار حول نفسه بحركة رشيقة وظريفة، ما دفع الجميع إلى الضحك شاكرين له لتلطيف جو الاجتماع.

«لكن هذه اللفتة مفيدة. فعلينا التفكير بطريقة للتكرّر، معقولة ومقبولة، عندما نغادر منطقة النفوذ الحتي. عشاثر البدو الرُّحل في منطقة الهضبة قد يُستارون لمنظرنا، فالطفل المحروق يخشى النار، وهجمات أرزاوا حرقتهم، إذ إنهم لم يفقدوا مواشيهم فحسب، بل نساءهم أيضاً».

«القرار صعب الآن. دعني أفكر فيه. أولاً يفترض بنا أن نسأل الملكة عن رأيها في الأمر؟ ما رأيك هنوتي؟».

«فكرة جيدة».

«وماذا عن المتاع؟».

«لا فكرة لدي، وهذا ما يجب أن نطلع عليه سريعاً».

«في حال كون المتاع كبيراً، فالأفضل هو تشكيل قافلة تجارية، رغم أنها تغري بالغزو دائماً».

«أنا أفضل أن نستخدم الخيول»، قال تانوا وأردف: «فهي الأسهل حركة في حال الخطر. لكنكم جميعكم غير معتادين على الركوب الطويل، وخاصة الملكة».

«فلنتنظر ما ستقوله الملكة!».

«متى سننطلق؟».

«ربما كان الأفضل مع خروج الجيش إلى الحرب. فإذا كان هناك جواسيس في حتوشا.. وهم موجودون هناك.. فقد يشغلهم خروج الجيش ويموّه خروجكم. كلما كان خروجكم أقلّ لفتاً للنظر، كان أفضل».

«إذاً، لا وقت لدينا! دعونا نستغل ما تبقى منه لنحتفل مع زملائنا وحبیباتنا يا أصدقائي!».

كان هذا مورسيلي، ومن سواه؟! لكن مزاج تانوا لم يكن عندئذ ميالاً إلى الشرب والصخب. فرتب أموره الرسمية والخاصة. كتب وأرسل عدّة رسائل مقتضبة، لا تعني ولا تسمن، إلى أهله في ترشا وأصدقائه في قطنا. ثم جهّز نفسه لمواجهة التحدي الجديد.

بعد أداء اللابارنا وقريته الطقوس الرسمية التي تسبق كل حملة عسكرية، انطلق الجيش الحتي بقيادة شويلوليوما وولي العهد أرنوواندا وزيدا وهنوتي، لإعلاء مجد أرباب حتوشا، باتجاه مشرق الشمس. تحرك نحو ساموحا في الأرض العليا، منطلق جميع الحملات العسكرية في الشرق، دون أن يتضح بعد للأعداء الهدف الحقيقي للحملة. بما أن الشعوب الكشكية قد التزمت بالاتفاقيات المبرمة معها، كان هدف الحملة في هذه السنة، إخماد الاضطرابات على الحدود بين كيزواتنا وميتاني في الجزء الشمالي بموازاة نهر پوراتو، حيث تقع مملكة إشووا المهمة والمتحالفة مع حتوشا.

في خضم الفوضى العامة، ومن دون لفت نظر، غادرت المدينة عبر بوابة الأسود باتجاه الجنوب قافلة عادية من حمير وبعض الجياد وبنغال الحمل، إضافة إلى عربتي سفر

مغلقتين. بعد فترة قصيرة انطلقت في الاتجاه نفسه كوكبة من الفرسان، واتحدت مع القافلة والعربيتين في تاوينا، ثم تابعت القافلة مع المرافقة طريقها من دون مشاكل إلى مدينة نيسا، حيث انعطفت نحو الغرب ووصلت سالمة مرتاحة إلى مقر هنوتي في بوروشخاندنا.

طوال الطريق لم يتحدث تانوا مع الملكة إلا في الضروريات الملحة. لقد احترمت والسيدات المرافقات لها رغبتها في الاختلاء بنفسها من دون إزعاج. وكان تانوا مرهف الإحساس، فشرع بالعذابات التي تعانها الملكة. فكر بأبنائها وبخسارتها المريعة إياهم. بالنسبة إلى تانوا كانت وستبقى هنتي الملكة دائماً، على الرغم من لفتها نظره في بداية الرحلة، إلى حقيقة أنها أم الأمراء، التي لا يمكن لأحد أن ينازعها عليها، إلا أنها منذ الآن أميرة من المملكة الآخية على بحر إيجة.

أي سموً تبدى في جمال وفتها إلى جانب الملك هذا الصباح، قبل الشروع في الرحلة، وهي تؤدي واجباتها الكهنوتية! وبينما تانوا، وآخرون معه، يقاومون دموعهم، رجع الملك والملكة إلى القصر ثانية. كان بوسع تانوا أن يتصور ما جرى هناك. أي أرباب هؤلاء؟ أي عالم هذا الذي يفرق المحبين أحدهم عن الآخر بسبب أهواء طقسية مفتعلة؟ استحضرت تانوا في مخيلته كيا وأحس بانقباض حاد في صدره.

أمام شهود، وعدد من الكتبة، صرح شويلولوما وهنتي أن زواجهما قد انتهى. تنازلت هنتي عن صفتها كملكة وعن كل الامتيازات المرتبطة بها، لكنها لم تتخل عن حق أبنائها في العرش. وبغض النظر عن من يتخذ الملك زوجةً مستقبلاً، فإن ذلك لن يطول تسلسل مراتبهم. كما نقلت هنتي جميع أملاكها وممتلكاتها التي ستركها وراءها، إلى أبنائها بالتساوي. واتخذت ترتيبات تعويضية دقيقة لكل من عمل في خدمتها، بحيث لا يتضرر أحد بسبب رحيلها. وافق مجلس الشيوخ على إجراءاتها كافة. ثم سلمت هنتي شارات سلطتها قطعة قطعة ليد زوجها السابق: التاج، المعطف، ختم الملكة. واستلمت منه بالمقابل مهرها وما اختاراه معاً، مما يمكن أن ينتقل معها إلى وطنها: الحلبي الثمين، ثيابها، أسلحة صيدها وأشياء أخرى.

سُمح لهنتي بعد ذلك، بعيداً عن أعين أعضاء المجلس أن تودّع أبناءها ثم الملك. هل سيلتقون ثانية يا ترى؟ بوجوه متحجرة غادر الملك وأبناؤه الحصن الملكي والتحقوا بالجيش. وبعد وقت قصير توجه تانوا إلى باب مقر إقامة هنتي المؤقت، ليرافقها مع

سيدتين من حاشيتها إلى عربة السفر، وكانت ترتدي ما يحجب شخصيتها تماماً. ومن دون أن تلتفت إلى الوراء خطت نحو العربة وأعطت إشارة الانطلاق.

كل الأضحيات التي وزعها المتبقون في القصر، حول النار المقدسة لرب حماية الملك المعظم وفي الزوايا، وكل طقوس التبخير لم تفد شيئاً. عند منتصف الظهيرة خمدت النيران بعد أن فارقتها يدا الملكة، السيدة التي تشرف على توقدها بعناية ودأب ويقظة. بات إبعاد الملكة معروفاً علناً، حتى قبل أن تغادر حدود المملكة، فامتلاً القصر الموحش بالنواح والأبنين.

بمرور كل يوم كان يزداد التباعد بين هنتي وشويلوليوما، هي باتجاه مغرب الشمس وهو باتجاه مشرقها.

عند ساموفا انعطف الجيش جنوباً، ومر بالمدينة المقدسة العظيمة ساريسا، وعبر مضيق تيغاراما ليبلغ مدينة العسل ماليديا، حيث أقام معسكراً. كان مزاج الملك يتراوح بين الحزن واليأس والشك والغضب. أحس ضباط جيشه بذلك، والعدو قبل الجميع. وأخيراً تجرأ هنتي على مفاتحة صديقه: «يا شمسي، أيمكنني أن أتكلم بصراحة؟».

كان شويلوليوما جالساً في خيمة معتمة، على كرسي واطى، ساندأ رأسه بيديه. ورغم العتمة تمكن هنتي من ملاحظة الأخاديد العميقة في وجه الملك. ألمه أن يرى المحارب القوي بهذه الصورة.

«أظنني أعرف ما الموضوع، ولكن هاتِ ما عندك!». ذكّره صوت الملك بصوت طفل عنيد، يعرف أنه توأ سينال عقابه الحق. «أنا جحش، هذا ما تريد أن تقوله. توصلت إلى ذلك وحدي. ونتيجة شعوري بمحتتي أرسلت من ساريسا رسالة مستعجلة إلى هنتي في پوروشخاندا، رجوتها فيها أن تبقى. ما إن انطلق المراسل حتى أدركت أنني بهذا إنما أزيد في عذابها وعذابي. لقد قضي الأمر. مفسر و حركة الطيور توصلوا إلى النتيجة نفسها، مثل مفسري أحشاء الحيوانات: إن نم تكن بابل إلى جانبنا، لن نتصر على ميتاني. والشم هو هنتي. اعترف أنني كدت أكثر بالأرباب. إنها أم أبنائي! ولهذا سيكون عقابهم أشد. قد أجنّ. إني أفتقدها، الآن، وأنا أعرف أنها قد نأت عني إلى الأبد. كيف يمكن تحمّل ذلك؟».

بماذا يمكن للمرء أن يجيب على هذا الاعتراف؟ لقد تفهم هنوتي آلام شويلوليوما، لكن تأييده في ذلك لن يساعده في الخروج من الحالة، فقال ما خطر في باله بصفته مقاتلاً حثياً. «شويلوليوما، يا صديقي. إنني أتفهم وجعك. لكنك ملك حثوشا العظيم، وهذا يتطلب تقديم تضحيات. سعادتك الشخصية يجب أن تُرجأ الآن. احمد أريابك على السنوات الطويلة التي أمضيتها مع قرينة مثل هتي، على الأمراء الأصحاء، على ما حققته حتى الآن. يجب أن تمالك وتغلق على حزنك في قلبك. هناك الكثير مما يجب عمله والتفكير فيه والقتال من أجل تحصيله. هذا واجبك الذي لا بد من أن تؤديه من أجل وطنك. وأنا، يا شمسي، نحن جميعنا من ورائك!».

عانق شويلوليوما هنوتي وقال: «أشكر لك صداقتك!».

«يا ملكي، أنا أعتبر نفسي سعيداً إن تمكنت من مواساتك والوقوف إلى جانبك. وأعتقد أننا سنعيش مجدداً أيام فرح، سترى!».

لم يبدو أن الملك قد اقتنع بعد، ومع ذلك فقد اعتبر هنوتي محاولة الابتسام إشارة خير.



قبل مغادرة پوروشخاندا بوقت قصير استلمت هتي رسالة شويلوليوما المستعجلة. سلمها إياها تانوا في مخدعها المتطرف، إذ يُفترض ألا يعرف أحد بوجودها في پوروشخاندا. ولكن بعد أن تجتاز حدود المملكة وتقطع مسافة طويلة، سيعلم الجميع بمغادرتها ويخطوبة الملك أميرة بابلية. ارتاحت هتي في پوروشخاندا التي تعرفها جيداً، فاسترخت نوعاً ما من توترها. وذات صباح حيث بلغتها الأم، وابتسمت لأول مرة منذ مغادرة حثوشا.

«أنا مسرورة للعودة إلى وطني»، قالت وتنهدت بعمق: «سأكون مثل طائر حرٍّ لا يحمل همّاً». لقد توقع تانوا مضمون الرسالة. لكن رد فعل هتي فاجأه جداً. فالمملكة المعروفة حتى اللحظة برباطة جأشها وتماسكها ودماثة خلقها، أصيبت بنوبة غضب جنوني، في حضور تانوا ووصيفتيها. ويبدو أن هذا الانفجار قد أفادها، فكان له تأثير العاصفة الرعدية وما يتلوها من صفاء. ففي اليوم التالي كانت منسرحة مسترخية وحثت القافلة على الانطلاق. وعندما سُئلت عما إذا كان لديها جواب للساعي، أشارت بيدها فحسب، نافيةً.

أن تسير قافلة على الطريق غرباً برفقة مجموعة من المسلحين في أوقات مضطربة لم يكن أمراً لافتاً للنظر مطلقاً. أما وجود نساء مع القافلة فكان غير مألوف، لكنه قابل للتفسير في أي وقت كان، بأن بعض التجار ينوون الاستقرار في لالاندا، فحملوا معهم نساءهم وعفشهم. وقد تم توفير ثياب ملائمة لهذا التفسير للنساء. وفي صباح بدء الرحلة، عندما رأى تانوا الملكة في ثياب تنكرها، قال إنه لم ير سابقاً جدة ذات جمال أسر كهذه. وكانوا يحملون معهم البضائع الضرورية لاستكمال التنكر. وبفضل ميتا الذي كان يتكلم اللهجة اللوثية لپوروشخاندا، لم تواجههم أية عراقيل مع الدليل والقرويين والبدو. وصلوا إلى منطقة البحيرات من دون مضايقات.

ومع ذلك فقد كانوا يقظين وحذرين مثل قطط متهيبة. كانت المناطق المأهولة قليلة، لذلك كانوا وحدهم في مقاطع طويلة من الطريق، فالتمس تانوا من الملكة أن تتركب جواداً. بعد تردد أولي تحمست وأخذت تزداد سروراً. وكان تانوا قد زوّدها بثياب ركوب، تخفي جيداً كون الراكب امرأة. بعد خبيها الأول غمرتها نشوة جليلة، فقالت لتانوا:

«لم أكن لأتصور أن الحياة يمكن أن تكون ممتعة بهذه الصورة. أشعر بنفسي حرة كنسر».

أثناء تمارين الفروسية تكررت الفرصة لتبادل حوارات قصيرة بين الملكة وتانوا، رسخت إعجابها بشخصيتها. حكّت له عن حادثة مشاركتها، قبل سنوات طويلة، في الرحلة إلى حتّوشا: «ذات يوم جاء رسلٌ إلى قصر أبي الذي كان حينذاك (ونكّس)، أي ملك الآخيين، قدّموا من أرزاوا حاملين رسالة غريبة تقول إن ملك حتّوشا العظيم مريض، وقد تنبأ له العرافون بالشفاء، إن وقف أرباب الغرب البعيد إلى جانبه. فسألهم أبي عن القصد. فقالوا إنهم يتوقعون منه أن يرسل إلى حتّوشا البعيدة تمثالاً لأعلى أربابنا أو لرب الشفاء مع كاهن أو كاهنة والحاشية الضرورية. طالت المشاورات عندنا إلى أن تقرر تلبية الطلب. فقام أشهر معلمي الخزف عندنا بصنع تمثال بديع من الصلصال للربة أتاناً، ثم ألبست وزينت وكوّست. منذ وصول الرسل توسلتُ إلى والدي كي يرسلني في الرحلة معهم. كنت أشعر بمثل قاتل في ميسينا ورجبت في أن أرى شيئاً من الدنيا، أركب سفينة، أن أتعلم لغات أخرى. والرسل بدوا لي مثيرين جداً. طبعاً لم يسمح لي أبي بالسفر. فقررت أن أهرب معهم خفية. لم أفكر بالأخطار، ولا بالهموم التي سأسببها لأبي وأمي، إن تركتهما. لقد مضى وقت طويل على ذلك». وضحكت ثم تابعت: «دبرت لنفسي ثياب

شاب واختلطت مع الشباب المسافرين إلى ملك أرزاوا. لحسن الحظ. يجب أن أعترف اليوم.. أتي قد كُشفت عند ركوبي السفينة. لكن والديّ كانا قد توّصلا إلى قنّاعة أن من الأفضل تركي لأسافر. فغيّرت ثيابي ثانية وارتديت ثياباً نسائية كعضو معتزّ بنفسه ضمن وفد البعثة، إذ لم يعد هناك مجال لشك ملك حتّوشا في مصداقية أخيه ملك الأخيين. أمضينا أسابيع على الطريق، بحراً وبراً، إلى أن وصلنا إلى قصر حتّوشا. ندمت أكثر من مرة على جرأتي الجنونية، ولكن لم يعد هناك مجال للرجوع، فقد كان أبي قد حسم الأمر... ها أنت ترى، تانوا، إنك لست الوحيد الذي رفض الرضوخ لمصيره المقدّر عليه. ترددت قليلاً ثم أردفت: «ومصيرك أنت ليس مقدّراً مسبقاً، بل هو مفروض عليك. سيأتي يوم تعود فيه الأمور إلى نصابها، وسترى». وصممت عند هذه الإشارات. ثم قالت مواسية تانوا: «قد نتابع حديثنا في مرة قادمة».

ماذا قصدت بأقوالها؟ لم يتمكن تانوا من الوصول إلى أي مغزى، لكن الجلي هو أنها تعرف عنه شيئاً ما. أيها الأرباب، هلا جعلتموها تبوح!

وحكت له في مرة أخرى عن وصولهم إلى حتّوشا واستقبالهم في قصر الملك تودهااليا وقرينته تادوهيبا، الملكة الأم حالياً، التي أخذتها تحت جناحها وبقيت محيبةً لها دائماً. وحدثه عن إعجاب شباب القصر بها، ثم عن خطبة الملك الحالي لها. وأنهما انتظرا طويلاً حتى وصول موافقة أبيها. كانت الصلات بين أرزاوا وحتّوشا دائماً غير مستقرة، تبعاً لصاحب الكلمة في أرزاوا، فخشياً عدم وصول الرسول إلى مملكة آخايا وإلى مدينة ميسينا الواقعة على الطرف الآخر من بحر الغرب، وبقياً كذلك حتى عودته أخيراً بجواب الخلاص. لكنه حمل معه أيضاً كثيراً من الهدايا النفيسة، وأخرى شخصية لهنتي من والديها وإخوتها وأقاربها وصديقاتها. عندما عادت هنتي بذاكرتها إلى تلك الأيام بات صوتها حنوناً. من ستقابل من هؤلاء حياً، إن وصلت إلى وطنها بسلام؟

«سيدتي، أسمحين لي بسؤال؟ هل هنتي اسم آخائي؟».

انفجرت الملكة في ضحكة مدوية، فشد تانوا عنان جواده مرتبكاً. هل قال ما يُضحك؟ «أنت بالفعل أول إنسان في حتّوشا يسألني عن ذلك. هل ستحفظ السر؟ طبعاً ستحفظه يا عزيزي. اسمع إذًا: شويلوليوما ورفاقه كانوا ينادونني دائماً بلقب ما. سألت الملكة عن معناه، فقالت لي: (إوزة صغيرة). أنفهم؟ كانوا يلقبونني إوزة صغيرة. لم أكن حينذاك قد أتقنت الحثية، لكنني قلبتُ الكلمة لفظياً، وإذا بها تعني إوزة بالأخية، لغتي. وللتسهيل

لفظوا هتتي بدلاً من خنتي، فبات اسمي الذي رافقني. إذًا، ملكة حثرشا السابقة كانت تدعى (إوزة). أليس هذا مضحكاً جداً؟». وضحكت مجدداً، دون حنق أو مرارة.

«سيدتي، أسمحين بأن أعرف اسمك في لغتك؟».

«أزيمينه»، قالت ببطء وكان وقعه موسيقياً.

«وماذا عنك؟ أنا لم أرك مع فتاة قط. أما حان وقت زواجك بعد؟ وضعك جيد، ولم تعد شاباً صغيراً»، قالت مداعبة «تشغل منصباً رفيعاً وستترفع أكثر فأكثر، أنا متأكدة!».

وكمّن فتح باب حجرة سرية، حكى أ. نوا دفعة واحدة، دون توقف، وبطريقة لم يعهد لها في نفسه، كل شيء عن كيا.

«تمنيت لو كان عندي ابنة كهذه» قالت الملكة، ثم أضافت بصوت خافت: «لكن الأرباب لم يمتوا علينا بابنة. المهم دائماً بالنسبة إلينا نحن النساء، أن نلد ذكوراً – لو كان عندي ابنة واحدة فقط، لكان كل شيء قد اختلف!».

«ألم يكن ممكناً يا سيدتي، أن تبقي عنده ببساطة؟».

«زوجة ثانوية، في المرتبة الثانية وراء صبيّة فتية قد تكون إوزة حقاً؟ لا، سيكون الأمر للثلاثة وللقصير كله فظيلاً وغير لائق. إذا كانت مالنيغال طموحةً فإنها لن تقبل طويلاً بأن يبحث الملك عن المشورة عندي أنا، بغض النظر طبعاً عن عواطفنا المتبادلة. وعندما تكون زوجة رئيسية، فعليها أن تملأ مكانها. ربما كانت تنقصني الشجاعة للموت، ربما كان ذلك هو الحلّ الأمثل والأكثر راحة! لا تقطّب وجهك هكذا! ألا ترى أنني متعلقة بالحياة!».

و غابت نظراتها في الأفق البعيد، ثم أضافت: «قراري، برأيي، يتعلق في المقام الأول بالإجلال والاحترام. احتراماً لنفسي وللملك، وبالعكس. صدّقني، ما كنت لأظن أبداً أن الاحترام قد يحتل ذات يوم مرتبةً أعلى من حب شخصين واحدهما الآخر. ولكن كم كان هذا الحب سيموت غمّاً و غضباً، فلا يبقى سوى الاحتقار! لا. نحن حفظنا حبنا بهذه الطريقة، أنقذناه، والتمن هو ألا يستيقظ أحدنا إلى جانب الآخر!».

غطّت وجهها، فترك تانوا جواده يتراجع قليلاً.

هذه الأحاديث، والاستراحات المسترخية بفعل ظهورات مورسيلي المرحلة المبهجة، جعلت الرحلة حتى في هذه الأرض القفر تبدو قصيرة. وعلى الرغم من وعورة الدرب

أحياناً، تقدمت القافلة على نحو جيد. لم يكن الوقت قد اقترب بعد من قيظ الصيف الحارق، بل ما زال الطقس مقبولاً، ولكن مع هبوب رياح أحياناً. كانوا مزودين بما يكفي من الماء طوال الطريق. وقریباً سيصلون إلى بحيراتٍ وِداَسًا، حيث تنتهي منطقة نفوذ هنتوي. لم يكن هناك خط حدود ثابت، فكان لا بدّ من التوجه وفقاً لمواقع البحيرات والجبال. وإلى المدينة الحدودية لالاند في الشمال لم يتبقّ سوى بضعة أيام سفر، وهي أكبر مكان مأهول في المنطقة طويلاً وعرضاً. لكنهم لم يريدوا التوجه إليها، بل غرباً، حيث يمتد أمامهم الجزء الأشدّ وعورة من الطريق. كانوا يجهلون المنطقة، وقد انتهت الهضبة السهلية وتحولت إلى منطقة جبلية. لم يعرفوا ما إذا كانوا مراقبين، ومن الذي يراقبهم. لم يكن في المنطقة أيّ تجمعات سكنية، سوى بعض الأكوخ الفقيرة. كان مقصدهم التالي هو قصر كُواليا، الذي يجب أن يقع على خط مستقيم باتجاه الغرب. هناك سيلقون استقبالاً حسناً ويحصلون على دليل يقودهم إلى وادي نهر ميرا. ومن هناك يُفترض ألا يواجهوا صعوبات.

قرر تانوا وميتا ومورسيلي تعويض دليلهم بصورة سخية وصرفه ليعود إلى عشيرته. وما داموا يسرون في منطقة بحيرات، كان هناك تنوع في طعامهم، فلم يصطادوا أسماكاً لذيدة فحسب، بل بطاً برياً أيضاً من بين أجسام القصب. وكان الطباخ يضيف نبات الجرجير ونعنع الماء والبصل. لما تبقى من الطريق، لم يكن أمامهم سوى التوجه بالشمس والسير في خط مستقيم ما أمكن ذلك. ساروا بمحاذاة السفوح الغربية لسلسلة الجبال، متجنبين الشعاب والغابات التي استفادوا منها للصيد. الحطب كان وفيراً وكذلك ينابيع المياه. وعلى الرغم من ذلك وجدوا المنطقة موحشة لخلوّها من البشر. وحسب تقدير تانوا يُفترض أنهم قد دخلوا منطقة كُواليا، فقد قطعوا خمسة أيام سفر منذ البحيرات الغربية. وكان يتوقع أن يرى القصر بعد أي منعطف. هل تجاوزوه كثيراً؟ لقد مروا حتى الآن بعدة أنهار صغيرة، ويُفترض بهم أن يكونوا على مقربة من النهر الكبير سيانتي فيسترشدون بمجره. وكلما ارتفعت الشمس، ازداد توتر تانوا. لم يصادفوا حولهم أي إنسان يمكن أن يسألوه.

اقترب وقت الظهيرة، وبات التوتر محسوساً في القافلة، وعندئذ نبّه ميتا تانوا إلى عمود دخان يتصاعد أمامهم. كان هذا أمراً غير عادي. فما معناه؟ أمر تانوا بالتوقف. فعلى الرغم من تطلعه لرؤية أي إنسان، أقلقته إشارة الدخان هذه. قرر استطلاع الوضع مع ميتا.

اقتربا بحذر، وعندما التفا حول نتوء صخري، انحدرت الأرض أمامهم فجأة. ولو كان الوقت دغشةً، لسقطوا في الهاوية. أدركا سريعاً أنهما فوق مكسر حجارة، وعلى مسافة قريبة تجتمع بعض العمال حول نار، يأكلون ويشربون. ضحكا بارتياح ثم هتفا ولوّحا بأيديهما، لينبها العمال إليهما. انتفض الرجال واقفين. حياتهم ميتا باللغة اللوفية، فردوا التحية ولوّحوا بأيديهم أيضاً.

«قل لهم إننا سنحضر الآخرين»، والتفت تانوا مغادراً. نزلت القافلة على منحدر يؤدي إلى أرض مكسر الحجارة. وكان نوع الحجر أبيض وأملس بشكل يلفت جماله النظر. لم يلاحظوا حجارة مقتلعة حديثاً، لأنهم لم يتبهوا لذلك. وأخيراً وصلوا إلى حيث الرجال. كانوا ثمانية شباب أقوياء حول النار، يشوون، حسب الرائحة، نعجة. دعوا أفراد القافلة لمشاركتهم الطعام، ناظرين إلى النساء على استحياء في البداية، ثم بسرعة تلاشى الحياء. بعد تبادل الخبز والملح، تبادل ميتا الحديث مع الرجال حول النار. أخبرهم أنهم تجار ضلّوا الطريق قليلاً: «أردنا الوصول إلى لالاندا، لكننا الآن سنزور سيد كواليا، فهو يهتم بالبضائع الجيدة». فوكزه تانوا في خاصرته خفية. عندئذ انتبه ميتا إلى أنه ليس من الذكاء الحديث عن بضائع ثمينة أمام هؤلاء البؤساء الفقراء. فشمّل المجموعة بنظرة مدققة. هل خدعته عيناه أم أنه قد رأهم يختلسون نظرات ذات معنى؟

«كواليا لم تعد بعيدة»، قال أحد الرجال الملتحين. واستدار بجسمه يساراً مشيراً إلى الجهة وقائلاً: «عليكم السير على هذا الدرب. وحالما تخرجون من الغابة سترون القصر». بعينين برّاقتين سأل شاب ثانٍ: «وما البضاعة التي تحملونها؟».

تابع تانوا الحوار بيقظة. وثمة ما أثار ارتياحه. صحيح أن الشباب بدوا أقوياء كالديبة، ولكن ليس كعمال مكسر حجارة. ثم إنه أثناء تلقّته بحذر في أرجاء المكان، لم يرَ دوابّ تحميل ولا خيمة حماية ولا حجارة مكسرة، لا شيء من لوازم مكسر. الوضع هنا ليس طبيعياً. اقترب أحد الشبان من صغرى وصيفتي هتتي وأحاطها بذراعه. عندئذ طفح الكيل. وجّه تانوا وأمر سريعة بالحتيّة. اسرع إلى جواده وركبه بخفة ثم انحنى ورفع إليه هتتي، ثم استدار بالجواد وانطلق. حدث كل ذلك بسرعة كبيرة أذهلت الشباب الذين بقوا واقفين في أماكنهم، مبجلين بمن طار من بينهم.

لاحظ تانوا بسرعة أن ليس هناك من يلاحقهما، فكبح جواده عند وصوله إلى أرض منبسطة، والتفت إلى الوراء. لم ير أحداً، فقرر أن يتابع الطريق بالاتجاه نفسه. بعد تراجع

القلق انتبه إلى أنه يحيط بين ذراعيه بملكة حثوفا مشدودة إلى صدره. وكان خده الأيمن مائلاً على رأسها، وأنفه ينهل من عقب شعرها الذي انسدل بكثافة من تحت غطاء رأسها المنحل. وكأنهما مع الجواد وحدة متكاملة. كانت الملكة جالسة على جواده باسترخاء أنيق، مستندة إلى صدر تانوا بشعور كامل بالثقة. أيمنه أن يركب مع كيا هكذا! أيمنه تصور سعادة أعظم من هذه؟

كانا كلاهما غارقين في أفكارهما، صامتين. ومع ذلك لم يفقد تانوا يقظته لحظة واحدة. فكان أول من اكتشف القصر في الأفق. كانا قد اقتربا من بعض الأكواخ المحاطة بأراض مزروعة. فترجل وساعد هتتي في الترجل.

«أنت شاب أصيل، تانوا»، قالت هتتي بحرارة وأردفت: «كنت حقاً على وشك أن تفديني بحياتك. أنا شاكرة لك ذلك. منبتك الأصيل وخلقك النبيل يظهران في أفعالك!». ثم تابعت ببلهجة تساؤل: «ألا يمكننا انتظار الآخرين هنا؟ لم يبذل لي الرجال على هذه الدرجة من الخطورة. لا أشك في أن ميتا ومورسيلي والآخرين قد انتهوا منهم». «حذري زاد عن الحد، فاعذريني يا سيدتي!».

«لا داعي للاعتذار. شدة الحذر أفضل من مغامرة خرقاء. إنني أقدر تدبيرك للأمور وحصافتك. ثم إن الركوب معك يسلي!». وظهرت على وجهها ابتسامة مآكرة. «لقد أفرحتني حقاً. بودي أن أتابع السفر بهذه الطريقة، بدل الجلوس طوال الوقت في العربة. لكن هذا للأسف لا يليق. أمل أن تكثر الأماكن المنعزلة على الطريق!».

انتظرا في ظل شجرة وهما يراقبان الدرب. وبعد مدة ليست طويلة رأيا غباراً يتصاعد. كان ميتا ومورسيلي وبقية رجال المرافقة قد استلوا أسلحتهم المستورة وسيطروا بسرعة على شباب المكسر، الذين دافعوا عن أنفسهم بشجاعة حسب قدراتهم، لكن فرصة نجاتهم كانت معدومة. لم يكن بحوزتهم من السلاح سوى الخناجر. لكنهم لم يكونوا سليمي النوايا تماماً. حدس تانوا لم يخنه.

«كل الأمور تمام!». قال مورسيلي عندما وصلت المجموعة إلى الملكة وتانوا، وأضاف: «ليتكما رأيتما الأسد ميتا وهو يسطح العمالقة الواحد تلو الآخر. كان كلما رفع قبضته كالهراوة يهوي أحدهم أرضاً وهو يثن. وقفنا وراءه نعد له كم بقي ليقضي عليهم ونحن نصفق له. لهذا البطل كان الأمر كلعبة أولاد!».

ضحك الجميع، وضحك معهم ميتا، السريع الغضب عادة، لكثرة ما كان زملاؤه

يمازحونه. أما اليوم فقد كان واثقاً مما أنجز. وكان الجميع سعيداً بمرور المغامرة من دون أضرار.

«لا نريد التوقف هنا. فلنحاول الوصول إلى القصر بأسرع ما يمكن!».

بعد أن وصلوا إلى كواليا سالمين واستراحوا ثم جلسوا معاً، أخبرهم ميتا أن جماعة المكسر كانوا عصابة من البؤساء، جمعتهم الحاجة والشدة: أقتان هاربون، فلاحون مفلسون، فتيان لا يريدون أن يمضوا حياتهم رعاة في هذه المنطقة. والأرجح أنهم لم يخططوا لعمل سعي تجاه القافلة، فقد فوجئوا بوجودها واندھشوا. وهم يعرفون المنطقة شبراً شبراً. لذلك عقد معهم ميتا صفقة: إذا أرشدوهم إلى طريق كواليا، فسيتركهم الحتيون وشأنهم مع التكتّم على اللقاء بهم. فوضعوا القافلة التجارية المزعومة على الطريق إلى قصر كواليا، ثم ولّوا الأدبار واختفوا في الغابة بأسرع ما يمكن.

«أرجو أن يكون قرارنا صائباً، تانوا»، قال ميتا.

«أظن أنني كنت سأتركهم أيضاً يذهبون، هؤلاء التعساء. لكنني أمل ألا يوجد بينهم من يتميز بالذكاء. فأسلحتكم كشفت أننا لسنا تجاراً عاديين، وهذا قد يغويهم بالمطالبة بفدية. يجب أن نحترس جيداً. الأشقياء يعرفون أن كواليا ليست مقصدنا النهائي. فيحتمل أن يتسلّلوا ويتربصوا بنا».

«أنت تبالغ، تانوا. مؤكد أننا سنحصل على مرافقة إضافية عندما نغادر كواليا. ثم إننا سنتجه جنوباً وليس شمالاً».

«نعم، معك حق. ولكن تصور العبء الذي أحمله على كاهلي. الملكة لا تستحق مشاكل إضافية».

في القصر الذي عاش أمجاداً سابقة، استقبلوا على الرحب والسعة. كان أمراً يسترعي الدهشة، أن يزور حتيون كواليا، بين حين وآخر، أما أن تزورهم أميرة آخية شخصياً، فهذا نادر جداً. كان الأمير زبالي بالغ التهذيب، بحيث أنه لم يطرح أية أسئلة محرجة، رغم استغرابه الأكيد لتوجه رحلة الأميرة من الشرق إلى الغرب وليس بالعكس. غير أن تانوا أراحه بأن أسرّ له، إن ضيفته الرفيعة بعد ترقّلها مؤخراً رغبت بالعودة من كيزواتنا العليا إلى وطنها، مع تجنّب ركوب البحر طويلاً. بدأ زبالي مقتنعاً بهذا الجواب. وقد قام مع زوجاته وحاشيته على ضيافة السيدات والضباط الثلاثة بأفضل صورة. أما بقية مسافري القافلة فقد هيا لهم مطبخ القصر ما لذّ وطاب.

بعد أن اعتادت آذان تانوا وميتا على اللهجة اللوفية الخاصة بمنطقة كواليا بات التفاهم سهلاً. أما هنتي ووصيفتها فكنّ يتقن اللوفية بطبيعة الحال، لكنهن حافظن على عزلتهن، كي لا يلفتن الانتباه إليهن، فالأمير سيعرف قريباً شخصية من كانت في ضيافته.

طرح تانوا أسئلة كثيرة تتعلق بأحداث السنوات الأخيرة، وعن العلاقات بين كواليا وأرزاوا، وعن موقف كواليا من حتوشا، وعن يحكم المنطقة فعلياً الآن، تلك التي عبروها منذ البحيرات الغربية في بيداسا، وعن أمور أخرى كثيرة. فهذه كلها معلومات مفيدة للمستقبل. فتيّن أن كواليا إمارة تابعة لأرزاوا، وتعد نفسها منضوية تحت سيادة ملكها. كانت مستقلة فيما سبق وبمساحة أكبر بكثير من الحالية، وقصرها الواسع الباهر الذي بني في الأيام الغابرة، على إحدى الهضبتين المأهولتين بالسكان، تعرّض للخراب مرات متعددة. والأمير يشغل حالياً قسماً فقط من بناء القصر الرئيسي، وقد جهّزه بمفروشات جديدة رائعة وبكثير من السجاد النفيس الذي غطى الجدران وأماكن الجلوس، إضافة إلى خزف جميل، بعضه من آخايا، حسبما لاحظت هنتي فوراً. وفي أثناء المأدبة الفاخرة استخدموا أدوات طعام معدنية ثمينة.

التمس الضيوف تقديم شكرهم للأرباب، فلبى زبالي رجاءهم بكل سرور وقادهم إلى بناء مستطيل الشكل مبنيّ من الخشب والقرميد، هو معبدهم الذي يضم تمثالاً لرب وآخر لربة. جمعت أعطيات الضيوف على مذبحين لم ير أحد من المسافرين مثيلاً لهما سابقاً. من نهاية كل مذبح ينبثق قرنان كبيران يرتفعان ليلتقيا مثل مظلة صغيرة فوق حوض المذبح. حصل أفراد القافلة على غرف ممتازة للإقامة واستمتعوا بعد عناء الرحلة الطويلة بضيافة باذخة شاملة.

«في الماضي كانت كواليا تقع على طرق التجارة الرئيسية عبر البلاد. هنا كانت تلتقي الطرق من الشمال إلى الجنوب، وكنا صلة وصل بين الشرق والغرب، عبر وديان الأنهار المتعددة التي تصب كلها في نهاية المطاف في بحر الغرب»، قال الأمير وتابع: «اليوم نشعر وكأننا نعيش في آخر الدنيا. ونادراً ما نحظى بزيارة مثل زيارتكم، لذلك اعذروا أسئلتنا الفضولية، فنحن نلهث وراء ما هو جديد، وهذا طبيعي. ومن ناحية أخرى كنا سعيدين لتوجه جيش أرزاوا في حملاته العسكرية نحو الشرق، فرحمنا بذلك. أجبرنا على تقديم مقاتلين وعربات قتالية له، لكن الجيش لم يغزنا مثل الجراد فيأكل الأخضر واليابس. للعزلة ميزاتها أيضاً». وابتسم زبالي راضياً.

بقلب حزين ودّع الأمير زبالي ضيوفه. زوّدهم بمجموعة مرافقة وأرسل ساعياً سريعاً

إلى ميلاوأندا ليعلم حاكمها أيتها بقدوم الأميرة، ولم يكن في وسعه أن يفعل أكثر من ذلك. حفاظاً على أمان القافلة أمر تانوا بالإبقاء على ملابس التنكر كتجار. فقد أراد تجنب أي احتكاك مع الأرزوايين، لا سيّما أن أطول جزء من طريق الرحلة سيكون في منطقتهم. وكانت أرزاوا مرتبطة باتفاقية صداقة مع آخايا، ما يعني أن أميرة آخية باسم أريمينه ستلاقي ترحيباً مؤكداً، أما الالتقاء بجنود حثيين؟

بفضل التنكر ومجموعة المرافقة سارت أمور القافلة لما تبقى من الرحلة على ما يرام. تحركت القافلة باتجاه الجنوب الغربي حتى نهر ميلا، حيث وجدت أمامها جنة، يجري النهر فيها بشكل متلوّ عبر وادٍ عريض، توجد فيه حقول وبساتين زيتون وفاكهة وكروم موزعة هنا وهناك. كان الدرب يسير بالتبادل موازياً لضفتي النهر، قريباً دائماً من سفوح المنحدرات؛ ففي الربيع بعد ذوبان الثلوج ترتفع مياه ميلا فتجاوز السرير وتفيض على المروج. وكان الانتقال من قرية إلى أخرى يستغرق غالباً أقل من نهار سفر، إذ باتت حركة مسافري القافلة أسرع الآن، في العربات وعلى ظهور الدواب.

قبل الوصول إلى البحر أمضوا ليلة في مكان فردوسي، يمتد على سفوح شق جبلي عميق، تندفع المياه من أعلاه هائجة، لتصب نحو القعر في شلالات كثيفة. وقف تانوا على مسافة من الملكة، يغمره شعور بالحنين والأسى، وهو يراقب استغراقها، في تأمل هذا المشهد الطبيعي دون ارتواء، وهي تهلّل بفرح ماسحة الرذاذ عن وجهها بين الحين والآخر. وواسى نفسه بأنه غالباً سيكون الوحيد من الجميع الذي قد نتاح له فرصة لقائها ثانية. فما إن تصبغ العلاقات ودية مع أرزاوا، وعبرها بالتالي مع آخايا أيضاً، فسيكون هو الشخص المناسب للسفارة في هذه المنطقة، بحكم معرفته باللغتين اللوئية والآخية.

شعر تانوا بالأسى لنفسه، فمراقبته الملكة جعلت أفكاره لا إرادياً تسرح إلى كيا. رغم فارق العمر، بما يعادل جيلاً، بين المرأتين، وجد تانوا كثيراً من نقاط التقارب في جوهرهما. لقد احتفظت كلتاها بفرح عفوي غير متكلف. وحتى في المواقف الصعبة بدتا له كلتاها بسيطتين بلا تعقيد. كانتا شديدتي الملاحظة، لديهما تصوراتهما عن تشكيل حياتهما، كلتاها تتمتعان بعزّة نفس عالية، وهما جديرتان جداً بالاحترام. فحمد الأرباب على كل يوم أمضاه بصحبة هذه المرأة. عندما التفتت رأت النظرة الجادة في عينيه، فتوجهت إليه، عانقته بصمت، أغمضت عينيهما وطبعت قبلة خاطفة على جبينه، ثم قالت: «لن ننسى هذه اللحظة أبداً!». واستدارت لتمشي.

بعد بضعة أيام سفر بدأ النهر يتشعب إلى عدة فروع. أخذ الهواء يتشعب برائحة الملح. كما أخذت تنتاهى إليهم صيحات طيور البحر، وخاصة النوارس. ويات لا بد من حسم أمرهم الآن، فإما الانتقال إلى ضفة النهر الجنوبية والالتفاف من ثم حول الخليج كله للوصول إلى ميلواندا، التي تقع على رأس لسان صخري، وإما ركوب القوارب إليها. قررت الملكة ترقب القوارب المناسبة لإيصالهم على طول جسم النهر الرئيسي حتى مصبه الفعلي، ومن هناك يمكنهم الانتقال إلى ميلواندا. وطوال هذه المدة لا بد من إيداع دواب الحمل في خانٍ ما.

غَبَّت هنتي الهواء بعمق وقالت: «أليس رائعاً أن نصل إلى البحر أخيراً. لم أدر أنني مشتاقة إليه إلى هذا الحد.. حركة الموج وصوتها، وتبدل فروق اللون من الأزرق إلى الأخضر إلى الرمادي بدرجات لا تحصى».

نقلت القوارب الركاب وحمولتهم عبر المياه، تحت أشعة شمس بديعة. جلسوا في حماية الأشعة المشدودة مستمتعين بتغيير وسيلة النقل. أشرعت القوارب باتجاه اللسان البري، من حيث يرى المسافرون الطرف الآخر للخليج. هناك يتصب جبل شاهق يمتد من البر الداخلي حتى البحر، وتليه مباشرة جزيرة مهيبية، أقيم عليها معبد شهير مكرس للأم العظمى. ثم جذف البحارة بموازاة الشاطئ الغربي لشبه جزيرة ميلواندا نحو الجنوب وألقوا المراسي في الميناء قبيل الظهور. لا بد أن خبر وصولهم قد بلغ القصر بسرعة النار في الهشيم، فما كادوا ينتهون من إنزال حمولتهم حتى جاء الحاكم أبتا مع بعض الوجهاء وكاهنة لاستقبال الأميرة أزيمنه وحاشيتها بما يليق بها، ورافقوها إلى القصر. أمضوا المساء على شرفة واسعة، تابعوا منها مشهد غروب الشمس البديع، معوضين عناء الرحلة بمأدبة شهية مكونة من سمك طازج مشوي، وحبّار مقلي بزيت الزيتون، وزيتون وجبنة معاز طازجة ومعجنات بالعلسل. لقد قطعوا أهم مرحلة من رحلتهم سالمين.

استيقظ تانوا في منتصف الليل. كان يقسم غرفة في الطابق العلوي من القصر مع صديقيه ميتا ومورسيللي، اللذين كانا غارقين في النوم. ما الذي أيقظه فجأة؟ حلم. لقد حلم بقطنا - غالباً ما كان يحلم بها. غير أن من زاره هذه المرة لم تكن كيا. وفجأة خطر في باله الاسم: دونيو. لا بد أن الأمر كان يعتمل في نفسه منذ مدة طويلة، منذ أن ذكر الملك أمامه هذا المكان: ميلواندا. كان تانوا قد صحا تماماً الآن. حاول جاهداً أن يتذكر ما أخبره به دونيو آنذاك عن عائلته. نهض تانوا وارتدى عباة، وانسل من الغرفة بهدوء. نزل

الدرج باحثاً عن مخرج إلى الشرفة. كانت آلاف النجوم تتلألأ فوقه، وأصوات جنادب الليل تصل إلى أذنيه، والهواء مشبع بروائح البحر والأعشاب المألوفة: زعتر بري وحصى البان والمرمية. جلس على الدرج وركز أفكاره.

أول ما خطر في باله هو أن دونيو من مدينة ميسينا مثل هتتي، وأنه اضطر إلى الهروب مع عائلته، زوجته وأربعة أو خمسة أطفال، لماذا؟ هذا ما لم يفهمه آنذاك. ركبوا سفينة إلى ميلواندا، ولكن قبل وصولهم بقليل هاجمهم قراصنة وفصلوا العائلة عن بعضها، أو أنه قد فقد عائلته. باعه القراصنة. وماذا عن بقية العائلة؟ لا بد من أن يسأل الملكة. في واقع الأمر، يُفترض من حيث عمرها أن تعرف دونيو، إذ كان خزاناً شهيراً منذ ذلك الحين، بل لا بد من أن تعرفه. تاق نافد الصبر إلى قدوم الصباح. وأخيراً مع تباشير الفجر، نزل باتجاه الميناء حيث كانت الحركة على قدم وساق. استفسر عما إذا كانت هناك سفينة ستقلع نحو ميسينا أو أي مكان على الجانب الآخر من البحر، وراء الجزر، وعلم أن سفينة قادمة من هناك يتوقع أن تصل اليوم. فهدأ قليلاً، إنها مهلة لا بأس بها.

أخذ يتجول عبر المنطقة الآخذة في الاستيقاظ، على السفوح أعلى الميناء. كانت دور الأثرياء والوجهاء تحتل أفضل المواقع بأجمل إطلالات. ما كان يراه المرء من تحت، هي الأروقة المفتوحة نحو الجنوب أو الجنوب الغربي أو الغرب. وكل رواق يبدأ بعمودين بديعين على طرفيه، أو بدعامتين في بعض الحالات. وأحياناً كانت تظهر فسحة جانبية موصولة أيضاً برواق معمد. وكانت هناك بين الدور مساحات كافية لحدائق. هنا تحلو الحياة. لم يلاحظ تانوا وجود معابد، وعرف لاحقاً من أبتا أنهم يستخدمون لعبادة الأرباب غالباً دوراً صغيرة أو زوايا تشبه المحارب، تزين جدرانها لوحات ملونة، ويوجد فيها مقاعد ومذابح من أجل وضع الأضاحي. كما يحصل الأرباب طبعاً على قرابين من المأكولات والمشروبات والبخور. وعندما فكر بأبنية معابد حتوشا الهائلة، ساورته شكوك في ما إذا كانت آخايا ستصير ذات يوم مملكة عظيمة.

عندما أشرقت الشمس عاد إلى القصر، ليجد الملكة ووصيفتيها ومورسيلي وميتا يتناولون الفطور، فيما بدأ أبتا على ما يبدو بشؤون عمله. انتهز تانوا الفرصة وحكى لهم حكاية دونيو، فنان الخزف الميسيني، وعن هروبه ومواجهة القراصنة. وصف لهم شكله الخارجي وطبيعته وطريقته في الكلام، كما وصف أعماله. أنصتت هتتي وأخذت تستعيد ذكرياتها. ثم قالت متفكرة: «لا أظن أنني قابلته. لكنني أعرف شغله جيداً جداً. آخر ما وصلني من شغله كان من قطننا، أم تراني مخطئة؟».

أوماً تانوا برأسه موافقاً. أن تتذكر هذا الأمر!

«أنت تريد أن تستقصي ما إذا كانت زوجته تعيش هنا، أليس كذلك؟ ما اسمها؟»
«لا أعرف».

«إذاً ليس لدينا سوى اسمه. سأرجو أبتاً أن يساعدنا. يحتمل أن نعثر عليها. ولكن لا تبين آمالاً كبيرة، فقد حدث الأمر قبل سنوات طويلة».
«أشكرك يا سيدتي!». لم يكن متوقفاً قط، من امرأة في مكانة هنتي، أن تهتم بشؤون جرفي.

«بالمناسبة، كنت اليوم في الميناء. إنهم يتوقعون في أي يوم وصول السفينة القادمة من ميسينا. الريان بحار يُعتمد عليه والسفينة نفسها في وضع جيد».
مزاج الملكة الودود تلاشى فوراً. هزت رأسها شاكرة تانوا، وتركت المجموعة. عَض تانوا شفته. إن هنتي تواجه قدرها بسلوك يجعله ينسى أحياناً ما تعنيه هذه الرحلة لها.

مساءً، على الشرفة، التقوا جميعهم ثانية.

«اسمها إريتا، وهي تعمل مدبرة منزل في مكان قريب من هنا»، قالت هنتي ذلك، ثم انتسمت بمكر عندما رأت تعبير وجه تانوا، وأضافت: «نعم، نعم، هذا صحيح. وابتنان من بناتها ما زالتا عندها. إنها زوجة دونيو، لا لبس في ذلك». فhez أبتاً برأسه مؤكداً. وتابعت هنتي: «وبعد ذلك، كيف ستسير الأمور؟ هل ستوسط لدى الملك أكيزي في قطنا كي يعفيه من الخدمة عنده؟ لا شك في أن هذا سيكون ضربة ثقيلة بالنسبة إليه. لأنه فجأة سيضطر إلى دفع ثمن باهظ لشراء صحونه وأوانيهِ الفاخرة!». فضحك الجميع.

«لديّ خبر آخر، يتعلّق بكم جميعاً»، أضافت هنتي مركزة نظرها على تانوا ومورسيلبي وميتا: «لم تعد هناك حاجة لمرافقتي من بعد. بإمكانكم بأسرع ما يمكن العودة إلى وطنكم. هم بحاجة إليكم هناك. لا. احتجاجكم لا معنى له. أبتاً سيهتم بسفري بحراً إلى ميسينا بأفضل ما يمكنه. وأنتم أيضاً، يا عزيزتي»، والتفتت إلى وصيفتها «عليكما التفكير بروية، في ما إذا كنتم تفضلان العودة إلى الوطن أيضاً. ما زالت هناك فرصة لتقررنا».

فوراً هزت كل منهما رأسها نفيّاً، ما أثار في هنتي بعمق. «حسناً، إذا كان هذا قراركم، الذي لا رجوع عنه، فأنا شاكرة لكما هذا الموقف. ولا بدّ إذاً من أن نفترق عن الآخرين. أظن أن بإمكانكم الانطلاق بعد غد. لقد رتب أبتاً أمور الرحلة بالسفينة».

«فلنغتنم بسرعة إذاً فرصة التمتع بميزات مدينة بحرية، كي نستطيع أن نتباهى كما يجب في الوطن!». قال مورسيللي بمرح، وأضاف بسرعة رداً على نظرات تانوا المؤنبة: «أعرف، أعرف، لن تنسل كلمة واحدة من بين شفتي الحارتين، ومع ذلك بإمكاننا أن نتسلى قليلاً».

قبل الوداع بقليل، انفردت هنتي بتانوا وأعلنت له: «أنا سأبقى هنا!».

«هنا في ميللاواندا، في القصر؟».

«في ميللاواندا، ولكن في دار خاصة بي!».

«ألا تريدان العودة إلى أسرتك؟».

«لا»، قالت هنتي، بصورة مؤكدة وقطعية «سأدبر كل الأمور، بحيث لا يعرف أحد من أنا، ومن كنت. حتى زبالي وأبنا بلعا قصتنا بكل سهولة، عن المسكينة المترملة حديثاً التي فضّلت الطريق البري من كيزواتنا، خشية رحلات طويلة في البحر. هنا لا يعرفني أحد، ولن يخطر ببال أحد أن يربط بين أريمنه وهنتي. ولن أسودّ أبداً وجه مليكي!».

كادت دموعها تنهمر وهي تعترف لتانوا بأنها غير قادرة على مفارقة الأرض التي تربطها، بطريقة ما، بشويلوليوما والأبناء والأسرة كلها والأصدقاء والخدم، وبكل عزيز وغال بالنسبة إليها، ثم قالت: «هنا أضع رأسي على الأرض وأنصت إلى الريح التي تهب من الشرق حاملة إلي رسائل عن أحوال الجميع. ما رأيك؟ هل ستنجح الخطة؟».

عفوياً أمسك تانوا بيديها وهزّ برأسه.

«تانوا، هل سنجد طريقة ما، لتصلني أحياناً أخبار العائلة والمملكة؟ هل ستفعل ذلك من أجلي؟».

ركع تانوا عند قدمي الملكة ليعدها باستعداده غير المشروط لتلبية رجائها.

«يجب أن تكون حذراً، لا يجوز أن تكتب ما يمكن تفسيره كخيانة، يجب أن يكون عادياً جداً ولن يعرف أحد سواي ما تخبرني به».

هذا الكلام كان يمكن أن يصدر من كيا أيضاً، فكر تانوا. يا لهما من امرأتين أريبتين! ثم اتفقا معاً على تثبيت أهم المعاني: الملك هو الوعل العجوز، ومدينة حتّوشا هي مكان الاستراحة، وبسرعة كبيرة ابتكرا الكثير إلى درجة أن كادت الترميزات تتلخبط في رأس تانوا. ضحكا كثيراً أثناء ذلك، فبعض التعابير كانت حقاً فكّية.

«هل ستمكن من حفظ هذا كله؟».

«طبعاً كما يمكنني أن أحزر الكثير، كما تعرف. على كل حال يجب أن تكون الرسائل قصيرة. ما إذا عدت إلى الوطن بالسلام، مثلاً. ما إذا كان الجميع قد عادوا من الحملة بخير. ما إذا كانت هناك ولادات جديدة.»

«الأفضل هو توجيه الرسائل إلى أبتا. ستضطرين إلى إطلاعه على أنك تتوقعين رسائل سرية من عائلتك السابقة في كيزواتنا. وأسري له بأنك اضطررت إلى الهرب لأن شقيق زوجك المتوفى أرادك زوجة له، لكنك تمقتينه. والرسائل هي الطريقة الوحيدة للبقاء على اتصال بأبنائك.»

«ما هذا الخيال التأمري!». قالت هنتي وهي تهز سبابتها أمام وجهه، «لكني أوافقك الرأي بأن أبتا رجل ثقة. اكتب باللغة اللوئية واستخدم الجلد، فهو هنا لا يلتفت النظر مثل رُقم الطين.»

«وهل مستجيبين؟»

«لا أظن، فهذا سيعرضك لخطر كبير. سنرى. لكنني سأفكر فيك يا عزيزي. أئمة ما تريد قوله؟»

«نعم، يا سيدتي. أنت تعرفين عني شيئاً، لا تريدان إخباري به حتى الآن.»

ترددت هنتي قليلاً، ثم قررت أن تعطيه جواباً، فقالت: «ئمة مبالغة في قولك (تعرفين)، تانوا. إنه أقرب إلى الحدس. أعتقد، أن عليك، عندما تسنح فرصة مناسبة، أن تسأل الملك، أو أن تنتظر بصبر حتى يفاتحك بنفسه. يبدو لي أنه الوحيد القادر على مساعدتك في هذا الأمر. ما أستطيع قوله لك، هو أن الأمر يتعلق بمبتك، المحاط بسرّاً ما». ورفعت ذراعيها آسفة «عدم اليقين يعذبك، أعرف، وهذا يؤسفني. لكنك على الدرب الأفضل، تانوا، ضع ثقتك بالأرباب! كل شيء سينكشف، هذا ما أشعر به. أفضل أمنياتي سترافقك دائماً. أشكرك لكل ما فعلته من أجلي، وما ستفعله، لولائك ومحبتك!».

ومثلما فعلت ذات مرة، طبعت على جبينه قبلة خاطفة. خرّ تانوا على ركبته وقبّل يديها. عند الوداع الأخير أهدت هنتي كلاً من مرافقيها قطعة حلي صغيرة ولكن ثمينة. قدمت لتانوا قطعة لا زورد زرقاء قاتمة، دائرية الشكل، مزينة بنقاط ذهبية، لتلبس كخاتم. وقد حفرت عليها بشكل غير واضح صورة غزالة. وعدّتها نظرته بأنه سيحملها منذ الآن كرابط أبدّي.



كانت لحظات الافتراق عن هتي ووصيفتيها مؤثرة، وكذلك عن المضيف الكريم. وطالما بقي قصر أبتا مرثياً من السفينة، هيمن صمت على الرجال. ثم فاجأ تانوا رفاقه بفكرة مغامرة: ألا يُقترض بهم أن ينتهزوا هذه الفرصة السانحة ليزوروا أباسا عاصمة أرزاوا زيارة سريعة؟

«تقصد أن نتجتس قليلاً، أليس كذلك؟ أنا أحبّد ذلك!». قال مورسيلي موافقاً فوراً.
«وماذا إن كُشفنا؟ إذا عرفوا أننا حتّيون؟».

«ألسنا معلمي تنكر وتجاراً ناجحين؟ أنت تحكي اللوئية بلهجة أرزاوية يا ميتا، بحيث لن يلاحظ أحد من أين أنت. وأنا أدبر أموري بالأخاوية، ومورسيلي سيغلق فمه. جدياً الآن، ما رأيكما باقتراحي؟ حصولنا على معلومات عن أباسا سيكون بالغ الأهمية لمملكتنا».

يبدو أن مورسيلي وحده، من لاحظ أن الحزن لا يلف تانوا كما هو متوقع، كما أن اندفاعه للمغامرة أدهشه. أفلا يخالفون بذلك الأمر الذي يلزمهم بمغادرة أرض العدو بأقصى سرعة والعودة إلى الوطن؟ قرروا أن يسافروا ثلاثتهم فقط إلى أباسا، كي لا يلفتوا النظر، فيما يبقى بقية الرفاق في الخان، حيث تركوا الدواب.

إلى قلب عرين الأسود بلغوا أباسا في أيام معدودة، ولكن على دروب وعرة. كان موقع المدينة على البحر مباشرة، ومراسي مينائها تلفت النظر. كانت هناك عدّة سفن وكثير من القوارب الراسية. وكان هناك أيضاً كثير من المطاعم وباعة الطعام الجوالين، وخليط من البشر، بعضهم من القبائل المحلية، إضافة إلى بعض الكريتيين ومن سكان الجزر الآخية. لم يجد الثلاثة صعوبة في الاختلاط. كانت القلعة مرثية من بعد، ومنحدراتها مكتظة بالبيوت الممتدة تقريباً حتى النهر، الذي يصب في البحر شمالي المنطقة المأهولة. وعلى الهضبة ينتصب القصر الملكي وقصور أعيان المدينة الفخمة.

حاولوا في التزل في منطقة الميناء أن يجمعوا بعض المعلومات، وأسعفهم الحظ بجلوس أفراد من حرس القصر الملكي إلى طاولتهم. ومن كلمة إلى أخرى، إضافة إلى مآزحات مورسيلي اندمجوا في الحوار وتبادلوا الأنخاب. وأبدى الثلاثة سخاءهم في توزيع الأقداح، حتى انطلقت ألسنة الحرس، فيما بقي تانوا ومورسيلي وميتا يقظين. فحصلوا بذلك على معلومات ثمينة عن المدينة والقلعة وحاكمها والعائلات المتنافسة والضباط الظالمين وأجمل العاهرات. وبفضل أصدقائهم الجدد تمكنوا من التعرف على

المدينة بحريّة، كما أخذوهم معهم إلى مقرّ الحاكم في القلعة، بعد أن مروا على الطريق بمعبد مهيب مكرّس لعبادة الأم العظمى.

إذا كان تانوا هو المحرك الفعلي لهذه المغامرة، فإنّ الفضل في نجاحها يعود إلى مورسيلي وإلى ميتا خاصة. وكان لا بدّ لتانوا أن يقرّ بذلك لنفسه قبيل نهاية الرحلة الطويلة، بعد أن كانوا قد قطعوا مسافة طويلة على هضاب أرض الوطن. ففي أباسا فقدّ تانوا عقله كلياً، فلم يعد هو نفسه.

بدأت القصة بصورة عادية. منذ المساء الأول لفتت ابنة صاحب النزل نظر تانوا. بدت له أنها تشبه كيا إلى حدّ التطابق، لدرجة أنه ظن نفسه في حلم، ولم يرفع نظره عنها. أخذ يكرر طلبها إلى الطاولة، كي تحضر له شراباً أو طعاماً، وهذا أمر مفهوم هنا بكل اللغات. لم يكن الوحيد الذي أثار فيه مظهرها الفريد. كيف وصل مثل هذا الجمال السوري المصري إلى هنا؟ ثم تذكر أن حاكم أززاوا الحالي أو السابق قد تزوج أميرة مصرية، وهي حتماً لم تأت من دون حاشية. ولم يعد تانوا قادراً على متابعة الحديث، المهم جداً بالنسبة إليه، مع الضيوف من أفراد الحرس، لدرجة أن اضطرّ مورسيلي إلى وكزه في خاصرته عدّة مرات. وأخيراً غادر تانوا الطاولة والنزل.

telegram @ktabpdf

«لقد خلبت الفتاة لبك، تانوا. أنت تحبها. أخيراً وقعت يا رجل!». مازحه الصديقان. «هذا هراء. إنها حلوة، أعترف بذلك. ولكن أن أحبها؟ الحب يلزمه أكثر من هذا بكثير»، قال رادعاً الهجوم. لكنه انتبه خلال الليل وطوال النهار التالي، إلى أن أفكاره تدور حولها، لا، بل حول كيا. كانت قريبة منه يكاد يلمسها! كيف كانت تنظر إليه! كيف كانت تضحك! كيف كانت تتحرك بليونته بين الطاولات والمقاعد. إنها ابنة صاحب حانة، قال لنفسه، مذهولاً حيال المشاعر التي دهمته. ماذا يعطي لقاء أن يضم هذه الفتاة بين ذراعيه! لم يعد قادراً على التفكير بشيء آخر. كالمسزّم سحب الصديقان عبر أباسا قائدهما الذي لطالما كان دائماً صاحبياً ومؤدباً. وتوقفنا عن ممازحته، عندما لاحظنا فقدان التواصل معه، وكادا يشعران بالأسف لحالته.

مساءً بعد تناول وجبة العشاء المشتركة لجأ مباشرة إلى الخارج، إذ إنه لم يعد يحتمل الجو داخل النزل، فهذه الفتاة، التي لا يعرف حتى اسمها، كيا الأخرى، قد أسرته بشكل لم يعرفه في حياته سابقاً. مشى على طول الشاطئ، دون أن ينتبه إلى أين يتجه. كانت الريح

القوية رفيقته، حتى وصل إلى مخبأً فلجأ إليه منها وجلس. لم يعرف كيف عثروا عليه هناك، ولم يسألها. کیا!

بقي طوال ثلاثة أيام على هذه الحال من الانجذاب، غير دارٍ بما يجري حوله. ثم استيقظ فجأة من حلمه. وكعادته أراد أن يمد يده إلى تميمته، لكنها لم تعد حول عنقه. كان الشريط ممزقاً في موضع منه وقد سقطت التيممة منه إلى الأرض في مكان ما، دون أن يلاحظ ذلك. عندما وعى بما فقده، تصرّف كالمجنون. فتش الأصدقاء في جميع الأزقة والطرق التي مشوا فيها، دون جدوى. قلبوا النزل رأساً على عقب، دون جدوى. قارب الأمر أن يكون معجزة، حين عثروا عليها أخيراً بين حجارة الشاطئ الرملي، بصمت وضعتها کیا الأخرى في حوض تانوا. أراد أن يعانقها تعبيراً عن شكره، لكنها أبعدته عنها برفق.

«أنت لم تقصدي أنا قط، أليس كذلك؟». قالت بصوت خافت وقد ترقق الدمع في عينيها.

غمر تانوا ندم حارق عندما تمكن أخيراً من النظر في عينيها. كيف يمكنه أن يشرح لها؟ إنه لم يعد قادراً على تحمّل هذا الوضع، على مطارة صورة حلم.

«لا، أنت محقة!».

تابعها بنظره إلى أن اختفت. ثم غرق في عذابه وخزيه. وعلى هذه الحال وجده مورسيلي، فقال له: «تعال!».

جمع الأصدقاء حاجياتهم وجهزوا الجياد. كان كل شيء جاهزاً للانطلاق، وعندئذ اختفى تانوا. تبادل الصديقان النظر حائرين. ماذا يُفترض بهما أن يفعلا الآن؟ لا يمكنهما مغادرة أباسا من دون تانوا. أيعقل أنه قد عاد ثانية إلى ابنة صاحب الحانة؟ لحسن الحظ، كان قلقهما غير مبرر، فبعد مدة قصيرة عاد تانوا إليهما. لم يقل أي شيء عن مكان ذهابه وعمّا فعله. خبأ شيئاً ما في صرة حملها على كتفه، ومن دون أن يلتفت ثانية عبر البوابة، خرج. كان صامتاً أثناء الطريق، ولكن يبدو أن المسير على الدروب الوعرة قد أفاده. فأثناء الاستراحة المسائية أكل بنهم لأول مرة منذ أيام. أخذ ميتا ومورسيلي يهزآن برأسيهما واحدهما للآخر خفية: لقد انتهت اللوثة. وحتى وصولهم إلى رفاقهم في الخان، كانوا قد راجعوا وناقشوا كل ما رأوه في أباسا وعرفوه عنها واعتبروه مفيداً. ولم يأتوا على ذكر مواضيع أخرى، ولو بكلمة.

**

«ألا تفهم ما أقصد؟ لقد خنتُ کیا!».

«ولكنها لا تحبك أبداً!».

«وما علاقة هذا بالموضوع؟ أنا، أنا من يحبها. وقد خنتها مع ابنة صاحب حانة، لمجرد أنها تشبهها!».

«بصدق، أنا لا أفهمك. ما الذي جرى؟ من الطبيعي جداً أنك تتوق إلى ضم حبيبك بين ذراعيك. ولكن بما أنها غير موجودة، فلا بد لك من أن تعانق أخرى. وهذا لا يعني أن حبك لكيًا قد خفت!».

«أنت فعلاً لا تفهمني. أنا أسأت إلى الفتاة الأخرى، التي لا أعرف حتى اسمها. توهمت أو أهمت نفسي بأنها کیا. كنت قد قررت جازماً، أمام الأم العظمى، أن أتزوجها فوراً. كنت كالمنجنون. وعندئذٍ لكننتُ قد خنت الاثنتين. لقد كانت صديقة. أحببتي، أنا تانوا، بقبلايتها وصدقت عاطفتي تجاهها. متى وكيف لاحظتُ أنها ليست سوى بديل لأخرى، لست أدري. فأشعرني بالخزي لتركها إياي بحزن وحسب، دون مطالب ودون لوم».

مثل كلب مضروب وضع تانوا رأسه بين يديه، ولم يكن بمقدور هنوتي تحمّل هذا المنظر البائس التمس. لا يجوز للرجال أن يشغلوا رؤوسهم حول هذه الأمور بمثل هذه الأفكار، ولا سيّما عندما يكون الوضع ميئوساً منه تماماً. «عليك بالزواج! انس الحمامة التي لن تطولها، واكتفِ بعصفورة!».

«أأنت من يقول هذا؟ أين هي عصفورتك؟».

ضحك هنوتي قائلاً: «أنت تعرف جيداً، إنها هنا وهناك... هيا، دعنا من وجع الرأس وخاصة إذا كان بسبب النساء! الدنيا مليئة بهن». وأحاط ابن أخته بذراعه برّد.

بعد أن عمرت الطاولة باللحوم المشوية والمقبلات أقبل الرجال على الطعام بنهم. ولكن بعد اللقمة الأولى التفت هنوتي إلى تانوا وقال: «بالمجمل، مغامرتك في الغرب كانت ناجحة تماماً. ما كنت لأظن بإمكانية وصولكم إلى ميلاندا من دون مشاكل. ولأنكم، إضافة إلى ذلك، قد جمعتم هذه المعلومات الدقيقة عن أباسا، فإنني أكبر ذلك! كيف كان رأي ميطانموا بالأمر؟».

«طلب مني كتابة تقرير تفصيلي، كالعادة، لا أكثر. لحسن الحظ، لم يبد أي اهتمام بالأمور الأخرى».

«الملك حالياً مشغول جداً للأسف، عن أن ينصت إلى أخبار بطولاتك. نأمل أن تعود الأمور إلى طبيعتها بعد أن تدخل النمرة الصغيرة القفص».

«ما معنى هذا؟ عمّن تتكلم؟».

«هذا الكلام يبقى حتماً بيننا، مفهوم؟ لقد ثرثرت قليلاً مع سفيرنا پامبا بعد عودته الأخيرة من بابل. أنت تعرفه، إنه حذر دائماً في كل ما ينطق به. ومع ذلك، يبدو أن من ستدخل إلى ديارنا شخصية واثقة من نفسها جداً واثقة الحيوية. أمامنا شتاء مسلّ جداً».

لم يكن تانوا واثقاً، ما إذا كان هنوتي يمزح أم يسخر. وأضاف هنوتي: «وأنت المحظوظ ستكون أحد أوائل من سيتعرفونها من قرب!».

«ما الذي تقصده بذلك؟».

«سمعتُ أصواتاً تقول، إنك ستكون واحداً في بعثة الشرق التي سترافق الأميرة البابلية إلى حتوشا. ستكون هذه العملية تحفة فريدة! لا مجرد إنجاز دبلوماسي بديع في مشارق الأرض ومغاربها، بل نوع خاص من المشي على الحافة، بين الحفاظ على السرية التامة، كي لا يتمكن أحد من أذية موكب العروس، والرسمية العلنية الباذخة لإشباع حاجة بابل إلى الجاه والشهرة. وطبعاً من دون استفزاز مصر. لا ريب في أن هذه العملية تحتاج إلى معلّم».

حذق تانوا في هنوتي مبهوتاً، ثم قال: «أنت تمزح لا شك؟ لا يمكن للملك أن يطلب مني ذلك. ليس بعد هذه الرحلة مع الملكة».

«يا عزيزي تانوا! ماذا أسمع؟ ما علاقة مشاعرك الشخصية بمهماتك الرسمية؟ أنت دبلوماسي حتوشا الأبرز. هنا يمكنك أن تستخدم كل مهاراتك. ألم تكن هذه أمينتك؟ وقد جرى تأهيلك من أجل ذلك. لا يسمعك أن ترفض. هذه المرة يريد الملك تجنّب أي خطأ محتمل. أنا أعتقد أنك ستكلف بالمهمة لا ريب في ذلك، لتضع خطة مع پامبا لتنفيذها وتحقيقها».

تلاطمت الأفكار في رأس تانوا. لا، لا، لا كل جزء منه كان يقاوم طلب الملك. غير أن هنوتي كان محقاً: لا يسعه أن يرفض.

«ليس عليك الآن سوى انتظار البت النهائي في المسألة. كان يُفترض ألا أخبرك بشيء بعد هذه الفترة القصيرة على عودتك من أخايا».

يا له من داهية، فكر هنوتي. يبدو أنه قد نجح في التملص من تلبية رغبات الملك، أو من معظمها، ومن دون التسبب في أية إساءة. يا لشطارتك يا رجلاً!

للتو انتهت مشاورات مجلس الشيوخ، الذي انعقد في حتوشا على نحو مستعجل، رغم وجود الملك في الميدان. لكنه أسرع في الحضور. كان پامبا وتانوا قد وضعا خطة لإحضار الأميرة البابلية مالنيجال بصورة آمنة إلى حتوشا. كانت الخطة تحمل بوضوح بصمة تانوا.

قال پامبا إن حركته غادياً وراجعاً بين حتوشا وبابل باتت أمراً مألوفاً بالنسبة للإمارات السورية الشمالية. وفيما يتعلق برحلة الذهاب على الأقل، لن يوليه أحد كبير اهتمام، لكن عربات السفر والمحامل المترفة ستثير الاهتمام. لهذا فإنه يقترح تجهيز قافلة تجارية عادية، وتزويدها هذه المرة بهدايا العروس حصراً، إضافة إلى وسائل النقل الضرورية لرحلة العودة. ووسائل النقل هذه لن تُركب إلا في بابل، إرضاء للملك البابلي. فإذا جُهزت القطع كلها في حتوشا ووضع عليها الختم الملكي بالرصاص، فهذا سيؤدي إلى تفادي الرقابات الحدودية، والرقابة الجمركية تكفي بلوائح الحمولة. وبذلك يمكن اتباع خط القوافل المعتاد عبر قطنا إلى الفرات. أما المرافقة المكثفة فيمكن تفسيرها بالأحوال المضطربة، هذا إذا التفت أحد إلى هذه الناحية.

الأصعب هو رحلة الرجوع إلى حتوشا، من لحظة مغادرة منطقة النفوذ البابلي. عبور البادية سيكون المشكلة الأسهل، بشرط إعلام أكيزي ملك قطنا وضمان كتمان الأمر. «لن يصعب هذا الأمر على تانوا»، قال الملك.

هز تانوا رأسه موافقاً والتمس الكلام: «أكبر الأخطار في رأيي ترتبص بنا في منطقة الشمال السوري. رغم كل الاحتياطات المسبقة، يجب ألا يغيب عن بالنا، احتمال العلم برحلة الأميرة. لذلك يفضل اللجوء إلى حيلة صغيرة: انطلاقاً من قطنا تأخذ القافلة الطريق المعتاد عبر أوغاريت إلى الشمال. ولكن من دون الأميرة. أنا أعتقد أنها ستكون في أفضل حماية على ظهر سفينة تنقلها إلى ترشا. في هذه الحال أيضاً، لا بدّ من مرافقة لتأمين حراستها. نحن نسمع دائماً عن هجمات القراصنة. ولكن ببعض الحيل يمكن الاحتياط للأمر. هنا لا بدّ من استخدام سفينة تجارية عادية، وليس بالضرورة سفينة فخمة. وفي أدانيا يلتقي الجميع ثانية».

هز الملك رأسه بإعجاب وقال: «إلى هناك ستجده حاشية القصر لملاقة الأميرة

والترحيب بها على الأرض الحثية ولمرافقتها بالشكل اللائق بها حتى حتوشا، بحيث تكون هي ووالدها راضيين. ما رأيكم؟». والتفت إلى بقية مستشاريه قائلاً: «تبدو لي هذه الخطة جيدة».

وافق أعضاء مجلس الشيوخ بالإجماع على رأي الملك.

«تقرر إذاً أن يتولى پامبا وتانوا تنفيذ رحلة موكب العروس حسبما عرضت علينا».

بعد أن سكن اللغظ في القاعة ثانية، التمس تانوا الكلام: «يبدو لي أن ما سأعرضه عليكم سيجنبنا كثيراً من الضوضاء. الملك أكيزي القطني لن يعرض خططنا للخطر. أنا أضمن ذلك شخصياً. ولكن ماذا، إذا علم الفرعون عن طريق شخص ثالث، أو حتى عن طريق ملك بابل، صهره؟ ألن يضرب أخماساً بأسداس حول مغزى العملية؟ ألن يشعر بنفسه مبعداً قسراً، إن لم تستبق حتوشا الأمور وتعلمه.. لنقل.. باعتباره صديقاً مؤتماً، بل قريباً مستقبلياً؟ هناك معاهدة صداقة بيننا وبين مصر».

«إذاً، ماذا تقترح؟». سأله الملك.

«في الوقت نفسه لانطلاق القافلة، ابعثوا سفيراً إلى مصر ليخبر الفرعون تقريباً بما يلي: إن إحدى أماني بورنا بورياش ملك بابل وجلالتنا أيضاً، هي استكمال حلقة الأخوة وتوثيقها برابطة الزواج بيني وبين الأميرة الفاتنة مالنغال في الخريف. إن أعداء الصديق والأخ إختانتون يصيرون عبر رابط القريب الإضافي هذا أعداء لحتوشا وإلخ إلخ..».

«تانوا محق»، قال ميتانوما معلقاً «سيكون خطأ جسيماً جديداً أن نتجاوز إختانتون ونضعه أمام الوقائع المكتملة. صحيح أن الفرعون على ما يبدو لا يبدي اهتماماً بما يجري خارج مصر، لكن المظاهر تخدع. النتائج على أية حال ستكون خطيرة، فيما لو حصلت ميتاني على دعم مصر، بسبب سلوكنا غير اللائق. وكل أنواع الجهود التي بذلناها ستكون بلا جدوى، على الأقل للسنوات القادمة».

وأضاف أخو الملك: «إذا واجهتنا في شمالي سوريا مقاومة واسعة وجعلنا مصر عدواً لنا، فبإمكاننا دفن جميع مخططاتنا بهذا الشأن. يضاف إلى ذلك أن المناطق الحدودية الأخرى ما زالت غير آمنة إلى حد كبير».

فقال شويپولوما كمن يصد هجوماً: «مهلاً. لا حاجة بكم لإقناعي، فأنا أشاطركم الرأي. طبعاً لا بدّ وبسرعة من أن نخبر أخي العزيز إختانتون. وطبعاً لا يوجد سوى شخص واحد، يمكن أن نأتمنه على هذه المهمة الصعبة. تانوا، أترى نفسك قادراً على السفر إلى

مصر والعودة إلى قطنا مع موعد وصول موكب العروس من ترقا إليها؟ لأنني أرغب أن ترافق أنت الأميرة في الجزء البحري من الرحلة».

انحنى تانوا للملك دلالة على موافقته.

«إذًا، حضر مع پامبا وميتانموا كل شيء»، حتى أصغر تفصيل. ثم انطلق دون تأخير إلى قطنا، لتشاور الملك أكيزي بما هو ضروري. وليرافقك نانينزي، وليبق في كل الأحوال في قصر قطنا، إلى أن يتم كل شيء. ومن هناك تتابع طريقك إلى مصر. ولترافقك صلواتنا جميعاً. وليكن الأرباب معك ومعنا!».

**

ثمة أمور كان يرغب تانوا في عرضها على أكيزي بكياسة ولباقة. وكان مسروراً لأن أيام الرحلة ستمنحه فرصة التفكير بكل أمر على حدة. يمكنه مناقشة بعضها مع نانينزي، أما دفع أكيزي إلى التعاون معهم، فهذا جوهرياً منوط به وحده. فتوجه قطنا رسمياً ما زال حتى الآن نحو مصر وبصورة واضحة. طوال السنوات الماضية لم ينجح تانوا في جذب أكيزي إلى جهة حتوشا. لكنه ارتاح لمعرفة بأن أكيزي الآن يقاوم وسوسات بعض شيوخ القبائل وأمراء المدن الذين يطمحون لإقامة مملكة سورية مستقلة. كم مرة تناقشوا في مزايا المشروع ومثالبه! كانت الغواية كبيرة، لكن تانوا تمكن من تبيان كمية الدم التي ستراق سدى من أجل هذه المطامح. وقد اقتنع أكيزي أخيراً بوجهة نظره، وجنّب كيا أن تصبح الضمانة لهذا التحالف. كان يأمل في أن تبقى الأمور على حالها.

كان الأمر مفهوماً من زاوية نظر مجلس الشيوخ، أن يرافقه نانينزي في هذه الرحلة، لكن رفقته لن تسهل مهمة تانوا أبداً. فكيف سيشرح لأكيزي أن هذا الذي يرغب الملك شويلوليوما في بقاءه في قطنا، ليس سوى مراسل حتى؟! بإمكانه أن يقول لأكيزي إن مهمة نانينزي تتركز في مراقبته هو، تانوا. وربما كان هذا حقاً جزءاً من مهمة نانينزي. قبل تانوا الأمر بكل واقعية وحصافة.

ماذا يفترض به أن يخبر أكيزي حول العملية كلها؟

أن يمر طريق پامبا بين الحين والآخر عبر قطنا، لم يكن مشكلة، حتى الآن، فهو يسافر كتاجر ويدفع الضريبة المترتبة عليه وعلى بضائعه. أما أن يتم صفقاته بالسرعة القصوى في قطنا وتدمر، فقد ألصق به لقب الحمار الجامح، الأمر الذي لم يزعجه. ولكن في هذه

المرّة سيكون عدد مرافقيه كبيراً نسبياً. لقد ألحّ تانوا على أن يكون معظمهم، ما أمكن، من غير الحثّيين، بل من كيزواتنا ومن الحوريين واللوفيين. لأنّ الدمج بين تجار حثّيين ومرافقين لهم من هذه المناطق كان عادة مألوفة. وتذكّر أولى رحلات عودته التي كانت مع مجموعته مختلطة من هؤلاء بالتحديد.

إضافة إلى ذلك أثار تانوا فكرة الزعم بأن مالنيغال عروس پامبا أوزوجته التي يريد الآن نقلها إلى بلده. ولكن كيف سيكون ردّ فعل الشابة، التي وصفت على أنها ذات نزوات، على هذا الطلب؟ وردّ فعل والدها الملك؟ وهل يجوز أن يخدع صديقه أكيزي؟ ماذا، إنّ تعرف شخص ما في قطننا شخصية الأميرة؟ وهذا محتمل جداً، بسبب الصلات المباشرة بين قطننا وبابل. سيكون ذلك فضيحة مجلجلة وموجعة. لا، إنه يريد أن يطلع أكيزي إلى الحد الممكن. ولكن هل يقدم الآن على ذكر مالنيغال أم يؤجل الموضوع إلى ما بعد عودته من مصر؟ وماذا إنّ سأله عن سبب سفره إلى مصر؟ كان ليلاً ونهاراً يقلّب أفكاره، لكل مرحلة من المراحل على وجوها.

إذا نجح، فإنه سيعرض نتائج هذه الزيجة أمام أكيزي، باعتبارها إيجابية بالنسبة إلى قطننا.

ألا تنطوي على منافع؟

إذا كان هذا التحالف المدبّر سيؤدي إلى كسر شوكة ميتاني، فليس لقطننا ما تخشاه من هذه الناحية، إذ ستسود الطمأنينة على طول الساحل السوري، وممالك المدن ستكون أكثر حرية في حركتها. ولكن حتى أكيزي يعرف، أن حتوشا لن تظهر هنا باعتبارها محرراً إثارياً، بل لديها مصالحها المحددة تماماً في المنطقة. وبورنا بورياش البابلي لا يشارك في التحالف من باب التسلية. وفي مقابل ذلك، فإن قطننا تعتمد كلياً على حركة التجارة النشطة والأمنة مع بابل.

تنهّد تانوا. كان لا بدّ من أن يجازف. سيحاول تقديم طعم لأكيزي، بأن يوحي إليه بأنه الوحيد من ملوك المدن الذي ياتمنه على سرّ الرحلة، لأنهما صديقان. وعلى أكيزي أن يعتقد بأن تانوا قد فعلها من وراء ظهر سيده. يالها من فعلّة وضبعة! لكنه بهذا يضمن أكيزي إلى صفّه! وعندئذ لا بدّ لأكيزي من أن يبدي اهتماماً كبيراً ببقاء رحلة الأميرة سرّاً، متظاهراً بأن اللعبة تجري من دون علمه، كي لا يتورط في نزاع ولاء مع إختانتون، ويكون لقاء ذلك قد سجّل بعض المكاسب عند بورنا بورياش. و سيعدّ تانوا صديقه أكيزي بأنه،

بصفته سفيراً رسمياً حتماً، سيُعلم إخناتون بأمر الزواج، بصيغة متكّمة طبعاً، ويترك قطنا خارج اللعبة. وفي حال التطرّق في الحديث إلى خط الرحلة، يمكنه أن يتعلّل باضطرابه ترك تخطيط ذلك إلى پامبا، لمعرفته بعلاقات پامبا الوثيقة مع قادش.

عموماً كانت الفكرة كالتالي: باسم شويلوليوما سيلتمس من إخناتون الإذن لمرور موكب العروس من قادش، أي عبر منطقة تابعة للسيادة المصرية. لماذا لم يخطر هذا في باله من قبل؟ طبعاً لن يُعلم أيتا كما ملك قادش بأمر الموكب للحفاظ على السرية المطلقة، ولا سيّما أن إخناتون مطلع على الحركة الانفصالية في المنطقة، التي ستصيب مصر بمرض عضال. نعم، هذا جيد. هكذا ستُدبرّ الأمور. وعندئذ لا بدّ من بقاء نانيتزي في قطنا فعلياً كوسيط ينقل الأخبار المتعلقة بالموضوع بسرعة إلى بابل وإلى حتّوشا.

الأمر الشائك الآخر كان دونيو. فتانوا يحمل في جعبته رسالة له من زوجته إريتا، التي كان العثور عليها بهذه السرعة في ميلوا وندا يقارب المعجزة. والمعجزة الأكبر ستحدث إذا اتحد الزوجان ثانية. كلاهما يعيش عبداً. يحتمل التوصل إلى شراء حرية إريتا وابتئها. وماذا بعد؟ هل يأتون إلى قطنا؟ أليست آخايا وطنهم. وأي قصة على تانوا أن يختلق الآن، لتبرير رحلته إلى أقصى الغرب؟ الإجراءات ومفاوضات من الجانب الحثي مع أرزاوا وآخايا؟ هذا موضوع لا يجوز التطرق إليه إطلاقاً. فماذا إن وصل الموضوع إلى مصر التي عرضت عن أرزاوا بخيبة أمل شديدة، بسبب إخفاقات المشين في التصدي لحتّوشا؟ لا، مستحيل. هذا سيؤدي إلى فصم الروابط الطرية المعقودة مؤخراً بين شويلوليوما وإخناتون وسيؤدّد الشكوك. ماذا إذاً على أكيزي القبول بأن ثمة أموراً لا يجوز لتانوا الخوض فيها. أم عليه التشاور في الأمر أولاً مع كيا؟

ككل مرة كان الفرخ غامراً في قطنا لوصول تانوا، وإن لاستراحة قصيرة. بالنسبة إليه كان حاله كالعائد إلى الديار، إلى الأصدقاء والمعارف الكثيرين. وتبيّن له أن قلقه لم يكن مبرراً، فبسرعة مدهشة اتفق مع أكيزي حول الموضوع. يبدو أنه قد حَضّر نفسه لهذا الحديث بأفضل مما كان يظن، أو أن ثقة الصديق فيه كانت عمياء. لم يأت تانوا على ذكر موضوع دونيو أمام أكيزي، كما لم يخبر دونيو بشيء، بل حيّاه بحرارة وحسب. لم يرغب في أن يشير في نفسه الآن آمالاً، قد تبقى معلّقة.

لكن غاب عن باله أنه لا يستطيع أن يوارب الأمور أمام كيا، ويلهيها بلقىمات لا تُسكت الجوع. التقاها تانوا كعادته غالباً عند بوابة بيت الربة. مشت إلى جانبه بخطوات خفيفة وطرحت أسئلتها دفعة واحدة: «ماذا حدث؟ لماذا كتبت أنك لا تستطيع المجيء؟ لماذا لم تكتب أن الأمر قد انتهى؟ أم أنه لم ينتهِ بعد؟». وكانت تنظر إليه بمزيج من القلق والارتياح والزعل.

ضحك تانوا وقال: «دعيني أحييك أولاً يا كيا. كم أنا سعيد برؤيتك ولكونك بخيراً!». أمسك يديها. لم يسمح لنفسه بمزيد من القرب. وإن حصل، فقد كانت هي التي تندفع نحوه وتعانقه كأخ.

«انظري، أحضرت لك شيئاً!». وأخرج من جيب رداثة حنجور مرهم صغيراً له شكل رأس أسد، مصنوع من حجر كريم، كتيماً أصفر اللون، لم يسبق لكيا أن رأت مثيلاً له. قطعة فريدة.

«ما هذا؟».

«يسمونه حجر الكهرمان. قيل لي إن مصدره من بحرٍ عند حافة الدنيا الشمالية، من مكان بعيد لا يتصوره عقل».

«إنه رائع، شكراً لك. من أين حصلت عليه؟».

«هذه قصة طويلة».

«أله علاقة بالخاتم الذي تلبسه الآن؟».

«كم كانت تدهشه دائماً بحدسها الصائب».

«كيا، لا أستطيع إخبارك بالتفصيل إلا بعد عودتي، فعليك التحلي بالصبر. ولكن عندي أخبار لدونيو، وأرجو أن تسانديني في الموضوع».

أومات كيا برأسها. كان واضحاً لها، إلى أين ستوصله بقية الرحلة. كان ثمة اتفاق ضمنيّ بينهما على عدم ذكر مصر وإخاتون ونوفرتيتي ما أمكن. وكان هو يخبرها بدقة عن جميع التطورات الكبيرة هناك، على طريق عودته إلى الوطن، لا هي فقط، بل أكيزي أيضاً والأعيان. كادت كيا أن تحمله رسالة أو تحية، مثلما كانت الأميرة ليست تفعل دائماً. غير أنها غيرت رأيها بسرعة. لاحظ تانوا صراعها الداخلي السريع، الذي وشى له أكثر من أي كلام بحالها الذي لم يتبدل. وقد ألمه ذلك.

«أية أخبار تحمل لدونيو؟». كانت قد تماسكت وهي تنظر إليه بتشوق.

«لن تصدّقي...!». بدأ تانوا كلامه.

«أنك عثرت على زوجته!». أنمت كيا الجملة.

«كيا، كيف لك أن تعرفي؟». وعلت وجهه دهشة تهيب.

«لا يحتاج هذا إلى رجم بالغيب!». قالت ضاحكة «إذا أنت كدت تشهق كي تُعدني

لتلقي الخبر المثير، فماذا يمكن أن يكون سوى ذلك؟».

«أتعرفيني إلى هذا الحد؟».

«ربما أكثر بكثير مما تظن»، قالت بمكر.

كان على تانوا أن يضبط نفسه، كي لا يأخذها بين ذراعيه. كانت اللحظة غالية جداً.

فكيف له بطرفة عين أن...؟

«هيا، كفاك إثارة! هذا ما تجيدونه دائماً، إطالة انتظاري حتى العذاب. أنت تعرف كم

أتشوق أنا لمثل هذه الأخبار الجديدة. أين هي؟ أين عثرت عليها؟».

«هذا كله جزء من الحكاية، التي لن أستطيع الآن أن أرويها لك. ولكن على الأقل:

اسمها إريتا، وتعيش مع اثنتين من بناتها مدبرة منزل عند أحد الأعيان في ميلاندا، وهي

مدينة على بحر إيجة. أحمل معي رسالة منها لدونيو، لكنني لم أجرؤ على تسليمها له».

«عرفت السبب. كيف يفترض بالطرفين أن يلتقيا؟ لا أعتقد أن أكيزي سيعتق دونيو.

ألا يمكن للنسوة القدوم إلى قطننا؟».

«إلى هنا؟ إلى حيث يصبحون جميعهم في الغربية؟ ألم يحن الوقت بعد لعودة دونيو

إلى وطنه؟ لقد أنجز الكثير وبإخلاص. ألا تعرفين طريقة لدفع أكيزي إلى الموافقة على

تسريحه؟».

«دعني أفكر في الأمر حتى عودتك!».

«طيب. سأترك رسالة دونيو أمانة عندك. تصرفي حسبما ترينه مناسباً. أنا لم أذكر

الأمر أمام أكيزي مطلقاً. وثمة أمر آخر: أنا مسافر بمهمة سرية. أكيزي يعرف، ولا أحد

سواه. راقبيه كي لا يزل لسانه أمام أحد حول الموضوع. وعاملي نانيزي بلطف، يبدو أنه

سيضرب جذوره في قطننا للأيام القادمة».

«هل ثمة شيء آخر، يا سيدي؟».

كان يحب هذه اللهجة الأليفة والمتخففة بينهما دائماً، هي بأجوبتها الجسورة التي

تثيره، وهو بكلامه الذي يستفزها.

«إنك تنافس الحمار الجامح. حتى أكياً مراسلنا، لا يستطيع أن يقطع المسافة عبر سوريا وكنعان، ويحصل على إذن بالمثل أمام فرعون، ويعود إلى قطنا بمثل سرعتك». عاتق أكيزي صديقه تانوا وتوجها معاً إلى الغرف الخاصة في الجناح الغربي، حيث يمكنهما التشاور بلا إزعاج.

«ما الجديد في آخت آتون وفي قادش؟». وضحك أكيزي ضحكة تأمرية.

على الرغم من السنوات التي أمضاها ملكاً، ما زال محافظاً حتى الآن على لأبالية الفتيان التي تبقية لطيف المعشر، رغم ما يسببه للآخرين من إزعاج كبير بين الحين والآخر، نتيجة تصرفاته المتهورة. بات ميالاً للدعة وسمناً بصورة ملحوظة، مثل زوجته الملكية إهلي نيكالو، أم أبنائه الذكور الأربعة، الذين يفتخر بهم جداً. ما عدا البكر الذي يشبه عمه كوارى، فإن الثلاثة الأصغر نسخ من أبيهم، عندما كان صغيراً وظريفاً. كما اتخذ لنفسه زوجتين ثانويتين لتحلية لياليه، لكنهما كانتا تلتسانان نهاراً بأصوات مرتفعة، ما دفع الملكة الأم إلى التدخل.

«ما ذكرته لي قبل سفري، رأيتُه بعيني. آخت آتون صارت باهرة، لا يمكن مقارنتها بأي مدينة أخرى. كل ما فيها مدروس حتى التفاصيل الصغيرة. ورغم ذلك بدت لي مصطنعة، دون روح، أفهم ما أعنيه؟ آتون حاضر في كل مكان. كان من العسير جداً المثل أمام الفرعون، واحتاج الأمر إلى كثير من الهدايا. ووقت الزيارة، بالمناسبة، تحدده نوفرثيتي نفسها. ولا بدّ من إخبارها مسبقاً بما تريد أن تقوله أمام الفرعون. وبناء على ذلك تقر هي، ما إذا كان الأمر يهم زوجها أم لا. فهي التي تحدد مراسم التشرّيفات. أنا لا أضمن شخصياً، ما إذا كان الفرعون قد تابع وفهم كل ما قلته له. بدا لي شادراً، كما أن مظهره لا يشي بصحة جيدة. بدا لي هراً، بحكم رؤيتي له من المسافة الفاصلة بيننا. لحسن الحظ صُرفتُ بسرعة. وقد آن الأوان، إذ أردنا للخطة أن تنجح. ما قلته للفرعون باسم اللابارنا، دوّنه كاتب المحضر، وتمت الموافقة على جميع الرغبات. وبهذا بتنا آمني الجانب، ويمكن القول بأن الرحلة كانت مُرضية. هل وصلتكم أخبار عن پامبا؟».

«هذا خارج نطاق معرفتي. ألا يهتم زميلك نانينزي بالأمر؟ يا له من شخص في غاية اللطف!».

«ألا يلاحقه مخبرو قطنا على عقبيه؟». وضحك تانوا الذي كان قد تكلم مع نانينزي وعرف. رسم الملك على وجهه تعبير البراءة وقال: «إذا كنت تقصد القافلة القادمة من

تدمر، فيمكنني إخبارك بأن وصولها متوقع خلال بضعة أيام. أما زلت تذكر؟». وكان أكيزي يشير بذلك إلى أولى تجاربهما المشتركة.

«حتى اليوم لا تفسير للأحداث التي وقعت آنئذ. حتى الآن لم تعرض أي قطعة من المسروقات للبيع في أسواق قطنا، كما لم يُعرف أي من المسؤولين عن الغارة. إما أنهم قد صاروا عجائز أو ماتوا. ما الفائدة من الغارة كلها إذا؟».

لم يُجب تانوا عن السؤال. على أية أقدام تقف مملكة أكيزي؟ على أقدام طينية! فليق الأرباب معه. أما خبر اقتراب وصول القافلة فقد دفعه إلى العجلة.

«لم يبق سوى وقت قليل للراحة. ما زال هناك الكثير لإنجازه. وقد أجلت عدّة زيارات إلى حين عودتي، فاسمح لي بالانسحاب».



يبدو أن كيا لم تفتح أكيزي بموضوع دونيو. لم يخطر الأمر ببال تانوا إلا بعد انسحابه من مجلس الملك. حسناً، قريباً سيعرف. غير أنه مضطر الآن للاهتمام شخصياً بموضوع السفينة، التي استأجرها نانينزي، أثناء غيابه، مع أحد وسطاء الملك أكيزي، من أجل متابعة رحلة الأميرة. وهذا سيؤدي إلى تأجيل لقائه مع كيا، الأمر الذي أزعجه.. كان لكيا في بيت الربة غرف خاصة فرشتها ببساطة وذوق رفيع. وهناك استقبلته قبيل وصول القافلة إلى قطنا.

«يا خسارة أننا لم نعد نلتقي خفية! كان الأمر يسليني جداً. أليس مدهشاً ألا يتعرف علينا أحد، رغم خراقة تنكرك أحياناً. آه تانوا، ما أغرب الأفعال التي نقدم عليها في حياتنا! ولكن الآن، حدثني عن مغامراتك. أكيزي رفض رفضاً قاطعاً أن يخبرني بشيء. كتمان كامل. ما الذي يدور في الخفاء؟».

«كما في معظم الأحيان، كيا، أجذك قد وصلت إلى لب الموضوع فوراً. كل ما سأسرُّ به إليك الآن، يجب أن يبقى بيننا. إنني أضع حياتي بين يديك. أتريديني أن أتابع؟». فأومات موافقة من دون تردد. وهكذا حكى لها تانوا عن خطوبة مائنيغال وعن مصير هنتي المؤلم.

صمتت كيا بعض الوقت، ثم سألته: «هذا الخاتم منها، صحيح؟».

«صحيح، أعطتني إياه تعبيراً عن الشكر».

أربكت لهجة صوتها تانوا، فنظر في وجهها مدققاً. لماذا يغضبها هذا؟

اسودت عيناها غضباً وصار صوتها كهدير الرعد. كوّرت قبضتيها وهي تقول: «الشكر؟ لأي سبب؟ لأنك نجحت في مرافقتها إلى خارج المملكة بتكليف من سيدك المتسلط الذي سيدمر كل شيء؟ ستهاجمونا مثل جيوش القمل وتسحقونا. لقد خدعت الجميع بتخطيطك الرائع، حتى إختاتون غششته بكلامك. إختاتون الذي لا يخدم سوى ربه سيّداس وهو لا يدري بشيء. طمع ملكك لن يتوقف عند حدود مصر، فهو يريد فرض سيطرته في كل مكان، وأنت أداته. لكنني لن أسمح بسقوط مصر. سأفعل كل ما بوسعي لتحذير إختاتون، ولو كلفني هذا حياتي. أنت دائماً تتقن عملك، ننصح أخى بإخلاص، وتلمّ شمل عائلات مشتتة. هذا كله تمويه لتغطي أفعالك المشينة، يالك من وصولي..!».

انتفضت كيا ناهضة وهجمت مثل ربة الانتقام على تانوا الذاهل. كانت قد فقدت زمام السيطرة على نفسها كلياً. في لحظة واحدة انفجرت جميع المشاعر المتراكمة، وأخذت كالمجنونة تضرب تانوا بقبضتيها وهي تشتمه. وفي الوقت نفسه كان جسمها يرتجف من تشنجات البكاء، التي جعلت كثيراً من كلامها غير مفهوم. حاول تانوا، دون جدوى، أن يهدئها، أن يمسك يديها ويشرح لها. فكانت كل محاولة من محاولاته تزيدها غضباً، ولم تتماسك إلا عند دخول عدّة خادمت مرعوبات ومهرولات، لإعادة الهدوء إلى بيت الربة. عندئذ توقفت منهكة.

«سأحافظ على وعدي. أما أنت فاذهب! اغرب من وجهي. إنك تدمر سعادتي!».

بدا الأمر لتانوا وكأنه في كابوس. لقد جرحته كلمات كيا في العمق. لم يعد الأمر متعلقاً بكونها أساءت فهمه، بل فقط بكرهها إياه وحبها لفرعون إلى درجة التضحية بالنفس من أجله. هرول عبر الأزقة دون وجهة محددة، لم يأبه بشيء سوى الابتعاد عنها! انعطف في حارة ضيقة وفرك وجهه بكفيه. كم كان مجنوناً. لقد تصرف مثل تلميذ يتعرض صامتاً لتعنيف معلمه. ما الذي تفهمه هي في طمأنينة معبدها من مشاكل العالم؟ كيف تتجاسر على حاكم حتّوشا بالكلام وتدينه؟ ضجّ غضباً. فلتسمّه وصولياً! إنه على كل حال يبذل كل جهده لتجنّب إراقة الدماء، دماء آلاف من الرجال الذين يتقاتلون جميعهم في سبيل الأرباب والقضية العادلة. وصل إلى الدرج المؤدي إلى القصر. توقف برهة وحاول أن يهدئ نفسه. يجب عليه أن ينسى كيا نهائياً! يجب أن يدفنها في قلبه. ثم فار

فجأة وغمرته سخونة. كيف يأتونها على أسرار الدولة بهذا الاستحفاف؟ وأمل تانوا على الأقل أن تكون أميرة قطنا وكاهنتها على درجة من التماسك لتدرك مدى الضرر الذي قد يسببه الحنث بالوعد.

عندما دخل القصر، كان على درجة من السيطرة على نفسه بحيث طلب بوجه متحجر المثل أمام الملك. أخبره باختصار بعثوره على عائلة دونيو ورجاه أن يعتقه.

«ماذا جرى؟». لم يسبق لأكيزي أن رأى صديقه في مثل هذا المزاج.

«لا شيء. الأمور كلها بخير. خطتنا ستنفذ حسبما اتفقنا. حالما تصل القافلة، سأتوجه بسرعة مع السيدة ومرافقاتها لركوب السفينة في نهر أراتنو، وأحذ بهذه المناسبة أن آخذ دونيو معي. حدّد سره! وسيقوم پامبا هنا بإتمام كل شيء بكتمان، بحيث لا يشك أحد بأي دور لقطنا. بسرعة الريح ستخلص من عبثنا».

«يا صديقي، لا أدري ما الذي قلب مزاجك على هذا النحو، ولن ألح في الاستفسار. ولكن كدليل على صداقتنا، أنا مستعد لتلبية طلبك، ولو خسرت قطنا بذلك أعظم معلم حرفة فيها».

وفعلًا، استدعى أكيزي دونيو، وأجزل له العطاء، وأعتقه. بعد بضعة أيام أدرك أكيزي سبب انزعاج تانوا، فقد رفضت كيا حضور مآدبة الوداع المعتادة. وعلى نقيض عادته، بالأبيالي بنزوات النساء المفاجئة، أحس أكيزي بأن أمرًا جوهرياً قد وقع بين الاثنين. وعند افتراقهما سأل أكيزي تانوا بلهجة عاطفية مؤثرة: «ولكن نحن سنبقى أصدقاء، أليس كذلك، تانوا؟».

«نعم، سنبقى!». أجاب، وعانق أكيزي بودّ عميق. لكنه لم يستطع رسم ابتسامة على وجهه.



انتهت الرحلة البحرية دون حوادث. ومع ذلك كان تانوا على شفا الإنهاك في أدانيا، حيث تمكن أخيراً من تسليم الأميرة. كان دونيو ممتناً وبالغ السعادة ولا يزال غير مصدق ما حدث، وفي ميناء ترشا ركب أول سفينة نحو الغرب. ولولا تبادل الحديث معه لفكّر تانوا عدّة مرات بإلقاء نفسه في البحر. وإذا كان الشجار مع كيا قد تطلب منه كل تهذيبه، فإن

الأميرة البابلية - سيدته المستقبلية - قد اختبرته من جميع النواحي حتى الرمق الأخير. لم يحسد الملك، حتى وإن كانت مالنيجال جميلة حقاً. كان عزاؤه الوحيد، أن الأميرة أزيمنة - ملكته السابقة - لم تكن مضطرة إلى معايشة هذا كله. تمنى من كل قلبه أن يصل دونيو إلى هدفه بسلام، ليس فقط من أجله وأجل عائلته، بل أيضاً لأنه كان ساعياً ممتازاً. لم يتمكن تانوا من كتابة أخبار طويلة، فمالنيغال لم تترك له وقتاً لذلك، لكنه كتب المهم الذي سيطمئنها للوقت الحالي.

أهمية اللجوء إلى استخدام الطريقتين، البري والمائي معاً بانته، عندما وصل إلى أادانيا خبر أن پامبا ما زال متأخراً في مدينة الألاخ، التي لجأت إليها القافلة، على أثر تعرضها لهجوم قطاع طرق ميتانيين. خسرت القافلة جزءاً من حمولتها. وما إذا كان هدف الهجوم هو الأميرة مالنيجال، أم كان غزوة عادية، فالأمر لن يتضح إلى حين وصول پامبا. وهذا يعني في أية حال أن حذر تانوا قد أتى أكله. كما أنه حقق إنجازاً مهماً بتوصيل الأميرة في وقت مناسب، قبل عيد الخريف، الذي ستعرف في إطاره على البلد وتتعرف البلدُ عليها. في أادانيا وفي كيزواتنا كلها احتُفل بوصول الأميرة البابلية بكل أبهة وفخامة، إذ لا يجوز بأي حال من الأحوال أن تخبر أهلها بأنها ستعاشر فلاحين بلا ذوق. ففي حضور الحاشية كلها استقبلت الملكة الأم، توانانا، كتنها الجديدة وقادتها إلى ابنها ملك حتوشا مع مراعاة جميع قواعد المراسم. مثل معظم الحضور، بدا شويپولويوما أيضاً متأثراً جداً بشباب مالنيجال وجمالها اللافت. وعندما مدت يدها لأول مرة إلى الملك، لكي يقودها إلى كرسيها، بدت فاتنة، وحيية نوعاً ما.

لم يخفَ تغيرُ تانوا على أصدقائه، ولا على هنوتي، لكنهم احترموا صمته. بات منهمكاً في العمل إلى درجة الغرق فيه، الأمر الذي تلاءم جيداً مع متطلبات الامبراطورية. بزواج شويپولويوما ومالنيجال كانت آخر وسائل عزل ميتاني دبلوماسياً قد استخدمت. باتت ميتاني وحدها، ويمكن للفخ أن ينطبق عليها. كانت حتوشا قد حضرت لضربة عسكرية لا مثيل لها. لكن الواضح هو أن رب الحرب شخصياً قد تدخل في اللعبة. فحتى أكثر المخططين حنكة، على الأرجح، ما كانوا ليتوصلوا إلى الحل الذي سيسقط ميتاني عسكرياً، لولا دعم زبابا الفعلي لهم.

في بادئ الأمر بدا الوضع سيئاً. في حتوشا ظنوا أنهم أخيراً قد بلغوا هدفهم، واعتقدوا بأنهم قد حققوا حصار ميتاني من جميع الجهات. وإذا بالمخبرين يبلغونهم بأن مملكة إشبوا في الشرق التابعة لحتوشا منذ بعض الوقت قد تحالفت مع ميتاني. وبذلك دُعِمَ ظهرُ الملك توشراتا، الذي تحرك قبيل استراحة الشتاء القتالية نحو الغرب، بهجوم مفاجئ أسقط به ملك نوحاسة وقتل عائلته، وأعاد ضمَّ الإمارة إلى ميتاني.

لم يسبق لتانوا أن رأى الملك في مثل هذه الحالة من الغضب، فقد اتهم مخبريه في إشبوا ولاهمهم أمام مجلس الشيوخ. كيف كان ممكناً لهذه الاتفاقية بين ميتاني وإشبوا أن تُبرم دون أن يعلموا بذلك؟ وإذا كانوا غير قادرين على رؤية ما يجري أمام أنوفهم وسماعه، فيجب أن تُسَمَل أعينهم وتقطع آذانهم.

«عند ذلك انفجر بأسه وقنوطه»، أخبر هوتي تانوا لاحقاً، عندما جلسا في شرفة داره ليقنصا دفء أواخر أيام الخريف. «تصور أن تضيع جميع جهودنا سدى، وأن تكون مسألة هتتي ومالنيغال بلا جدوى! بالمناسبة للأسف، تقيمك للسيدة الجديدة كان صائباً. ليس الخدم وحدهم من يشتكي، فمنذ فترة رفضت الملكة الأم استقبالها، إلى أن قدمت اعتذارها لها».

«ما الذي جرى؟»

«لقد أبلغت مالنيغال السيدة الكبيرة بأن الأوان قد آن لتتنازل عن منصبها وتسلمها الختم.. ثم إنها مدللة بلا حدود. يا للمصيبة إن لم يكن حليها المسائي بالسخونة المطلوبة. على كل حال، دعنا من هذا الحديث، فهناك ما هو أكثر أهمية لناقشه».

هز تانوا برأسه موافقاً. لم يكن ينصت إلا بنصف أذن، فقد كان ذهنه منشغلاً بالوضع الجديد. وكان لا بدّ من إيجاد حل له.

«إذا كنت أرى الوضع بصورة صحيحة»، قال تانوا «فإن حصارنا المدروس بعناية، قد أصيب بثغرتين. واحدة في الشمال والثانية في الجنوب الغربي». وتناول عصا، رسم بها على الأرض الرملية خارطة تقريبية، وأردف: «ولكن ما رأيك بأن نحوّل هذه الواقعة لمصلحتنا؟»

«هات ما عندك! بماذا تفكر؟»

«بأن نرسل قوات دعم لملك نوحاسة وبسرعة».

«الآن، والشتاء على الأبواب؟»

«لا ضرورة لتحريك القوات من حتوشا. بعض القوات متمركزة في أدانيا، وهناك بعض الوقت إلى أن تصبح المعابر بين كيزواتنا وموكيش غير سالكة. هذا قابل للتحقيق. وإلى أن تصل إلى توشراتا أخبار أن نوحاسة قد تحررت من نير ميتاني بمساعدة مقاتلين حثيين، يكون الوقت قد فات لهجوم جديد هذه السنة. سيعتقد الجميع - ونحن سنعمل ببراعة على ترسيخ هذا الاعتقاد - بأننا من خلال هذا التدخل، نجهز بحمّية لهجوم واسع في الجنوب الغربي، يتوقعون حدوثه في الربيع. في أثناء ذلك سيكون خبر انضمام ملك بابل إلى الحلف ضد ميتاني قد وصل حتى إلى أقاصي البلاد».

نظر هنوتي إلى تانوا بشيء من عدم الفهم وقال: «ولكن هذا هو ما نفعله تماماً. نحن نجهز لهجوم واسع في الجنوب الغربي».

«هذا ما يجب أن ننشره ونعلنه بالطول والعرض. مبدئياً ستترك هذا الأمر لقواتنا في نوحاسة، إذ بوسعهم حتماً توفير بعض المناوشات للدعاية. أما الجيش الرئيسي فيفترض به أن يتحرك، في أبكر وقت ممكن في السنة الجديدة، من الغرب والشمال في الوقت نفسه، ليهاجم إشبوا على نحو مفاجئ، فيخمد التمرد بلا رحمة، ويحرق المدن إذا دعت الضرورة، ويضع الملك في الأغلال أو يلبسه النير، وما شابه ذلك».

ما الذي ولّد هذه القسوة في داخله، فكر هنوتي وهو ينظر إلى ابن أخيه بتفكير. وفي الوقت نفسه كان مبهوراً بذكاء الخطة التي يضعها.

«قبل أن يسرع الميتانيون في طلب النجدة، نندفع نحن في حركة سريعة إلى وسط المملكة»، وحرك تانوا العصا بخط مستقيم تقريباً نحو الجنوب، «ونحتل العاصمة واشوكاني. وقد ننجح في أخذ توشراتا أسيراً. بعد تحقيق ذلك، سيكون من السهل التقدم غرباً، للالتقاء بقواتنا في نوحاسة، ومن ثم نضم إلينا ممالك المدن السورية الواحدة تلو الأخرى، حتى نصل إلى حدود النفوذ المصري، التي لا بدّ لنا من احترامها طبعاً. كما لا بدّ لأوغاريت حتماً من أن تقدم دعماً عسكرياً. والقوات المتبقية في كيزواتنا يجب تحريكها في الوقت المناسب. هذا كله يتعلق طبعاً بدقة الروابط والاتصالات». اعتدل تانوا في جلسته واستند على العصا. التفت إلى هنوتي وسأله: «ما رأيك؟ هذه الخطة يمكن أن تنجح».

«بل إنها رائعة. سيركز الجميع أنظارهم على موكيش، ولن يتوقعنا أحد في الشمال. إنها خطة ذكية جداً. سيتحمس لها الملك وجميع أركان قيادة الجيش. المهم هو أن يبقى

مقصدنا سرّياً تماماً. لا يجوز أن يطلع على التفاصيل سوى قلة في القيادة. والتحضيرات يجب أن تتوزع، بحيث لن يتمكن أحد أن يخمن مسبقاً المسار الحقيقي للحملة. دعني أعانقك! يبدو لي أنك قد وجدت الحل لهذه المشكلة العويصة. الحمد للأرباب، وخاصة لزبابا!.

وكان أرباب حتّوشا الألف قد اتحدوا لنصرة المملكة، فتحقق ما أعلنه الكهنة بعد معايتهم الدقيقة وتأويلهم للعرافة، ولا سيّما علامات الكبد: دخل الربيع أرض المملكة مبكراً شهراً كاملاً عن عادته، ومع ذلك تمكن الزوج الملكي بعناء كبير من أداء مراسم (عيد كروكوسه) حسب التعاليم الموروثة بدقة. هللت الجماهير في كل مكان مفتونة بجمال الملكة، مثلما تمتعت مالنيجال بتكريمها شعبياً.

بعد العيد، وبسرعة كبيرة، جُمّعت التحضيرات الكثيرة الموزعة في أنحاء المملكة في حتّوشا: أعداد لا تحصى من العربات القتالية القابلة لل فك والتركيب، أسلحة متنوعة، جرابات الجنود التي يضعون فيها ممتلكاتهم الشخصية، والكثير غيرها. وحسب الخطط المرسومة بدقة، جرى تجنيد المقاتلين وتشكيل القطعات منهم، وتجهيز الخيول ودواب الحمل والمؤونة الغذائية والخيام، وتوزيعها على الوحدات. كما تلقّت كل فرقة أوامر المسير الخاصة بها.

حسب اقتراح تانوا، أرسلت في أواخر الخريف قوات حتية ضاربة إلى نوحاسة، وأخذت قوة الاحتلال الميتانية على حين غرة، وأسرت أفرادها في العاصمة أوغولزات، أما من قاوم فقد قُتل، وتمكن البعض من الهرب. أعيد تنصيب سّرّوسبي ملكاً، وجن جنون توشراتا في ميتاني، لكنه لم يعد قادراً على اتخاذ أي إجراء، لأن أمطار الشتاء وثلوجه جعلت الطرق غير سالكة تقريباً. في الربيع تلقت القوات الحتية في نوحاسة دعماً عسكرياً، بناءً على الخطة. وتحرك الجيش الرئيسي مغادراً حتّوشا كعادته، على مرأى من جميع الجواسيس الأجانب. لكنه بدل أن يعطف جنوباً، توجه شرقاً نحو ساموحا. ترى هل سيخوض معارك جديدة ضد الكشكيين؟

في ساموحا بدأت حملة عسكرية، غيرت مجرى التاريخ. فخلال شهور قليلة احتل الحثيون بقيادة اللابارنا شويلوليوما، ورئيس أركانه هنوتي، والقائدين لويابي وكنتوزيلي جميع البلدان من إشوا إلى بحر الغرب العظيم حيث تبدأ منطقة النفوذ المصري. في ساريسا انقسم الجيش قسمين. توجهت الفرقة الكبيرة بسرعة عبر الجبال إلى

ماليديا، وعبرت نهر بوراتو نحو إشوا. أما الفرقة الأصغر بقيادة هنوتي فقد شقت طريقها عبر الأراضي الحثية إلى بوراتو وتبعت سلسلة الجبال الموازية له جنوباً حتى مصب نهر إشوا، وتابعت طريقها شرقاً بموازية النهر حتى مخاضة أنزيتا. ومن هناك انقضت كالنسر على أرض إشوا الخصبة في الجنوب، وبلغت العاصمة في الوقت نفسه مع الفرقة الكبيرة. لم تكن إشوا مستعدة إطلاقاً لهذا الهجوم من جهتين، فسقطت. وقبل أن تُدمر وتحرق المناطق الأخرى، استسلم الملك لرحمة شويلوليوما وأقسم ألا يتحالف مع ميتاني ثانية، وأن يبقى إلى الأبد تابعاً لحتوشا. فُرض على المهزوم مباشرة تقديم مساعدة عسكرية من جياد ودواب وأغنام وماعز. وعقاباً له على خيائته فرضت عليه إتاوة من النحاس الذي يستخرج من الجبال المجاورة. ولقاء ذلك سلّمت البلد وسكانها.

أما القوات الميتانية المتقدمة من الجنوب فقد استقبلها الحثيون على الطرف الآخر من المعبر المؤدي إلى منبع نهر إيدقلا (دجلة) وصدّوها، فتقهقرت. طاردها الحثيون على طول النهر عبر مسالك جبلية وعرة، متعقبين توشراتا الهارب جنوباً. لكنه تمكّن من الانسلاخ والهروب، في حين احتلت القوات الحثية عاصمة الميتانيين واشوكاني ونهبوها، ونصبوا على عرشها رجلاً موالياً لهم. وقد وفي ملك بابل بعهدته: فعندما توجه ابن توشراتا مع متي عربة قتالية إلى الحليف المزعوم في الجنوب، طالباً الحماية والدعم، رفض بورنا بورياش طلبه، لكنه لم يتدخل في القتال بصورة مباشرة.

دفع شويلوليوما قواته نحو الغرب الآن، بلا هوادة، عبر المدينة المقدسة حرّان، عائداً نحو نهر بوراتو. ولتجنّب كركميش المتمردة والجيدة التحصين، اختارت الجيوش الحثية المعبر الجنوبي عند إيمار في أرض أشتاتا، التي استسلمت للغزاة، حتى وصلت نوحاسة، حيث التقت بالقوات المعسكرة هناك. تبع ذلك احتلال جميع ممالك مدن شمالي سوريا، التي كانت تابعة للنفوذ الميتاني: بركا، حلپا، موكيش، نيا، وتونيب المجاورة لقطنا مباشرة من جهة الشمال، أو استسلامها. وأبرمت اتفاقيات تبعية مع جميع الملوك المحليين، الذين حافظ كل منهم على سيادته داخل حدود مملكته، فباتوا الآن خاضعين لحماية حتوشا. أما نيقمدو ملك أوغاريت فقد توجه مع حاشيته حتى الألاخ في مملكة موكيش، للالتقاء بالملك العظيم شويلوليوما ومبايعته. وهناك أعلن شويلوليوما إعادة تنظيم المنطقة: تُحلّ مملكتا موكيش ونيا، ويلحق القسم الأكبر من أراضيها بمملكة أوغاريت. تبقى الألاخ مملكة مدينة بإدارة حثية مباشرة. يُعيّن تليينو ابن شويلوليوما وممثل الإدارة

الحتية في أذانيا، نائباً للملك العظيم، ويكون مقره الجديد مدينة حلبا. كان تليينو سابقاً يقوم بمهمة القاضي في النزاعات بين الممالك التابعة لحتوشا، وصار الآن مخولاً بإخماد الفتن وصدّ الهجمات.

لقد حقق شويلوليوما هدفه، فشمالى سوريا حتى حدود النفوذ المصري بات في يده. «من جبل لبنان حتى شاطىء بوراتو البعيد صارت المنطقة ملكي»، دون لاحقاً في تقريره المرفوع إلى أرباب حتوشا. وحسبما أكد سابقاً لإخنتون، احترم شويلوليوما حدود منطقة النفوذ المصري. ولكن ماذا عن قطنا، ذات الولاء المعلن لمصر؟ كيف سيحسم الملك العظيم الأمر؟ هل يتوجب احتلال قطنا أيضاً؟ فيما تردّد شويلوليوما مستجيباً لرجاء تانوا بإعطاء الملك أكيزي فرصة أخرى - وقد أخذ تانوا على عاتقه مهمة مخاطبة أكيزي ومجلس الأعيان - سُحب زمام المبادرة من يد شويلوليوما. فقد أعلن ملكان تابعان لمنطقة النفوذ المصري، وهما عزيزا الأموري وأيتاكما القادشي الحرب على الحثيين.



على الرغم من الخطر المهدّد، تنفس الجميع الصعداء. لا بدّ أخيراً من مبادرة ما، من أن يحدث شيء ما، من أن ينتهي هذا الانتظار لمجهول ما. لسنوات طويلة بقي الصراع معلقاً، وعلى وشك أن ينفجر، ما أرق أعصاب الجميع. كان الوضع يتراوح بين استرخاء مفتعل واستعداد متوتر للهجوم فوراً إن اقتضى الأمر.

كان ألبادى هو عزيزا الأموري، الذي يقود عدداً كبيراً من شيوخ العشائر الموزعة بين جبال لبنان وساحل البحر. فقد رأى ساعة مجده آتية، ولا سيّما أنه قد سار على خطا أبيه وترأس الائتلاف الطامح إلى إقامة مملكة سورية مستقلة. وبقي طوال سنوات يلعب بمهارة على الحبلين. كان يطمئن إخنتون باستمرار، رغم عقده الأحلاف ضد مصر مع حكام جنوبي سوريا وكتعان، زاعماً أنهم إنما يتحدون خشية هجوم حثي متوقع. وكتب لإخنتون مخادعاً: «فقط كي لا يدخل شويلوليوما إلى أرض أمورو، أرض سيدي. نعم، إنني خائف على أرض سيدي». وعلى إخنتون أن يدعمه بقواته. وهذا ما لم يفعله إخنتون، لعلمه بأن عزيزاً يعقد الأحلاف ضد مصالح مصر، وكتب له مهدداً: «أنتم تأكلون معاً وتحتسون مشروبات ثقيلة معاً. لماذا تفعل ذلك؟ لماذا تصادق حكاماً يحاربهم الفرعون؟ أتريد أن تموت مع عائلتك كلها تحت البلطة؟». ولكن لم يصدر

عن مصر أكثر من تعبير الاستياء هذا، ما جعل عزيزا يعلق ساخراً: «زئير هادر لأسد بلا أنياب!».

أما الآن فقد كان الحثيون موجودين بجيوشهم في شمال سوريا. وهذا ما لم يحسب حسابه عزيزا، رغم كل التحذيرات. كل الأخبار تتألى من مناطق القتال منبئةً بنصرٍ حتىّ تلو الآخر، أو باستسلام بعد الآخر. وكانت القوات الحثية تتحرك بلا هوادة نحو الجنوب، فصار لا بدّ من توقع الأسوأ.

أوفد عزيزا سفراء رسميين إلى ملوك قادش وقطنا والآخرين جميعهم، مطالباً بالتحالف معاً لطرد الحثيين. وفي الوقت نفسه أرسل رسائل سرية إلى المتآمرين معه، أيتاكما وتيرو والشيوخ بوسور، يخبرهم فيها بأن اللحظة المناسبة لبدء التحرك قد أتت أخيراً، وأن عليهم استخدام كل نفوذهم، وتهيئة المرتزقة المأجورين، وإسكات المعارضات الداخلية تحت ستار ضرورة صدّ الحثيين. إلا أن مخططات عزيزا لم تنجح. فأيتاكما ملك قادش، الذي شكك منذ البداية بجدوى خطة الحركة الانفصالية، تردد، لأنه لم ير أمامه فرصة حقيقية في مواجهة القوات الحثية الجبارة، هذا من جهة، ولم يقتنع، من جهة أخرى، بسكوت المصريين المريب حيال إقامة مملكة سورية مستقلة. كما رفض احتمال أن يصبح عزيزا البدين سيداً على الجميع، فهو أحقّ بذلك.

ومن دون أن يجيب أيتاكما عزيزا، توجه إلى الملك أكيزي بالسؤال، عمّا إذا لم يكن من الأجدي الاستسلام للحثيين، ما دام الفرعون قد تخلى عنه.



تنهّد ملك قطنا وقال: «أشعر أن الجميع يلحون عليّ من جميع الجهات. المعلومات التي تصلنا متناقضة. فكيف لي أن أحسم أمري؟».

«كنت أعتقد أنك قد حسمت أمرك بوضوح إلى جانب إخناتون» أجابته كيا. كانت بالغة القلق، فزارت أخواها في جناحه الخاص لتبادل معه المشورة في الوضع الراهن، ولتطمئن إلى أنه يحيط الفرعون علماً بالمستجدات، إذ لا بدّ من أن يتحرك الفرعون أخيراً ويسرع بإرسال النجدة.

«ما معنى حسمتُ أمري، يا أختي العزيزة؟ أنا لست وحدي. هناك مجلس في قطنا. وإضافة إلى ذلك علينا في المقام الأول أن نهتم بأمرنا الخاصة. وهذا كله بالغ التعقيد».

«أوضح لي! يحتمل أن نصل معاً إلى حل».

كان قد مضى وقت طويل منذ أن سعت كيا بنفسها للحوار مع أكيزي، الذي كان يقدرها عالياً، لذكاء أسئلتها وأفكارها. وفي الوقت نفسه كان يخشاها للسبب عينه. لكنه اليوم كان شاكرًا لها قدومها، فقد بدت له الأحوال مضطربة جداً.

«من أين أبدأ؟ بما يهملك بالتأكيد أكثر من غيره. لقد أرسلت عدّة سعاة إلى إخناتون، وكذلك إلى حكام الممالك المجاورة، فلما أنهم لم يجيبوا، وإما لم يقولوا شيئاً مفيداً في جواباتهم. وإخناتون، كما يقال، كرّس نفسه لربه كلياً. إنه غير مهتمّ بنا».

«ولكن ألا يدرك أن الحثّيين لن يتوقفوا حتى يحتلوا الأرض كلها، وربما مصر أيضاً؟ لا بدّ من أن تلحّ في توضيح ذلك له».

«يا أختي، اهدئي! سأثمنك الآن على أمر، لا يجوز أن تذكره لأحد، إطلاقاً. هناك اتفاق بين الفرعون وملك الحثّيين العظيم على كل شيء. مصر ستترك ميثاني لتسقط، وحتّوشا ستحترم منطقة النفوذ المصري. وهذا ما يجعل حسمنا لموقفنا عسيراً، فنحن نجلس بين كرسيين».

«هل أخبرك تانوا بذلك؟». فأوما أكيزي.

«وأنت تصدقه؟».

«ولماذا يكذب عليّ؟ ما مصلحته في ذلك؟».

«كي يعمينا عن الحقيقة، فيتمكن الحثّيون بضمير مرتاح من انتزاع قطننا إلى جانبهم». نظر أكيزي إلى أخته مبهوتاً، ثم قال: «كنت أظن أن تانوا صديقك أنت أيضاً. لقد بذل جهده دائماً ليكون إلى جانبنا. ما الذي وقع بينكما؟».

هزت كيا يدها بإشارة فظة، فتابع قائلاً: «طيب. هذا ما يتعلق بمصر. ليس ثمة ما نتوقعه منها حالياً. ولكن، ثمة أمران جديدان، قد يفاجئانك، إن لم تكن شالا قد سبقتنني بخطوة! وهما يربكاني جداً. عزيزا الأموري دعانا جميعنا إلى ائتلاف ضد الحثّيين...».

«أعرف ذلك».

فقال أكيزي متبرماً: «دعيني أنتم كلامي! وفي الوقت نفسه أرسل سعاة إلى المتأمرين معه بأن الوقت قد آن لتوجيه الضربة».

فقاطعته كيا ثانية: «كيف عرفت ذلك؟».

فأجاب مسروراً بمعرفته أكثر من كيا: «بفضل يقظة مخبرينا، تمكنا من الإمساك بالساعي الذي أرسله عزيزا إلى تيرو. وبممارسة بعض الضغط عليه اعترف بكل ما يستحق أن نعرفه».

«أتعني أن بوسعنا الآن كشف كل شيء؟ جريمة قتل أبي؟ جميع المكائد والغزوات والسرقات؟ هذا لا يصدق، بعد كل هذه السنين».

«مهلاً، مهلاً. أنت تعرفين جيداً، أن ليس بوسعنا كشف كل شيء. نحن على الأقل صرنا متأكدين الآن من صحة ظنوننا تلك. أما بالنسبة لمجلس الأعيان فلا بدّ من أن نوازن بدقة بين ما يُكشف له عنه وبين ما نبقية لنا فقط. وهنا تكمن مشكلتي. ولكن، ثمة أمر آخر. تقريباً في الوقت نفسه وصلّتي رسالة من أحد المتأمرين».

«من أيتا كما ملك قادش؟».

«منتهى الذكاء!». قال ذلك معترفاً بحدّة ذكائها. فربطها بين الأمور كان رائعاً. وأضاف: «منه بالذات. وهل تعلمين أيضاً، ما يقترحه علي؟».

هزت كيا رأسها نفيّاً.

«ما يقترحه هو أن علينا التفكير بالاستسلام لحتوشا. ما رأيك بهذا؟».

«هل تأكدت من أن الرسالة منه بالذات؟».

«عليها ختمه».

«هل هذا فخ؟».

«كيف لي أن أعرف؟! إما أنه يخشى حقاً قوة الحثيين، مع إدراكه لعدم مجيء نجدة من مصر، أو أنه لا يحب عزيزا، أو أو أو. ماذا يفترض بنا أن نفعل؟ لا شيء؟ نتنظر؟ هل ثمة ما نخشاه؟ ألن يُحترم استقلالنا؟ الأمر الواضح هو أننا لن نصمد الآن في معركة، ولا سيّما وحدنا. نحن لسنا مجهزين كفاية. ثم ماذا بمقدورنا في مواجهة السلاح الحثي العجيب؟».

«ما هو هذا السلاح؟».

«الشائعات عنه كثيرة. حتى أنا لا أعرف ما هو تماماً. يجب أن أسأل ثانوا في المرة القادمة. لكن هذا ليس مهماً الآن. المهم هو أن أكون على بينة من الموقف الذي يجب أن أتخذه في المجلس، وبأسرع ما يمكن».

نادراً ما شعرت كيا بالحيرة كالآن. لماذا خان إختاتون ميتاني؟ هل هذه هي الحقيقة؟

يبدو كذلك، وإلا لأرسل قواته كحد أدنى. كما يبدو أنه موافق أيضاً على تبعية أوغاريت لحتوشا. هل ينسحب من شمالي سوريا. إذاً هناك احتمال لوجود هذه الاتفاقية مع شويلوليوما. تماماً مثلما أسر لها تانوا. ولكن أيمن الثقة بكلمة الملك حتي؟ هل سيحترم الحدود؟ وهل سيحترم مملكة مستقلة مثل قطنا؟ أتراها كانت مخطئة عندما شتمت تانوا؟ اعتملت في داخلها مشاعر متضاربة. ما هو الأفضل لقطنا؟ لا بد لها من التماس نصيحة الربة.

قبل انعقاد مجلس الأعيان وصل تانوا إلى قطنا، والتمس مقابلة الملك فوراً، بحضور شالا وكيا، ومن دون أية مراسم.

«أنت ببساطة رجل يعتمد عليه. أهلاً بك يا صديقي تانوا! لقد جئت في الوقت المناسب. ماذا تحمل من أخبار جديدة؟».

وصف تانوا باختصار وضع ممالك مدن شمالي سوريا في ظل النظام الجديد الذي وضعه شويلوليوما، ثم انتقل للحديث عن قطنا، وعن أن الملك العظيم بانتظار إشارة واضحة منها. أشار تانوا إلى الاتفاق بين شويلوليوما وإخناتون، ووعده باحترام منطقة النفوذ المصري. وأن الأمر الوحيد الذي يطلبه الملك العظيم هو اتخاذ قطنا موقفاً صريحاً إلى جانب الحثيين، وفي المقام الأول، المساواة مع المصريين على صعيد الامتيازات التجارية. إنه لا ينوي أبداً احتلال قطنا وضمها إلى المملكة الحثية. ولا ضرورة حتى لإبرام اتفاقية تبعية. تكفيه اتفاقية تجارية لكي تصبح حركة البضائع مع بابل آمنة تماماً وملائمة من حيث الأكلاف، ولا سيما بعد التوصل إلى تحالف معن وإلى رباط مصاهرة. ولن يكون في هذا أي استفزاز لإخناتون.

«يا كبيرة كهنة قطنا ويا ملكي!». قال تانوا، وشمل كيا الواقفة معها بنظرة خاطفة، مستها على نحو غريب «تعرفون جميعكم اهتمامي بهذه المدينة. فأرجوكم من القلب أن تبدوا اهتماماً جدياً باقتراح الملك العظيم. إنه عرض استثنائي، ولا داعي لتأكيد ذلك. الملك ما زال مع الجيش في الألاخ. إنني أوصيكم بإرسال سفيركم إليه هناك بسرعة!».

«يجب أن نطرح هذا كله للنقاش في المجلس!».

«أعرف، ولكن لا ترددوا طويلاً!».

انحنى تانوا وانسحب فوراً من القصر والمدينة وانطلق على طريق العودة. لم يتبادل مع كيا شخصياً أي كلمة.

«كان جاداً تماماً فيما قاله. اعتقد أنه أراد حقاً تحذيرنا. وإن لم نستجب، فسيهاجم الحثيون قطننا أيضاً».

أومات شالا برأسها موافقة.

«ما هذا الذي أسمعُه؟ أختي مترددة؟ وأنت أيضاً شالا؟ أما أنا فأرى أنها دلالة ضعف، أن يلتمس الملك العظيم المحترم وبأدب اتفاقية تجارية. ربما كان يخشى قطننا أكثر مما نتصور». وأمعن أكيزي التفكير قليلاً في هذا الاحتمال، ثم قال: «خطرت ببالي فكرة الآن، يحتمل أن تقلب الوضع رأساً على عقب». أشرق وجهه بشكل ملحوظ، إذ كان على ما يبدو راضياً عن نفسه. نظرت إليه المرأتان متسائلتين، لكنه صدهما قائلاً: «لا، ليس الآن. يجب أن نتباحث في هذه الأمور كلها في المجلس»، ثم وبلهجة شبه أمرة أضاف: «اذهبا الآن واستشيرَا عرّافة الربة».

غادرت كيا جناحه من دون تحية.

«ألن تخبرني أنا عما تنوي فعله أيها الملك أكيزي؟!». وأضافت في محاولة ثانية «قد يسهّل هذا تساؤلاتي لدى الربة».

تردد الملك برهة، ثم قرر أن يطلع شالا على خطته. سيكون من المفيد أن تكون هذه المرأة القوية إلى جانبه. إذا تمكنت على الأقل من أن تشكّم حركة كيا، فهذا في حد ذاته مكسب كبير.

بعد بضعة أيام انعقد اجتماع مجلس الأعيان في قاعة القصر الكبرى. هيمن على الجو إحساس بالريبة والخوف. وقف الأعضاء في مجموعات صغيرة وهم يتبادلون الأحاديث بقلق. كان الجميع يعرف أن الأمر يتعلق بمصير المدينة.

عاودت كبيرة الكاهنات طرح أسئلتها على ربة المدينة: هل ستنجح خطة الملك؟ كيف سيتصرف الحثيون؟ والمصريون؟ وبقية ملوك الممالك؟ لكن الربة امتنعت عن إعطائها أجوبة واضحة، كما أنها لم ترسل رؤاها إلى كيا أو إلى كاهنات أخريات. بقيت المرايا الداخلية سوداء. أما كهنة الرب بعل وبقية الأرباب فقد كانوا في حالة مشابهة من الاضطراب بسبب عدم وضوح البشارات. ماذا ينتظر قطننا؟ لم يبدُ أن لهذا الغموض أي تأثير في الملك، فغياب عرافات سيئة يمكن أن يفسّر على نحو إيجابي. كيا تملكها الخوف. ماذا يخشى لهم أخوها؟ أي لعبة يلعب يا ترى؟ يا ربتي أين عونك؟

افتتح الزوج الملكي الجلسة، وقال الملك أكيزي: «ستكون هذه إحدى أصعب جلساتنا. فدعونا نطلب العون من ربة مدينتنا ومن بقية الأرباب ومن أسلافنا الأحبة!». ثم قدّم توصيفاً للوضع الراهن: مدينة تونيب المجاورة شمالاً باتت في يد الحثيين. الجيش الحثي ما زال في الشمال مستعداً للتقدم نحو قطنا. عزيزا الأموري دعا المنطقة كلها إلى التصدي تحت إمرته للحثيين. لكن الملك أيتاكما القادشي راغب في الاستسلام لحتوشا. هنا قاطعه تيرو غاضباً وزاعماً بأن هذا يستحيل، فالملك لا يمكن أن يستسلم للحثيين من دون قتال.

«ما الذي يدعوك إلى هذا الكلام يا شيخ تيرو؟ ها هي ذي رسالته!».

«إنها مزيفة. إنها إحدى حيل الملك ليشل المجلس عن الفعل»، قال تيرو ملتفتاً إلى عامة الحضور، وأضاف: «فأنت وسفير الملك الحثي متفقان معاً!».

«أتقصد تانوا؟». تساءل أكيزي مندهشاً حقاً، وأردف: «كلكم تعرفون تانوا أو تالزو، منذ أن كان فتى في زيارته الأولى للمدينة مع أبيه. إنه صديقنا!».

«ومع ذلك هو سفير الملك العظيم!».

«لقد خرجت عن الموضوع، يا شيخ تيرو. ما الفائدة من هذا؟!».

«الأمر واضح جليّ: أنت تريد لقطنا أيضاً أن تستسلم!».

«أظن أن جميع من في القاعة يعرفون، أنني كنت دائماً أدعو إلى موالات مصر كقوة حامية لنا. فما الغرض من تجنيك هذا الذي لا أساس له؟». وبقي أكيزي هادئاً مسترخياً، فيها هو ذا خاله يكشف نفسه بنفسه! وأردف: «غير أن اعتراضك مفيد جداً لنا، فما أدراك أنت برغبات الملك أيتاكما الحقيقية؟ من أين لك هذا الاطلاع الدقيق؟».

شاب الشك نظرة تيرو. إلام يهدف الملك؟

فتابع أكيزي: «أنا سأعطيكم الجواب أيها الأعيان». ونهض واقفاً ليجذب إليه انتباه الجميع، «وهو جواب سيّء يا أصدقاء، سيّء لأن ما سأقوله يتعلق بأحد أفراد عائلتي. ولكن لا مجال للسكوت عليه. الحقيقة يجب أن تخرج إلى النور. هنا، هنا يقف الخائن! لقد تأمر تيرو مع عزيزا الأموري، وأيتاكما القادشي، والشيخ هوسور قائد البدو في منطقة قادش. هؤلاء الأربعة أرادوا إخضاع ملوك وأمراء سوريا وكنعان. كنت دائماً تطالب في المجلس بمملكة سورية مستقلة، يا تيرو. ما زال طلبك يرنّ في آذان الجميع. وهدفك الحقيقي هو أن تصبح أنت ملكاً مثل عزيزا وأيتاكما. فمن كان سيلغي الآخر؟ لكن الأمور لن تصل إليّ

هذا الحد! كفى مؤامرات! أيتاكم أدرك أخيراً دلالات العصر، وأنه من الجنون التصدي لقوتين أو ثلاث قوى عظمى!«.

توقف أكيزي قليلاً كي يسري مفعول كلماته. نظر إلى وجوه مرتاعة وإلى تيرو المتجمد في مكانه بلا حراك، ثم تابع: «لقد خدعتم رعاياكم. طالبتكم بالاتحاد لمواجهة الحثيين في المعركة، وهدفكم الحقيقي هو إخضاع الجيران الذين رفضوا دعوتكم. وبعض الحكام الميالين نوعاً ما اشترىتموهم بالكنوز التي نهبتوها من القوافل. كنوز نهبتها أنت من عائلتك بالذات. حتى أملاك إختاتون لم تردعكم عن النهب. اشترىتم مرتزقة. تريدون التضحية بزهرة شبابنا. وكل هذا بسبب الطمع بالسلطة. لقد خدعت مدينتك بالذات بصورة مشينة، يا تيرو! أيها الأرباب!«.

عاود الملك الجلوس على عرشه وغطى وجهه بيده برهة، ليؤكد انزعاجه. نهض أوبيا الناطق باسم المجلس مرتاعاً، وقال: «ما ردك يا تيرو بن ناپليما؟». جلس تيرو على كرسيه منكسراً، وبدا كمن أخذ مباغته، صامتاً، غارقاً في أفكاره. «وأنت، أكيزي، من أين عرفت كل هذا؟ ألدك أدلة على مزاعمك؟». سأل أوبيا الملك، بعدما تبين أن تيرو لا يريد الدفاع عن نفسه.

«يمكنني تقديم شهود!». وأخبر أعضاء المجلس عن الساعي الموقوف، الآتي من أمور. وأضاف: «كما أقترح تفتيش دار تيرو ومخازنه في دار البلد، حيث سنعرث بالتأكيد على بعض القطع المنهوبة». هذه الفكرة خطرت في بال أكيزي آنياً. وبدا أن رميته قد أصابت الهدف، إذ لم يعلن تيرو بكلمة، ما اعتبره المجلس اعترافاً.

«يا أعيان قطنا»، قال أوبيا بعد مداولة قصيرة مع أعضاء الدائرة الداخلية في المجلس: «يفترض بنا الآن في ظني اتخاذ القرارات المهمة. لهذا نقضي بفصل تيرو بن ناپليما من المجلس ويوضعه مبدئياً تحت الإقامة الجبرية المشددة، إلى أن نلتفت إلى قضيته». من دون أدنى مقاومة ترك تيرو الحرس يقودونه خارجاً.

مثل تمثال معدني بوجه مكفهزّ تابعت الملكة الأم بلتوم فضيحة أخيها، وتحديداً على يد بكرها الحبيب. وأخيراً نهضت بعناء واقفة وغادرت القاعة مستندة على وصيفتها. كادت كيا أن تأسف لها، ثم التفتت نحو أخيها. يا لها من ضربة معلم، لم تتوقع صدورهما من أخيها. لم يترك لأحد من الحضور - سواها وشالا - أن يحدث بمعرفته بتورط تيرو في جريمة قتل أبيه. ليس بوسع أحد أن يقدم الدليل على معرفته بالأمر. وهكذا تمكّن أكيزي

بنجاح أخيراً من استبعاد الخطر المتوقع من تيرو، وأن يستقر مرتاحاً على عرش نظيف.. على الأقل بالنسبة للبشر. أما الأرباب فلا يخفاهم شيء! ولكن ألا يعني هذا استمراره في بناء ملكه على أكاذيب؟ لا، ليس أكاذيب، بل كتمان! صحيح، فهو لم يتطرق إلى الأمر بتاتاً، لكنه زعم أن الحثتين يتقدمون باتجاه قطنا. انتهزت كيا فرصة الاضطراب العام في القاعة، كي تصل إلى شالا وتسألها عن الأمر. فأجابتها هذه بلهجة تقارب التعنيف: «لا تذكرني الأمر، إطلاقاً».

أظلمت عينا كيا وترنحت. ولو لم تسندها شالا لسقطت على الأرض. أشارت شالا إلى أمينية، فهرعت هذه لنجدتها، وقادت كيا إلى كرسيها وقدمت لها ماء لتشرب. بقيت الغشاوة على عينيها. خطرت في بالها كلمات غير مترابطة ومبهمة. لم يغادرها الشعور بالدوخة. أرادت أن تتكلم، ولكن لم يخرج أي صوت من بين شفيتها. أحست بغثيان، وأخذت ترتجف. حاولت أن تنهض متمسكة طريقها كالعمياء. أدركتها أمينية فوراً وقادتها إلى خارج القاعة. وبعناء شديد ترنحت كيا خارجة من باب جانبي إلى الباحة.

«كيف سارت الأمور بعد خروجي؟»

كانت كيا مستلقية على مضجع في غرفة معيشة أمها. لم يكن بمقدورها أن ترجع مع أمينية إلى بيت الربة في حالتها تلك. بعد أن استراحت قليلاً، وتراجع الشعور بالغثيان والدوخة، وزالت الغشاوة عن عينيها، رجت صديقتها باكية أن ترافقها إلى جناح أمها، حيث أرادت أن ترتاح وحدها. كانت هاربة، لاجئة إلى مطارح طفولتها.

ناجت ربتها، التي أرسلت إليها الإشارة. ثمة عمل باطل يُفترض ألا تراه أو لا يجوز أن تراه. بصبر نافذ انتظرت عودة أمها من الاجتماع. وإيست لم تستغرب وجودها عندها. أحاطت ابنتها بذراعيها بحب، مثلما كانت تُنمئها أيام الطفولة، فتدللها بعصير الفواكه المبرد وترطب لها الجوب بالمروحة.

«لقد ثبتت أكيزي مركزه»، أجابت إيست «لا أدري ما إذا كان هذا لمصلحته أو لمصلحة المدينة. هو على أية حال يفعل ما يوسعه من أجل قطنا. لكن لا تسأليني عما إذا كان يختار الوسائل المناسبة لذلك». وتنهدت.

«أمي، رجاء، أخبريني، ماذا قرروا؟»

«أرى يا بنتي، أنك سريعاً ما ستتحسنين». رغم جدية حالة ابنتها لم تستطع إيست أن

تكبت ابتسامتها. ثم قالت: «اتفقوا على عدم التعاطي مع عزيزا بعد اليوم. إما أنه بات على علم بأن ساعيه إلى تيرو قد وقع في المصيدة، وأن الخطة قد فُضحت علناً، أو أنه سرعان ما سيرف. أنا متشوقة لمعرفة كيف سيتصرف».

«أرجح بوقاحة، كمادته دائماً».

«هذا مدعاة للخشية، فهو رجل بدائيّ، طيب، لتتابع.. وقرروا تنبيه الفرعون إخناتون مجدداً إلى خداع عزيزا. أخوك سيكتب الرسالة فوراً وسيصوغها تعبيراً عن الولاء لفرعون».

«هذا يعني أن قطنا ترفض طلب حتوشا!».

«ترفض، كيف؟».

عَضَّت كِيا على شفتها، ثم قالت: «قصدتُ، أن قطنا لن تستسلم لحتوشا».

«لا. ما دامت الضرورة لذلك غير ملحة. ويبدو أنها غير موجودة».

«هل سيحدث قتال إذاً، في حال هاجمنا الحثيين؟ هذا جنون. نحن غير مستعدين لهذا إطلاقاً».

«الأرجح أن القتال سيحدث، ولكن من دون قطنا، التي ستبقى على الحياد. من الواضح أن أبتاكما قد غيّر رأيه مؤخراً ثانية، ويريد فعلياً مع عزيزا مهاجمة الحثيين بدلاً من الاستسلام لهم. هذا هو على الأقل ما يقوله الملك أكيزي».

يا له من ابن آوى، فكّرت كِيا. إنه لم يذكر كلمة واحدة مما نصحه به تانوا بالحاح. لماذا لا؟ أخذت تقلب الأمور على وجوهها وتعيد التفكير، إلى أن اعتقدت بأنها قد فهمت خطة أكيزي. سينجح أكيزي بطريقة ما بدفع عزيزا، إلى التبعية للحثيين. سيقول لأبتاكما مثلاً، إن قطنا تفضّل القتال إلى جانبه وجانب عزيزا، على التبعية للحثيين. أو أنه سيرسل ساعياً إلى تانوا، ليخبره بأنه قد علم من رجال استطلاعهم أن الاثنيين سيهاجمان الحثيين - هناك خدعة ما قيد التحضير الآن. وفي حال وقوع هذا القتال، فهذا سيؤدي إلى نقض اتفاق شويلوليوما مع إخناتون، لأنه يقا تل حلفاء مصر، بل رعايا مصر، وعلى أرض مصرية. عندئذ لا بد لإخناتون من أن يتحرك، لأنه لن يقبل بهذا. وتبقى قطنا خارج المعمعة، إذ يرجّح ألا يقترب الطرفان من المدينة بنية سوء. فيكون القرار الحاسم بذلك قد تأجل. كيف تمكّن من التلاعب بأعضاء المجلس بهذه البساطة؟ وماذا عن شالا؟ سيدتها المحبوبة الفاضلة. أي دور تلعبه، وما هو هدفها؟ لماذا منعتها من الكلام؟ ما هذه

القضية الوسخة؟ أه لو أن تانوا إلى جانبها ثانية! فهو الوحيد الذي يمكن للإنسان محاورته بعقلانية. مدت يدها إلى تميمتها، لكنها سرعان ما طردت من داخلها هذه الخواطر. فهو لا يقل عنهم تعطشاً إلى السلطة. ألم يدعم ملكه بخططه البارعة، وبكل إمكاناته؟ وهو أولاً وأخيراً ليس سوى منفذٍ للأوامر. ولكن بعد مرور وقت طويل، أقرت لنفسها: أنا مثله، أتلقى أوامر وأنفذها. إنني أنفذ مشيئة كبيرة الكاهنات، لا أكثر. وهي تزعم أنها تنفذ مشيئة الرب، لا أكثر، أم مشيئة الملك؟ أية حرية تصرف أملك أنا؟

أكد الجواسيس ما أشار إليه تانوا، بعد عودته من قطنا إلى الألاخ، للملك وهنوتي وليهية الأركان عن احتمال انتهاز عزيزا الأموري الظروف المؤاتية له لتحقيق خطته الخاصة. إنه يحشد القوات حول إرقاتا، وهي تتحرك الآن باتجاه شرق نهر أراتنو. وقد رُصدت تحركات مشابهة حول قادش. أما قطنا فهي هادئة، لا خوف من جهتها. فانسحب شويلوليو ما أخيراً مع هنوتي فقط للتشاور. ومن ثم خضع الملك للضرورة، مضطراً، وتحرك جنوباً، إذ لا يجوز التخلي بسهولة عما تحقق حتى الآن. صحيح أنه لا بدّ من محاولة التفاوض مع عزيزا وأيتاكما، ولكن إن دعت الضرورة، فلا بدّ من كسر شوكة المهاجمين بقوة السلاح.

«بخامرني شعور غير مريح بشأن قطنا»، صرح شويلوليو ما لهنوتي، وأردف: «يبدو أن تانوا لم يتوصل إلى شيء لدى الملك أكيزي، فحتى الآن لم يأت سفيره إلينا. أعتقد أننا يمكن أن نثق بتانوا حقاً في هذه المسألة؟ المستغرب في الأمر هو زيارته المتكررة لقطنا طوال هذه السنين من دون أن يتوصل إلى إبعاد الملك عن مصر. هل أخبرك بشيء ما؟ أريدك أن ترسل إلى قطنا رجالاً موثوقين، أتفهم هنوتي، وليس من طاقم تانوا. نحن بحاجة إلى وضوح الرؤية بشأن ما يجري هناك.»

«أعتقد أن الأمر لا يتعلق بتانوا، فقد بذل بالتأكيد جهده هناك، بل يتعلق بعناد ملك قطنا والأعيان. إنهم يريدون لتجارتهم حرية الحركة دون ارتباطات. وهناك مصاهرة بينهم وبين مصر.»

«لكن طلبنا لم يزعم الملك السابق.»

«يحتمل أن الابن يريد الخروج من ظل والده. لكن التكهنات لا تفيدنا شيئاً. سأنفذ

ما قلته. سأرسل أفضل رجال الاستطلاع عندي. إذا كانت قطنا تدبر أمراً ما، فسنعرفه في الوقت المناسب. وفي حال الشك، سنهاجمها».

فيما تحرك الجيش بسرعة بموازة أرائنتو، فوصل بعد بضعة أيام إلى السهل في جنوب تونيب، حيث أقيم المعسكر، هرع المفاوضون إلى أمورو وقادش لتجنب المعركة المرتقبة. كانت خاتمة الجهود المبذولة كارثية. ما فعله الملكان بقي مجهولاً، لكن واحداً من المفاوضين فقط، أعيد إلى شويلوليوما، وفي حالة يرثى لها من التعذيب، وكان معه كيس يحتوي الرؤوس المقطوعة لبقية المفاوضين. كان هذا جواب الملكين.

لم يقبل الملك العظيم هذا الاستفزاز من جانب ملكي أمورو وقادش، حتى وإن كان في ذلك تعريض أمن العلاقة مع مصر لهزة قوية، فأعلن الاستعداد لخوض المعركة. في السهل غربي أرائنتو هاجم مقاتلو أمورو وقادش والبدو القوات الحثية. وسرعان ما تبين أنهم قد استهانوا جداً بالحثيين. فاضطروا إلى التقهقر جنوباً بتسارع ملحوظ، إلى أن هُزموا وسحقوا. قُتل منهم الكثير، وحلّ الخراب في البلاد. ولم يتوقف الفتك إلا عندما التمسوا الرحمة. تمكّن عزيزا من الهرب، لكن الحثيين أسروا أيتاكما وعدداً من أعيان الإمارات والعائلات الكبيرة وشيوخ البدو المشاركين في القتال، وقرروا أخذهم إلى حتوشا. وفوراً أرسل شويلوليوما إلى إخناتون رسالة تشرح له أن تابعيه عزيزا وأيتاكما لم يتركا له خياراً سوى خرق الاتفاقية. كان واضحاً للجميع أن إخناتون سيعتبر الحلف متتهكاً، وأنه سيهاجمهم.

في هذه الحال التفت شويلوليوما إلى قطنا. فإذا كانت الأمور ستصل إلى درجة النزاع مع مصر، فيإمكان المرء أن يضم قطنا أيضاً إلى منطقة نفوذ الحثيين. وحسب أخبار رجال استطلاع هنوتي، كانت المدينة حقاً غير مجهزة للقتال.

أرسل الملك العظيم في طلب تانوا، وسأله ما إذا كان ملك قطنا مقامراً يراهن على بقاء مدينته سالمة؟ أو ما إذا كان يظن أن سوراً عالياً يشكل حماية كافية؟ فالسور العالي قد يكفي لمواجهة العدو الخارجي، ولكن ماذا عن العدو المتربص داخل المدينة؟ ضحك الملك وهو يقول كلماته الأخيرة، لكن وقعها كان مهتداً. ثم تابع قائلاً: لربما كان أكيزي ببساطة غيباً، يعتقد كالنعامة أنه في مأمن، ما دام رأسه مطموراً. ومثل هذا الشخص لا يرقى إلى مستوى صديق لتانوا.

شعر تانوا بأن الأرض تكاد تبتلعه خجلاً من هذا الاستهزاء. ولم يستوعب لماذا لم يرسل أكيزي حتى الآن سفيراً رسمياً إلى شويلوليوما، حسبما نصحه. ما الذي يجري في قطنا؟ وازداد قلقه بعد أن أكد له هنوتي، أن الملك في مزاجه الحالي لن يقبل بهذا السلوك الأبق، لاسيما بعد توصلنا إلى أن البوابات المغلقة لن تشكل عائقاً أمامنا.

قضى تانوا ليلة تمرّقه المشاعر بين موقفين. ما باله لا يتخلى عن قطنا وأكيزي وكيا؟ لقد بذل كل ما في وسعه لتحذيرهم، وهم لا يصغون، فماذا يفعل؟ بل بالعكس! ربما أصرت كيا على رأيها ثانية، بأنه قد خانهم، وأن كل ما يفعله ليس سوى فخّ. أيعقل أن تسيء فهمه إلى هذا الحد! لا شك في أنها تحب إختاتون هذا بجنون، وإلا لاحتفظت بتفكيرها السليم. لم يعد يهتمّ أمرها، فهذه التهم التي رمت بها، لا حاجة له لأن يتقبلها منها، ولا سيّما من أميرة واهمة، معجبة بنفسها. ثم تسلّلت الشكوك إلى نفسه. كيف يتخلى عنها ببساطة في حال الهجوم! صحيح أن شويلوليوما يشتعل غضباً، لأن كلاباً عصاة مهوسين بالقتال ومغرورين بأنفسهم قد اعترضوا خططه فحرفوها عن هدفها، ما اضطرّه لتعريض علاقته غير المستقرة بعد مع إختاتون للخطر. وبما أن العملية كلها لم تكن ضرورية، فإن قطنا هي التي ستدفع الثمن. خرّ تانوا على ركبتيه وأخذ يتوسل للأرياب. لا بدّ من إيجاد حل! ولشدة إرهاقه كان نومه مضطرباً.

كيا! ها هي ذي ماثلة أمامه. برقت عيناها غضباً وأخذت تشتمه، ثم انهارت فجأة بين ذراعيه وقبّلته بعاطفة لم يعهدا فيها ولم يتوقعا منها. تهاوت صورة الحلم وانتفض تانوا مستيقظاً. لقد اقترب الصباح، ولا فكرة لديه بعد، عما يجب أن يفعل. إن أي تحذير سري لقطنا سيعدّ الآن خيانة عظمى. وأخيراً قرر أن يلتمس من الملك منحه فرصة أخيرة لتغيير موقف قطنا. وإذا دعت الحاجة سيحكى له عن كيا، فقد يلين هذا موقفه. كان يعرف أن الأمل ليس كبيراً. بل كان من المضحك أن يثقل على الملك بقصة حبّ تعس: ابن تاجر متولّيه في حبّ أميرة، لكنها تحب الفرعون، الذي تزوج امرأة أخرى.. لا شك في أن قصته ستضحك شويلوليوما حتى الموت.

«كانت تلك فعلاً اللحظة الأخيرة!».

كان الارتياح جلياً على هنوتي، عندما أخبر تانوا بأن وفداً من قطنا قد وصل أخيراً. «ما أبرد دمهم يا رجل، تحجّجوا بأن كثيراً من التحضيرات الواسعة كانت ضرورية لاستقبال

الملك الحتي وحاشيته. على أية حال، سبق أن سمعتُ أعداراً أفضل. لكن ملكنا قبل عذرهم. فلنزر إذاً محبوبتك قطنا و... طيب»، قال مهدّثاً ابن أخته الذي عبس في وجهه. لقد فهم، لا يجوز ذكر كيا. لكنه كان متلهّفاً لتعرّفها.

كانت المدينة والقصر مزدانين احتفالياً لاستقبال الموكب. وكانت هناك جموع غفيرة على أقدامها تهلّل للملك الغريب. عند البوابة الغربية استقبلت العائلة المالكة كلها وكثير من الأعيان والوجهاء وأصحاب المناصب والكاهنات والكهان الوفد الحتيّ ورافقه إلى القصر، الذي أدهش الضيوف باتساعه وفخامته فرش ورياشه. كانت العروض الفنية والمأكولات جيدة جداً. لقد فكروا حقاً بكل شيء لجعل إقامة الوفد مريحة وطيبة ما أمكن. وبعد أسابيع كثيرة من القتال ها هم أولاء الحتيون يستمتعون بيئته متحضّرة.

في أثناء المأدبة الاحتفالية الكبيرة استدعى شويلولوما إليه كلاً من تانوا وهنوتي كي يسرّب إليهما معلومات عن الأشخاص المشاركين في المأدبة. وهكذا حتى العودة إلى المعسكر الحتي لم تسنح الفرصة لتانوا لتبادل الكلام مع أكيزي، سوى تحيات الاستقبال. وحتى هذه لم تسنح له مع كيا، فقد كانت مع شالا مشرفتين على تنفيذ الشعائر. حاول تبادل النظرات معها، فاستجابت ولكن بسرعة ودون أي عاطفة. إذألم يتغير أي شيء في موقفها. لكنه لاحظ أن الملك وهنوتي كانا يراقبانها بانتباه.

في اليوم التالي زار وفد من قطنا، برئاسة الملك أكيزي، الحتّيين في الخيمة الملكية الكبيرة، وبرفقته عدد من أبناء أعيان قطنا، الذين سيراقدون الحتّيين إلى بلاط حتّوشا حسب العرف المتبع. وكان الغرض من الدعوة في المقام الأول أن يتطرق اللابارنا إلى الاتفاقية. ولدهشته الشديدة قدم الوسيط القطني لووايا الذي يمثل تجارها، مسودة اتفاقية شاملة، تنظم العلاقات التجارية بين مملكة حتّوشا وقطنا، ومرّرها عبر موظف حتي إلى تانوا الذي يمثل بلاط حتّوشا في المفاوضات ويقوم بالترجمة. وفسرّ لووايا هذه المبادرة غير المعتادة بأن قطنا استناداً إلى نشاطها التجاري المديد قد توصلت إلى توحيد معايير الاتفاقات، وهذا يسهّل العمل على السفير تانوا وزملائه في العمل.

ترك هذا أثراً عميقاً في نفس شويلولوما، ولا سيّما الثقة بالنفس غير العادية لدى شريكه الجديد، الذي لم ينتظر بخنوع ما قد يُقدّم إليه. لا، بل هناك بعض الجسارة، عندما يمنح هو الميزات. ولكن كاستثناء، أعجب الملك بالأمر. فالمح لتانوا بإشارة منه أن

يقدم من طرفه النصّ المجّهز للاتفاقية. يمكن للمفاوضات أن تنتظر. كان نهماً لمعرفة ما بمقدور قطنا أن تقدم. وهذا هو ما عُرض الآن بالتفصيل. وبالنسبة للملك الحتي العظيم كانت الأردية المقدمة إليه كضيف مغرية جداً. كانت مرصعة بأشكال رائعة ذات لون أحمر قاتم، لم يسبق له أن رأى مثلها. هذا اللون الأحمر يسمّيه القطنيون أرجواني. ولم يسبق لشويلوليوما أن رآه إلا على ثوب تانوا المزين بشرط عريض من هذا اللون. ومنه عرف أيضاً أن المواد المستخدمة وطريقة تحضير اللون وطريقة الصباغة تعد أحد أسرار قطنا. فأقسم الملك في نفسه على أن هذا الحال لا بد أن يتغير.

ومن جانبه قدم لئوايا أيضاً لائحة بالبضائع الحثية التي يحتمل نجاح التجارة بها في قطنا. فهمس شويلوليوما لهنوتي بأن هذا سيسعد قلب ميتانموا. افترق الطرفان على أفضل ما يرام، وبمناسبة الوداع أهدى شويلوليوما صديقه الجديد الملك أكيزي خنجراً من هبة السماء تأكيداً لتقديره العالي له. أن تلمس بيدك السلاح الحتي العجيب! ومن شدة الإثارة اهتز أكيزي. ألم يرتكب الملك العظيم خطأ بوضع هذا السلاح بين يديه؟

قبل عيد الحصاد كانت الاتفاقية بين حتوشا وقطنا قد أبرمت. منحبت المفاوضات تانوا الفرصة للبقاء بضعة أيام في قطنا قبل أن يسافر عائداً إلى حتوشا. ثمة ما تغير. بصفته سفيراً رسمياً لم يعد يقيم في القصر كالسابق، بل في دار، أعلى المدينة قريبة من دار البلد، حيث جرت معظم اللقاءات. حتماً لم يكن وضعه الرسمي فحسب، ما سمح بتسلل شيء من الغربة إلى العلاقة بينه وبين أكيزي. أخيراً عندما سنحت الفرصة لحديث شخصي في جناح أكيزي الخاص كانت التحية رسمية، خالية من الود السابق.

«لم يتضح لي إلا الآن، أنك حثي يخدم الملك العظيم. أليس هذا مستغرباً؟ كنت أتجاهل ذلك طوال تلك السنوات. كنت صديقي ومستشاري. لم أراجع نفسي ولا مرة واحدة في ما ائتمنتك عليه، أنت بصفتك عدواً محتملاً!».

«وأنا لم أخن ثقتك أبداً، يا ملكي!».

«أنت ربما لا..». ونظر إليه أكيزي متفكراً، ثم سأله: «هل كنتم ستهجمون؟»
هز تانوا رأسه إيجاباً.

«وما كنت لتحدّرننا؟».

«لقد حدّرتكم! بل ورفعت صوتي وأنا أحاول إقناعك!».

«طبعاً حدّرتنا، بل عدّة مرات حتى. وربما إلى حدود المسموح به!».

التفت الرجلان نحو الباب. کیا. كعادتها في ثوب الكاهنة البسيط، الذي يبرز قوام الصبية اليافعة فيها. ومع ذلك بدت امرأة ناضجة وشخصية وقورة، وشئ حبُّها التعس سماتها بمسحة كآبة، ما جعلها في عيني تانوا أكثر جاذبية. كان بوده الاستجابة لحافزه بأن يعانقها. لكنه بقي جامداً على كرسيه. فمن ناحيتها تحديداً لم يكن يتوقع أية مساعدة. ولكن عندما اتجهت نحوه، نهض واقفاً. وضعت يمانها على كتفه وقالت: «أحبيك، تالزو الترشي!».

هزته التحية كلياً. لماذا استخدمت اسمه القديم؟
«ليكن الأرباب معك، كيا القطنية!». أجاب تحيتها.
فصتحت كلامه بصوت لطيف، قائلة: «الربة.. لتكن الربة معي!».
«شاركينا الجلسة يا أختي!».
«هل تصافيان؟».

«أنا مسافر غداً. الاتفاقية أبرمت. إنها زيارة الوداع». يا للهجة الرسمية!
«يا للسرعة التي انقضى بها الأمر! هل الاتفاقية فكرتك أنت؟ حسب علمي، كان على ممالك المدن الأخرى توقيع اتفاقيات تبعية، أم يفترض أن أقول إنها قد خُيرت؟».
انزعج تانوا. ما الخطأ في هذا؟

«يبدو أن الأميرة مطلعة جيداً كعادتها»، أجابها وأضاف: «ربما كان ما تعيينه هذه المرة، أن لحتوشا الآن الشروط التجارية نفسها، مثل مصر. أفي هذا ضرر لقطنا؟».
«للتجار، هذا حتماً مناسب. أما من الناحية السياسية فإن قطنا متضررة طبعاً. إخناتون لن يفسر هذه العملية لمصلحتنا».
«حسب علمي، إخناتون غير مهتم بقطنا».
«مدى اهتمامه بقطنا، سنعرفه في الربيع القادم كحد أقصى، عندما تظهر قواته لمراجعة الحساب».

«وهل أعلنت قطنا تبعيتها لمصر؟ كنت أظن المدينة مستقلة. يبدو أن القرارات الحاسمة قد فاتتني».

«لا يمكنني تصور ذلك. فرجلكم، القائم بالأعمال التجارية، والذي يقوم عملياً بمهمة الاستطلاع، يزودكم على الدوام بأخبار. يقال إن خبرته بالأقمشة والأحجار الكريمة والعطور لا يعتمد عليها».

صامتاً، تابع أكيزي الجدل المتصاعد حدّةً بين الاثنين، ثم تدخل مهدّئاً من توتر الطرفين: «أنا متأكد أنك قد بذلت جهدك من أجلنا، تانوا. لنقل إن الاتفاقية هي الأفضل بين أسوأ الحلول. كنت تعرف دائماً، أنني أميل أكثر إلى جانب مصر، التي نقيم معها منذ القديم صلات جيدة. فما الذي يستدعي التغيير، ما دمت قد أسرت إليّ أن حتوشا ومصر قد تأخيا، وإن لم يكن أحد على علم بالأمر رسمياً؟ في حين أن التفات أيّنا إيداندا إلى حتوشا، قد جلب له الموت، كما تذكر. وبالمناسبة، لقد كشفنا مؤخراً كل شيء، الغزوات على القوافل وجريمة القتل. تيرو موجود الآن في الإقامة الجبرية المشددة».

«نحن كشفنا كل شيء؟». كان في سؤال كيا المبالغ في لهجة اندهاشه، أكثر مما يحتمل أكيزي. «عليك بمراجعتنا بسرعة في دار الشفاء، يا أخي العزيز. يبدو أن الأمور ليست على ما يرام فيما يتعلق بذاكرتك، بل ثمة ما ليس على ما يرام بك كلّك. لاحظت ذلك منذ مدة قريبة. أن يفكر المرء بقدرته على الإيقاع بين قوتين عظيمين، وعلى حساب آخرين، فهذا يشير إلى وجود حالة مرضية. لكنني أرى أنني أزعج حديثكما الحميم، لذلك أفضل ترككما وحدكما!».

نهضت كيا من مجلسها، ونظرت من عليائها إلى الرجلين اللذين تعرّضا لجزرها وتعنيفها، ثم قالت: «بالسلامة يا تالزو الترشي، فلتحمك الربة وتقودك إلى سبل الخير! ليلتك سعيدة، يا أخي!».

وقبل أن يتسنّى لتانوا وأكيزي أن يردّا، كانت قد غادرت الغرفة، تاركة لتانوا أسئلة أكثر من الأجوبة.

«ما بالها؟».

«لست أدري. حقاً لا أدري. يبدو أنها تعيسة. حتى أنها قد تركت بيت الربة وانسحبت إلى جناح أمها! وكبيرة الكاهنات منعتني أن أسألها عن السبب. أتعرف بماذا أفكر أحياناً؟ كان عليها أن تتزوج. انظر إلى إهلي نيكالو مثلاً. إنها امرأة رائعة، ممتلئة ومكتنزة، وولداً بعد الآخر، وهي راضية هائلة. كيا، على العكس، عجفاء تقريباً ومكروبة. وهذا ليس جميلاً، أليس كذلك؟». ونفخ أكيزي وهو يدلّك كرشه الصغير متفكراً. «ربما ما زالت تندب جبهها الكبير. لن يدهشني هذا منها، مع عنادها الدائم».

أهمل تانوا أن يسأل أكيزي، عما عتته كيا باتهاماتها. ففي نهاية الحديث كان مسروراً بعودة شيء من اللهجة الحميمة بينهما، والفضل في ذلك يرجع لسلك كيا. ولم يشأ تانوا تعريض ذلك للخطر مجدداً. ولكن بعد أن ودّع الملك، اعتمل الأمر في رأسه. كاد أن يزور الملحق التجاري حتي ليعطيه تعليمات بهذا الشأن، إلا أنه غير رأيه وقرر أن يفكر ويستقصي بنفسه. فالوضع العام في المناطق الحثية الجديدة في سوريا، حتى حدود المناطق المصرية المزاحة، بدا له غير مستقر مطلقاً.

وطريق العودة الطويل إلى حتوشا منحه فرصة التفكير بكيا وباللقاء الأخير معها. لا يمكن أن يوافق أكيزي الرأي، فكيا ذات جمال نادر، بقوامها الرشيق، وعينيها اليقظتين ذات النظرات المبهمة، ويديها البديعتي التكوين. إن مقارنتها مع إهلي نيكالو ليس وارداً إطلاقاً. ولسانها الحاد دائماً. لولا هذه الغمامة المكفهرة بينهما لاستمتع بالجدل معها، فقد كان ملهماً، كالتقاء نصل سيفك بنصل عدو بالغ البراعة. إنها لم تتردد، ولو لحظة، بل كانت ترد فوراً، لكنها كانت تفضل الهجوم على الصد. ثم إنها كانت جيدة الاطلاع، حتى تفوقت عليه. ما الذي قصدته بتلميحاتها إلى ذاكرة أكيزي؟ وماذا عن الإيقاع بين القوى العظمى؟ لا شك أنها كانت تعني مصر والمملكة الحثية. ولكن ماذا بوسع أكيزي أن يؤثر على هذا الصعيد؟ هل انكشفت جريمة قتل الملك إيداندا أم لا؟ كيف نجحوا في ذلك؟

عندما وقفت كيا فجأة أمامه، كان يكفيه إشارة أو ابتسامة أو كلمة لطيفة، ليستقط أسيرها ثانية. في بداية اللقاء لم يكن قادراً على إبداء رأي فيها. لقد استخدمت اسمه القديم. ماذا قصدت من وراء ذلك. ثم هذا التأكيد على الربة. طبعاً كانت كاهنة الربة، لكن هذا لا يعني عادة عدم إبداء الاحترام تجاه الأرباب الآخرين كافة. لكنها صحتحت كلامه، لقد أصرت على إقصاء سائر الأرباب الآخرين عندما حيّاها، وعندما باركت طريقه. هل تسير على خطأ إختانتون؟ فتعبد هي الربة الوحيدة ويعبد هو الرب الوحيد؟ لا، لا معنى لهذا، بل إنه متناقض. لكن فكرته عن وحدانية الرب وجدت عندها تربة خصبة. ربّه ذكر وربّتها أنثى. هل تعارضه يا ترى؟ كيا ولا شيء سوى كيا. لماذا لا تتركه وشأنه صورة هذه المرأة! في البداية دافعت عنه ضد أكيزي، هكذا بدا الأمر، لتطعنه في الختام. لا بدّ أخيراً من أن يحذفها من حياته. فمن الجلي الواضح أن قلبها ملك لإختانتون وأحلامه الغريبة عن الواقع. ماذا يفنتها في هذا الإنسان الغريب العجيب؟ إنه لم يتعرف الفرعون إلا رسمياً، ولكن ليس

كإنسان، كرجل. ورغم كل استعراضه العائلي العنفي، كان دائماً يرتدي قناع الملك الرب، الذي يبدو عطوفاً من ناحية، وجباراً قاسياً كهبة السماء من ناحية أخرى. إنه مصرّ على فرض ربه قسراً، رغم كل المقاومة. هل يستحق الأمر ذلك؟ وفي الوقت نفسه كان على تانوا أن يقرّ بإعجابه بهذا المصري، لإيمانه العميق بصواب سلوكه، ولإيمانه المطلق برّبه، وبأن واجبه المقدس يقوده إلى تقريب هذا الرب من فهم البشر قاطبة وهدايتهم إليه! وهذا بمشاركة قريبته الجميلة. أية قوى تكمن فيها يا ترى! إذا حدث أن خارت قوى إختاتون، فإن قواها لن تخونها، أبداً. هل تمتلك طيبة قلبٍ وشفقة يا ترى؟ هذا ما لا يعلمه. لكنه يعرف جيداً، أن الأفضل، هو ألا تكون نوفرثيتي عدوّته.



الهجوم المصري، الذي كانت حتّوشا تخشاه، لم يقع، لكن الأخ العزيز إختاتون أرعد وأزبد: لا يكفي انزعاجه المستمر بسبب نزاعات الإمارات الواقعة تحت النفوذ المصري، ليصل إلى علمه الآن، أن الملك شويلوليوما، على الرغم من تأكيداته، قد احتل مناطق في الجزء المصري من سوريا، فبات مسؤولاً عن سقوط أتباع مصر لصالح حتّوشا. والمقصود بكلام إختاتون هو أيتاكما ملك قادش. وقد استدعى الفرعون السفير الحثي (لورما) إلى قصر آخت أتون ليقدم تفسيراً لما حدث. برر لورما سلوك سيده الملك، الذي اضطّر للرد على استفزاز وقع من جانب رعايا مصريين، وأحال إلى ما ورد في الرسائل. أشار إختاتون بيده ليوقفه عن المتابعة، وقال إن ما حدث يعتبر ظلماً كبيراً وهو مستاء جداً من أخيه، ولكن ثمة الآن ما هو أكثر أهمية للالتفات إليه. وصرف السفير.

لخصّ تانوا الحالة كالتالي: «مصر وميتاني، التي سأعود للحديث عنها، ستبقيان مصدر الخطر الأكبر. من الناحية السياسية يعد الفرعون إختاتون حاكماً ضعيفاً، غير أنه يمارس تأثيراً هائلاً بدعوته إلى رب واحد، يتحدث إلى الناس عبره هو، وربما أيضاً عبر نوفرثيتي. لقد منع عبادة جميع الأرباب الآخرين، وأمر بهدم معابدهم أو إغلاقها. وإذا كان هو وعائلته في البداية محبوبين من قبل الشعب، يبدو الآن أن صلاته بالناس قد فقدت إلى حدّ كبير. إنه لا يرى سوى أتباعه في إيمانه، وكثير من هؤلاء يتظاهرون بذلك فحسب. وقد حشدهم من حوله في عاصمته الجديدة آخت أتون التي بناها في الصحراء. وهي بالمناسبة نموذج فريد على صعيد تخطيط المدن».

كان إعجاب تانوا بالمدينة مسموعاً عبر كلماته.

«هل توصلت إلى معرفة ما يغيه الفرعون بهذا الرب آتون؟ لا بدّ بالتأكيد من وجود أسباب لاستعدائه جميع الأرباب الآخرين ضده؟».

«يصعب الحكم في هذه المسألة من خلال زيارتي القليلة. ما يمكنني هو فقط التعبير عن انطباعي، وبكلمات قاصرة. عبادة آتون كانت مفضلة عند والديّ إخناتون، وقد نشأ عليها. في بداية حكمه ترك إخناتون بقية الأرباب وشأنهم، ولم يبلغ منهم سوى رب العالم الآخر أوزيريس. كان هذا بالتأكيد انعطافاً مهمّة لجميع المصريين، أي إنهاء محكمة الموتى. وبدلاً من أوزيريس صار الملك نفسه هو الذي يحدد من يصلح للانتقال إلى العالم الآخر. وبمرور السنوات تنامت ثقة الفرعون بنفسه، من حيث إدراكه آتون رباً أوحده، وأنه المبشّر به ورسول إيمانه الحق. أنا أعتقد أن إخناتون مؤمن كامل الإيمان بهذا الدين».

«ولكن من هو آتون؟ هذا ما لم تقله بعد».

«الأصح هو أن نسأل ما هو آتون؟ حسبما فهمت، آتون هو نورٌ وحياة، أب وأم في الوقت نفسه. يجسدونه بقرص الشمس الذي تنطلق منه أشعة تنتهي في أيدي البشر، رمزاً لارتباط الرب بالأرض. آتون يتجلى عبر النور والنور. وعلى نقيض رب الشمس المعروف حتى الآن، هو نور الشمس الذي يتغلغل في الدنيا ويمنح الحياة. ولهذا فإن آتون سيد العوالم وكلي القدرة، لا يحتاج إلى زوجة، ولا عدو له. الناطق باسمه هو الفرعون، الرسول، النبي».

«الشمس والنور هما طبعاً الأكثر أهمية. ولكن ماذا عن رب الطقس ورب الحرب وربة الحب و و و؟ أيفترض أن تكون كلها في رب واحد؟ هذا لا يعقل!».

«بل خارق لا مثيل له في رأيي. والحياة بعد الموت التي كانت الجوهر الأساسي في حياة المصريين، باتت بحركة ماهرة مرتبطة بيدي الملك، ينظمها كما يشاء! هذه هي السلطة المطلقة. فعلى الجميع أن يرتجف خشية ألا يلاقى قبولاً في عيني الملك. لا يجوز لأحد بعد الآن أن يقترف سوءاً».

غمرت الجميع دهشة لا تصدق.

«لست متأكداً»، قال تانوا متفكراً: «الانطباع الذي تولّد لديّ، كان أقرب إلى أن الفرعون يهّمه أن يؤكد في رسالته أن حياة الدنيا أهم من حياة الآخرة. يجوز أن أكون مخطئاً».

«دعونا لا نتعمق الآن في هذه الأفكار، كي لا نتوه عما اجتمعنا لتحدث فيه»، نبههم ميتانموا، وأضاف: «تانوا، تابع تقريرك!».

«حيثما توجهنا في البلد، كنا نحس بارتياح كبير بين الناس، كانوا يخافون المخبرين والوشاة. كثيرون يحكون وأكفهم على أفواههم، والبعض يتذمرون علناً. ثمة ما يعتمل في نفوس العامة والسادة. إذا تكرر القحط بضع سنين، فأرجح أن يتفرض الناس بسرعة على طول نهر النيل. أحد دواعي التبرم والغیظ سببته قرينة الفرعون العظيمة. تأثيرها فيه عميق جداً، فقد توصلت إلى أن يتعامل معها الآخرون وكأنها شريكة في الحكم. وبأمر من إخناتون بُني لها معبد خاص، بصفتها كاهنة آتون الكبرى، لا يُسمح له بدخوله. كما حصلت مثله على اسم ولادة جديد: نُقْرِنِفِرُو - آتون، ومعناه: آتون هو الأكثر كمالاً. وهذا لم يعجب كثيرين، ولا سيّما كهنة آمون في طيبة (مركز عرش العالم) الذين استاؤوا إلى أقصى حد. وعقوبة لهم أرسل إخناتون كاهنهم الأكبر، بلا تردد، إلى الصحراء الشرقية، رئيساً لمقلع حجارة. ولكن يبدو لي أن هذا كان بمثابة صبّ زيتٍ على النار.

بعد زيارتي الأخيرة ثبت لي شيء آخر، يمكن للورما أن يؤكد أيضاً، وهو أن إخناتون في سبيل نشر دين آتون خارج مصر، لا يغلو عنده شيء. إنه يعمّم فكرة دعوته على البشر أجمعين، وإرشادهم إلى النور الحق الوحيد، آتون، لينالوا نصيبهم من هذه السعادة. في بلاد كوش، جنوب مصر، يبدو أن الأمر قد نجح إلى حد بعيد. لكن هدفه الثاني الآن، سيكون بالتأكيد إمارات الساحل السوري، وبعضها ميّال إلى قبول الرب الجديد، صعوداً حتى ميتاني، حيث يُعبد رب الشمس أساساً بصفته رب الأرباب. وعلى سبيل التذكير، هناك مصاهرة بين إخناتون والملك توشراتا الهارب، الذي يراهن بكل شيء لاستعادة عرشه وبلده!».

ساد لفظ اجتماع مجلس الشيوخ الحتي، ومن وسط فوضى الأصوات سُمعت هتافات غاضبة: «بحق السماء، إخناتون سيلخبط كل شيء!».

«من دون أن يضع حتى قدمه خارج مصر، سينشر الاضطراب في كل مكان.»
«إنه حقاً مجنون!».

«متعصب!».

«سيعاقبه الأرباب ويعاقبون بلده وسيشملنا العقاب جميعنا بسبب كفره! كيف له أن يوقف عبادتهم؟».

«لا بدّ من كبح جماحه».

«فلنتظر قدوم الشتاء، لنرى ما يأتي معه من تطورات»، قال شويلوليوما في محاولة لتهدئة الخواطر، وأضاف: «علينا ربط خيوط شبكة مخبرينا بعناية، من ميتاني إلى مصر»، والتفت إلى ميتانموا رئيس إدارة شؤون الدولة.

أوما هذا برأسه موافقاً وقال: «رجالنا، يا شمسي، موجودون في كل مكان، أو هم في طريقهم إلى مناطق عملهم. وحتى داخل أرض المملكة أكثرنا من المحطات على الطرق الرئيسية، بحيث تصلنا الأخبار بسرعة، مهما كان الطقس سيئاً. يجب دائماً أن نسبق الأحداث بخطوة!».

هزّ الملك رأسه باستحسان.

فعلّق هنوتي مذكراً: «إضافة إلى ذلك، يجب ألا نقع في خطأ تركيز أعيننا على الجنوب فقط. الحدود الأخرى يجب مراقبتها بالدرجة نفسها من الاهتمام. أصدقاؤنا الكشكيون هادئون على نحو مريب، ما يوّلد القلق في نفسي».

«مخبرونا موجودون هناك أيضاً، والأوضاع عندهم هادئة. ربما، لأن قسماً منهم بات مرتبطاً بجيشنا، ولأن التبادل التجاري معهم ناجح حالياً. سياستنا الاقتصادية الذكية المعتمدة على تجميع المؤونة في مخازن الجيوب أثبتت جدواها وآتت أكلها. لولا شحنات المساعدات في الشتاء الماضي، لكان الحال في الشمال مزرياً، أليس كذلك؟».

«لا أحد يشك في ذكائك، ميتانموا. أطعم الأفواه، فتستحي العيون أ!».

تذكر تانوا هذا المثلّ وفكر فيه بعد شهور، وهو خارج من الاجتماع الموسع الثاني لمجلس الشيوخ. فإخانتون لم يرسل قوات عسكرية، ولا أي نوع آخر من المساعدة إلى رعاياه الأعبة في كنعان وأمكي وأوبه وغيرها من الإمارات، لردع الأعداء الخارجيين أو الداخلين. ولم يفكر حتى في التصدي عسكرياً لحتوشا، بغية استعادة المناطق السلية. لكنه عوضاً عن ذلك أرسل إليهم كهنة أتون لنشر الدين الجديد. ولتسهيل تقبّل الأمر على هذا أو ذاك، أرسل الفرعون مع بعثته الدينية هدايا وذهباً واستثنى من هذه النعم مملكتي أمورو وقادش، إذ اعتبرهما خائنتين وجاحدتين، وقد استحققتا العقوبة. أما قطنا فقد كافأها.. أم عاقبها.. بالصمت.

يبدو أن الملك توشراتا قد حصل على دعم ما، إذ ظهر ثانية في ميتاني - أو ما تبقى

منها - وأخذ يزرع الفتنة ضد الملك الذي نصبه شوبيلوليوما، ملقباً إياه عبد الحثيين. ومن يوم إلى آخر تصاعد خطر اللجوء إلى السلاح، وإذا لم تلجأ حتوشا إلى الفعل، فستضيع فتوحاتها التي أنجزتها العام الماضي. والأكثر من ذلك: في منطقة الساحل السوري كلها، اندلعت حروب صغيرة لا تحمد عقباهما بين جميع الأمراء والملوك، ولم يعد يعرف أحد أسباب هجوم هذا على ذلك، فكيف يمكن إيقافها؟ وفي ختام الاجتماع لم يتوصل الشيوخ إلى الإجماع على رأي. قسم منهم أيد حملة عسكرية جديدة، لكن غالبيتهم عارضت ذلك، بحجة أنه لا يمكن كسب رعايا راضين بتدمير بلادهم سنوياً. كما أن تخريب ميتاني لن يجلب سوى مدن مهدامة وحقول محروقة لا جدوى منها لسنوات طويلة. هذا إضافة إلى احتمال استفزاز آشور. وهذا كله لا يفيد شيئاً في حل مشكلة إخناتون، فالجهود ستهدر في ميدان ثانوي. ثم إنه لا جدوى من التفكير بمواجهة إخناتون عسكرياً، لأن حتوشا أساساً لا تبغي فتح مصر، ولأن إخناتون يتهرب من أي نزاع حربي. إنه يحارب بسلاح آخر. فكيف سيكون الرد عليه؟ أرجىء الاجتماع إلى الغد.

مكتبة الرمحي أحمد

عاد هنوتي وتاناو من أحد اللقاءات العائليّة النادرة في دار الجدّة شوميري. كانت أمسية سارة، أنستهما لبضع ساعات كل همومهما. لقد احتلّ الحفيد تاناو مكانة خاصة في قلب شوميري، مثلما أنس هو إلى جدته وقدر حكمتها في الحياة. ولكن رغم كل هذه العاطفة، فإنه لم يجرؤ مرة على طرح الأسئلة التي تؤرقه عليها. وإذا جاءت سيرة أمه في الحديث، كان يرهف أذنيه وينصت دون أن يلتقط أكثر من بضع تنويهاً. بدا له من المؤكد أن إحيًا ليس أباه. فمن إذا؟ ولم يستطع أن يوازي شكّه في أن هنوتي يعرف شيئاً عن الموضوع ويتحاشاه دائماً بطريقة أو أخرى. لم يبق سوى الملك، حسبما نصحته هتي في العام الماضي. ولكن بماذا يتعلل لمفاتحة الملك بمثل هذه القصة؟ اعذرني، يا شمسي، أتعرف بالمصادفة من هو أبي؟ يستحيل. همومه تكفيه. الملكة مالنغال حامل للمرة الثانية وأكثر مزاجية وأشدّ عنداً من عاداتها، مع أنها فاتنة أحياناً. لكن صوت هنوتي انتزعه من أفكاره.

«إنه لأمر لا يصدق، أن يفكر كل هؤلاء الأذكيا بمشكلة إخناتون، ولا يقدم أي منهم اقتراحاً مقبولاً. أين أفكارك النيرة؟ لطالما كنت دائماً صاحب المبادرة في حل المسائل الشائكة».

بدا على وجه تاناو إحساسه بالذنب.

«ما معنى هذا الآن؟ ألا تعرف أم أنك تخبي خطة ما؟». أصرّ هنوتي.

أحس تانوا كمن سُكبت عليه طامة حارة وطامة باردة. ففي واقع الأمر، خطرت في باله فكرة خارقة، خارقة إلى درجة أن جاهد يائساً لطردها من رأسه.

«أعطني بعض الوقت، هنوتي. لا بدّ من أن أستشير الأرباب. إذا كانت فكرتي ذات جدوى فلا يمكنني أن أبوح بها إلا لك وللملك».

سكت هنوتي على غير عادته، لكنه سأل وهو على وشك المغادرة: «هل أطمئن الملك؟».

«رجاء يا خال، تريث قليلاً!».

«لا تدعنا نتظر طويلاً! ولا تنادني يا خال!».

كما لو أن جميع الأفكار الأخرى قد امتحت. هنوتي على حق. الوقت يمضي ولا يُمهّل. القرارات بصدد السنة الجديدة يجب أن تُتخذ الآن. ولكن أيقن له التدخل في حياة إنسان مصيرياً؟

قدم تانوا أضحياته في المعبد الكبير، متوسلاً نصيحة الأرباب. بلا جدوى. لا شك في أنهم قد فكروا بأنهم قدموا كفاية. ألم يوحوا إليه بالفكرة؟ قضى تانوا ليلة سهاد، ناجى فيها نفسه والأرباب. استعرض ثانية في مخيلته كل ما مرّ به من تجارب، وعندما جاء الصباح كان قد حسم أمره، فأبلغ هنوتي برغبته في حديث مع الملك، لا يحضره سوى ثلاثتهم، فالموضوع يتعلق بالفرعون إخناتون.

في اليوم التالي استدعاهما الملك إلى جناحه الخاص، في الساعة الأولى بعد المغيب. أدخل تانوا إلى غرفة صغيرة، وجد فيها الملك وتانوا بانتظاره. ومن دون أية مقدمات رسمية طالبه الملك بالدخول في الموضوع فوراً.

«مسألة ميتاني سنحلّها. المشكلة ليست هناك، بل في مشروع إخناتون، الذي يهدّدنا بخسارة نفوذنا الجديد في منطقة الساحل السوري. صحيح؟».

هزّ الرجلان رأسيهما موافقين.

«كيف سنعالج مشروع إخناتون؟ ليس بقوة السلاح، إلا إذ كنا سنهاجم أرض النيل نفسها، وهذا ما لا يفكر فيه أحد هنا. وليس بالهدايا، إذ لديه ما يكفي من الذهب والفضة والحجارة الكريمة!».

«ربما يمكننا إغواؤه بهبة السماء، لولا أننا نريد الاحتفاظ بها لأنفسنا فقط، للمرحلة الحالية على الأقل»، قال شويلوليوما مع ابتسامة مأكرة.

رفع تانوا نظره متفاجئاً. إذ لم يسبق في حضوره أن ذكر هذا السر علناً بهذه الطريقة. لاحظ الملك دهشته، فرتت على كتفه قائلاً: «هنوتي أعلمك بالأمر، أعرف ذلك وأعرف أيضاً أنك سوف تكتمه في نفسك حتى الموت. تابع الآن وهات اللب!». لقد كان متشوقاً حقاً.

«قد تثيره فعلاً هبة السماء. أقر بأنني لم أفكر بالأمر أبداً. لكنني فكرت بهبة من نوع آخر. الفرعون إخناتون سيحتفل هذه السنة احتفالاً عظيماً بعيد جلوسه، بمناسبة مرور اثنتي عشرة سنة على اعتلائه العرش. ستحضر الاحتفال في آخت آتون وفود من جميع بلدان الدنيا».

«ونحن طبعاً سنرسل وفداً أيضاً»، قاطعه الملك.

«هذا بديهي.. وكذلك قطننا، ولكن عليها هذه المرة، إضافة إلى الأقمشة الأرجوانية والعاج والعمود، أن ترسل شيئاً آخر: عروساً».

جالت نظرات الملك خائبة بين هنوتي وتانوا. «وما هو الخاص في هذا؟ حريم الفرعون متخم، كما يقال. السيدات ذوات الحسب والنسب يعشن هناك في أجمل سجن، مسلوبات ملذات الحياة. يبدو أن إخناتون لا يهتم إلا بزوجه نوفرتيتي. رب واحد، زوجة واحدة».

أشار هنوتي وتانوا بيديهما مرعوبين، وكأنهما يقولان: ما هذا التجديف بحق الأرياب؟!

«لكنها عروس خاصة جداً، سبق أن احتلت المكان الأول في قلب إخناتون، وهو في قلبها». وأخبر تانوا شويلوليوما عن علاقة الحب السعيد التي ربطت آنذاك بين ولي العهد أمونحوتب وكيا، التي تعرفها شويلوليوما مؤخراً كاهنة للربة حارسة قطننا. واقترح استخدام كيا سلاحاً ضد إخناتون. فمجرد وجودها سيخفف من غلواء الفرعون، وسيلفت إليها بدلاً من الساحل السوري.

«وأنت متأكد من حبها له؟». سأله الملك.

«نعم، إنها تحبه، وتتحرق شوقاً إليه، وتكرهه في الوقت نفسه لنسيانه إياها».

«وهل نسيها؟».

«لا أعرف»، أجاب تانوا «لكنني متأكد من أمر واحد: إذا كان لامرأة أن تجذب اهتمام الفرعون، فهي أميرة قطنا».

«سنفكر في الأمر». وصرخ الملك تانوا.

لجأ تانوا إلى مقره شاكراً وغرق في أفكاره المؤلمة. هل خان كيا، أم أهداها بذلك السعادة التي اتهمته بسلبه إياها؟ بالنسبة إليه الآن مات أي أمل. قد لا يسعه في المستقبل رؤيتها، فضلاً عن التحدث معها. اشتد عليه العذاب، إلى حد أن اشتهى الموت. لكن الأمر يتعلق بسعادتها وليس بسعادتك أنت، وبمصلحة حتوشا وسلامتها.. هذا ما كان يقرع به رأسه بلا هوادة.

«كلما تعمقت في الفكرة، ازداد إعجابي بها»، قال شوبيلوليوما لهنوتي الذي تابع تقرير تانوا مذهولاً. ماذا يعتمل في نفس الشاب الآن؟ هل يبيع الآن، ويسعر باهظ، المرأة التي يحبها أكثر من حياته، إلى رجل آخر، ولو كان الفرعون؟ وفي لحظة ما توضحت الفكرة لهنوتي: إن سلوك تانوا نابع من حبه الإيثاري لها. يجب أن تصبح كيا سعيدة.

«ما رأيك؟ هنوتي؟». انزع الملك قائد جيشه من تفكيره، وأردف: «فكرة معقولة، أليس كذلك؟ إنه يحبها، صحيح؟».

هز هنوتي رأسه موافقاً، رغم أنه، وقال: «نعم، إنه يحبها. منذ إقامته الأولى في قطنا، ورغم أنه ليس من طبقتها».

«وماذا عنها؟ ما موقفها منه؟».

«إنها تقدره عالياً وتحترمه. حتماً مرت أوقات أظهرت فيها تجاهه عاطفة أخوة صريحة. وقد ائتمته، حسب علمي، على كثير من همومها. نعم، إنها تودّه جداً. ولكن ما نفع ذلك؟ أنا أرى أن السؤال الأكثر أهمية هو: كيف سنحملها على تبني قضيتنا؟».

«بناء على تصوّر تانوا، يُفترض بها أنها ستفيض سعادة، بحصولها أخيراً على الفرصة غير المنتظرة لتكون قرب الحبيب. لكنني أشاركك شكوكك يا صديقي. فالحب من بعيد يمكن أن يكون جميلاً جداً، لكن التخلي عن الحياة الحالية والمكانة الرفيعة التي تحتلها بصفتها أميرة وكاهنة في قطنا، وألفتها مع كل ما يحيط بها، هذا شيء آخر. ثم إنها ستساءل: ماذا ينتظرها في مصر؟ هناك مثلاً قرينة الفرعون، نوفرتيتي لن تستقبلها بذراعين مفتوحتين. وقد لا تسمح لها بالمثل أمام الفرعون إطلاقاً».

«يجب أن يكون لدينا ما يغوي الأميرة، إلى حد ألا يكون أمامها من خيار، سوى الذهاب إلى إخناتون، لتأسر قلبه، وتخفّف من غلوائه، على الأقل فيما يخص نشاطاته في الساحل السوري».

«أو ما يجبرها على الانصياع لمخططاتنا».

نظر هنوتي إلى الملك متسائلاً: «بماذا تفكّر، يا شمسي؟».

«ألا يخطر في بالك شيء حقاً، هنوتي؟». وبعد صمت قصير، ليدع هنوتي يفكر، أضاف: «أنت وتاناو قد متما للمملكة خدمات جليلة وكثيرة، ولهذا فقد استحققتما مهلة أخرى».

بعد محاولة تخمين قصير، انعكست على وجه هنوتي دلالات فهم، ثم انزعاج، ثم ارتياح، ثم انزعاج جديد. الملك يعرف السرا لقد ختم ذلك طوال الوقت. لكن شويلوليو ما لم يُشر على الإطلاق إلى أنه على علم بالأمر، ما جعل هنوتي مطمئناً. ولكن ها هو ذا يسهم بنفسه الآن في توريط تاناو أيضاً. يا أرباب السماء! أهذا هو المصير المقدر؟ ألا نجاة من القدر؟ ماذا سيحدث بعد؟ ما مدى عاطفة كيا تجاه تاناو؟ كل هذه الأفكار تدافعت معاً إلى رأس هنوتي. أخيراً نهض شويلوليو ما واقترب من هنوتي.

«أنا آسف، يا صديقي العزيز، بكل صدق. لن أرفع حمايتي عنكما، ما دمت قادراً على ذلك، مع متابعة البحث عن حلول. ولكن الأمر الآن، قد يكون المنقذ الوحيد، من الفوضى التي تهدد بلداناً كثيرة، إذا استمر إخناتون في متابعة طريقه بعناد. دعنا إذاً نحمد الأرباب ولا نعترض على أحكامهم. سوف نحضّر وندير كل شيء، ونوفد تاناو إلى قطننا رسمياً. نانيتزي سيكون ساعيَّ الخاص إلى الأميرة. أنت ترى يا عزيزي أنني أطلعك على كل شيء. لن يحدث شيء من وراء ظهرك. أما تاناو فكلانا يرغب في مراعاته، أليس كذلك؟».

صعب على الملك أن يبيّن لرئيس أركان جيشه وصديقه الحميم أنه ممسك بمصيره. لكن الأرباب يطالبون بذلك لمصلحة البلد، لذلك عليه أن يدعّن لهم كالأخريين كافة.

قبل أن ينطلق تاناو في منتصف الشتاء نحو قطننا، لأداء أصعب مهمّة في حياته، وصل إلى حتوشا نبأ موت ابنتي الفرعون: (نفرنفروري) و(سيتنيري)، أولاهما في الرابعة، وثانيتها لم تتجاوز الثانية من عمرها.

كانت الدهشة كبيرة، عندما وصل تانوا وأتباعه إلى قطننا قبل عيد الربيع بوقت طويل.. كانت الرحلة مرهقة جداً، لكنها وفرت في أثنائها لتانوا على الأقل لقاءً جديداً مع والديه في ترشا. أمه كالي المتماسكة عاطفياً عادة، لم ترذ أن تفلت ابنتها من بين ذراعيها. كان جلياً لتانوا أن أمه قد هرمت، في حين وجد إحيا بديناً ككرة ومسروراً على نحو يتناقض مع صورة أمه. وفي هذه المرة أيضاً أحضر تانوا معه كثيراً من الهدايا، ورسالتين من العائلة، إحداهما من هنوتي الذي ائتمنه عليها على نحو خاص وطلب منه إتلافها، في حال تعرضت لأي خطر قبل وصوله إلى ترشا. وجعله يقسم على ذلك. وقد أمل تانوا بأن تخبره أمه بهذا الأمر المهم الذي أراد هنوتي إبلاغها به. لكن أمله ضاع هباء. فما إن انتهت من قراءة الرسالة، حتى تلاشت بهجتها بوصوله. انسحبت للصلاة دون أن تنبس بكلمة، ولم تسمح له برؤيتها إلا عند الوداع. ولم تجب على أسئلته الملحة، إلا بنظراتها المتألّمة، إلى درجة أن ضمّتها إلى صدره بحبّ وهمس لها ببعض كلمات المواساة. ثم قبّل يديها وغادر بقلب مثقل بالحزن. أما إحيا فهزّ كتفيه محتاراً، كعادته في مثل هذه المواقف. قاد المجموعة إلى الميناء، حيث وجد لهم سفينة رغم العواصف الشتائية، ستوصلهم إما إلى أروادا وإما إلى سومورا المجاورة.

لو لم يكن تانوا مضطراً لتحضير نفسه لمهمته، لأمضى الوقت كله خلال الرحلة البحرية المزعجة ممعناً التفكير بمضمون رسالة هنوتي. أهي مشكلة بين هنوتي وكالي؟ بسبب هنوتي وكالي؟ من أجل هنوتي وكالي؟ ألهذا علاقة بالأسرة؟ أم أنها على صلة بطريقة ما بمهمته؟ ولكن ماذا؟ كل قدراته على التفكير والربط والتحليل والتخيل لم تسعفه في شيء. هل ثمة ما يهدد هنوتي فأربك أمه؟ قبيل الرحلة كان هنوتي هادئاً ومنظوياً على نفسه. وتانوا لم يع ذلك حينذاك، فقد كان منشغلاً بألمه الخاص. وما هو ذا الآن، ناقل الخبر السعيد إلى قطننا، الذي سيهوي به إلى غياهب التعاسة. ولكن ما كان للملك أن يعرف مدى قرب كيا إليه. كيا.. كانت الشكوك المرعبة تداهمه طوال الوقت، عما إذا كان تصرّفه صائباً. يحتمل أنه يؤدي بذلك خدمة كبيرة لكيا. ولكن ماذا ستواجه في مصر؟ ما المتوقع من إختاتون، وما الذي قد يخشى منه؟ ومن نوفر تيتي؟ ألم يرتكب خطأ مريعاً؟ الفقدان المرتقب جعله ينسى كل ما وقع بينهما، وكل ما يقف عائقاً بينهما. لماذا قدّر عليه الأرباب هذا المصير؟ لماذا لا يستطيع ببساطة أن يحب امرأة من طبقته؟ لماذا أميرة بالتحديد؟ لو كان من مقامها، هل كانت العلاقة بينهما ستنجح؟ ألهذا لم تشعر بنفسها حتى الآن مندفة إلى حبه؟ لو أنه من مقامها، لكان بمقدوره أن يطلب يدها، منذ زيارته الأولى لقطننا. كم

مضى على ذلك، وحبها ما يزال على ما هو عليه! حبه لها لن ينتهي أبداً. بغض النظر عما قد يحدث، سيبقى محافظاً على وعده لها، بالوقوف إلى جانبها دائماً. عليه حتى في مصر أن يحافظ على عين ساهرة عليها دائماً. فما أكثر ما يمكن أن تتعرض له هناك! دفعته الفكرة إلى التفكير بعناية بخطة لمساعدة كيا في مصر، لا بنفسه مباشرة، ولكن عبر ذراعه الطويلة: شخص موثوق من حلقة كيا الخاصة. أخذ يفكر. طبعاً، أميناية! مؤكداً أنها لن تتخلى عن صديقتها، بل سترافقها إلى الغربية. عليه أن يبحث الأمر كله مع أميناية. وفي سومورا غادر السفينة إلى البر مرتاح النفس.



لحسن الحظ سار اللقاء مع أكيزي من دون توترات، فأكيزي لم يكن حقوداً. وقد سُرَّ هذه المرة فعلاً بقدوم صديقه، كما في الماضي، رغم علمه بأنه لن يقوم بهذه الرحلة الخطيرة في الشتاء، إلا لسبب بالغ الأهمية. أمر بسرعة بتجهيز مأدبة استقبال، دعا إليها أفراد العائلة المصغرة وكبار وجهاء البلد. رأى تانوا كثيراً من الوجوه المألوفة وافتقد بعض من ماتوا في الشتاء. وفي المقابل كان حشد الأبطال حول إهلي نيكالو قد توسع، أما هي نفسها فقد تحولت نهائياً إلى دور الأم، وزالت دلالات السخط من وجهها وباتت تغض الطرف بكرم عن غراميات زوجها. كانت المأدبة مرحلة.

وكما قبل سنوات وأيام تصدّر تانوا المائدة إلى جانب الملك أكيزي في صالة الطعام، وعيناه تكادان لا تفارقان وجه كيا، التي جلست إلى جانب شالا. كان استقبالها له ودوذاً، ولكن ليس قليلاً، ربما لوجود كبيرة الكاهنات إلى جانبها. كانت كيا قد عادت إلى بيت الربة. حسناً، سيجد فرصة للحديث معها، فالأمر من طبيعة مهمته هذه المرة. ماذا ركبته الآن، لم يجد له تفسيراً لاحقاً، سوى باستحضاره الشعور الذي انتابه أثناء أول مأدبة على هذه المائدة، فعندما التقت نظراته مع نظرات كيا، لعب عينيه بهياج. آنذاك أدت هذه الحركة إلى إضحاحها، لكنها في هذه المرة لم تحرك في وجهها الجاد سوى ابتسامة. الرابطة بينهما لم تتمزق كلياً إذًا.

«ما وراءك هذه المرة؟». سأله أكيزي «لا بد من وجود أمر بالغ الخصوصية، دفعك إلى السفر هذه المسافة البعيدة في هذا الطقس».

كانا قد انسحبا إلى ملجأ أكيزي في الجناح الغربي من القصر وجلسا يحسبان نبيذاً حلواً منكهاً. في الخارج ساد طقس بارد مثلج وريح تعول.

«أحمل لك رسالة من ملك حتوشا العظيم»، وأخرج تانوا من كيسه الصغير المعلق بحزامه لوحاً طينياً مختوماً.

«أتعرف مضمونها؟». سأله أكيزي، فأوما تانوا برأسه، فتابع أكيزي: «إذا يمكنك أن تقرأها لي. ادخل في الموضوع مباشرة ودعك من ثرثرة الديباجة».

«لكن الملك العظيم يخاطبك فيها بلقب يا صديقي. أتريد أن تفوت ذلك على نفسك؟».

«عرفت. إنه أمر يُذهِبُ السَّكْرَةَ»، اشتكى أكيزي بجديفة مفتعلة، ثم قال: «هيا، هات. إنه لعذاب».

«نعم يا صديقي، أنت محق، الأمر جاد، بل جاد جداً. ويؤسفني أنني لست قادراً على إعفائك منه. أرجوك، اقرأها بنفسك».

«طيب، هاتها. إنها على الأقل بالأكدية».

قرأ: «الملك الشمس، الملك العظيم، لبارنا حتوشا، شويلوليوما يحيي صديقي أكيزي، ملك قطناء.. صحبتك وذويك السلامة».

إنك تدرك حتماً، أنه لا يجوز حدوث أية اضطرابات في منطقتك، لأنها ستزعج أخي العزيز، الفرعون إخناتون. يجب العمل على تهدئة خاطره، وإسعاد قلبه بعروس جديدة، بمناسبة عيد جلوسه. ليس عندي بنات، ولا يمكننا إرسال فتاة حثية أخرى إلى آخت أتون، مهما كانت ذات حسب ونسب، لأنها لن تناسب مقامه. لكن أختك الفاتنة تحقق جميع الشروط. إنها ستحتل قلب الفرعون. سنتجب له أبناء وتواسيه لفقدان ابنتيه المحبوبتين. ستهدئ خاطره وتشفي جراحه».

بحلق أكيزي في وجه تانوا مذهولاً.

«هل فهمتُ كل شيء على نحو صحيح؟ عليّ أن أعرض كيا على الفرعون عروساً؟ ما الخير في الأمر؟ لن يحدث هذا من دون موافقتها! أنت تعرفها حق المعرفة. وفي حال موافقتها، يجب أن نجهزها في أيام قليلة، للسفر إلى مصر، لتظهر أمام صاحب الجلالة في الموعد المناسب تماماً.. كيف ستدبر ذلك؟».

سؤال وجيه. ولكن لا بد لها من أن تنجح. فحتّوشا تراهن على ذلك بالكثير. لا خيار أمام كيا. ما بدا في بداية الأمر حلاً مثالياً، لتحقيق اللقاء بين إنسانين، قدر الأرباب مصيرهما معاً، قد تراجع الآن نتيجة الضرورة السياسية القاسية والعنيفة. حتّوشا تصرّ على ذهاب كيا، وليس على هذا فحسب، وإنما على تحقيق كيا هدفاً وحيداً: أن تكسب إختاتون إلى جانبها. يجب أن تصيح قرينة الملك الرئيسية العظيمة. بتحقيقها ذلك، لا يتراجع نفوذ نوفرتيتي فحسب، بل ستمكن كيا في المستقبل من إيقاف إختاتون عن زرع الفتن في الساحل السوري، الأمر الذي يلحق الضرر بمصالح حتّوشا. وكل ما عدا ذلك سيان بالنسبة للحتيين.

«ها أنت ذا تكررّ ثانية، أن حتّوشا تصر على ذهاب كيا إلى مصر. ما هذه اللهجة؟ كيف ستجبر على تنفيذ هذه الخطوة؟ أليس بيننا اتفاقية مشتركة متبادلة؟!».

«أكيزي، ما هو الأكثر أهمية برأيك، على المدى الطويل، فرعون مسالماً أم قطنا راضية؟».

شحب أكيزي. «شويلوليو ما يبرز مخالفه إذاً. هل هذا تهديد؟ إن لم تذهب كيا، تكون قطنا هي الثمن، أليس كذلك؟».

واقفه تاناو بهزة من رأسه، ثم قال ملحاً: «يفضّل أن يبقى ما تحدثنا فيه، بيننا فقط، إلى الأبد. من المحتمل أن تسعد كيا بفرصة الذهاب إلى إختاتون. ألم تقل لي بلسانك، في اللقاء الأخير، إنها تحبه رغم كل ما أذنبه بحقها؟ تحدّث إليها!».

«غداً»، قال أكيزي باقتضاب. «في أمور حاسمة من هذا القليل لا أستطيع ولا أريد أن أقضي فيها وحدي».

«الآراء في مجلس الأعيان كانت متباينة، ولكن لدّهشتي، رحبت غالبية الأعضاء باقتراح ملكك العظيم. من ناحية أمي الملكة، لا أستغرب ذلك»، قال أكيزي ضاحكاً بمرارة، وأضاف: «لكنني توقعت من بعض الآخرين أسئلة تحفر عميقاً، من شالا مثلاً. غير أنني لم أسمع شيئاً. اكتفوا بالتبرير الوارد في الرسالة اكتفاء تاماً».

«وما رأي كيا بهذا كله؟».

«لم تحضر اجتماع المجلس، وأنا لم أتكلّم معها بعد. أريد حضورك أثناء ذلك».

«أنقصد أن لا فكرة لديها حتى الآن؟».

«ولنفترض أنها تعرف. کیا تعرف منذ طفولتها، أن زواجها باعتبارها ضمانة محتمل وممكن. والفضل في بقائها هنا في قطنا حتى الآن يعود إلى تدليل أبي لها ولصبري الطويل».

ها هي لهجة التعالي تجاه المرأة، التي يمقتها تانوا في أكيزي وأمثاله.

عندما ظهرت کیا، رأى تانوا في عينيها نظرات العارف بالأمر. وببساطة لم يكن معقولاً، أن شالا، سيدتها وأمها تربوياً، لم تُحطها فوراً علماً بالأمر. لكنه لم يقرأ في وجهها رد فعلها على الخبر. أنصتت من دون أي ردة فعل إلى أكيزي وهو يقرأ لها رسالة الملك العظيم. ثم قالت: «يجب أن أفكر في الأمر. تالزو، أنت أتوقع حضورك بأسرع ما يمكن إلى بيت الربة، لتتكلم!».

صلّب تانوا ذراعيه وانحنى لها.

«هذا هو أسلوبها كالعادة!». قال أكيزي لصديقه بلهجة شاكية، بعد أن غادرت کیا الغرفة، وأضاف: «لا يمكنك أن تحدثها بحكمة. ماذا يمكنك إخبارها، ولا أستطيع أنا قوله لها؟ على أية حال، لنبدأ بالتحضيرات».

منذ وقت طويل لم تكن کیا مضطربة بهذا الشكل. عندما فاتحتها شالا بأن مجلس الأعيان قد اصطفاه - وكذلك لبارنا حتّوشا - عروساً لإختاتون، غلبتها الدهشة. لم ترسل إليها الربة أي نذير بهذا الشأن. أبعد كل هذه السنوات، وبعد كل هذا الانتظار العبيثي، وبعد كل الدموع، ثمة مستقبل لهما؟ كان هذا لا يصدّق. دهمتها سخونة شديدة. كيف يبدو الآن يا ترى؟ نظرت، صوته، يده الرقيقتان الناعمتان، كل ما في مظهره تبدى أمام عينيها فجأة. هل يمكن لعجلة الزمن أن تدور إلى الوراء؟

ثم هيمنت عليها الأصوات المحذّرة. هل يعلم إختاتون بالأمر؟ ماذا، إن لم يتذكروها إطلاقاً؟ أو لم يعد يريدوها؟ هي حتماً لن تفرض نفسها. وماذا عن نوفرتيتي؟ ألم تعد في القصر؟ حسب آخر أخبار السفير أكيا، هناك إشارات إلى جفاء في جو العائلة المالكة. ثلاث بنات من ست مُتَنّ خلال سنة واحدة. لم يكن هذا مروعاً فحسب بالنسبة للعائلة، بل هو نذير سوء مرعب للبلد ككل. هل الرب غاضب؟ هل نوفرتيتي هي السبب؟

والآن عليها أن تنوب عنها، بديلاً، نخباً ثانياً؟ وربما مساعدة مؤقتة وأقل شأنًا؟ لا يحق لأحد أن يتصرف بها وكأنها كرة، يرميها إلى هنا أو هناك، كما يشاء. مجلس الأعيان رغب، والملك العظيم أمر، لا، ما هكذا تعالج الأمور. لقد تصالحت مع حياتها بصفتها مستقبلاً كبيرة كاهنات الربة. كما تجاوزت الأزمة الصعبة التي سببت الشقاق بينها وبين شالا مدة من الزمن، لأن كيا رفضت القبول بضرورة التضحية في سبيل البلد، حتى من جانب الأرباب. بدا لها الأمر عبثياً. ولكن بعد أن تجلّت لها الربة عدّة مرات وأوحت إليها، انصاعت قانعة بأنها تبشّر بسلطان الربة وقوتها، وتنطق بحمدها. فعادت ممارسة جميع أعمالها السابقة، فأدارت دار الشفاء، وكرّست نفسها لتشريح القرابين الحيوانية بغية قراءة الكهانة، وساعدت كبيرة الكاهنات حينما استطاعت. فهل على هذا أن يصبح جزءاً من الماضي؟ في بلاط آخت آتون ستتظنّها حياة مختلفة كلياً. عليها أن تترك وراءها كل ما ألفته، مع احتمال خطر ألا يتعطف عليها إخوانتون ولو بنظرة، وأن ينفيها إلى حريمه فوراً. لا، هذا غير مقبول. فمن خططهما المشتركة لم يتبقّ أي شيء. لقد حققها وانتهى مع تلك المرأة الأخرى. فماذا تبقى لها؟

تحدّثت مع شالا مطولاً. وشالا في نهاية المطاف ستخسر خليفتها، لكنها رأت أن عليها القبول برغبة المجلس. وكان هذا رأي صديقتها العزيزة أميناية وأمها إيست أيضاً. وأخيراً كان لا بدّ من أن تلجأ إلى ربّتها. وبعد التهجّد صائمة طوال ليلة في المعبد، فسّرت صمت الربة على أنه رفض للحظة، فأرسلت إلى أكيزي من يخبره بأنها تفضّل البقاء في قطننا.

لكن الأمر كان قد حُسم وانتهى. تبين لها ذلك عقب الحديث مع تانوا. تُركت وحدها معه، حسب رغبتها، فأسلتها له لا يجوز أن تسمعها آذان غريبة. وحسبما خشيت وتوقعت، كان وراء الأمر أكثر بكثير من مجرد تهتة الفرعون بعيد جلوسه.

«أنا إذاً أداتكم، سلاحكم السري، لتفادي الحرب. يجب تهدئة الفرعون. يجب أن أحول دون نشره دين ربه في الساحل السوري. ما السوء في ربه.. سوى أنه ليس ربة؟». وأتبعته الملاحظة الأخيرة بابتسامة ناعمة، لم يستجب لها تانوا، بل قال متماسكاً: «ظننتُ أننا نؤدي خدمة لك بذلك، أن نجعلك أخيراً سعيدة بالوجود قربه. ألم تكن هذه رغبتك الحميمة؟».

صممت كيا. هو إذاً هو صاحب الفكرة. كان بإمكانها أن تتصور، أنه حقاً أحد القلائل

القادرين على كبت رغباتهم وأحلامهم، من أجل تحقيق سعادتها. أن يمحو نفسه، ليتمكنها من العيش مع حبيبها، من دون تلك النيات السيئة الغادرة، التي يربطها الآخرون بها. إنه رُوِّحَ محبة نقية. ووعيتها المفاجيء بهذا جعلها ترتجف. ثم تماسكت.

«وماذا إن أخفقت؟ إن لم أعجبه؟ أنا لم أعد في الخامسة عشرة. كما أنني لم أعد عذراء، كما تعرف.»

كان وقع ذلك مريراً. فالجرح الذي سببه لها أكيزي، ما زالت ندبته حية. «كيا، أنت لن تخفقي! ثم إنكن في دار الشفاء تعرفن كل الأسرار التي يستخدمها الضالعون في العلم، لفتنة الرجل وإسعاده، أليس هذا صحيحاً؟ الفرعون يحتاج إلى ابن، لن تنجبه له نوفرتيتي على ما يبدو. ولهذا السبب الملك غاضب، حسبما نسمع.» ركزت كيا نظرها في عينيه طويلاً، صامته، إلى أن لم يعد تانوا قادراً على الاحتمال. هل قرأت كل ما في نفسه؟ وما حاول أن يخفيه عنها؟ سألتها بصوت خافت: «لماذا عدت إلى اسمي القديم تالزو؟»

«هذا ما أمرتني به الربة» أجابته مندهشة، وأردفت: «ألم أخبرك بذلك؟»

«الربة ذكرتني أنا؟»

«باستمرار، ولكن لا يحق لي الخوض في الموضوع. ولكن أخبرني أنت تالزو، ما الذي قد يحدث، إذا رفضتُ تنفيذ المهمة، إذ إنني لا أجد تسمية أخرى لطلبكم؟»

«ماذا تعتقدين؟». وأخبرها التعبير الذي كسا وجهه بأكثر من ألف كلمة.

«أعتقد أن الحثيين، جماعتك، سيُخضعون المدينة. وإن دعت الضرورة، يدمرونها.» وأضافت متسائلة: «ألهذا الحد تبلغ أهمية حفظ السلام بالنسبة إلى الملك العظيم؟ وإضافة بعض الأرياب إلى أربابه الذي يتجاوزون الألف؟ أعلي أن أضحك أم أبكي؟ أليس ملككم ببساطة طماع ونهم إلى السلطة؟ ذئب بفروة خروف؟ وأنت تبينني إياه بصفته مخلصاً ونصيراً للسلام. لا بد أن أهضم هذا أولاً. إذًا، لماذا لا يعيد قادش وأمورو إلى إختاتون؟»

لم يمتلك تانوا جواباً جاهزاً لهذا السؤال.

«هل أنت متأكد، يا تالزو الترشي، أنهم يطلعونك على كل ما يُدبر في حتوشا؟ ألسنت أيضاً مجرد كرة في لعبة الكبار الأقوياء، يرميها صاحبها حيثما شاء؟ حتى ولو ارتفع شأنك جداً في حتوشا وبت قادراً على فعل الكثير، إلى أي مدى تصل ذراعك حقاً؟»

كانت كيا جادة جداً في طرح أسئلتها، بعيداً عن سخريتها الهازئة المعهودة. من الواضح أنها كانت قلقة. قلقة بشأنه. والشكوك التي كانت تعذبه منذ أسابيع، انفلتت من داخله: «كيا، لا أستطيع إجابتك عن كل هذه الأسئلة. لم أعد أعرف ما هو خير وصائب، ما هو مهم ومفيد، وما لا بد منه. ما أعرفه هو أنني أحبك وأريد حمايتك من أي أذى. اهربي معي، الوقت ما زال لصالحنا. سنجد مكاناً نعيش فيه، ثقي بي!».

يا أرباب السماء جميعكم! هل قال هذا بصوت عال، أم أنه فكر فيه فقط؟ لم يظهر على وجهها أي رد فعل موضح لموقفها. نظرت إليه متسائلة دون أي تبدل في عينيها، ثم نهضت واقفة بوقار، وقالت له: «أنا شاكرة لك لإضاحاتك يا صديقي. أعتقد أنه لم يعد بوسعك أن تفعل أكثر من هذا من أجلي».

فنهض تانوا بدوره وقال: «كيفما جاء قرارك، يا كيا القطنية، سأبقى معك بأفكاري وأفعالي. إذا حدث أن تعرّضت لأزمة، نادني، وسأسمعك. أرسلني إلي تيمتك. لقد أحضرت شيئاً آخر. خذي هذا الخاتم. أرجو منك شيئاً واحداً فقط: ضعيه دائماً في اصبعك. إذا طرأت ظروف قصوى، حماك الأرباب منها، يمكنك استخدامه منقذاً. إنه يحتوي مادة لها تأثير كالموت يدوم عدّة أيام. عليك أن تضغطي عليه. كوني حذرة! سأصلي إلى الأرباب راجياً ألا تضطري للجوء إلى هذا الإجراء الوقائي. رافقتك السلامة، كيا!».

وضع تانوا الخاتم على طاولة صغيرة.

انحنى لكيا انحناء احترام عميقة وغادر بيت الربة.

بدا وكأن دقائق قليلة فقط قد مرت على مغادرة تالزو، وكيا تحاول ترتيب أفكارها للوصول إلى قرار، عندما سمعت اسمها بصوت خافت. ظنت بادئ الأمر أن تالزو قد عاد، لكنها تعرفت من ثم صوت أميناية. فتحت كيا الباب ورأت بصحبة أميناية امرأة بحجاب كامل.

«رفضت الانصراف بأي شكل، وهي تلجلج اسمك باستمرار». أوضحت أميناية.

أومأت كيا برأسها وطلبت من العيرية الدخول. بقيت أميناية واقفة بتردد، فأشارت لها كيا، كي تتركها وحدهما. بسرعة الريح انسلت أميناية عبر الدّرج السري عائدة إلى جناح كيا، واختبأت في حجرة مجاورة، حيث يمكنها عبر فتحة في الجدار مراقبة كل

ما يجري بصورة جيدة. هذه الترتيبات المعمارية موجودة في عدّة أمكنة في بيت الربة، لحماية الكاهنات من زوّار طارئين فضوليين.

حدس كيا لم يخب. لم يُخفِ الحجاب وراءه وجهاً نسائياً. بدت ملامح الوجه غير غريبة لكيا. وعندما حيّاها الصوت هامساً، تعرفت صوت نانينزي، السفير الحثي بلكنته الواضحة. قطّبت جبينها مستاءة وقالت: «ما سبب هذا السلوك المتستر؟ لماذا تأتي إلى هذا المكان متكرراً بهذا الشكل؟ هذا مكان يحظر عليك دخوله! إنك تخرق سلام الربة. أتعرف معنى هذا؟».

نزل نانينزي على ركبته قائلاً: «عفوك يا سيدتي، لكنني لم أجد طريقة أخرى للوصول إليك! أحمل لك رسالة من اللابارنا، موجّهة إليك وحدك. وحياتي كفالة ذلك».

«يبدو أنني موضع اهتمام خاص حالياً. حسناً، انهض! ما هو مضمون الرسالة؟».

تعثّر نانينزي بعناء في النهوض. لو كانت الظروف مختلفة لوجدت كيا تسلية في ذلك. لكن مزاجها كان مختلفاً تماماً الآن. ناولها نانينزي لوحاً طينياً صغيراً يحمل خاتم الملك، يثبت هويته كرسل، و فقط، من دون نص آخر. فأشارت له كي يقترب منها ويتكلم. انحنى لها وأغمض عينيه، وردّد بصوت خافت كلمات الملك العظيم. بقيت كيا بضع دقائق صامتة، كمن ضربتها صاعقة، ثم هوت على كرسيّ واطمأنت. تسارعت أفكارها، وخفق قلبها بشدة حتى أحست بالنبض في عنقها. كان لا بدّ أن تكسب بعض الوقت. أجلت جوابها حتى الغد، ووعدت نانينزي ببقائه في دار مربيّتها عند المغيب. هناك ستخبره بكل ما يرغب الملك في سماعه. بذلت جهداً لتنادي كاهنةً مستجدةً لترافق ضيفها، الذي أعاد تنكّره، إلى خارج بيت الربة، ثم انهارت.

استعادت وعيها بين يدي أميناية الحنونتين، التي كانت تنشقها محلولاً منعشاً. كان جسم كيا كله يرتجف.

«هل عرفتِ الذي كان عندي؟». فأومأت أميناية.

«وهل فهمت ما قاله؟».

«لا! كان صوته خافتاً جداً. ما الأمر؟».

«لا يجوز لي أن أطلعك عليه»، قالت ذلك بلهجة اليانس. «وعليك أن تكتمي أمر هذه الزيارة. أقسمي لي على ذلك الآن! لا يجوز لأحد أن يعرف بأمرها، لا أحد، أسمع!».

وبعد أن وعدتها أمنيابة بالكتمان التام استلقت كيا على سريرها قائلة: «سأرتاح قليلاً الآن. بعد ذلك سأذهب إلى شالا. سأرجوها وأرجوك يا صديقتي العزيزة أن ترافقاني إلى الملك!».

هزت أمنيابة رأسها موافقة. فردت غطاءً دافئاً من اللباد على كتفي كيا، حرّكت الفحم في المجرم، وغادرت المخدع بهدوء.

ولكن من أين ستأتي الراحة؟! كانت الأفكار تتلاطم في رأس كيا. لقد هدّدها اللابارنا وهدد المدينة. يجب أن تخضع لإرادته خضوعاً غير مشروط. وإضافة إلى ذلك طالبها بكل قحة أن تبوح له بسر قطننا. ما سبب نهم العالم كله إلى هذا الأرجوان؟ ألا توجد ألوان أخرى جميلة؟ على مرّ السنين حاول كثيرون سرقة السر، فكان الموت مصيرهم. ضحكت كيا بمرارة. فليطلع على السر. في حتوشا لن يستفيدوا منه بشيء، إطلاقاً.

وهو يهددها لا بتدمير المدينة ومحو عائلتها كلها فحسب، بل ابتزها شخصياً. من الواضح أنه يخشى خشية حقيقية احتمال أن يكون مصير قطننا بالنسبة إليها سيّان. ولتكون خطوته التالية مضمونة العواقب، فقد أكرهها على الخضوع بتهديدها بحياة شخص يعزّ عليها فقده. أيصعب التكهن بمن يقصد، ما دام المعنى لا يمكن إلا أن يكون حتياً حتى نائيزي عرف لا شك من المقصود، لكن هذا سيان، فإن فتح فمه سيفقد لسانه أو يديه أو يُقتل فوراً.

يا ربتي، ما هذا الجنون؟! ما كان يُعتبر في مصر أقرب إلى الضرورة، يعاقبُ عليه بالموت في حتوشا! كيف يطالب الأرياب البشر بشيء هنا، وبآخر مختلف هناك؟ غالباً ما تكون مشيئة الأرياب عصية على الإدراك. والآن تُطالب هي بتقديم العون. هي! على أي أساس بنى الملك قناعته بأنها ستأثر بشروحاته؟ لكنها اعترفت لنفسها بأن تقييمه لها كان صائباً تماماً: فهي لا يمكن أن تخذل صديقاً. لذلك لا بدّ لها من أن تنفذ إرادة الملك. ولكن، ألا تصير بذلك مذنبه أيضاً؟ ليس تجاه ربتها. ييليت إكالم لا تطالب بالموت لقاء ذلك. أم تُراها تطالب به؟ فكّرت كيا بطفلها الذي فقدته. أبعدت هذه الأفكار عن رأسها. لقد مضى وقت طويل على ذلك. والواجب الآن هو التحكم بالحاضر. مذنبه.. إنها متورطة على كل حال. كل هذا الخداع والتضليل بشأن اعتلاء أكيزي العرش. كم يثقل هذا روحها! هل يمكن للبشر أن يبقوا أنقياء بلا ذنوب؟ هذا أمر ستقره الربّة! هي التي ستقودني على الدرب وتحميني.

نهضت مصممة. سأسافر إلى مصر وأنفذ المهمة. لا يجوز بسببي أنا، أن يلحق الأذى بعائلي وبقطنا وبأي عزيز عليّ. ويحتمل أن يصير الأمر واقعاً، ويسود السلام بجهدي. سيكون ذلك مكافأة كبيرة. كل ما عدا ذلك سيهون، الرية ستسهل ذلك.

إعلان كيا أمام شهود كُثر في القصر، عن قبولها بالانتقال إلى بلاط الفرعون في أخت أتون، وبكل النتائج المترتبة على ذلك، جلب ارتياحاً كبيراً في جميع الأوساط.

«ألم ترغب في ذلك منذ سنوات طويلة؟». همست الملكة بلتوم لكتتها إهلي نيكالو، لكنها عندما رأت وجهها المبلى بالدموع هزت كتفيها مستغربة.

تلقى أكيزي قبول كيا، من دون أي استفسار، مسروراً برفع هذا العبء عن كاهله، وشاكراً لأخته توفيرها عليه اللجوء إلى إجراءات الضغط. كان أكيزي واعياً بوجود كثير مما يحول دون التقارب بينه وبينها، ولكن كان أمراً مقيماً بالنسبة إليه أن تسافر وهما على شقاق. فقد كان لديه ما يكفيه من المنغصات التي لا بد من التعامل معها. فأبلغ تاناو بسرعة بالانعطاف الجيدة.

بعد ذلك دبّت حتى حركة قلقه في قطنا. كان لا بدّ قبل الرحلة من تحضير أمور كثيرة وترتيبها. وبينما كانت كيا تستعلم في دار الشفاء ولدى أمها إيست عن كل ما بدا لها مفيداً لمهمتها، وتُجري حوارات طويلة مع أخويها أكيزي وكواري، بُدئ بتحضير مهرها بإشراف الملكة بلتوم ومساعدة إيست. وكان هذا بمثابة معجزة صغيرة، أن تلتقي المرأتان بسبب كيا. ولكن لا الأم ولا الابنة توهمتا بأن بلتوم تنصرف انطلاقةً من شعور مفاجئ بالصدقة. كانت فرحة ببساطة لاخفاء كيا على الأقل من قطنا. وبصراحة فظة سألت ابنها، ما إذا كان بمستطاع إيست الآن أن ترافق ابنتها، لحنينها الأكيد إلى وطنها. علماً بأنها خير من يعرف أن الأرملة تنتمي إلى العائلة المالكة في قطنا برباط لا ينفصم.

شيئاً فشيئاً بدئ بجمع جهاز كيا، وترتيبه بكلّ عناية، في صناديق وعلب: ثياب، أحذية، زنانير، حجابات وخمارات وأشياء أخرى كثيرة. أقمشة مختلفة الصنع، سجّاد وبسط، وتزيينات جدارية ثمينة، أصواف ملونة وغير ملونة، ومن بينها الصوف الأزرق المرغوب جداً. إضافة إلى مئات المثاقيل من الذهب الأصفر والأحمر والحلي الثمينة وأشياء أخرى كثيرة.

أما الهدايا المخصصة للفرعون فقد اهتم بأمرها أكيزي شخصياً، إلى درجة أن راجع بشأنها كوارى وأكالينا في دار البلد. ستكون قطنا كريمة وسخية. كما أرسل إلى مصر سعاة ووفداً لتهيئة كل ما يتعلق بوصول الأميرة إلى مصر.

سيرافق كيا عددٌ من النساء، من وصيفات وخادمات للإشراف على شؤونها في الطريق. إلا أن الأهم بالنسبة إلى كيا كان موافقة أميناية على مرافقتها.

عانقتا إحداهما الأخرى في تفاهم حميمي، عندما أخبرتها أميناية بموافقة شالا على فقدان كاهنة ثانية. لكن شالا أخفت عن كيا الدور الذي كان لتانوا في اتخاذها هذا القرار، لكنها استدعت إليها أميناية عدّة مرات قبل الرحلة، وطالبتها بمتهى الكتمان بشأن التعليمات التي ستلقاها هناك سواء منها أو من تانوا. وعند ذلك فقط اتضح لأميناية أن رحلة كيا إلى مصر والمهمة المرتبطة بها لن تكونا لعقّ عسل، بل بالعكس. ولهذا يُفضّل أن تهَيّ نفسها للأسوأ. وقد أسعدتها جداً كل هذه العناية المجدبة، ولا سيّما التي أبداها تانوا تجاه كيا. لبتّه كان أميراً ابن ملك! لكان كل شيء بسيطاً.

«حلزونات؟ أتجرؤ على أن تحضر لي حلزونات ميتة؟ رائحتها مرفقة. أتسخر أميرة قطنا من ملك حتّوشا؟».

ارتعى نانيتزي أرضاً كي يهدئ من غضب الملك، وقال: «لا، يا شمسي، الأمر ليس كما تظن. ما أبعد الأميرة عن محاولة إهانتك. إنها ترسل إليك الحيوانات، التي ينمو في داخلها اللون الأرجواني. وهي بهذا تنفذ أمرك!».

«انهض!» قال الملك نافد الصبر «اشرح لي الأمر بدقة!».

نهض المراسل بسرعة وقال: «يحتاج المرء إلى حلزونات من نوع محدد. هناك مختصّون يعرفون النوع المطلوب. الحيوانات تفرز مخاطاً أصفر اللون، يتحول بتأثير نور الشمس إلى أخضر ثم إلى أزرق، وأخيراً إلى قرمزي وأرجواني، لكنها تبتّ أثناء ذلك رائحة تبعث على الإلياء وتبقى لمدة طويلة. هناك خطوات شغل عديدة ضرورية، حتى يستخرج منها المرء المادة الملونة الفعلية. من الحلزونات الكبيرة الحجم التي ما زالت حيّة يقطع المرء جزءاً محدداً، أسمته الأميرة الغدة. هذه الغدد والحلزونات الأصغيرة تخزن

في الملح طوال أيام، وأخيراً تُغلى بالبول على النار. ويحتاج المرء إلى آلاف وآلاف من هذه الحيوانات ليحصل على كمية بسيطة من المادة الملونة».

بدت الدهشة جليّة على الملك، وسأل: «وهذه الحيوانات الصغيرة تزحف على أرض قطنا؟».

«لا، بل تعيش في البحر، وتسمى قواقع».

«هذا لا يصدق!».

كان تانوا على الطريق لمقابلة الملك، فصار عن غير قصد شاهداً على الحديث القصير. تجمّد في مكانه وراء عمود جداري، حيث لم يلحظه أحد بعد. التقط فوراً موضوع الحديث، فانسحب بحذر إلى الباب، وحثّ الخطا كالمطارد عبر الباحة العليا عائداً إلى مقر إقامته. وعندما أحس بالأمان بين جدرانها الأربعة جرّو على تحليل ما سمعه. نانيتزي كان في قطنا، وهو لا علم له بذلك مطلقاً. لقد قابل الأميرة وحصل منها على سرّ الأرجوان. بحق أرباب السماء، ما معنى هذا؟ كيف تبوح كيا بسر، وعقوبة ذلك الموت في قطنا؟ انتقاماً؟ لا، هذا لا يعقل. انتقاماً لأي شيء؟ لسعادة كبيرة يُتوقع أن تكون بانتظارها.. لا معنى لهذا. لا، لا يمكن أن تقدم على ذلك أبداً بملء إرادتها. ولكن بماذا أجبرها الملك شوييلولوما على ذلك؟ اضطرب تانوا. هل يسأل هنوتي؟ تردد. لماذا كُتبت عنه رحلة نانيتزي إلى قطنا؟ لا شك في أنه كان هناك في الوقت نفسه تقريباً. هل هناك ما يدبر ضده؟ ولكن ما الذي يدبر، والأهم، لماذا؟ أخذ يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً محتاراً، هل يشكّون فيه؟ ليس لديه سوى سرّ واحد، غير حبّه لكيا. لا أحد يعرف الحديث بينه وبين هنتي، ولا أحد يعرف أنها لم تتابع سفرها إلى ميسينا. ما عدا ذلك؟ لقد كان يطلع هنوتي دائماً على كل شيء. أكان مخطئاً في ذلك؟ ألا يقف هنوتي إلى صفّه؟

إنني لا أرى سوى عفاريت شريرة، قال لنفسه. حتماً يمكنه الثقة بخاله. ثمة كثير مما يحتفظ به لنفسه أساساً، فالكتمان هو واجبه الأعلى في عمله.

هل يخاطب الملك مباشرة بمهمة نانيتزي؟ فهو مرؤوسه على أي حال. أي دور يلعب نانيتزي؟ أيستطيع سؤاله عن القواقع؟ لا، هذا كله غير وارد، لأنه سيكشف تنصّته، ولو عن غير قصد. من كان سيصدّقه؟ وهذا لا يليق به.

قواقع! هذا لا يصدق. أمن القواقع يستخرج هذا اللون، الذي لا يزول مهما غسل

بالماء؟ وشيئاً فشيئاً نتج عن التلميحات الكثيرة التي سمعها، وعن ملاحظاته على مرّ السنين في قطنا، صورة متكاملة. أفخاذ قطنا الصغيرة كانت قواقع إذن! منها كانت تتصاعد تلك الرائحة الوحشية البغيضة التي تجثم في الجو فوق المنطقة المحظورة في قطنا في بعض الأيام. في الزيارة القادمة يمكنه أن يواجه أكيزي بمعرفته بالأمر ببساطة. وسيتعجب. لكنه سيتساءل أيضاً عن سبب علم حتوشا بالأمر، أم أنه هو وراء كشف السر؟ هل أُجبر أكيزي على كشفه؟ قطع قدوم ساعي القصر سلسلة أفكار تانوا. لماذا تأخر عن مقابلة الملك؟!

1337 - 1339 ق. م

من جميع أنحاء الدنيا جاءت الوفود إلى بلاط آخت أتون، للاحتفال بعيد جلوس الفرعون، ولتقدّم له الهدايا بهذه المناسبة أو الضرائب المستحقة. عاهلاً حتّوشا وبابل أكّدا تهانيهما بإرسال هدايا ثمينة. آشور وأرزاوا والأشيا وحتى ميتاني بعثت رسلها، وكذلك الإمارات الأصغر الكثيرة العدد أوفدت من يعبّر عن إجلالها لشمس مَصْر. منذ وقت قريب قُضي بنجاح على تمرد في أرض كوش الجنوبية البعيدة. من لم يُقتل في المعركة وقع في الأسر. خوزق قادة التمرد أو قيّدوا إلى العربات القتالية التي سحلتهم حتى الموت. أما الذين اقتيدوا إلى آخت أتون، فقد ربطوا إلى النير، ليجروا العربات المحملة بالذهب والحجارة الكريمة والعاج وخشب الأبنوس وشجيرات المرّ والتوابل وفراء الفهود، أمام فرعون المتربع على عرشه.

كانت قوة أتون تتنامى من يوم إلى آخر. حتى الملكة الأم تيّة، ذات السلوك المحافظ حتى الآن، والتي كانت تظهر ولاءها لكهنة الأرباب المحظورين، عبّرت عن احترامها لابنتها وربّه وقامت بزيارة خاصة له في عاصمته الجديدة. لكنها لم تجد ابنها إخناتون على ما يرام، لا صحياً ولا مزاجياً. كما افتقدت قريبته نوفرتيتي والبنات الثلاث (ميريت أتون) و(أنخ سنبا أتون) و(نفرنرو أتون تُشريت). فهل ابتعدن عن الاحتفالات حزناً على الموت المبكر جداً للثلاث الأخريات، المدفونات في المقابر العائليّة المنشأة حديثاً في الجبال الشرقية؟



في أثناء الرحلة إلى آخِت آتون البعيدة، تبين لكيا تدريجياً أنها لا بد من أن تعتمد على نفسها فحسب. يُحتمل أن يتعلق كل شيء باللقاء الأول، فإن لم تفلح في جذب انتباه الفرعون إليها، فسيكون من العسير جداً بالنسبة إليها أن تتقرب منه لاحقاً. فأخذت في مخيلتها تكرر استعراض كل الاحتمالات.

لا شك في أن الوفود ستُستقبل في القصر، في قاعة استقبال واسعة، يتصدّرهما الزوج الملكي على العرش مع بناته. لإخاناتون ونوفرتيتي ست بنات، ثلاث منهم دُفنَ في قبورهن مؤخراً. يا لقسوة ذلك! طفلها هي، كان لا يزال جنيناً ضئيلاً، وهي لا تزال صبية صغيرة، ومع ذلك فإنها غالباً ما تتذكر موته بحزن.

غريب، عدم المساواة هذا في توزيع كل شيء. بلتوم لم تلد إلا ذكوراً ونوفرتيتي بناتاً فقط. للذكور في قطنا مكانة أكبر بكثير من البنات. حتى ولو كان للمرأة والبنات في مصر مكانة عالية، فإن العائلات ترحّب بولادة صبي على الأقل، وتفضّل كثرة من الصبيان. زينة أمهاتهم وعكاز آبائهم. كيف كان الأمر بالنسبة لنوفرتيتي يا ترى؟ ذكّر لها تالزو أن إخاناتون كان ينتظر صبيّاً بفارغ الصبر. رحماك يا ربتي! أبدو لنفسني مثل نعجة ولود.

عند وداعها قطنا فاض الألم. هل ستري شالا ثانية، وأخواتها العزيزات في بيت الربة، وأمها، وأخويها، وصديقاتها وأولاهن إهلي نيكالو، وأبناء وبنات أعمامها وأخوالها، ومربيتها، وجميع من أمضت حياتها معهم حتى الآن، هل ستراهم ذات يوم مرة ثانية؟ مرّت بمطارح طفولتها ومخابئها الكثيرة، وبأماكنها المفضلة، وتجولت عبر المدينة وحولها، حيث جالت مع تالزو آخر مرة. ما كانت لتحلم أن تالزو هذا سيلعب مثل هذا الدور في حياتها. يا لسخرية القدر! وضحكت كيا. كم مرة ذكّرتَه بأصله؟ كلما كانت تشعر بأنها دونه ذكاء، لم تكن تجد حلاً أفضل من جعله يشعر بأنه لا يليق بأميرة من قطنا. كم كانت حمقاء آنذاك! والآن؟ المرتبة والأصل لا دور لهما. لقد كان أبلغ تأثيراً في حشمها قرارها، من تهديد شوييلوليوما بتدمير قطنا وحرقتها.

تدمير المدينة وحرقتها.. اضطربت كيا وخفق قلبها بشدة. إنه حلمها ثانية، الذي يعاود الظهور منذ سنوات. تجلّت واضحة صور الحلم بالقصر المحترق والجثث والدماء والأدخنة الكاوية والصراخ من شدة الألم. هل سينتهي الآن؟ هل رُفع الخطر عن قطنا الآن، بخضوعها لإرادة الملك الحتي؟ غمرتها نشوة لا توصف. هي، هي وحدها، كيا

أميرة قطناً، أمسكت بيديها مصير المدينة كلها، ولم تتخاذل، بل استجابت للمصير الذي قُدِّرَ عليها. والآن سينجح كل شيء. أحست بأنها تنفض عن نفسها التبدُّل المتنامي في داخلها منذ السنوات الأخيرة. أحست بنفسها تنبض بالحياة، بشعور افتقدته منذ مدة طويلة. كان كل شيء قابلاً للتصور، يكفي أن تمد يدها نحوه، ستستعيد الحبيب في خضم العاصفة. سنوات الفراق، أي دور لها الآن؟ لقد أنضجتها له وبسخاء. آنذاك لم تكن بحال من الأحوال بمستوى أداء الواجبات الكثيرة لزوجة الفرعون، لكنها ما عادت تتهيب منها الآن. ومع كل مسافة تمخرها السفينة المتأرجحة في البحر بعيداً عن قطناً، كانت ترمي الكتابة وراءها وتستعيد مع النسيم العليل خفة روحها وبشرها. ويفرح ماجن عانقت أميناية وأرجحتها حولها بقوة فجائية لا تصدق، وقالت: «لا بد أن يكون مشهداً باهرأاً».

«ما هو، عزيزتي كيا؟»

«ظهوري أمام فرعون طبعاً. لا بد أن يندهش ويفاجأ. لا بد من أن أفتنه وأستأثر به وبأفكاره! إلى درجة أن يفقد الاهتمام بجميع حاملي الهدايا الآخرين»، وضحكت «ولربما كانت عندي الفكرة لتحقيق ذلك، وقد أبوح لك بها يا صديقتي الوفية».

في مدينة سومورا ركبت المجموعة السفينة، تقودهم كيا بصفتها السفيرة الرسمية. بقيت معهم المرافقة حتى الميناء، ثم أقلعت السفينة وغابت وجوه الأحباب. نظرت كيا نحو الجنوب وعرضت وجهها للريح. لم يكن السفر على ظهر السفينة مريحاً، ومع ذلك استمتعت كيا بالمغامرة. لم يؤثر عليها دوار البحر كما أميناية، بل كانت شهيتها إلى الطعام جيدة وأحست بصحة جيدة. ورغم ضيق المكان شعرت بنفسها حرة. ما عرفته حتى الآن عن طريق الحكايات فقط، عاشته الآن بنفسها ورأته بعينها. كيف احتملت العيش في قطننا الصغيرة طوال الوقت، والعالم على هذا الاتساع والتنوع؟

كانت المحطات على طول الساحل جنوباً تمريناً جيداً لكيا، لتعود نفسها على كونها الشخصية الرئيسية. (رب عدي) ملك جبيل وقريته أبدياً لها احتراماً خاصاً. لو لم يكن (أكيا) إلى جانبها لأحست في مواقف عديدة بالضيق، غير أن سفير قطناً كان عليماً بجميع الأعراف المتبعة، فكان يرشدها موارد بحوث باتت أقل توتراً عند لقاء مضيفها مع تشوق للاستراحات البرية. ساد على السفينة نوع من رفع الكلفة بصدد التمسك بأداب القصور مع تحوُّل تدريجي نحو الأعراف المصرية.

في جبيل نُقلت أغراض كيا إلى سفينة أكبر وأمتن، ذات هيكل مسطح نسيباً، ساعد في

تخزين أخشاب مختلفة من الجبال، جذوع أرز ضخمة، إضافة إلى تنوب وصنوبر وبلوط وعرعر. إلى جانب ذلك حُمِلت السفينة بالنحاس والقصدير وبضائع متنوعة أخرى. كان هدف الشحنة كلها مصر.

«ستوقف أيضاً في بيروتا، صيدونو، صور وعكا، كلها مدن جميلة جمعت ثروات عن طريق التجارة»، شرح لها أكيا، وأضاف: «إنهم يشحنون بضائعهم على سفيتنا إلى مصر. ستشعرين بنفسك وكأنك في الدار، فلا حديث لهم هنا سوى الريح والخسارة ولوائح الطلبات الطويلة وأفضل الطرق التجارية وأسرع الحمير، إضافة إلى القيل والقال والفضائح الجديدة».

ضحكت كيا وقالت: «ومع ذلك، الحياة على الساحل مختلفة تماماً. الإطالة على هذا المدى المائي الذي لا نهاية له أجدها مريحة ومثيرة معاً! البحر يغيّر على الدوام لونه وشكله، وهذا رائع».

«فلنرفع صلوأتنا إلى بعل كي يمنحنا طقساً جيداً، وإلى رب البحر (ياو) أيضاً. كم أود أن أوفر عليك التعرف على غضب البحر!».

كلما اندفعوا جنوباً، ازداد داء الجو. لقد غادروا قطنا في جو قارس، غير معتاد بالنسبة لتلك الأيام من الشتاء. صار يوسعهم الآن التحرك على سطح السفينة من دون المعاطف اللبادية السميكة. عندما بلغوا عكا كان الطقس جيداً جداً. كان بود كيا النزول إلى البر هنا أيضاً. لكن الريان حث على السرعة، أمراً بتفريغ شحنة عكا وتحميل شحنة مصر وتوفير ماء للشرب ومأكولات.

«ما باله متعجباً بهذه الصورة؟ هل يتوقع طقساً رديئاً؟».

هز أكيا رأسه نائياً وقال: «المسافة القادمة لا يجبها البحارة، لعدم وجود موانع ذات مراسٍ صالحة للسفن الكبيرة، ولذلك فإنهم يتجهون نحو العمق قليلاً، عن غير رغبة، بسبب التيار المائي المعاكس وتبدل الرياح الساحلية. إنهم يفضلون إبقاء البر في مرمى النظر».

«هذا رائع! سنرى الدلافين من جديد».

«الدلافين ربما سنراها، لكن المؤكد أكثر، هم القراصنة»، أجاب أكيا بصوت جاف، «فكلما طال رسو السفينة هنا، انتشرت أخبارها بسرعة، وكل الراغبين في غنيمة دسمة سيتنادون ويجتمعون بأقصى سرعة. هذه أسباب عجلة الريان. ولكن بإمكاننا أن نقرر الآن متابعة طريقنا براً. بعد أن نتجاوز الجبال يكون الدرب موازياً للشاطئ باتجاه الجنوب حتى

نصل إلى غزة، وهي مركز مراقبة أمامي مصري. من بعدها لا يمكن أن يحدث شيء، لأن الأرض المصرية آمنة».

«كم ستطول الرحلة؟».

«أطول بعدة أيام، مما لو تابعنا بحراً مع ريح شمالية مناسبة. حتى الآن قطعنا نصف المسافة. بقي أمامنا سبعة أو ثمانية أيام في البحر العظيم ونصل إلى دلتا النيل. برأ قد تستغرق الرحلة ضعف المدة، لست أدري تماماً. هذا يتعلق بأمور كثيرة».

لم تُطل كيا التفكير، ثم قالت: «السفينة مليئة ببضائع ثمينة، ويوجد على متنها بعض المسلحين، إضافة إلى البحارة المقاتلين. هذا يعني أن الجميع ينطلق من فكرة أن الرحلة ستمرّ بسلام. إذًا، سنبقى في السفينة!». انحنى لها أكيا دلالة على الموافقة.

أرباب البحر والريح والطقس جميعهم كانوا رحماء كرماء، فوصلت السفينة إلى مصب النيل من دون مشاكل، إلا فلوكة صغيرة اعترضت السفينة وراء اللسان الجبلي بعد عكا. لم تشكّل خطراً، بل استقبلها البحارة بالضحك الساخر، ورموا لقراصتها المساكين بعض التوافه بسخاء. بعد سبعة أيام في البحر، ناورت السفينة بجهود المجذفين الماهرين نحو قناة شاطئية مخفية. وكان هذا في رأي أكيا إنجازاً كبيراً من جانب القبطان، لأن عبور منطقة مصب النيل تتطلب مهارة كبيرة جداً. فخطر الجنوح يكمن في كل مكان بسبب الرمال تحت المائية أو ضحالة عمق الممرات. وغالباً ما تصطرّ السفن إلى تفرغ شحناتها في عرض البحر في قوارب صغيرة. وهي عملية بالغة الخطورة.

قبل المغيب وصلت السفينة إلى قلعة تارو ذات الأسوار السميقة وأبراج المراقبة المتعددة، على الضفة الشرقية من الخليج البحري، حيث أمكن للسفينة أن ترسو. بعد أن راقب حارس مسلح كل ما على السفينة ومن عليها، سمح للركاب بالنزول. ظهر قائد القلعة بنفسه لدعوة الضيفة وحاشيتها إلى مأدبة احتفالية.

كيا أميرة قطنا تدخل أرضاً مصرية.

إذا كانت تتوقع أن تمتلئ غبطة بذلك، فقد حدث العكس. ربما كان السبب هو جو القلعة المقبض مع وجود كثير من الجنود، أو ربما هو تعب الرحلة الشاقة. مساءً على كل حال وتحت ناموسية السرير وجدت أميناية أمامها كتلة من التعاسة، إضافة إلى أن نسيم البحر لم يخفّف كثيراً من حرارة الجو الخانق.

«هذا كله لا يحتمل»، قالت كيا «ماذا نفعل في هذه الأرض الغريبة؟ هل رأيت هؤلاء العفاريت السود المخيفين؟ إنهم يخدمون في جيش الفرعون. وكلهم يتكلمون المصرية بسرعة، بحيث لا أفهم الكثير مما يقولون. في هذه الرطوبة لن تصمد أي زينة وجه، ولا تسريحة الشعر المستعار. سأبدو مخيفة!».

لم تدر أمينية، بسبب هذه الشكوى المطولة، هل تضحك أم تبكي تعاطفاً. لكنها حاولت أن تهدئ كيا وتواسيها، وقالت: «لم يبق أمامنا سوى بضعة أيام حتى نصل إلى أخت آتون. لنحاول أن ننام الآن. غداً ستبدو الدنيا مختلفة». وانسلت إلى جانب كيا تحت الناموسية.

في تارو لم يكن هناك وقت كاف للراحة، فالزمن يركض. وهكذا أقلعت السفينة من المرسى في الخليج، واتجهت غرباً نحو مدخل أحد فروع النيل الذي سيوصلهم إلى ممفيس. في أول محطة على الطريق جنوباً وجدت كيا امرأة مألوفاً لديها، أيقظ في نفسها الحنين إلى الوطن. حصلوا على مكان للمبيت في أحد قصور (برونفر)، وهي ميناء وقاعدة عسكرية على الضفة الشرقية لقرع النيل. في قاعة المدخل استقبلت كيا لوحات فنية جدارية تمثل مناظر طبيعية للنيل وحشائش (الأيشا) متهاوية مع الريح، وبطاً وحيوانات مائية أخرى وقوارب. لا مجال للمقارنة بينها وبين جداريات قطنا التي بدت أمامها فقيرة، ومع ذلك فاليد هي نفسها: مينوس! نعم، مينوس. أكد لها سيد القصر، وسألها عن أحواله. يا له من مادة رائعة للحديث! ومع ذلك كادت كيا ألا تستطيع حبس دموعها، إلى أن انهمرت أخيراً في مخدعها وبغزاره. وخلال هذه الليلة الموحشة أدركت كيا أن ما دفعها إلى البكاء لم يكن الحنين إلى طمأنينة البيت، بل لأن الخوف قد ملاًها. خوف من مهمتها، من احتمال الإخفاق، من أن تختفي إلى الأبد في حريم مصري، من رجل اعتقدت أنها أحبته كما لم تحب رجلاً غيره، وأهانها كما لم يُهِنها رجل غيره حتى الآن. كيف سيلتقيان الآن بعد كل تلك السنين.. هي، أميرة قطنا الصغيرة الواهمة، وهو، أحد أقوى ملوك العالم، إن لم يكن الأقوى أو الرب؟

وكان أمينية قد أحست بمحنة صديقتها، فتقلبت بادئ الأمر في سريرها أرقاً، ثم نهضت وانسلت إلى غرفة كيا المجاورة.

«كيا! ستنجحين. ألم تتوصلي دائماً إلى مقاصدك؟ يجب أن تفكر ونحضر لكل شيء بذكاء. كل الدلائل تبدو مناسبة. الملكة فقدت حُظوتها عند إختاتون. حُمِلت مسؤولية

موت البنات. والملك يتوق إلى ابن. صدّقيني، هو أيضاً رجل لا أكثر! ستزيتك يا حمامتي ونهرجك، أنت جميلة وغامضة، وأنت تعرفين ما يريد. اعتمدي على الربة، دعيها ترشدك. إنها لن تخذلك، سترين!».

متعبة انطوت كيا بين ذراعي أميناية، قائلة: «معك حق، وقد جئت في الوقت المناسب يا عزيزتي. لنبدأ المعركة إذاً، بعون الربة!».

وصلوا إلى الموضع الذي تتفرّع عنده أذرع النيل الجليل المتعددة. هنا وبمنظرة نحو الجنوب يتبدى النيل بعرضه الكامل، محاطاً يميناً ويساراً بشرط من التربة الخصبة. شهور إنتاش الزرع ونموه الأربعة قد مضت، وجاء فصل الحر الذي يبدأ فيه الحصاد. وفي نهايته يقام عيد رأس السنة ويبدأ موسم الفيضان. ما زال النهر يدفق ما يكفي من المياه لتقدّم المواكب الشراعية من دون صعوبة. قبيل وصول المجموعة إلى ممفيس شهدت منظرًا لا يصدق. كان أكيا منذ فترة قصيرة يذرع سطح القارب جيئةً وذهاباً بتوقع، وهو يتلفت مراراً نحو الغرب. فجأة أشار إلى كيا مستثاراً وأشار بيده نحو مغيب الشمس. بجلال راسخ وبياض وقور جميل انتصبت على خلفية سماء المغيب الحمراء المتأججة أجسام هندسية، وكأنها تلامس السماء.

«إنها قبور فراغنة رحلوا نحو الغرب منذ زمن بعيد»، شرح أكيا بخشوع جليّ «بسبب أشكالها نطلق عليها اسم أهرامات. سنرى غيرها على طريقنا، ولكن ليس بهذه الضخامة الهائلة والشكل المتكامل المجيد كهذه الثلاثة. ذُراها مطليةً بطبقة هي مزيج من الفضة والذهب، ولهذا تشعّ في نور الشمس».

تشبه ممفيس قرية نمل أو خلية نحل. إنها مدينة نشيطة الحركة، يُنجز فيها كلُّ ما لا مكان له في مدينة الرب آتون. ولربما كانت هي العاصمة السرية، قال أكيا وأضاف: «هنا تمسك الملكة الأم يتّه بالخيوط بيديها. بعضهم يقول إن إخناتون قد ترك لها إدارة الحكم الفعلية. اعتماداً على ما لاحظته أنا، لا يسعني تأكيد هذا الزعم، ولكن حتماً لها تأثير معين. هي حالياً في آخت آتون بمناسبة الاحتفالات. ستعرفين عليها هناك إذاً، يا سيدتي!».

ما رأته كيا في ممفيس أعجبها. هنا توجد حركة تجارة نشطة، ومنشآت عسكرية متنوعة. وهي في الوقت نفسه مركز إدارة الدولة الفعال للبلد كلها، ومقرّ خادم آتون الأول،

ومقرّ وزير مصر العليا (أپر إيل) الآسيوي الأصل. لم يمض عليه وقت طويل في هذا المنصب. الفرعون في سنة حكمه الرابعة، ونتيجة نقد واسع من طبقة الموظفين، أجرى فجأة تغييراً جذرياً لجميع الرؤوس المتنفذة واستبدل بها في المناصب المفتاحية كفاءات ممتازة، حتى من الفئات الشعبية ومن الأجانب. ولم يبقِ إلا على قلة من الوجهاء، من الذين خدموا في عهد أبيه، منهم أمين سرّه الأول وكبير موظفيه، والأمين العام لشؤون الدولة، وقائد الجيوش، وقائد فرقة العربات القتالية، وعوّابه وزوج أمّه (أيا).

في ممفيس نُقلت كل أغراض كيا وحاجياتها إلى أحد مراكب النيل الضخمة الفخمة. وعندما ركبته كيا، عاد إلى ذاكرتها حلم من الماضي. آنذاك صور لها إخناتون مشهد ركوبهما كعروسين أحد قوارب النيل المزينة والجماهير على الشاطئين تستقبلهما بحفاوة. لكنها الآن وحدها لا يبالي بها أحد. إلا أنها مسافرة إليه، وسيأتي اليوم الذي يتحقق فيه الحلم! استمتعت بالرحلة أثناء النهار، وبالليالي المريحة عندما يرسو المركب على الشاطئ. كانت ريح الشمال تهبّ خفيفة بلا توقف. وكانت كيا تنصت إلى مختلف الأصوات الجديدة التي يحملها النهر معه. رائحة الهواء كانت مختلفة. بعد أيام قليلة رسا المركب في آخت آتون (أفق آتون). أقيمت المدينة في منبسط صحراوي رملي على ضفة النيل الشرقية، محاطة بنصف دائرة من الجبال الصخرية.

لم تفت أكيا نظرات كيا المدققة في ما حولها، فقال: «يحكى أن إخناتون، بحثاً عن المكان الملائم للمدينة الجديدة، قد ركب عربته القتالية مدة طويلة بعكس مجرى النهر. وتقريباً في منتصف المسافة بين طيبة في الجنوب وممفيس في الشمال، اعتقد أنه قد قرأ في أحد التشكيلات الصخرية رمز آخت كتابةً، فاعتبر ذلك إشارة من ربه للاستقرار في هذا المكان الطاهر غير الملموس».

من دون ضجّة أقامت كيا وجماعتها جنوبي المدينة في بناء أبيض كالثلج يشبه القصر، ذي مفروشات ممتازة ونوافذ في الطابق العلوي قابلة للفتح والإغلاق، بحيث تسود الغرف درجة حرارة مريحة. أعجبها المكان من النظرة الأولى. في الخارج كان الجو قانظاً، ولكن بفضل هواء الصحراء الجاف كانت الحرارة محتملة، وخاصة في الحديقة الرائعة التي يوجد فيها بركة اصطناعية. لحسن حظهم وصلوا في وقت مبكر، ما أتاح لهم الفرصة للراحة، ومن ثم لإجراء جميع التحضيرات الضرورية ليوم الاحتفال الفعلي. لم تر كيا أي شيء من المدينة ومعابدها وقصورها. فهذا سيأتي وقته. لكنها أمضت

وقتاً طويلاً في الإصغاء إلى أخبار العائلة المالكة والبلاط وأعرافه على نحو تفصيلي. إذ تمكّن أكيا من استمالة (توتو)، للإجابة على تساؤلات الأميرة الكثيرة. وتوتو هذا هو وصيف النبيّ الأول، السوري الأصل، لسيد مصر العليا والسفلى، ومدير مراسمه، وكبير مهندسيه، والناطق الأول باسم البلاد كلها. ومن خلال هذا اللقاء تزوّدت الأميرة بكثير من المعلومات المفيدة ومرّنت لغتها المصرية بشكل جيد.



أقيم الاحتفال بعيد التجديد (عيد سيد) في اليوم السابع والعشرين من الشهر الثاني (شيمو) من فصل الصيف الحار. شاركت في الاحتفال جميع شعوب البلد، من كوش في الجنوب إلى مصب النيل في الشمال، كما في المناطق المصرية من سيناء وكنعان وسوريا. في عهد أمينوفيس والد إخناتون كان الهدف من احتفال العيد، بعد ثلاثين سنة في الحكم، تقديم البرهان على السلطة الجسدية والسحرية للحاكم وتجديدها برضا الأرباب كافة. أما في عهد إخناتون فهو عيد التهليل لآتون الذي يقيمه مع إخناتون كل ثلاث سنوات احتفالاً بتجديد الحكم، وذلك بموكبين نهري وبرّي ورقصات وتراتيل وغناء.. الآن، بمناسبة السنة الثانية عشرة في الحكم أضيفت إلى الاحتفال ألعاب قتالية. والمسؤول عن إعداد العيد هو مدير شؤون العرشين، الذي كُلف بمهام تحضير احتفالات سيد. ومنها توفير المواد الغذائية للأعداد الغفيرة من المحليين والضيوف، وكان لا بدّ من تأمينها وتوزيعها بأفضل صورة، فجلبت قطعان العاشية والخمور والجمعة من جميع أنحاء البلد، وحتى من سوريا.

بدأ يوم العيد الرئيس للناس المحتفلين، بموكب الملك والملكة وهما يغادران القصر الكبير، فاستقبله الجمهور بوجوه منكسة وأذرع مرفوعة مهلّلين له بالبيعة:

«آتون العظيم الحي،

سيد احتفال الجلوس،

سيد العالم بأمره،

سيد السماء،

سيد الأرض،

الجالس في بيت آتون في أخت آتون!».

ركب الزوج الملكي قارباً مزيناً، وركب معه بعض أهم الوجهاء، ووزيرا مصر العليا ومصر السفلى، ونائب الملك في كوش. سُحب القارب بالجمال على طول الضفة حتى الموضع الذي يرتدي فيه الملك زيه الاحتفالي الخاص ويعتلي عرشه في قصر عيد سيد. وضع على رأسه التاج الأبيض والأحمر رمزاً لجزأي البلد مع الصولجان المعقوف والمنشأة وجلس، فمثل أمامه موظفو البلاط وطاقم خدمته مع زوجاتهم، فكوفئوا لخدماتهم المخلصة بهدايا رمزية من يد الملك أو الملكة، هي قلائد عريضة من الذهب والأحجار الكريمة والخزف الفني الفاخر. ثم أُطعموا من خبز فطور الملك مع لحم ضأن وطيور وجعة. هؤلاء المكرمون هم الذين، بعد الاحتفال، جَدَّفُوا قارب الملك على طريق العودة، ثم حملوا الزوج الملكي على كرسيين فاخرين إلى محطة الاحتفال الثانية في دار عيد الجلوس عند السور الشمالي لمعبد آتون العظيم، حيث جلس الملك على عرشه تحت مظلة وإلى جانبه الملكة. ثم أحضرت الأميرات بنات الفرعون. كن يحملن بأيديهن أباريق وجرار ماء من الذهب والفضة. جلسن عند أقدام العرش ورددن:

«طاهرة أباريق مائك الذهبية وجرار مائك الفضية. بناتك يسقينك ماءً بارداً، أيها الملك الذي يحيا سليماً معافى!».

بعد أن شرب الملك وانتعش، جاء موعد استقبال الوفود الكثيرة من جميع البلدان، لتلقي أمنياتهم وهداياهم، وفي مقابل ذلك كانوا يتلقون نفحة حياة آتون. كان توتو يعلن عن كل وفد على حدة، فيقترب أعضاؤه من العرش بخشوع. مرت الساعات، وبدا أن الملك لم يعد يتبّه إلى من يُعلن عنهم. وظهر التعب على المحيطين بالعرش أيضاً، مثل الملك، وبدا أن لا نهاية لسيل الوفود. وحتى الألبسة الغريبة ذات الطابع المحلي اللافت لبعض حاملي الهدايا، أو الهدايا غير المألوفة نفسها - فهود ونمور مخيفة - ما عادت تسترعي الانتباه. الملكة الأم تبه وحدها بقيت متابعة الحدث بكل يقظة. أما نوفرتيتي فقد انسحبت مع ابنتيها الأصغر، في حين بقيت الكبرى مريت آتون عند أبيها.

فجأة دبّت حركة في جمهور الاحتفال وانتشر لغط. ارتفعت أصوات أبواق مؤثرة. وكان ثمة شعاعاً من آتون قد سقط على وجه كاهنه الأعلى المتربع على العرش، فأضاءه بنور ذهبي. حاول الملك أن يرى ما يجري أمامه، لكن بصره كان مخطوفاً. وتدرجياً تعرّف صورة رشيقة تتقدم باتجاهه وحدها ببطء وإصرار. الجمهور المحيط بالمرمر على الجانبين تراجع بخشوع مفسحاً المجال لتقدّم الصورة. ولم يكن من الممكن تعرّف من المتقدم: أبشر أم رب؟

ميّز الفرعون من علياء عرشه كائناً بلا وجه ملتفّاً بقماشة أرجوانية مضيئة، وكأنه يسبح في محيط غارق بالنور. ومن الناس تحت، لم يعد يرى الفرعونُ أو يسمع شيئاً. بمنتهى الرشاقة ارتفعت ذراعُ، وتعرّت من الحجاب يدٌ صغيرة، تتحرك مؤشّرةً، مؤشّرة للفرعون كي يتقدم إليها. كالمأخوذ، لم يستطع إختاتون رفع نظره عنها. نهض عن عرشه ليَلبي نداءها. نزل الدرجات وخطا كالمذهول وعينه مسمرتان على الصورة، كي لا تضيع منه. وكلما اقترب، صار العطر المحيط بالصورة أشدّ غوايةً وسحراً. في ذاكرته انفتح باب صغير. أين شمّ هذا العطر الغريب سابقاً؟ ليس في مصر. لكنه لم يتمكن من متابعة الفكرة، فمع كل خطوة إلى الأمام كان الحجاب الفوّاح بالعطر يكشف عن المزيد من الأسرار. رأى الملك قوام امرأة رشيق، وأحس بنهديها غير المستورين. لكنه لم يتعرف وجهها.

شجّعته حركة من اليد على إزالة العباءة. لكنه أراد أن يمنح نفسه وقتاً، فهو لم يلعب منذ زمن بعيد. دار ببطء حول العفريّة الأرجوانية، ترك يده تداعب ظهرها نزولاً، ثم أخذ بحذر ينزع القماشة عنها، إلى أن انزلت أرضاً.

أولئك الواقفون على المنصة إلى جانب العرش هم فقط من رأوا ما رآه الملك. ومجدداً عاد اللغظ، إذ تجلّت أمامهم ظاهرة ساحرة عجيبة. تحت شعر مستعار أسود ذي تأثير غريب رأوا وجهاً مبتسماً مغلفاً بطبقة ذهبية رقيقة جداً كقناع. العينان المكحلتان والشم الممتلئ شكّلوا مع القناع سيماءً مُحياً كاملة. وثوبها الأبيض الطويل حتى الأرض، ذو حمالتي الكتفين، المزينة أطرافه بخيوط ذهبية، كان يكشف نهديها اللذين لوّنت حلماتهما بحمرة مثيرة. والحلية الوحيدة التي كانت تزينه هي زهرة لوتس ناعمة منبتقة من بين نهديها. كانت المرأة تحمل بيدها اليسرى وعاءً صغيراً يتشرب منه العبق الأسر. وبينما كان الملك مستغرقاً في تأمل هذا الجمال الأخاذ صامتاً، بدأت هي بترتيل نشيد يعرفه جيداً، بصوت خافت أولاً لا تسمعه سوى أذني الفرعون، ثم بارتفاع تدريجي، إلى أن شاركها الجمع غير المرئي في الترتيل، فهدرت مئات الحناجر بنشيد تسييحٍ وحمدٍ آتون، النور:

«بهياً تسطع في أفق السماء،

أنت الشمس الحية منذ البدء الأول

عندما تبتزغ من الشرق،

تملاً البلدان كلها بجمالك.

أنت نور عظيم وضياء،
 في الأعالي فوق البلاد.
 شعاعك يحيط بالأرض،
 حتى نهايات ما خلقت.
 أنت رع عندما تبلغ حدّها الأقصى،
 عندما تجعلها تنقاد لابنك الحبيب.
 ولو كنت نائياً، فأشعتك تصل الأرض،
 أنت تضيء وجوههم،
 لكن مسارك لا يُدرك.
 وعندما تنزل في الغرب،
 تعتم الدنيا، كأنها في حالة موات.
 النيام في مخادعهم،
 رؤوسهم مغطاة، لا ترى عين* الأخرى.
 إذا نشل امرؤ كل ما يملك من تحت رؤوسهم،
 لن يلاحظوا شيئاً.
 من أوكارها تخرج الحيوانات المفترسة كلها،
 والأفاعي كلها تعض،
 الظلمة قبر.
 الأرض صامته ساكنة،
 فخالقها قد نزل في أفقه ليرتاح.
 لكنها تصبح منيرة عندما تبتغ من الأفق،
 فتتيرها نهاراً بصفتك شمساً،
 ترسل أشعتها لتطرد الظلمة.
 البكّان كلاهما معاً في عيد يومي.
 كل ما يقف على قدمين استيقظ، فأنت من أنهضهم.
 أجسامهم طاهرة وقد لبسوا الثياب،
 رفعوا أذرعهم يُصلّون لسطوعك.
 ثم يذهب كل منهم إلى عمله في البلد كلها.

كل الدواب راضية بأعشابها وحشائشها،
الأشجار والورود تنمو .
الطيور تغادر أعشاشها،
أجنحتها تمدح طاقة الحياة فيك .
جميع الحيوانات البرية تقفز على قوائمها،
وكل ما يطير ويرف ينضح حياةً،
منذ أن أشرقت من أجلها .
السفن تمخر الماء صعوداً ونزولاً،
الدروب كلها سالكة، بضبانك .
الأسماك تتقافز في المياه أمام نظرك،
وأشعتك تتغلغل إلى أعماق البحر ١.

تأثر إخناتون عميقاً، فرفع كفيه ببهجة غامرة نحو الشمس الآفلة في الغرب. ارتفعت
التهاليل وصدحت الأبواق. يا له من نصر مؤزرٍ له ولأتون. وهذا كله بفضل هذا الكائن -
العجيب الواقف أمامه وقد تلالأت الدموع في عينيه. مع تلاشي الصوت الأخير استدارت
المرأة / الظاهرة وانسحبت، وكأنها قد تلاشت في حمرة المغيب.

تابع الملك ما تبقى من المراسم بنفاد صبر. تقديم الحيوانات إلى الرب، زيارات معابد
أتون في المدينة، المأدبة الاحتفالية الكبرى. لم تتوقف عيناه عن البحث عن تلك الجميلة.
لابد من أن تكون بين الضيوف. وما إن سنحت الفرصة حتى استدعى إليه توتو، المشرف
على تنفيذ الاحتفال. كان توتو في دخليته منزعجاً مستاءً. لقد وافق على مشهد مثول سفيرة
قطنا، لكنه أخطأ في تقديره كلياً. لقد أخبره أكيا بأنهم ييغون تقديم عروس لفرعون، وهذا
ليس استثنائياً في مثل هذه المناسبات، ولكن في هذه المرة لم تراع القواعد، لا، بل خُرقت
كلها. كيف سيكون رد فعل الفرعون يا ترى؟ هياً توتو نفسه للأسوأ، لكن ما أراحه هو
أن الفرعون لم يتقدم ما جرى ولو بكلمة، ولم يكن لديه سوى سؤال واحد: أين الجميلة
الغامضة؟ وأن عليه أن يحضرها إليه فور انسحابه إلى جناحه دون تأخير.

كانت كيا في غاية الإرهاق عندما تركت أميناية تقودها إلى سريرها. حتى أنها لم تعد
تذكر كيف عادت إلى مقر إقامتها.

«كان المشهد رائعاً»، قالت لها أمينية، وأردفت: «أعتقد أن الربة قد حلت في جسدك، يا سيدتي كيا. لو لم أر بعيني هاتين ما جرى، لما صدقت ما قد يُحكى لي. لا بد من أن يكون الفرعون قُدَّ من حجر، إن لم يتأثر بك». وركعت إلى جانب كيا وأخذت تهوي لها بالمروحة، ثم أضافت: «يجب ألا تتأخر في تبديل ثيابك، إذ يجب أن تكوني جاهزة عندما يأتي الرسول في طلبك».

«أخ، أمينية، يا لك من واثقة! وأنا كلّي شكوك. هل لاحظت كم بدا أمونحوتب ذواياً ومريضاً؟ مثل عجوز، رغم أنه ما زال في زهرة شبابه! كدت لا أتعرفه، إلا عندما وقف قريباً مني.. نعم، ما زالت عيناه حالمتين وفمه شهوانياً، وذاك الأنف الأصيل الرشيق. ويداه الرقيقتان الناعمتان!».

فقاطعتها أمينية قائلة: «الخطوة الأولى، على أية حال، كانت مباركة، ولهذا يجب أن نكون مسرورين وشاكرين. ولا يجوز لك الآن أن تتراخي. تذكّري كم مضى على رؤيتك له آخر مرة، في حين أن صورته في قلبك لم تكبر بمرور الوقت. يجب أن تتعرفا واحكما الآخر من جديد. وسترين أنكما سرعان ما ستأتلفان، كما في قطنا حينذاك. والآن هيا، دعيني أحّمك!».

ثمة حفيف خافت أنبا إخناتون بوصول المتتظرة بشوق ولهفة.

بعد انتهاء الاحتفال انسحب الفرعون إلى قصره الخاص في الجهة الشرقية من القصر الكبير، حيث تقيم العائلة الملكية غالباً. لقد أثرت فيه هذه المرأة تأثيراً عميقاً. من كانت؟ لقد التقيا سابقاً، ولكن أين ومتى؟

اختارت كيا لزيارتها الليلية هذه، ثوباً بسيطاً أبيض طويلاً ذا ثنيات خفيفة، يثبت على الكتفين بيككتين، إضافة إلى حزام جميل كان إخناتون قد أهداها إياه في قطنا عند الوداع. وكان لا بد من أن تضع على رأسها الشعر المستعار الإلزامي في مصر. كما علقت في أذنيها قرطي إخناتون. كان محيط عينيها مكحلاً بالأسود، فبدتا في الإنارة الخافتة مضيتتين بغموض، وثمة عطر مغوي يفوح منها. بقيت واقفة في إطار الباب، تاركة لإخناتون الفرصة كي يملأ عينيه منها وليبحث في ذاكرته عن معرفته بها. وأخيراً قالت بصوت خافت، ولكن بلهجة ساخرة جليّة: «جميلتك أتت أخيراً يا أمونحوتب - إخناتون، وإن كنت لم ترسل في طلبها!».

بدا واضحا على إختاتون أن ثمة ما يعتمل في داخله. ما معنى الإشارة إلى اسم نوفرتي؟ نهض إختاتون من السرير الذي كان مضطجعا عليه وتوجه نحوها. أمسك بيدها وقادها عبر الغرفة إلى مصدر الضوء. تلمس وجهها بعينه، ثم رفع يديه، برهة تقريبا، ونزع بمهارة الشعر المستعار عن رأسها، فانسدت خصل شعرها الأسود الكثيف.

«كيا»، همس إختاتون وقد تعرفها فجأة، «صغيرتي كيا من قطنا البعيدة! كم صرت جميلة!». أخذت أنامله تلاعب خصلات شعرها الأجدد وهو غارق في أفكاره يجمع شتات الذكريات العائدة من زمن بعيد. بقيا برهة طويلة واقفين صامتين أحدهما تجاه الآخر، ثم تحرك إختاتون إلى ورائها ودفعها بنعومة بيده إلى مقعد منجد وجلسا. على طاولة صغيرة أمامهما كانت هناك صحون مملوءة بقطع مأكولات شهية، لكنهما كلاهما لم يلتفتا إليها. كان كل منهما ينظر عميقا في عيني الآخر بحثا بصمت عن روح الآخر، عله يعثر على أجوبة لأسئلة لم تطرح بعد. وأخيرا كسر إختاتون الصمت.

«لقد ذبت، أنفهمين ما أعنيه؟ لقد ذبت في الملكة إلى جانبي!».

نظر إلى كيا متفحصا، ليرى ما إذا كانت قادرة على متابعته، ما إذا أبدت تفهما لكلماته. بقي وجه كيا بلا تعبير، منتظرة مزيدا من الشرح. لكن انفعالها تصاعد داخليا. إذًا، هو يعرف تماما ما يعذبها.

«آنذاك عندما عدت إلى الوطن وجدت والدي يتنازعهما الارياح والغضب. لم يصل إليهما أي من السعاة الذين أرسلتهم، فباتا يجهلان سبب علم رجوعي. وبعد فقدهما أخي الأكبر فاض بهما القلق، إذ ليس عندهما ابن ثالث، يمكن أن يحتل مكاني وريثا للعرش في حال غيابي. عندما وصلت أخيرا إلى طيبة، كان بانتظاري عمل كثير جدا وعروس. عروس اختارها والداي لي. رغم أنها لا تشبهك كثيرا، شكلا، لكنني وجدت في شخصيتها صفات، كنت قد عرفتها وأحببتها فيك. وهي مثلك، تعيني في وضع خطط الإرشاد إلى آتون. وأنا أكرس كل جهدي لهذه المهمة، التي تملؤني، بل تأسرنى كليا». نظر إلى كيا لحظات وهو غارق في أفكاره، ثم تابع: «رأيتك فيها. ومرة أو مرتين ناديتها باسمك كيا. لكن أغرب ما في الأمر، هو أن اسمها هو اسم التليل الذي أطلقته عليك آنذاك: الجميلة أنت! أيمكنك تصور كيف أثر هذا في نفسي؟ في أي وقت من الأوقات كانت هي أنت، وأنت هي، إلى هذا الحد كنت قريبة مني. ولكن لا بد من أن أعترف لك بأن صورتك في وقت من الأوقات بدأت تبهت؛ لأن نوفرتي طورت شخصيتها الخاصة. إنها امرأة قوية وعنيدة، وهي في هذا تقارن بك، الأمر المهم جدا لمصر. إنها لا تتوانى عن بذل

كل جهدها من أجل خططنا المشتركة، وهي تتبني على دربي بلا شروط وبكل قناعة. ويوماً فيوماً أحسست بها كنصفي الآخر. نحن معاً، كنا مخلوقا نور وتجليته الأرضي. وكنا في الوقت نفسه عائلة سعيدة. هذا على الأقل ما اعتقده، فقد منحني آتون ست بنات سليمان. بعد ذلك بدأت نوفرتيتي بالسير في دروبها الخاصة. في البداية وجدت الأمر جيداً، فنحن كنا أيدي آتون الأربع المتكافئة. لكنها صارت بازدياد تصدر أوامر وتعليمات دون مراجعتي، بحيث بئ لا أدري أحياناً، مَنْ يحكم مصر، هي أم أنا».

تناول إخناتون كأساً، وفيما هو يرتشف الشراب ببطء، تأملته كيا، فتأكد لها انطباعها الأول. إخناتون كان شاحباً ومريضاً. الجسم الرياضي المشدود الذي في ذاكرتها بدا هراماً وجلده ذابلاً ومترهلاً بالدهون، ولا سيما حول بطنه، الذي بدت طياته جلية عند الجلوس، وبصورة متفردة تقريباً. أين بقي سحره الأسر؟ ما قاله بدا موضوعياً وحصيفاً. وكلما استرسل في الكلام ازدادت هدوءاً. تابعت الإصغاء إليه، إلى كلامه وتأملاته، وهي تفكر فيما إذا كانت قادرة حقاً على أن تعشق هذا الرجل، أو أن تحبه. لكن الأمر لم يعد بيدها لتقرر! كان لا بداً لا بد من أن تفتن هذا الرجل.

«هل تصغين إلي؟».

احمر وجه كيا، وأومات برأسها.

«كم تبدين أليفة يا صغيرتي الجميلة. وكان السنوات الكثيرة لم تباعد بيننا. فجأة تبدو لي إقامتي في قطنا وكأنها بالأمس. أتذكرين كيف استقبلنا شروق الشمس على سطح قصركم؟ ليتني أخذتكم معي مباشرة حينذاك، بدلاً من التمسك بالعادات والتقاليد!».

أحست كيا بدفء في قلبها. أترأه حقاً لم ينسها؟ دهمتها فجأة وسوسة غامضة بأن تغمض عينيها وتدع نفسها تهوي. لكنها سرعان ما استبعدت هذه الغواية. إنها لن تسهل الأمر له بهذه الصورة.

ابتسم إخناتون وقال: «أرى أنك تترينين بما أهديتك آنذاك!».

مدّ يده إلى ورائه وتناول صندوقاً صغيراً محفور الغطاء بفتحة عالية، وأعطاه إياه: «هذا سيناسب ما تلبسين!».

على قماشة صفراء فاخرة داخل الصندوق كان هناك حجر لازوردي يضاوي الشكل، وقد حفرت فيه عينٌ تتلألأ بخطوط ذهبية وفضية. حلية استثنائية بالنسبة إلى حجمها.

«أشبهكها!».

في خضمّ هذا الجو الحميميّ الدافئ، وفجأة، غير إختاتون مجرى الحديث، وهاجمها بأسئلة لم تتوقع أن يطرحها الآن، بل لاحقاً جداً. هل أحسّ بتحفظها؟ هل أحس يا ترى بأنها لم تأتِ بملء حريتها، هي كيا الأبية؟ فجأة انقلب مزاجه، وصار قاسياً وحاداً، كما في استجوابه لها آنذاك.

«لماذا جئت، يا أميرة قطنا؟».

نظر في عينيها نظرة حادة، فنهضت كيا واقفة. كم عدد الذين يبخسون هذا الملك قدره يا ترى؟

«أن يكون أخوك قد أرسلك هدية لتدخلني حريمي، هذا ما لا أصدق، يا أميرة قطنا. إلا في حال أنك قد تغيرت جذرياً. لا أظنك ملزمة تجاه هذا المتقلب المتلون الخرع! أو أن عليّ أن أصدق حقاً، بأن ضميره يعذبه تجاهي، أو أنه يتوقع خدمة استثنائية لقاء إرسالك. فما الأمر؟».

تصاعد الغضب في نفس كيا. كانت تعرف نقاط ضعف أخيها المتعددة حق المعرفة، ولكن لا يحق حتى لفرعون مصر أن يحطّ من شأنه بهذه الصورة وفي حضورها. اكفهر وجهها. ولكن قبل أن تقول كلمة، نهض إختاتون وأمسك بيديها وجذبها إليه: «هكذا أعرفك يا نمرتي المقاتلة».. قال بحنان، وقد انقلب مزاجه ثانية، وأردف: «آه كيا، كيف استطعتُ تحمّل كل هذه المدة من دونك؟».

رفع ذقنها بيده، فلم تستطع تجنّب نظرته. «وَأَنْتِ؟ كرهتيني، ألسْتُ محقاً؟ لكنك لم تسينيني. لم تقدرني على ذلك، لأنك أحسست بأننا نتمي واحدنا إلى الآخر». ثم تركها من بين يديه فجأة أيضاً وجلس على المقعد. تناول حبة فاكهة، وأخذ يديرها بين أصابعه شارداً، وعيناه مثبتتان على كيا. وهمس بصوت كادت ألا تفهمه: «ربما كنتِ أنتِ المختارة. ربما كان آتون يريد إخباري بذلك منذ مدة طويلة. بمنحني البنات، ثم يتركهن ليمتن. ماذا تريد أن تخبرني أيها القادر القدير؟ أهذه هي المؤهّلة لأن تنجب لي ابناً؟».

اخترقت نظراته كيا وتجاوزتها. وعندما انتبه إلى وجودها ثانية كان وجهه يوحى بالانكسار. «إني متعب بشكل لا يوصف كيا. سأعذّبني!».

لامست هذه الكلمات قلبها أكثر من كل أيّمان الحب، التي ببساطة ما كانت لتصدقها. كان الفرعون متعباً، لقد رأت ذلك. لم يكن ذلك التعب الناتج عن القيام بعمل ما، بل عن كثرة الأعباء والأمانى غير المتحققة والتزاعات المزعجة وأشياء أخرى كثيرة، تضغط عليه

وتجعل رغبته في النوم لا تقاوم، وتحديداً عند الخادم الأعلى للنور. نهضت كيا ثم كوّرت نفسها على الأرض إلى جانبه وألصقت خدها بخصره، ثم قالت: «لماذا لا ترتاح قليلاً بعد هذا النهار الطويل؟ سأسهر على نومك، إذا رغبت!».

انطوت الأيام والأسابيع التالية على شيء كالسحر. برعاية كيا، التي وضع إختانتون ثقته الكاملة فيها، تعافى بعد وقت قصير وتورّد خداه. أول ما كانت تمارسه معه يومياً هو تمارين التنفس، التي تعلّمها من شالا، وقد أثبتت جدواها فوراً. فاسترخى الفرعون تدريباً وصار ينام جيداً. كما كان للعقاير التي أحضرتها كيا معها، مفعولها أيضاً. وعملاً بنصيحة أمها، طلبت كيا في جميع إجراءاتها حضور أطباء مصريين مشهورين في الدنيا كلها بمعارفهم الطبية. ولم يطل الوقت حتى استعاد الفرعون بهجته بالحياة على نحو جلّي، فبات فائض الحيوية. ولدهشة حاشيته، وزوجته نوفرتيتي خاصة، أخذ مقاليد الحكم بيده ثانية، فتنقّس كثير من الموظفين الصعداء، وعزوا هذا التحول الإيجابي في شخص الفرعون إلى السيدة الجديدة إلى جانبه.

لكن الأهم، هكذا أكد إختانتون، هو أنه قد بات قادراً على الالتفات إلى ربه بكلية ومن أعماق قلبه. لقد اعترف لكيا بأنه كان نهياً للشكوك قبل مدة، بل لليأس، لاعتقاده بأن أتون قد أعرض عنه. «كيف أخطر له ذلك»، سألته كيا؟ فنظر إليها نظرة غريبة، ثم أمسك بيديها وهمس: «لماذا لا يمنحني ابناً؟ أم أنه كان أيضاً في انتظارك؟».

لم تجب كيا.

سرعان ما صار واضحاً أن نوفرتيتي باتت عدوّ كيا اللدود، الذي لن يتنازل عن موقعه بسهولة. لقد حسبت كيا حساب ذلك، لكن هذه الكراهية الصريحة المعلنة أصابتها بقسوة أكبر مما توقعت. على الرغم من أن إختانتون قد أعرض عن نوفرتيتي قبل وصول كيا إلى مصر بمدة طويلة، لكن نوفرتيتي حملت كيا المسؤولية كلها. وفي أحد الشجارات الغاضبة مع إختانتون لقيتها بـ: «الدمية الجديدة» أو «قطة ينبوع الشباب»، وقالت بأنه سرعان ما سيملّها حتماً، بعد أن يجرب مفاتها، كما فعل حينذاك في قطنا، غير أن نوفرتيتي أدركت أن كيا ليست إوزة غبية ولا محظية سرير، بل امرأة ذكية قوية الإرادة، وليس مستبعداً أن تنجب صيباً. وقد قالت ذلك لكيا في أحد الأيام مع ابتسامة صفراء شامته. للوهلة الأولى دُهِشت كيا من أسلوب تعبيرها الغريب، لكنها لم تفهم قصدها إلا بعد مدة.

لكنها عاشت في البداية أياماً سعيدة، فقد استبعد إخناتون نوفرثيتي والبنات من محيطه القريب. وعلى الرغم من توصية كيا، بضرورة محاولة التعايش، لم يغير إخناتون قراره، بل أكد عليه. وفي هذا الموضوع أخذت كيا بنصيحة أمها الذكية. لقد ألحّت عليها بعدم ذكر نوفرثيتي أو البنات بالسوء أبداً أمام إخناتون، بل يُفضل أن تبرز محاسنهن، فهذا الأسلوب فقط يمكنها أن تجذب إخناتون إلى صفتها. رضخت نوفرثيتي للوضع القائم، على أمل أن هذا العشق سيدبل بسرعة أكبر بهذا الأسلوب.

إن ما أدهش كيا، هو سرعة تمكّنها من ربط الملك بها، وسرورها ذاتياً بامتعادته ضحكته الشبايية وميله إلى المزاح. فذات يوم ركبا معاً عربته القتالية الذهبية، المضيفة مثل آتون، وقادها في الشارع الرئيسي لجزيرة آتون عبر أخت آتون. اتجه بادئ الأمر شمالاً حتى القصر على ضفة النهر. كانت رغبة إخناتون أن يريها بيوت آتون ومدينته التي خطّط لبنائها مع معلم البناء (مانخوئف) بكل تفاصيلها. لكن سرورهما بسرعة العربة، دفع إخناتون إلى حثّ جواديه أكثر فأكثر على السرعة، إلى حد أن هلّلت كيا من البهجة ورجته أن يطير بالسرعة نفسها وأكثر جنوباً. وصلا تقريباً إلى مؤشر الحدود الجنوبية، وهو واحد من أربعة عشر مؤشراً حجرياً، لها شكل شاهدة قبر، موزعة على سفوح الجبال المحيطة بالمدينة، لتحديد منطقتها. وهنا على مقربة من النيل كان يوجد مكان رائع.

«في هذا المكان، بعيداً بما يكفي عن ضجّة مركز المدينة وزحامه، سنبني لك قصرًا»، قال إخناتون برضا، وأضاف: «وسنسميه ترو آتون / دار بهجة آتون، فالحياة معك بهجة يا حبيبتي كيا!». وركض مثل شابّ عاشق عبر الأرض المنبسطة، وقال: «هنا سنشيد عدّة أبنية، داراً للسكن وداراً للخدمة. لن تكون دار السكن واسعة جداً، رغم حبّي الشديد للعبة الغميضة معك، إذ لا بدّ من أن أجذك أخيراً!». التفت إلى كيا، لكنها انفلتت راکضة ضاحكة، ولم تتركه يمسك بها إلا بعد مسافة لا بأس بها. وهو لا يزال يلهث. تابع التخطيط: «ولكن لا بدّ من وجود قاعة مدخل واسعة! ومنها يصل المرء إلى صالونات الاستقبال والحمامات والأدراج إلى الطابق العلوي. وهناك في الجانب الآخر، أجد الموضوع مثالياً لمعبدا الصغير الظليل».

رسم بخطواته حول المساحة أساس البناء، لتتمكن كيا من تصور حجمه بدقة، وهو يقول: «هنا تبدأ فسحة المذبح، هنا توضع التماثيل وعلى الطرف المقابل أيضاً، أتصورين معي تقريباً؟ وهنا يبدأ الدرج إلى مذبح القرايين متجهاً نحو الشرق تماماً،

فنحن بحاجة إلى بركات آتون». لم يكن بوسع كيا إلا أن تعانقه. حلّ نفسه من عناقها ممتلاً نشاطاً وبهجة بمخططاته، وأضاف: «ثم لا بدّ طبعاً من زراعة حديقة واسعة وبركة، وأنت تحتاجين إلى بثر».

«أحقّ لي أن أطلب شيئاً؟».

«ما تشائين يا ضياء شمسي!».

«أتمنى وجود لوحات جدارية رائعة مليئة بحيوانات ونباتات ومناظر طبيعية. أريد أن أكون محاطة دوماً بحديقة، في الداخل والخارج». ضحكت كيا بشيء من التردد ثم أضافت: «ثمة شيء آخر: بودي أن أتعلم قيادة عربة قتالية».

فيما كان القصر الجديد قيد البناء بإشراف أفضل معلّمي العمارة، تعرّفت كيا أنحاء المدينة. كانت الزيارة الأولى مكرّسة لآتون. أخذها إخناتون معه إلى مجمع المعابد الممتد طويلاً، المسمى بيت آتون في أخت آتون، مركز عالم الدين الجديد، المشيد على الحدود الشمالية لمركز المدينة مباشرة. لقد قام الفرعون بتخطيط المنطقة كلها وفق مسار الشمس بمحور شرقي - غربي. وأحاطها بسور ذي بوابة ضخمة للدخول إلى معبدين حجريين: اسم الأول: غمّيا آتون (آتون موجود)، واسم الثاني: هوت بنين (مسكن بنين). دخلا غمّيا آتون عبر قاعة معمّدة واسعة مسقوفة إلى بيت الغبطة، ثم عبرا ستّ باحات مفصولة فيما بينها بما يشبه بوابات ضخمة مزدانة بحفر نافر ومزينة بالرايات. كان في الباحات صفوف طويلة من المذابح يستخدمها الأعيان كطاولات للأضاحي. أما مذابح عامة الناس فموجودة خارج البناء. إذ يحظر على العامة دخول الحرم المقدس.

خرج إخناتون وكيا من معبد غمّيا آتون، ومرّا بمسلخ حيوانات الأضاحي والقرايين وشاهدة بنين، إلى المعبد الثاني، حيث كانت الأضاحي الملكية تُقدّم حتى الآن بيدي نوفرتيتي لمسكن بنين. وقفت كيا مندهشة في مدخل معمّد نصبت فيه تماثيل هائلة لفرعون. ووراءه مباشرة تأتي بوابة مواكب عالية ثانية تؤدي إلى باحة. لاحقاً تذكرت كيا المرة الأولى التي شهدت فيها تقديم قربان. خطا إخناتون برفقة الوجهاء المجتمعين في موكب إلى المذبح العالي في مركز الفسحة المضاءة جيداً. وبمرافقة موسيقا سماوية تصدح من قيثارات وجنوك وأعواد صعد الدرجات إلى قدس الأقداس وقدم أضحية لآتون. فتذكرت تجربتهما المشتركة على سطح القصر في قطننا بانتظار شروق الشمس.

حتى حينذاك شعرت بنفسها تنتقل إلى أجواء مغايرة. لا يمكن للإنسان أن يكون أقرب إلى ما هو ربّاني كما في تلك اللحظات.

«ما حكاية بنين!».

«هو اسم النصب المقدس في معبد ناي - تي، الذي سطع عليه الرب رع بصفته الرب الأول. وأنا رغبت بوجوده هنا أيضاً، في المركز الجديد».

«هو ربّ ذكرٌ إذا!».

لم تكن هذه المرة الأولى التي يتطرقان فيها إلى هذا الموضوع. إذ حكت كيا لإخنتون عن مدى تأثرها بعد سفره بفكرته عن ربّ واحد كليّ القدرة. ولكن بالنسبة إليها كانت هذه المكانة أولى بربة أنثى مانحة للحياة، فلقد احتلت الربة عندها معنى حاسماً، بحيث لم تعد قادرة على تصور أن تتخلى عنها.

«أتعرفين يا قلبي، في تصوّري، لا رع ولا آتون أرباب ذكور. نحن ننشد قائلين: «حيّ رع، حاكم الأفاق، الذي يهلل في أرض النور، باسم أبيه، الذي يتجلى في آتون. لكن آتون نور يظهر علينا في قرص الشمس، أي المكان الذي يقيم فيه آتون. النور الإلهي بصفته مانح الحياة، ليس ذكراً ولا أنثى، بل كلاهما، إنه أب وأم، رجل وامرأة. عندنا نحن البشر فقط، لا بدّ من وجود جنسين، يتحدان في الربوبية. لذلك ليس الملك ككاهن أعلى هو من يخدم آتون، بل وبصورة متكافئة، الملكة ككاهنة علياً أيضاً. وكذلك هو الأمر في البلد كله، أي كل البشر، حتى الرجل العادي والمرأة العادية. وهم يقومون بذلك بحرية وعلناً. لم يعد الإنسان يتقل من النور إلى أعماق الظلمة، كي يصل إلى قدس الأقداس المخبوء، بل النور الآن في كل مكان! كذلك لم نعد بحاجة إلى صنم يمثل الربوبية، لأن أشعة الشمس موجودة في كل مكان، أنفهمين؟».

نعم، لقد فهمت كيا، ولكن أن تحيا وفق هذا الفهم؟ هذا النور الربوبي، كان نائياً جداً، وغير ملموس مطلقاً، ثم إنه صامت. فإلى أين يذهب المرء عندما تثقله الهموم أو عندما يفيض صدره بالسعادة؟ ثم هناك القلق الدائم من عدم معرفة ما إذا كانت أعمال المرء صائبة، وما إذا كان آتون راضياً عن الأضاحي والقربانين.

ترك لها إخنتون وقتاً للتفكير. لكنه عرّفها في الوقت نفسه على أهم الشخصيات في إدارة حكومته، ممّن لم تلتق سابقاً لحديث مطول، إلا توتو النبي الأول، وپنتو الطبيب الملكي الخاص. فكان منهم (إيبّي) ناظر القصر في أخت آتون، (پرين نفر) ناظر الأعمال

اليودية للملك وكبير مشرفي أشغال معبد آتون، و(مريرة) كبير كهنة آتون بلقب كبير فاحصي القربان، ثم (پانهيسي) النبي الثاني وناظر قطعان أبقار آتون، وهو أكبر موظف في شؤون المعبد الاقتصادية. يضاف إليهم (نخت) المسؤول عن المدينة أخت آتون، و(مايا) القائد العسكري وحامل المنشة إلى يمين العرش، والذي ما زال يحمل لقب كاتب المجندين الجدد، ثم (رَنفير) ناظر الاصطبلات والعربات، و(باهو) قائد الشرطة. كانت كيا قد التقت في ممفيس بوزير مصر السفلى، وها هي ذي تستقبل الآن زميله (نختبا آتو) وزير مصر العليا، إضافة إلى (تحوتمس) رئيس الإدارة العسكرية في كوش، وناظر البلدان الأجنبية الجنوبية. أما مَنْ نقص، فكان أقرب أمناء الملك: آيا، والد نوفرتيتي. كانت كيا تقدره تقديراً عالياً وتكاد تخافه، غير أنها لم تُظهر ذلك قط.

«من نال أكبر قسط من إعجابك من خلصائي؟». سأل إخناتون كيا مساءً. فأجابت دون تردد: «تحوتمس». وعندما لاحظت دهشة إخناتون المتوقعة - كان تحوتمس داكن البشرة بصورة غير مألوفة وذا شفيتين غليظتين مقلوبتين، ويبدو منفرأً، لكنه يوحى بشخصية عسكرية بالغة التنظيم والانضباط - ضحكت بمكر وقالت: «أقصد النحات طبعاً!».

كانا البارحة قد زارا ورشة عمل النحات الشهير تحوتمس، لرغبة إخناتون بمناقشة عدد من الأعمال النحتية معه ومع زميله (يوتي) كبير نحاتي الورشة وناظر أشغالها والنحات (بَك). تقع أملاك تحوتمس في جنوبي المدينة قرب البناء الذي نزلت فيه كيا عند وصولها، والذي ما زال خدمها وقسم من حاشيتها يقيم فيه. على هذه الأرض الواسعة الجميلة أقيم بناء الورشة ومستودع الأحجار وفسحة الشغل، ثم مسكنه الفخم وثمانية وحدات سكنية صغيرة متشابهة الشكل لمساعديه والمتدربين. أعجبت كيا بالمكان أيما إعجاب، إذ ذكّرها الجو السائد هنا بورشة خزف دونيو في القصر الملكي. ولكن بدلاً من فحيح قرص الخزّاف، كان يُسمع هنا صوت النقر الدائب الناتج عن طرق الإزميل بالمطرقة لمعالجة سطوح الحجارة. رأيا تماثيل جاهزة، بعضها ضخماً جداً، ومنتصبه قبل معالجتها بطبقة التغليف الملونة، لكنها لم تكن متماثلة الحجم والشكل إطلاقاً. دفع الفضول كيا للاستفسار، فعرفت أنها مركبة من أنواع حجارة مختلفة. وقد بلغت مهارتهم الفنية حدّاً استخدام مواد كالتي تستخدم في تغليف الفخار لمعالجة سطوح التماثيل. على الرفوف صُفّت نماذج من الجبس، كما علقت على الجدران قطع حفّر نافر ونماذج أخرى من الجبس وأعداد لا تحصى من أدوات الشغل. وكانت مهمّة أحد العمال الوحيدة هي سن الأزاميل. ثم وقع نظر كيا على تماثل خزفي نصفي رائع، يشتغل النحات بنفسه على

صنع مثيله من الحجر: نوفرثيتي. حتى في وضعه الحالي كان التمثال يشي بمهارة النحات العالية الرائعة، فقد تمكن من التقاط كل السمات المميزة لزوجة الفرعون في اتساق متكامل. كان التمثال موضع إعجاب كيا.

«في الواقع، من الممكن أن أحبه ثانية»، أسرّت كيا لأميناية قبل فترة، «أتعرفين لماذا؟ لا أعرف أحداً يغمره السرور والفرح عندما يراني مثله.. ما عدك أنت طبعاً»، أضافت بسرعة عندما رأت وجه أميناية المحبّب، وعانقت صديققتها بحب. كان هذا بعد نزحتها الرائعة مع إخناتون إلى الجبال الشرقية. وكيا هي التي اقترحت تسلّق الجبل من دون الحاشية، على الرغم من طول المسافة التي وجب عليهما قطعها. لم ترغب في زيارة المقبرة الملكية، لتبدي احترامها للموتى المباركين فحسب، بل أرادت التسلق إلى أعلى نقطة ممكنة، لتطل على المدينة فتستوعبها في كامل أبعادها. ووقفاً معاً يمسك كل منهما بيدي الآخر، عندما أرسلت الشمس أشعتها من فوق الأفق فأنارت مدينة آتون بلمعان أبيض وذهبي: في الشمال بناء الإدارة الضخم وقصر الضفة والحي الشمالي، ثم القصر الشمالي الذي تتصل به الضاحية الشمالية، والذي ينتصب معبد آتون العظيم إلى الجنوب الغربي من سوره الخارجي، مع مخازنه الممتدة بشكل مواز للسور. وإلى الجنوب مباشرة، على الجانب الأيسر من شارع المواكب العريض، شاهداً دار الملك ودار المحفوظات ومشفى الحياة ومعبد آتون الصغير إضافة إلى أبنية إدارة الجيش والشرطة. أما على الجانب الأيمن من الشارع فتوجد تمة دار الملك المرتبطة مع الأصل بجسر مقنطر فوق الشارع باتجاه النيل، حيث ينتصب القصر الكبير المبني بالحجر الكنسي الأبيض على امتداد سبعمئة متر، والمزين بروائع نحتية من الرخام الأبيض والأسود، والغرانيت المختلف الألوان والمتلألئ في أشعة الشمس.

نعم، هذه الأسابيع الأولى السعيدة كانت لهما وحدهما. فكلما سنحت لإخناتون الفرصة في زحمة الواجبات، كان يمضي وقته مع كيا وحدها. وخلال ذلك ألتقت بصورة عابرة فقط، ببعض أفراد العائلة المالكة الكثيرة الشعب، والتي تعد إلى حدّ ما عائلتها أيضاً، إضافة إلى أعيان آخرين وبعض سيدات الحريم الملكي. فقد قرر الملك أن هذا كله يمكن أن ينتظر، مقصياً الدنيا من وجودهما الثنائي. ولم تعرف كيا ما إذا كان يرى بناته أو نوفرثيتي أو يزورهن، كما أنها لم تسأله عن ذلك.

لقد أمضيا أوقاتاً طويلة في حوارات عميقة، لا سيّما في قضايا الدين والسياسة. وكانت تلك فرصة سانحة لكيا لتوجه الحوار نحو الشؤون السورية. وقد وجد إخناتون

الأمر طبيعياً، أن تبدي كيا اهتماماً بوطنها، وشاركها هذا الاهتمام بحيوية لافتة. فطلب منها عدّة مرات أن تصف له مجريات الأحداث في قطنا وسوريا خلال الخمسة عشر حتى العشرين شهراً الأخيرة. سألها عن العلاقات بين أكيزي وعزير الأُموري وأيتاكما القادشي ونيقمدو الأوغاريتي، الذين تعرّفهم جميعهم شخصياً في أثناء زيارته آنذاك، حينما كانوا مثله أولياء عهد. لكن أسئلته تركزت على شويلوليوما. ما الانطباع الذي خلفه العاهل الحثي في نفسها؟ ما هي برأيها مخططاته المستقبلية الحقيقية، التي يبغى تنفيذها مع قادة جيشه؟ فالهجوم على أمورو وقادش قد أثبت أن غرض الحثيين هو احتلال مناطق تابعة لمصر. أولم يضمّوا إليهم أوغاريت، فضلاً عن ميتاني؟ ومع ذلك يُفترض أن نثق بوعد شويلوليوما، حسب تطمينات سفيره تانوا، بأنه سيحترم الحدود المشتركة بيننا. عند ذكر اسم تانوا، جفلت كيا فجأة. لا لتذكّرها الشجار مع إخناتون بسببه فحسب، بل لشعورها فجأة بقرب الصديق منها، لمجرد ذكر اسمه.

«لا يمكنكِ تصوّر مدى سعادتي بسماع أخبار الأحداث أخيراً من إنسان جدير بالثقة. لو تعلمين بما يصل إلى سمعي وبما يقدم إلي لقراءته». ولتأكيد كلامه أرسل في طلب جميع المراسلات الأخيرة التي وصلت من الشمال إلى أخت أتون أو أرسلت منها إلى هناك. وكانت كلها مرتبة بعناية في صناديق خشبية مخزنة في دار المحفوظات ومزوّدة بعناوين مكتوبة على قطع من المرمر. مصدر معظم هذه الرسائل هو الملك ريب عدّي الجبيلي، إضافة إلى أسماء كثيرة تعرفها كيا جيداً، وكان مثيراً لها أن تطلّع على ما يكتبه الملوك.

«يا له من مDAHن قدر!». صاحت كيا منزعجة وهي تشير إلى رسالة من الأشياء.

«ما أروع، يا كيا، أن نتداول في هذه الأمور! ثم قدرتك على قراءة الرسائل وفهمها، سواء كانت بالأكدية أم غيرها، أمر مدهش.. ماذا حشوت في رأسك الصغير الجميل هذا؟».

كم كانت كيا سعيدة كل مرة باستعدادها المسبق لمواجهة مثل هذه المواقف. كانت تدرك أن عليها وزن كل كلمة تنطقها بميزان الذهب، كي لا ترتكب أي خطأ. لكن جهدها أتى أكله. تأثيرها المهديّ للأوضاع تبدّى بسرعة، إذ اقترحت على إخناتون أن يطالب شويلوليوما بدليل ملموس على جدّيته، فيما يتعلق بمسألة الحدود في سوريا. فإذا كان إخناتون سيقبل بحجة شويلوليوما أنه لم يهاجم المناطق المصرية إلا بسبب استفزاز عزيرا وأيتاكما، فعلى شويلوليوما تعبيراً عن حسن النية أن يعيد أراضي أمورو وقادش إلى

السيادة المصرية ثانية. وبذلك ينحلّ النزاع برأي كيا. وعدها إختاتون بمناقشة الأمر مع أيا وتوتو وبقية المسؤولين عن هذا الموضوع. وفعلاً، بعد فترة قصيرة انطلق مراسل مصري من أخت آتون باتجاه حتّوشا، حاملاً معه رسالة الفرعون «إلى أخيه العزيز شوبيلوليوما».

وفي الآن نفسه كرّس إختاتون وكيا قسماً من وقتها للمداعبات الغزلية، التي غالباً ما تجاوزت هذا الحد. في بعض الأيام كان إختاتون يدفن نفسه في حوض كيا كالغريق، وقد أفرغ قواه كلياً. كما ذاقتم دموعه أكثر من مرة، عندما كان يستلقي إلى جانبها منهكاً، محيطاً بإياها بذراعيه، وكأنه لا يريد أن يتركها إطلاقاً. وقد دعمت أمينية وسابو كيا في جعل الملك يزداد افتتاناً بها كلما رآها مساءً. كان يُفترض به أن يكون دائماً في حالة تشوّق لمعرفة ما ينتظره. غالباً ما كانت كيا تنجح من النظرة الأولى في معرفة مزاجه، فتتصرف بما يتلاءم معه. فإذا كان راغباً في تغيير مثير، أو استرخاء، أو حتى مواساة، أو ألعاب سلية، كانت كيا تحاول تلبية رغبته. ودُهشت لاكتشافها قدراتها الكامنة في نفسها للتأقلم مع أهواء رجل. لكنها لم تكن راضية. صحيح أنها باتت أكثر تقبلاً لاستقبال الملك في لقاءات حميمة كلما ازدادت معرفة به وفهماً له، لكنها كانت في بادئ الأمر تقهر نفسها حرفياً لتحمل ما هي فيه، شاكراً لأمينية بعض نصائحها المساعدة. فقد كانت تنظر إلى جميع ما يتصل بالحب ويتجاوز مداعبات غزلية معينة، باعتباره واجباً ملزماً. أما شعورها بالحب العميق تجاهه فلم يفتح مجدداً، رغم كل ما بذله إختاتون لإسعادها. بل العكس هو ما حصل، فكلما أبدى لها حبه وأكدّه، تراجع إحساسها به، في حين أنه لم يلحظ شيئاً من ذلك، ومنحها ثقته الكاملة. لماذا لم تكن قادرة على لقياء بحرية؟ أيعود ذلك إلى أنها لم تصارحه بالحقيقة، بمن أرسلها ولأي غرض؟ أهي سخريّة القدر؟ كم كانت طوال تلك السنوات تتوق إليه، وها هي ذي الآن عنده، بين ذراعيه، ويُفترض بها أن تهلّل فرحاً لتحقيقها أكثر أحلامها جراً. لكنها لم تحسّ بذلك. فكلما راجعت قلبها، كان الشعور، الذي تحسه في أفكارها تجاه إختاتون، هو العطف المطلق عليه في الدرجة الأولى، ثم الميل إليه في الدرجة الثانية، ولكن ليس الحب قط. ومهما ابتهلت إلى الربة وتوسّلت، بقي وضعها على حاله.. أهذا هو عقابها؟ أم أنها نافذة الصبر، شديدة اللهفة؟ فالحب لا بدّ من أن ينمو تدريجياً، ولم يمضِ على وجودها عنده سوى وقت قصير.

ذات يوم، عندما رغبت في أن تشكو همتها لأمينية، قاطعتها هذه فوراً وأومات لها بأن تصمت، ثم استغرقت في تسريح شعرها بحب. وبعد فترة خاطبتها بلهجتها المحلية قائلة:

«سيدتي، يجب أن نكون في منتهى الحذر. يؤلمني جداً أن أخبرك بأني بتّ متأكدة خلال هذه المدة، بأنك مراقبة دائماً، وأن كل ما يجري هنا يُنقل إلى زوجة الملك العظيمة. لا، لا تلفظي أي اسم. وأريد أن أرجوك ألا تثقي بأحد هنا. يجب أن نعلم على أنفسنا فقط. إياك أن تغفل من لسانك كلمة قد تكشفك. يجب على الجميع أن يعتقدوا بأنك غارقة في حب الملك، وأنت رفيقته التي يجب أن يركن إليها، لا أكثر... وذات يوم قد تحببته حقاً، من يدري؟». ثم أضافت بعد صمت قصير: «كيا، الأمر يتعلق بحياتك!».

هما إذاً سابو وممي، الزوجان اللذان يديران شؤون الخدمة، وإلا فمن قصدت أميناية؟ كان متاحاً لسابو الدخول إلى جميع الغرف. هذه المرأة الأربعينية الخفيفة الروح كانت كيا تستلطفها، ولم توجه إليها أي لوم. من يدري بالضغوط الممارسة عليها؟ من كان ضدها أيضاً؟ نوفرتي طبعاً وهذه بإمكانها استعداد الكثيرين ضدها! منهم والدها أيا، الرجل الثاني في الدولة، وتبه الملكة الأم. وما أكثر إمكانيات إلحاق الأذى بها. فمذمومة قصيرة رأت بنفسها، كيف سقط ذائق الطعام ميتاً أمامها. كما حكّت لها سابو عن حالات تسمم أخرى، وعن تعرض كثيرين - ليس مصادفة - لعضّات الكوبرا. وإدراك كيا الجديد بأن عليها وحدها إنجاز المهمة، إضافة إلى أخطار مهددة كثيرة أخرى، ملأ نفسها بالخوف. ازداد لجوءها إلى ربّتها بحثاً عن السلوان، ولكن هل بإمكانها سماع شكواها وهي في مصر البعيدة؟ لا شك في أن إختاتون سيفعل كل شيء لحمايتها، ولكن إلى أي مدى تصل ذراعه؟

لماذا لم تحبه؟ أم أنها لم تدرك الحب؟ كانت تحب أن تكون معه، وأحاديثه كانت مثيرة، وما أراها إياه كان فيه الكثير من الجدة. لربما كانت تصوراتها عن الحب مغلوطة تماماً، ولربما كان ما تتصوره عن الحب غير موجود إطلاقاً. هناك كثير من الأميرات اللواتي يحسدنها. لربما يلزمها بذل مجهود أكبر.. ربما، ربما، ربما. طردت كيا من رأسها كل هذه الأفكار المؤرقة. المهم هو فقط، أن يكون الفرعون سعيداً.

أسبوعاً فأسبوعاً أخذت كيا تراقب ما يجري حولها وسلوك إختاتون تجاهها. لم يمر لقاء بينهما دون أن يقدم لها هدية ما. لكنه لم يعد ينظر إليها بعينين جاثمتين كالسابق. وأخيراً عزت ذلك إلى الوجود المهيمن لعائلته، وإلى المنحوتات والصور الكثيرة الموجودة في مسكن الملك وفي القصور الأخرى والأماكن العامة الكثيرة، مجسدة في مشاهد مختلفة حياة العائلة السعيدة، ما أدى على نحو هادئ إلى شيء من تعكير الأجواء بينهما. الغرض

من هذه المنحوتات والصور هو أن تري الرعية، التي لا يمكنها أن تتكلم مع آتون، أنها محاطة بحبه، كحال العائلة المالكة. هنا تجلس البنات عاريات عند أقدام الأبوين، وفي صورة أخرى تجلس نوفرتيتي في حضن الملك، أو هو يقبلها.

هذا كله كان حتى الآن صحيحاً.

لكن الفرعون لم يعد يظهر مع نوفرتيتي والبنات إلا عندما تستدعي الضرورة وجود قرينة الملك، كما في عيد السنة الجديدة الذي يحتفل به مع بدء فيضان النيل. وهو لم يشكل عائلة جديدة بعدُ مع كيا، ليس بعداً ومن يوم إلى يوم كان يزداد توق كيا إلى الانتهاء من بناء قصرها ماروآتون. هناك ستكون أكثر منعة، في وجه الهجمات المتوقعة، من القصور الأخرى. والأهم هو أنه سيكون لها هناك مع إختانتون ملكوتها الصغير الخاص بها، حيث ستطلق مشاعرها تجاهه بحرية أكبر، وستمكن من ثم من ربطه إليها بصورة دائمة. ولكن ما زالت هناك عدّة شهور، حتى تنتقل للإقامة في ماروآتون. ماذا عن ابن؟! ابن للملك ولآتون.. هذا هو الحل. غير أنها لم تشعر ببواد حمل، من أي نوع كان.

وهنا تدخل القدر مجدداً. بعد فترة قصيرة من عيد السنة، الذي يقام بعد ثلاثة أو أربعة شهور من مثيله في قطنا، أصيبت نفرنفر وآتون - تشريت، ابنة الزوج الملكي الرابعة ذات الست سنوات بحمي شديدة، ولم تنفعها كل الصلوات والرقي والعقاقير. كان شفاؤها متعذراً، وماتت بين ذراعي أبيها الذي هرع إليها.

إذا كان الحزن والألم العميق لفقدان البنات الأخريات قد وحّد الأبوين، فإن موت هذه الطفلة قد تسبب في ردود فعل متباينة. نوفرتيتي فقدت السيطرة على نفسها، فغيرت إختانتون بسلوكه ورمت كيا أخيراً بتهمة ممارسة السحر، وبأنها أنزلت بالطفلة حمى قاتلة. كان لفقدان الطفلة تأثير كارثي في إختانتون. فلم يعد ملكوت الموت موجوداً كما في عهد أبيه. لقد محته أشعة آتون. الحياة قائمة هنا زالآن، ومن يقترف الأثام يلقى عقوبته هنا والآن. والقاضي في الدنيا هو الفرعون باسم آتون. رحمته فحسب هي ما يمنح الفرد حياة أخرى بعد الموت. هو من يمنّ على الفرد بتجاوز الموت، وحياة من يتسامى إلى الآخرة تصير مكرسة فحسب لمراى آتون، ولا شيء سوى ذلك. ولكن لماذا أراد آتون أخذ البنات البريثات إليه، في هذه السن المبكرة، بدلاً من أن يسبغ رضاه عليهن في هذه الحياة الدنيا؟ ما الذي يريد الرب أن يقوله له بذلك، وللمرة الرابعة؟ لم يفهم إختانتون. لا يمكن أن يتعلق الأمر به، هو الابن البار والخدام المطيع؟ أترى نوفرتيتي هي المذنبة؟

ألهذا أرسل آتون إليه، کیا تحديداً، في عيد تجديد البيعة؟ لقد أعادت إليه شبابه حقاً خلال أسابيع قليلة، وملأته بطاقات جديدة. لكنه استغرب ألا تحمل منه بعد.

حتى في ما عدا ذلك كان لکیا تأثير منعش ممتع. لو يتم التوصل بمساعدتها إلى خاتمة جيدة للنزاعات الممضّة مع الحثّيين من دون أن يُستلّ سيف من غمده. يُرجّح أن إختاتون في تلك اللحظة قد اتخذ قراره بجعل کیا زوجته رسمياً، وبأسرع وقت، بعد انتهاء مدة الحداد الملزمة. لم يبع رفعها إلى مرتبة أعلى من نوفرتيتي، تجنّباً لاضطرابات جديدة في البلاد، لكنها ستصبح (زوجة الملك المحبوبة).

أما الآن فإن ندب الميته، الذي يمزق نياط القلوب، قد ملأ البلاد. تحت أشعة آتون، التي لا تفرق بين سعيد وتيس، حُمل الجثمان الصغير من غرفة الموت، بعد أن نقل من النعش إلى تابوت حجري صغير، ووضع على عربة جرها جاموس إلى مدفن العائلة الملكية في الجبال. عند مدخل القبر حُطمت تماثيل موتي صغيرة تحمل اسم المتسامية المباركة، ثم وضعت الطفلة الميته في مستقرها الأخير إلى جوانب أخواتها وزودت بكل ما هو ضروري: حلي وثياب وأوانٍ وأدوات تجميل وأطعمة ودمى للعب.

«يا للأسف، كتما ستشکلان زوجاً نموذجياً»، قال هنوتي لتانوا وأضاف: «حكّمك على کیا كان صائباً تماماً. الملك راض عنك كل الرضا ثانية، وأملّك ستتوسع مجدداً قبل قليل مثل سفيرنا في مصر أمام شويلوليوما. يبدو أن الفرعون يمدّ يده إلينا بعد أشهر الصمت الطويلة. سيعدّر شويلوليوما على اقتحامه أمور، لأن بعض رعايا مصر قد استفزوه حقاً، حسبما أخبره أخوه العزيز على لسان سفيره حينذاك. والآن لن يحتاج أخوه العزيز في الشمال البعيد إلا إلى إعادة الأراضي المحتلة إلى الأيدي المصرية، وبذلك تصبح القضية كلها نسياً منسياً. هذا الحل كان يمكن أن يأتي منك!». وضرب هنوتي بيده على فخذه وضحك ضحكة صافية.

«أيحتمل أن تكون هذه الفكرة فكرتك أنت؟». سأله هنوتي بعد أن هدأ من الضحك، «أم أنك تتوقع هذه الشطارة من کیا؟». ولم ينتظر جواباً، بل تابع قائلاً: «بهذا يمكننا لهذه السنة على الأقل استبعاد هجوم جديد على شمالي سوريا. الملك وميتانموا لا يريان في الرسالة فخاً، وإلا للوحتت تحركات عسكرية على الحدود منذ مدة. لكن الهدوء يسود

كل مكان، سوى أن كهنة أتون يعملون بدأب في كل مكان. نانينزي وصل من قطنا قبل قليل وهو يؤكد الأمر، وكذلك رجال استطلاعنا الآخرين».

كان تانوا يغلي داخلياً، لكنه تمكن من ضبط نفسه أخيراً. فيمن يضع ثقته، إن لم يكن في خاله؟ فقال: «يبدو لي أنني مستبعد من الجنوب. ألم يلفت الأمر نظرك أيضاً. من الواضح أن نانينزي قد ظفر بوظيفتي». حاول قول ذلك بلهجة مازحة، لكن هنوتي سمع جيداً، أن تانوا ليس راضياً عن هذا التطور في وضعه، فأجاب: «بصراحة، أنا أيضاً استغربت ذلك. عادة يتم التداول في مثل هذه الأمور في مجلس الشيوخ ويتخذ قرار بشأن تغيير مسؤوليات سفير ما. اعذرني لعدم إخبارك بالأمر، لكنني سألت الملك حول وضعك، فأجابني مندهشاً بأنك أنت أيضاً تستحق استراحة قصيرة. ولم يكن بوسعي سوى أن أثنى على ذلك».

هز تانوا كتفيه، إذ إنه لم يعتبر هذا التبرير وجيهاً. فحاول هنوتي أن يخفف عنه بتغيير دقة الحديث: «ما رأيك أن تهتم قليلاً بآنا خلال هذه الاستراحة؟». وكانت (آنا) إحدى قريباته من طرف أمه، وهي صبية جميلة، نشيطة وخفيفة الروح، يلتقيها في دار جدته شوميري كلما زارها مع خاله، فتبدي اهتماماً خاصاً به. وتانوا كان يستلطفها، ويتمادي أحياناً في مغازلتها، فتمد له لسانها متبرمة، دون أن تتراجع عن إسباغ عنايتها عليه. لكنها ما كانت لتلعب دوراً في حياة تانوا، فهناك تلك الأخرى التي لم يسبق أن نأت عنه كالآن. وكانت كل كلمة بشأنها تؤلمه، فأجاب بحدة أكثر من اللازم: «لست أبحث عن زوجة، إذا كان هذا قصدك».

دون أن يأبه هنوتي بملاحظة تانوا، عاد إلى موضوع الحديث الأول قائلاً: «لا يبدو الأمر لأحد من قبيل المصادفة، أن ينشط إختاتون. فجأة، بل الجميع يعزو هذا الحدث المشير إلى كيا. علماً بأنه لم يمضِ على وجود الأميرة في القصر سوى أسابيع قليلة. إنه حقاً لإنجاز».

تجلد تانوا وقال: «كيا، أميرة قطنا تمتاز بقدرات كثيرة لافتة. وأنا سعيد لكونها على ما يبدو قد ثبتت قدمها في مصر بهذه السرعة. سأتكلم مع السفير بنفسي لأحصل على التفاصيل».

«من المرجح أن يوفدك الملك العظيم إلى مصر هذه المرة لتساعد في إبرام الاتفاقية». تعلق تانوا بهذا الأمل. وتلبية لانفعال داخلي مفاجئ عانق هنوتي ابن أخته، ثم نظر إليه ملياً وقال: «أمل أن يتحقق لك ذلك من كل قلبي. لا تظن أنني لا أعرف كم تتألم يا عزيزي!».

لكن أمل كليهما خاب، إذ كلف شويلولوما نائينزي بالمهمة، دون استشارة أحد. فكان تانوا كمن تلقى خبطة على رأسه. ولم يستطع التفكير إلا بأمر واحد، وهو أنه لن يرى كيا. كما أنه لن يتمكن من إرسال أي خبر لها، لأنه لم يعد يثق بنائينزي. لا بد أنه قد ارتكب خطأ ما، يوماً ما، في مكان ما. ولكن ما هو؟ هل افترى عليه نائينزي كذباً، نتيجة حسده له، لأنه الأصغر المفضل؟ أم أن الملك لم يصفح عنه بعد، لانسحابه جزئياً من مرافقة الأميرة مالنغيال في حينها؟ أم كشف أمر اتصاله السري بالملكة السابقة هنتي؟ لماذا لم يُستجوب إذاً، ويُعطى الفرصة للدفاع عن نفسه؟

لقد جانب تانوا الصواب في تخميناته كافة. فقد أخبره الملك بنفسه بأنه، بناء على رغبة ميتانموا، سيعينه نائباً لمدير شؤون الدولة، حالما يجتمع مجلس الشيوخ. لم يستوعب تانوا بادئ الأمر ما عرضه عليه الملك. فأن يُسَلَّم مثل هذا المنصب المهم في الدولة، وهو لا يزال شاباً، لهو دليل ثقة ومكافأة وتقدير على نحو يفوق التصور. فرجع عند قدمي الملك الشمس. وفجأة لمعت في ذهنه فكرة أنه قد يكون بمقدوره - وهو الآن في مركز سلطة الدولة - أن يفك العقدة التي تلف بكيا من حيث المرتبة الاجتماعية، وليس هذا فحسب، بل أن يحل لغز أصله.

لم يمض وقت طويل على استلامه منصبه الجديد، عندما وصل إلى حتوشا خبر رفع كيا إلى مرتبة زوجة ملكية.

في الليلة التي عرض إختاتون على كيا أن تصبح زوجته، بكت، ولم تعرف، أمن سعادتها أم لشقائقها!.. منذ وجودها في مصر بقيت الربة صامتة. على الرغم من كثرة أحلامها المقلقة، فإنها لم تتذكر منها شيئاً عند الاستيقاظ. ولكن في الليلة التي عرفت فيها أنها ستصبح زوجة الفرعون، فكّرت بمشهد تكرر في أحلامها في قطننا: أمونحوتب يغازلها ويسقط فجأة على الأرض ميتاً. ما المقدر له ولها؟

لقد تعززت مكانة كيا بقرار الملك، الذي أعلنه رسمياً بسرعة، بأن أخبر به الملكة الأم تية، والزوجة الملكية العظيمة نوفرثيتي، وجميع أعضاء حكومته والمستشارين المهمين. فبات على المرء أن يحسب حسابها الآن، بما يتجاوز تأثيرها القوي في إختاتون. ولهذا لم يعد مستغرباً أن يلتبس أيا زيارتها. ولدهشة كيا، التي كانت تخشى جانبه، كونه والد

نوفرتيتي، تفاهما مباشرة. وأيا الذي تجاوز الأربعين من عمره، كان رشيق القوام، طويل القامة، له وجه بيضوي بحاجبين كثين موازيين لرموش عينيه. وما يؤكد مظهره الوقور هي جبهته العريضة ذات التجاعيد التي تدل على تفكير عميق، وعظمتا خديه المتباعدين بحيث تُبرزان أنفه. أما فمه فكان كخط مستقيم مزين بشاربين مهذبين. وقد أدركت كيا بسرعة أنها أمام شخصية واقعية عملية. كان أيا مخلصاً كل الإخلاص لملكه وصهره، لا شك في ذلك، ولكن من دون حماسة زائدة. كان يسمي الأشياء بأسمائها مباشرة ويحاول في نطاق الإمكانيات المتاحة تحصيل الأفضل، للملك والبلد. وعلى هذا الأساس لا شك، صنّف علاقة إختاتون بكيا، فهي حالياً الزوجة المناسبة إلى جانب الملك، ولا سيّما إذا كانت ستنجب وريثاً للعرش. وقد أكد لها أن إدارة الدولة مستقرة بين يديه، ما دام الملك لا يُقدّم على اتخاذ قرارات فردية. قال ذلك مع شبح ابتسامة. وهذا الموقف لاعم كيا جداً، لأن مطلبها يتمشى مع هدف أيا: لا بدّ لمصر من أن تنمو وتزدهر في طمأنينة، بعيداً عن مؤثرات الحروب في الشمال والجنوب. وفي أثناء الحديث سرّبت كيا فكرة أن فكرة النمو والازدهار يجب أن تشمل البلاد المجاورة أيضاً. ومن نظرة أيا إليها تولّد لديها الانطباع بأنه قد فهمها. ومع ذلك قررت أن تكون على حذر، تجاهه أيضاً. صحيح أنهما يرتبطان بصلات القريبى، فهو ابن خال أمها، ولكن ما معنى ذلك في مصر؟!

تلقت كيا دعوة من الملكة الأم تيّّة فلبّتها. وكانت تتوقع أن يجري اللقاء في جورسمي متشدّد، إلا أنها فوجئت على نحو لطيف بنقيض توقعها تماماً، إذ رأت أن هذه السيدة القصيرة القامة، الرقيقة القوام والنشيطة الحركة، تصرف جميع الخاديات بعد الاستقبال الرسمي، ثم تقود كيا إلى مكان ظليل وواسع على الشرفة الأرضية لتجلسا بصورة مريحة، وأمامهما طاولة صغيرة مُدّت عليها صحاف مأكولات وفواكه.

«مدّي يدك! ستحتاجين إلى كثير من الطاقة». قالت لكيا، ونظرت إليها مبتسمة وهي تأكل. أما هي فإنها لم تتناول أثناء ذلك سوى بعض اللقيمات مع رشقات من العصير.

«كيف حال أمك؟ أسمع أنها تعيش حياة فاضلة في الشمال، ما يشرف مصر».

كانت تيّّة أول شخص يسألها عن أحوال أمها. وأحست بقلبها ينكمش من شدة الحنين. فأجابتها بصوت خافت: «أنا سعيدة لكونها لم تُنس هنا. إنها تحب وطنها جداً، وأنا مدينة لها بالكثير. إنها امرأة عاقلة».

«يبدو لي أنك عاقلة مثلها، ومن الواضح أنك تحذين حذوها».

نظرت إليها کیا مندهشة.

ابتسمت تية ثانية وقالت: «قد تظنين أنني عجوز لا يُعتد بعقلي. لكنني على اطلاع جيد على كل شيء». صممت برهة ثم قالت: «يسعدني أن نتعارف أخيراً بعد كل هذه السنين». لم تحتج کیا إلى وقت طويل لتدرك مغزى هذه الكلمات. إذًا، هي على اطلاع على قصة حب ابنتها في قطنا. فهل هي مطلعة يا ترى على ما يجري الآن؟

لم يتغير تعبير وجه تية. أطلقت بنظرها بتأمل من الشرفة إلى النيل، الذي يتماوج سطحه الشاسع متلألئاً في أشعة الشمس بلون بني مشوب بالأخضر. ثم قالت: «ابني لا يتمتع بدعم رعاياه كلهم. كثير من أفراد الشعب يرفضون الدين الجديد، الذي يضطهد كل ما هو قديم. وروح الشعب تبحث عن متنفس لحالها. إنهم يعبدون الآن في الخفاء رباً شاباً جديداً، يسمونه (شُد) المنقذ. ويسخرون من العائلة المالكة. قبل فترة عُثر على ألواح حجرية صغيرة رسمت عليها مشاهد من حياة العائلة، ولكن عوضاً عن الأميرات كان هناك فردات يتعانقن، وأزواج من القروء يمسك أحدها بيد الآخر، وقردي سوق العربية القتالية الملكية!».

هزّت کیا رأسها.

«أنا لست واثقة إطلاقاً، ما إذا كان ابني يعي ذلك كله، أو يريد أن يعي به. لقد تحصّن في مدينة ربه. أتعرفين أنه أقسم على ألا يغادر المدينة ثانية، كي يبقى قرب أتون؟ ألا تنتشر أشعة الشمس في كل مكان؟». هزت الملكة تية برأسها وأردفت: «عدم ظهور الملك في أنحاء البلد يترك انطباعاً سيئاً عند الشعب. والشعب لا يعجبه أن يقدم الملك بسرعة على تغيير عادات وتقاليد عمرها مئات السنين. الشعب كسول والكهنة ماكرون. ثمة تشابك وتضافر كبير بين المصالح الاقتصادية والتصورات الدينية السائدة. كبار الكهنة كانوا في الوقت نفسه حتى الآن ممولين وحكّام مقاطعات، يتبعهم عشرات الآلاف من صغار الكهنة وخدم المعابد والتجار والمرايين والحرس. ثم هناك الأخطار الخارجية! قبل فترة قصيرة أُخمد تمرد كبير في الجنوب. وأنت تعرفين جيداً أن الأوضاع تغلي في كنعان وسوريا. وهذا كله يصبّ على نحو غير مباشر في مصلحة الملك الحتي. يقال إنه رجل جذاب وأن زوجته فتية جداً وبارعة الجمال».

هزت کیا كتفيها قليلاً، فسويلوليوما في اللقاءين معه في قطنا، لم يترك لديها مثل

هذا الانطباع، على نقيض تهديداته البالغة التأثير. حسبته بادئ الأمر يتنقذ مخططاً سياسياً، حفاظاً على الحدود، حسبما شرح لها تالزو العلاقات القائمة حينذاك. لكنها لم تعد واثقة، إن لم يكن هناك طموحات توسعية كامنة وراء العملية كلها. أم تراهم في بلد الألف ربّ يخشون آتون؟ لم تنتبه كيا إلا الآن أن نية تفحصها بتمعن.

«ربما كان من لفت نظرك أكثر من الملك هو سفيره، الذي زارنا أيضاً عدّة مرات. يقال إنه صديق أخيك».

«طبعاً، هذا أعرفه من أيام الطفولة»، أكدت كيا بما استطاعت من عفوية، فالمملكة مطلعة حقاً بصورة شاملة. إلاّ تريد أن تصل؟

بدا وكأن الملكة قد قرأت أفكارها، فقالت: «قد تسألين نفسك يا بنتي العزيزة، ماذا أريد أن أقول. أريد أن أهيئك لزم من صعب بانتظارك، باعتبارك ملكة. في المقام الأول سينتظر الجميع منك صيباً. ستلاحقك العيون المدققة كل يوم، لترى ما إذا كنت تشعرين بالإقياء عند تناولك الطعام. وبعد كل فترة خصب سيفحصك الطبيب الشخصي، بحثاً عن دلائل الحمل الأكيدة، ليرى ما إذا آن الأوان. وحتى إختاتون ينتظر هذا الصبي كإشارة من آتون. أنت كنت كاهنة يا كيا، فلا حاجة بي لأن أخبرك، كم يطول الوقت بالإنسان أحياناً انتظاراً لجواب من الرب، وأنه خلال الانتظار قد يشارف اليأس. أنت تعرفين أن صحة ابني ليست جيدة. أخبروني عن الجهود التي بذلتها من أجل شفائه، وبطرق مهمة أثارت اهتمام أطباء معبداً. حالياً يبدو كل شيء على ما يرام. إنه مبتهج بك، وهذا يطغى على السوداوية في مزاجه. لكن موت الطفلة أوضح تماماً هشاشة وضعه. أنا آمل وأصلي لتمنحيه ما يحتاج إليه. وهذا ما لم تكن نوفرتيني قادرة عليه في الآونة الأخيرة. ولهذا يريزح العبء كله الآن على كاهلك أنت. مهمة صعبة، وأنت هنا وحدك. أنا سأغادر آخت آتون بعد احتفالات العرس. لكنك صبية، سليمة، ذكية وقوية الإرادة. لذلك يُفترض بك أن تنجحي. وقد تحدث معجزة فتأسرين قلوب الشعب.. ولكن خطوة فخطوة، أنت محقّة، وأضافت بسرعة: «ففي المقام الأول يأتي الفرعون».

وصل نانينزي مع زميله المصري إلى آخت آتون، والاستعدادات لاحتفالات العرس تجري على قدم وساق، ما جعل إختاتون في مزاج أريحي. والاتفاق مع الحثيين، الذي

يمائل معاهدة سلام، كان أجمل برهان على صحة قراره. وقد خُطِّط لعقد القران في أثناء فترة الفيضان، حين تتوقف كل الأعمال الزراعية، مع احتفال يعم البلاد كلها. في داخل البلد وخارجها وزعت جُعران العرس الحجرية التي نُقش عليها اسما إختاتون وكيا.

ويبدو أن نوفرتيتي قد أقلمت نفسها مع الوضع الجديد. فتوقفت عن الطعن في الفرعون، وتموضعت في موقعها بخضوع على ما يبدو، كي لا تفقد أيضاً مكانتها العالية بعد الملكة الأم. فهل كان هذا وفقاً لنصيحة من أبيها يا ترى؟ وباتت تتجنب البلاط هي وابتهاها. أما وراء الستائر فقد بُدئ بحياكة شبكة للإيقاع بالغريمة. فنوفرتيتي كانت موقنة بأنها ستفلسح عندما يقترب اليوم المناسب. لقد كانت تعرف زوجها حق المعرفة.

حتى كيا نفسها لم تصدق أن تصبح زوجة إختاتون، وبعد خمسة شهور فقط. فالأمر في نهاية المطاف لا يتعلق بزيجة مبرمجة منذ سنوات طويلة، بل يتعلق بهما وحدهما، كلٌّ حسب شخصيته. وكانت تنظر إلى إختاتون بشيء من الحسد، لكونه واثقاً تماماً من عواطفه. إذ قال لها مساءً، مساءً يوم الاحتفال الرئيسي، إنه لم يكن بحاجة إلى كل هذه المراسم ليبتهج، فهو أسعد إنسان منذ أول ساعة لوجودها بقربه.

وقد أثرت هذه المراسم عميقاً في نفس كيا. فهي في حياتها حتى الآن لم ترتبط سوى مرة واحدة، عندما صارت كاهنة الربة بيليت إكالميم. وها هي قد ربطت نفسها الآن وحياتها برجل. لقد صارت زوجة الفرعون الملكية، والحيبة الأولى، وملكة مصر العليا ومصر السفلى وكوش التي تحمل تاجها، وسيدة بلاد وشعوب كثيرة من عمق الجنوب إلى أقصى الشمال. لقد تحققت نبوءة مولدها.

ظهرت على متن القارب الملكي المزيّن بأبهة وفخامة، يبدأ بيد، فهلّل الشعب لملكته الجديدة الجميلة، تماماً مثلما حلمت قبل سنوات كثيرة. وقد أوحى لها فيض المشاعر السعيدة في تلك اللحظات ببعض الكلمات، التي دونتها على البردي، وقدمتها بخجل لإختاتون، عندما باتا أخيراً وحدهما، هامسة: «إنها مجرد محاولة صغيرة»:

«إني أتشوق أنفاسك المنعشة،

المنبعثة من فمك.

وجمالك يترأى يومياً في عيني.

أرغب في سماع صوتك اللطيف مع ريح الشمال،

فتدبّ الحيوية في جسدي، حباً لك.

مدّ لي يديك اللتين تمسكان طاقة حياتك،
لأتلقها وأحيا بها.
نادني دوماً باسمي،
لا تدعه يموت في فمك.
سيدي إخناتون،
أنت في إلى أبد الأبدين،
ما دمت حياً كالشمس!.

«أتعرفين أنها المرة الأولى التي تذكرين فيها الحب تجاهي؟». سألتها إخناتون متأثراً
وضمها إليه مضيئاً: «كدت أخشى..»، فلم تدعه كيا يتم كلامه.



بالنسبة إلى إخناتون كان اليوم التالي موعداً تحقق الفرح الأكبر. قبل شروق الشمس
وصل مع ملكته الجديدة إلى معبد أتون الكبير، وهما في ثياب المراسم الاحتفالية، وعلى
رأسيهما الشعر المستعار النوبي الذي يترك الرقبة مكشوفة، وقد ارتديا من الحلبي أقرطاً
ذهبية كقرص الشمس، وحول صدر كل منهما وكفيه قلادة عريضة نفيسة متألثة. كان
الملك يرتدي تنورة قصيرة فحسب، والملكة ثوباً بسيطاً ناصع البياض. صعدا الدرجات
معاً إلى المذبح العاليي بمرافقة موسيقا بديعة. ومع بلوغهما الدرجة الأخيرة انبعثت أشعة
الشمس من الأفق الشرقي فأسبغت نورها على الزوج الملكي الجاهز لتقديم القربان، وقد
رفع كل منهما ذراعيه تمجيداً للرب، والأيدي ممسكة بزهور اللوتس ورمز الحياة.

استعرضت كيا القرات العسكرية بسرور وهي تحمل الشارات الملكية، وتضع على
رأسها التاج المزين عند الجبهة بأفعى الكوبرا. رغم أن البلد آنئذ كانت تنعم بالسلام، ولكن
الحدود وطرق القوافل تحتاج إلى حماية دائمة، ولذلك لا بد من إيلاء الجيش اهتماماً
كبيراً. إلى جانب وحدات المشاة المسلحة بسيوف منجلية الشكل وخناجر وأقواس
وسهام، مرت أمام ضيوف الاحتفال وحدات العربات القتالية. لكن هذا كله لم يبه الجانِب
الرسمي من الاحتفال، فقبل مأدبة العشاء الاحتفالية كان لا بد من استقبال الوفود القادمة
من جميع أنحاء البلد، وتلقّي تهاني السفراء الأجانب وهدايا ملوكهم. ألم تكن كيا بالأمس
فحسب جزءاً من وفد سفارة مثل هذه الوفود؟ انتهت كيا إلى توترها الداخلي عندما نودي

على ممثلي إخوة الفرعون الأعمى: من بابل وميتاني وحتوشا. ولكن من ظهر أمامهما لم يكن تانوا، حسبما توقعت، بل نانيزي. ولم يكن يجوز لها الآن أن تخاطبه، فقررت استدعاه بأسرع ما يمكن لاحقاً، وكذلك أكيا، الذي أسعدها أن تراه بين حاملي الهدايا: فلا شك في أنه يحمل أخباراً من الوطن.

كانت المأدبة احتفالاً عامراً باذخاً، بصورة لم تر كيا مثيلاً له سابقاً. كان كل شيء موجوداً بوفرة. أنواع اللحوم المختلفة، التي لم تعرف كيا بعضها إلا في مصر، كالديج الطري الشهي القادم من الهند النائية. جلس إخناتون وكيا إلى طاولات عامرة، ومقابلهما تماماً جلست الملكة الأم تية وبعض كبار أفراد العائلة. إضافة إلى أعداد لا تحصى من الضيوف، الذين سرتهم وسلتهم عروض فرق البلاط الراقصة المشكلة من صبايا رشيقات فانتات، وعازفات الجناك، والألعاب البهلوانية والتنافسية. أثناء الاستراحات بين الفقرات الغنية يظهر الرواة ليحكوا قصصهم المثيرة بأسلوب مشوق يجذب اهتمام جميع الحضور. والذي اختار منهم حكاية الأمير المسحور، ظهر معه تمساح ناطق ليجسد مصير الأمير. كانت جموع الحاضرين مشدودة وممتلئة حماسة، عبرت عن نفسها بتصفيق حار طويل. استمرت مباحج الاحتفال حتى ساعات الصباح. وكان الختام بنشيد تمجيد آتون الذي أرسل إليهم أشعته مجدداً من الأفق الشرقي.

قدم إخناتون لكيا هدايا سخية، فحصلت على عدة قطاعات من الأراضي، يعود ريعها إليها وإلى حاشيتها فقط، إضافة إلى دور وبساتين وطاقم الخدمة الضروري. وكبرهان على قوة لا تصدق أنجز القصر المكرس لها جنوبي المدينة، في موعد أبكر بكثير مما توقعت كيا، فصار فوراً مكان إقامتها المفضل.

وإلى هذا القصر استدعت محبوبة الملك المفضلة السفير الحثي الذي لم يحمل معه من ملكة إليها سوى أطيب الأمانى.. لا رسالة شفوية ولا مكتوبة، فشكرته كيا وصرفته، ولكن بخيبة أمل عميقة. كانت متشوقة إلى خبر من تالزو. وحتى من أكيا لم تحصل على أخبار جديدة، كما لم يملك جواباً لسؤالها، لماذا لم ترسل حتوشا سفيرها المعتاد إلى مصر. لكنه أخبرها الكثير عن قطنا، منه أن أكيزي وإهلي نيكالو قد رزقا بطفل جديد، وأن الملكة الأم مصابة بداء النقرس. وأن وباء قد أصاب القطعان وقتل كثيراً من المواشي، لكن المحاصيل الزراعية تبشر بالخير.

بينما احتفل الناس في قطنا بعيد الحصاد، وفي الوقت نفسه بعيد الأسلاف، وتوقفت الأعمال في الحقول، قام الناس في مصر، كحالهم سنوياً بعد انحسار الفيضان، بمسح الحقول وبذر الحبوب. وكانت كيا قد تأقلمت مع واجباتها الجديدة. كانت تستمتع بمضي الساعات في قصرها، رغم رغبتها في رؤية المزيد من مصر، لكن كل اقتراحاتها بهذا الشأن لاقت رفضاً قاطعاً من طرف إختاتون. وإذا كان قد أصرّ بادئ الأمر على وجودها إلى جانبه في المدينة، بات يفضل الآن بقاءها في مارو آتون، حيث كان يزورها يومياً تقريباً.

أمضيا معاً أياماً سعيدة، في تبادل الأحاديث وفي اللعب أيضاً، فقد علمها إختاتون لعبة (الكلاب وبنات آوى). تماثل رقعة اللعب الخشبية شكل نعل، نُقبت فيه حفرة عميقة. وقد رُسمت في وسطه طولانياً شجرة نخيل تنفرع أغصانها أعلى الرقعة. وفي مركز الأغصان تقع الحفرة الهدف الموسومة بإشارة الأبدية. لكل من اللاعبين خمسة أحجار كعصي قصيرة، تتمايز برؤوس كلاب أو بنات آوى، وتوضع في الحفر حسب رميات النرد. والرابع هو من يوصل أحجاره الخمسة بحسن استخدام طريق الحفر والحظ الجيد لبلوغ الهدف. وكان إختاتون يكسب كل مرة دون استثناء، بتمريرات حاذقة لأحجاره من بنات آوى عبر حفر الرقعة إلى الهدف، إلى حدّ أن ظنت كيا، أن المرات القليلة التي فازت فيها، كانت نتيجة تساهله معها. غير أنه نفى ذلك بشدة، عازياً فوزه إلى محاباة الحظ له.

كما أمضيا أيضاً أياماً غريبة، بل سيئة. لم تتبه كيا بادئ الأمر، إلى أن لفتت نظرها أميناية إلى أن عيني الملك تكونان أحياناً غير طبيعيتين. وذات مساء عندما ترتج وهو ينهض، شكّت كيا في الأمر. قاده إلى غرفة النوم، حيث غرق فوراً في نوم مضطرب، تخلّته هلوسات متداخلة وغير مفهومة، مع تحولات من الضحك إلى البكاء، فحاولت إيقاظه. لكنها لم تفلح، فقد التصق بها، بين ذراعيها، وبدأت حاله تهدأ تدريجياً. في اليوم التالي استدعت كيا بنتو، الطبيب الخاص، وسألته بحذر، دون ذكر الملك، بماذا يربط الأعراض التي وصفتها له؟

«أعتقد أن هذه الأعراض ناتجة عن تعاطي مستمر لسموم مخدّرة»، قال بنتو. وقد تطابق هذا مع افتراضها الخاص.

ضاعفت كيا جهودها. اقترحت العودة للعيش معه في القصر الكبير، أو حيثما يوجد. غير أن الملك أكّد لها سعادته، بترك مشاغل المدينة وراء ظهره، والتوجّه إلى جنتها المسالمة. فعملت على جعل الأماكن في قصرها، التي يفضلان الجلوس فيها، أكثر جاذبية

وراحة، مع روائح تدعو للاسترخاء. وزيّنت الحمامات بطرق مختلفة، رابطة وجودهما هناك بحكايات إيروسية خفيفة. أو كانت تقوده إلى الحديقة ذات الأجنحة والزوايا المنعزلة، والتي كانت تغيّر من زيناتها باستمرار حسب أجواء مناطق مصر المختلفة، فيجلسون تارة وكأنهما في كوش، وتارة أخرى في خيمة صحراوية. كما كانت ترتدي من الأزياء ما يناسب هذا الجو أو ذاك. وغالباً ما كانت تنجح في إدخال السرور إلى قلب الفرعون، فيسترخي وينسى همومه.. لكنها لم تحمّل.

احتفل الناس في قطننا بعيد السنة الجديدة، ولم تقطع دورة كيا الشهرية. بات الفرعون خلال زيارته لها أكثر تبرّماً. صار يطلب جعة ومشروبات مخدرة أخرى، وحتى عصير الخشخاش، الذي جلبته معها من قطننا ليساعدها على النوم. ورفض أن يخبرها بالأشياء الأخرى التي كان يتعاطاها. إلا أن تأثيرها كان وبيلاً. صحيح أنه كان صاحباً ومدركاً، ولا تُلاحظ عليه أية تبدّلات في التعامل اليومي معه، لكن كل محاولات كيا لإثارته لم تعد ناجعة. لا الأغاني المثيرة جنسياً ولا وجود صبايا فانتات. مزجت كيا مع نيذه توابل ونباتات فواحة ومهيجة جنسياً، دونما فائدة. وإذا كانت بادئ الأمر قد اعتبرت نفسها المسؤولة عن عدم الحمل، إلا أنها توصلت تدريجياً إلى الاقتناع بأن إختانتون لم يعد قادراً على الإخصاب، أو أن قدرته هذه متضرّرة بشدة. لكنها لم تجرؤ على مصارحته بذلك، فقد أدركت مدى عدابه، وتعرّفت على جوانب جديدة من شخصيته. بات انفعالياً وسريع الهيجان والغضب. وحتى في عمله اليومي لاحظ عمّاله ومستشاروه ومرؤوسه تقلّبات مزاجه الفجائية وبدؤوا يخشونه. وكان في بعض الأيام يتأرجح بين اللامبالاة الكلية واليأس. لماذا خذله أتون؟

بينما أهمل إختانتون بكل بساطة أخبار تدمّر الشعب، التي نُقلت إليه من جميع أنحاء مصر، فإنه لم يستطع أن يتعامل بالطريقة نفسها مع مشاكل المناطق التابعة للسيادة المصرية في كنعان وسوريا. بعد موافقة الحثّيين على احترام الحدود القديمة، عيّن إختانتون كلاً من (أمِلو) الصوري الموالي له والأمير (أبي ميلكي) مفوضين باسم مصر لإدارة المنطقة كلها ومنحهما الصلاحيات اللازمة لذلك، وطلب منهما تعميم التجديدات في كنعان وسوريا. فتمرّد أمراء مدن آخرون ضد القرار. فما مبرّر أن يتحكّم بهم واحد مثلهم؟ (وزيمريدا) الصيدوني وعزيرا الأموري المتحالفين سابقاً مع أبي ميلكي نقضا الحلف واحتلّ مناطق حول صور. ثم قام عزيرا باحتلال جميع المدن الساحلية من حوله، عدا جيبيل وسومورا.

كتب أبي ميلي لإخناتون عدّة رسائل، أخبره فيها عن خطورة الوضع وحذره من المتمردين: «انتبه، لقد نفذ ماء الشرب والأخشاب من الحصن البحري. سأرسل إليك الساعي (إيلو ميلكو). لقد انسحبت القوات الحيّة من المنطقة، لكن أيتاكا القادشي قد ضمّ قواته إلى قوات عزيرا في الحرب ضد (بيريا وازا) ملك ديمسقا. وخلال ذلك قام زيمريدا مدعوماً بقوات برية وبحرية من عزيرا بمحاصرتي في صور. الوضع خطير جداً». في الوقت نفسه ناشد ريب عدّي الجبيلي الفرعون عدّة مرات لينجده ضد قوات عزيرا. وكذلك أمير مدينة غزر (غزة)، فتمرد قبائل (هابيرو) هناك يهدّد غزر ومقيّدو. وبدا أن السلام الثمين يضيع بسرعة، مثلما كُسب بسرعة. فحاول أيا وتوتو وأپرل جهدهم لدفع الفرعون إلى التدخل عملياً، لكنه رفض قائلاً:

«المهم هو أن نعيش بسلام مع القوى العظمى. ما الذي يسوّغ تدخلنا في النزاعات المحلية الصغيرة بين أمراء مدن متبرمين بأوضاعهم؟ لأي غرض أعين حاكماً وأجهزه بأفضل ما يمكن، إن لم يكن قادراً على تحقيق الأمن؟ بدلاً من المطالبة المستمرة بإرسال قوات إلى معارك تهرق فيها الدماء بلا جدوى، كنت أنتظر منكم إجراءات لنشر السلام في المنطقة. ألم أصدر تعليماتي منذ مدة لنشر دين آتون في المناطق الشمالية التابعة لنا؟ والآن، كيف كان تقبل عزيرا الأموري وزيمريدا السوري وغيرهم هناك للأمر؟ هذا الدين هو الرباط الذي سيوحدهم! هذا ما عليهم وما علينا إدراكه! إليّ إذاً بأخبار أخرى، وغير ذلك لا أريد أن أسمع شيئاً».

وفي المساء نفسه، عند كيا، شتم مستشاريه العاجزين.. وهكذا علمت كيا بالاضطرابات المستجدة. وكان واضحاً لها فوراً أن شويلوليوما سيعاود التدخل عسكرياً، في حال انتقال الشرارة إلى الشمال. ولا شك في أن عزيرا الأموري لن يقصّر في ذلك، إذ يبدو أنه لم يتعظ بعد من الدرس السابق. ماذا سيعني هذا لقتنا ولسوريا ولها؟ أحست فجأة بأنها مهددة من جميع الجوانب. حاولت بحذر أن تبيّن لإخناتون العواقب المحتملة وأن تشرح له مخاوفها، فكانت النتيجة انفجاره في حالة غضب جديدة، متهماً إياها بالتواطؤ مع الآخرين. ولأول مرة غادر إخناتون قصرها في المساء نفسه. وفي الليلة نفسها وصل الخبر إلى نوفرتيتي.

وصل إلى كيا خبر وفاة الملكة بلتوم، في الوقت نفسه الذي بلغت آخت أتون أبناء صراع الملكة تية مع الموت. لم تذرف كيا دموعاً واحدة على بلتوم، لكن تصوّر أن الملكة الأم ستموت أثر فيها بعمق. صحيح أن لقاءاتهما كانت نادرة، لكنها أحبّتها بصدق ووثقت بها. إنها الآن بعيدة في طيبة، في القصر الذي شيّده لها زوجها أمينوفيس الثالث على ضفة النيل الغربية، محاطة بأحبائها، عدا إختاتون. ضربة القدر الجديدة هذه أوصلته إلى مشارف الجنون، فصار يلجأ إلى كيا، التي بذلت كل ما بوسعها لتسرّي عنه وتواسيه. إلا أن كثرة الأخبار السيئة، إضافة إلى يأسه الذاتي، أدّيا إلى انهيار صحته، فأصابته الحمى. خشي الأطباء والشفاة الأسوأ. أحاطته كيا بعنايتها بحذب وحب، فكانت تغسله وتدهنه بالمرهم، وتعالجه بكمادات مسكنة وأعشاب شافية. ولم يُسمح له أن يشرب سوى ماء طازج. كانت تبدّل بياضات السرير ثلاث مرات يومياً وتطهّر غرفة المريض بالبخور، كما راعت وجود الفرعون باستمرار في هواء نقي، تضيف إليه روائح زهور ذات عبق مهدّي. وخلال ذلك كانت كيا الشخص الوحيد المؤمن بأن الحمى ستكون للفرعون بمثابة تطهير وشفاء مما كان فيه، وكانت محقّة. فبعد ليلة مروّعة، وعند الفجر غرق الفرعون في نوم عميق. ولما استيقظ شعر بنفسه صافياً. وبعينين رائقتين التفت إلى كيا المستلقية إلى جانبه وقد صحت أيضاً لتوها، وكلها اهتمام. تمتت صلاة شكر قصيرة لربتها، أم المخلوقات جميعها، قبل أن تبكي على صدره بكاء ارتياح.

تقدّمت نقاهة الفرعون بخطوات حثيثة، وتولّد لدى كيا انطباع بأنه قد استمدّ قوة من الحمى، فبدا هادئاً متزناً وحصيفاً أثناء مشاوراته مع وزرائه ومستشاريه. وسادت بينه وبين كيا لهجة ودودة جداً. وصار محور حياتهما خدمة الكهنوت اليومية لآتون، التي صارت تدريبياً تشغل حيناً أكبر فأكبر مما يتبقّى لهما معاً. استمر هذا الحال مدة من الزمن، إلى أن بدأت كيا تشعر بالإنزاع الضاغط الذي يتغلغل إلى أدقّ المشاعر الشخصية. ومع تنامي تعاليم إختاتون باستمرار، أدركت كيا سبب رفض كثير من الناس الدين الجديد. ربما كانت التماثيل ولوحات النحت النافر، التي تجسدها مع الفرعون، والتي كُلف بها الفنان تحوتمس وزملاؤه، ربما كانت انعكاساً لحبّه لها، ولكن كلما أمّعت كيا التفكير في الأمر، ترسخ لديها الانطباع بأن الفرعون يقدم للناس بهذه الأعمال قدوة حسنة، يجب على الجميع أن يحذوا حذوها، هكذا عليهم أن يحيوا تحت أشعة شمس أتون، وليس بشكل آخر. هذه هي عقيدة الخلاص عنده إذاً. لكنها ليست اختيارية، بل إلزامية، قسرية على الجميع. كاد هذا الإدراك أن يخنقها، تماماً كإدراكها أن أيامها باتت معدودة، إن لم

تلد صيباً. ولم تستطع التفكير في العواقب. مؤكّد أنها لن تُنقل ببساطة إلى حريم القصر الشمالي.

«ياربتي، أتعاقييني؟ ألم أعد جديرة بحمل ولد، لأنني أئمت في فتوتي؟ ساحبه وأبجله وأحميه كعيني. ياربتي، امنحيني هذا الطفل، بركة منك لأهل مصر، للبشر أجمعين!».

تباحثت كيا في الأمر مرات مع أميناية. وأخيراً أرسلت سراً إحدى وصيفاتها الموثوقات برفقة ساع إلى قطنا، بمهمة جمع معلومات ومواد تزيد قدرتها على الخصب، وعلى وسائل أخرى من أجل الفرعون. رغم معرفتها بخطورة الأمر، انتهزت الفرصة لتطلع أكيزي باختصار على الوضع وترجوه أن يطلع بدوره تالزو عليه. ثم كان لا بدّ من الصبر. جرجرت الأسابيع ثقلها في جو من القلق. كانت كيا تلمح لإخانتون بتلميحات عابرة لتشير فضوله، لكن قدرتها على فتنه وأسره أخذت تزداد صعوبة.

أخيراً عاد الساعي وحده مع التعليمات الضرورية. فاندفعت كيا بلهفة كبيرة لتهمّي كل ما يلزم. ولم تأبه بتحذيرات أميناية من صعوبة كسب الملك لخوض هذه الطقوس. بقلوب واجفة ساعدت أميناية وخادمتان من قطنا سيدتهن، فهيان مستحضراً من سحالي مجقفة ومطحونة يضاف إلى شراب مهيج مثل عصير الرمان، إضافة إلى مراهم من نباتات ذات خواص طيبة لتدهن بها منطقة العانة حول القضيب، وزيت زيتون مخلوط بذرور معدنية لهما معاً. كانت كيا تشتغل كالمجنونة لتهمّي كلّ شيء بأفضل ما يكون. زينت التعريشة المختارة في الحديقة بكمّ كبير من الزهور والورود الفواحة، واختارت بكلّ عناية المأكولات والمشروبات ذات المفعول المهيّج. وعندما بات كل شيء جاهزاً، دعت الفرعون إليها.

استقبلته عند مدخل الحديقة وقادته إلى التعريشة، التي تتخلّل أغصانها نساءً المساء اللطيفة. كانت ترتدي ثوباً خفيفاً برقبة عالية وقد غرزت زهوراً مختلفة في شعرها الأسود، مع لمسات تجميل بسيطة على وجهها. تناولوا الطعام صامتين تقريباً. عرضت كيا الشراب على إخانتون بإغراء، وشربا معاً عصيراً مبرّداً لذيذاً، ظنّ إخانتون أنه عصير رمان. من وراء حاجز تناهى إليهما غناء جوقة صبايا بأغنية لم يعرفها إخانتون، فقطبّ جبينه، لكن كيا لفتت انتباهه إليها قائلة بشبه توّسل: «أرجوك حبيبي، امنحني هذا المساء وهذه الليلة. دع الأمور تأخذ مجراها ببساطة. هلأ فعلت؟!».

بتردد، هز إخناتون رأسه موافقاً، فلطالما كانت کیا تفاجئه بأفكار تسعده، سابقاً. هكذا فكر إخناتون، ولكن من دون أن يوضح لنفسه، أن سابقاً، لا تعني سوى قبل بضعة شهور أو بضعة أسابيع.

نهضت کیا وحلت ثوبها الخارجي وهي ترتل، إلا أن إخناتون لم يفهم شيئاً من كلامها. غرقت عيناه بين نهديها المزدانين باللوتس والأرجوان، فهذه أول مرة تظهر فيها أمامه بهذا الشكل. وفيما هي تتابع ترتيلها رثته بيدها برذاذ من طاس، والجوقة تشاركها بأصوات وإيقاعات غريبة على أذنيه. ثم قادتة إلى المضجع المجهز كسرير عرس: شراشف من أفخر أنواع الكتان بشراشيب ذهبية، تفوح منها روائح عطرة. خلعت رداءها التحتي وساعدته في نزع تنورته. أشارت له أن يتمدد على السرير، مع بدء غناء جديد، ولا مست بيدها عينيه كي يغمضهما. أحس بها وهي تضع شيئاً على منطقة عاتته وتفركها بعناية. وخلال ذلك كانت ترتل أشعاراً، بصوت عالٍ رتيب. حاول أن يعتدل، لكنها استبقت الأمر وضغطت عليه بلطف. وأحس في الوقت نفسه أنه لم يعد قادراً على فتح عينيه، وشعر بشيء من الغثيان، رغم انتقال کیا الآن لتمسيد قضيبه بسائل أو معجون ما، وبمرافقة أنغام جديدة مريحة من آلات الجنك. انتابه فجأة ألم حاد اخترق جسده وجعل قضيبه ينتصب ويتضخم. ركبته کیا واتحدت به بسهولة لا سابقة لها، لكن الألم لم يفارقه، بل ازداد. وفيما هو يفكر بالألم وصلت إلى سمعه الكلمات الأولى التي فهمها. بغناء رتيب الإيقاع مرافق لرهز جسدها أخذت کیا وكأنها في ذروة النشوة تكرر الكلمات:

«فلتبقِ كنانتي عامرة دائماً،

وليبقِ قوسي صلباً مشدوداً،

وليُصبْ سهم حبي هدفه في المعركة.

فلنستلقِ معاً ليلاً».

اعتدل الفرعون مع صرخة عالية. دفع عنه کیا بفظاظة، وصاح بغضب: «ماذا تفعلين؟ يا لك من زوجة فاجرة. تلجئين إلى السحر! هل جننت؟ ألم تفهمي شيئاً؟ أتريدين موتي أو موتك أو موتنا كلينا؟!».

تكوّمت کیا على الأرض مذلولة، وفجأة وعت أن كل جهدها قد ضاع هباء. كل ما فعلته جانب الصواب. ماذا دفعها إلى ذلك؟

القنوط! وهذا هو ما قالتة لإخناتون بعد أن هدأ قليلاً: «أنا يائسة، أتفهم؟ أنا يائسة،

وقد ضاقت بي السبل». وانفجرت كيا وجسمها يختلج، ما دفع إخناتون إلى الهدوء فعلاً. أحاطها بذراعه بأخوة وقال بصوت عميق الحزن: «ربما كنتُ أنا السبب، يا حبيبي. ربما لم أفهم إرادة آتون حق الفهم. كنتُ موقناً أنك أنت المختارة، فنسيت كل الأمور الأخرى. كان هذا خطأ كبيراً، وأواجه عقوبته الآن». ونظر إلى كيا محبطاً وأضاف: «وأنا أيضاً ضاقت بي السبل. لنضع كل شيء بين يدي آتون!».

فيما كان إخناتون مستعداً للتسليم بواقع حاله، رفضت كيا الاستسلام. بعد إحدى الليالي الكثيرة، التي لم تعرف فيها النوم، جاءتها حالة كشف: على آتون نفسه أن يشر الفرعون بقدم ابن الرب، إما عن طريق حلم أو نبوءة. فقد يؤدي هذا إلى إزالة التشنج. اعتمدت كيا على مخيلة الفرعون الواسعة، كما اعتمدت على علاقته الداخلية بآتون. فاستدعت إليها أيا، كبير مستشاري الفرعون، لحديث خاص، وعرضت عليه أفكارها، بعد أن أخذت منه عهداً بأن يتكتم على الموضوع تكتماً مطلقاً.

**

احتفل بعيد السنة الجديدة في آخت آتون بأبهة وفخامة. وأدى إخناتون مع كيا المراسم كافة غير مبال بحالات التمرد، مانعاً الانتفاضات الداخلية والخارجية من التأثير على العيد. لكن تدمر الشعب كان قد بلغ أوجه. وأفادت تقارير المخبرين بوجود خطط لاغتيال الفرعون، يضعها في الخفاء كهنة آمون في طيبة. كما تعرض موظفون موالون للفرعون للشتم أو للاعتداء المباشر في الشوارع. وحتى في آخت آتون ظهرت رسومات ساخرة، كالتى وصفتها الملكة الأم تبة لكيا: الزوج الملكي بالزي الرسمي برأسي فردين. ولم يتمكن المخبرون من معرفة الفاعل.

لم يعد خافياً على كيا أنها لم تعد تحتل المكانة الأولى في قلب الفرعون، فقد نُقل إليها أنه يزور بعض سيدات حريمه، كما عاود التقرب إلى نوفرتيتي. وسابو، رئيسة خدمها، لم تفوت فرصة دون ذكر هذا الموضوع، إلى حد أن حمنت كيا أنها تفعل ذلك بأمر من سيدتها الفعلية. وقد ألمها ذلك جداً، ولا سيما أن أيا لم يعمل وفق خطتها.

لكنها جانبت الصواب. بعد عيد السنة الجديدة بأسابيع قليلة، أي في الشهر الثاني للفيضان أعلن إخناتون رسمياً - ولدهشتها، من دون أن يفتحها في الموضوع - أنه قد أوحى إليه في الحلم بأن كيا هي المختارة لتحمل بطفل رباني، منة من آتون نفسه، وصورة

حية له، باسم (توت عنخ آتون). أي أن الفرعون يراهن بكل شيء على رمية نرد واحدة. كما قيّد نفسه بموعد محدد، فمن تسعة إلى عشرة أشهر يجب أن يصير أباً لمولود ذكر. وبالتالي لا يجوز التخاذل الآن، لا من طرفه ولا من طرفها.

في آخت آتون استُقبل الإعلان عن ابن الرب بدهشة بالغة. هل سمع أحد سابقاً بمثل هذا؟ ومع ذلك سبّح الجميع بحمد الرب ورحمته الواسعة.

لم يكن لدى كيا أي تصور عن كيفية تنفيذ الأمر. ولكن سرعان ما وصلها النذير الأول. ففي اليوم التالي مباشرة ظهر في مارو آتون الطبيب الشخصي بنتو، وكبير كهنة آتون ميريره بصحبة قائد الشرطة (ماهو) وبعض رجاله وطلبوا مقابلة كيا، التي استقبلتهم مدهوشة في قاعة استقبالها الخاصة. وبكلمات مفخمة نقل إليها ما هو أمر الفرعون: رفقاً بكيا وحماية لها يُحظر عليها منذ الآن مغادرة مارو آتون، إلا إذا استدعاها الفرعون مع مرافقة. وقد اتخذت كافة الاجراءات لتنفيذ ذلك بأفضل صورة. تحجرت قسما كيا، إذ إن التضخيم والمفردات المواربة المهدّبة لم تُجد نفعاً. لقد فهمت جيداً أنها منذ الآن رهن الإقامة الجبرية.

إلا أن هذا لم يكن كل شيء، فقد طلب منها بنتو أن تصرف وصيفاتها من القاعة، ومن ثم رجاها بحضور مريرة أن تزوده بمعلومات دقيقة حول وضعها الصحي وعاداتها في الأكل والشرب، وكذلك عن دورتها الشهرية. وقد تم تدوين كل ما قالته بدقة في محضر اللقاء. ثم ودّعها الوجيهان الكبيران بأدب ووعداها بإخبارها بالتواريخ الملائمة للإخصاب، حال تحديدها.

بردّ فعل عفويّ كلّفت كيا مدير شؤون قصرها ممي إيصال رسالة إلى الفرعون، لكنه عاد بسرعة ليخبرها بأن حظر الخروج يسري على جميع المقيمين في مارو آتون، أي على الخدم أيضاً. كان على وشك أن يأتمن أحد رجال ماهو على الرسالة، إلا أن الرجل أبي القيام بالمهمة. لجأت كيا إلى مخدعها الخاص وهي في حالة ذعر وانزعاج، وانفلتت تبكي. هكذا وجدت أميناية سيدتها، التي باحت لها بألمها: «أهكذا؟ دون أن يقول لي ولو كلمة، أنا زوجته الحبيبة! إنه يعاملني كأبي عبدة. لا يتنازل ويأتي بنفسه، بل يرسل إليّ خدمه. ما الذي يدفعه إلى حجري هنا؟ هل صدر عني أي إشارة إلى أنني أبغي تركه؟».

«لا يا سيدتي، لم يحصل. ولكنه يخشى لربما أن تخطر ببالك هذه الفكرة الآن. نحن لا نعرف كيف ستسالي الأمور». لم ترغب أميناية أن تُقلق كيا، لكن الدلائل الأولى لا تبشّر بخير قادم.

«سترين يا عزيزتي، أن كل شيء سيتغير، حالما تحبلين. فهذا هو المهم الآن، ولا شيء سواه. هيا تعالي، سأهين لك حماماً منعشاً وأنظفك. عندئذ ستشعرين بتحسّن. قد يأتي الفرعون مساء اليوم».

لكن الفرعون لم يأت مساءً، ولا في المساء الثاني، ولا في أيّ من الأماسي التي تلت. كما أنه لم يبعث أية رسالة. لقد قُطعت كيا عن العالم الخارجي. حتى سابو، التي لا تفرغ جعبتها عادة من أخيار المدينة والقييل والقال، لم تعد تجد ما تقوله. هل الحال فعلاً على ما هو عليه، أم تراها تنفذ أوامر نوفرتيتي؟ هذا ما لم تستطع كيا معرفته.

غلب الاضطراب أمينية من القلق. صحيح أن تانوا قد زودها بتعليمات حتى لواقع فقدانهم حرية الحركة، لكنها اعتبرتها إجراءً أخيراً في حال لم تنجح الخطط الأخرى. لو تدري كيا مدى اهتمامه بشؤونها. لقد فكر بكل شيء مسبقاً وخطّط له. وقد امتلأت أمينية إعجاباً، ما منحها قوة وجرأة. المهم الآن هو ضبط النفس، قالت لنفسها مراراً. لا يمكن أن يحدث شيء لكيا. ألا يتوقعون منها أن تلد طفلاً؟! إذاً، الشهور القادمة آمنة. ولكن عليها انتهاز أول فرصة سانحة لترسل خبراً إلى تانوا.

انقضى شهر الفيضان الثاني. وفي أول أيام الشهر الثالث ظهر بنتو مجدداً وتحدّث مع كيا وجهاً لوجه فقط. الأيام التي قضتها في حالة انتظار وعدم يقين عرضتها لحالات من تناوب المشاعر، بين الاستسلام الساكن وثورات الغضب. لكنها أثناء اللقاء مع بنتو كانت خاضعة، وتصرّعت إليه أن يتكلم مع الفرعون ويؤكد له، أنها ستنفذ كل ما يطلبه منها، وأنها تلتمس منه أن يتعطف عليها بحضوره، وأن يسمح لها بين الحين والآخر بالخروج من قصرها البديع. فواساها بنتو قاتلاً، إن السبب الوحيد لقدمه، تصديقاً للوعد، هو إخبارها بالأيام الملائمة. فعليها أن تهين نفسها لذلك بين الثالث عشر والسابع عشر من هذا الشهر. وأن الفرعون يؤكد لها عاطفته اللامحدودة تجاهها.

«لماذا لا يأتي بنفسه؟». ورمت كيا بنفسها بين ذراعي أمينية وهي تنتحب وتختلج بشدة.

«كيا، عليك أن تكوني قوية وشجاعة. قد تكون أنكارك عنه خاطئة. قد يكون معترلاً مثلك. ألا يعقل أن يكون في أحد معابد ربّه يهين نفسه للقائكما؟ عليك أنت أيضاً أن تقومي بذلك! ابتعلي إلى الربة لتبارك جسدك، ابتعلي إليها».

ضحكت كيا بارتياح والدموع لا زالت تنهمر من عينيها، وقالت: «أمينية، يا أحب

الناس، ويا صديقة قلبي! لماذا لم تشرحي لي ذلك من قبل؟ فعلاً، هكذا هو الأمر! وأنا الإوزة الغبية، عدت للتشكيك في سلوكه وضيّعت أياماً ثمينة في الحزن والكرب». ثم وضعت يديها على كتفي أمينية ونظرت في عينيها راجية وقالت: «هل ستهيئني كأنداك، للعرس المقدس؟ هل ستؤدّين معي كل الشعائر الضرورية؟ هل ستهجّدين معي للصلاة لها ليلاً، لربّتنا؟».

فكان جواب أمينية أن عانقت صديقتها الحبيبة.

انتظرت كيا اليوم الثالث عشر. لم تنم في الليل إلا لماماً؟ أمضت فترة الصباح حتى الظهر مع أمينية وخادماتها المخلصات من قطننا، اللواتي هيّأنها للقاء المساء، ثم استلقين منهكات لاستراحة الظهر. اضطجعت كيا في تعريشة يتخللها النسيم المنعش، وكانت على وشك أن تغفو عندما سمعت أصواتاً. ففتحت عينيها وتولّد لديها انطباع بأنها تنظر في عين الشمس. فأرخت رموشها من الغشاوة. أحسّت بيدي امرأة رشيقتي الحركة تغطيان عينيها بعصابة، ثم أزيح ثوبها عن جسدها. مرعوبة ضمّت ساقها إلى بعضهما. من الواضح أن اثنتين من خادמות الحب قد جلسن إلى يمين مضجعها ويساره، إذ أحسّت كيا بهما تداعبان جسدها. تدفقت الدموع من عينيها. ألا يجوز لها أن ترى حبيبها؟».

«إخناتون!». همست.

«إخناتون!».

لكنها بقيت دونما جواب، فاستسلمت لقدرها. فليأت ما ترسله الربة إليها. حاولت، حسبما تعلّمت، أن تسترخي وتتنفّس بهدوء، وهكذا كادت ألا تحسّ بزيارة الرب. بقيت مستلقية مغمضة العينين حتى بعد أن رفعت العصابة عن عينيها، ولم يعد يوجد في التعريشة سواها.

في الأيام الأربعة التالية تكرر الطقس نفسه دونما تغيير. تركت كيا الأمور تجري حسبما تُطلب منها. لكن ما كان متبقياً في قلبها من حب لإخناتون، فقد مات، يوماً وراء يوم.

بدأ شهر الفيضان الرابع وانقطع دم الحيض عند كيا، فأبدى پتو سروره الفائق لهذا الخبر. لكنه نصح بالانتظار شهراً آخر حتى يصير الأمر مؤكداً تماماً، على الرغم من أن الوضع منذ الآن يبشر بالخير، حسب رأيه.

«بناء على حساباتي سيولد الطفل في الشهر الرابع من فصل الحر، قبيل عيد السنة الجديدة»، قال بنتو وأضاف، إن الفرعون راضٍ عنها كل الرضا حتماً، وتعبيراً عن كرمه فقد منحها مزيداً من الأراضي لتستثمرها بنفسها.

فأجابت كيا بلهجة لا حياة فيها: «الشكر لسيدي». وأنها ستزور الأرض بسرور قريباً.

عندما بات حمل كيا مؤكداً، استقبلت آخت آتون الخبر باحتفال عاصف. وأدى الفرعون مع كيا طقوس تقديم القربان لآتون، وكان شيئاً لم يقع بينهما، ثم قدمها للشعب من نافذة الظهور، فمجّدها بصفتها الأم المستقبلية لابن الرب. بعد المراسم عادت وحدها إلى قصر مارو آتون.

لم تعانِ كيا الغثيان بشدة، كما في حملها الأول، لذلك خشيت طوال الوقت من نزيف يطيح بكل شيء. ما الذي سيتظرها عندذاك؟ نتيجة للخوف، عوّدت نفسها على وضع خاتم تالزو في أصبعها، ليلاً ونهاراً، بما أنه يحتوي وسيلة إنقاذها الأخيرة. فتالزو لم يخذلها قط، بل كان ينصت إليها ويشاورها دائماً. وصارت بين الحين والآخر تهمس لنفسها قائلة: «ليتك كنت هنا، لوجدت مخرجاً بالتأكيد. ولكن قد تكون محتجزاً مثلي، كعصفور صغير بلا جناحين، يا صديقي المسكين. صدّقني، لقد فعلتُ كل ما طُلب مني لأنقذ حياتك. هل سيصلك خبر ذلك ذات يوم، يا صديقي العزيز؟».

وأخيراً تأكدت كيا أن ثمة طفلاً ينمو في داخلها. كان إحساسها بذلك رائعاً، وحاولت تجاهل الظروف المريرة المحيطة بها. وتدرجياً بدأ جسمها يمتلئ، كما كبر نهداها. وعندما قسا بطنها أول مرة ارتعبت. أما عندما أحسّت بالطفل يتحرك في بطنها لأول مرة، فقد ابتهجت ورفعت الغطاء عن بطنها بمرح ظاهر. كانت قد نسيت كل هذا، أو أنها لم تع به آنذاك. بدأت تكلم صغيرها توت عنخ آتون وتروي له الحكايات. وصارت تغني له أيضاً، أغنية تلو الأخرى، أحياناً وهي تعزف على القيثارة، وأحياناً تعزف البنات مع غنائها ليروحن عن أنفسهن. ويوماً فيوماً تنامت سعادتها بصغيرها الحبيب.

أخذ إختاتون يزورها بانتظام؛ ليطمئن على خطوات تطوّر الحمل. وكان يستخفّه الفرح عندما يلمس بطنها. وجدت مرات عديدة أنه كاد يغرقها بعبارات التذليل والحب، ويقسم لها على أنها أغلى ما في حياته، بل هي كل حياته. ولكنها غالباً ما كانت تشعر بأنها ليست سوى الوعاء الذي ينمو فيه ابنه، وهو محور اهتمامه.

المهم في كل الأحوال هو أن الحراسة المشددة عليها قد تراجعت. فسمع لها باستقبال زوّار، وبالخروج أيضاً من مارو آتون، لكنها وبملاء حريتها تخلّت عن ذلك، إذ كانت تشعر بالأمان بين جدرانها الأربعة. إلا أن أمنيّة انتهزت فرصة حرية الحركة النسبية لتكتب رسالة مشفرة تصف فيها الوضع، وتعمل على تهريبها إلى خارج البلد. كما أنها لم تبقَ مقيدة اليدين منذ أن ساءت الأحوال حول كيا بصورة ملحوظة، فاخترت بحذر وعناية بعض الخدم والخادّات وجعلتهم موضع سرّها. ولم يدر أحد بكيفية توصّلها إلى ذلك. فكانوا مطيعين لها بلا شروط. كما تقصّت على نحو واسع، عن المكان الذي ستلد فيه كيا ابن الرب. فالقصر نفسه كان وارداً في الحساب، أو معبد الولادة في منطقة معابد آتون الصغيرة والكبيرة. كما سألت عن عادة التعامل مع الأم الولادة في آخت آتون، منذ بدء المخاض حتى انتهاء مدة النفاس. وقد جمعت كل هذه المعلومات كي تتمكن في أسوأ الحالات من التصرف بسرعة. وما أدهشها هي نفسها هو جلدّها ورزانتها في تنفيذ هذه الأعمال كلها.



لم تعش الملكة الأم تية حتى ولادة حفيدها. لقد مضت بهدوء وسلام، فعمّ الحزن البلد كله. سُجّي جسدها المحنّط في تابوت ملبّس بالذهب اللّماع، وزُيّن بالورود والزهور على طريق رحلته الأخيرة. حُمل في قارب رافقته سفن عديدة من طيبة إلى آخت آتون ليوارى هناك في المقبرة الملكية. فلقد تشبّث إخناتون بموقفه وأتى بأمه إليه، على الرغم من رغبتها الأساسية بأن تدفن إلى جانب زوجها الحبيب لتتحد معه مجدداً. رافق التابوت إلى الجبال الشرقية موكبٌ تألف من الزوج الملكي وأفراد العائلة وكبار الوجهاء والكهنة. أقيمت جميع الشعائر، ثم أنزل التابوت الذهبي في تابوت حجري في الموضع المخصص له في المقبرة. تابع إخناتون جامد الوجه الأعمال المقدّسة كافة إلى أن وُضِع غطاء التابوت في مكانه، ثم رفع الصولجان المعقوف باتجاه الشمس وهتف: «ليس ثمة موت! في الدنيا يجري كل شيء بحسب مشيئتك، فأنت من خلق البشر. نحيا عندما تشرق، ونموت عندما تغيب. أنت هدف الحياة. إليك تذهب أرواح الموتى، إليك طار قلب تية، أمي. السلام على هذا القبر!».

بكت كيا تية من أعماق قلبها. رغم ندرة لقاءاتهما، شكّلت تية بالنسبة إليها قطعة

وطن ربطتها بأماها ويقطننا. ويفضل المحمل المغطى بالستائر، الذي تجرّه بغال بيضاء، تمكّنت كيا على طريق العودة من ترك العنان لأحزانها، بعيداً عن العيون.

جاء كيا المخاض في وقت مبكر جداً وبشدة لا مثيل لها، وكان سكيناً تقطع في جسمها. صرخت مرعوبة، فهرعت أمينية إليها، وأدركت أن نقلها إلى معبد الولادة لم يعد وارداً. وبكل روية اتخذت جميع الإجراءات اللازمة. تعاونت مع سابو على نقل كيا، التي تتنفس بصعوبة، إلى تعريشة الولادة المجهزة حيطة. نزت كيا بعض الدم. وهذا قد يحدث ولا يشكل خطراً بالضرورة، ولكن لا بد من الحذر الشديد.

صدق حدس أمينية، فما كاد الخبر ينتشر حتى تدفق الزوّار على قصر مارو آتون. فحاولت ما أمكنها تجنيب كيا الإزعاجات، ولكن كان لا بد من السماح لبيتو على الأقل بالدخول. وتكاثر السعاة الذين كان عليهم أن ينقلوا لأسيادهم أخبار تطور الوضع. ولم تعرف أمينية كل المهتمين بالأخبار بهذه الطريقة، ولكن لا شك في أن نوفرتي كانت واحدة منهم. فخلال مدة الحمل، ولدهشة كيا، فاجأتها نوفرتي بعدة زيارات، دون خير مسبق، لتطمئن بنفسها على حال كيا. لم يحدث أي تعاطف ما بين المرأتين، ولم يرد ذكر الملك خلال تبادلهما الحديث، رغم علم كيا بتردد نوفرتي وابتئها على القصر الكبير أو بزيارات إخناتون لهن. كانت كيا منشغلة جداً بنفسها وبطفلها، فلم تفكر بمعنى هذه الزيارات من ملكة لملكة. أما أمينية فلم يداخلها أي وهم بشأن ما كانت نوفرتي تدبره. وكانت بعد كل من تلك الزيارات تقول لنفسها: «مسكينة كيا، متى ستنتهي الآلام؟».

بداية خروج ابن الرب إلى الدنيا كانت عسيرة جداً. كانت كيا تكافح ساعة فساعة، إلى أن أنهكت فسقطت في نوم عميق، إلى حد أنها لم تشعر بأن النساء قد غسلنها ودهنّها بالمراهم. وخلال هذه الاستراحة استدار الكائن الصغير واتخذ الوضعية الصحيحة للنزول، وبذلك تم تجاوز هذا المانع من الخروج. وبعد أن سال ماء الرأس تراجعت طلقات المخاض، وذهبت كل الجهود سدى لضغط الطفل إلى خارج الرحم. صار الوقت عصراً، ومن بعده جاء المغيب. وأخيراً قررت أمينية أن تسقي كيا شرباً يسرّع طلقات المخاض، ولم تتوان في الابتهاج إلى ربّتها رجاء العون، عارفة بأن النساء الأخريات معها يفعلن الشيء نفسه. المصريات منهن حللن جميع العقّد الموجودة في القصر توخياً لولادة سهلة. سرعان ما ظهر مفعول الشراب، وصارت الآلام لا تحتمل، وأخذت كيا تتصبب عرقاً من جسمها كله وهي تصرخ تارة وتلهث تارة أخرى. أقعدتها

النساء على كرسي الولادة وأخذن يجففن عرقها بحبّ ويمسّدنّها بزيت مريح ويسقّينها ماء، محاولات بكافة الوسائل تسهيل ولادتها. وأخيراً أتى أول الغيث، إذ ظهر الرأس مغطى بشعر قصير أسود. فأخذت النسوة يحثن كيا على الضغط، وهن يغتّين ويصفقن بإيقاع موحد، كي تتمكّن كيا عبر تنفّس منتظم من تحمّل الضغط، ما أدى إلى انهيار المقاومة الداخلية. وبجهد ضغط هائل دفعت كيا الطفل من داخلها: الرأس أولاً، فالكتفين ثم بقية الجسم الصغير كله. لكنها لم تسمع التهليل العالي ولا أغاني الفرح بولادة ابن الرب ولا صلوات الكاهنات والكهّان. كانت على وشك أن يُغْمى عليها. فنهاوت بين أيدي النسوة مكدودة منهكة. سحبت النسوة كيا مع الطفل بحذر إلى المضجع، كي تتمكّن من التنفس، وما إن استلقت حتى غشي عليها. ولم تستعد وعيها إلا عندما سمعت صرخة الطفل الأولى. انهمرت دموعها على خديها، عندما وضعت أميناية الابن الباكي على بطنها، حيث هدأ وسكن.

«الفظي اسمه!»، ألحّت أميناية.

أطاعت كيا وهمست: «توت عنخ آتون.. يا صورة آتون الحية!».

وبكل حنان ربّت على فروة رأسه المبلولة، وتلمّست الوجه الصغير، ووضعت يديها على الظهر الثقيل إلى أن خذلتها قواها، فلم تع عملية قطع حبل السرة وغسيل الطفل. لفّ ابنها بقماشة ناعمة وهددته أميناية بين ذراعيها. لم يبك، بل نظر في اتجاه ما من التعريشة الخفيفة الإضاءة. أنهضت النساء كيا ثانية لتسريع نزول الخلاص. لم تكن قد أفأقت بعد، عندما وجدت نفسها في الوضعية نفسها ثانية. كان كل شيء يؤلمها، وعيناها تدمعان. عندئذٍ ظهرت نوفرّيتي، فارتعبت كيا. بلهجة أمرة صرفت الملكة الجميع من التعريشة عدا سابو وأميناية اللتين ساعدتا كيا على الجلوس في وضعية محتملة، وغطّتاها بشرشرف كتاني نظيف، لأنها ما زالت تتعرق، في حين كانت الريح الليلية تتخلخل عبر أغصان التعريشة.

«أحسنت يا حبيبة الفرعون المفضّلة!»، قالت نوفرّيتي مادحة في لهجة مبطنة بالسخرية، وأضافت: «سيدنا سيكون راضياً عنك وسيكافئك بسخاء!».

لم تقوَ كيا على إبقاء عينيها مفتوحتين، لكنها تماسكت. لم ترغب في أن تبدي أي ضعف تجاه نوفرّيتي. بحثت نظراتها عن الصبي الذي أخذته نوفرّيتي في تلك اللحظة إليها.

«أعيديه إلى مكانه»، أرادت كيا أن تصيح، ولكن لم يخرج من حنجرتها الجافة سوى حشرة. اقتربت نوفرتيتي من مضجعها وأرتها ابنها، وكأنها تقول لها: انظري إليه ملياً. ثم انحنت فوقها وهمست: «الفرعون سيهديك أجمل قبر، وسيجهزه ببذخ بكل ما تحتاجين إليه. أعدك بذلك». ثم اعتدلت واقفة، ضغطت الصبي إلى صدرها ونظرت في عيني كيا المتسعين خوفاً، وقالت بنعومة: «الفرعون ينتظر ابنه بشوق وبفراغ الصبر، ليناديه باسمه. أنت ضعيفة جداً، كيا، يا زوجة الفرعون المحبوبة. أنا سأحمل عنك هذا العبء، وأخذ الصبي إلى المعبد. مربيته سترافقه. أترين، لقد تم الاهتمام بكل شيء. استريحى!». ثم غادرت مكان الولادة.

كان لكلماتها تأثير طعنة سكين في قلب كيا. وكابدت بعجزٍ مصادرة نوفرتيتي ابنها منها، وهي مدركة بكل وضوح أنها قد فقدته إلى الأبد. في تلك اللحظات انفلت الخلاص وتدفق الدم. نادت أميناية الخادמות، فجعلن كيا تستلقي في مضجعها، فيما حاولت أميناية جاهدة إيقاف النزيف.

«سابو. أرجوك، اهتمي أنت بالخلاص، إذ لا بدّ من نقله إلى المعبد بالطريقة المنصوص عليها، وسيرافقك أحد الكهّان». أومأت سابو برأسها وسألتها: «وأنت ماذا ستفعلن؟».

«سأدهن لها هذا المرهم المعجون من ذرور الأرحام وعشبة إيزيس والبابونج والصعتر وأعشاب أخرى. لكنني ما زلت بحاجة إلى زيت الأبسينت. أحضره لي بسرعة!». والتفتت إلى إحدى الخادמות قائلة: «أشعلي البخور!».

ما إن غادرت سابو التعريشة حتى أشارت أميناية إلى خدمها الخُلصّ قائلة: «ضعوا الحنجور تحت أنفها. يجب أن تستعيد رشدها».

بعد بضع لحظات صارت كيا قادرة على الفهم. «كيا، حبيبتي، اسمعيني جيداً تماسكي، يجب أن تفهمي ما أقوله لك».

هزت كيا رأسها بضعف. بصوت خافت ولكن مُلحّ كلّمتها أميناية لحظات، وختمت كلامها قائلة: «ثقي بي!». والدموع تنهمر من عينيها. هزت كيا رأسها ثانية، وبصوت مخنوق يكاد لا يفهم قالت: «ساموت لأحيا». فصرخت النسوة معاً.

وضعت كيا يديها إحداهما فوق الأخرى، ومن دون أن ينتبه أحد سوى أميناية، حلّت

حركة الخاتم السرية وأغمضت عينها. تباطأ تنفسها وسكنت. فغسلنها ودهنتها بالمرهم. توقف التزييف. لففن جسمها بمناشف نظيفة منعشة ومددنها لتستريح.

«اذهبن أنتن أيضاً للنوم!». قالت لهن أميناية «سنسهر نحن على نوم كيا».

لفظت كيا نفسها الأخير في لحظة عودة سابو إلى تعريشة الولادة. فحصت أميناية تنفسها عدة مرات، ثم أخذت تهز رأسها بارتباك وانفلتت تبكي وتعول وتندب. وهكذا اضطرت سابو بنفسها أن تُعلم المتظرين بموت كيا. فتقدم كاهن وفحصها، ثم أكد أن كيا منذ اللحظة ستقابل وجه آتون، وأمر الخدم المسرعين بنقل الجثة بأسرع ما يمكن إلى دار التحنيط، ثم هرع إلى المعبد لينقل الخبر المروّع إلى سيده. وحتى سابو انسلت بسرعة، غير أن أميناية انتبهت لخروجها، وكانت متأكدة من المكان الذي ستجبه إليه الخادمة المخلصة.



أصر إختاتون على البقاء في دار بنبن، وأمضى ساعات طويلة هناك. فمذ أن وصل إليه خير بداية المخاض عند زوجته الملكية المحبوبة كيا، تفرّغ لمناجاة آتون. بقي الرب صامتاً، لكنه كان رحيماً وأرسل أشعته. مضى الوقت واستغرق إختاتون في الصلاة، رافضاً تناول أي طعام. قدم قرابين لنزول ابن الرب في ولادة سعيدة، وأخذ يكرر أداء الشعائر، لكن كيا لم تأت إلى المعبد. كان قد هبط الظلام عندما أبلغه رسول بأن كيا على درجة من الوهن لا تسمح بنقلها. فأصيب إختاتون بالجمود. أهو فال سوء؟ آتون، هذا ابنك، يجب أن يولد سليماً معافى! وبصوت خافت رتل الفرعون:

«أنت، يا مَنْ تُنضح المني في أرحام النساء، فتجعل من السائل بشراً، يا مَنْ تُبقي الولد حياً في بطن أمه، وتهدئه كيلا يبكي، يا مرضعة في رحم الأم، يا مانح الأنفاس كي تبقى جميع مخلوقاتك حية. وما إن يخرج الولد من بطن أمه، حتى تفتح له فمه كي يتنفس، وتوفر له ما يحتاج إليه!».

وأخيراً وصل خبر الخلاص من مارو آتون: لقد ولد الابن. فخفت الفرعون طرباً. لقد كان واثقاً فكيف له، ولو للحظة، أن يشك. اغفر لي، يا آتون!

وكل الموجودين في المعبد شاركوا الفرعون في إنشاد نشيد آتون مع موسيقا الجناح

والقيثارة، كما رقصت النساء. وفيما كانت الأضحى تُذبح وتُهيأ في المسلخ أشعل إخناتون البخور في المعبد شكراً لربه على ما أنعم به عليه.

ثم ظهر ابن الرب نفسه في المعبد، بعد أن صدحت الأبواق معلنة قدومه. فتشكّل عند المدخل موكب تتقدمه زوجة الفرعون الأولى نوفرتيتي، حاملة بين ذراعيها الطفل النائم. صعدت الدرجات إلى المذبح العالي حتى بلغت الفرعون، فقالت:
«انظر الابن!».

وضع إخناتون يمينه على الطفل، وعيناه مغرورتان بالدموع وهتف بسعادة بالغة:
«أيها الرب آتون العظيم الحي، الذي نحتفل به،
يا سيد كل ما يحيط به قرص الشمس،
سيد السماء وسيد الأرض
في معبد الشمس الصغير
معبد ابن الفرعون في آخت آتون:
ها هو ذا ابني الحبيب: توت عنخ آتون!».

وانطلق عيد البهجة، لا بين المحتشدين في المعبد الذين التقوا مساءً في دار الاحتفالات الملكية، بل في آخت آتون بأُسرها، بعد أن نام الوليد الجديد في رعاية مرضعته. كان الجميع في كل مكان يرقصون، وقد أمر الفرعون بتوزيع الهدايا على الجميع، فعلى كل فرد في شعبه أن يشاركه فرحته. وكان لا يني عن عناق زوجته نوفرتيتي وابنتيه مريت آتون وأنخ سنبا آتون.. وكان بوذّه لو يعانق الدنيا كلها.



«يجب أن تستعجلوا. فأعوان نوفرتيتي قد يأتون في أية لحظة!».. حثّت أميناية جماعتها من الخدم.

كانوا قد لفوا كيا بكل عناية بأقمشة كتانية، ووضعوها على نعشٍ وثبّوها بالجبال وغطّوها بالورود والتماثم، ثم غادروا بها قصر مارو آتون العزيز على قلبها. رافقها سكان القصر في عتمة الليل حتى حدود حدائق القصر. ومن ثم بقي حاملو النعش وحاملو المشاعل مع الجثمان وحدهم على الطريق إلى دار التحنيط. وبعيداً عن العيون

المتلصصة لفوا أنفسهم والنعش بأقمشة صوفية داكنة اللون. تركوا الطريق الرسمي وغابوا في عتمة الليل.

في خضمّ نشوة الاحتفال كان لخبر موت كيا وقع الصاعقة. كيا ماتت! في نشوة فرحه نسي إختاتون الأم والزوجة، حبيبته وجميلته كيا. ولكن لماذا؟، لماذا كان عليها أن تضحي بحياتها الشابة، بعد أن منحت الحياة للابن المتظر بحرقه؟ كان عليه أن يزورها فوراً. كان عليه أن يرسل أطباءه. ما كان يجب أن يعتمد على نوفرتيتي، التي وعدته بأن تتكفل بكل شيء. كان يجب.. كان يجب. غطى اليأس والحزن فرحته. هي، التي كانت تمثل كل شيء في حياته، تركته. هي، الوحيدة التي عرفت كيف تفتنه، والتي احتفلت معه بشروق الشمس كما لا أحد قبلها. لن يتكرر أبداً ما كان يحسه معها، مع أم ابنه، مع حبيبته الأولى. فتهاوى على كرسيه غارقاً في الألم، وأحس أنه سيموت.

وقفت نوفرتيتي وقد ركبها الفزع. ما الذي جرى؟ إنها لم تعطِ أمراً بهذا. حاولت أن تتكلم مع الكاهن الذي جاء بالنبأ. وفيما كانت خادمة تشقّ للكاهن طريقاً في الزحام لتوصله إلى نوفرتيتي، ارتمت سابو عند قدمي ملكتها، التي عرفت منها ما جرى في مارو آتون، تفاصيل صراع كيا مع الموت حتى لفظت النفس الأخير بهدوء. هكذا أفضل! هذا ما فكرت فيه نوفرتيتي، من دون خبث أو لؤم، بل إنها أسفت لمصير قريبتها. لكن القدر لم يترك لهما أي خيار، إما كيا وإما هي لمصر! وخيار آتون وقع عليها.

تركت نوفرتيتي لإختاتون الوقت ليستوعب جرعة الألم الأولى، ثم تقدّمت منه لتواسيه، فقالت: «إنها رغبة آتون، أن يستعيد إليه بأسرع ما يمكن، تلك المرأة الاستثنائية التي منحت الحياة لصورة آتون. عليك أن تقبل مشيئته، إختاتون، كما كنت تفعل دائماً. عليك الاستمرار في حمل رسالته إلى الدنيا كلها. أنت وابنه الذي سرعاه معاً، أنت وأنا!».

جلس الفرعون في دار الاحتفالات بلا حراك وبلا انفعال. أمسكت نوفرتيتي يده. وأخذت تكرر تأكيدها على أنها رغبة آتون لا شك، أن يستعيد كيا إليه. وأخيراً انتصب واقفاً وقال: «سنامر بدفنها بكل ما يليق بزوجة الفرعون من تكريم وتشريف. ستدفن في المقبرة الملكية وسيكون قبرها إلى جانب قبوري. سنعمل على ألا ينقصها شيء. وسيقوم تحوتمس بنفسه بإعداد المكان ورسم جدرانها. عليه أن يجسدها حية وهي تضحي لآتون،

عليه أن يظهرها ملكةً وهي تقبل ابنها تحت أشعة شمس آتون، ويده ممدودتان نحوهما بإشارة الحياة. وعليه أن يخلدها في الموت وهي مستلقية في تعريشة الولادة».

أنتت نوفرتيبي على كل ما قاله، وأضافت أنها ستهمّ بكل شيء حالما تشرق الشمس.

وهكذا جرت الأمور. منذ الصباح أعطت نوفرتيبي أوامرها، بأن يهيا جثمان كيا لجنائز ملكية. ولكن قبل الظهر بقليل تبين أن الميتة قد غادرت مارو آتون، لكنها لم تصل قط إلى دار التحنيط. لقد اختفت. وليس وحدها فحسب، بل أميناية أيضاً لا أثر لها.

صدرت أوامر نوفرتيبي بالتفتيش مبدئياً في جميع أماكن أخت آتون عن الجثمان، من دون لفت نظر. وفي الوقت نفسه استدعت إلى القصر الكبير كافة خدم مارو آتون وكل من كان هناك بالأمس. لكن استجوابهم لم يأت بأية نتيجة: لقد حمل جثمان كيا من القصر من قبل ستة خدم موثوقين، وبإشراف كهنة وبعض الوجهاء. ومنذئذ اختفى الجميع.

أمرتهم نوفرتيبي بالتكتم على الأمر وصرفتهم بفظاظة. كان عليها أن تمنع التفكير بمعنى هذا كله، وبالخطوات التي عليها اتخاذها. إذ لا يجوز بأي حال من الأحوال أن يدري إختاتون باختفاء الجثمان، وإلا لجنّ. كانت نوفرتيبي تعرف أعداءها الكثيرين في أخت آتون، الذين سيسعدهم إبلاغ الفرعون بأنها هي من دبّر موت كيا، وهي من عملت على اختفاء الجثة، أو حتى إتلافها. وعندئذ سيضيق هباء كل ما عملت جاهدة لتحقيقه من أجلها ومن أجل ابنتها.

بأسرع ما يمكن استدعت نوفرتيبي كبير المشرفين في دار التحنيط إليها. وتوصّلت بعد تقليب الأمر على وجوه كافة، إلى أنها لا بدّ من أن تصارحه بواقع الحال. فإن لم يتم العثور سريعاً على جثمان كيا، فلا بدّ من تحنيط جثة امرأة بديلة، وحسب الشروط المرعية. ولكن لا بدّ عندئذ من تجنّب أن يرى الفرعون زوجته مرة أخرى، مهما كانت الظروف.

في خطوة تالية أعطت نوفرتيبي تعليماتها في إدارة شؤون الدولة، لإرسال سعاة إلى كل أنحاء مصر، لإعلان موت زوجة الفرعون الحبيبة نتيجة لولادتها ابن آتون.

أما إختاتون فتولى بنفسه إصدار التعليمات بشأن تجهيز التابوتين الخشبي والحجري والقبر وجميع خطوات الجنائز والدفن. كما أعلن الحداد في كل أنحاء مصر. وفي أخت آتون، حيث عمّت بالأمس الاحتفالات البهيجة، ساد اليوم الندب والتعجب. كيا كانت

محبوبة جداً في أوساط الشعب. وبدأ كثير من الناس يتساءلون: كيف ستسير الأمور من بعد؟ وبدأ مؤكداً أن نوفرتيتي ستعود إلى القصر، ولربما كان هذا هو الحل الأفضل. فقد اعتزل الفرعون في مقر إقامته وتفرغ للزراع مجدداً مع ربّه.

في أثناء ذلك استمر البحث عن كيا وأميناية والخدم بصورة حثيثة. كما كلفت نوفرتيتي مجموعة من المساعدين الموثوقين خارج آخت آتون للاستقصاء في مراسي المراكب على النيل شمالاً، عما إذا لاحظ أحد ما أمراً يلفت النظر. لكنها لم تعلق أملاً كبيراً على ذلك، فبإمكانات التنكر الكثيرة ومع الحركة الدائبة على النيل، حتى وإن كان في أدنى مستوياته قبل موسم الفيضان، سيكون الأمر عسيراً، ولا سيما أن نقل جثمان من مكان إلى آخر كان شأنًا مألوفاً، والناس عادة يبدون احترامهم لقوارب الموتى ويتجنبون طرح أسئلة محرجة.



شقّ الخدم مع النعش أقصر الدروب إلى النيل، حيث كان بانتظارهم قارب صغير خفيف الحركة. ما أن صاروا جميعهم فيه حتى انطلق بهم، رغم الأخطار الليلية، وحمله التيار معه من دون تجديد بادئ الأمر، مروراً بآخت آتون نحو الشمال. وبعد أن تجاوزوا شمالي المدينة التي تبدت كأطراف في ضوء القمر، حتى توجهوا ثانية للرسو على الضفة الشرقية. حمل أحد الرجال كيا بحذر إلى البر، وفيما هو يحملها على ذراعيه كمريضة، كشف زميله الأقمشة عن وجهها. خبأ خادمان القارب بين قصب الشاطئ، ثم هرعوا جميعهم إلى مركب راسي ومزود بفواكه وخضار وبعض منتجات السوق. سجدوا كيا ما أمكن بين السلال واندفعوا من الشاطئ مجدّفين بمهارة وسط التيار من دون معوقات متجهين شمالاً.

عندما لاح نور الفجر رفعوا شراع الشمس كي يمنح كيا ظلاً من حرارة الشمس لاحقاً. تدريجياً امتلأ النهر بالزوارق والقوارب والسفن. إذ بدأ صيادو السمك عملهم، فيما توجه آخرون إلى الأسواق شمالاً وجنوباً. ويبدو أن طراوة الطقس في هذا الوقت المبكر قد دفعت حتى أحد قوارب الموظفين للانطلاق إلى العمل. تناوب الرجال على التجديف بهمة، فالمهم هو الاستفادة من الفاصل الزمني المكتسب، من دون لفت الأنظار إليهم، وكان هدفهم ممفيس. كان عليهم بلوغها بحملهم الثمين بأسرع وقت ممكن، وإلا لضاع

كل الجهد هباء. وحالما وصلوا، بحثوا بسرعة عن دار الطيب (مِرتي). كان حشد الناس يفسح الطريق فوراً للموكب الصغير مع المرأة المريضة، وهم يشدون الحُجب على وجوههم خشية العدوى. وسوى ذلك لم يهتم بهم أحد.

وبعد أن أدّى الرجال مهمتهم وكوفتوا، انطلقوا في اتجاهات مختلفة وضاعوا في زحمة المدينة. أو عز الطيب مِرتي بنقل المريضة الخاملة كجثة إلى غرفة جانبية. ثم حمل عقاقير ومراهم وأدوات وانسحب إلى تلك الغرفة أمراً مساعديه بعدم الإزعاج، فالحالة خطيرة ويحتمل أن تكون معدية.

زفرت نوفرتيبي.. كل هذا النكد. لحسن الحظ أن الصبي ينمو بصورة ممتازة. ألفت المرضعة دون مشاكل. وابتاها مأخوذتان به وتحميانه كحيونهما. رغمًا عنها عادت للتفكير بمسألة كيا. من يمكن أن يهتم بأمر جثتها، ومن الذي يجب أن يُؤذى بذلك؟ هذان هما السؤالان الرئيسيان. استدعت سابو ثانية.

«سابو، تذكّري! يجب أن تعودتي بتفكيرك إلى الوراء. مفتاح المسألة قد لا يوجد في أحداث الأيام والأسابيع القليلة الماضية، بل أبكر من ذلك بكثير. منذ بدء خدمتك عند كيا هل لاحظت شيئاً بدا لك مستغرباً؟ هل استقبلت الملكة زواراً غرباء؟ ربما من وطنها؟ هل جاءها مراسلون؟ هل استلمت رسائل؟ أو لمرافقتها المخلصة أميناية؟ فكّري!».

«فقط سفير قطنا قابلها. نقل لها أخباراً من أمها وأخويها، على ما أذكر. إحدى الخاديات القطنيات سافرت مع ساع إلى قطنا. لكن الساعي عاد وحده، وأحضر معه أعشاباً وأشياء أخرى لا أعرف ما هي، ولا استخداماتها. ولكن لا بدّ أنها كانت مهمة، فقد تعاملوا معها بسريّة تامة. كان هذا بعد أن تراجعت زيارات شمسنا للملكة».

«وماذا بعد؟».

عصرت سابو ذاكرتها ثم قالت: «ذات مرة دار حديث بين الملكة وأميناية وفهمت ما كانتا تقولان، إذ يبدو أنهما لم ترغبا أن تفهم النساء القطنيات موضوع الحديث».

«وما كان موضوع الحديث؟». سألتها نوفرتيبي نافذة الصبر.

«لم أسمعها جيداً، لكن الملكة ذكرت سفراء حثيين، اثنين، أحدهما يدعى تالزو أو ما شابه ذلك. والثاني كان بالتأكيد هنا. نعم، في عيد الجلوس».

«نانينزي؟».

«نعم، يمكن. يبدو أن الملكة كانت مضطرة إلى إفشاء سرّ اللون الأرجواني للملك الحتي، بسبب تالزو هذا، أو ما شابه ذلك، وإلا لكان مصيره الموت. بدا لي الأمر معقداً، ثم إن حديثهما لم يستغرق وقتاً طويلاً. وأكثر من هذا، لا أعرف.»

«طيب. أتعتقدين أن أميناية قادرة على اختطاف الملكة؟».

رفعت سابو نظرها إليها مرعوبة وتساءلت: «لأي هدف؟ إنها شديدة الطاعة لها، وكانت مستعدة لأن تفعل أي شيء من أجلها، فعلاً أي شيء!».

«هل لفت نظرك، ما إذا كانت أميناية أو إحدى نساء الحاشية القطنية على صلة خاصة بالخدم الذين اختفوا مع النعش؟».

هزت سابو كتفيها حائرة وقالت: «هناك إمكانيات كثيرة لمثل هذا في أبنية مارو أتون المختلفة.. لا أعرف. يفترض بنا أن نسأل ممي؟».

«لا، دعينا من زوجك. يمكنك الذهاب الآن!».

أقوال سابو لم تلتق ما يكفي من الضوء على المسألة، ومع ذلك أحسّت نوفرتيتي بأنها قد تقدّمت خطوة، هذا إذا كانت سابو قد فهمت بصورة صحيحة. الملك الحتي ابتز كيا، مقابل إنقاذ حياة سفير حتي. إنه لأمر مثير. إذاً لا بدّ من وجود علاقة خاصة بينها وبين تالزو هذا، وإلا ما كانت لتفشي سرّ قطن المصون، أي استخراج اللون الأرجواني لصبغ القماش. وكانت نوفرتيتي على يقين من هذا. وكم هو مغيظ الآن، أن يصبح السربين أيدي هذا الشمالي. أما كان بوسع الحمامة أن تفشيه لحبيبتها إختاتون أيضاً لكن هذا بات ثانوياً الآن. من المحتمل أن تالزو هذا، بغض النظر عن من يكون، يرغب كحد أدنى بالحصول على كيا، ولو كانت ميتة. لا بدّ، وبأقصى سرعة، أن تتوصل إلى معرفة من يكون. سيكون واحداً من حاشية الملك العظيم، أو شخصية ذات مكانة عالية. ولا بدّ أنه يعرف أميناية أيضاً، فهي الوحيدة، حسبما تبينّ لنوفرتيتي من أقوال سابو، الراغبة والقادرة على إخراج الجثمان من مصر. فلديها معارف وخبرة طبية لتعالج الجثمان، بحيث يمكن نقله في هذا الحر الشديد هذه المسافة الطويلة. ومن المحتمل أنها قد حصلت على مواد لذلك من قطناً سراً.

هذا إذا كانت كيا ميتة حقاً

كالبرق التمعت هذه الفكرة في رأس نوفرتيتي. وفوراً استدعت الكاهن، والذي أكد لها أن كل الفحوصات أثبتت وفاة كيا. فعملية التنفس كانت متوقفة، وكذلك نبض القلب. وحتى الوخز بقي بلا رد فعل.

فكرت نوفرتيتي باستدعاء الطبيب الشخصي يتتو للتباحث معه، لكنها سرعان ما غيرت رأيها، وقررت استدعاء إحدى المقربات من دار الشفاء. سألتها عن مواد تنتج وضعاً يشبه الموت السريري. فجاءها الجواب بأنها موجودة، ولكن لا يعرفها سوى الضالعين في العلم. والشخص المعني الذي سيتعرض لتناول هذه المادة يجب أن تكون حالته الصحية ممتازة كي يتحملها وينجو.

استمدت نوفرتيتي أملاً. أن يكون الجثمان قد اختفى، هذا في حد ذاته كارثة، ولكن أن تكون كيا حية، فهذا... ولم تكمل الفكرة. حتى لو كان بوسعها الأمل، بأن كيا بالحالة الصحية التي كانت عليها، لن تنجو، فإنها لن تأمن جانبها، إلا بدليل على موتها. لن توقف نوفرتيتي المطاردة بأي حال من الأحوال. كانت واثقة بأن الرحلة تتجه شمالاً. ما زال هناك وقت، لمنع وصولها إلى حتوشا.



صبغت أميناية وجهها ويديها وذراعيها وساقها بلون داكن، بسائل مغلي الفستق. جعلت من ثيابها حزمة، وضعت فيها بعض حلي كيا، ولا سيما أختامها، وأشباه صغيرة محببة أخرى. رغم أن في الأمر خطراً، ولكن لا بد من ذلك، فلا بد من وجود شيء ما يساعد في التعرف على كيا، أميرة قطنا. وهذا البلد البالغ الثراء ستغادرانه فقيرتين تقريباً. لم يزعج الأمر أميناية، فالمهم الآن هو النجاة من هذا البلد بصحة سليمة. وبهدوء غادرت القصر وحدائقه وهربت نحو النيل.

قضت ليلتها قرب الشاطيء، وكانت من أشد الليالي رعباً في حياتها. أصوات النهر وطققة القصب، وكل تلك الكائنات الليلية الصغيرة والكبيرة، التي لا تحصى، أوصلتها إلى شفا حدود الاحتمال. وأخيراً انبلج الصباح، فأسرعت أميناية من مخبئها إلى النهر. امتدت إليها الأيدي لمساعدتها في الصعود إلى المركب. كان ينقل منحوتة ضخمة من ورشة تحوتمس إلى مدينة (نن - نسو) في الشمال. حشرت أميناية حزمة ثيابها في زاوية وقرفت في المكان المخصص لها في مؤخرة المركب وبدأت العمل فوراً: كان عليها

تحضير الوجبات للرجال أثناء رحلتهم النهرية. وهم لم يأبهوا بالعجوز المزعومة. وهكذا عبر القارب عدة مراكز رقابة دون مشاكل.

إن الحفاظ على مظهرها الهادئ اللامبالي تطلب منها جهداً هائلاً. أخذ قلقها يزداد يوماً فيوماً. ألن يصلوا أبداً إلى زين - نسو؟ وهم حتى الآن لم يقطعوا سوى ثلثي المسافة. لكن الأقدار كانت رحيمة بها. ففي زين - نسو كلف الرجال بنقل شحنة من أشجار الدفلي إلى ممفيس، وبذلك أمكن لأمينية متابعة رحلتها معهم. ولكن كلما اقترب القارب من المدينة، ازداد صبرها نفاذاً ونفسها قلقاً. ماذا سيظهرها في دار الطبيب مرتي؟

كان الظلام قد هبط، عندما وقفت أمينية أخيراً أمام دار الطبيب مرتي، وكانت مثل عجوز رثة الثياب متشبثة بحزمة ثيابها. قرعت الباب ففتحها لها خادم، وكاد أن يغلقه فوراً حالما رآها، لكنها حسبت حساب ذلك، ورمت حزمها بسرعة البرق في الشق المفتوح ووضعت إحدى قدميها عليها. وضعت في يد الخادم جعراناً حجرياً وأشارت له كي يعطيه لسيدة. وفوراً ظهر مرتي، عانقها ودعاها إلى الدخول. حاولت أمينية بخوف أن تقرأ في وجهه، فطالعتها ابتسامة دافئة مرحبة. قدّم لها شرباً ثم اغتسلت على ضوء سراج، وعندما خرجت وجدت بانتظارها ثوباً جديداً نظيفاً وأدوات زينة لتجمل نفسها. حالما انتهت قادتها خادمة إلى غرفة الطعام ذات الإضاءة الخفيفة، حيث وجدت سيد الدار وزوجته وعدداً من بناته، في ثياب احتفالية مع الشعر المستعار الطويل ذي الفرق النصفي، وقد جلسن على وسائد حول مائدة مستديرة. أشار لها مرتي بوّد إلى المكان الشاغر المتبقي قبالتها.

«أهلاً بك!». قال وأردف: «نأمل أن رحلتك كانت محتملة». أوامات أمينية برأسها شاكرة. كانت متلهفة لطرح سؤالها المتحرّق، لكن مرتي تقيّد بتقاليد المائدة حرفياً، فوجه صلاة قصيرة إلى آتون وجاد ببعض الماء والحبوب، ثم أمر خادمة بإشعال البخور، ثم أعطى إشارته للبدء بالطعام.

«إن أسعفتني ذاكرتي، فأظنك تعرفين زوجتي الحبيبة، أما بناتي فلا»، قال مرتي بضم ملآن، وأردف: «هذه كبراهن مورتوميا، وإلى جانبها تيه، وإلى يساري تجلس ستامون. أما الجميلة إيست التي تجلس إلى جانبك، فأظنك قد التقيتها في مكان ما».

كان على أمينية أن تضبط نفسها كي لا تفلت صيحة عالية أمام الأسرة والخادومات.

إنها كيا التي صعب عليها تعرّفها ثانية من شحوبها ونحولها، ولكن ها هي ذي حيّة أمامها تبسم لها بوهن. مدّت كيا يدها خفية إلى يد أميناية وبفرح صامت شكرتا الربة للقائهما. وندر أن كان الطعام على لسانيهما ألذّ مما أكلتا الآن.

عندما صارتا في غرفة النوم المشتركة صار بوسعهما أن تحكيا كلّ منهما للأخرى همساً ما مرّ بها، علماً بأن كيا لم تتذكّر أيّ شيء من رحلة النيل ولا من وصولها إلى دار مرتي. لكنها حكّت عن إحيائها: «قال لي مرتي إنه اضطرّ لاستخدام خبراته كلها كي يستعيدني. ونجاح العملية قارب المعجزة. فقد قضيت عدّة أيام وليال في القارب على النيل، ولم أكن في حالة صحية جيدة عندما دخلت المادة المنومة إلى جسمي. فلنحمد الربة على حمايتها لنا ثانية!».

«أتجدين نفسك قادرة على متابعة السفر؟».

«كيفما كان حالي يا عزيزتي، يجب أن نرحل بأسرع ما يمكن، كي لا نطيل في تعريض مرتي وعائلته للخطر. سفينة (إشپالي) بانتظارنا في الميناء، هو تاجر من كيزواتنا، ومستعدّ للإقلاع حالما نركب. لن أحتاج إلى جهد كبير لأقوم بدور زوجته المريضة (آنا). وأنت ستكونين خادمتي. مرتي يرى أن علينا المبالغة قليلاً عند نقاط التفتيش، فالمصريون يخافون من الأمراض المعدية أكثر من عصّة الكوبرا. قبل مدة قصيرة وصل خبر من عزيرا عن وباء يجتاح أمورو. في حال عزيرا لا يمكن أبداً معرفة ما إذا كان يقول الحقيقة، لكننا نستطيع أن نستفيد من خبر الوباء، رغم أنني بهذا سألحق الضرر بإشپالي. فهل سيسمح له المصريون بعد ذلك أن يرسو في موانئهم؟».

بعد موت الملكة الأم تبة بوقت قصير، تحرّك مجدداً موكب الجنازة الطويل على الطريق إلى المقبرة الملكية البعيدة. بقي عامة الناس واقفة عند حدود المدينة، ولم يمش سوى النخبة وراء التابوت المزين ببذخ، والذي سجّيت فيه حبيبة الفرعون المفضّلة. ترك إختاتون للخدم أن يحملوه في محفّته. بدا غير قادر على المشي، بل أيقظ مرآه في الذاكرة منظر شيخ كسرته ضربات القدر. أدّى الشعائر بجهد، وفي حال أمكن ذلك، ترك الأمر للكهان. وأخيراً عندما أنزل التابوت الخشبي في التابوت الحجري، في الغلاف الخارجي الأخير للحبيبة، وأقفل بالغطاء الحجري، أخذت دموعه تنهمر بلا انقطاع.

قبل الفرعون راغباً، بعودة نوفرتيتي وابنتيه بصورة نهائية إلى القصر الكبير، وبرعايتها للصغير توت عنخ آتون، وتوليها مجدداً شؤون الحكم، فيما استغرق هو في عبادة ربه آتون. وتركها، غير مبالٍ، تتصرف بقصر مارو آتون، فصرفت عماله وخدمه، ووزعت كل ما كان يخصّ كيا فيه، ورحلت الحاشية القطنية إلى بلدها. لم تكتف بذلك بل تصرّفت بكل ما تملكه كيا من دورٍ وأراضيٍ ومزارعٍ وغير ذلك، فقسمته على ابنتها، وأمرت بمحو جميع الكتابات والصور والمنحوتات التي تجسّد كيا أو تعديلها. وبعد وقت قصير بدأ الأمر في آخت آتون وكأن الملكة كيا لم توجد قط. ولاحقاً انتشرت في أوساط الكهنة شائعة أن نوفرتيتي قد أمرت بنقل رفات كيا من المقبرة الملكية إلى وادي الملوك، لكن المومياة، وبطريقة غريبة، فُقدت على الطريق.



قبيل عيد السنة الجديدة في مصر وصل المراسل المصري إلى قطنا، حاملاً معه النبأ السعيد والمحزن معاً: إن كيا، أميرة قطنا والحبيبة المفضلة للفرعون أمينوفيس الرابع الملقب إخناتون، قد أهدت مصر الابن توت عنخ آتون الذي طال انتظار مصر له. لكن الأم قضت في اليوم نفسه بحمى النفاس. إيست، شالا، إهلي نيكالو، كوارى وأكيزي وجميع المقربين من كيا أصيبوا بياس وحزن عميق. أعلن أكيزي الحداد العام في المدينة. وما كادت مدته تنتهي حتى وصلت حاشية كيا من مصر، وكانت قد غادرتها قبل بدء الفيضان. وصل جميع أفرادها، عدا أميناية، فقد اختفت في الليلة نفسها التي ماتت فيها كيا.

بسرعة طلب أكيزي حضور كبيرة الكاهنات إليه. استقبلها في غرفته الخاصة في الجناح الغربي، فموضوع حديثهما لا يجوز أن تسمعه أذان غريبة.

«ما معنى هذا، شالا؟ هل استتجت منه شيئاً مفهوماً؟ أين يمكن لأميناية أن تكون؟ أيعقل أنها لحقت بكيا إلى الموت؟».

«ماذا تقول النساء الأخريات؟ بوذي أن أعرف ما جرى تماماً، قبل الولادة وبعدها. ثمة ما يدعو للريبة. لم تصل إليّ أية أخبار من أميناية منذ أن تأكد حمل كيا. حينذاك أخبرتني بأن وضع الملكة الصحي ممتاز، وشهيتها للطعام جيدة، وجسمها قوي وسليم. من المحتم أن العناية بها لم ترها امرأة أخرى في مصر كلها، بل في العالم كله. فكيف تموت إذا عقب الولادة؟».

«يقال إن نوفرثيتي تصول وتجول في البلاط كسابق عهدها. أهي وراء الأمر يا ترى؟»
«لن تكون أول مرة يتم فيها التخلص من الغريمة بهذه الطريقة. حتى النفاس يمكن
أن تصيب أي امرأة فتموت، ولن يرتاب أحد في الأمر. ولكن ما سبب اختفاء أميناية؟»
«ربما ارتابت، فسُجنت أو قُتلت».

«ولربما هربت، بعد أن لاحظت أنها لن يمكنها تقديم شيء لكيا، وهي تشق طريقها
الآن إلينا. الأسئلة كثيرة، أيها الملك.. دعني أتحدث إلى النساء الأخريات.. أرسلهن إلي
في بيت الربة!».

بعد أيام قليلة فقط اجتمع الاثنان مجدداً.

«لقد تمكنتُ من معرفة بعض الأمور، ما ساعدني في تشكيل صورة». وحكت شالا عن
الأوقات السعيدة في البداية، ثم عن مدة عزلة كيا، ومن ثم عن الآمال المرتبطة بالحمل،
وعن زيارات نوفرثيتي لكيا، وعن يوم الولادة.

«الواضح هو أن بداية الطلق عند كيا كانت قوية جداً، بحيث قررت أميناية، بموافقة
مدبرة القصر المصرية، إبقاء كيا للولادة في مارو آتون. المرأة التي أخبرتني بذلك مرعوبة
جداً وخائفة. واضح أنها قلقَت جداً على سيدتها بعد علمها بالطلق الشديد المفاجئ،
بحيث نقلنها فوراً إلى تعريشة الولادة. لكن المرأة لم تخدم سيدتها هناك طويلاً، لأنها
ليست قابلة، لكنها كانت تطلّ على التعريشة بين الحين والآخر، حسبما يتيح لها عملها
ذلك. رأت كثيراً من الغرباء، رجالاً ونساءً، كهنة وسعاة. سمعت أن الطفل قد ولد، ورأت
كثيراً من المنتظرين يغادرون لإبلاغ الخبر. بعد وقت قصير جاءت نوفرثيتي. المرأة عرفت
محفتها. ولم يمضِ وقت طويل حتى خرجت نوفرثيتي من تعريشة الولادة وغادرت
حاملة الطفل. بعد ذلك بفترة قصيرة ماتت الملكة كيا ونُقل جثمانها من القصر. وبرأي
المرأة، نوفرثيتي هي مَنْ قتلها. المرأة الثانية لم تدرِ بكل ما جرى، لكنها سمعت فيما بعد
أن جثمان كيا قد اختفى. ومع ذلك خرجت الجنازة وأقيم الدفن. وهناك امرأتان أخريان
اعترفتا بمعاناتهما خوفاً شديداً بعد اختفاء أميناية، خشية أن يُقتلن جميعهن. وحتى عندما
ركبت النساء السفينة، كنّ مقتنعات بأنهن لن يرين قطناً ثانية».

«ماذا يعني هذا كله الآن؟ المسألة تثير تساؤلات كثيرة، ولا دليل بين أيدينا».

«معك حق. المؤكد هو أن في المسألة ما يريب. فكُرتُ أن بوسعك توجيه خطاب

إلى آخِثِ آتون، بأنك في غاية الحزن لفقدان أختك، وأن أمها إيست لا تكف عن النواح. فما الذي جرى تماماً؟ وألا يمكن إعادة الميثة العزيرة إلى قطننا؟ عندها لا بدّ لهم من أن يتخذوا موقفاً!.

«هذا إذا أجابونا»، وزفر أكيزي.

لكن المستغرب كان وصول الجواب بسرعة، وعليه الختم الشخصي للزوجة الملكية الكبيرة. أما مضمون الجواب فقد خطف أنفاس أكيزي.

كتبت نوفرتيتي، إنها قد أوعزت بإعلامه أن كيا ماتت بحمى النفاس، للأسف. وأن البديهي، هو أن زوجة الفرعون تبقى في مصر، فهناك مكانها وليس في أي أرض أخرى. ثم ماذا يريد أكيزي من خائنة، باحت لملك حتوشا العظيم بأعظم سرّ في قطننا، من أجل شخص يدعى تالزو. إنهم في مصر متشوقون لاستقبال الأقمشة الأرجوانية من حتوشا، التي لا شك في أن أخا زوجها الحثي العزيز سيرسلها إليهم.

إلى حتوشا أيضاً جاء الساعي نبأ ولادة توت عنخ آتون العسيرة، ووفاة الزوجة الملكية الحبيبة كيا سريعاً عقب الوضع. غير أن شويلوليوما كان على رأس جيشه في المعركة على الحدود الغربية. لذلك مثل المراسل المصري أمام توانانا والملكة مالنغال، ومنهما وصلت الأنباء الجديدة إلى إدارة شؤون الدولة.

كاد تانوا يموت من شدة الألم. أرسل ساعياً إلى الملك بالنبأ، ففي مثل هذه الحالات لا يجوز التصرف دون استشارته. ثم طلب إجازة من العمل. هنوتي ومورسيلي وميتا كانوا في الجبهة، لم يكن أحد من الأصدقاء إلى جانبه، ولم يرغب بحمل أحزانه إلى جدته العجوز. فكر بإيست وشالا في قطنا البعيدة، وبكل الأصدقاء هناك. إنه المذنب في فقدانهم هذه الإنسانية الرائعة. أيّ شيطان لعين دفعه إلى تلك الفعلّة آنذاك! لقد أوقع كيا بنفسه بين مخالف نوفرتيتي التي لم تحتمل وجود الغريمة دون أن تنقضّ عليها. أفضت مضجعه إدانة النفس والآلام والأحزان. وأخيراً جاءه ميتانموا بنفسه وأمره بالعودة إلى مكان عمله. وكان تانوا شاكراً له، فالواجبات الكثيرة شغلته عن نفسه وخففت ساعات العذاب.

ذات مساءً، بينما كان جالساً في مسكنه داخل القصر، قصده رجل، تعرّفه تانوا، فقد كان يشتغل لدى إحيّا في ترشا. وقبل أن يبادره بالسؤال، ناوله الرجل كيساً جلدياً ضئيلاً. أوعز تانوا بتقديم الطعام والشراب للرجل، ثم انسحب إلى غرفة أخرى، والأفكار تتضارب في رأسه. إن كان ثمة ما حدث لأحد الوالدين، لأخبره الرجل فوراً. فتح بحذر رباط الكيس الصغير وقلبه على كفه، فسقطت منه تميمة كيا.

في اللحظات الأولى أصيب تانوا بالذهول، ثم غمر قلبه فرحٌ بهيج: إنها حية! نعم حية، الشكر كله لكم أيها الأرباب. هذا كل ما تبادر إلى ذهنه في لحظتها. ولكن بعد فترة قصيرة دهمته الشكوك. فالتميمة تخبره فقط أنها في شدة، ويحتمل أن تكون أمينية، لا أكثر. فهذه هي الإشارة المتفق عليها، لتخبره كيا أو أمينية، إن كانتا بحاجة ماسة إلى مساعدته. ما الذي مرّتا به يا ترى منذ أن افترقا؟ فاستدعى الرجل إليه، وسأله:

«من أعطاك هذا الكيس؟».

«أحضرتة امرأة إلى سيدتي والدتك. وقالت ثلاث كلمات فقط، فأرسلتني سيدتي إليك. وأضافت بأن عليّ أن أسرع. وهكذا حشّحت الحمار إلى أن تهالك تحتي، فأخذت حماراً جديداً لأتابع..».

«يكفي يا صاحبي. ستكون مكافأتك سخية، اطمئن، وستعوّض خسارتك. والآن قل لي بسرعة الكلمات الثلاث التي اتّمنت عليها، ثم انسها إلى الأبد!».

«الكلمة الأولى كانت اسمك يا سيدي، ولكن اسمك السابق. والثانية هي الأشياء، والثالثة ترشا. وليس لديّ ما أقوله لك سواها.».

«أشكرك!».

كان بوّد تانوا أن ينطلق مسافراً في الليل مباشرة.

أبدى تانوا امتنانه لميتانموا، لعدم طرحه أسئلة محرّجة لتفسير سبب رغبته المفاجئة بالسفر إلى والديه في كيزواتنا. دبر شؤونه الأكثر إلحاحاً وانطلق على جواده في صبيحة اليوم التالي لتلقّيه التميمة والكلمات. واستمتع بالركوب بعد الجلوس الدائم في مكتب الإدارة. أحسّ بنفسه مجنّحاً، يطير على أمل الالتقاء بكيا مجدداً. كان هذا منطلقه، أما الاحتمالات الأخرى فلم يسمح لها بالتغلغل إلى رأسه. وكلما اقترب تانوا من ترشا، سيطرت عليه أفكار محددة.

أول ما شغله هو فقر المعلومات المكانية التي وصلت إليه، علماً بأن ترشا على الأقل كانت واضحة، فكيف تبغى التوجه إليها، هذا هو ما فهمه. لكنها هي أو أميناية التي أرسلت التيممة على الأغلب من الأشياء، حيث توجدان الآن.. أم أنهما في الطريق إليها؟ هل المقصود هو جزيرة النحاس أم عاصمتها في جنوبي الجزيرة، التي تحمل الاسم نفسه؟ لم يستطع تانوا تصور أنهما قد هربتا إلى الأشياء صديقة مصر، وأنهما مقيمتان في قصر الملك (كوشمه شوشا) سيد النحاس والخشب. ربما جاءتا على متن سفينة تجارية مصرية من أجل مقايضة الفضة والزيت بالنحاس المرغوب. لكن لا شك في أن الملك سيعلم أخاه بذلك في رسالة مستعجلة إلى آخت آتون. هذا إذا عرف أن المرأتين قيد البحث عنهما. وإذا كان ثمة بحث عنهما، فأقرب الاحتمالات ستكون قطنا. ألهذا السبب توجهتا إلى الأشياء؟ ولكن إلى أي ميناء فيها؟ أين عليه أن يبحث إذا ما زالتا في الجزيرة؟ تمنى تانوا من كل قلبه أن تكون كل هذه التكهنات في غير محلها، وأن تكون المرأتان قد وصلتا إلى ترشا. حث جواده على الإسراع، كأن الأمر مسألة حياة أو موت.

مكتبة الرمحي أحمد

1337 - 1333 ق. م

«كي نصل إلى الأشيا، لا بدّ من أن نتوجه أولاً إلى جيبيل! حتى ولو أردتُ، لما تمكنت من تحقيق رغبتك والتوجه نحو الأشيا مباشرة، لأن التيارات لا تسمح بذلك».

شكرت آنا زوجها لنواياه الطيبة وعادت إلى مضجعها على متن السفينة، حيث كانت خادمتها تنفض الوسائد، وقالت لها: «لا يمكن! لا بدّ من التوقف في جيبيل. تصوري أن نكون على هذا القرب من قطنا، وفي الوقت نفسه في آخر الدنيا!».

«ألن يكونوا في جيبيل على علم بالأمر؟».

«ليس أمامنا سوى التضرع إلى الربة، أن نكون قد سبقناهم، رغم خسارتنا بعض الأيام بسبب العاصفة».

«وماذا في حال دُعي إشبالي، مثلما دُعي القبطان ورب السفينة آنذاك؟».

«سيعتذر عن الدعوة. سيتوقف فقط للتفريغ والتحميل، ثم سيتابع الإبحار فوراً. وفي أثناء ذلك لا يسعنا سوى الحفاظ على الهدوء التام وعدم لفت الأنظار إلينا. لن يأبه بنا أحد من الحمالين. سترين».

سارت الأمور كلها دون مشاكل. ومع هبوب ريح طيبة من الشرق وصلت السفينة إلى جزيرة النحاس بأسرع مما توقعوا. بكل فخر انتصبت أمامهم في البعيد جبال الأشيا المهمة التي تكتنز في داخلها المعدن المرغوب جداً. رست السفينة في ميناء العاصمة الأشيا المسمى ماري. وبما أن أعمال إشبالي هنا كثيرة، فسيطول رسو السفينة أكثر من جيبيل، لذلك غادرها الركاب إلى النزّل الذي يقيم فيه إشبالي عادة. وبعد وقت قصير عاد إشبالي بنياً يسرّ قلب آنا، التي زعم هنا أنها ابنة خاله: غداً ستقلع سفينة، لتتوقف في

عدّة موانئ في الجزيرة، وللتابع طريقها من ثم نحو هدفها وهو ترشا. كانت الغواية كبيرة بركوبها، لكن كيا فضلت التريث، فالأمان يأتي في المقام الأول، وهي تثق بإشپالي. هل استلمت تالزو رسالتها يا ترى؟ هل سيقدّر لها أن تصل إليه؟

الرحلة الطويلة في السفينة لم تُعد إليها صحتها فحسب، بفضل رعاية أميناية الدائبة وحنانها، بل منحتها وقتاً كافياً لإعادة التفكير. استعرضت في ذاكرتها المدة التي أمضتها في مصر، وكل ما سبقها من أحداث. وغاصت في أعماق نفسها لتعرف ما ستفعل في المستقبل بنفسها وبحياتها.

كان الوضع دقيقاً. إذا عادت إلى قطنا، فستعرض الجميع للخطر، لأن نوفرتيتي لن تقبل بهروبها. ومن المرجح أنها قد زعمت أن توت عنخ آتون ابنها هي. انهمرت دموع كيا عندما تذكرت صغيرها، الذي لم تُمنح ما يكفي من الوقت لتحمله بين ذراعيها وتستطلع ملامحه. تذكرت عينيه السوداوين الصغيرتين اللتين لم تتوقفا عن الحركة في جميع الاتجاهات، ويديه وقدميه، كل شيء فيه صغير ولطيف. سوى الرأس الذي بدا ضخماً، مقارنة بالجسم. والشعر الأسود القصير! هل كُتب عليها أن تفقد أولادها؟ أم أنه عقاب الربة، كفارة عن البنت التي لم تحمل بها عن حب، وكفارة عن الصبي الذي أيضاً لم تحمل به عن حب؟ تكهنت طويلاً حول الموضوع. ذات ليلة، تحت نجوم السماء المتلألئة، في السفينة الراسية في أحد الخلجان، ودّعت ابنها الغالي.. نثرت في البحر زهوراً كانت مشكوكة في شعرها، ونفختها نحو الجنوب، إلى مصر، تحيةً محملة بأمنياتها العامرة بالسعادة والبركة لوليّ العهد ولفرعون والعائلة وللبلد كلها. سيكون بخير، حتى دون رعاية أمه، التي حملت به ومنحته الحياة.

حمدت ربّتها، وشكرت الأرباب كافة، في جميع أنحاء الدنيا، على الهدية، على الحياة الجديدة التي مُنحت إياها، عبر هذا الطفل. فهي في واقع الأمر مسجّاة في القصر الملكي الذي تفقدته بنفسها قبل وقت غير بعيد. لكنها الآن حية ومستعدة لمهمتها القادمة.

وما هي يا ترى؟ إلى أين يسوقها قدرها الآن؟ كونها في البحر إلى الأشياء، مع احتمال أن تتوجه من هناك إلى مملكة شويلوليوما، فهذا بفضل شخصين يحبانها بلا شروط، وغامرا من أجلها بكل شيء، حتى بحياتيهما: أميناية وتالزو.

تدرجياً عرفت كيا من أميناية بأمر الحماية الواسعة التي بسطها تالزو مسبقاً حولها. اعترفت لها أميناية بأنه قد زارها عدّة مرات في قطنا، كي يتداول معها ومع شالا في

احتمالات أحداث قد تواجهها وعواقبها وكيفية الخروج منها. كما ربطها تالزو بشبكة خلاصائه الواسعة من الساحل السوري حتى أعماق مصر. كما لم ينقطع عنها مراسلوه ومراسلاته، فكانت تزودهم بكل ما يتعلق بكيا ووضعها.

لم تتوقف دهشة كيا من كثرة ما كان يجري من وراء ظهرها. هل كانت عمياء وطرشاء؟ أرادت أن تعرف، كيف كانت أمنيائية تتأكد من الشخص المعني حقاً، فالخونة كانوا متربصين في كل مكان. حتى سابو الودودة! فابتسمت أمنيائية ابتسامة متعددة التفسيرات، ثم أخرجت من صدرها تميمة من خزف لازوردي فاخر وأرتها إياها. فنظرت إليها كيا منزعجة وقالت بصوت مرتفع: «هذه أكثر التمايم عادية مما قد يخطر في البال. فكل إنسان، فعلاً كل إنسان من حتوشا إلى كوش يضع حول عنقه تميمة العين!».

«تماماً، وهنا تكمن الحيلة. إذ إنها لن تلفت نظر أحد، ولكن تمايم تالزو تحمل خاصية صغيرة، هي أن البؤبؤ محاط بخط إضافي. إضافة إلى ذلك، لن تجدي بين تمايم جماعتنا تميمة سليمة. كلها للأسف مكسورة! لكنها مكسورة بحيث تتطابق الأجزاء بين الأشخاص، مما يسهل تعارفنا. وهناك إمكانية تعارف أخرى. يبدأ واحدنا حديثه ب (أنا) وأنا، أي بصوت لا يلفت الانتباه، حسب البلد، وقد يكون اسماً ظننتك تعرفين ذلك، فلا شك أن مرثي هو من أطلق عليك اسم آنا للتمويه، أليس كذلك؟».

لم يكن بوسع كيا سوى أن تهز رأسها دهشة. كم فكر تالزو بكل شيء! من الواضح أنه طوال الوقت لم يفكر إلا بها! أحست كيا بحرارة تغمرها. إنه يفعل ذلك منذ سنوات طويلة، منذ لقاتهما الأول. آنذاك قدّم لها قلبه، سواء أرادت أم لا، ولا شك في أن هديته كانت إلى الأبد. ورغم ذلك كان سلوكه تجاهها دائماً محترماً، لم يطلب ولم يلح. مرة أو مرتين باح بعاطفته، عندما فاض قلبه بها، لكنه كان دائماً متماسكاً، حتى عندما كانت تشتته أو تطرده. كل الأمل أن يكون الملك شويطوليوما قد حافظ على كلمته! ومجدداً غمرت الحرارة كيا، ولكن لسبب آخر هذه المرة. فماذا إن لم يعد تالزو حياً؟ هل كانتا ستسمعان بموته في مصر؟ هذا مستبعد. ولكن ربما في قطننا؟ أكيزي أو شالا كانا سيكبتان لهما بذلك. كما إن إشبالي لم يشر إلى الأمر إطلاقاً. غير أنها لم تسأله مباشرة. أثناء كلامهما لم يُذكر اسم تالزو أو تانوا قط. يا ربتي، ما هذا الغموض المقلق! أرسلت كيا توسلاتها مناجية ربتها وأقسمت لها على أن تقبل بكل خضوع ما تشاؤه لها.

لاحقاً، في طمأنينة معبد شاولشغا في لوازنتيا، عندما كانت تتذكر هذه المرحلة من

حياتها، كان يصعب عليها تصور أنه لم يمض على ذلك سوى ثلاث سنوات، ستكتمل قبل عيد الربيع المقبل. كثير من الأحداث المبهجة وقعت، وكثير من المرعبة كذلك.

كم كانت راغبة في الرحيل عن الأسياء، التي سلبتها صديقتها الأكثر محبة والأكثر إخلاصاً لها. حتى الآن ما زال وجه أميناية المستنكر يترأى لها وهي تحتضر بين ذراعيها. استيقظت الصديقة في الصباح الباكر لسماعها هسيساً. ومن دون أن تفكر بالخطر الذي يهددها، رمت نفسها على الأفعى الكبيرة التي وصلت إلى سرير كيا. انتفضت كيا صارخة ومضطربة بين النوم والفرع. صاحت بصوت عالٍ. وإلى أن ظهرت إحدى خادومات المنزل كان الأوان قد فات: عَضَّت الأفعى أميناية، وانسلت هاربة. حاولت كيا أن تشرح للخادمة بالإشارات ما وقع، لكن النجدة لم تأت إلا بعد ظهور إشپالي وترجمته. كانت الأفعى من النوع السام الخطير، إذ أن الأفاعي الخجولة بطبعها لا تدخل البيوت إلا نادراً جداً، كان رأي صاحب المنزل. ولكن بماذا يفيد هذا الآن؟

«أميناية، حبيبتي، ابقِي معي!». توَسَّلت كيا.

كان جرح العَضَّة واضحاً قرب العنق، فوضعت عليه أوراق نباتٍ يمتص السم، كما دهن بمرهم من جذور الشمرة المنقوعة بالنبيذ. لم يكن هناك ثمة فائدة. أخذت أميناية تذبل وتشحب تدريجياً، ثم دهمتها سخونة وتقيأت.

«يا صغيرتي، يا حبيبتي كيا، يجب أن تهربي. كانت هذه إحدى ضربات الملكة! يقال إن المصريين يستخدمون أفاعٍ قاتلة!». هزَّت كيا رأسها وهي تذرف الدمع.
«لا يجوز أن نفترق على هذا النحو»، قالت أميناية بعد قليل والحمى تكويها.
هزَّت كيا رأسها ثانية، قالت: «لا، لن نفترق أبداً، أبداً!».

«صحيح» همست أميناية بصوت يكاد لا يفهم، ولكن مع ابتسامة «فأنت في قلبي دائماً!».

«وأنت في قلبي أيضاً!». همست كيا، ونظرت إلى الوجه الذي تغطيه دهشة مستنكرة.
ثم أغمضت عينيها ورحلت.

اضطرت كيا أن تترك وراءها في الجزيرة جثمان الصديقة التي أنقذت حياتها أكثر من مرة. ربتى. أهذا جوابك على قسَمي؟ أعليّ البدء من جديد، وحيدة دون سند؟ تابعت

كيا طريقها إلى ترشا، وحيدة، غارقة في الألم والحزن، وقد ضمت حزمة أمينية إلى أغراضها القليلة.

ما إن بلغت السفينة الشاطئ حتى أرسل إشيالي ساعياً إلى دار إحيًا. وحيطته هذه أنقذت حياة كيا ثانية، ففي صباح اليوم التالي، عندما رست السفينة في ميناء ترشا، وجد في انتظاره إحيًا بنفسه وقد تحمّل عناء النزول إلى الميناء. رحّب بإشيالي بصوت عالٍ وعبارات ظريفة مازحة، وقبل دعوته إلى متن السفينة لشرب قذح الوصول بالسلامة، وهمس له أثناء صعوده، أن آتًا (كيا) لا يجوز أن تظهر الآن. ثم شربا نخب الوصول بالسلامة شاكرين الأرباب. ثم استفسر إحيًا عن الأوضاع التجارية في الأشياء، وتبادلا المزاح بصوت عالٍ، ما ولّد في جو الميناء المكثظ شعوراً بالفرح المتبادل لنجاح رحلة العودة إلى الوطن. في أثناء ذلك كان البحارة قد بدؤوا بتفريغ حمولة السفينة. وفي أول فرصة سنحت، نوّه إحيًا بصوت خافت إلى أن داره مراقبة من قبل أشخاص أجنب بصورة تثير الريبة، وحتى الآن لم يُعرف أصلهم. وكانوا قبل ذلك قد سألوا عن جميع السفن القادمة من الجنوب، وعلى نحو يلفت النظر. قبض على اثنين منهم، فيما هرب الآخرون. ولذلك لا بدّ من الحذر الشديد.

كادت كيا تموت رعباً. لماذا يبحثون عنها هنا؟ ماذا جرى لتالزو؟ لماذا جاء أبوه؟ كيف ستسير الأمور من بعد؟ كل شيء يدعو لليأس.

كان لا بدّ لكيا من مغادرة السفينة، في وضعية غير لائقة أبداً. حُشرت في سلة كبيرة مع حزماتها، وفوقها أوانٍ خزفية من الأشياء إضافة إلى بضائع أخرى. حمل السلة عاملان قويان من الميناء ووضعها على عربة يجرها ثوران. بعد وقت قصير تحركت العربة مغادرة منطقة الميناء، ومن الأصوات التي كانت تصل إلى أذني كيا، قدّرت أنها تدخل المدينة. لكنها لم تتوقف هناك، بل تابعت طريقها وهي تهتّرت وتأرجح مع ديبب الثورين. وحسب مرور الوقت، لا بدّ أن العربة قد غادرت مدينة ترشا، مهما كانت واسعة، فمنذ مدة انقطعت ضجة المدينة. لا شك في أن العربة على درب ريفي غير ممهد جيداً، فالأواني الخزفية كانت تقرقع فوقها. وكانت الشمس تبث دفاها في سجنها؛ لكنها لم تجرؤ على تغيير وضعيتها، ثم إنها لم تعد تحسّ بأعضائها منذ فترة.

سمعت فجأة صوت خيب جواد. صاح الحوذني: «هوووو» فتوقفت العربة. هناك من يحرك البضائع المحمولة ويجرّها إلى هذه وتلك الجهة، إلى أن جُرت سلتها نحو الخلف، وبسرعة رُفعت الأواني من فوقها، فغشيت عيناها من الشمس الساطعة. ثم حُمّلت السلة

من العربية ووضعت على جانب الطريق. كانت تشعر بنفسها عاجزة مثل جُعلٍ مقلوبٍ على ظهره، عندما أحسّت بمن يرفعها بحذر من السلة. سمعت صوت العربية مغادرةً، وهي مستقلية على جانب الدرب تحاول أن تمدد أعضائها.

سقط ظلٌ عليها. هناك من ركع إلى جانبها. نظرت فرأت عينين زرقاوين مشرقيتين.
«أستطيعين الركوب؟».

أخ، يا لهذا العذاب اللذيذ!

تسلّقت كيا أحد الجبال الشديدة الانحدار، التي ترتفع في الشرق فوق المدينة ومعبد لوازنتيا، وأطلت على سهل بورونا في الجنوب. ومن موقعها كان يمكن الإحساس بالبحر وبسلسلة الجبال العظيمة في الشمال. هنا يلتقي طريق الشرق التجاري الذي يؤدي إلى الفرات وميتاني، مع طريق الجنوب الذي يؤدي عبر أوغاريت حتى إلى مصر في أقصى الجنوب. هنا يتحد الطريقان فيشكلان شارعاً يوازي النهر لمسافة محددة ثم ينعطف غرباً ليوصل المسافرين عبر سهل كيزواتنا إلى العاصمة أدانيا، وإلى البحر وترشا، أو إلى الشمال، إلى أرض حتّوشا.

إلى هنا إذاً، جنحت بها سفينة القدر. هنا وجدت مأوى، في معبد شاشغا، المسماة إشتار أيضاً.. ربة الحب، التي تستقبل في معبدها كثيراً من الزائرين. وهي في الوقت نفسه الربة التي ترعى نعيم العائلة المالكة وتضمن انتصارات الحاكم الحثي وكبار ضباطه في الحرب. هنا تجلس إذاً، حيث تتعلم اللغة الحثية بدأب مع صديقة جديدة اكتسبتها مؤخراً، وتحاول جهدها أيضاً لتعلم هذه الكتابة الفظيعة، وتنتظر، آملة وخائفة، قدوم تالزو، الذي أحضرها إلى هنا قبل أسابيع قليلة.

لم يسبق لها في حياتها قط أن ركبت حصاناً. ولكن إثر خروجها محطّمة مكسرة من السلة، لم تجد أمامها خياراً آخر سوى أن تضيف إلى آلامها المأجديداً. وبعد أن تمكّنت، نوعاً ما، من الوقوف على قدميها، حملها تالزو وأجلسها على ظهر هذا الحيوان الهائل. ومن وضعية الوقوف قفز تالزو وجلس خلفها، ثم قال لها: «استرخِ ما أمكنك في الجلوس واسندي ظهرك عليّ. لا تخافي، أنا أمسك بك!». ولم يصف شيئاً آخر. تحرك الجواد، وسرعان ما خبّ بهما على درب موازٍ للطريق الفعلي. اشتاقت كيا إلى السلة واهتزازاتها الرتيبة على عربة الثيران، ومع ذلك، فإنها ما كانت لتبدل مكانها مع أي شخص كان:

بين ذراعي تالزو، على ظهر هذا الوحش الهائل الذي لا يني يخنفر ويشخر، تحسّ بأمان وبهجة افتقدتهما منذ وقت طويل، مع علمها بأن عظامها بعد وقت قصير ستساقط في كل الاتجاهات. لو سُئلت لاحقاً عن الدروب التي مرّا بها، لاستحالت عليها الإجابة. كان تالزو يعرف المنطقة حق المعرفة، ولهذا فإنهما لم يصادفا أي إنسان. بين الحين والآخر كان يحثّ الجواد على الخبب سريعاً. ثم يناولها زمزية لتشرب ماء، ويعود بجواده إلى الخبب السريع. وعند إحدى المخاضات عبرا نهر سامرا العريض، وبعده توقفاً للاستراحة. على مسافة قريبة منهما كانت هناك مجموعة من الدور الصغيرة البائسة. قفز تالزو عن الجواد ثم رفع كيا، فأطلقت صرخة متقطعة. لم تتمكّن من الوقوف، حاولت الجلوس، لكنها أفلتت عن الفكرة فوراً. أثناء ذلك عقد تالزو رباط جواده، ثم أخذ يستطلع بتمعّن في الاتجاه الذي جاؤوا منه. لم يكتشف ما يشير الاهتمام، لا ملاحقين ولا عجاج غبار، لا شيء. عندئذٍ فقط التفت إليها.

«أهلاً بك!». قال، وكان صوته في غاية الدفء وأردف: «أهلاً بك في بيتك، يا مَلَمادا! أرجو أن يعجبك اسمك الجديد؟ علينا بسرعة أن نختلق لك تاريخاً: من أين أنت، ولماذا جئت إلى هنا؟ من أين نعرف أحدنا الآخر وما هي العلاقة بيننا؟ ولكن لا حاجة اليوم لأن تفكّري بكل هذا!».

حملها دون كلفة ونقلها إلى مخبأ مزوّد بتبن وقش ووضعها هناك بحذر.
«استريحِي. سأجلب لنا طعاماً!».

عندما عاد بعد قليل، وجدها نائمة. تجاوزت اليوم الثاني وكأنها كومة من البؤس. اعتذر منها تالزو عن كل هذه المزعجات، وأخبرها بأنه سيأخذها إلى معبد الربة شاونشغا، حيث ستكون في مأمن من أية مطاردات. استقبلتهما هناك كاهنة قادتهما عبر ممرات طويلة وباحات وحدائق وممرات ثانية. كانت كيا تتألم مع كل خطوة تمشيها، وتأمل عند كل باب أن يُفتح لها. وأخيراً وصلوا إلى قاعة نيرة، متصلة بغرفة نوم، تفصل بينهما ستارة. كان في الغرفة جرار ماء وطسوت مهيأة للاغتسال. وقد ألحق بالقاعة الرئيسية شرفة صغيرة، تشبه نوءاً معمارياً، وتطل على الجنوب الغربي. هنا سيكون مسكن مَلَمادا الجديد. كانت الشمس تشارف على المغيب بعد نهار قانظ. بدأت تتناهى إليهم أصوات الجداجد وصراصير الحقول، وكان الهدوء إلهياً. أحضرت لهم خادمة ماء ونبيذاً وفواكه وخبزاً وجبناً، ثم تركتهما وحدهما. أحضر تالزو طبقاً مملوءاً بالماء، وأخذ بكل عناية

ينظف لها بقطعة قماش وجهها وعنقها وذراعيها ويديها وقدميها. ثم ناولها حنجور مرهم قاتلاً وهو يبتسم: «ضد مرض ركوب الخيل. في بداياتي استهلكت الكثير منه!».

لم تصدق كيا كلامه، لكنها قبلت مسكن الآلام شاكراً. والمستغرب هو أن أقل الآلام كانت في ظهرها، فعلق قائلاً: «عندك استعداد فطري للركوب. لاحظت ذلك فوراً، فقد اتخذت مباشرة الوضعية المناسبة للركوب. سنستمتع بهذا كثيراً فيما بعد». وناولها قذح نبيذ قائلاً: «لنشكر الأرباب!». وأعطى الأرباب حصتهم من كل ما صُفَّ على الطاولة الصغيرة. قطع الفاكهة حزوزاً، أما الخبز والجبن فكانا مقطعين مسبقاً بحجم لقيمات. جلس إلى جانبها وأخذ يلقمها القطعة تلو الأخرى.

«لست طفلاً صغيراً!». احتجت كيا بفطور، لكنها كانت سعيدة جداً برعايته. غير أنها كانت على درجة من الإرهاق، بحيث نامت لا إرادياً وهي تأكل.

كان يحتمل أن تكون أياماً رائعة لتالزو وكيا، والأفضل لتانوا وملمادا، ولربما لتالزو وملمادا، أو كيا وتانوا. هكذا فكرت كيا زافرة بحرقة. أليس عجباً أن يكون لكليهما الآن اسمان جديدان؟ رغم أنهما ما زالوا الإنسانين نفسيهما، أليس كذلك؟ واسترسلت في ذهنها متابعة فكرة علاقة الاسم بالإنسان. اسم (كيا) يجعلها بالنسبة إلى نفسها وإلى الآخرين شخصاً محدداً. وملمادا؟ هل ستعاده يا ترى؟ اسم (آنا) أعجبها أكثر. ولكن ما يؤسف له أنه بات معروفاً من قبل الأعداء. آه، لو كانت الأيام معدودة، إلى أن تستعيد اسمها كيا! بعد هذا الدعاء الحار، عادت إلى تالزو وإلى إجازته المقطوعة في لوازنتيا.

كانت تلك، على أية حال، أياماً ثمينة صافية، فوقت تالزو كان محدوداً. لقد غاب طويلاً عن حتوشا، لأنه اضطرَّ للبقاء في ترشا بانتظارها مع أمينية. علماً بأنهم في حتوشا بأمس الحاجة إليه. لكنه لا يستطيع أخذها معه إلى هناك، لأن في ذلك خطراً كبيراً. كان واضحاً أن الجواسيس في ترشا كانوا يترصدون بكيا وأمينية، لكن ما لا تفسر له هوريطهم بين تالزو وابن إحيا وكيا. وإلا ما تفسر اقتحامهم دار إحيا؟ لا يمكن أن يكون من أرسلهم سوى نوفرتيتي، وبمهمة محددة واضحة. ولم يتبقَّ الآن سوى الأمل، بأنهم قد فقدوا أثر كيا، أو أن حيلة إشبالي قد انطلت عليهم، عندما همس سره لإحيا بصوت عالٍ كفاية لسمعه المخبرون، بأنه كان يحمل على متن سفينته منذ مصر سيدتين من المقام الرفيع، لكنهما للأسف ماتتا مريضتين في الأشيا.

كيا، لا، ملمادا لا بدّ من أن تبقى في لوازنتيا، وبكل امتنان، مقيمة في مكان آمن وجميل، حتى.. حتى ماذا؟

«لا يمكنك العودة إلى قطنا. إذ لا يجوز لهم هناك حتى أن يخمنوا أنك ما زلت حية، لأنك بهذا ستعرضينهم للخطر. فالكبيرة.. هكذا كانا يدعوان نوفرتي في حديشهما، لن تستريح، إلى أن تمسك بك. وغضبها لن يتوقف عند حدود المدينة، إن تجرأت وأوتك». «هل سألتي هنا منتظرة، إلى أن تموت؟».

«لا، ما هكذا. ولكن لندع العشب ينمو قليلاً ليغطي كل شيء. ثم تظهر، من حيث لا أدري، امرأة اسمها ملمادا، تغزو قلب تانوا وتحتله بطرفة عين، فيعيشان سعيدين معاً، حتى آخر أيامهما!». قال ذلك مقلداً رواة الحكايات. ثم انقلب جاداً فجأة، وأمسك بيدها وقال: «أيمكنك تصوّر ذلك، ملمادا؟».

«هل هذا عرض زواج؟». سألت كيا محاولةً تقليد لهجته المازحة.

«إذا كانت هذه رغبتك!».

«نعم!». قالت كيا.

وتبادلا القبلات.

في ما بعد قال تانوا: «كان هذا سيعجب أميناية»، وابتسم راضياً وأردف: «كانت دائماً إلى صفّي!».

«لقد حببتما الأمر بمتهى البراعة. يا لكما من شقيين. كل ما تحدّثتما فيه واتفقتما عليه، من وراء ظهري، إنه لأمر لا يصدق!». ثم تملّكها الألم لفقدان صديقتها العزيزة.

«هيا، لنفكر معاً»، قال تانوا محاولاً أن يلفت انتباهها، «يجب أن نخلق لك تاريخاً قابلاً للتصديق. إذ لا يمكنك أن تبقي هنا طويلاً. فانا ما عدت قادراً أبداً على أن أبتعد عنك!».

التصقت كيا به. ما عادت تطيق فراقه، ولو ليوم واحد. ألم يلتقيا حقيقة الآن، بعد كل تلك السنين؟ تالزو وجد طريقه إليها منذ زمن بعيد. وهي أيضاً بمعنى ما كصديق، منذ أول لقاء. كونه منذئذ قريباً جداً منها، ربما شعرت بذلك أحياناً، لكنها لم تعرف، أو لم ترد أن تعرف. وأن يؤلمها بعده عنها على نحو يصعب التعبير عنه، فما كانت لتعتقد أن بإمكان ذلك أن يحدث لها.

كيف انقلبا بهذه السرعة إلى الموضوع الذي غير كل شيء مجدداً؟ في اليوم الثاني

مباشرة، في سلام بقعة الأرض الرائعة هذه، في عالمها الصغير الجديد، سألها تالزو فجأة، لماذا أفشت لشوييلوليو ما بسرّ قواقع الأرجوان.
«كيف عرفت ذلك؟».

«بمحض المصادفة وصل إلى سمعي ما قاله نانيوزي للملك عن القواقع».
«وبعد؟».

«لا شيء. كان واضحاً أن هذا الموضوع لا يجوز أن تسمعه أذناي، لذلك انسلت خارجاً وأنا مرتبك محتار. لم أجد تفسيراً لما دفعك لهذا الفعل».
نظرت کیا إليه طويلاً وعمق. وأخيراً أمسكت بيديه وقالت: «أنت ا!».
«أنا؟».

«نعم، أنت! أنت السبب الذي جعلني أرحل إلى إختاتون في مصر».
«كلامك كله ألغاز، وأنا لم أفهم كلمة واحدة منه».

«اسمع إذاً. بعد حديثك معي في بيت الربة، جاءني نانيوزي متنكراً كامرأة! حاملاً معه رسالة لي فقط من ملككم».
«من شوييلوليو ما؟».

«نعم، منه. من الجلي أنه كان يخشى ألا أطيعكما أكيزي وأنت. سأحاول الآن أن أعيد على سمعك نص الرسالة. للخبر أهمية كبيرة بالنسبة لك، حبيبي تالزو».

ركزت کیا تفكيرها ثم بدأت الكلام بصوت خافت: «شوييلوليو ما، الملك العظيم، لآبارنا حتّوشا يحييك، يا کیا القطنية. افعلي ما يتوقع منك. فأنت بذلك لن تساعدي عائلتك فحسب، ولا المدينة، ولا المنطقة كلها، بل ستساعدين أيضاً شخصاً عزيزاً عليك. إنه في الواقع ثمرة حب الإخوة المحرم. وعقوبة ذلك الموت لجميع الأطراف، الذين ما زلتُ حتى الآن أحميهم. ولكن حتى متى؟ هذا متعلق بك وحدك. إذا لم تؤدّي مهمتك كما يجب، فسيموتون. ولكن ليس هم وحدهم. حتى قطنا سيحكم عليها بالدمار. قواتي جاهزة في حلبا. وكدليل على خضوعك، بوحى لمراسلي بسرّ أرجوانكم. ستكتمين أمر زيارته لك بصمت القبور، وإلا فإن غضبي سيصيبك والآخرين معاً، في كل مكان ا!».
هيمن السكون على القاعة.

هذا هو السر إذاً، الذي لا يريد أحد أن يأتي على ذكره. كان مصيباً إذاً في حدسه أن إحياء ليس أباه. من يكون أبوه إذاً؟ ما زال الأمر مكتوماً عنه حتى اليوم.

«ما كان يجوز لي أن أخبرك بشيء، أتفهم ما أقصد؟». قالت كيا كاسرة الصمت، «كما لم تسنح لذلك فرصة أخرى، لأنك لم ترجع، لا إلى قطنا ولا إلى آخت آتون. حتى أنني استدعيت نانينزي إلى قصري مرة، على أمل أن يخبرني شيئاً عنك. لكنه على ما يبدو لا يقف إلى جانبنا. لماذا لم تأت أنت؟ فأنت كنت سفير حتوشا إلى مصر».

«لأنني تلقيت ترفيلاً، ناتجاً عن الأمر نفسه، لكي أضطر إلى البقاء في حتوشا. ولكن، من هو أبي الآن؟ اعذريني، فأنا...». التوتر الدائم بينه وبين إحياء، أمه التي قضت حياتها في الكفارة منذ بدأ يعي ما حوله، كل هذا وجد تفسيره الآن.

«لا يمكن أن يكون إلا أخاً لأملك، أحد أخوالك لا بد من وجود سبب يدفع الملك الذي يعرف السر، إلى بسط حمايته عليك. وعلى أمك وأبيك. ألا تخمنه؟ أعتقد، لأن أباك مقرب جداً إلى الملك. إنه ليس أفضل قواده فحسب، بل هو فوق ذلك صديقه الحميم».

«هنوتي؟».

«ومن المقصود غيره؟».

«هنوتي! إذا صدق هذا، فإنه يفسر أموراً كثيرة. تلميحات الملكة هتي وتلميحات جدتي، كما يفسر سبب رفع أقرابي أيديهم بإشارة درء الشر، خفية، بعد زيارتي لهم مع هنوتي».

جلس تانوا صامتاً وأفكاره تتضارب.

أخذت كيا تراقبه، ولا إرادياً سرح ذهنها وتذكرت العرس المقدس مع أخيها أكيزي. بعد برهة قالت: «ياربتي! مهما كان سبب اتحاد الإخوة، فلا شك في أن الأرباب قد باركوا جبهما وأهدوهما طفلاً. فكيف يدانان ويقتلان؟ ماذا يكمن وراء هذا القانون الوحشي؟ في مصر لا حدود لدرجة القرى بين الملك والملكة، عندما يتعلق الأمر بالحفاظ على نقاء الدم الملكي ما أمكن. وفي قطنا...». صممت كيا فجأة، لكنها حكمت لتالزو من ثم بالتفصيل، عن العرس المقدس، وعن حملها بطفل أكيزي من دون علمه أنها هي التي مثلت الربة. ثم عن سقوط الطفل بعد بضعة شهور، وفرحها بذلك، دون أن تجد تفسيراً لسبب مطالبة الربة بالطفل. كما حكمت عن شعورها بأن الربة تعاقبها الآن لهذا السبب، فجعلتها تفقد ابنها الصغير أيضاً. فالربة لا تجدها أهلاً لأن تكون أمّاً. حكمت كيا كماء

متدفق. و فقط بعدما أفرغت ما في روحها، جفلت. فبدلاً من أن تفسح المجال لتالزو كي يستوعب المستجدات المتعلقة به، استرسلت في الحديث عن نفسها فحسب.

«أرجوك، أرجوك، اعذرنى. لقد انفلت الكلام من داخلي فجأة. سامحني أرجوك!».
«اهدئي حبيبتى. جيد أنك أطلعتني. لن يكون بيننا أسرار بعد اليوم، ولا هموم يخفيها واحدنا عن الآخر، أعديني بذلك؟».

جفّف دموعها بحب، ثم قال سارحاً مع أفكاره: «لا أعرف سبب العقاب الشديد عندنا لعلاقة الحب بين الإخوة، لكنه أمر واقع. وأمى المسكينة كادت تتحطّم نهائياً تحت هذا العبء. يا لتعاسة حياتها! معاناتها من الشعور بالذنب لا تنتهي، ولا خوفها من العقاب المسلط عليها. لا يمكنني أن أتوجه بالسؤال إليها. يُفضل أن أسأل هنوتي، ما إذا كان تخمينك في محله. حتى الآن، لم يكن لدي انطباع بأن الاثنتين متقاربتين إلى هذه الدرجة. لي حالة تعيش في حتوشا، وهنوتي يحادثها ويمازحها أكثر بكثير، أما عن علاقته بأمي فعلى النقيض، كأنما ثمة حاجزاً بينهما. من ناحية أخرى، هو الذي زوّجها لإحياً. الأمر مشوش جداً ومعقد، كيا. لماذا يعرف الملك بالأمر؟ هل فهمتِ رسالة الملك على نحو صحيح؟ آه، يا أعز الأحاب، كم تحملتِ بسببي! وأنا لم أكن على علم بشيء. كنت مقتنعاً تماماً بأنك لا تحبين إلا إختاتون، كيا!». كادت كلماته الأخيرة أن تكون صرخة. ثم قال: «الذنب ذنبي أنا. أنا الذي أخبر شويلوليو ما بأنك وإختاتون.. أيمكنك أن تغفري لي ذلك؟ أنا قلت له، بأن أعظم خدمة يمكن أن تُقدّم لك، هي في جمعكما معاً. فعليه أن يرسلك إليهم.. أنا المجنون. سامحيني أرجوك!».

ومن كلمة إلى أخرى، ازداد يأس تانوا، إذ تكشّف أمامه مدى تورّطهما معاً. لم تتمكّن كيا من تهدئته، رغم تأكدها له مراراً، بأن هذا كله من مشيئة الأرباب. وفجأة شحب تانوا وهو يقول: «كيا، أنت معرّضة لخطر الموت على نحو مزدوج الآن! ليس من خلال نوفرتيتي فحسب، بل من خلالي أنا! من خلالي أنا، ألا تفهمين! ما الذي جنيته حتى ينتقم الأرباب مني بهذه الصورة؟ بغض النظر عمّن من أحوالي هو أبي، نحن ثلاثتنا معرّضون للموت في أية لحظة، حسب رغبة الملك، أو إن وشى بنا شخص آخر مطلع على السر. ولكن أنت أيضاً، أحب إنسان إلى قلبي تحت الشمس، الوحيدة التي أحببت وسأحب، والتي سأضحى بحياتي من أجلها بسعادة، أنت ستصبحين مستهدفة بالعقاب الذي لا يرحم، إذا أصبحت زوجتي. يا له من قدر قاس!».

نهض تانوا. لملم أغراضه القليلة، فيما كانت كيا تنظر إليه بذهول، وقد أدركت أن لا شيء يحول دون انطلاقه الآن. ثم التفت إليها وقال: «ستبقين هنا في حماية جيدة، يا شمسي الوحيدة. أعدك بجميع الأرباب بأنني سأجد حلاً. هل ستتظيريني؟»
أومأت كيا برأسها قائلة: «وأنت، هل ستتبه إلى نفسك؟».

تعانقا، ولم يكونا قادرين على ترك واحدتهما الآخر.

أخيراً أتجه تانوا إلى الباب وهو يقول: «لن نستسلم. الأرباب هم الذين جمعوا بيننا. ستكون الأمور كلها على ما يرام، صدقيني!». واختفى. ولم تعد كيا قادرة على متابعة رؤيته من شرفتها، مهما بذلت من جهد.

تأقلمت كيا/ ملماذا سريعاً مع الحياة في معبد لوازيتا. وبناء على طلبها كلفت القيام بأعمال بسيطة إلى جانب تعلمها اللغة الحثية، لجعل أيام الانتظار أقصر. راودها شعور بأن الربة قد عاودت الحلول فيها والتجلي لها في أحلامها. أسعدها الأمر، لكنها في الوقت نفسه خشيت الأحلام، التي أرتها فيما مضى أموراً مرعبة غالباً. والساعات الكثيرة التي كانت تمضيها وحدها، استغلتها في اختراع تاريخ لملماذا، آملة أن يعجب تالزو، وأن يمكنهما من العيش معاً، بأسرع ما يمكن.

على سبيل المساعدة، اعتمدت على مصير مريبتها تايا، وحبكت تاريخها على أن ملماذا كانت ابنة عائلة من الأشراف في ترقا، أودت بها الأحداث إلى قطننا وهي صغيرة، حيث أمضت سنوات طويلة. اتخذها أحد أشراف قطننا زوجة له، لكنها ترملت باكراً جداً. والأرملة الصبية لفتت أنظار الشريف تالزو أثناء زيارته المتكررة لقطننا. ولكن ما تفسير سماتها المصرية الجنية في هذه السيرة؟ لنقل إن أحد أسلافها قد جاء من مصر إلى ترقا. لا، ثمة خطأ أساسي في بناء الحكاية: لا شك في أن نائيزي والمبعوثين الحثيين الآخرين الذين مرّوا بقطننا سيتعرفون عليها. لا، لا يمكن. لا خيار أمامها إلا أن تعيش في الخفاء، إلى أن تبعث حية مجدداً بجسدها وروحها، باعتبارها كيا.



فيما كانت كيا تحاول بناء حياة جديدة لها في حماية المعبد، ما كان بوسعها أن تقدّر التأثير الذي خلّفه موتها وخيانتها لسرّ الأرجوان في أخيها أكيزي في سياق علاقته

مع تالزو، صديق الملك. لقد أحس أن الجميع قد خانته وتخلّى عنه. وبناءً على قناعته بمسؤولية نوفرتيتي عن موت كيا، وسكوت إخناتون على ذلك، مسلوب الإرادة، وبعد أن اكتفى استمتاعاً بكيا، صبّ أكيزي غضبه على مصر. فهذه الإهانة الشخصية لا يمكن القبول بها. كما أن غطرسة القوة العظمى بإرسال بعض الكهنة لفرض ديانة جديدة، كان أيضاً غير مقبول. هل يظن الفرعون في آخت آتون بأن الناس على استعداد للتخلي فوراً عن معتقدات آبائهم المتوارثة من قديم الزمان؟ أما نداءات طلب النجدة ضد الهجمات الأجنبية فقد صممت القوة العظمى حيالها، بل تجاهلت معاناة الأتباع. علماً أن بوسعها أن تحميهم بسهولة، بحيث توفر لهم حياة دائمة في هدوء وسلام.

وبما أن الاتفاقية مع حتوشا كانت نتيجة لممارسة ضغط مباشر، فقد رفضها أكيزي. منذ شبابه لم يثق بالحتيين، سواء كان ذلك نتيجة معارضته الصريحة لأبيه إيداندا، أو نتيجة علمه بأن حتوشا تنوي ضم شمالي سوريا إلى مملكتها، وهذا تحديداً لم يتغير فيه شيء. وفوق ذلك كله، تالزو! صديقه العزيز والحميم، الذي وثق به كما لم يثق بإنسان آخر. لقد استغل الأحاديث مع كيا إذاً، ليدفعها إلى الخيانة! لم يكن يهتم سوى مصلحته. ياله من منافق! إنه حقاً لا أكثر من ابن تاجر، كما كانت كيا دائماً تقول.

دعا الملك أكيزي مجلس الشيوخ إلى اجتماع. ونجح في خطبة نارية بإقناع الأعضاء، على الرغم من تخوفات قلة قليلة متبقية، بأنه بات ضرورياً، نظراً للوضع العام القائم، الاتحاد مع ملوك الممالك السورية الراغبين في الوحدة، واستغلال لا مبالاة مصر، وقيادة هذا الاتحاد للوقوف في وجه تغلغل حتوشا في المنطقة. ولقد أرسل مبعوثيه ليس إلى الممالك المجاورة فحسب، بل إلى توشراتا الميتاني وإلى ملك آشور البعيدة. فأبدى الجميع استعدادهم للدفاع عن أنفسهم في وجه تجاسر شوبيلوليوما عليهم. وفي الربيع القادم سيندفع جيش جرار نحو الحدود القديمة بين ميتاني وكيزواتنا لطرد الحتيين الذين استوطنوا في شمالي سوريا وميتاني.

«صنّاع أسلحتنا سيتصيّبون عرقاً منذ الآن!». بهذه الجملة أنهى الملك خطبته التي لاقت تصفيقاً حاراً. وفي غمرة الحماسة العامة، لم تسنح الفرصة للمتشككين، مثل أكالينا ولوايا وكواري، لإبداء آرائهم.

كان تانوا يعرف أن هنوتي بعد انتهاء الحملة العسكرية يعود إلى مقره في پوروشخاندا، ككل سنة. فانطلق إليها من لوازانيا مباشرة، ولم يفته على الطريق، إرسال خبر بذلك إلى ميتانموا. بدا له الأمر كرحلة إلى الماضي، فقبل عشرين سنة تقريباً سار على الدرب نفسه، الذي يستخدمه الآن، هارباً حينذاك إلى الحياة الجديدة التي يريد لها هو لنفسه. من سينظره هناك الآن؟ خاله أم.. أبوه؟

«تانوا، يا لها من مفاجأة!». وعانق هنوتي تانوا بحب وقال: «أين الحريق هذه المرة؟». فأشار تانوا إلى صدره إشارة تحتل معاني متعددة، وطلب محادثته على انفراد.

«سري للغاية؟ إنك تثير فضولي! هات ما عندك!».

«كالي هي أمي، لكن إحياً ليس أبي. أنا على يقين من ذلك الآن. إذًا، من هو أبي؟ هذا ما أريد معرفته منك، هنوتي!».

نهض هنوتي واقفاً وأخذ يذرع المكان جيئة وذهاباً في صراع داخلي. جلس أخيراً قبالة تانوا وقال مع ضحكة بدت مفتعلة: «أظن أنني قد أكونه!».

ارتسمت على وجه تانوا دهشة عميقة: «ما معنى هذا؟ أتتهم أمي...!».

رفع هنوتي يده نافياً بانزعاج وقال: «لا، لم أقصد هذا. لكنني رغم السنوات الكثيرة ما زلت مندهشاً. وأنت تعرف أنني لا يمكن أن أحلم بآبن لي، أفضل منك. أعطني لحظة لأجمع شتات نفسي. أنا أريد أن أشرح لك كل شيء بأفضل صورة ممكنة. ولكن مبدئياً أيها الشاب العزيز، دعني أعانقك، وأعتذر منك، اصفح عني! آنذاك عندما ظهرت فجأة عندي. لم يكن لدي أي فكرة، أنك يمكن أن تتألم وتتعذب. ويُفضّل أن أقول إن الأقدار المسلطة علينا من قبل الأرباب لا تسمح لنا نحن البشر بتسييرها بأنفسنا!».

بقي تانوا منتظراً. فكللمات هنوتي ما زالت بالنسبة إليه أقرب إلى الإبهام منها إلى الإيضاح.

«قبل نحو خمس وثلاثين سنة مرّت بالبلاد فترة جفاف، شحّ فيها المطر، فأقيم طقس الاستسقاء (كيلقمار) الذي يشتمل على شعائر متعددة، تؤدّى بغية إرضاء الأرباب الغاضبين ولطلب المطر منهم لإخصاب الأرض. فجمعت ذكورٌ مختلف الحيوانات وإناثها معاً، كي تتجامع وتنجب. أما على صعيد البشر فكان النصيب حسب القرعة. ومن جميع الشباب والشابات من طبقة الأشراف الذين أدوا شعائر دخول مرحلة الرجولة، اختارت قرعة الأرباب من سيشارك في الطقس، وكان منهم كالي وأنا. كالي كانت في الثالثة عشرة وقد

جاءتها الدورة الشهرية أول مرة، وكنتُ أكبرُها بسنة وبضعة شهور، ولكن قد لا تصدقني اليوم» وضحك هنوتي مرتبكاً «لم أكن قد خضت أي تجربة مع الفتيات ولم أعرف الحب. وعندما أستعيد المشهد في ذاكرتي أقول أنه بيني وبين كالي لم يحصل أي اتحاد فعلي. ومع ذلك فقد حملت!».

وفيما كان هنوتي مستغرقاً في التفكير بالأمر، تابع تانوا فكرة أخرى، فقال: «إذا كانت القرعة هي الحكم، فلا يجوز أن تتهما باقتراف إثم معاً».

«يا عزيزي، صرتَ عارفاً بقوانين حتوشا أكثر مني الآن. أحدها ينص على أن الحب بين الإخوة محظور وعقوبته الموت».

«واضح أن صياغة هذا القانون لم تراع وجود نصوص سابقة كانت تشجع لقاء الإخوة، كما في حالكما آنذاك. لذلك يجب على الملك أن يبرئكما من الذنب! وكيف عرف بالأمر؟».

«تانوا، أعليّ أن أذكرك بأن الملك هو الكاهن الأعلى؟ إنه مطلع على كل ما في المعبد. لا أدري، متى وكيف اكتشف الأمر، لكنه عارف به! لقد أخبرني بذلك. وبمعنى ما، ابتزني به. مثلاً، منعي من أن أذكر أمامك أن نانيزي قد بُعث في مهمة خاصة إلى كيا في قطنا. أعتقد أن حفاظه على حياتينا وحياتك كان الطعم، الذي ضغط به عليها كي تذهب إلى مصر فعلياً. أن تموت بهذه الطريقة المأساوية! صدقتني تانوا، إنني أشعر بالملك. أنا أعرف، كم كنت تحبها. ما يطلبه الأرباب منا، لخير البلد، غالباً ما يكون قاسياً. حتى الملك والملكة قدما تضحيات. أرجو أن تتغلب على حزنك وتتجاوزته، يا عزيزي!».

ووضع يده بتعاطف على ذراع ابنه، الذي بقي صامتاً.

بعد برهة تابع هنوتي: «ولكن قل لي، كيف توصلت أنت إلى معرفة الأمر؟ وممن؟».

كان تانوا يتوقع هذا السؤال. لم يرد الكذب على هنوتي، وفي الوقت نفسه لم يكن بوسعه ائتمانه على الحقيقة، حفاظاً على أمنه هو، وكيا أيضاً. فأجاب بما رتبته في ذهنه مسبقاً: «إحدى الكاهنات تنصتت من حجرة سرية على حديث نانيزي، عندما نقل لكيا رسالة ملكنا، وأخبرتني بالأمر».

«أنت تعرف إذاً منذ مدة طويلة، وبقيت صامتاً حتى اليوم؟». لكن تانوا لم يحرج جواباً.

فتابع هنوتي: «أتعرف ما هو الأشد غرابة في الأمر كله؟ أنا الذي أحضر كالي لصديقنا إحيا. آنذاك لم تكن كيزواتنا تابعة لمملكنا بعد. كالي كانت مضطربة جداً. أعترف أنني

في ذلك الحين لم أفكر بالأمر كما يجب، ولكن فيما بعد. أثناء استراحة في ترشا أخبرني كالي أنها إن ولدت صبياً فستسميه تانوا. عدت إلى حتوشا وأخبرت أمي التي كانت مطلعة على كل شيء. بيد أنني لا أعرف ما إذا كانت قد أسرت بالأمر لفرد آخر من العائلة. ثم جئت أنت إلى الدنيا. فأرسل إحياء إلينا رسولاً لينبئنا بولادة ابنه تالزو من كالي. جيد، قلت لنفسني، ليكن تالزو. ثم تأتيني أنت ذات يوم، وقد اخترت لنفسك اسم تانوا، للتمويه! أتصوّر كيف اقشعرّ بدني؟ عندئذٍ اعتقدت أن الأرباب يكلموني!».

قبيل أن ينطلق تانوا إلى حتوشا ليسهم بنصيبه في (عيد العجلة)، كان هنوتي قد اتخذ قراره، بأن يطلب مع كالي الغفران من الملك، في إطار عيد الخريف في أدانيا. كان موقناً في نفسه من أن الملك لن يأبى ضراعتهما.

بيد أن كالي، هي من أبي! إذ رفضت بإصرار أن ترافق أخاها إلى الملك. كلّمها هنوتي بكل صبر، محاولاً إقناعها، ومستعرضاً أمامها بتأنٍ جميع الحجج التي تبرّر براءتهما من الإثم، وأن هذا واجبها تجاه تانوا ومستقبله.. بلا أدنى فائدة. وكل ما توصل إليه، عندما هدّدها بالذهاب وحده إلى الملك، هو أنها أخذت تنشج بالبكاء ثم تمرتست في حرم الدار. لكن هذا تحديداً هو ما فعله هنوتي، وليقض الأرباب بما شاؤوا، إن كانا قد أذنبنا.

التمس هنوتي المثل رسمياً أمام الملك، في مسألة تخصّ عائلته. هل حدس شويلوليو ما بالموضوع؟ عندما دخل هنوتي وتانوا إلى القاعة في قصر حاكم أدانيا الحثي، لم يكن هناك سوى: الملك، الملكة الأم (تواناتا) وقد تقدمت في السن، وكاتب. بعد حمد الأرباب واستعطافهم سأل الملك قائلاً المنطقة الجنوبية هنوتي عن مراده. بتلعم في البداية، ثم بانطلاق، كرّر هنوتي أمام الملك وأمه ما حكاه لتانوا في پوروشخاندا. ثم ركع عند قدمي الملك وتابع قائلاً: أنا أرى أننا لم نقترف إنمّا في سلوكنا، لأن قرعة الأرباب هي التي جمعت بيننا. فأقله من أجل ابنتنا تانوا ألتمس من رب الطقس العظيم في حتوشا، ومن ربة الشمس في أريتا، ومن جميع الأرباب، أن يمنحونا الغفران عن طريق كاهنهم الأعلى!.

«ما رأي أختك كالي بالأمر؟ ما سبب غيابها؟». سأله الملك.

بعد لحظات دخلت القاعة بمرافقة حرس الملك الشخصي سيّدة، رثى الجميع

لحالها. كانت أحزان السنين الطويلة بادية على كالي بجلاء، وحتى الحجاب الشفيف على وجهها لم يستطع أن يخفي مدى ألمها. عرض عليها شويلوليوما كرسياً، وسألها عما إذا كانت تعرف موضوع الجلسة. وعندما أجابت موافقة، طالبها بأن تبدي له رأيها في الأمر. ولدهشة الجميع التمسث تواتانا الكلام.

«لقد عانت هذه المرأة ما يكفي»، مشيرة إلى كالي المرتجفة، وأضافت: «أنا سأتكلم باسمها. سمعنا من القائد هنوتي أنه يشك في أبوته لثانوا، لكنه يلتزم بها. وهذا يشرفه. بيد أنني وابني الملك نشاركه ظنه. حتى وإن كنا غير قادرين على تقديم دليل قطعي، إلا إذا وفره لنا الأرباب، فقد توصلنا إلى القناعة بأن أبا ثانوا ليس هنوتي، بل هو شخص آخر!». نظر هنوتي وتانوا إلى الملكة الأم تادوهيا بدهشة. عمّ تتكلم يا ترى؟

«اسمعوا هذا السر الرهيب، ثم أصدوا عليه أبواب قلوبكم إلى الأبد. تهمة زنا المحارم لا تنطبق على كالي وهنوتي، فالتقاؤهما كان نتيجة خطأ مرعب. يجب على الكهنة مراجعة شروط الطقس، كي لا يقع خطأ مماثل في المستقبل. لن يسمح في المستقبل باشتراك إخوة وأخوات في قرعة الشعيرة!». أخذت الملكة الأم نفساً عميقاً، ثم تابعت بصوتها الواضح الصافي: «كان ابني البكر يعيش أخته زيبلانتوي حباً يستحق اللعن، وهي صديقة كالي الحميمة. كان مأخوذاً بهذا العشق، بحيث أنه فقد السيطرة على نفسه، رغم أنها لم تكن له أكثر من المحبة الأخوية، إلى أن كانت تلك الليلة المرعبة. تسأل ولي العهد، حينذاك، إلى غرفة الفتيات. ربما لم يتجاوز الأمر في البداية حدود اللعب من وجهة نظره، وربما تجاوزت معه الفتاتان في البداية أيضاً. لكن اللعب تحول إلى جدٍ مرّ. عندما دخل عليهم شويلوليوما مصادفة، كان تودهااليا لحظتها يضاجع كالي التي حاولت الدفاع عن نفسها، دون جدوى. زيبلانتوي كانت تجلس مرتجفة في إحدى الزوايا. في صباح اليوم التالي شنقت نفسها!».

بدا واضحاً أن الملكة الأم تجد صعوبة في متابعة الكلام.

«بجهد كبير تمكنا من منع كالي من الإقدام على فعل مشابه، فتصبح بذلك هي المذنب. بعد وقت قصير جداً سمعنا أنها ستسافر إلى كيزواتنا لتتزوج هناك، فارتحنا جداً لهذا الحل. وحينذاك لم نكن نعرف شيئاً عن اللقاء التعس بينها وبين هنوتي. كان «عيد العجلة» قد أقيم قبل ذلك بقليل. كما أننا لم ندر بحمل كالي إلا لاحقاً. ولكن كان واضحاً لنا أننا لا يمكن أن نستبعد أبوة تودهااليا. وقد قُدم الدليل عليها اليوم بعدما سمعنا قول

هنوتي. شويلوليوما وأنا اتفقنا آنذاك على التزام الصمت. قدّمنا كثيراً من قرابين الغفران للأرباب آملين الصفح.. بعد أن صار زوجي العزيز بوفاته ربّاً، وبناء على وصيته، اعتلى بكره تودها ليا العرش.. بيد أن السنين والذنوب لم تطهره، ولربما ابتلاه الأرباب بشهوته الخاطئة، منذ الذي يعلم؟!.. وإذا به يمدّ يديه نحو هتي، زوجة أخيه الأصغرا!.

تبيست ملامح وجه شويلوليوما، لكن محيط فمه كان يشي بمدى ألمه.

سكتت الملكة الأم. خطت نحو كالي، التي غطت وجهها بيديها وقد دهمتها الذكرى. ربّت بحنان على رأسها وهممت: «يا لغموض أساليب الأرباب!». ثم التفتت إلى الملك وقالت: «أنت قادر يا بني على منح هؤلاء الثلاثة الغفران، فهم بلا ذنب. حرّره من أعبائهم. أما تاناو فضّمه إلى العائلة المالكة!».



«أنفهمين معنى هذا؟».

بعد عيد الخريف مباشرة انطلق تاناو لزيارة كيا في لوازنتيا، وأخبرها بكل ما جرى. «صرت قادراً على التحرك بحرية، ولم أعد أخشى أن أجز للعقاب، وكذلك الأمر بالنسبة إلى هنوتي وأمي. بالنسبة إليها جاء الغفران متأخراً جداً للأسف. إنها امرأة محطمة الآن، عدّبت نفسها طوال سنوات بحادثتين مرعبتين. إني مدين لإحياً باحترام كبير، لتعايشه مع مأساتها والقبول بها».

أمسك تاناو بيدي كيا وأنهضها عن كرسيها بمجون وقال: «في المستقبل، عندما أعود إلى البيت يمكنك أن تستقبليني قائلة: «أهلاً بالأمير تاناو». سيعاملونني كابن أخ الملك، وقد بتُّ واحداً من الحلقة الصغرى في العائلة الملكية. أليس هذا كله لا يُصدّق؟! ما عدت أفهم الدنيا، لكنني سعيد، كما لم أكن في حياتي كلها!». وأخذ يراقصها ببهجة وحماسة عبر الغرفة، إلى أن سقطا متعبين على مقعد.

«وكيف سنجد حلاً لنا، يا أميري الحبيب؟». سألته كيا بعد فترة «لقد فكّرت في الأمر طويلاً، ولم أتوصّل إلى مخرج. ولكن لا يمكن أن تكون أنت في حتوشا وأنا هنا في الجنوب. سيودي بي هذا إلى الشيب والعجز والموت».

تركها تاناو تتخبّط بقلق، وعقد ما بين حاجبيه كمن يمعن التفكير. لكنه لم يتحمل

الوضع طويلاً، وانفجر ضاحكاً بانطلاقاً ساحباً معه كيا من استغراقها. وبنظرة واحدة إلى وجهه أدركت أن حيلته قد جازت عليها، فانهالت عليه بقبضتها.

«أنت تعرف شيئاً، أيها الغول المهول، ولا تريد أن تخبرني. لديك فكرة حل وتركني أقف إلى جانبك!».

«إني أستسلم! منذ الآن يجب علينا أن يكون سلوكنا في غاية اللياقة، يا حبيتي. لقد نقلت. الملك جعلني نائبه في كيزواتنا. أليست هذه معجزة جديدة؟ منذ أن عين تليينو حاكماً على حلها، بقي المنصب هنا شاغراً، ينتظر قدومي. سأعود إلى وطني، إلى مقر الحكم في أدانيا في أعلى مرتبة. أرجو أن يرضيك هذا!». وقال الجملة الأخيرة مماًزحاً، ما استدعى هجوماً جديداً بقبضتي كيا وهي تقول بأنه سيستمر إلى الأبد في مماًزحتها على هذا النحو، من نصب الفخاخ لها، وأنها تستحق ذلك، ولكن من حقها الدفاع عن نفسها في وجه مثل هذه التطاولات.

«وكيف ستهربني إلى المقر؟ يمكنني أن أنتكر كل يوم بشكل مختلف، كعجوز مثلاً، أتذكر؟».

«في هذا الدور كنتِ رائعة! ولكن بجدّ الآن: هذه المشكلة لم أحلّها بعد. على كل حال ستقيمين أيضاً في أدانيا أو بقربها جداً، هذا مؤكد يا ملماذا. ومن المقرّ سأمرّ إليك دائماً عبر نفق سرّي. لا، لندع المزاح جانباً، سنجد حلاً. ألم أحاول دائماً أن أفي بوعودي؟».

بشاشة تانوا الطارئة لفتت الأنظار. وكان أول من مازحه بشأنها، صديقه مورسيلي وميتا، اللذين طلبهما تانوا لحرسه في أدانيا. فعلق مورسيلي قائلاً: «لو لم أكن أعرف الطنجرة وغطاءها لقلت إن صاحب السمو مغرم!». فوكزه ميتا قائلاً: «يا لك من دابة! ألم تسمع أن الملكة ماتت بحميّ النفاس؟».

«طبعاً، أعرف ذلك. ولكن لربما انتهت بذلك حكايته القديمة، وصار قلبه حرّاً أخيراً. دعني أقل لك ميتا، إن إبهام قدمي اليسرى يرتجف، وهذا يعني: إنه مغرم. أليس في وجهك عينان، يا مغفل؟ هل سبق أن رأيت زعيمنا الرصين المكتئب يمشي على السحاب كالآن؟ صدقني يا عزيزي، الأمر لا يرتبط فقط بالمنصب الجديد وبهواء الوطن العليل وبأطايب كيزواتنا! بل يرتبط أكثر من ذلك بتسريحة شعر جميلة وعينين جميلتين وذراعين ناعمين

وأم م م»، ورسم في الهواء شكلاً يتناسب مع وصفه «وبطن ممتلئ قليلاً مع الوزن المضاد في المؤخرة، وإلى ما هنالك. وبشرفي، إنه يستحقها. حان وقته يا رجل، وإلا فإنه سيسقط بين أيدينا مريضاً».

«قد تكون قريبته أنا من حتوشا»، ختم ميتا.

«أتراها في أي مكان هنا؟ أتكون أنت من حولك جمالها، يا زير النساء العجوز. فلنتظر، وسرعان ما سنعرف اسم هذا الترياق».

لو سمعهم تاناو يتكلمون، لابتسم ابتسامة رضا، لا شك. ولكن بأسرع مما توقع، شغلته وشغلت المملكة هموم ثقيلة.

فنشطات أكيزي التحريضية بعد موت كيا، بقيت خافية عن الحثيين، الذين ما عادوا يولون قطنا أي اهتمام، وهذا إهمال كانت له عواقبه. فلاحقاً أتهم تليينو، في المقام الأول، بهذا الإهمال، لا سيما وأنه يحكم حلباً، أي أنه على أبواب قطنا. وكان من المحتمل ألا تصل أخبار التحركات الخطيرة في الزاوية الجنوبية الشرقية، إلى حتوشا حتى أواسط الشتاء، بل ولمدة أطول من ذلك، لو لم يتكلم سفير آشور أمام الحاكم الحثي في إيشوا، الذي بلغ بسرعة وشخصياً ملكه العظيم في حتوشا. وبأقصى سرعة استدعي نواب الملك والمسؤولون الآخرون من المناطق المعنية إلى حتوشا قبل موسم العواصف الشتائية الخطيرة.



لم يجرؤ تاناو على إرسال ساع إلى لوازنتيا، ليخبر ملماذا برحلته الطارئة. انتظر وصول تليينو إلى أدانيا، ثم انطلقا معاً دون تأخير نحو العاصمة. التأمّت مجموعة صغيرة هناك للتشاور في المستجدات. وقد ارتأت القيادة تضييق حلقة المطلعين على الأمر ما أمكن. إضافة إلى الملك تشكّلت المجموعة من وليّ العهد ونائب الملك في حلباً، وحكام كيزواتنا وإيشوا، وأهمّ القادة العسكريين وسفيري شؤون الجنوب والجنوب الشرقي ومدير إدارة شؤون الدولة.

«كيف استطاع هذا النكرة أن يحرض الساحل السوري كله، إضافة إلى ميتاني وآشور، دون أن نعرف شيئاً، على الإطلاق! المحرج والمزعج هو أن نسمع من الآشوريين،

المنافقين المتعطّشين إلى السلطة، عما يجري على مرأى من أعيننا»، هدر شويلوليوما في وجه ابنة تليينو. ولم يسمح له بالدفاع عن نفسه، فالمهم الآن وبسرعة، هو التوصل إلى احتمالات حلول للصراع القادم، أما استقصاء أسبابه فيمكن أن ينتظر.

«هل نعرف ما الذي دفع الملك أكيزي إلى ترك الخط السياسي الذي انتهجه منذ سنوات طويلة؟». سأل وليّ العهد أرنوئاندا وأضاف: «فقد كان دائماً صاحب موقف صريح ضد سوريا مستقلة، ومتعاطفاً تعاطفاً لافتاً مع مصر، إلى حدّ أنه فرض أخته على الفرعون زوجة، رغم تحالفه معنا آنذاك».

«حسب معلوماتنا، ينطلق أكيزي من كون نوفرتيتي قد أوعزت بقتل أخته، لتأخذ ابنها، وليّ العهد وتزعمه لنفسها»، أجاب نانينزي، خليفة تانوا، السفير للمجنوب.
«حسناً، قد يفسر هذا سبب انصرافه عن مصر. ولكن ماذا عنا نحن؟».

انتظر هنوتي وتانوا جواب الملك. هل سيكشف أنه مذنب في ابتزاز كيا مقابل حياة تانوا؟ وفي الوقت نفسه استرق تانوا نظرات مراقبة نحو نانينزي، الذي لم يفصح وجهه أي شيء.

«لربما أخطأت أنا أيضاً»، قال الملك بصوت خافت يشوبه شيء من الاستسلام. فنظر الجميع مندهشين إلى ملكهم، الذي تابع: «لنقل إنني لم أحصل بأسلوب نظيف على سرّ الأرجوان، الذي شهر قطنا وجعلها ثرية. وقد عرف الملك أكيزي بالأمر، للأسف!».

وفي خضمّ الأصوات المتعالية والمختلطة، تدخل الملك فوراً قائلاً: «اهدؤوا يا أصدقائي. هذا لا يساعدنا في شيء، ويكفيكم علماء به. ولكن لا بدّ أن الملك أكيزي يعرف أيضاً أننا غير قادرين على استخراج اللون والاستفادة منه. لذلك أعتقد أنه قد أصيب أيضاً بالتعطّش للسلطة. كما أنه، حسبنا نعرف، يميل إلى ردود أفعال مبالغ فيها ومتسرّعة. لذلك يجب أخذها على محمل الجد، ولا سيّما في اتحاده مع الحكام الذين لم يخفوا مطلقاً حينهم إلى سلطان سوريا القديمة، الذي لا يعرفونه إلا سماعاً. توشراتا سيتحمّس للأمر، ومريدوه في ميثاني كثيرون جداً. أما من يصعب تقييم موقفه، فهو (آشور أوباليت)، ملك آشور، لأن مطلبه أولاً وآخرأ هو السلطان. إنه جاهز للتحالف مع الجميع، إذا كان في ذلك فائدة له. لذلك يجب أن نحذر منه. وحسبنا أخبرنا نانينزي، فقد تلقى الفرعون قبل مدة قصيرة رسالة من أخيه الآشوري، وإخناتون قبل به في مجموعة الكبار. مثلما فعل سابقاً مع صهره البابلي بورنا بورياش وخليفته (كرا حرداش). حسناً، ربما لم يكن أمامه

مخرج آخر، المسكين! ولكن، أن يعلمنا الأشوري بأفعال أكيزي التحريضية، يعني شيئاً واحداً، وهو تذكيرنا بحصته من كعكة ميتاني، التي لن تكون صغيرة! لو رجع الأمر له لكان نهر بوراتو هو الحدود بيننا مستقبلاً. لا يهمني أبداً أن أعرف مضمون جوابه لأكيزي. فلا شك في أنه قد أكد له مطلق الدعم. وسيحاول أن يبيعنا هذه الحركة على رقعة سياسة المنطقة باعتبارها عبقرية، توهم السوري الأحمق بالأمان.

عندئذٍ بادر إلى الكلام زيدا شقيق الملك: «حسب عرضك للأمر، يا شمسي، يتضح أن هناك الكثير من ممالك المدن وحكامها المرتبطين بالنزاع، بحيث تعجز الوسائل الدبلوماسية عن تحقيق شيء. يجب أن نُغلب المواجهة. وعلينا في المقام الأول أن نثبت سلطتنا في شمالي سوريا، بحيث لا نتعرض كل سنة للخطر مجدداً. هذا يعني تحويل ميتاني بصورة نهائية إلى حلقة موالية في سلسلة البلدان التابعة لنا. وهذا يعني بالنسبة لي: إزالة توشراتا ومريديه. وهذا يسري أيضاً على قطنا، بؤرة الاضطرابات. لا بد من تلقيهم درساً لا ينسى!».

«في تقديري، ما زال الأمر بيد الملك أكيزي ليتراجع عما حاكه خفية»، علق تانوا. نظر إليه نانيزي نظرة استخفاف ثم قال: «وددتُ ألا أعارض وجهة نظر الحاكم تانوا المحترم، بيد أن الأحوال في قطنا قد تغيرت إلى حد كبير. وهل يمكن تصور حاكم يحلم بذروة السلطة، ثم يتراجع عن طموحه معترفاً بأنه قد أخطأ في تقدير الوضع؟».

معظم الحضور وافقوه الرأي.

«يمكن طبعاً، إذا كان حاكماً واعياً بمسؤوليته وبعيد النظر ويفكر برعيته»، قال تانوا في محاولة للتأثير في رأي الحاضرين.

«لا مانع عندي أن تحاول مع أكيزي مرة أخرى»، قال الملك وتساءل: «أليس هذا ما تريد أن تصل إليه تانوا؟ ولكن دعني أقول لك، إنني أنا أيضاً متشكك، فيما إذا كنت ستمكن من التأثير في موقفه. وهذه ستكون آخر مهلة لك وله، ليكن هذا واضحاً. فإن لم يرتدع وبأسرع ما يمكن، مع تقديم براهين واضحة، فسنشدد قواتنا في كيزواتنا في أقرب وقت ممكن من الربيع القادم للقضاء على توشراتا. وخلال ذلك سيقوم تليينو مدعوماً بجزء من قواتنا بتمهيد الطريق أمامنا إلى قطنا.»

عاد تانوا إلى أديانها مباشرة دونما تأخير. رتب هناك جميع الأمور المهمة، بعد أن أعلم أركان حربه بوجود تجهيز كل الضروريات كي تتمكن القوات من التحرك من أديانها في الربيع من دون معوقات. جزء من القوات سيركب البحر من ترشا إلى سومورا لدعم هجوم تليينو على قطنا. كان هناك ما لا بد من التفكير فيه وتدبره، فكلف تانوا بذلك قادة التخطيط العسكري. وبعد أيام قليلة رحل إلى قطنا. منح نفسه مع كيا ليلة واحدة، وناقش الوضع معها، فقد أراد الوصول إلى قطنا في أسرع وقت ممكن.

في الفجر، قبيل الوداع، طلب من كيا أن تعطيه شيئاً يخصها وحدها، دون أي مجال للشك. فأعطته بصمت ختمها الملكي المصري الذي أنقذته أمينية مع أشياء صغيرة أخرى.

«أتجرؤ حقاً على الظهور ثانية أمامي؟ كيف أصف هذا، أهو غباء أم جسارة؟ ماذا تريد؟».

لم يسبق أن استقبل تانوا في قطنا بمثل هذا البرود.
«يا ملكي!». قال «جتتك بصفتي صديقك كي أحذرك. ما تخطط له لا يدل على ذكاء. ثم إنك تراهن على حلفاء مزيفين!».

«وهل سأراهن عليك أنت، أيها الخائن؟ منذ البداية لم يكن يهتك سوى الغنى والنفوذ! وبكل مهارة تسللت إلى عائلتنا وإلى قلوبنا، إلى أن اطمأننا جميعنا إليك. ماذا عرضت على أختي المسكينة، أم يُفضل أن أقول، بماذا أجبرتها، فلم تجد لنفسها مخرجاً سوى أن تفشي لك سر الأرجوان؟ لا تحك لي، فلا أريد أن أعرف. دفعتها دفعا للذهاب إلى مصر، وأنت تعرف مسبقاً بأنك تدفعها إلى حتفها. واحدة من ضحايا نفاقك الكثير. ألم يكن منتظراً أن نوفرتي لن تسمح بصعود زوجة ملكية ثانية! لكنني سأنتقم لكيا! وأنت لن تقف في طريقي. لقد استمعت إلى كلامك أكثر مما ينبغي!».

حاول تانوا أن يفهم شيئاً من كيل التهم الغاضبة، وفي الوقت نفسه تصاعد غضبه.
«لو أنك أصغيت إلي من حين لآخر، لوفرت على نفسك والآخرين الكثير! وها أنت ذا على وشك أن تضيق كل شيء! قل لي، ماذا ستفعل في مواجهة قوات حتوشا المندفعة نحوك؟ هل ستواجهها ببدا الصحراء السورية وأمور؟ ألا تدرك أن نوفرتي قد رمت

العبء عليك؟ لا حاجة لمصر إلى أن تحرّك أصبعاً وماذا تتوقع من توشراتا؟ هل هو الحاكم في واشوكاني؟ لا. ومن آشور أوباليت؟ هذا الذي لا شغل له الآن سوى أن يضحك من وراء ظهره!«.

امتقع وجه أكيزي وقال: «يا لك من كاذب. أنت تختلق هذا كله. فأنت سيد الماكرين. يقولون إن ملكك قد أجزل لك العطاء فأغناك، لخدماتك المتفانية المخلصة في سبيل المملكة وعيتك حاكماً على كيزواتنا. وبما أنك قد اقتربت منا إلى حدّ ملامستنا، فلا أظننا ستتوقّع منك الخير لنا هنا!«.

«أكيزي، أرجوك، أتوسل إليك، فكر بعقل!«.

«بعقل! أهذا هو بلسمك الشافي لكل شيء؟ کیا أرسلناها إلى إخناتون، بعقلانية، وأبرمنا اتفاقية تجارية مع حتّوشا، بعقلانية. لقد شبعنا من عقلانيتك حتى التخمّة. وهي لن تعيد کیا إلى الحياة!«.

قام تانوا بمحاولته الأخيرة. فتناول ختم کیا وأراه للملك قائلاً بصوت خافت: «إنها حية! لكنها في مكان سرّي كي تنجو من انتقام نوفرتيتي!«.

ألقي أكيزي نظرة على الختم، ثم نظر إلى تانوا عابساً مكفهراً وقال: «أنت لا ترتدع عن شيء، أليس كذلك، ولا حتى أمام حرمة الموت. أي إنسان أنت؟ كيف خُدعت بك إلى هذا الحد؟«.

يشس تانوا من كل هذا العناد، فقال: «دعني أقول لك إذاً من أجل صداقتنا القديمة: ما عدتُ قادراً على فعل أي شيء من أجلك. فليرحم الأرباب قطننا. تسلّح جيداً!«.

«وأنا أقول لك: اغرب من وجهي»، فتح أكيزي «الولا الأيام السعيدة الماضية لأمرت بشنقك مثل أي كلب أجرب. وأخبر ملكك بالتالي: لقد تحالفنا معك كأناس أحرار، وها نحن نقض الحلف الآن!«.



بنفس ممرورة توقّف تانوا ثانية في لوازنتيا. أعاد الختم إلى کیا قائلاً: «لم أستطع التأثير فيه بأي طريقة. لا حدود لكرهه لي، ولا أعرف لذلك سبباً. إنه مقتنع بأنني قد أجبرتكم على كشف سرّ أرجوانكم، وبسبب الجشع. تصوري! حتى بعد أن كسرتُ كلمتي وكشفت

له أنك حيّة، شتمني واتهمني بأني لا أتورع عن اللجوء إلى أية حيلة، کیا! إن لم يرتدع أكيزي، ويبدو أنه لن يرتدع، لا سيّما بعد الرسالة التي كلّفني تبليغها لملكنا، أتعرفين ما الذي سيحدث؟».

أومات کیا برأسها وقالت: «لقد فعلت ما بوسعك يا حبيبي. أنت تعرف عناد أكيزي ونقطة ضعفه في الإصغاء إلى ناصحين مرّتين، أو في اتخاذ قرارات خاطئة دون استشارة أحد. وكم سبّب هذا من الكرب لأبي. أثناء غيابك فكّرت فيما إذا كان من المفيد أن أسافر إلى قطنا؟ لن يسع أكيزي نفّي أنني حيّة. ولكن هل أنا سببه الوحيد لاختيار سبيل الحرب؟ ثم إن ظهوري في قطنا سيستدعي تدخل نوفرّتي، فيضيق كل شيء». فقال تانوا: «لا، بناء على الوضع القائم، لا يمكننا كلانا أن نفعل شيئاً. لو أن الملك أكيزي وحده المعني في الصراع! لكنّ قطنا كلها ستصاب معه. مدينتك کیا، بلدك! لا يعقل أن نكون عاجزين عن منع ذلك. لا بدّ من أن نؤمن التفكير ونتوسل إلى الأرباب. لا يجوز أن تقع هذه الحرب!». «نعم» همست کیا «لا يجوز أن تقع. ماذا سيحدث لأمي وإلهي نيكالو والأولاد وشالا والكاهنات والكهنة الآخرين. ولكواري وبقية الإخوة والأقارب والصدّيقات؟ ألا يمكننا على الأقل أن نحدّثهم؟».

هز تانوا رأسه نائفاً. هل قرّر الأرباب دمار قطنا؟ فكّرت کیا بحلمها المرعب، الذي لم يعاودها منذ إقامتها في مصر. وقد أمّلت حينذاك، أن يكون القدر غير مجراه. أما الآن فيبدو الأمر أشدّ تهديداً وخطراً من أي وقت مضى. وقفا هناك متعانقين متشبّنين أحدهما بالآخر ككائنات بشريّين عاجزين ومنكودين.

في غمار التوقعات الكارثية باتت أوقات الفراق أشدّ وطأة على کیا وتانوا. كانا يتعدّبان، ولكن لم تطلع في بال أي منهما فكرة منيرة. وأدانيا كانت المكان المعقول الوحيد لحياة مشتركة. فالمدينة تتيح لکیا إمكانية السكن على نحو متكّم لا يلفت الأنظار. وما فاجأ الجميع هو أنّ من وجد الحل كان إحيًا، وعمل بنفسه على تحقيقه.

كان إحيًا واحداً من قلة قليلة في مملكة حتّوشا، عدا زوجته كالي وتانوا، ممن يعرفون بعلاقة الحب بين تانوا وکیا. فقد كانت له اليد الطولى في نجاح تهريب کیا من السفينة، بالاشتراك طبعاً مع إشبالي الطيب، وفي إقناع مصر بأن کیا قد ماتت في الألبان. وتانوا

من جهته، حمايةً لإحياً وكالي من هجمات الجواسيس، لم يخبر إحيا بمكان إقامة كيا ولا باسمها الجديد. صحيح أن الأشقياء الذين كانوا آنذاك وراء كيا وأميناية قد اختفوا، وكذلك اللذين اعتقلا منهم، ولم يعودوا للظهور مجدداً، لكن هذا ليس ضماناً أمان.

لقد تابع إحيا بدقة تحوّل نفسية تانوا منذ وصول السيدة الشابة. وليس هذا فحسب، بل فكر بعمق بوسيلة لمساعدة الحبيين، وتوصل أخيراً إلى خطة. اشترى في أدانيا داراً جميلة تطل على نهر سامرا، محاطة بسور عال حول حديقة غنية بالأشجار والنباتات، حيث يمكن الاستمتاع بغروب الشمس بعيداً عن الأنظار. فأوعز بتجهيزها وفرشها بكل ما هو ضروري لحياة مريحة. واختار لخدمتها مجموعة من الموثوقات والموثوقين من عائلات خدمت في داره منذ ثلاثة أجيال.

بعد رجوع تانوا من قطننا مباشرة، طلب إحيا لقاء ربيبه، فوجده في مزاج مكتئب جداً، وعلى طاولته أكوام من الرُقم الطينية وأوراق البردي والرقوق. تبادلوا التحيات بحب ظاهر. «مشغول جداً، هم..؟». «علّق إحيا» من المستحسن أن يتوفر لك أيضاً شيء من التغيير المفيد، هم..؟». وضحك ضحكته المجلجلة وهو يرت على كرشه.

إذا كانت الزيارة في حد ذاتها قد حيرت تانوا، فإنه لم يجد تفسيراً لمرح إحيا وانبساطه. إلا أن إحيا لم يطل عليه، فبادر إلى الموضوع قائلاً، إنه خلال آخر رحلاته إلى أوغاريت، وفي دار أحد عملائه في التجارة، من كبار القوم هناك، والاسم لا يغيّر في الأمر شيئاً، لفت نظره بمحض المصادفة وجود فتاة يرثى لحالها. وتبين له بعد تقصي الموضوع، أن الفتاة هي إحدى بنات التاجر، وقد ابتليت قبل سنوات بمرض لعين، لكن برئت منه كلياً، سوى أن وجهها قد تشوّه، بحيث لا يمكن تزويجها. فصارت عبثاً ثقيلاً على أبيها، يجلب النحس ولا يرضي الأرباب، حسبما قيل له. ولم يتقدها من النبذ والطرده سوى توسّلات أمها.

«والآن، أسألك تانوا، ألا يجب مساعدة هذه الإنسانية المسكينة؟ هل تستحق هذه الصبية أن يعاملها أبوها بهذه الصورة؟».

لم يستوعب تانوا في خضمّ انهماكه في زحمة العمل، لماذا يروي له أبوه الربوب هذه الحكايات العادية، لكنه فجأة أدرك القصد، في الختام، عندما أخبره إحيا بأمر الدار الجديدة، فلم تعد تسعه الدنيا من الفرح. ولكن كان لا بدّ من أن يمسك نفسه، كي لا

تفضحه سعادته أمام الخدم والموظفين والحرس بشكل يسترعي الانتباه. وبلهجة موضوعية ما أمكن سأل إحيا: «ماذا تنتظر مني في هذه المسألة؟».

«أعتقد أن من الممكن أن يعرض المرء على أيها شراءها منه، تحريره من عبثها. وبإذتك، سأقوم أنا بكل شيء. فإذا زوّدتني بالتصريحات الضرورية والمذيلة بالأختام، فسأحضرها بسرعة إلى أدانيا، وأشرف هنا على شؤونها. طبعاً لن يمكنها الظهور أمام الناس إلا محجّبة، لكنها ستعيش هنا حياة لائقة كريمة، كحد أدنى!».

«إن طلبك يا سيد إحيا الترشّي يشرفك إلى أبعد الحدود. أتريد حقاً أن تتحمّل عناء السفر الآن؟ جزء كبير من الخريف بات وراءنا!».

«ما دام الطقس جيداً، فإن عظامي لا تؤلمني، لحسن الحظ. كل يوم تأخير من قبلنا، يطيل عذاب المسكينة. لا، لا، إذا وجب، فإني أفضل أن أنهي الأمر فوراً!».

هكذا كان إحيا! لم يسبق لثانوا في حياته أن كان سعيداً، كما الآن، بهمة ونشاط أبيه الريبوب، التي لطالما عذبتة فيما مضى.

قبيل الانقلاب الشتوي كانت مَلَمادا الأوغاريتية المنكودة الحظ قد وجدت في أدانيا مسكناً جديداً جميلاً لائقاً وقريباً جداً من دار راعيها ومنقذها إحيا، التي تقع أيضاً على النهر. وكانت بأعلى صوت شاكرة لقدرها الرحيم. خلال الفترة الأولى كانت كالي إلى جانبها، ما أمكنها ذلك، لتسهّل عليها التأقلم مع الوضع الجديد. وقبل أن يعود الزوجان إحيا وكالي إلى ترشا، دعت مَلَمادا العائلة كلها إلى دارها لتحتفل بتدشين مقامها الجديد بمأدبة. كانت جميع الغرف مزينة بأزهار أواخر الخريف وبأغصان عطرة. ويكل هدوء، في عزلة عن الضيوف مد تانوا وكيا أيديهما واحدهما للآخر، ووعدا كل منهما الآخر أن يمضيا عبر الحياة معاً منذ الآن، «كيفما تجلّت هذه الحياة!». أضافت كيا ضاحكة.

ذاعت حكاية مَلَمادا المشوّهة بسرعة طبعاً في أدانيا، وذاع معها أنها تمتلك يدين شافيتين، وأنها ضالعة في العلم. وتدرجياً ازداد زوار دارها، وخاصة من النساء اللواتي امتدحن مهارتها في التوليد. خصّصت بعض الغرف في القسم الأمامي لعملها. وبعد مدة أخذت تدرّب بعض المساعدات من معبد المدينة وبموافقة كهانه. ولم تحجم قط عن مساعدة البسطاء الذين يطرقون بابها. وهكذا انتشرت سمعتها، وباتت موضع محبة وتقدير واحترام. أما وجهها فلم يره أحد قط.

«هل أنت غاضب مني تالزو؟». سألت عندما أعدت أولى مراهمها، لأن إحدى

خادماؤها كانت بحاجة إليها، وأردفت: «لا يمكنني أن أجلس هنا عاطلة، ولا شغل لي سوى انتظارك».

«على النقيض يا حبيبتى، إنى فخور بك. إلا أنى أتساءل، كيف سيفسر الناس بطنك المنفوخ، والذي من المؤكد أن انتفاخه سيتكرر؟!».

قال تانوا ذلك بكل بساطة. لكن عيني كيا اغرورقتا بالدموع.

«هل تعتقد أن الربة ستمنحنا طفلاً؟ في المرتين السابقتين...». وغار صوت كيا.

«بل أنا متأكد من ذلك!».

كان جيداً أن كيا قد وجدت في الطب ما يسلورها عن هموم قطننا وعن فترات الانتظار الطويلة وحدها، فقد انهمك تانوا في عمله بكل تفانٍ. والتحضيرات للحملة العسكرية استغرقت كل انتباهه. كان لا بدّ من توفير المؤونة لكل هذه الحشود، وتأمين السفن لنقل الجنود من ميناء ترشا، وصناعة الأسلحة.

انقضى الشتاء بسرعة، وما زال تانوا يأمل بمعجزة أن يعود أكيزي إلى رشده. كما أرسل له سراً رسالة يناشده فيها ذلك، رغم ما في هذا الفعل من عدم وفاء تجاه ملكه. وبقيت الرسالة بلا جواب.

وبدلاً من ذلك كانت تصل من تليينو بشكل منتظم تقارير، يتابع تانوا إرسالها إلى حتوشا. وحالما أتاح الربيع إمكانية استخدام الطرق والدروب، امتلأ سهل كيزواتنا بالجنود. بالتحالف مع آشور في الشرق استعدّ الحثيون المسلحون جيداً للهجوم على ميثاني لضرب توشراتا وأتباعه.

بحضور الملك العظيم شويلوليوما، أحضر تمثال الربة شاولشغا من معبد لوازنتيا إلى الحقل، حيث غُسل ومُشح وألبس رداءً خمري اللون، كي تساند الملك في حربه. وأقسم لها الجنود أن يكونوا شجعاناً في النضال من أجل القضية الحثية. وفي حال حتشوا بقسمهم فستبليهم الربة بالمرض والموت انتقاماً لإهانتها. ثم تحرّك الجيش باتجاه الجنوب الشرقي.

في الوقت نفسه أقلعت السفن من ترشا، حاملة جنود المشاة والعربات القتالية إلى سومورا. لقد حسب الخبراء العسكريون بدقة، متى يجب أن ينطلقوا من سومورا ليصلوا في الوقت نفسه مع تليينو، نائب الملك الحثي المتجه بسرعة نحو الجنوب بمشاته وعرباته القتالية، كي يبدأ المعركة ويحقق التأثير الأكبر.

أما تانوا فكان يفكر مكروباً بأكيزي وجميع أصدقائه في قطنا. ترى هل هيؤوا أنفسهم لهذه الضربة؟

لا، لم يكونوا مهيبين. صحيح أن أكيزي قد أرسل رجال استطلاع نحو الشمال، لمراقبة التحركات العسكرية هناك، إلا أنه لم يعرف شيئاً إطلافاً عن الهجوم عليه من جهتين. فالسهل الممتد من قطنا إلى الساحل بقيت حراسته عادية كالسابق.

في قطنا نفسها كانت التحضيرات كافة قد انتهت في وقتها. في السهل عسَّكر عدد لا بأس به من المقاتلين، ولكن دون وجود أية وحدات عسكرية أخرى. أرسل أكيزي ساعاته إلى عزيرا الأموري، وحذَّره من التقدم السريع المخيف للحتيين، وحضَّه على تحريك قواته فوراً. كما أرسل إلى نوحاسة، زنجار، تونيب، نيا، أوغلزات، بازغا وإلى شيوخ البدو في البادية، مذكراً إياهم بموافقته على الإسهام في القتال في إطار الحلف، وأمل بخبر شافٍ من توشراتا من ميتاني، ولم يصله أي رد.

لكن فارساً وحيداً ظهر عند بوابة المدينة الغربية. كان نانيزي، سفير شويلوليوما الحتي.

«أتأتيني بعرض السلام من ملكك؟». قال الملك لنانيزي عندما أدخله الحرس إلى قاعة الاستقبال الصغيرة في القصر.

فاجأ نانيزي، مهملاً سخرية الملك: «لا، بالتأكيد لا. بل يرسل إليك على لساني تحذيراً أخيراً. قوات تليينو لم تصل بعد إلى بوابات مدينتك، لكن أيام قطنا باتت معدودة، إن لم تقدّم أنت الطاعة بأسرع ما يمكن، وتتوسل السلام. وهذه النصيحة قد تسمعها من حلفائك المزعومين».

ماذا يتخيل هذا القزم؟ ينفخ نفسه عبر وظيفته المهمة. وما الذي يعرفه عن حلفائه؟ تصاعد الغضب داخل أكيزي وكاد يفقد زمام السيطرة على نفسه. لكنه لن يكشف نقطة ضعفه أمام رسول.

«انصرف من المدينة!». قال الملك وغادر قاعة الاستقبال.

وانصرف نانيزي، لكنه لم يغادر المدينة.

في اليوم التالي اكفهرت السماء الشمالية من تصاعد غبار الحتيين المتقدمين.

هجمت القوات الحتيّة بقيادة تليبينو من جهة الشمال في الصباح الباكر، بعرباتها القتالية السريعة. ومن ورائها تقدمت وحدات المشاة المؤلفة من: رماة السهام، حملة الرماح، حملة الحراب والسيوف. حسب القطنيون هذا الحساب فاتخذوا التشكيل المناسب في الوقت المناسب، يتقدمهم أكيزي في عربته في الصف الأول. سرعان ما التحم الطرفان وحمي وطيس المعركة. لم يطل الوقت، قبل الظهيرة، عندما أخبر مناد الملك بأن ثمة جيشاً آخر يتقدم من الشرق. أخيراً! تنفس أكيزي الصعداء. يبدو أن عزيزاً قد غير رأيه. صحيح أنه قد تأخر، لكن الأوان لم يفت بعد. إذا أنجدهم قوات أمورو، فيستمكنون من حسم هذا اليوم لصالحهم. ومن ثم سيهتئ المرء نفسه للآتي. فحمّس أكيزي رجاله هاتفاً: «النجدة تقترب!». هذا التوقع شحن الجميع بالشجاعة. غير أن هذه الشجاعة انقلبت إلى ارتياح جلي عندما تبين أن من ينهبون الأرض إليهم ليسوا الأموريين، بل جيش حتيّ ثانٍ، وعلى رأسه القائد لوباكي الشهير بدمويته.

يا لي من مجنون! فكر أكيزي بمرارة. لقد حذرني تالزو وكرّر تحذيره. لماذا لم يفكر بإمكانية قدوم الأعداء من جهة البحر. لا جدوى من الاستمرار. ولكي لا يخسر جميع المقاتلين، لا بدّ من الانسحاب سريعاً وإعادة التجمع. لم تعد ثمة حاجة لإطلاق إشارة الانسحاب، لأن القوات الحتيّة المتحدة لاحقت القطنيين عبر نهر أراتنو (العاصي). ولم يبقَ في ساحة المعركة سوى قلة من المشاة المشتبكين مع العدو. ومن لم يتمكن من النجاة بنفسه سقط قتيلًا. والمعسكر وخيام التموين، كل هذا كان لا بدّ من تركه ليقى لقمة سائغة للحتيين. ولم يعد هناك من مهرب إلا إلى داخل المدينة، إلى التمرس في حماية الأسوار.

«افتحوا البوابة!».

بسرعة امتلأت المدينة الغربية، في المنطقة ما بين القصر ومعبد الربة، بالعربات القتالية المنسحبة. وكثير منها التف حول الأسوار باتجاه الشرق حتى سفح الهضبة، على أمل أن لا يطاردهم العدو بعد. وفعلاً، عند الأسوار الغربية المتينة وبوابة المدينة المنيعّة توقف الحتيون، وعادوا أدراجهم نحو السهل قبل أن يهطل عليهم وابل سهام القطنيين. وقبيل أن تبلغ الشمس قبة السماء كان اليوم الأول من المعركة قد انتهى. وأخذ القطنيون من وراء الأسوار يراقبون الحتيين وهم ينصبون خيام معسكرهم في السهل. أما ما حدث للقتلى والجرحى الكثيرين في أرض المعركة فلم يتبيّه أحد.

أقصى درجات اليقظة باتت الآن ضرورة. أمر أكيزي بتوزيع الحرس على نحو دائم على جهات السور الأربع وعلى الأبراج، لمراقبة تسلل بعض الحتّين، أو للإعلان عن قدوم نجدة غير منتظرة إما من الجنوب أو من الشرق. أما الطرق نحو الشمال والغرب فقد قُطعت.

دهم أكيزي شعور قوي بالاستسلام للأقدار. فمن المستحيل الصمود في وجه هذه القوة العسكرية المحتشدة على الجانب الآخر من نهر أرانتو قبالة البوابة الغربية، على الرغم من الأسلحة الكثيرة وعديد المقاتلين الذين جمعتهم قطنا. ومن دون نجدة من الحلفاء القريبين أو البعيدين، ستضيع قطنا، وسيكون من العبث التضحية بأرواح الناس. كم كان محقاً تالزو، الصديق الصدوق الوحيد! لماذا لم يصغ إليه؟ لماذا لم يصغ لنفسه في المقام الأول ولم يبقَ وفياً لنهجه السياسي القديم؟ هل هو الانتقام لكيا.. ربما. لكن ما أراده بالدرجة الأولى هو أن يرضي غروره. وماذا إذاً، في حال كان تالزو حتى في هذه النقطة محقاً، وكيا لا تزال حية؟ عندئذٍ لن يكون هناك تعبير كافٍ لوصف شدة غبائه. على ما يذكر، قالت إحدى العائدات من الخدمة عند كيا في مصر، إن البحث جارٍ في آخت أتون عن جثمان كيا! أفكار لا طائل منها، ومتأخرة.

أيتوسل هدنة؟ يا للسخرية، ففوة عظمى مثل حتوشا لا تفاوض من أجل هدنة. إذا كان لا بد، فعلى قطنا أن تستسلم، ودون شروط. هذا ما قاله نانيزي بكل جلاء. أيدعو مجلس الشيوخ لاجتماع؟ فالاستسلام يجب أن يقرره معاً. يا للمذلة! بعد نصف يوم من القتال، اكتفت قطنا الثرية تباهاً وأعلنت استسلامها. سيموتون ضحكاً في البلاطات المجاورة. يا لهم من كلابٍ جُربا كلهم تخلّوا عنه. كيف أمل بالاعتماد على حقرء مثل عزيزا؟

ما الذي سيحدث لقطنا إن استمروا في القتال وخسروا؟ هل سيرحم المنتصرون المدينة؟ ماذا سيحدث له هو، إن نجا من المعركة؟ وماذا سيحدث لعائلته. كان معروفاً تماماً، كيف تصرف المنتصرون مع الملوك المعادين العصاة وذويهم. أرحم أنواع العقوبات كانت الشد إلى النير. لا بدّ فوراً من اتخاذ إجراءات الحماية. كانت العشيرة في أثناء المعركة قد لجأت إلى القصر، إضافة إلى من يعيش هناك أساساً، فأوعز الملك باستدعائهم جميعهم: زوجته إهلي نيكالو والأولاد الستة؛ أكبرهم في السادسة عشرة وأصغرهم ما زال يرضع؛ أربعة صبيان وفتاتان. امرأته الجانبيتان مع أولادهما، أقرباء زوجته الرئيسية، إخوة الملك وعائلاتهم، الأعمام والأخوال والعمات والخالات الأحياء

من طرف والديه، أبناء وبنات الأعمام والأخوال، فاحتشد عدد كبير حقاً، فخطبهم قائلاً: «الوضع للأسف جدّي وخطير، لا أريد أن أخفي هذا عنكم ولا يجوز لي ذلك. لا أجرؤ على الأمل بالصمود طويلاً أمام الحثّيين، من دون نجدة. ولكن بإمكاننا أن نحتمي داخل الأسوار ونتركهم ليحاصرونا. ولكن إلى متى؟».

حدّق أكيزي في وجوه الأحياء الحزينة. لم يتصور أن المعركة ضد الحثّيين ستكون بهذه الصورة! رأى نفسه بطلاً لامعاً ومنتصراً، فإذا به يضطرّ للبحث عن ملجأ لأسرته من العار والموت.

«هنا في القصر يوجد مكان آمن، يوفّر لكم الحماية، إذا وصلت الأمور إلى أسوأ حال. إنه مقبرتنا. قلّة فقط هم الذين يعرفون طريقة فتح الباب السري. سنخزّن فيها كثيراً من المواد الغذائية، والماء كذلك إلى الأسفل، بحيث ستمكن بسهولة من تحمّل بعض الأيام. أنا أعتبر إجراءات الحيطة ضرورية جداً. فانتبهوا في المقام الأول إلى لجوء النساء والأطفال إلى مقبرتنا. والآن دعونا نقدّم القرابين لأسلافنا، ونضع مدينتنا بين يدي الربّة بيليت إكآليم والأرباب كافة!».

بعد ذلك اجتمع الملك مع كبار ممثلي المجلس وقادة الجيش ليتشاور معهم في الخطوة القادمة. واتفق على محاولة خوض معركة غداً بالعربات القتالية، حسبما سيكون عليه حال الغد، على أمل وصول القوات الحليفة المعلن عنها. ووجهت النصيحة لسكان المدينة بتجهيز أنفسهم ما أمكن لحالة حصار.

صعد الملك وحده عبر الدّرج السري إلى سطح القصر. وفي الليل المدلهم بسرعة، تلالأت نيران مخيم العدو. ما الذي يضمرونه يا ترى؟ هل سيستظرون صابرين إلى أن يخرج القطنيون من حمى أسوارهم للالتحام في معركة؟

كان الرجال جميعهم في أماكنهم، والمقاتلون مستعدين، مترصين في كل مكان متاح. حتى في القصر الملكي امتلأت القاعات الكبرى الثلاث بالمقاتلين المستلقين مؤقتاً وأيديهم على أسلحتهم، بانتظار انبلاج الصباح.

لم يكن الفجر قد لاح بعد عندما اصطخبت المدينة فجأة، وثمة مشاعل أخذت تتحرك كالأشباح في الليل على مسافة غير بعيدة من البوابة الغربية. امترج الصراخ المروع عند البوابة بصيحات الإنذار من الجهة الداخلية. وكل من كان قرب البوابة أو في محيطها من

الداخل شهر سلاحه وهجم على ضوء بعض المشاعل نحو البوابة للدفاع عنها. وجاءت النجدة من الحي الغربي في المدينة السفلى، فقد سُمع الصياح وشوهدت المشاعل قادمة من هناك. في القصر نهض الرجال مثقلين بالنعاس. لم يكن واضحاً ما الذي جرى أو يجري. وفجأة، من جانبي القصر الغربي والجنوبي، اندفع رجال وراء بعضهم بلا توقف وهم يصيحون.

«الحتيون في المدينة. إنهم في كل مكان، يندفعون داخلين من البوابة الغربية. نانينزي الحتيّ وأزلام تيرو الخائن فتحوا لهم البوابة. دافعوا عن حياتكم!».

حلّت فوضى عارمة، وصرخ البعض: «أشعلوا المزيد من المشاعل!». وصاح آخرون: «يجب أن نوصد أبواب القصر فوراً!».

تراكض الجميع هنا وهناك كالمجانين. حاول قادة المجموعات تنظيم رجالهم، ولكن سدى. تدفق الأعداء ووقعت المعركة، المجزرة، وجهاً لوجه، والعدو مهيمن.

قعقعة السلاح تُسمع من قاعة الاستقبال الكبيرة فقط، فاندفع الرجال من القاعتين الآخرين نحو البوابة الكبرى التي تفصلها عن قاعة العرش وقاعة الاستقبال الصغيرة، لنجدة الرفاق هناك ولإنقاذ أنفسهم. وبسرعة كبيرة أغلقت بوابات القصر الأخرى وأرتجت. ومن تمكّن هرب إلى الخارج، ليكون هناك هدفاً لرمح حتيّ.

أمضت العائلة الملكية ليلتها في مخادعها في الجناح الغربي، حيث توجد أيضاً المطابخ وأقبية المؤونة، أو في الغرف المجاورة لبئر القصر الكبيرة. التقوا جميعهم فزعين في قاعة الاستقبال الصغيرة. وتولّت إهلي نيكالو وحدها الإشراف. وبصوت هادئ أو عزت بتعليماتها ليصطفوا في رتل ثنائي، في المقدمة الأطفال مع مرضعاتهم ثم البقية. كان على كل منهم أن يحمل شيئاً: غطاءً، بساطاً، مأكولات أو قربة ماء. وأخيراً وصل أولئك غير القادرين بعد على المشي. خطت عبر الردهة إلى قاعة المكتب، أشارت لخادمين تقدّما بصمت وأفرغا الرف الكبير. وراءه كان الباب السريّ مركباً في الجدار. وبحركات واثقة شعلت إهلي نيكالو الآلية، فانفتح الباب الثقيل مفسحاً الطريق إلى الأعماق المنقذة. تقدم الرتل حاملاً مشاعل لنشر النور في الممر. قام الخدم بمساعدة الأطفال على نزول الدرجات، وكذلك فعلت إهلي نيكالو، واتمنت بكرها أموت بان على أولادها. كان قد مرّ بطقس الأسرار منذ مدة، وكان يعرف الطريق، فتمكّن من مساعدة الأطفال الخائفين

من عبور الأبواب المختلفة والنزول بهم على السلالم إلى العمق. طفلاً وراء طفل نزلوا أو أنزلوا إلى ردهة المقبرة.

كان الأخيرون في الأعلى قد تجاوزوا الباب، وأحضر الخدم سلالاً، وضعوا فيها كل ما طالت أيديهم في هذه العجالة من مأكولات، فيما قام آخرون بإنزالها إلى القاع. كما اهتموا بنقل ما يكفي من الماء. لكن الطريق إلى بئر القصر كان طويلاً. وأخيراً أعطت إهلي نيكالو الإشارة لإغلاق الباب. عانقت الخدم المخلصين وضغطت على أيديهم بحب ثم اختفت في العتمة. وفيما كانت المجزرة المتبادلة على قدم وساق في قاعات القصر الأخرى وفي المدينة كلها، كان أفراد العائلة الملكية قد لجؤوا إلى حمى أسلافهم، وقد ابتلعتهم الأرض. لا ينقص منهم سوى الملك.

تحرك الباب إلى وضعيته السابقة، فاختفى مدخل المقبرة. أثناء ذلك كان ضجيج المعركة يقترب أكثر فأكثر. بسرعة البرق هرب الخدم والعييد إلى جناح المطابخ. ولمّا لم يعد هناك مهرب إلى خارج القصر، لسقوطه في أيدي الحتّيين، تراجعوا إلى مستودعات المؤونة وإلى حفرة البئر، في انتظار مصائرهم.

وأخيراً عندما انبلج الصباح ثم أشرقت الشمس مرسلّة أشعتها عبر الأفق، بدت المدينة أشبه ما تكون بمعسكر، أما القصر الملكي فمثل قبر عملاقٍ فريد في نوعه. القتلى والمحتضرون في عناق مرعب. من فوق الجثث البائسة كان الجنود الحتّيون ينقلون من القصر كل ما له قيمة. كان القصر قيد النهب والسلب من أعلى طابق إلى الأقبية. لقد اكتشفوا مؤونة المواد الغذائية ومخزن البضائع الملكية ومستودعات المواد الخام، فلم يتروكوا شيئاً. حتى الأقمشة الثمينة على الجدران انتزعت ولُقت ونقلت. وحُطّم ما لا يمكن نقله. أما البشر، ومعظمهم من الخدم والعييد، فقد سيقوا من مخابثهم وحُمّلوا مع النفائس على العربات التي غادرت قطناً. وبالذقة نفسها كما في القصر الملكي، فرّغت دار البلد العزيزة في الحي الشمالي من المدينة السفلى. بعد سقوط المدينة أخذت العربات المتتالية تنقل ثروة قطناً إلى سومورا، وتفرغها في السفن هناك.

حلّ الصمت على المدينة. بين الحين والآخر كانت تُسمع صيحات أوامر. قام جزء من الحتّيين بتمشييط المدينة على نحو منتظم وبيد، بدءاً من الأكواخ البائسة إلى القصور، ولم ينبُج حتى الحي الشمالي التّن المحظور من بشهم. فكانوا يعتقلون الرجال ويسوقونهم إلى البوابة الغربية، حيث يحشدونهم معاً تحت حراسة مشددة. لكنهم لم

يلمسوا النساء والأطفال، وكذلك المعابد وطواقمها من الكهنة والخدم. كان الجنود الحثيون ينفذون الأوامر بكل دقة ونظام. أما سكان المدينة الصامتون فزعاً، فكانوا يتابعون هذه الإجراءات، متوقعين في أية لحظة انفجار العاصفة ثانية وعودة التخريب والتدمير إلى ما كانا عليه. ولكن لا شيء من هذا حدث، إلا في القصر الملكي. حتى حيّ الحرفيين نجا من ذلك.

عندما لم يعد هناك ما يؤخذ بعدُ من القصر، وبعد أن سكنت آخر صرخات المحتضرين، أوعز تليسينو بتوزيع الحطب والأغصان الجافة والفحم وكل ما يحترق في جميع غرف القصر، طابقاً فطابقاً. ثم صُبَّ فوق الأكوام زيت وقطران وشحم وراتينج، وأوقدت. هبَّت الرياح عبر الأبواب والنوافذ، حاملة معها النار بسرعة عبر جميع المخادع والغرف والأركان. وعندما تصاعدت ألسنة النيران وصارت مرئية من بُعد، انكسر جمود البشر وامتزج عويل الرياح مع نذب الناجين اليائسين. لم يترك الحثيون قطناً إلا بعد أن التهمت النيران القصر الملكي، إلى درجة أن كانت الأحجار تتشقق وتتفجر من شدة الحرارة، وإلى أن تساقط قطعة قطعة. دفن القصر تحته ما لا يحصى من الجثث التي شويت في دروعها الجلدية وتشوّهت كلياً. امتلأت السماء بأدخنة متصاعدة، وفاحت المدينة بروائح الموت والتعفن.

لقد تحققت رؤيا كيا.

لم يعد ثمة مجال للتفكير بإطفاء الحريق. وجهد الجميع، نساءً وأطفالاً وعجائز ومرضى وكاهنات وكهّان لمنع انتقال النار إلى ما حولها. وكان بيت الربة هو الأشد تعرضاً للخطر، في موقعه جنوب القصر المتأجج مباشرة. فأني لفحة ريح من الشمال يمكن أن تنقل الشرار إليه. أوعزت شالا بتحضير أقمشة مغرّقة بالماء وتوزيعها على السطح وفي الباحة وعند النوافذ. وفي حال وقوع الحريق كان الجميع يعرفون إلى أين يلتجئون للحماية، وبضمنهم أم كيا، إيست التي أقامت في بيت الربة بعد موت الملكة بلتوم.

في أثناء ذلك أقيمت أمام بوابة المدينة محكمة ميدانية. وعلى سبيل الردع، ومن دون أي رحمة أمر تليسينو بقتل عدد من الأسرى. والأقوى ممّن تبقى منهم أمرهم بالاهتمام بجثث القتلى التي ما زالت في ساحة المعركة. أما جرحى الحثيين فقد نقلهم رفاقهم إلى الخيام، حيث تمت معالجتهم، في حين أن جميع الجرحى القطنيين المرمرين بين الجثث، قد تلقوا طعنات الرحمة.

لم يُعثر على أثر لملك قطنا بين الأموات ولا بين الأحياء. والعائلة الملكية كلها اختفت. إلى أين تمكنت من الهرب؟ كل المنافذ كانت مسدودة. أرسل تليسيو قادة جيشه (نوازرا) و(كورونتا) و(عَسُو) وبعض رجالهم مجدداً إلى المدينة الجبلية بالأدخنة. كما افتتد نانينزي الذي تمكّن ليلاً مع أتباعه المخلصين من السيطرة على البوابة ثم فتحها، ومنذئذ لم يره أحد. إذاً لا بدّ من أن يكون بعد في المدينة.

أمر تليسيو رجاله بالبحث عنه، سواء في الدار التي كان تانوا يشغلها أثناء مهماته الدبلوماسية في قطنا، أو في قصر الشيخ تيرو، الذي ما زال تحت الإقامة الجبرية. فعثروا عليهما في قصر تيرو، حيث واجهوا مشهداً فظيماً قاسياً، اضطّرهم، وهم المحاربون العتاة، أن يلتفتوا عنه وهم يقاومون الشعور بالغثيان.

في غرفة قبو تشبه السجن أقام الشيخ المشحون بالحقد تيرو، مع أخيه في الميول نانينزي، حفلة تعذيب إجرامية. لم يكن بمقدور أحد لاحقاً أن يسمي الرب الذي أسعده هذا القربان. لا، لم يكن قرباناً، بل عملية قتل. كان على أكيزي ملك قطنا أن يكفّر تحت تعذيب مروّع، مربوطاً إلى كرسي واطوى، دون أية إمكانية للنجاة، أن يكفّر عن العار الذي لم ينسه خاله تيرو قط، والذي لحق بالعائلة نتيجة إخفاق أبيه في واجبه كملك، ما جعل مجلس المدينة يسحب منه منصب الملكية. وإعطاء أخته بلتوم زوجة للملك الجديد إيداندا بقي بالنسبة إليها امتحاناً وسخرية. لقد دمروا حياته جزءاً فجزءاً، وفي مقدمتهم صهره وسلالته. وها هو يتقم لنفسه الآن.

جزءاً فجزءاً سحب الحياة من أكيزي، بعون نصيره نانينزي. وحقّد نانينزي على أكيزي لا تفسير له، فهو لم يكن موجهاً ضد الملك تحديداً، بل إنه تعبير عن نفس مريضة مشحونة بالحقد على الجميع الذين أذلّوه باعتباره نكرة ابن نكرة. ألم يهزأ به الملك أكيزي حتى اللحظة الأخيرة ويأسف لأن قواقع الأرجوان، التي حملها معه حتى حتّوشا، لم تفتّسه على الطريق، وأن ثنائة آلاف القواقع الميتة لا توازي ثنائة نانينزي الوحشية، بل إن الأخيرة تفوقها. وضحك الملك وهو يقول ذلك كلّفه حياته. لم يكن تيرو راضياً عن تسرّع نانينزي في إنهاء حياة أكيزي، فقد كان بوّده لو يطول عذابه حتى يسمعه وهو يطلب الرحمة.

بانزعاج شديد ساق نوازرا وكورونتا نانينزي إلى المعسكر الحتمي، بعد أن مرّا بالمعبد وطلبا كاهناً كي يقوم على دفن بقايا الملك ويؤدي على القبر الشعائر الثلاثة الضرورية، كي يطهر المكان من الدنس الذي لحق به. أما عَسُو فبقي لحراسة الشيخ تيرو.

بسرعة الريح انتشر في المدينة خبر القتل المشين للملك أكيزي بيدَي خاله. وبدلاً من انفلات الناس بالندب هيمن عليهم ارتياح قاتل. لا ريب في أن الربة قد تخلّت عن مدينتها! شيئاً فشيئاً تزايد عدد النساء أمام قصر تيرو، صامتات ذاهلات. اقتحم عدد منهن القصر، ثم ارتفع عددهن. دفعن غُسو ورجاله الحثيئين إلى الطريق. وكان هؤلاء في غاية الارتياح لخلاصهم من الرعب الآتي، فتظاهروا بالنجاة من النسوة دون شعور بالخلج، تاركين تيرو وحده مع الحشد.

**

على الرغم من شعور تليبينو بفظاعة ما فعله نانينزي، قرّر استجوابه. أين وكيف قبض على الملك؟ لماذا لم يحضره إلى تليبينو حسبما يملي عليه واجبه؟ غير أن كل ما توصل إليه منه، هو أن ملك قطننا يستحق الميعة التي لاقاها. وأن مملكة حتوشا يجب أن تفخر بخادمها المخلص نانينزي. فهو وحده الذي كسر شوكة المتمرد. وأن على اللابارنا أن يرقبه إلى مصافّ الكبار، ويمنحه إقطاعات ويزوجه.

كان واضحاً أن العفاريت قد ركبتة وصار مجنوناً. ومع ذلك وبخذر استفسر منه تليبينو عن العائلة الملكية، وارتاح لسماعه أن نانينزي لا يعرف عنها شيئاً، لكنها كانت بالتأكيد في القصر، فلقد رأى الملكة البدينة ومعها الفتى وليّ العهد. فليتركوه يعود إلى المدينة كي لا تفلت العائلة الملكية من عقابها العادل. أو عز تليبينو بتقييد نانينزي، ثم وُضع في عربة ذات قضبان تحت حراسة مشددة.

سُئل أسرى الحرب عن المكان المحتمل لوجود العائلة المالكة، ولكن بلا جدوى. كان الجميع يظن أنها على الأرجح في القصر. إلا أنها لم تكن هناك، وهذا يعرفه تليبينو، فقد فُتشت جميع الأمكنة فيه. حتى أن الجنود قد صعّدوا إلى السطح من مخدع الملك في جناحه الخاص. لم تبق زاوية في القصر خافية عليهم.

أخيراً أرسل تليبينو مجموعة مرافقة إلى المدينة ملتمساً حضور كبيرة الكاهنات إليه. فإن لم تكن العائلة المالكة في القصر، ولا في أحد قصور الأعيان أو في أحقر كوخ في المدينة، فلم يتبق سوى المعابد، التي تصرفوا حبالها باحترام، فلم تفتش بناءً على تعليمات شويبوليوما. لقد أمر بتسوية القصر الملكي بالأرض، وأن تصادر نفائس المدينة كافة، تعويضاً عن كلفة الحملة العسكرية. وأن توَهّن المدينة وتُضعّف بحيث لا تستطيع استعادة

مجدها القديم أبداً. وفيما عدا ذلك فلتستمر الحياة في المدينة، لتعيش مستقبلاً بسلام في نطاق حلف المملكة. ولهذا وجب على تليينو أن يؤكد على الطاعة والانضباط في نطاق جنوده وضباطه، بحيث لا تقع عمليات نهب خاصة ولا اغتصابات ولا تدنيس للمقدسات. ولا بدّ في المقام الأول من الحفاظ على الأرباب، إذ إن تماثيلهم ستحتل مكاناً محترماً في حتوشا. وسيحتفل بأعيادهم بانتظام وتؤدي شعائر عبادتهم مع سائر الأرباب، ولن ينقصهم شيء. لكن هذا الاحترام والتوقير الذي تقابل به حتوشا أرباب قطنا يتطلب ما يقابله.

استقبل تليينو الكاهنة الكبرى شالا في خيمته. دخلت عليه شخصية وقورة مُهابة ذات شعر أشيب. ورغم عمرها المتقدم وقفت مستقيمة الظهر قبالة -هو المتصمر- بهدوء، ونظرت إليه بعينين ذكيتين ورازته من دون خجل، إلى أن ابتعد تليينو بنظره عنها. وبعد تبادل عبارات المجاملة طرق الموضوع مباشرة. إنه لا ينبغي أبداً تعكير سلام المعابد، ولكن لا بدّ من وجود العائلة الملكية في مكان ما. أم أن الكاهنة الكبرى تتصور إمكانية هروب هذا العدد الكبير من الأشخاص؟ وإذا كان جوابها بنعم، فمتى هربوا وكيف وإلى أين؟

أنصتت شالا إلى تليينو ثم قالت بصوت ثابت: «أقسم بكل مقدساتي أن المعبد لا يؤوي من العشيرة الملكية أحداً، سوى الزوجة الثانية لملكنا السابق، إلا إذا كان هذا الشخص، ذكراً أم أنثى، أحد أفراد المعبد في بيوت الأرباب في المدينة». وتابعت قائلة إن التفسير الوحيد في تصورها هو احتمال وجود العائلة بكاملها بين الجثث التي لا يحصى عددها في القصر الملكي. «لقد أفنيت العائلة الملكية، مثلما تنبأت به الربة قبل وقت طويل».

تولّد لدى تليينو الانطباع بأنها ترتعد تأثراً بتحقق النبوءة الإلهية. صدّقها وتركها تذهب. وودّعها بكل آيات الاحترام.

انسحب الجيش الحثّي بعد تسوية جميع المسائل، ومنها أن يختار القطنيون ملكاً جديداً من صفوفهم. وسُمح لغالبية أسرى الحرب بالبقاء في قطنا للمساهمة في أشغال رفع الأنقاض، وجمع ما تبقى من الحصاد، والاستمرار في أعمالهم المعتادة.

لمدة من الزمن شكلت حملة معاقبة قطنا خاتمةً لأعمال التمرد في منطقة الساحل

السوري. فقد ارتدع جميع الحكام السوريين، كما تم توطيد السلام في ميثاني. وقبيل عيد الخريف انتهت المفاوضات بين حتوشا ومصر إلى إرضاء الطرفين، ومجدداً رُسمت الحدود في سوريا بين القوتين العظميين.

«هل كنت على علم بالأمر؟». سألت كيا تالزو، عندما أخبرها، بما أمكن من رفق، القصة المؤسية التي نقلها إليه أحد مراسلي تليينو في مقر الحاكم. بداية، فرحت بسماعها أن شالا والكاهنات وأمها قد نجون من المعركة في بيت الربة، وأن الدمار والهلاك لم يصب سوى القصر الملكي.

«ماذا تقصدين بالتحديد؟».

«أن تفاصيل تنفيذ الحرب سيعتمد على خيانة. هذا ما أقصده. أم تُراك تسمي الهجوم ليلاً وفتح البوابة عن طريق الخيانة وذبح من يقف في وجهك، حرباً شريفة؟ لم أكن أدري أن حتوشا العظيمة بحاجة إلى اتباع هذا الأسلوب لضّم مدن مهزومة أساساً. هذا عمل آثم، أقول لك».

نكّس تانوا رأسه. ماذا بوسعه أن يجيب على ذلك؟ أن الحصار لا معنى له لجميع الأطراف؟ أنه كان لا بدّ من ضرب مثال رادع للآخرين؟ أن الهدف كان ضرب المسبب الرئيسي ومعاملة الآخرين برفق ما أمكن؟ على الأقل كان بمقدوره أن يؤكد لها بصدق، أنه لم يشارك في التخطيط للهجوم الليلي، وأنه لم يعرف شيئاً من أعمال نانينزي الشنيعة والمريضة، ولا عن انتقام تيرو المروّع. لقد أبعده عن معركة قطنا كلياً. وهذا بالتأكيد بفضل هنوتي، إن لم يكن بفضل الملك نفسه. وتذكّر، برعب، الحملة الأولى ضد قطنا.

سرح كل منهما مع أفكاره. وحتى استوعبت كيا الحدث في أبعاده الكاملة، استغرق الأمر وقتاً غير قصير. ومن شدة الألم غطّت رأسها. هكذا إذاً تحققت رؤياها التي رافقتها منذ أيام الطفولة.

ترى هل كان ممكناً تفاديها، لو تصرّف الملك على نحو مختلف، أم أن الأرباب قد كتبوا في كتاب القدر بشكل لا محيد عنه، ما كان يجب أن يحدث؟ كم مرة عاودت التفكير في الأمر. للحظات شاهدت الصور المرعبة، وتراءى لها أنها تتنفس رائحة الجثث المتفحمة ببطء، وتحسّ بحرارة النار، وتسمع آخر صرخات الألم. ولكن ليس بالأحمر

الدموي كالباقى، بل بالرمادي والأسود عادت هذه الصور لتطفو في ذاكرتها. فكانت ترتعد هلعاً بين الآونة والأخرى، لكنها لم تستطع أن تبكي.

«ولا أحد يعرف شيئاً عن العائلة الملكية؟». عاودت تكرار السؤال. فهز تانوا رأسه وقال: «كان تليينو يشكّ في أنها قد اختبأت في المعابد، لكن الكاهنة الكبرى أقسمت أنهم فقدوا حياتهم في القصر المحترق. أنظنين أنها قد أقسمت كذباً؟».

تذكرت كيا حكم الرب، الذي نجا أكيزي من اختباره بسلام، والتكتم على معلومات مرتبطة بمقتل الملك إيداندا. إن كان في ذلك مصلحة قطننا، فشالا كانت تذهب بعيداً. لقد أدركت كيا ذلك منذ زمن بعيد. كان يُفترض عندها أن لا خيار آخر أمامها. ولكن في هذه الحال؟ إخفاؤها هي عن العالم، وهي شخص واحد لا غير، كان أمراً عسيراً، فكيف ستنجح العملية بوجود أطفال وعجائز وعشيرة بأكملها؟

«لا»، قالت كيا «أعتقد أنها قالت الحقيقة».

اكتفى تانوا بجوابها، وبقلب مثقل ترك كيا وحدها بضع ساعات ليقوم بمهام عمله. انسحبت كيا إلى محرابها المنزلي وأخذت ترتل الصلوات لأرواح الموتى والناجين. ثم استلقت وحاولت أن تنام، لكن الأفكار لم تتركها لتهدأ. لم يسبق لها في رؤياها قط أن رأت العائلة المالكة، بل كانت ترى جثثاً بلا أسماء. كان بوسعها أن تفهم عقاب الأرباب لأكيزي، رغم مرور سنوات طوال، بل كانت تأمل أحياناً، فيما مضى، أن يرسل الأرباب إشارة، ليبتنوا عبرها أن البشر لا يمكن أن يخدعوهم، لكن هذا الموت المريع!! أحسّت بإشفاق لا محدود على أخيها. ولكن لماذا ابتلى الأرباب زوجته وأطفاله وإخوته وكل أقربائه بهذا المصير القاسي؟ أليس معقولاً أن يكونوا قد هربوا قبل الهجوم؟ حسب تقرير تالزو، كان الأمر مستحيلاً. اتفقت أقوال كل من سُئلوا على أن العائلة المالكة قد تنادت إلى القصر واجتمعت هناك. هذا مفهوم، لأن المكان يوفر لهم الحماية المنشودة.

ثم بدأ القتل في القصر ليلاً. ولكن ألم يكن بوسع ضابط حتيّ، أن يتعرّف على بعض أفراد أسرة الملك، من ثيابهم وحدها، ثم يأخذهم رهائن إلى رئيسه تليينو؟ هل أفلت زمام الأمور تماماً في خضمّ القتل الليلي، بحيث طعن كل من يتحرك، أكان طفلاً أم رضيعاً أم عجوزاً؟ لماذا غادر الجميع غرفهم، حيث كانوا سيقون بأمان لفترة أطول؟ هل ليهربوا إلى خارج القصر؟ لكن هذا الطريق كان مسدوداً في وجوههم. وفجأة أدرك كيا اليقين المفزع، لقد عرفت إلى أين لجأت العائلة: إلى أسلافها.

جمدت كيا في مكانها، وأخذت تقاوم نفسها، كي لا تصرخ كالمجنونة. إنها الناجية الأخيرة من سلالة إيداندا القطني.



لم يسبق قط أن احتفل بعيد الخريف في حتوشا بمثل انشراح هذه السنة. فالمحصول كان جيداً، والكشكيون في المناطق الشمالية وفي أرض أرزاوا في الغرب كانوا مسالمين. والملكة مالنغال كانت تتوقع طفلهما الثالث، الذي لا شك في أنه سيكون أيضاً بتاً. لحسن الحظ أنها ستكون مشغولة تماماً بتربية ثلاث بنات، فلن تتمكن من التدخل في كل شيء بتعليقاتها الجارحة. كما مر الشتاء بهدوء، على غير العادة، دون قسوة السنوات الماضية. وعندما بلغ الخريف نهايته تأكدت كيا من أنها حامل، فلم تسعها الدنيا من السعادة. وفي غمرة فرحها رفعت إلى الربة صلوات ابتهاج، كي تترك لها طفل الحب هذا. وكم كان بودها أن تذهب فوراً إلى تانوا لتبشره بالنبأ السعيد الرائع. لكن هذا كان محظوراً عليها كالسابق. لقد عاشا جبهما في السر، وكانت دائماً رهينة انتظار عودة تانوا إليها.

«يحتفل قبل تعادل الليل والنهار في الشتاء القادم أن نكون ثلاثة»، همست لتانوا عندما جاءها مساء، وأضافت: «إني متشوقة لمعرفة أي نوع من الآباء ستكون ا». كم كانت تحب مآزحته.

«رائعاً وفريداً في نوعه طبعاً».

«على كل حال، لن تتمكن من إفساد طفلك دلالاً، لطول وجودك في البيت، ما دمت مشغولاً دائماً إلى هذا الحد».

كان تانوا يُقدّر في كيا هذا الأسلوب الراقى. إنها لا تشكو، بل تنبّه بلطف إلى أسفها الشديد لعدم تمكنهما حتى الآن من أن يعيشا حياة عائلية كزوجين. ويبدو أن هذه الأمنية ما زالت بعيدة المنال. في أثناء المفاوضات مع مصر بصدد رسم الحدود، كان واضحاً أن نوفرتيتي تنطلق من واقعة موت كيا في الأشياء، لذلك سيكون من العسير جداً إحيائها فجأة. إلى متى سيقون مجبرين على الاختباء؟

أسر تانوا لصديقيه مورسيلي وميتا بأنه مغرم بملمادا. كان لا بدّ من ذلك، فهما في نهاية المطاف حارساه الشخصيان. وكان يتصور شفقتهم عليه، لكونه، بعد كيا ذات الجمال الأسطوري، قد اختار بشعة أدانيا المشوهة إلى درجة ألا يجوز لأحد أن يرى

وجهاها. وكان يتشوق إلى ذلك اليوم، الذي سينجح فيه أخيراً من إسكات لسان مورسيلي اللاسع كالسوط.

وتدريجياً أخذ يتنامى شعوره بصعوبة إخفاء سعادته عن أحبائه وأعرائه، وأن يتسلل كلما سنع له الوقت إلى دار كيا وكأنها عشيقه مرية.. وإن سارت كل الأمور على ما يرام، فإنه سيضطر إلى إنكار علاقته بحبيته كيا، بل وبطفلها المشترك أيضاً.. ولكن ماذا تساوي «كل الأمور» مقابل حياة هذين الإنسانين! سلامتهما تأتي في المقام الأول. وعليهما أن يشكرا للأرباب منة حياتهما المشتركة. ما أسرع ما نسيا هذا! ما أسرع ما يصاب الإنسان بالنهم فيطالب الأرباب بالمزيد والمزيد! عليهما حتماً ألا يبالغا في الطلب. فما أسرع ما تتلاشى السعادة في الهواء!

لكن تانوا لم يقدّر فضول الناس من حوله حقّ قدره. فبمرور الوقت في مكان مثل أدانيا يستحيل أن يبقى الأمر مخفياً، فما إن انتبه الناس مرةً، حتى أخذوا يراقبون ويتناقلون الكلام، لا سيما أن قدر المسكينة ملماً كان يحرك الأفتدة. لكنها الآن حامل.

ذات يوم دخل هنوتي على تانوا في مقر عمله، ففرح تانوا جداً برؤيته. وبدلاً من الاستقبال الرسمي المؤلف قال له وهو يعانقه إنه قد افتقده جداً.

«أألس مشغولاً؟». وجفل تانوا من نفسه قليلاً، فأضاف بسرعة: «أهناك خطب ما؟ كيف العائلة؟ كيف شوميري؟».

فطمأنه هنوتي قائلاً: «السيدة العجوز في أحسن حال. لا، في حتوشا كل شيء على ما يرام، إلا..»، ورسم على وجهه تعبيراً يحتمل الكثير من المعاني، «أنت تعرف».

نعم، إنه يعرف: الملكة. فبقدر ما هي جميلة، هي صعبة المراس، وتورّط الملك دائماً في مواقف محرّجة. لكنه يحتملها باسترخاء ملوكي. هل كانت أفكاره تسرح نحو هنتي أحياناً ياترى؟

«عفواً، هل تصغي إلي؟». انتزع هنوتي تانوا من شروده: «كنت أقول إن الأمور في حتوشا، كلها على ما يرام، ولكن هنا على ما يبدو، لا».

«أليس الملك راضياً عن عملي؟».

«بل أكثر، إذ لا يمرّ يوم دون أن يزعم مساعديه بالتشويه بنموذجيتك».

«أنت تبالغ!».

«لنقل قليلاً فحسب. لا، الملك والجميع في حتوشا راضون عن عملك جداً. أنت تتقن عملك. وخبرة السنوات الطويلة تثمر الآن. من كان ذاك الذي أدخلك آنذاك لأول مرة إلى مكتب الملك؟ دعني أتذكرك!».

«حسناً، خالي، أنا أعرف أفضلك علي!».

«ولا تنادني، خالي!»، قالوا معاً وضحكوا.

«إذاً، ما سبب مجيئك؟».

جلسا يشربان عصير رمان بارداً. وأوعز تانوا بألا يزعجهما أحد. وكعادته دخل هنوتي في الموضوع مباشرة.

«وصل إلى سمع الملك أنك قد ارتبطت بامرأة لا تليق بمكانتك». ونظر إلى تانوا بتوقع. لكن هذا صمت، فعلى هنوتي أن يكشف أولاً ما تظن حتوشا أنها تعرف.

«الملك استفسر مني طبعاً حول الأمر»، تابع هنوتي فوراً: «لكنني لم أكن أعرف شيئاً، غير أنني أضفت بأن هذا لا يعقل، لأنك تعرف حق المعرفة أن زواجاً غير متكافئ لا يتماشى مع منصب رفيع. ليس فقط لمعرفةك بداهة، أنك كممثل للملك، يجب أن تكون نموذجياً في سلوكك، وإنما أيضاً لأن الأمر لا يتلاءم مع شخصيتك. لا تُسيء فهمي، تانوا، فالأمر ليس كالسابق عندما كنت بين الحين والآخر تبحث عن متعة عابرة مع مورسيلي وميتا». وغمزه هنوتي وهو يرتب على كفه. «لكن ما تتناقله الألسن في حتوشا يشير إلى رباط ثابت، بل ثابت جداً، وسيُمهَر بخلفة أيضاً. فماذا تقول؟ أهو كلام فارغ؟ شائعات؟ حقيقة؟».

«كل ما قلته حتى الآن، تقريباً صحيح».

«تانوا المسألة في غاية الجدل. لقد أجريت استقصاءات. صلاتنا مع نيقمدو الأوغاريتي ممتازة، كما تعرف. في أوغاريت لا أحد يعرف أميرة اسمها ملَمادا. لكن هناك قرية جنوب شرقي أوغاريت اسمها ملَمادا. ولم يعثروا على ما يثبت وجود عائلة من الأشراف طردت إحدى بناتها بسبب تشوّه وجهها».

هذا فعلاً عمل متقن ومؤثر، فكر تانوا، ثم قال: «أرى أسفل التقرير ختم ميتانموا. تحقيق نظيف، خطوة فخطوة، وبكل سرية».

«هذا ليس جواباً، وبالأحرى ليس تفسيراً».

«هنوتي! أنا شاكر لك قدومك من كل قلبي، فلربما يكون الحل المنقذ عندك! سنكون

أنا ولملماذا في غاية الارتياح، عندما تنتهي من لعبة الاختباء غير اللائقة هذه. تقريباً، كما قلت لك، كل ما ذكرته صحيح. صحيح أنها ليست من أوغاريت. أما تهمة أن السيدة ليست ذات حسب ونسب فهي غير مبررة بالتأكيد. بالعكس. يحتمل أن أكون أنا غير لائق بها تماماً. حتى وإن تحسّن وضعي كثيراً مقارنة بمرحلة يفاعتي». قال الجملة الأخيرة مبتسماً.

«هل ستريحني أخيراً، أكاد أجنأ». نفذ صبر هنوتي: «ما هذه الحكاية المجنونة؟ بالأحرى: من هي هذه التي امتلكت قلبك؟ بالنسبة لك لم يكن هناك في العالم الواسع كله سوى واحدة، وعلى نحو غير مفهوم».

اقترب تانوا من هنوتي وهمس في أذنه: «وما زال الأمر على حاله!».

نظر هنوتي إلى ابن أخته، كمن ينظر إلى مختل عقلياً. ثم أخذ يحلّل ما سمع: «أتريد أن تخبرني أن ثياب ملّماذا تخفي تحتها..».

في اللحظة المناسبة منع تانوا هنوتي من لفظ الاسم، قائلاً: «ها تعال. لنتمشّ قليلاً».

لاحقاً، حكى هنوتي أن تانوا أصرّ على صعود الطريق الجبلي مشياً ثانية. وأنه أثناء كلام تانوا بقي غالباً صامتاً، لكنه كان يهز رأسه باستمرار مستغرباً أو يهمهم بتعليقات من قبيل: «لا بدّ أن الحب جميل!». أو «هذا الشيطان، من أين له ذلك؟!». أو «يا للعجب، يبدو أن العجوز إحيا ينفع في شيء ما!». لكن عقله لم يسعفه بحلّ للمشكلة.

«لا يمكن للإنسان أن يأمن جانب نوفرّتي»، قال بعد عشاء لذيذ، تعرّف خلاله عن قرب على كيا/ ملّماذا، وأضاف: «أنا من موقعها، أفهم حذرهما. باعتبارها ملكة مصر، فهي تتمتع بسلطة واسعة، لكنها معرّضة دائماً للدسائس. وهي تحمل مسؤولية كبيرة. أعتقد أن إختانتون لم يستردّ وعيه بعد، بل هو أسير نفسه وتصوراته. إنه رجل يستحق الرثاء». وتابع مخاطباً كيا: «أما أن لا تحملي في قلبك أيّ حقّد، كيا، بعد كل ما عانيته هناك، فهذا يدهشني ويشير إعجابي بك». رفع هنوتي نخبها وأضاف: «لكن التفهّم أمرٌ والحيطة أمر آخر تماماً. لا بدّ من أن تبقى على حذر. أنا أعتقد أن حتّوشا قادرة جداً على حمايتك، كيا. لكن جميع الأسلحة مثلمة أمام خداع البشر. تانوا محقّ تماماً في تصرّفه، بإخفائك عن العيون ما أمكن. وهذا العبء سيشارككم فيه بعض الآخرين الآن! في حتّوشا لن يسمع تقريرى سوى الخُلص من المؤتمنين، الذين هم أيضاً سيتحرّقون شوقاً للتعرّف شخصياً على ملّماذا العجيبة. وعليك تحمّل ذلك يا جميلتي!».

بعد مرور سنتين على الموت المأسوي لعائلة قطنا الملكية، مات إخناتون ممروراً ومعزولاً، حتى أن آتون قد تخلّى عنه. وبعد دفنه في المقبرة الملكية في آخت آتون، كمن الأمل، لا في مصر وحدها، بل حتى في أدانيا، بتغيّر ما نحو الأفضل. ثم أعلن اسم الفرعون الجديد: كانت نوفرثيتي هي من خلف إخناتون على عرش مصر باسم (سمنخ كاريه).. قبل الأمر على مضمض.

غير أن نوفرثيتي / سمنخ كاريه ارتكبت غلطة، بإعلانها أن ابنتها البكر مريت آتون، التي رفعها إخناتون إلى رتبة زوجة ملكية، ستكون وريثة العرش، طامحة إلى استمرار السلالة. لكنها أبخست قدر المقاومة المريرة المشدّدة لكهنة آمون في طيبة. كما أن كثيراً من الأعيان والأشراف، ولا سيّما من الشعب، تخلّوا عنها. وبعد أقل من سنة قُتلت المرأتان.

عندما انتشر هذا الخبر بالبريد المستعجل، من كوش جنوباً حتى حتوشا شمالاً وإلى الشرق والغرب، أقيم في أدانيا أعظم «عيد للفرحة»، لم تر المدينة مثيلاً له. أخيراً، أخيراً صار ممكناً الكشف عن هوية كيا الحقيقية. وهذا الخبر: حقيقة أن لممادا كانت تخفي وراء حجابها كيا القطنية، ملكة مصر الحبيبة، وطريقة إنقاذها العجيبة، أرسل بالبريد إلى جميع أركان الأرض، ولكن إلى أركان مختارة منها. وأحدها كان قطنا، حيث استقبله كل من إيست وشالا وآخرين كثر بذهول، ثم بفرح.

أما كيا وتانوا فقد استدعيا إلى حتوشا على وجه السرعة، حيث دخلت كيا القصر الملكي الكبير واستقبلت في احتفال رسمي عظيم. عند الوداع انفرد شويلوليوما بتانوا لحديث قصير معه. ثم انصرفا معاً بتكريم.

«ما الجديد المهم؟». سألتها كيا على الطريق بأسلوب بدا عابراً ما أمكن، رغم أنها كانت تكبح فضولها بصعوبة. فقد لاحظت بوضوح أن الملك أثناء الحديث قد أوماً نحوها بلفتة سريعة.

«يرى الملك أن علينا بأقصى سرعة ترتيب أمور زواجنا!». جاءها الجواب المقتضب. وعندما لاحظ تانوا قسماً وجهها المتسائلة، ضحك قائلاً: «كيا، حبيبتي، اسمحي لي بتذكيرك بأننا لم نعقد رباط زواج بيننا علناً بعداً وفي مكانتنا هذا لا يجوز. سنجد اللحظة المناسبة لذلك. أما الآن فسأستغلّ طريق العودة وأبذل جهدي في خطب ودك وقبولك. ما رأيك؟».

خلال الرحلة البهيجة تمكّن تانوا من أن يري كيا كثيراً من المحطات التي لعبت دوراً في حياته. ولكن، عندما وصلوا إلى أدانيا فوجئوا بخبر محزن. فبعد سنوات حكم مديدة توفي ملك كيزواتنا المحبوب طاعناً في السن ومن دون وريث للعرش. بعد ضمّ بلده إلى رابطة مملكة حتوشا، أدار الملك شؤون بلده بما ينسجم مع سياسة حتوشا، وتابع أداء مهامه الكهنوتية بالاتفاق معها على نحو نموذجي. وقد عمّ البلد حزنٌ عميقٌ لوفاته.

عقب انتهاء الحداد الرسمي اجتمع مجلس كيزواتنا لاختيار ملك جديد. وما أثار الدهشة هو إجماع أعضائه بسرعة على اختيار تانوا لهذا المنصب، فهو الابن الريب لإحيا الترشّي، الذي حسبما ارتأوا، سيمثل مصالح كيزواتنا على أفضل وجه، رغم منصبه الرسمي كحاكم ملكي ممثلاً لرابطة مملكة حتوشا.

مساءً ومباشرة أخبر تانوا كيا بالنبا الجديد: لقد اجتمع المجلس وأجمع على نحو حاسم على اسم رجل جيد، ولكنه ليس من أعيان أدانيا. ولم يضيف إلى ذلك شيئاً. أحسّت كيا أن تانوا راض عن الاختيار، فلم تستزد في السؤال. ولكن في صباح اليوم التالي وصل ساعٍ وسلّم كيا دعوة الملك الجديد، ورجاها باسمه أن تتبعه إلى القصر. ذهلت كيا.

«لا يمكنك يا حبيبي أن ترفضي مثل هذا العرض!». قال تانوا.

كانت كيا مرتبكة إلى درجة أنها لم تستوعب هذه الملاحظة المنكرة.

«على أية حال، علينا أن نرور الملك الجديد لتتعرّف عليه ونُبارك له»، قال تانوا حاسماً الموقف.

في القصر، رجاها مسؤول المراسم الانتظار لحظة.

«سأعود فوراً!». قال تانوا. لكن بوّابة قاعة الاستقبال فُتحت قبل أن يعود. تلقّت كيا حولها بقلق. لا أثر لتانوا. لم يكن بوسعها ترك الملك ينتظر أكثر، بعد أن طلب منها رجل المراسم للمرة الثانية أن تتبعه. اضطرت أخيراً أن تدخل وحدها. وكادت لا تصدق عينيها: «أنت؟!».

برداء الملك وزيته الرسمية وقف أمامها تانوا، الذي سيتوجّج ملكاً على كيزواتنا باسم تالزو.

«نبوءة الربة!». خرّت كيا على ركبتيها بخشوع، قائلة: «وهذه تحققت أيضاً!».

ساعدها تانوا/ تالزو على النهوض. أمسك بيديها ونظر إليها بحب عميق، وقال: «كيا أميرة قطنا، أتعلمين أن تكوني ملكتي؟».

فأجابت ووجهها يشرق بالسعادة: «سأفكر بالأمر بعين الرضا يا مليكي. إلا أنني أعتقد أن الوضع يبشر بالخير!».

في وقت متأخر من مساء ذلك اليوم تمكنا من الانسحاب من الحفل البهيج الذي أقيم في القصر، على شرف الملك الجديد.

«ماذا نفعل الآن؟ أنت صاحبة الحق الشرعي للملك في قطنا، أو بكرنا على الأقل. هنا، أنت أيضاً ملكة، ولكن عليك دائماً أن تمشي بفارق خطوة ورائي»، قال تالزو مازحاً، وأردف: «أخشى أن عليك الاختيار ثانية».

«لن أختار بعد الآن؟! في قطنا تصرف الشعب حسبما يليق بمدينة تجارية مرموقة، رغم أن قصرهم العزيز قد تحول إلى رماد. اختاروا الأفضل من صفوفهم ليكون حاكماً جديداً. لكنني سأكون سعيدة برؤيتهم جميعهم ثانية، وهذا الآن لحسن الحظ متاح، دون خوف ورعب ويأس. ولك يعود الفضل في ذلك يا حبيبي. كم أنا فخورة بك!».

شردت كيا برهة، مستغرقة في أفكارها.

«بماذا تفكرين؟».

«حلمت بأننا لن نساfer إلى قطنا فحسب، بل بأننا سنلتقي أيضاً بابني توت عنخ آتون. لكن هذا مجرد حلم لا أكثر، وليبق حلماً!».

عندما دخلت كيا في تلك الليلة إلى مخدع نومهما المشترك، وجدت بانتظارها غرفة أجمل من أي حلم، فقد كان المكان أشبه بجنان الفردوس، بإنارة ناعمة تشيعها بعض سرج الزيت، مضيئة الطريق إلى السرير، الذي كان مفروشاً بالكتان الأبيض الناعم، وقد أخذ يتلألأ في هذه الإنارة المنتشرة والمختلطة بعبق زهور مغرٍ. وكانت الوسائد محاطة بإكليل من الدفلى الحمراء بالتناوب مع الليلك والزعتر. لم يسبق لكيا أن رأت أجمل من سرير العرسان هذا.

آه يا ربتي، يا لها من هدية!

بعد كل أيام التيه واليأس، حين كانت تفكر بالموت أكثر من الحياة، أهدتها الربة أروع

رجل، وباركت حبّها: في سرير صغير مجاور كان ينام صبي ينشر الفرح بخديبه الورديين.
«تعالى»، قال لها تانوا «تعالى!».



أحد أقرب الناس إلى نوفرتيتي، وهو أبوها أيا، أدرك روح العصر مبكراً. فتقرب إلى رجال الكهنوت الأقوياء في طيبة، ونجح، مع إشارته إلى رغبته في تجنّب أي تمرد أو أعمال شغب لا طائل منها، بأن ينصّب تحت إشرافه وأثناء حكمه، حفيده توت عنخ آتون، ابن كيا، التي نسيها الجميع، فرعوناً على مصر العليا والسفلى وعلى بلاد كوش. وأنيطت الشؤون العسكرية بالقائد (حارنحَب). وآخر بنات إخناتون ونوفرتيتي، الناجية الوحيدة، (أنخ سنپا آتون)، صارت زوجة الطفل توت عنخ آتون الملكية، وهي أخته من أبيه.

تحت ضغط رجال كهنوت طيبة وبتأثير وليّ أمره أيا، غادر توت عنخ آتون بعد بضع سنين مدينة آخت آتون إلى ممفيس، التي باتت عاصمته الجديدة. كما عاد إلى الدين القديم وأعاد الأرباب الأولين، وسمّى نفسه منذئذ توت عنخ آمون، وزوجته أنخ سنپا آمون. فرضي الشعب.

لفترة محدودة من الزمن ساد السلام في العالم المعروف آنئذ. وذرت رمال الصحراء آثار إخناتون من آخت آتون. إلا أن بعض حبات الرمل من آخت آتون تغلغلت إلى نفس رجل يدعى موسى، فسقّ لنفسه طريقاً وعرّة خارجاً من مصر إلى أرض كنعان.

هل انتهت؟

بداية!

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf

خاتمة

تعتمد هذه الرواية على نتائج أعمال التنقيب الدولية في قطنا (سوريا). في عام 2002 اكتُشف في القصر الملكي هناك مدفن العائلات الملكية. بعيداً عن لصوص المقابر وجشع الأثاريين بقي المدفن وما يحتويه من لقي ناهزت الألفين، غير ملموس منذ دمار القصر نحو عام 1340 ق. م. يُعد اكتشاف المدفن حدثاً أثارياً مثيراً، لا سيّما على صعيد الكسب العلمي، الذي يجب أن يُذكر في وقتٍ واحد مع اكتشاف قبر توت عنخ آمون وقبور ملوك السكيتيين في جبال أكلطاي، ولفائف قمران. إضافة إلى ذلك اعتمد على تقارير أعمال تنقيب آثارية في حتوشا عاصمة الحثيين (تركيا) وفي آخت آتون/ تل العمارنة (مصر)، مقر حكم إخناتون، الذي أُخرج من تحت الرمال. إن اللقى الأثرية، وفي الدرجة الأولى الكتابات الشرقية القديمة، تقدّم كمّاً هائلاً من المعلومات بأشكال متنوعة: رسائل، كتابات تحمل صبغة سيرة ذاتية، حكايات، كتابات كهنوتية، إلى وثائق عادية من الحياة التجارية مثل (عقود الشراء، فواتير، لوائح طلبات). وهذه كلها تشكل القاعدة التاريخية لهذه الرواية. وهناك مصادر أولية صحيحة مثل نصوص الصلوات، ومقاطع من نشيد شمس إخناتون، وابتهالات وأدعية حثية، ورسائل - ولا سيّما من ذخيرة تل العمارنة الشهيرة -، وتقارير وكتابات أخرى، وحدث طريقها مترجمة إلى الرواية، وقد وضعتها بين «علامات ترقيم».

على الرغم من هذه الأسانيد التاريخية، فإن هذا الكتاب مليء بالخيال الأدبي الحر. إن الشخصيات الرئيسية مثل كيا مذكورة في الكتابات المصرية بصفقتها زوجة الفرعون الملكية، غير أن الجدل ما زال قائماً بين علماء الآثار والتاريخ حول ما إذا كانت أجنبية أم أنها من أحد فروع العائلة المالكة من الأسرة الثامنة عشرة. حتى الآن لا يوجد ما يدل على أنها من قطنا. كما أن رحلة إخناتون التفتيشية في شبابه وهو ولي عهد إلى الساحل

السوري، ليس ثمة ما يشبهها تاريخياً. وإذا كان مبدأ العمل الأول هو الالتزام ما أمكن بوثائق القرن الرابع عشر قبل الميلاد، كرسائل تل العمارنة الشهيرة، فقد استقيت أيضاً من تراث ثقافات أخرى، ولا سيّما ثقافات الساحل السوري. أما الباقي فهو من نتاج الخيال الحر.

عند كتابة التسميات الجغرافية مثل الأماكن والبلدان والأنهار والبحار والجبال وأسماء الأغراض والأشخاص أتبع الأسلوب العملي، وكان دليلي في ذلك الأسماء والتسميات المتداولة. وفي أحيان كثيرة كنت أعود إلى لغة المكان. وفي الشرق القديم سادت أنظمة تقاويم مختلفة (بداية السنة، ثلاثة أو أربعة فصول سنوياً، إلخ). فوحدتها في الرواية لتسهيل الاستخدام. وأبقيت على نظام مصر (ثلاثة فصول، يتألف كل منها من أربعة شهور ولكل شهر ثلاثون يوماً). وسوى ذلك استخدمت تسميات: موسم البذار، النضج، الحصاد، والشتاء يتألف من ثلاثة شهور، لكل منها ثلاثون يوماً. بداية السنة في وادي الرافدين والساحل السوري وحتّوشا تقع غالباً في الربيع، وفي مصر نحو منتصف شهر تموز/ يوليو. وقد تجنّبت التسميات الصعبة لفظاً وكذلك مقاييس المسافة والوزن والكيل ما أمكن.

ماريا كورانت

أسماء الأشخاص والأرباب

- كتبت الأسماء بالحروف اللاتينية أيضاً حسب لفظها في لغاتها الأصلية.
- كتبت الأسماء بالعربية مع التشكيل تسهيلاً للفظها على نحو صحيح.

Amunhuteb	أمونحوتب	Apta	أپتا
Aminaje	أمینایة	Apar Il	أپر إال
Amenuphis	أمینوفیس	Abi Milki	أبی میلکی
Anna	آنا	Attarsija	أتارسیا
Anch senpa Atun	أنخ سنپا أتون	Eheja	إحیا
Anitta	أنیتا	Echnaṭun	إخناتون
Ehli Nikalu	إهلی نیکالو	Artatamma	أرتاتما
Upija	أوییا	Arnuwanda	أرنواندا
Iana	إیانا	Areimene	أریمنه
Aitakamma	أیتاکما	Azzi Hiassa	أزی هیاسا
Idanda	إیداندا	Ishhara	إشهارا
Idrimi	یدریمی	Ašur Ubalit	أشور أوبالیت
Aja	أیا	Ishpalli	إشپالی
El	إیل	Akallina	أكالینا
Pama	پامپا	Akizzi	أكیزی
Baálum	بعلوم (بعل)	Akkija	أکیا
Beltum	بِلتوم	Allani	أللانی
Pentu	پنتو	Amelu	أملو

Zimrida	زيمزيدا	Burna Buriash	بورنا بورياش
Setepenri	ستينپيري	Pussur	پوسور
Srupsi	سروپسي	Biriawaza	بيرياوازا
Sin	سين	Pihunia	پيهونيا
Shaushaga	شاوشغا (عشتار)	Belet Ekallim	بيليت ايكاليم (عشتار)
Shala	شالا	Talzu	تالزو
Shangara	شنغرا	Tanuwa	تانوا
Shupiluliuma	شوپيلوليوما	Thutmus	تحتومس
Shumiri	شوميري	Telipinu	تليپينو
Ābdi Āshirt	عبدي عشيرتا	Tarhunna	ترهوننا
Āzira	عزيرا	Tarhunradu	ترهونرادو
Āshtar - Ishtar	عشتار - اِشتار	Tuwanuwa	توانوا
Gabulli	غابوللي	Tudhalija	تودھاليا
Gassu	غسو	Tudhepa	تودھيپا
Gula	غولا	Tushratta	توشراتا
Pharao	فرعون	Tut Anch Amun	توت عنخ آمون
Kali	كالي	Tutu	توتو
Kuware	كواري	Tuhitra	توهيترا
Kurunta	كورونتا	Tiru	تيرو
Kuzija	كوزيا	Teje	تيه
Kantuzilli	كنتوزيللي	Khons	خونس
Kija	كيا	Dunijo	دونيو
Kara Hardash	كرا حرداش	Rib Addi	ريب عدّي
Labarna	لابارنا	Zababa	زابابا
Luwaja	لوايا	Zamama	زاماما
Lupaki	لويپاكي	Zappali	زپالي
Luwani	لواني	Ziplantawi	زپلانتاوي

Malnigal	مَالْنِيغَال
Manchuef	مَانْخُوئْف
Merit Atun	مِرِيْتْ أَتُون
Merire	مِرِيرِه
Malmada	مَلْمَادَا
Mut	موت
Mitanamuwa	مِيْتَانَمُووَا
Minos	مِينوس
Naninzi	نَانِينْزِي
Nofretete	نُوفْرِتِيْتِي
Nofre Nofru re	نُفْرُ نُفْرُو رِع
Nuwanza	نُوَانْزَا
Niqmaddu	نِيْقْمَدُو
Himuili	هِيْمُوِيلِي
Iau	يَاو

أسماء البلدان والأنهار والشعوب وغيرها

وردت التسميات حسب لفظها في لغات بلدانها في القرن 14 ق. م.

Ugulzat	أوغلزات	Abasa	أبسا
Ahijawa	أهياوا	Achaija	أخايا
Ideqlat	إيدقلاط (دجلة)	Achet Atun	أخت آتون
Ishuwa	إيشوا	Adanija	أدانيا
Imar	إيمار	Arantu	أرانتو (العاصي)
Babili	بابلي (بابل)	Arzawa	أرزوا
Panku	بانكو (مجلس الشيوخ)	Irqata	إرقاتا
Pedassa	پداسا	Eritte	إريته
Pala	پلا	Arwada	أروادا
Puralija	پوراليا	Ašur	آشور
Puratu	پوراتو (الفرات)	Ashtata	أشتاتا
Purushchanda	پوروشخندا	Alalach	ألاخ أو موكيش
Puruna	پورونا	Alashija	ألاشيا
Biruta	بيروتا	Aribi	أربي
Tagasta	تاغاستا	Ikuwanija	إكوانيا
Tatta	تاتا	Ammuru	أمورو
Taru	تارو	Amanus	أمانوس
Tadmur	تدمر	Anzita	أنزيتا
Tarsha	ترشا	Ugarit	أوغاريت

Gazza	غَزَا	Tawannana	تَوَانَانَا
Qadesh	قَادِش	Tuwanuwa	تُوَانُوَا
Qatna	قَطْنَا (تل المشرقة)	Taurus	تَاوروس
Kupirijo	كُپِيرِيُو (قبرص)	Turmitta	تورميتا
Karzi	كارزي	Tippuwa	تِيپُوَا
Kastama	كستاما	Tiwatassa	تِيوَاتَسَا
Karkamish	كركميش	Hattusha	حَتُّوشَا
Krukus	كروكوس	Hetti	حَتِّي
Kashka	كشكيونكشكا	Haballa	حَبَلَا
Keftu	كَفْتُو (كريت)	Halpa	حَلْپَا (حلب)
Kammama	كَمَامَا	Hurriti	حورِي
Kanaān	كنعان	Gubla	جُبَلَا (جبيل)
Knosos	كنوسس	Gibula	جِبُولَا (جبلة)
Kuwalija	كواليا	Dimashqa	دِمَشَقَا
Kussura	كوسورا	Rabisu	رابيسو
Kush	كوش	Zalpa	زَالْيَا
Kidnos	كيدنوس	Zinzar	زِينزَار
Kizuwatna	كيزُوَاتْنَا	Samra	سَامْرَا
Kilammar	كِيَلَمَار	Samuha	سَامُوَحَا
Lawazantija	لَوَازَنْتِيَا	Sarissa	سَارِيَسَا
Luwi	لُووي (اللوقية)	Sur	سور (صور)
Mala	مَالَا (الفرات - بالحتىّة)	Sumura	سومورا (تل كزل)
Malidija	ماليديا	Sidunu	سِيدُونُو (صيدا)
Misir	مِصْر (كِمِت)	Sirissa	سِيرِيَسَا
Marasanta	مَرَسَنْتَا	Terqa	طِرْقَا
Mycenai	مِيسِينَا	Thebai	طِيْبِيَا (واسط)
Megiddu	مِغِيدُو	Gezer	عِزْر

Mukish	موكيش
Mittani	ميتاني
Milawanda	ميلاواندا
Habantali	هَبَانْتَالِي
Hursama	هورساما
Himuwa	هيمووا
Nablini	نابليني
Nai Ti	ناي تي
Nerika	نيريكَا
Nesa	نِسا
Nen Nesu	نِن نِسو
Nuhasse	نوحاسه
Nashala	نَشَلَا
Nija	نِيا
Nil (Îtru)	نِيل
Nenassa	نِيناسا
Wanax	وانكس
Washukani	واشوكاني

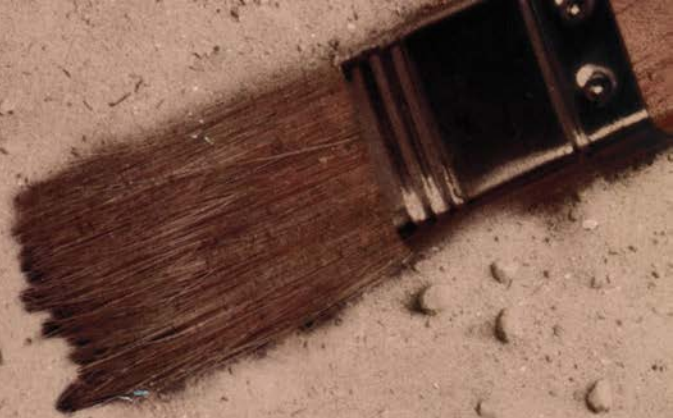
المترجم

نبيل الحفار، من مواليد دمشق - سورية 1945. بعد حصوله على الثانوية العامة 1964 درس الأدب الألماني في جامعة لايبزيغ حتى حصل على الدبلوم 1971، ثم تابع دراسته بعد انقطاع سنوات حتى حصل على الدكتوراه في الفنون المسرحية من جامعة هومبولت في برلين 1989.

كان رئيس قسم الدراسات المسرحية في المعهد العالي للفنون المسرحية في دمشق، ورئيس تحرير مجلة «الحياة المسرحية»، ورئيس لجنة تحكيم مسابقة سامي الدروبي للترجمة في الهيئة العامة السورية للكتاب، وأمين تحرير مجلة «الأدب الأجنبية» الصادرة عن اتحاد الكتاب العرب في دمشق، ورئيس قسم اللغات والأدب الأجنبية في هيئة الموسوعة العربية في دمشق.

نشر كثيراً من المقالات والبحوث في المسرح والأدب، وترجم العديد من الأعمال المسرحية والروائية والنظرية من الألمانية، داخل سورية وخارجها.

حاز عام 1983 على «جائزة الأخوين غريم للترجمة» من وزارة الثقافة الألمانية، وعلى «جائزة غوته للترجمة» على مستوى البلاد العربية عام 2010، وعلى «جائزة الدولة التقديرية في مجال الترجمة والمسرح» عام 2014.



كانت مملكة قطنًا، الممتدة على أراضي سوريا الطبيعية في الألف الثانية قبل الميلاد، دولة مزدهرة حضارياً وأحد أهم المراكز التجارية في العالم القديم، فباتت بالتالي بؤرة أطماع الحضارات المجاورة في الأناضول وما بين النهرين ووادي النيل.

تتحالف المملكة مع القوة الفرعونية العظمى في ذلك الوقت، وترسل أميرتها «كيا» زوجةً ثانية لوريث عرش مصر «إخناتون»، أول الموحدين، والذي سيبلبل عقل «كيا» ويفرس فيه بذور الشك في الآلهة التي تعبدها، فتدخل في دوامة من الأسئلة الكبيرة، وفي دوامة أخرى من الدسائس الداخلية التي تحيكها «نوفرتيتي»، الزوجة الأولى للفرعون، لتحافظ على مكانتها.

ومن خلال قصة أميرة قطنًا «كيا» والنبوءة الغامضة التي تراها، تضيء الكاتبة على أحداث ذلك العصر المضطرب، المشحون بالدسائس الداخلية والخارجية والحروب الاقتصادية التوسعية.

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf

ISBN 978-9953-583-88-4



9 789953 583884 >



دار مسرّوح عدوان للنشر والتوزيع



إطلس